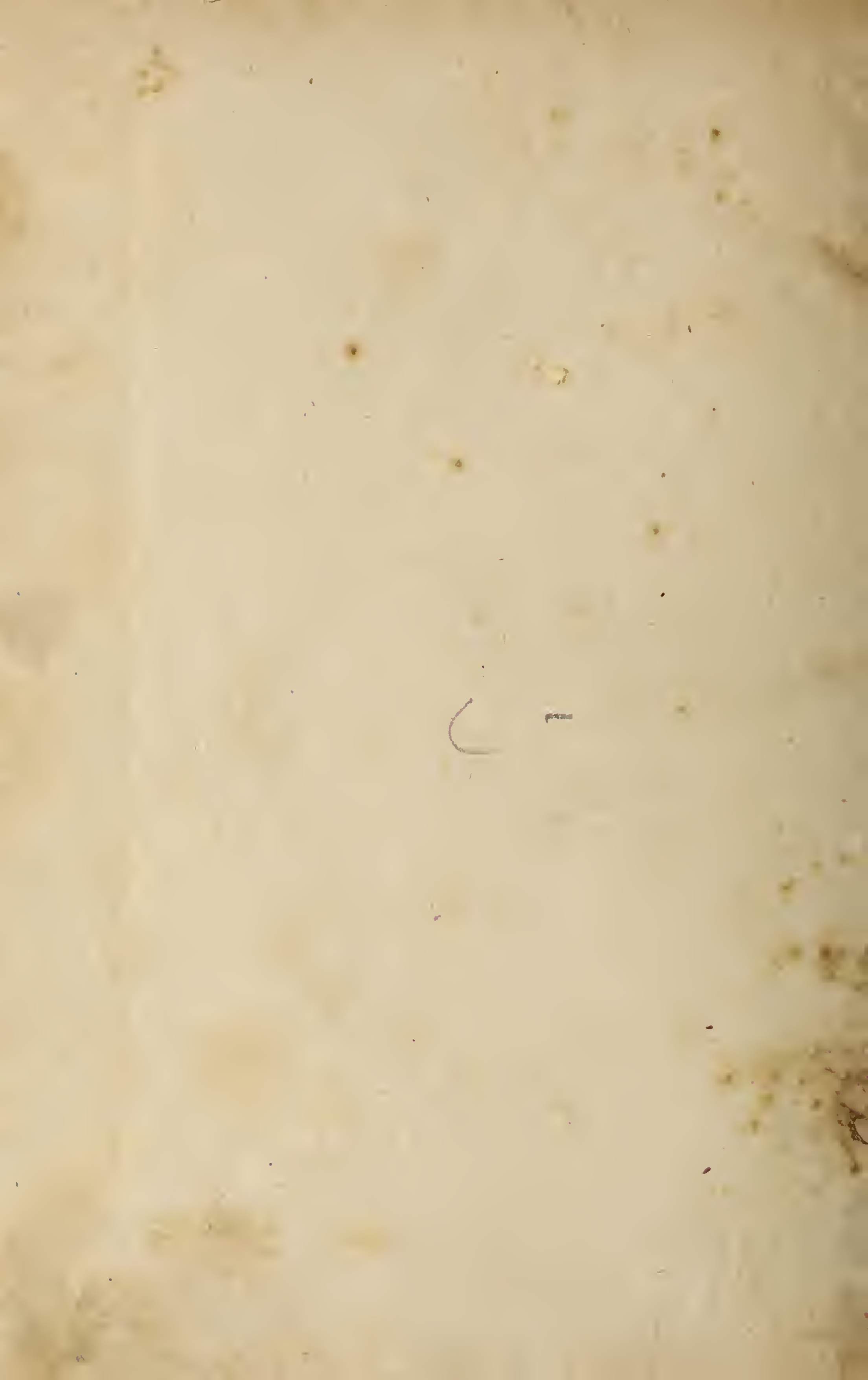
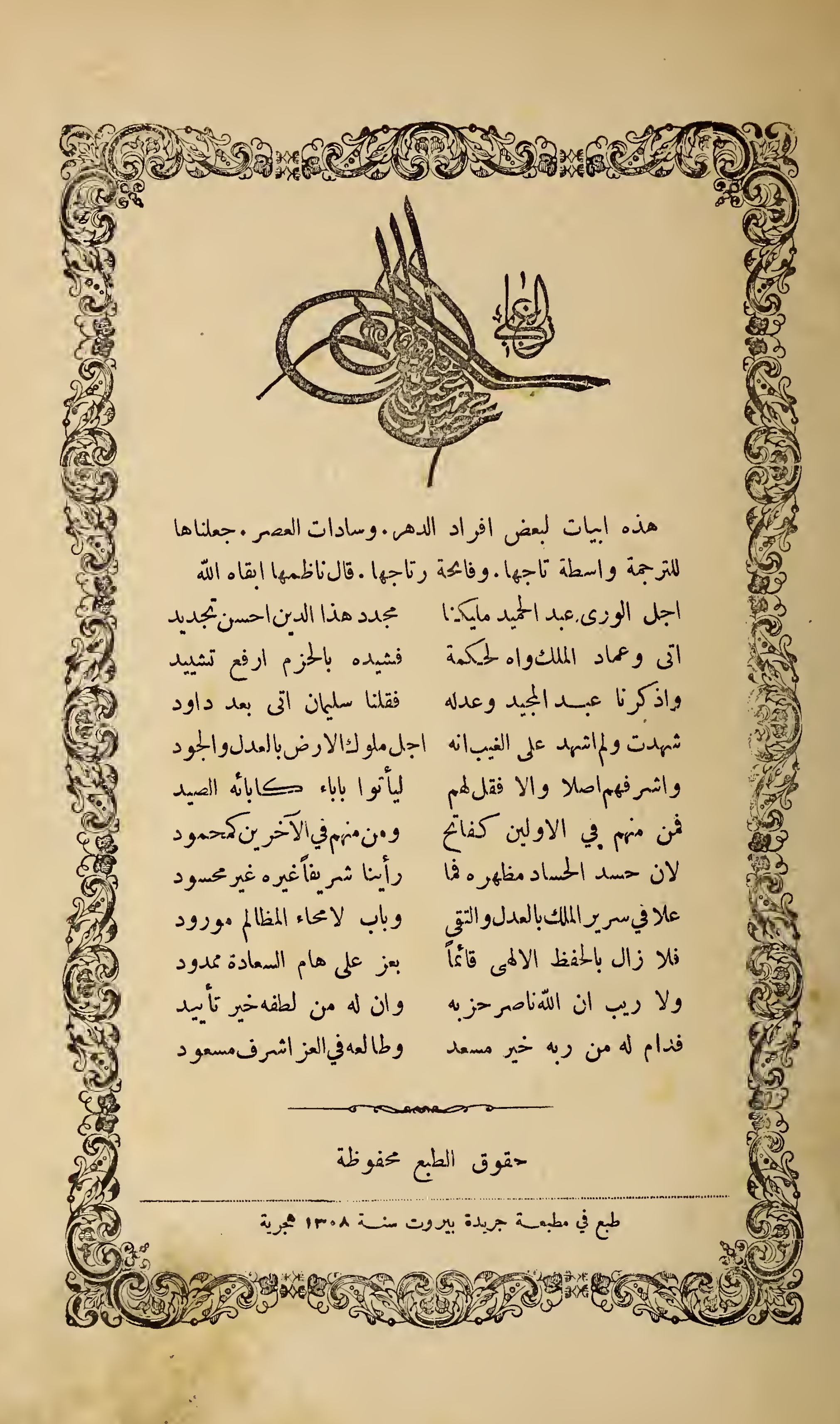










هذه ابيات لبعض افراد الدهر. وسادات العصر. جعلناها للترجمة واسطة تاجها. وفاتحة رتاجها. قال ناظمها ابقاه الله

اجل الورى عبد الحميد مليكنا	مجدد هذا الدين احسن تجديد
اتى وعماد الملك واه لحكمة	فشيده بالحزم ارفع تشييد
واذكرنا عبد المجيد وعدله	فقلنا سليمان اتى بعد داود
شهدت ولم اشهد على الغيب انه	اجل ملوك الارض بالعدل والجود
واشرفهم اصلا والا فقل لهم	ليأتوا باباء كابائه الصيد
فمن منهم في الاولين كفاتح	ومن منهم في الآخرين كمحمود
لان حسد الحساد مظهره فما	رأينا شريفاً غيره غير محسود
علا في سرير الملك بالعدل والتقى	وباب لامحاء المظالم مورود
فلا زال بالحفظ الالهى قائماً	بعز على هام السعادة ممدود
ولا ريب ان الله ناصر حزبه	وان له من لطفه خير تأييد
فدام له من ربه خير مسعد	وطالعه في العز اشرف مسعود

طبع في مطبعة جريدة بيروت سنة ١٣٠٨ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من اتقن العوالم بحكمته • وابرزها بقدرته على وفق مشيئته • وجعل فى طوارق الحدثان اعظم تذكره • واودع فى الآثار والاخبار ابلغ عبرة وتبصره • والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الاعظم سيدنا محمد الذى تتعطر باخباره مشام الارواح • ويحيا بذكر سيرته النبوية رميم الاشباح • وعلى آله واصحابه الذين هم خير الناس بعده • واقرب المقربين عنده • وبعد فيقول فقير رحمة ربه • عبد القادر بن مصطفى الدنا البيروتى لما حظيت سورية بحضرة المرحوم الحاج ناشد باشا وجاءها والياً عليها ايام كونها مع بيروت ايالة واحده • وولاية احكامها متحده. كنت ممن اجتذبهم بعواطفه • وقادهم بازمّة عوارفه • وعندما يأتى الى بيروت كنت اتردّد بامره المطاع الى مجلسه الشريف فنجتلى فى حضرته انوار المذاكره • ونجتنى نوار المحاضره • وفى بعض الليالى جرى ذكر تاريخ حضرة الوزير الشهير العلاّمة دولتلو جودت باشا وما نظم فى سلكه من الفرائد • واودع صفحاته من الفوائد • وفى اثناء ذلك اشار رحمه الله الى شدة رغبته فى ترجمته باللغة العربية لتكون منافعه عامه • وافاداته تشترك فيها الخاصة والعامه • فتجاسرت بين يديه • ووعدت بامتثال امره فيما اشار اليه • والقيام بما كان يتمناه ويرغب فيه • فارتاح لذلك

طاب ثراه. وانشرح صدره لهذا العمل الموعود به على حسب مبتغاه.

وهذا التاريخ كما لا يخفى على من طالعه قد اشتمل على الكثير من وقائع الزمان. والجم الوافر من الحوادث التى دار بها الدوران. فهو جدير بان تجتنى اثماره. وتقتبس فى مجامع الادباء انواره

ومن اجلّ ما اشتمل عليه اخبار الدولة العلية العثمانيه. وما لها من المآثر السنيةِ الخسروانيه. والسِيَر الحميده. والمبرات العديده. وما تجشمته من الحروب الهائلة الجسيمه. وما نالته بقوتها من الفتوحات الباهرة العظيمه. والانتصار الخارق للعادات والتأييد الالهى الذى سار ذكره فى سائر الاقطار والجهات الى غير ذلك مما تطرب بسماعه النفوس. وتزدهى بكتابه الطروس

ولاشك ان حوادث القرون الاخيره. حرية بالمطالعة جديره. وذلك لتشوف الافكار عادة وطبعاً الى استكشاف الامور. واستفسار ماكان حديث عهد فى الاقاليم والاقطار

وفى سنة ١٣٠٥ هجرية شرعت. فيما به وعدت. وندبت لذلك بعض المترجمين. ممن لهم معرفة باللسانين. وبعد ان طالعت ما ترجموه. وامعنت النظر فيما كتبوه. وجدت كلاً منهم حاد عن المراد. وكتب كما اراد. وبناء عليه اوقفت العمل. واخرته الى اجل. وفى اثناء ذلك دُعيت الى دار السعادة بارادة سلطانيه. للقيام بخدمة سياسيه. وفى مدّة اقامتى هناك قابلت ماكان ترجم بالاصل. فاصلحت منه ما اختل. وصححت من عباراته ما اعتل. وبعد ان أبتُ الى الوطن. بعد

برهة من الزمن . تجدد الباعث فشرعت فى تتميم ما عليه عزمت .
وتوليت امر الترجمة بنفسى مع علمى بقصر باعى فى هذه الصناعه .
واستمحت فى ذلك معونة جماعة من الفضلاء الاجلاء العالمين باساليب
الترجمة ثم طرأ ما عاقنى عن الاتمام . ومنعنى من الوصول الى نهاية
المرام . فبقى ما ترجمناه زماناً وهو متوار . وزنده غير وار . ولما زال
ذلك المانع . رجعت الى ما كنت بصدده فى أيمن وقت واسعد طالع .
وصرفت الوسع فى مناظرة الاصل على رتبة المقابله . ووازنته بمعيار
الموازنة والمماثله . واستعملت العبارات الاصطلاحيه . والالفاظ المألوفة
العاديه . لتعم فائدته . وتشمل عموم الناس عائدته

ولما انتهيت فى الترجمة الى آخر الجزء الاول طبعته . بعد ان هذبته
وصححته . فظهر بفضله تعالى للعيان على مثال اصله فى اسلوب بهىّ .
وترتيب بالقبول حرىّ

فارجو ممن وقف عليه من اهل هذا الشان . وفرسان هذا
الميدان . ان يبسطوا الىّ فى ذلك عذرا . ويسبلوا على ما فيه من القصور
سترا . وليعلموا اننى لم اتجشم هذا الامر الخطير الا رغبة فى خدمة
هذا التاريخ المطرزة بروده باخبار السلاطين العظام . والخواقين
الفخام . ساداتنا وموالينا آل عثمان . اسكنهم الله فراديس الجنان .
واظهاراً لصدق عبوديتى واخلاصى لولى نعمتى ونعمة جميع العثمانيين
العائشين فى ظل حمايته وبحبوحة امنه ورعايته حضرة خلفهم السعيد
ووارثهم الوحيد سيدنا ومولانا امير المؤمنين صاحب الخلافة العظمى

والسلطنة الكبرى السلطان بن السلطان السلطان الغازى عبد الحميد خان
ابن السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان الذى
هو واسطة عقدهم . ورافع راية مجدهم ووارث عظيم سؤددهم .
نسأله تعالى ان يمده بالتمكين والنصر . ويجعل ذاته الشريفة فوق كل
ذات وعصره فوق كل عصر . وان يمتع المسلمين وسائر العثمانيين بطول
بقائه . ودوام اعتلائه . ما طلع نهار . وسار فى مناكب الارض سار .
آمين

ترجمة حال حضرة صاحب الدولة جودت باشا
مصنف هذا التاريخ النفيس

هو حضرة الوزير الخطير سائر الذكر وافر الفخر العلامة دولتلو احمد جودت باشا بن اسماعيل بن على بن احمد بن اسماعيل ولد ابقاه الله فى قصبة لوفجه من ولاية الطونة وكان والده من وجوه بلدته ومن اعضاء المجلس فيها وكان جده الاعلى اسماعيل مفتياً فى وقته بها

اخذ دام عزه العلوم فى عنفوان عمره عن علماء بلده وفى ايام سلطنة حضرة السلطان محمود خان جاء الى دار السعادة وتلقى عن علمائها علوماً جمة منها الفقه واصوله والحديث والتفسير وعلم الكلام والمنطق وعلوم الحكمة واللسان الفارسى وألَّفَ تآليف كثيرة وقال الشعر بالالسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية ومن تاليفه هذا التاريخ الجليل الذى لامحالة انه يتأيد به فخره . ويتخلد بما اشتمل عليه من الفوائد ذكره

وكتب فى عنفوان شبابه تعليقات مفيدة على شافية ابن الحاجب يستخرج من خاتمتها تاريخ ولادته

ودخل فى سلك القضاء بالامتحان وفى سنة ١٢٦٠ تولى منصبه وفى ٦١ توجهت عليه رتبة رؤس تدريس

وفى سنة ٦٦ عين عضواً فى مجلس المعارف العمومية واحسن اليه بالنشان العالى المرصع من الرتبة الثالثة ثم اضيفت الى منصبه رئاسة دار المعلمين فنظم احوالها وقام بما يشترط على الطلبة فيها ورتب جداول دروسها .

وفى سنة ٦٧ انتخب وعين عضواً فى مجلس المعارف الداخلى الجديد وفى سنة ٧١ قلد كتابة وقائع البلاد

وفى سنة ٧٢ ولى القضاء بغلطه وفى اوائل سنة ٧٣ توجهت عليه باية مكة المكرمة وفى اواسطها عين عضواً فى مجلس التنظيمات العالى . ثم صار رئيساً لقوميسيون الاراضى الذى انعقد لاجل تنظيم قوانين الاراضى ونظاماتها وكان وقتئذ شروانى زاده رشدى باشا احد المدرسين من اعضاء هذا القوميسيون المذكور المنعقد لاجل تنظيم قانون الاراضى وكان اكثر ما فيها من المسائل مع النظامات السارة المندرجة فى الدستور بقلم صاحب الترجمة

وعندما توجه الصدر الاعظم محمد باشا القبرسلى للروم ايلى لاجل مناظرة تلك الجهات كان فى معيته وبعد رجوعه توجهت عليه باية استانبول وذلك فى سنة ٧٧ وفى اثر ذلك احسن اليه بالنشان المجيدى من الرتبة الثانية وفى محرم سنة ٧٨ تقرر الغاء مجلس التنظيمات واحيلت وظائفه لمجلس الاحكام العدلية العالى وعين صاحب الترجمة عضواً فى هذا المجلس وفى تلك الايام ظهر اختلال وتشويش فى اشقودره فأمر بالتوجه اليها بمأمورية فوق العادة وبعد ان اصلح فى مدة قليلة خللها

وازاح عللها رجع

وفى اواخر سنة ٧٩ عين مفتشاً فى بوسنه وهرسك وفى اوائل سنة ٨٠ قبل سفره توجهت عليه باية قاضى عسكر الاناطولى واحسن اليه بالنشان المجيدى من الرتبة الاولى

ثم سافر واقام هناك نحو السنة ونصف اجرى فيها ما امر به على احسن وجه واكمله ووفق لتنظيم العسكرية فى تلك القطعتين ومهد امورهما بعد ان كانتا خاليتين من العسكرية مدة اربعين سنة ولاجرآءته الحسنة احسن اليه بالنشان العثمانى من الرتبة الثانية وهو اول نيشان عثمانى اعطى لاصحاب السلك العلمى فلم يكن وقتئذ احد من العلماء حائزاً عليه وبعد ما عاد لدار السعادة احسن اليه ببارودة من بواريد الششخنه التى اعطيت للعسكر الذى نظم فى بوسنه وهرسك وكانت هذه البارودة المنعم بها عليه منقوشاً عليها هذه الكلمات وهى (تقدير وتذكار من طرف العسكرية للهمة التى بذلها حضرة جودت افندى من الصدور العظام بحق نيل اهالى بوسنه الشجعان للخدمة العسكرية)

وفى اواخر سنة ٨١ توجه لاسكندرونه مع الفرقة الاصلاحية مأموراً لاصلاح ما وقع من الخلل فى قوزان وكان رئيس الفرقة المذكورة درويش باشا مشير المعسكر الهمايونى الرابع فتوجها معاً وبعد ان اصلحا الخلل الواقع وضبطا امور جبال القوزان وجبل بركت عادا الى دار السعادة

وفى الخامس عشر من شهر جمادى الثانية سنة ٨٢ عين مأموراً لاعضوية خزانة المجلس العالى وفى الخامس والعشرين من شهر شعبان من تلك السنة جرى تبديل سلكه من العلمية الى الملكية وتحولت رتبة قاضى عسكر الى الوزارة وجرى ضم اياالتى حلب واطنه مع الوية القوزان ومرعش واورفه والزور وصارت كلها ولاية واحدة جسيمة واحيلت الى عهدته فحضر الى حلب حاضرة الولاية واقام بها نحو سنتين

وفى شهر ذى القعدة سنة ٨٤ لما انقسم مجلس احكام العدلية العالى الى قسمتين واودعتا الى هيئتين بعنوان شوراى دولت وديوان احكام العدلية وُلّى رئاسة ديوان احكام العدلية ثم بعده احيلت هذه الرياسة الى اسم نظارة الديوان ثم الى نظارة العدلية

وبينما كان مشغولاً بتنظيم امور العدلية صدر الامر بانعقاد جمعية علمية تحت رئاسته لاجل تاليف كتاب فى الفتاوى على مذهب الامام الاعظم ابى حنيفة النعمان رضى الله عنه فالفت هذه الجمعية مجلة الاحكام المعمول بها الآن فى المحاكم الشرعية والنظامية

وفى المحرم سنة ٨٧ انفصل واقبل على المطالعة والتأليف

وفى سنة ٨٩ عين والياً على ولاية مرعش وكانت تشكلت وقتئذ وبعد ان وصل اليها واقام فيها ١٨ يوماً دُعِى الى دار السعادة وفى آخر السنة المذكورة ولى نظارة الاوقاف الهمايونية

وفى اوائل سنة ٩٠ ولى نظارة المعارف العمومية فرتب جداول دروس

المكاتب العمومية وانشئت فى ايامه عدة مكاتب بعنوان المكاتب الابتدائية

وفى اوائل سنة ٩١ نظراً لانحراف صحة دولتلو كامل باشا رئيس شورى الدولة تعين للقيام بوظيفة الرئيس المشار اليه بعنوان معاون وفى شهر رمضان من هذه السنة توجهت عليه ولاية يانيه

وفى اواسط سنة ٩٢ دعى الى دار السعادة وولى نظارة المعارف العمومية وفى اواخر السنة المذكورة توجهث عليه نظارة العدلية الجليلة

وفى اوائل سنة ٩٣ تعين مفتشاً للروم ايلى وتوجه ليها على طريق ادرنه وفلبّه الى صوفيا ثم رجع وتعين والياً على سواريا وقبل ان يخرج اليها عدل به عنها وولى نظارة المعارف العمومية

وفى شهر رمضان من سنة ٩٣ ولى نظارة العدلية وفى اوائل سنة ٩٤ ولى نظارة الداخلية . وفى ايامه نظم سجل الاخلاق فى دائرة هذه النظارة وبوشر بقيد ترجمة احوال مأمورى الملكية وفى اواخر هذه السنة نقل الى نظارة الاوقاف الهمايونية وفى اوائل سنة ٩٥ توجهت عليه ولاية سوريه الجليلة

وبعد حضوره اليها واقامته فيها مدة قليلة ظهر اختلال فى احوال قوزان فتعين لاصلاحه وتوجه الى هناك من سوريه واعاد الراحة فى تلك الجهات وفى اثناء عودته انفصل عن سوريه وعقيب ذلك توجهت عليه نظارة التجارة والزراعة وباشرها بعد ان عاد الى

دار السعادة

وعندما استعفى خير الدين باشا من مسند الصدارة فى سنة ٩٦ اقيم فى موضعه بالوكالة وقام بشؤنها نحو عشرة ايام ثم توجهت لعهدته نظارة العدلية فى اواخر السنة المذكورة

وفى سنة ١٣٠٠ انفصل عنها وذلك عند تغيير الوكلاء واقام بمنزله عاكفاً على المطالعة والتأليف

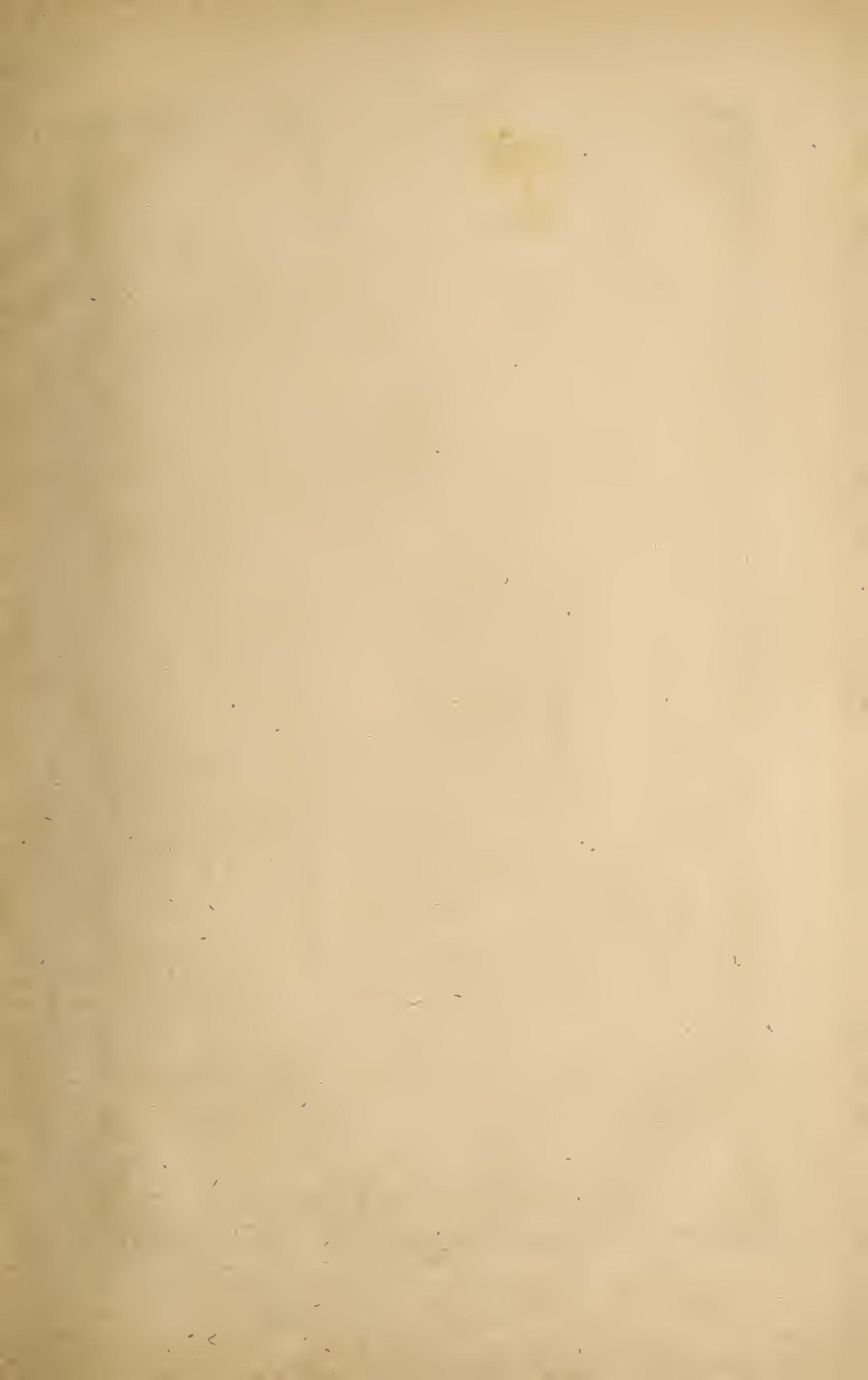
وفى اوائل سنة ١٣٠٣ تعين مأموراً لقوميسيرية الروم ايلى الشرقى وقبل سفره اظلم جو السياسة بين الدول فيما يتعلق بالبلغار وبناء على ذلك تأخر سفره وفى شهر رمضان من تلك السنة ولى نظارة العدلية الجليلة

وفى شهر صفر من سنة ١٣٠٤ انعم عليه حضرة مولانا السلطان الاعظم تلطيفاً له بنشان الامتياز

وفى اواخر سنة ١٣٠٥ انفصل عن نظارة العدلية وبقى من اعضاء مجلس الوكلاء الخاص الى الان ملحوظاً بعين رعاية مولانا امير المؤمنين وخليفة رب العالمين السلطان الغازى عبد الحميد خان خلد الله سرير سلطنته مدى الدوران آمين

فهرست ترجمة التاريخ

نمره





تاريخ جودت

ترجمه صاحب السعادة عبد القادر افندي الدنا
رئيس محكمة تجارة بيروت

برخصة نظارة المعارف الجليلة

المجلد الاول

طبع في مطبعة جريدة بيروت سنة ١٣٠٨ هجرية



الجزء الاول من تاريخ

جودت

الحمد لله خالق المكان والزمان . الذي تنزه وتعالى شانه عن المشابهة والمماثلة والنقصان . خلق العالم الاكبر ثم اظهر منه نسخة الانسان . فاوجده على هيئة رسمه . ثم وسمه بوسمه . وطوى الاكبر في الاصغر . فاندمج فيه اندماجا بهر العقول وحير . وجعله جامعاً لحميد الخصائل . ممتازاً بكمال الفواضل والفضائل

احمده حمداً لا يأتي عليه العد والاحصاء . واشكره شكراً لا غاية لاستيعابه ولا انتهاء . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له رب اودع في العالم الانساني اسرار ربوبيته . واظهر فيه ومنه بعظيم قدرته خبايا مشيئته . وقبل ان يعرفه بفضله . ويطلعه على ما خلقه لاجله . نادى منادى التنويه والتشريف . في مقام التنبيه والتعريف . اني جاعل في الارض خليفة

في الحكم والتصريف . فاظهر الملأ الاعلى الانكار . وقالوا اين ثرى عالم الظلمة من ثريا عالم الانوار . فلاح له حينئذ نور العناية من تلقاء مكتب التعليم وعلم آدم الاسماء كلها . مجملها ومفصلها . ثم ازداد في الترقى حتى احرز قصب السبق في ميدان الامتحان . والبس من لدن الملك الديان خلعة الاصطفاء بيد الفضل والامتنان . وعلم اخبار المتقدمين . وحوادث المتأخرين

واشهد ان سيدنا محمداً عبده المحض . ورسوله الى اهل السماء والارض . واهدى تحائف الصلوات . وطرائف التسليمات . الى روضته الزاهره . وتربته الطيبة الطاهره . فهو فخر الاولين والاخرين . المحكوم له بالتقدم بتوقيع (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) النبي الامين . الذي جاء بالصدق وحق اليقين . وارشد الخلق بشرعه القويم المبين . الى ما فيه سعادتهم في الدارين . وذكرهم بامر الله فيهم . اذ اخرجهم كالذر من ظهر ابيهم آدم وخاطبهم بخطابه المستطاب . على ما سبق في ام الكتاب . (الست بربكم) فلم يسعهم الا الاقرار والايجاب . ولقد اوصل صلى الله عليه وسلم خواص المؤمنين . الى مقام المعرفة الكاملة وكشف اليقين . واتحفهم بما ارضاهم وقرّ اعينهم فكانوا لربهم وله من الشاكرين

ثم الرضى عن آله واصحابه وعترته . وانصاره وسائر اهل محبته . الذين كانت اطوارهم الحسنة وسيرهم المستحسنة . انموذجا لتابعيهم . وتابعى تابعيهم . وهكذا الى يوم الدين . وكانت اخبارهم واحاديثهم منتجع الطالبين . وبغية الراغبين . تنشرح عند سماعها الصدور . وتبتهج بتدوينها السطور

اما بعد فيقول الفقير . الى عفو مولاه القدير . (احمد جودت) المعترف بالعجز والتقصير . ان من احسن ما يرويه الخلف عن السلف . وافضل ما يهتم اللبيب في تحصيله من اسباب الرفعة والشرف . فن التاريخ فانه من الفنون العلميه . التى لا زالت ولا تزال الحاجة اليها ضروريه . وذلك لانه اعظم وسيلة الى الذكرى . واكبر دليل الى العبرة سراً وجهرا . وبه تعرف حوادث الايام الخالية . واخبار الامم السالفة الماضية . وبه تميز المراتب والمقامات . ويعلم تفاوت الناس في المزايا ومحاسن الصفات . ولهذا كان أهل الفضل في كل عصر يعتنون بتدوين السير والاخبار . وضبط ما يطرق من

حوادث الليل والنهار . بل كل امة تسعى جهدها . وتبذل من همتها ما عندها في الحصول على ما يخلد في الصحف ذكراً جميلا . وما تستحق به وعليه في العالم شكراً جزيلا . وهكذا كان رجال الدولة العليه . يضبطون وقائعها واحكامها وسائر اجراءاتها المرعيه . ويقيدونها على التوالي منذ ابتداء ظهورها . وانبعاث اشعة نورها . الى سنة ١١٨٨ ثم حالت دون تنقيحها ونشرها موانع كثيره . وعوائق اثيره . فوضع الدهر عليها يد الامهال . وما حدث بعدها من الوقائع ونقلته الجرائد فانه طرح من غير تلخيص في زوايا الاهمال

ثم لما ظهر مَجْلَى الكمال والعدل . والرحمة والفضل . حسنة الزمان . واسكندر الاوان . ومحيي سنة اسلافه من آل عثمان . صاحب الخلافة العظمى . والملك الباهر الاسمى . السلطان بن السلطان . السلطان الغازي عبد الحميد خان . أيده الله اطلع على ما ذكرناه من الاهمال والتقاعس عن الاعتناء بما هو زينة للمُلك وكمال . وانفس ما اعتنى به افاضل الرجال . فصرف نظره العالي الى احياء ذلك الفن النفيس الدارس . وغيره من العلوم التى هى جمال المدارس والدارس . وبذل عنايته السلطانية من يوم جلوسه السعيد . الذي هو عندنا اكبر موسم واعظم عيد . في تأسيس اركانها . وتشييد بنيانها . فظهر في ايامه ما كان منها مستتراً تحت غيوم النسيان . وبرز من انواعها ما كان مختفياً عن العيان . فاصبح عصره الميمون يفاخر الاعصار . بما تتباهى به الممالك المحروسة على سواها من الممالك في الآفاق والاقطار . وبناء على اوامره المطاعه . وتكاليفه الهينة المستطاعه . جرت المذاكرة مرات في مجلس المعارف في ضبط الوقائع متصلا ذلك من تاريخ سنة ١١٨٨ الى سنة ١٢٤١ وهى السنة التى وقعت فيها الواقعة الخيرية (اي ازالة سطوة الانكشاريه) وجددت الدولة فيها قواعدها الاصلية والفرعيه . فوقع الاتفاق على اثبات هذه القضيه . وصدرت بامضائها واجرائها الارادة السنيه . مع ملاحظة ان يكون هذا الامر مرتباً على وجه حسن يحيا به ما اندرس من مناقب السلف . وبدائعهم الباهرة لعقول الخلف . الداعية لحسن الاصغاء والى ما يليق لمقامه العالي من صالح الدعاء

ثم انيط هذا الامر بي مع انى لست اهلا لذلك . ولا ممن تحدثه نفسه

بسلوك هذه المسالك . وحيث اني كنت من اعضاء ذلك المجلس الموقر
رايت من الواجب علي اظهار خالص الدعاء . واداء الشكر وجميل الثناء . على
هذه النعمة السلطانية التي لا اقدر ان اقوم بشكرها . ولا ازال في طيب ذكرها .
فبادرت الى بذل الوسع في هذا الشان واستعمال الهمة فيه على حسب
الامكان . امتثالا لاشارة من افتخر بانتسابي الى بابه . وتعلقي باسبابه . واناخة
مطايا آمالي ببابه . الذى ساحته محط رحال المعارف . وماوى خزينة التليد منها
والطارف . ومركز الوزارة العظمى . معدل مدار الامن والعدل في المقام السلطاني
الاحمى . حلال مشكلات الانام . كشاف معضلات الاحكام والمهام . الوزير الاكبر .
الآصفي الاشهر . ارسطاطاليس الحكم وتدبير الامم الصدر الاسبق المتصف
بصفات السعادة الابديه . مولى العز والابتهاج الان لمقام النظارة الخارجيه .
رشيد باشا . يسر الله له ما شا . ولشدة ميله وحرصه على نشر المعارف وبثها
شوقني والح علي في المبادرة الى ما ندبني اهل المجلس اليه . وعولوا علي فيه .
فعند ذلك اجبت . والى الشروع فيه عجلت . متوكلا على الله تعالى في تيسير ما
اليه قصدت . وانجاز ما به وعدت . وابتدأت كتابة الاخبار وجمعها مع الضبط
والتنقيح من سنة ١١٨٨ الى سنة ١٢٤١ وقد وافق شروعي في العمل
اوائل سنة ١٢٧٠ واني اسأل الله عز شأنه ان يطيل عمر صاحب
الخلافة امير المؤمنين مؤيداً بالسطوة والشوكة والاجلال .
وقهر الاعداء في كل آن وحال . فيفتخر باثاره الجديدة
الجليلة اهل الفضل والكمال . ويتخذونها طيب مجامعهم
بالغدوّ والآصال . آمين
وهذا دعاء لا يردّ لانه دعاء الى كل البرية شاملُ

ذكر مآخذ هذا التاريخ

كان في كل عصر يعين مأمور من ذوي المعارف لضبط الوقائع ولحد
سنة الف كان يدعى هذا المأمور (شهنامه جى) ثم بعد ذلك صار يدعى
(وقعه نويس) اي كاتب الوقائع فلذلك كانت وقائع الدولة تضبط متواصلة

بالتسلسل الى تلك العصور في صحائف الايام وتحفظ في اذهان الانام

وكان من الاداب القديمة في الدولة العلية ان كتاب الوقائع يضبطون الوقائع يوماً ويقيدونها في جرائدهم واحياناً ينقلونها من المسودة الى المبيضة ويقدمونها الى المقام الاسمى اما جرائد الضبط التى لم يقدروا على تبييضها فكانت تسلم الى الخلف وهم يبيضونها

ولا يخفى انه يعسر على المؤرخ ان يكتب تاريخ عصره موافقاً للحقيقة وخالياً عن الاغراض . وكان كتاب الوقائع افرطوا في الخلوص وتغالوا في تواريخهم بالفاظ التملق فلذلك كان وضع ما ضبطوه في صورة صحيحة يحتاج الى تنقيحات وتعديلات كلية

(تحفة الكبار) هى من آثار الكاتب چلبى المشهورة التى تستغنى عن التعريف

(رسالة قوچى بك) وهو كوريچه لى بك احد اصحاب المعارف تحتوي على عدة تقارير قدمها الى السلطان مراد الرابع

قال شانى زاده عند ما ذكر اسباب هزيمة الجنود ان قوچى بك الكوريچوى اوضح هذا الامر لحضرة السلطان مراد الرابع اسكنه الله الجنة واطلعه على حقيقته من غير تلبيس ولا مداهنة بوجه ينطبق على آدب العقلاء كما هى ثم قال والحق يقال ان هذه الرسالة تفضل رسالة ابي النجيب وتفوق عليها

(حديقة الوزراء) و(دوحة المشايخ) و(سفينة الرؤساء) وما يتبعها من الذيول لا تحتاج الى التعريف لشهرتها

(مقدمة قوانين التشريفات) وهى رسالة لنائلى عبد الله باشا جعلها شرحا على مجموعته التى جمع فيها قوانين تشريفات الدولة العلية بالارادة السنية حينما كان تشريفاتياً وبين فيها اسباب هذه القوانين وسماها مقدمة قوانين التشريفات

(مجموعة فائق افندي) جمعها مؤلف ذيل سفينة الرؤساء سليمان فائق افندي تحتوي على نوادر الاخبار وغرائب الوقائع ظفرت منها بالنسخة التى هى بقلم المؤلف

كتاب (فن الحرب) وهو تأليف بديع في بابه ألفه مونتـه قوقولى قائد العساكر النمسوية ووزيرها الاول الشهير الذي توفى سنة ١٦٨١ للميلاد. يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة ابحاث الاول في بيان انواع الحرب واصولها وفروعها والثـاني في تفصيل الحروب التى وقعت في بلاد الانكروس مدة مديدة بين الدولة العلية والنمسا وقد جعل المؤلف البحث الاول بمثابة صغرى لنوال المراد والثاني بمنزلة كبرى والبحث الثالث اظهر فيه قوة الدولة العليـة القاهرة وكيفية اخذ الدول الجانحة الى الحرب والنزال باسباب الحزم والحيطة والتبصر ثم ذكر الاسباب والوسائل التى تحصل بها الغلبة والظفر وابان منزلة المهالك والاخطـار المستترة تحت رماد هذه الحروب العظيمة فاحسن في النتيجة واجاد ووفى بالمراد وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة التركية ولم يطبع

(تاريخ) كاترينه وهو تاريخ صغير مشهور ألفه رجل اسمه فسترا ذكر فيه تفصيـل احوال كاترينه امبراطورة الروس وترجم عن الفرنسوية الى التركـية وطبع

رسالة (آيينهٔ ظرفا) فيها تراجم احوال كتاب الوقائع

كتاب (كلبن خانان) فيه تراجم احوال امراء القريم ألفه حليمكراى

(عبرتنماى دولت) رسالة صغيرة ألفها كسبى افندي احد كتبة الاقلام سنة ٢١٣ تشتمل على مجمل احوال امارة القريم وتفصيـل جميع ما وقع في حرب سنة ١١٨٢ مع سائر الوقائع الحربية

(مرآة الدولة) هى رسالة كالتقرير ألفها نهالى افندي وابان فيها سبب ظهور الحرب الواقعة سنة ٨٢ ثم ذكر افراط الناس في امر الملبوسات وتجاوزهم الحدود فيها وكثرة الخدم والحشم في الدولة وكيفية ضعف الرعايا وتلاشيهم وبيان الاسباب والتدابير الواجب اخذها بهذا الخصوص

(خلاصة الاعتبار) رسالة مشهورة لرسمى احمد افندي ذكر فيها النقص والغلط اللذين وقعا في حرب الروس المار ذكرها

(درج الوقائع) كتاب صغير يشتمل على بعض الوقائع التى جرت سنة ١١٩٩ الى سنة ١٢٠٢

تاريخ (شهرى افندي) ألفه شهري اسماعيل افندي في اخبار الوقائع

التى جرت في اواخر عهد السلطان عبد الحميد خان واوائل عصر السلطان سليم خان

تاريخ (شمعداني زاده) في اخبار الدولة العليـة ولما كان هذا المؤرخ غير موظف في كتابة وقائع الدولة ذكر الاخبار كما جرت بحرية مطلقـة وقد نقلنا من اواخره بعض ما في المجلدين الاول والثاني من كتابنا هذا

تاريخ (انوري) وهو في ثلاثة مجلدات يشتمل اولها على الوقائع التى جرت من سنة ١١٨٢ الى خروج المعسكر الهمايوني من شمنى ووصوله الى الاستانة بعد عقد عهدة صلح قينـارجه سنة ١١٨٨ وقد تصرف واصف افندي في هذا المجلد فبدله وغيره وجعله مجلداً ثانياً لتـاريخه واما المجلد الثاني من تاريخ انوري فانه يشتمل على بقية الوقائع المذكورة في المجلد الاول من سنة ١١٨٨ الى اواخر سنة ١١٩٧ وقد جعلنا جل اعتمادنا في تاريخنا عليه والمجلد الثالث ذكر فيه وقائع المعسكر السلطـاني من سنة ١٢٠٢ الى سنة ١٢٠٦

تاريخ ﴿ اديب ﴾ في حوادث دار السعادة . ضبط وقائعه في الاستـانة سنة ١٢٠٢ الى سنة ١٢٠٦ اديب افندي تشريفاتي الركاب الهمايوني المعين يومئذ وكيلا عن انوري افندي الذي سمى كاتباً للوقائع سنة ١٢٠٢ وسافر مع المعسكر السلطاني

﴿ اردو زور نالى ﴾ ابتداؤه خروج المعسكر السلطاني من صحراء داود باشا سنة ١٢٠٢ وفيه حروب مهاديه وشيش وقد اعتمدنا عليه ايضاً في تاريخنا هذا

﴿ روابط العقود ﴾ لغالب افندي كاتب الوقائع وهو مجموع ضابط للمخابرة الشفـاهية الواقعة في ﴿ زشتوي وياش ﴾

تاريخ ﴿ نوري بك ﴾ وهو تأليف خليل نوري بك كاتب الوقائع ألفه في وقائع الدولة العليـة من اوائل سنة ١٢٠٩ الى اواخر سنة ١٢١٣ واستطرد فيه ذكر جميع القوانين والنظامات الموضوعة من قبل والتى وضعت في عصر حضرة السلطان سليم خان الثالث

﴿ تاريخ واصف ﴾ يشتمل على وقائع الدولة العلية من سنة ١١٦٦ الى

رجوع عساكرها الى دار السعادة سنة ١١٨٨ وقد طبع في مجلدين ثم ان واصف افندي المذكور ذيل تاريخه هذا بتأليف ذكر فيه الوقائع التى جرت منذ اواخر سنة ١١٩٦ وجعله نسختين ايضاً رفع احداهما وهى الاولى الى المابين الهمايوني تشتمل على الحوادث التى جرت الى اواسط سنة ١٢٠١ واما الثانية فمنتهاها عند مبادلة التواقيع على معاهدة القريم في اواسط سنة ٨٨ وقد جعل ديباجة هذه النسخة الثانية باسم خليل حميد پاشا وبين كل من النسختين المذكورتين فرق من جهة التفصيل والاجمال والراجح والمرجوح وسنتعرض للانتقاد عليهما عند مسيس الحاجة ولواصف افندي المذكور ذيل آخر ابتدأ فيه من الوقائع التى حدثت منذ جلوس السلطان سليم خان سنة ٢٠٣ الى اواخر سنة ٢٠٨ على ان واصف افندي وان كان قد قال في آخر تاريخه المذكور آنفاً المطبوع انه كتب وقائع الدولة العلية من سنة ١٦٦ الى سنة ٢١٧ على اسلوب واحد فانه ما أبرز من ذلك شيئاً سوى الذيلين المذكورين قال مؤلف (آيينهٔ ظرفا) انه لم يظفر من هذين الذيلين الا بالذيل الثاني المكتوب بقلم المؤلف مشتملا على الوقائع التى جرت من سنة ٢٠٣ الى سنة ٢٠٩ اي وقائع ست سنين وانه لم يقف على اثر للذيل الاول مع انه جرى البحث عن الذيل السالف ذكره في منتخبات جاويد بك وقد تحقق عندنا ان واصف افندي في اوائل سنة ١٢٠٨ قدم للاعتاب الهمايونية نسخة من تاريخه الذي ألفه مبتدئاً فيه من جلوس السلطان سليم خان الى سنة ١٢٠٥ وقد اعيد التاريخ المذكور اليه لاجل اتمامه على ما سنذكره في وقائع سنة ١٢٠٨

وانا العبد الفقير كنت بذلت الجهد اولا في السؤال عنه وما ظفرت الا بالذيلين المذكورين ثم بعد ذلك بمدة عثرت على نسخة منه مصححة بخطه ذكر فيها وقائع ثلاث سنين من ابتداء سنة ١٢١٧ الى غاية سنة ١٢١٩ وعثرت ايضاً على اكثر مسوداته بخط يده مشتملة على وقائع سنة ١٢٠٩ وعلى وقائع من سنة ١٢١٢ الى سنة ١٢١٧ وقد رتب واصف افندي وقائع هذه السنين جزءا جزءا وقدمها وكتب عند تقديم كل جزء تقريراً فوجدت مسودات التقارير الثلاثة في تلك المسودات وأثبتناها بحروفها واشرنا اليها

برقم (١) كما سيأتي

(جريدة حسن افندي) تشتمل على الوقائع التى جرت منـذ سافر واصف افندي الى اسبانيا سنة احدى ومائتين بعـد الالف الى ان خرج المعسكر الهمايوني سنة ١٢٠٢

ولما عين واصف افندي المومأ اليه سفيراً للدولة العلية في اسبانيا وكان كاتباً للوقائع أبقيت المأمورية المذكورة بعهدته وعين لكتابتها بالوكالة عنه الى حين رجوع حسن افندي التشريفاتي فباشر كتابة تلك الجريدة بعد سفره وذلك في اواسط سنة ٢٠١

ثم لما انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا وكان تعيين كاتب للوقائع في المعسكر السلطاني من الامور المرعية في الدولة العلية عين انوري افندي اصيلا في تلك الوظيفة فذهب مع المعسكر وكتب الوقائع . واما وقائع دار السعادة فقد حررها اديب افندي تشريفاتي الركاب الهمايونية وكاتب وقائعها

(منتخبات جاويد بك) تاريخ مختصر انتخبه من التواريخ المشهورة الباحثة في احوال الحرب والصلح بين الدولة العلية وروسيا وهو مجلدان اولهمـا يشتمل على الوقائع التى جرت من سنة ١٠٣٦ الى ذي القعدة سنة ١١٨٧ والثاني ذكر فيه الوقائع التى جرت من التاريخ المذكور الى سنة ١١٩٦ اخذها من تاريخ انوري افندي والوقائع التى جرت من ذلك التاريخ الى سنة ١٢٠١ نقلها من ذيل تاريخ واصف افندي المذكور والوقائع التى جرت من هذا التاريخ الى حين خروج المعسكر الهمايوني لخصها من جريدة حسن افندي المذكور التى صارت ذيلاً لتاريخ واصف افندي. وذكر ايضاً قسماً من الوقائع المدرجة في اوائل تاريخ اديب افندي مع ملخص الوقائع المذكورة في تاريخ انوري افندي ثم الوقائع التى شاهدها الى سنة ١٢٠٦ وقسما آخر لخصه من تاريخ واصف افندي

(مجموعة هاشم افندي) الفها هاشم افندي كاتب فرح علي باشا الذي بنى قلعة انابه فانه ذهب مع الباشا المشار اليه الى بلاد الجراكسة ومكث فيهـا مدة طويلة فضبط بعض احوالها المهمة وكتب اشياء كثيرة غريبة ووقائع عديدة فجاءت من التاليف الموثوق بها فيما يتعلق باخبار البلاد المذكورة كما

سنورده في محله

(دوحة الوزراء) وهو تاريخ مشهور يشتمل على اهم وقائع العراق وتراجم ولاة بغداد جعله مؤلفه ذيلا للتاريخ المسمى (كلشن خلفا)

(تاريخ عبد الشكور) الفه عبد الشكور افندي احد العلماء في مكة المكرمة باللغة العربية وضمنه تراجم احوال امرآء مكة المشرفة

(تاريخ الجزار) كتاب صغير باللغة العربية يعزى الى الامير حيدر شملان الشهابي احد المؤلفين في جبل لبنان فيه ترجمة حال احمد باشا الجزار

(تاريخ الجبرتي) يحتوي على اربع مجلدات عربية. الفه عبد الرحمن الجبرتي احد علماء الديار المصرية ذكر فيه اخبار البلاد المذكورة قديماً وحديثاً الى هذا العهد وقد نقلنا من اواخره

(مظهر التقديس بخروج طائفة الفرنسيس) تأليف صغير للمرحوم الشيخ الجبرتي المذكور ذكر فيه جميع الوقائع يوماً فيوماً منذ دخول الفرنسيس مصر الى ان خرجوا منها وقد نقله من العربية الى التركية عاصم افندي كاتب الوقائع

(تاريخ نيقولا) هو مؤلف صغير جمعه المعلم نقولا الترك باللغة العربية وكان الامير بشير حاكم جبل الدروز ارسل المعلم نقولا المومى اليه الى مصر ايام استيلاء الفرنسيس عليها فاقام هناك ثم عاد الى جبل لبنان فجمع مؤلفه المذكور وطبع بعد ذلك في باريز باللغتين العربية والفرنسوية سنة ١٨٣٩ ميلادية وقد رأيت تاريخاً اخر صغيراً ينسب الى يوسف العورا وهو عين تاريخ نقولا المذكور الا انه يخالفه مخالفة جزئية في بعض العبارات ولكونهما مسيحيين قد اطنبا في مدح بونابرت كثيراً ولهما في مدحه قصائد عربية

(تذكرة بونابرت) هذه رسالة كتبها بونابرت فيها ترجمة حاله وكان اذ ذاك في جزيرة (سنت هيلانة) منفياً وقد نقلت الى اللغة التركية وطبعت

(ضبطنامه‌لر) اعنى صحف ضبط الوقائع. هذه الصحف تحتوي على بيان الوقائع من سنة ١٢١٨ الى غاية سنة ١٢٢٣ كتبت في (اندرون همايون) وقد اطلعنا عليها ونقلنا منها في تاريخنا هذا

(رائف افندي ضبطنامه سى) مجموعة الفها علي رائف افندي احد

خلفاء مكتوبي الصدر العالي وكاتب البلوكات الاربعة وهى تشتمل على وقائع المعسكر الهمايوني ولما عين واصف افندي كاتب الوقائع رئيساً للكتاب في خلال سنة ١٢٢٠ خلفه لكتابة الوقائع پرتو افندي احد خلفاء آمدي الديوان الهمايوني وفي اثناء سنة ١٢٢٢ فاجأته المنية فعين بدلاً منه عامر بك الذي قدم استعفاءه بعد ذلك ببضعة شهور ثم عين لكتابة الوقائع عاصم افندي العينتابي احد المدرسين الا انه لم يسافر مع المعسكر الهمايوني فبقى في الاستانة لاجل تحرير الوقائع كما سنبين ذلك اثناء وقائع سنة ١٢٢٢ فبقى المعسكر الهمايوني خلواً من كاتب لوقائعه فكتب علي رائف افندي المومى اليه ضبط الوقائع من تلقاء نفسه واعطى ذلك الى نجيب افندي حين رجوعه الى دار السعادة فالحقه بتاريخه الصغير

وقد ارسلت مسودات ما كتبه پرتو افندي وعامر بك في المعسكر الهمايوني الى دار السعادة فاستلمها عاصم افندي

(تاريخ نجيب افندي) تاريخ صغير جمعه نجيب افندي من رجال الباب العالي ذكر فيه الواقعة السليمية وهو شامل ايضاً لوقائع المعسكر التى حررها رائف افندي كما مر ذكره اعلاه

(تاريخ سعيد افندي) هو تاريخ صغير الفه ذو المعارف المشهور بكتخدا سعيد افندي في واقعة السليمية وجعل له مقدمة مفصلة ابتدأ فيها من ايام بطرس الاكبر قيصر الروس

(تاريخ عاصم) هو التاريخ الذي جمعه عاصم افندي العينتابي كاتب الوقائع يتضمن ذكر الوقائع مبتدئاً بها من حين تعيين محب افندي للسفارة السنية في باريز في اواخر سنة ١٢٢٠ الى حين جلوس حضرة السلطان محمود خان الثاني فجاءت نسخها متباينة جداً وذلك لان عاصم افندي كان حاقداً على بعض الكبراء الذين ماتوا بعد ان انجز تاريخه ورفعه للدولة العلية فزاد حينئذ على النسخة التى بقيت عنده عبارات كثيرة في الطعن عليهم فاخذها اخيراً بعض الاعيان وحذفوا كثيراً من زياداتها وجمعوا ما بقي منها نسخة واحدة فضم اليها بعد ذلك تاريخ الكتخدا سعيد افندي وجعلت نسخة واحدة في مجلدين يشتمل الاول منهما على مقدمة تاريخ سعيد افندي بتمامها وزيد عليها

بعض الحوادث وجعلت مقدمة الكتاب مع ذكر الوقائع التي جرت الى انتهاء سلطنة السلطان سليم. والثاني ابتداؤه من نازلة خلع السلطان سليم الى اوائل ايام سلطنة السلطان محمود خان. وبعد ذلك حرر عاصم افندي وقائع اثنتي عشرة سنة وحيث لم يقدر على تبييضها فقد ترك مسودتها الى خلفه شاني زاده

(تاريخ تفنكجي باشى) هو عارف افندي ويعرف بلقب تفنكجي باشى كتب تاريخاً صغيراً ذكر فيه النازلة السليمية فقط

(فذلكة القوشماني) وهو رجل يدعى القوشماني ابن دهقاني الف رسالتين بهذا العنوان احداها تتضمن الوقائع منذ مجيء الاسطول الانكليزي الى الاستانة حتى خلع السلطان سليم. والاخرى فيها بيان كيفية وفاته شهيداً

رسالة (يايلا امامى رسالەسى) هذه رسالة جمعها رجل معروف باسم (يايلا امامى) تتضمن اخبار العاصمة ووقائعها من اواخر سنة ١٢٠١ الى سنة ١٢٢٥

(تاريخجة عطا) تاريخ صغير جمعه احمد عطا بك من رجال الدولة العلية في عصرنا هذا وهو ابن المرحوم طيار افندي باش لالا. ذكر فيها كيفية خلع السلطان سليم ووفاته شهيداً نقلا عن والده وعن غيره من ذوي الخبرة والاطلاع وهى رسالة نفيسة

(لائحة ترجمان ديوان) هى رسالة مفصلة الفها ترجمان الديوان الهمايوني في ايام صدارة ضيا باشا الثانية تشتمل على احوال دول اوربا السياسية وعلى وقائع الدولة العلية المهمة التي حدثت منذ صدارة ضيا باشا المشار اليه الاولى الى صدارته الثانية

(سفارتنامة محب افندي) هى رحلتان الفهما محب افندي الذي عين سفيراً للدولة العلية في باريز سنة ١٢٢٠ فجمع في الاولى سائر المضابط والمكاتيب والتذاكر والتقارير المتعلقة بمأموريته في باريز مدة ست سنين مع اخبار رحلته الى باريز ورجوعه منها بالتفصيل واما الثانية فقد ذكر فيها كيفية سفره الى فرنسا ورجوعه منها مع بيان احوال باريز ورسومها وما فيها من الاثار

(سفارتنامة وحيد افندي) رحلة نفيسة جمعها وحيد افندي الذي ارسل مندوباً مخصوصاً من جانب الدولة العلية الى نابوليون في سنة ١٢٢١

﴿ژورناللر﴾ هي صحائف اطلعنا عليها تحتوي على ما جرى من الحروب بين نابوليون بوناپرت وبين الدول المتفقة

﴿لائحة سباستيانى﴾ اسم تقرير حرره سباستياني الشهير سفير فرنسا في الاستانة وقدمه الى ناپوليون عند رجوعه الى باريز يشتمل على بعض مسائل تاريخية متعلقة باحوال ذلك الزمان

﴿تاريخ بلاد السودان﴾ الفه باللغة العربية رجل من اهالي السودان ومن اعضاء الديوان الذي الفه ﴿باشبوغ مصر﴾ اي قائد العسكر المصري في السودان سنة ١٢٤٠ جمع فيه جملا من حوادث السودان التى ظهرت بعد سنة ٩٠٠ هجرية اوضح فيها كيفية استيلاء المرحوم محمد علي باشا والي مصر على البلاد السودانية

﴿تاريخ شاني زاده﴾ هو ثلاث مجلدات الاول يتضمن الوقائع التي جرت منذ جلوس السلطان محمود خان في سنة ١٢٢٣ الى ختام سنة ١٢٢٥ والثاني يحتوي على اخبار اوائل سنة ١٢٢٦ الى غاية سنة ١٢٣٣ والثالث يشتمل على بيان الوقائع من ابتداء سنة ١٢٣٤ الى ختام سنة ١٢٣٦ على ان شاني زاده وان جد في تحرير الوقائع من ابتداء سنة ١٢٣٧ الى شهر صفر من سنة ١٢٤١ فانه اقتصر على ترتيب المضابط والاوراق التى كتبت بمدة ١٢ سنة بمعرفة سلفه واما الحوادث التى جرت في ايامه فلم يتمكن من جمعها وترتيبها فاخذ اوراقها خلفه اسعد افندي

(تاريخ الامير يوسف) تأليف صغير جمعه يوسف بك ابن احمد باشا احد الحرس الملوكى الخاص وهو من بلدة يقال لها انابولى وقد كتب هذا التاريخ عند وصوله الى دار السعادة بعد استيلاء الاروام على بلدته المذكورة وذلك ان الاروام لما ثاروا وحصروا البلدة كان هو فيها فبقى محصوراً في قلعتها ٢٢ شهراً ثم استولوا على القلعة فركب في سفينة من سفن الانكليز واتى الى ازمير ومنها الى العاصمة

(تاريخ ملك) تاريخ صغير ألفه ملك بك من اهل الموره في فتنة اليونان التى انتشرت سنة ١٢٣٦ وهو تأليف نفيس ترجم فيه مؤلفه اهم التواريخ اليونانية ورسالة (اقسانت) الذي اثار نار الفتنة وضم اليه ما تحققه وشاهده

(تاريخ فترت) هو تاريخ صغير ألفه محمد افندي احد مؤلفي عصرنا ذكر فيه الثورة اليونانية وقد طبع الجزء الاول منه واما الباقي فلم نطلع عليه حتى الان

ثم ان البارون بروكش المشهور الذي كان سفيراً في الاستانة مدة طويلة لدولة اوستريا قد ألف تاريخاً في هذا الموضوع الا انه لم يترجم الى اللغة التركية حتى الان

(تاريخ وقعهٔ جزيره ساقز) « الحروف المعجمة من هذا العنوان » « تاريخ لتلك الواقعة » وهو مؤلف صغير وضع في جزيرة ساقز مشتملا على اخبار قيام الغوغاء ايام شغب اهل الموره وفي بعض جزائر بحر الروم والاختلال الذي حدث فيها وخروجهم عن الطاعة سنة ١٢٣٧ هجرية ايام كان وحيد باشا محافظاً عليها

﴿ تاريخ اسعد ﴾ ألفه اسعد افندي كاتب الوقائع وهو يشتمل على الحوادث التى جرت منذ ابتداء سنة ١٢٣٧ الى سنة ١٢٤١ وقد اعتبره اول جزء لان حوادثه اتصلت اليه من سلفه ثم ألف تاريخاً آخر مستقلا سماه ﴿ اس ظفر ﴾ وذكر فيه الوقعة الخيرية في سنة ٤١ ثم اخذ في ترتيب الجزء الثاني مبتدئا فيه بالحوادث الطارئة من غرة سنة ٤١ الى آخرها ولكنه لم يوفق لذكر الحوادث التى جرت بعد ذلك ثم ان المرحوم باهر افندي كاتب الداخلية الاسبق توجه اثناء الفتنة الى الموره كاتباً في معية السيد علي باشا السرعسكر والصدر الاسبق فمكث هناك مدة في المعسكر فكتب ما سمعه وما شاهده وجعله ذيلا للمباحث المدرجة في المجلد الاول من تاريخ اسعد افندي المذكور وعلق على المجلد الثاني الذي لم ينجزه بعض حواش واضاف اليه ما جعله ذيلا له

﴿ تواريخ فارسية ﴾ اطلعنا على بعض التواريخ الفارسية المتضمنة اخبار العراق والفرس فنقلنا منها ولاجل الوقوف على حقيقة الوقائع المتعلقة باروبا رأينا انه لا بد من مطالعة اخبارها ثم لما تمكنت الصلات وكثرت المعاملات بين دولها والدولة العلية وذلك بعد ظهور ناپوليون بونابرت اشتدت الحاجة الى الوقوف على تواريخها ورسائلها فاطلعنا فيها على كثير من وقائع الدولة

العلية وعلاوة على ما نقلناه عن التواريخ المذكورة فقد طالعنا ما امكن الوصول اليه من مضابط مجالس الشورى والصحف الرسمية السائرة وقيود دفاتر الدوائر فانتقينا منها كل ما ينبغي اخذه ضبطاً للوقائع وتحريراً لها وذلك لنتوصل الى الحقيقة على قدر الامكان من كل حقير وخطير

(تنبيه)

لما كان الغرض الاصلي من علم التاريخ هو الوقوف على صدق الوقائع وكذبها والاطلاع على اسبابها الحقيقية واكتساب المعلومات التي توجب التيقظ والانتباه تعين على المؤرخ ان يتحرى أسباب الحوادث الصحيحة بما يوجب العبرة والفائدة وان يسرد الاخبار بعبارة سلسة صريحة

والذي اراه انه ليس الغرض من التاريخ التكلف بالانشاء واظهار الفضل والبراعة حتى ولا سرد الوقائع على نسق صحائف الاخبار اليومية فعلة ما حرره بعض الاسلاف من الاثار المرغوبة بنسق بليغ على طرز الانشاء لم تكن فائدة لهذا العلم بل لخدمة فن الانشاء وتكلفات الانشاء ليست بمطلوبة ومرغوبة في علم التاريخ ومن حرر التاريخ على طرز الانشاء لا يلتزم تحرير الوقائع على حقيقتها وبناء على ذلك لدى تدوين وتلاوة كتب الوقائع الماضية يلزم ان يفهم اولا الغرض المقصود منها

والمؤرخون من علماء العرب قد امتازوا على من سواهم فاوردوا كل شيء في بابه بخلاف بعض المتأخرين الذين لم يميزوا المقصد ولم يعينوه غير عالمين اي فن يخدمون فاكثروا السواد فجاءت تواريخهم عارية عن الفائدة المقصودة

ولما كان القصد من جمع هذا الكتاب الذي بادرنا بتحريره وتأليفه الفائدة التاريخية صرفنا النظر عن تكلفات الانشاء وبذلنا الجهد بتصحيح وتنقيح ما يعطي فائدة الخبر واجتنبنا تكثير السواد اذ اكتفينا بتحرير الوقائع العادية كما هو ذلك من عوائد الدولة العلية

واضربنا صفحاً عن ذكر بعض وقوعات كانتقال الخليفة من قصر الى غيره بحسب فصول السنة صيفاً وشتاء وخروج الاسطول من الخليج الى

بحر الروم في الربيع ورجوعه في الخريف الى دار الصناعة العامرة. وتسليم المرتب للعساكر في كل ثلاثة اشهر على حسب العادة في تلك الاوقات وما يقع في السنة من توجيه المناصب وتعيين المرتبات وبيان سلسلة المراتب العلمية وذكر اجتماع بعض العلماء في اوائل شهر رمضان من كل سنة بالحضرة السلطانية لتقرير الدروس العلمية . وزيارة البردة الشريفة النبوية في منتصفه والدعاء عند نزول السفن الجديدة في البحر وغير ذلك الا اذا مست الحاجة الى ذكرها وكانت لها فائدة تاريخية فاننا نثبتها

ولذلك بادرنا بتحرير هذا التاريخ على المنوال المذكور واتبعنا رعاية الانصاف وخلو الغرض مجتنبين التزام شخص ما او جهة ما وبذلنا الجهد والاهتمام على قدر الاستطاعة بتصحيح الوقوعات وتحري اسبابها الصحيحة

مقدمة

ان سنة ١١٨٨ هجرية التى هى ابتداء تاريخنا كانت عنواناً لتحول احوال الدولة اذ بعدها تغير منهاج وقائعها ومعلوم ان وقائع كل عصر هى نتائج العلل والاسباب المتسلسلة التى هيأتها واعدتها الاعصار السابقة فاقتضى لذلك ان يعلم آثار اي اسباب تلك الوقائع التاريخية التى سيصير تدوينها

فرأينا من المناسب ان نذكر قبل الشروع بالمقصود وقائع الدول السالفة واحوالها العمومية لاسيما الدولة العلية والوقائع المشهورة المتعلقة بالبلاد المهمة كمصر والقرم مع ايراد كل ما ينبغى لقراء هذا التاريخ الاطلاع عليه فصلا بعد آخر اجمالا

الفصل الاول

في بيان لزوم علم التاريخ وفائدته

اعلم ان علم التاريخ هو فن كثير المنافع يعود نفعه الى كافة العالم وهو مقبول ومرغوب عند جميع الناس عامتهم وخاصتهم فالعامة وافراد الناس

مجبولون على مطالعته ومنه يعلمون ما سلف من الوقائع والمآثر الماضية والخاصة والوكلاء منهم يطلعون منه على الخفايا والاسرار المقتضية . وذلك لان الانسان مدني بالطبع فلا يمكنه ان يعيش منفرداً بنفسه كالبهائم بل يحتاج للاجتماع والتعاون مع ابناء جنسه في محلات مختلفة وللجمعية البشرية درجات متفاوتة ادناها درجة القبائل الذين ضربوا الطناب خيامهم في الفيافي والقفار فهم بعيدون عن العلوم والمعارف والصنائع وسائر الخصائص الانسانية الكمالية التى هى نتيجة الهيأة المدنية فغاية امر هولاء القوم اكتساب الحوائج الضرورية البشرية واجتناء ثمرة شجرة الحياة وهى التناسل . وكما انهم بعيدون عن آثار ونتائج المدنية الصحيحة بالنسبة الى اهل القرى كذلك لا حظ لاهل القرى في محاسن التمدن الحقيقى بالنسبة الى اهل المدن العظيمة

واعلى درجة في الاجتماع الانساني درجة المدنية اي مرتبة الدولة والسلطنة فان من يكون في حمى الدولة من شأنه ان يرفل في ثوب الامان ويضحى في وقاية من كيد الاعداء وسلطة الاعتداء مطمئن الجنان فيسعى حينئذ في حصول حاجاته البشرية وتكميل الفضائل الانسانية وذلك لان الانسان مجبول على دفع الضرر وجلب النفع هذا وقد تطمح انظار الافراد الى امر واحد فاذا تركوا وشأنهم حاول بعضهم ظلم البعض الاخر وهكذا الحال في الجماعات فانهم يتنازعون في مصلحة من المصالح العمومية ويختلفون حتى تقع بينهم الشحناء وينفر بعضهم من بعض فبناء عليه فالناس في حاجة كلية الى وازع يرفعون اليه امورهم عمومية كانت او خصوصية وبذلك يتوصلون الى قضاء مآربهم وينتهزون الفرص في تحصيل لوازم الكمالات الانسانية فيتفرقون اصنافاً فمنهم من يتجر ومنهم من يزدرع ومنهم من ينتظم في سلك خدمة الدولة في الامور الملكية والعسكرية ثم انهم بقوة العلم والصناعة يحصلون الكمالات البشرية فيستعملون عشرة اشخاص مثلا فيما ينبغي له مئة نفس فالاشغال التى تستغرق زمناً طويلا تنجز في مدة يسيرة فاغتنم اهل التمدن الفرص الزائدة فاقبلوا على تحصيل حاجاتهم الضرورية وصرفوها في اجتناء خصائص الكمالات الانسانية فاخذوا على هذا النمط يترقون في انواع الحضارة والمدنية ولوازمها يوماً فيوماً حتى زالت سذاجتهم ثم حدث لهم

احتياج آخر الى ما يتحملون به ويؤدون ما عليهم من التكاليف وعلى قدر احتياجهم هذا ازدادت منافعهم الذاتية وتنوعت اغراضهم الشخصية فطرأت الصعوبة على ضبط الادارة العمومية شيئاً فشيئاً وصار حسن الادارة وترقي الدولة وحصول سعة العيش في احتياج الى دقة اصحاب الاطلاع والمهارة اما المهارة في امور كهذه فلا تحصل الا بالتجارب وعمر الانسان ولو بلغ قرناً كاملا لا يكفي لجميع التجارب فلذلك لم يجرب العارفون كل شيء بانفسهم بل اخذوه عن غيرهم كما انهم اعتبروا وانتصحوا واتعظوا بسواهم وقد ورد في الحديث الشريف (السعيد من اتعظ بغيره) وكما ينتفع الوزراء والخواص بعلم التاريخ نفعاً خصوصياً كسائر العوام كذلك يستفيدون منه فوائد كلية يستعينون بها على قضاء الاحكام السياسية

فمحبو الوطن من الاسلاف المتصفون بالمعارف والراغبون في بقاء ذكر الامة والدولة التي هم منها قد حرروا جميع وقائع عصورهم واخبارها وتركوها تذكرة وعبرة لمن بعدهم فاكتسبوا بذلك الادعية الخيرية منهم وزيادة على ذلك فان الانسان ميال بالطبع الى الوقوف على الاحوال الماضية والمستقبلة بل الى معرفة اسرار الازل والابد فاصبح النوع الانساني كله محتاجاً الى هـذا الفن فقد قيل (لا تشبع العين من نظر ولا السمع من خبر. ولا الارض من مطر)

ثم ان حفظ نظامات الدول لا يقوم الا بعلم التاريخ ومن المحقق ان في تطبيق الاحوال السالفة على الحاضرة فوائد كثيرة فلذلك قال بعض العلماء ان تعليم التاريخ وتعلمه من الامور الواجبة

وقد نقل انه في زمن القائم بامر الله احد خلفاء العباسيين جاء نفر من اعيان يهود خيبر الى بغداد دار الخلافة وقدموا له صحيفة تشعر بالعفو عنهم من دفع الجزية وادعوا انهم اخذوها من قبل حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بخط سيدنا علي رضى الله عنه وفيها شهادة بعض الصحابة الكرام رضى الله عنهم فقبل الخليفة منهم هذه الصحيفة واجاب طلبهم وامر ان يكتب لهم منشور في ذلك ثم لما وصل الامر الى رئيس العلماء ابي القاسم بن مسلمة تردد في القضية وشك في صحة تلك الصحيفة واشار على الخليفة بسؤال الخطيب

البغدادي عن ذلك وكان من مؤرخي ذلك العصر فبعد وقوفه عليها علم بقوة اطلاعه على التاريخ انها مزورة فاجاب بما نصه ان من الشهود حضرة معاوية وسعد بن معاذ اما معاوية فانه دخل في الاسلام في السنة التاسعة من الهجرة يوم فتح مكة المكرمة وكان فتح خيبر في السنة السابعة فلم يكن اذ ذاك حاضراً واما حضرة سعد بن معاذ فانه توفي في السنة الخامسة من الهجرة في وقعة الخندق ولم يكن حينئذ في قيد الحياة فثبت تزوير اليهود في الدعوى وان الصحيفة لا اصل لها فنزعت منهم ومحيت فبهذا السبب انتفع بيت مال المسلمين من المؤرخ المومأ اليه

الفصل الثانى

في اطوار الحكومات واقسامها

اذا نظر المرؤ في هذه الدنيا علم انها كلها عبر تجدد مظاهرها يوماً بعد آخر في جميع الجواهر والاعراض فكما ان للانسان حالتين حالة صعود وحالة هبوط في حاله ووجوده كذلك لكل دولة حالتان حالة ضعف وحالة قوة فهي في ابتداء نشأتها كالانسان في حالة السذاجة فانه قليل الحاجة خفيف المؤنة فاذا بلغ اشده قويت حاجته واشتد عوزه وكثر تفننه في المآكل والمشارب والمساكن والملابس وهكذا الدولة فانها اذا قوي امرها وطال عمرها زالت سذاجتها وازدادت حاجاتها واشغالها ونفقاتها فاذا حدث من الامور ما هو مهم واختل نظام ادارتها اتسع عليها مجال النفقات فتقع في الضيق ويزداد الضعف والفتور. سنة الله في عباده

والحاصل ان اية دولة كانت تأخذ من اول امرها تنتقل من طور الى آخر ومن حال الى غيره في كل عصر واوان فيلجئها ذلك الى التشبث باذيال الحكمة وحسن التدبير باعتبار الزمان والمكان فان جسم الدولة يشبه جسم الانسان في حالة النمو والوقوف والانحطاط. فكما يجب على الانسان ان يتأمل فيما يفعله لحفظ صحته في هذه الحالات الثلاث كذلك يجب على رجال كل دولة ان يحافظوا عليها بالدقة فيما يناسبها في كل طور وحال

ثم ان طور الانحطاط يخفى حتى يصعب في بعض الاحيان ادراكه . ويظهر في بعض الاحيان للعيان فيعسر دواؤه . ولكن بحسن التدبير والحكمة قد يمكن ان تعود القوى فيحيي جسم الدولة ثانياً وان كانت لا تسلم في هذه الحالة من الخطر لا سيما اذا طرأت عليها اثناء ذلك علل خارجية فحينئذ تكون على شفا حفرة من الزوال نعم ان بعض الدول ممن وصل الى هذه الدرجة في الوهن نجا وعادت له قوته الا ان ذلك كان بعد انقلاب عظيم وكم من دولة انقرضت وهي في حالة الوقوف وذلك اما بسوء التدبير واما بظهور امر سماوي

وليعلم ان دول النصارى يعتمدون في احكامهم السياسية على القوانين التي توضع باجتماع اراء الاعيان منهم وتنقسم فيهم الحكومة الى قسمين قسم روحاني اي ديني وقسم جسماني اي مادي

فالروحاني عندهم هو حكومة البابا عند الكاثوليك فان جميع رهبان هذا المذهب تحت امره وجميع الكنائس تحت رئاسته . ويعتقدون فيه انه وكيل حضرة عيسى عليه السلام . وتجرى اوامر الحكومة الروحانية في جميع ممالك الدول على اهل مذهب الكاثوليك . وكان لهذه الحكومة قديما في اوروبا نفوذ عظيم وتاثير قوي . ولما جار الباباوات في حكمهم على الملوك من اهل مذهبهم وجنوهم كسروا شوكة نفوذهم شيئاً فشيئاً واضعفوا امرهم . واما الروم من النصارى وهم اهل مذهب الارثوذكس . فانهم لا يعترفون بالبابا بل يتبعون في احكامهم الروحية بطارقتهم ورئيسهم البطريرك الاستامبولي . واما طائفة الارمن من النصارى فان لهم رؤساء ثلاثة يقال لكل منهم « قاتوغيكس » فاحدهم هو رئيس كنيسة اجميازين الواقعة في بلاد الكورج وثانيهم رئيس كنيسة سيس الواقعة في قوزان وثالثهم رئيس كنائس « اخطمار » الواقعة في جهة وان . واما اهل مذهب البروتستان فلا رئيس عمومي لهم كاولئك

واما الحكومة المادية فانها تنقسم الى ثلاثة اقسام . مطلقة . ومقيدة . وجمهورية فالمطلقة هي التي يكون زمام ادارتها في يد الملك فقط مثل دولة الروسية

والمقيدة هي الحكومة التي ينقاد فيها الملك لرأي مجلس الامة وهذه

ايضاً على قسمين

القسم الاول يقال له المقيدة العمومية كبعض دول مثل المانيا وايطاليا فان عامة الاهالي يستوون فيها ويكون فيهم مجلس يقال له مجلس الامة تنتخب الامة اعضاءه وهم غير وكلاء الدولة ووزرائها

والقسم الثاني يقال له المقيدة الحسبية ﴿ بفتح السين ﴾ كدولة الانكليز فان اهل الحسب والنسب منهم مترفعون عن غيرهم من وجوه كثيرة تميزاً لهم فلا تنال العامة شيئاً مما يناله هولاء المترفعون من الرتب والامتيازات وعندهم مجلس امة ينتخبه اهل النواحى فيأتون للعاصمة ويجتمعون ويتشاورون في مصالح المملكة ثم ترفع القضايا الى مجلس الخاصة من اهل الحسب ويمضى الامر على ما يقر عليه رأيهم ثم ان مجالس الامة كلها في الدول المذكورة ليست مستمرة بل تنعقد مرة في السنة وتدوم مدة ثلثة اشهر او اربعة اشهر ويسمونها ﴿ بارلامنت ﴾ واما وكلاء الدولة فان الملك هو الذي يوليهم المناصب فلا يمضون امراً الا بعد رفعه اليه وصدور الاذن منه فيه خطأ ومع ذلك فالعهدة عليهم في كافة امور المملكة امام مجلس الامة

واما الحكومة الجمهورية فهى عبارة عن هيأة اجتماعية من الاعيان ليس لها ملك بل يرأسها بمقام الملك واحد منها باكثرية الاراء رئاسة وقتية كجمهورية اميركا

واما دولة الفرنسيس فانها كانت في القديم حكومة مطلقة ثم وقع فيها الخلاف واختل نظامها فتحولت الى جمهورية غير انه لما ظهر نابوليون بونابرت قابضاً على زمام العالم احرز رتبة الامبراطورية فانقلبت حكومته من الجمهورية الى المطلقة واسسها في ظاهر الامر علي نمط الحكومة المقيدة ولكن لما كانت له السطوة الكاملة والكلمة النافذة كان الامر له وحده في كل شيء فيفعل ما يريد فكانت حكومته مقيدة في الظاهر مطلقة في نفس الامر ولما انقضت ايامه رجعت مقيدة عمومية وذلك في ايام الملك لويس فليب ثم ثارت نار الثورة سنة ١٢٦٥ فتألفت الحكومة الجمهورية برئاسة لويس نابوليون لمدة اربع سنوات فقط الا ان البعض من الناس كان يريد ان تكون فرنسا ملكية والبعض يؤيد رأي الجمهورية الاعتيادية والبعض لم يرضوا بها ايضا

فخرجوا عن حد الاعتدال الى جانب البغى والضلال . فرفضوا حقوق الناس فيما يملكونه من الاموال والازواج وقالوا ينبغى التساوي والاشتراك في كل شيء حتى في الزوجة والمال . وقد وافقهم على ذلك كثير من الغوغاء والاوغاد ليجعلوا هذه الصبغة صبغة للجمهورية ثم لما راى الاعيان والعقلاء من اهل فرنسا ان عاقبة هذه الفتنة بلاء عظيم . صرفوا النظر عن التمتع بلذة الحرية في الحكومة المقيدة فضلا عن الحكومة الجمهورية ففوضوا الامر تفويضاً تاماً الى لويس نابوليون ولقبوه بلقب ﴿ امبراطور ﴾ قبل انتهاء مدة رئاسته في السنين الاربع المذكورة وخضعوا الى حكومته المطلقة . وفي اثناء هذه الثورة الواقعة في فرنسا مال اهل اوستريا الى الحرية فاهرقوا دماء كثيرة . وطلبوا قلب حكومتهم الى حكومة مقيدة فلم يتيسر لهم ذلك بل غلب عليهم حزب الامبراطور . وبقى الامر كما كان اعنى الحكومة المطلقة لهذا العهد كل هذه الاقسام المذكورة لا تخلو من مضار يديهة الادراك لا سيما الفرقة الجمهورية التى تجاوزت الحد فان تدابيرها كانت بعيدة عن العقول وعن النواميس كلها

واما الحكومة الاسلامية فانها جامعة بين الخلافة والسلطنة . فالسلطان الذي هو امام المسلمين هو حامى الشريعة الغراء والقائم باعباء السلطنة . وقد صانها الله وله الحمد عن مثل ذلك الانقسام العرفي نعم انه قد طرأ ما فرّق بين الخلافة والسلطنة وذلك بسبب الاختلال العظيم الذي ظهر في الممالك الاسلامية في اواخر الدولة العباسية كما سنأتي على ذكره ووصلت الخلافة الى درجة الرئاسة الدينية وبلغت السلطنة مرتبة الرئاسة السياسية غير انه بظهور الدولة العثمانية العلية قد انتظم الامر فتجددت قوى الملة الاسلامية وعاد شملها كما كان

الفصل الثالث

في بيان احوال الدول الاسلامية السابقة ومبدء ظهور الدولة العلية

اعلم ان الامتين العظيمتين اعنى العرب والترك كانوا بمقتضى مواقعهم في بعض

الاحيان ومرة بعد اخرى تثور فيهم الحمية فيندفعون اندفاع السيل على الاقطار طلباً للاستيلاء وبذلك استولوا مراراً على كثير من ممالك العالم وآخر هجوم العرب واقواه خروجهم بالسطوة الأسلامية اعلاء لكلمة .الله فكانت قبائل العرب في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام على قلب واحد ولسان واحد في كلمة الايمان ولما ارتد بعض القبائل عن الدين بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ارسل سيدنا ابو بكر الصديق الذي ازدان به مقام الامامة الكبرى رضى الله تعالى عنه العساكر فادبهم.وجمعهم على كلمة واحدة فعاد الامر كما كان ثم تولى بعده حضرة سيدنا عمر الفاروق رضى الله عنه الذي تزين به منبر الخلافة فاقتفى اثاره في حض الاصحاب الكرام رضى الله عنهم على الجهاد وفتح البلاد.ورتب الجيوش واعد الذخائر فقام الصحابة رضى الله عنهم بامره في سائر الاحوال واجلبوا بخيلهم ورجلهم على اهل الافاق واكثرهم لم يرجع الى وطنه بل استمر على الحرب الى ان قضى نحبه. ومن ماثره رضى الله عنه انه كان يخدم بيوت الاصحاب بنفسه ويستقى لهم فيحمل القربة على كتفه هذا اذا لم يكن عندهم من يقوم بذلك وهو اذ ذاك امير المومنين والخليفة الاعظم للمسلمين

ان هجمات العرب وحركاتهم التى ما خرجت عن حد العدل في جميع الامور كانت خالصة لوجه الله تعالى فانهم كانوا لا يمسون من ينقاد اليهم بسوء بل كانوا يؤمنونه من كل خطر واما من جاهر بالمخالفة والقتال فقد قابلوه بالمثل وصار مخذولا مداساً بحوافر الخيل فلذلك يسر الله لهم في زمن قليل فتح ما لا يدخل تحت حد التخمين من الممالك والبلاد وبعد ذلك استمر الحال في زمن خلافة الامامين الجليلين سيدنا عثمان وسيدنا علي رضى الله عنهما على هذا المنوال حتى اتسعت الممالك الاسلامية فكانت ايام الخلفاء الاربعة الراشدين وعمدة الدين القويم كايام الرسالة مزدهية بالحق والعدالة. حتى انه في زمن خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه جاءه رجل من بيت النبوة يشتكى الفاقة فامر له بالف دينار من بيت المال. ثم جاءه ولده عبد الله رضى الله عنه واشتكى مثله فاعطاه درهما واحداً من ماله . فاستقله سيدنا عبدالله فقال له سيدنا عمر ان لاهل بيت النبوة حقاً في بيت المال

وانه الان لفى سعة والحمد لله اما انت فحقك ان تطلب منى على حسب حالي وما يملك ابوك من الاموال حتى تطلب منه الزيادة وروى ايضاً ان سيدنا علياً رضى الله عنه ترافع مع ذميّ في حضرة الشرع لكن وقع بين المسلمين بعض اختلاف في زمن سيدنا عثمان وسيدنا علي رضى الله عنهما ثم بعد خلافة سيدنا علي رضى الله عنه تحولت الخلافة للملك والسلطنة وظهرت دولة الامويين فما فرغت في ايامها ايضاً جعبة اهل الاسلام من سهام الغزو والجهاد بل تمسكوا به وافتتحوا بلاداً اخرى كثيرة حتى ان موسى بن نصير قائد جيوش افريقيا لما فتح البلاد ووصل الى ساحل البحر المحيط في اقصى الغرب ساق فرسه الى البحر فلما عجز عن اقتحامه شك رمحه فيه وقال يارب اني لا استطيع اكثر من ذلك ولو قدرت لوصلت اسمك الكريم الى ابعدَ من هذا. فهو رحمه الله قد ابقى بذلك ذكراً جميلا

وكان مولاه طارق بن زياد احد امراء الجيوش الذين كانوا معه قد دخل الاندلس ﴿ هى مملكة اسبانيا ﴾ بالف وسبع مئة مقاتل اتوها بالسفن من عدوة المغرب الاقصى وذلك فى سنة ٩٢ من الهجرة فتحصن في جبل سمى باسمه الى يومنا هذا ﴿ هو جبل طارق ﴾ ثم احرق السفن التى حملته اليه وقال لمن معه من العسكر هذا البحر وراءكم فلا مفر الا الى الغرق فان تصبروا وتخوضوا عباب القتال فزتم وظفرتم في هذه الممالك والا هلكتم لا محالة. فاشتد عزم المسلمين بهذا القول المبين واقتحموا صفوف الاعداء وهم اكثر عدداً منهم باضعاف مضاعفة وقاتلوا الى ان هب عليهم نسيم الظفر من كل جانب ففتحوا البلاد وملكوها. ثم لما بلغ الخبر موسى بن نصير دب فيه نسيس الغيرة من مولاه طارق فاخذ ستة عشر الف مقاتل ودخل بهم الاندلس واقتحم المهالك وفتح بلاداً اخرى وطد فيها المسالك وتقدم الى اواسط اوربا

ثم ان بعض الخلفاء من الامويين بتقادم الايام والسنين صاروا يتهاونون باحكام الدين ويهتكون حرمة الشرع في كثير من الاحوال ويجهرون بالمعاصى وانواع المظالم حتى ان الوليد الثاني ﴿ بن يزيد بن عبد الملك منهم ﴾ كان على غاية السفاهة يستخف بشعائر الشرع الشريف فنفر عنه المسلمون فسطت

عليهم الغيرة الربانية فشتتت شمل انتظامهم في قليل من الايام وسلبتهم تلك النعمة فوقعوا في اشد النقمة. وصارت الخلافة الاسلامية للخلفاء العباسيين في السنة الثانية والثلثين بعد المئة من الهجرة النبوية

وذلك انه قام داعيتهم ابو مسلم الخراساني فخرج على الامويين وتغلب على امرائهم في بلاد العجم (ايران) وغيرها وبايع الامام السفاح وهو من احفاد حضرة سيدنا العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام. فغرب بعد ذلك في برهة قليلة نجم اقبال الامويين وظهر كوكب سعد العباسيين. ثم انه وان يكن تسلطن جماعة من الامويين في جهات الاندلس فان زمام الخلافة الشرعية وسائر الممالك الاسلامية كانت بايدي العباسيين

ثم ان خلفاء العباسيين اخذوا اخيراً في الانهماك في الشهوات والتنعم فوصلوا الى درجة الاسراف في الانفاق واهملوا امر المملكة ومصالح العباد فضعفت سطوتهم وتزلزلت اركان سلطتهم فتحول نفوذ الحكومة وادارة امورها الى بعض المتغلبين عليهم من الاتراك فاصبحت الخلافة جسما بلا روح حتى ان البعض من اولئك المتغلبين امر بذكر اسمه في الخطبة مع الخليفة على المنبر فكانت الخلافة عبارة عن امر لا وجود له

وتفصيل ذلك ان المسلمين انهمكوا في الترف وغرقوا في بحور اللذات وحصروا الفكر في امر ادارة الملك وترويج العلوم والصنائع والتجارة فقط واهملوا امر الجهاد وفتح البلاد فضعفت شوكة الجند وزالت الصولة العسكرية. واعظم الوقائع التى جرت في ايامهم هى عبارة عن بعض مناوشات على التخوم مع قيصر القسطنطينية

نعم ان مساعى الخليفة المأمون بن هرون الرشيد المعروفة في تسهيل اسباب التمدن وترويج العلوم والمعارف مما لا ينكره احد بل يحمده كل عاقل عليها الا انه قد اخطأ خطاءً بيناً في امر يتعلق بتدبير المملكة وهو انه اعطى ولاية خراسان لرجل يسمى طاهراً مكافأة له على قتل اخيه الامين فاتخذ نيسابور عاصمة لها وجعلها موروثة له ولاعقابه من بعده فكان ذلك باعثاً على ازالة رهبة الخلافة من صدور العمال وداعياً لاهل الدولة لاهمال اوامره واخذ العمال يستقلون بالاحكام في البلدان

ثم جاء بعده الخليفة المعتصم فجمع بعض الاحداث من الترك وجعلهم عسكراً خاصاً به ثم لما اشتد ساعدهم خرجوا عن طاعته وتسببوا في ثورات هائلة كما وقع قديماً في عساكر امبراطوري روميه

فمن اجل تلك الاحوال زالت قوة الخلفاء وذهبت ريحهم فصار ملكهم عرضة للطوائف المتغلبة بل صار اشبه ما يكون باحوال بعض انحاء اوربا التى يعبر عنها (فؤدالتيه) واصبحت الخلافة اسما بلا مسمى

ومن جملة المتغلبين آل صفار فانهم ظهروا في سنة ٨٧٠ ميلادية و٢٥٧ هجرية وملكوا ولايتى خراسان وطبرستان اللتان كان يحكمهما آل طاهر المذكور وايالات اخرى جعلوها دولة عظيمة من عواصمها نيسابور ومرو فانقطعت طرق المواصلة بين خوارزم وبغداد وما وراء النهر فلم تمض مدة الا وظهر آل سامان ايضاً في تلك الجهات فاقاموا دولة لهم مستقلة

وفي اثناء ذلك خرج ايضاً احمد بن طولون عامل مصر والشام عن طاعة الخليفة واستقل بالامر وهو من مواليه تركى الاصل ولما توفي بعد بضع سنين تولى ولده مكانه فصار حاكماً مستقلا في مصر والشام

وبعد مدة اضمحل آل صفار وآل طولون اما آل سامان فقد زادت قوتهم على سائر الخلفاء واستولوا على عدة ممالك لآل صفار

ثم في سنة عشرين وثلاثمائة هجرية ظهر آل حمدان في بلاد الموصل ورتبوا فيها حكومة مستقلة. فقام ايضاً اخشيد التركى الاصل الذي كان والياً على الشام ومصر وادعى الاستقلال وحارب آل حمدان وجرت بينهما حروب كثيرة فكان الخليفة يلاحظهم من بغداد ولكن لايستطيع المداخلة فيما بينهم

وفي خلال ذلك ظهر (آل بويه) في سواحل بحر الخزر فاستولوا على عدة ايالات مثل كرمان وعراق العجم وحكموا فيها فصاروا دولة عظيمة

وظهرت بعض امارات مستقلة كملوك الطوائف في سائر الجهات حتى في حوالي بغداد فكان كل منهم مستقلاً في الحكم الى ان انتزعت البلاد من يد الخليفة فلم يبقَ له سوى بغداد ومع ذلك فقد كانت الكلمة النافذة فيها لضباط العساكر من الاتراك لا للخليفة

وكان الخليفة وقتئذ الراضى بالله فاراد التنصل من هذه الحال فعين وكيلا عنــه مفوضاً سماه امير الامراء وكان بوظيفة سر عسكر فاخذ على عهدته جميع الامور الملكية والمالية في ذلك العصر وان كان يوجد في ذلك العصر في الاندلس عند الدولة الاموية هناك وكيل مطلق كهــذا يسمى عندهم بالحاجب غير ان امير الامراء في بغداد كان نافذ الكلمة فوق العــادة وكان يذكر اسمه على المنابر مع اسم الخليفة ثم انه لم يبق للخليفة امر ولا كلمة وانحصر ذلك في امير الامراء حتى انه كان يتصرف في نفقات القصر فكان هو الحــاكم فعلا وقولا وصار الكبراء يتنافسون في هذا المنصب ويتنازعون عليه فسلبت راحة الاهالي بسبب ذلك فرفعوا امرهم الى آل بويه واستعانوا بهم فحضر منهم معز الدولة الى بغداد في سنة ٣٣٤ هجرية واستولى على هذا المنصب وكان ذا عصبية عظيمة في بلادهم فاستمر هذا المنصب في قومه نحو مايه سنة

ومع هذا الخلل الكلي في الدولة العباسية كان سوق العلم رائجــاً كل الرواج وكان كل امير يسعى في اعلاء مناره حتى ان آل بويه المذكورين قاموا بشأنه احسن قيام

والحاصل ان الخلفاء العباسيين لم تكن لهم كلمة نافذة في جهة ما مطلقاً مع ان المسلمين في جميع الاقطار كانوا يرون الخليفة العبــاسى بمنزلة ملك الملوك ما عدا اهل الممالك التى تحت سلطة الخلفاء الامويين في الاندلس فانهم كانوا لا يرون ذلك ثم بعد ظهور الخلفاء الفاطميين في افريقيــا واستيلائهم على مصر وعلى الديار الشامية في السنة الثامنة والخمسين بعد الثلثمائة وتأسيسهم دولة شيعية ضعفت مكانة العباسيين بالكلية وهؤلاء الخلفاء الفاطميون جعلوا في ابتداء امرهم قاعدة ملكهم مدينتى قيروان ومهديه في قطعة تونس

وبنــاء على ذلك كانت الخلافة الاسلامية في ذلك العصر منقسمة الى اقسام ثلاثة عباسية واموية وفاطمية وكانت السياسة النافذة منقسمة الى اقسام اربعة محصورة في بنى امية (في الاندلس) والفاطميين وبنى بويه والسامانية وهولاء الدول الاربع كانوا يعزون جانب العلم ويروجون امر الصنائع الا انهم لم يتفقوا على امر الجهاد وفتح البــلاد ولم يتعرضوا في ذلك الوقت

لبلاد اوربا وانما تعرضوا لجهات بحر الروم فقط واما ملك القسطنطينية فانه كان بخلافهم فقد تعرض الى ممالك الاسلام بعد سنة ٣٠٠ حتى انه جاوز نهر الفرات مراراً وهجم على ولاية الجزيرة واستولى على عدة قلاع ومدن كانطاكية في جهة الشام وفي سنة ٣٨٧ هجرية ظهر من جهة بلاد الافغان محمود بن سبكتكين الغزنوي الشهير الذي الف كتاب (شاهنامة طوسى) باسمه فحارب آل بويه وقهرهم وأسس دولة عظيمة. ثم بعد ختام سنة ٤٣٠ جاء آل سلجوق من وراء النهر وقاتلوا آل الغزنوى ونزعوا الملك منهم واقاموا دولة جسيمة في بلاد العجم (ايران) وغيرها

واما الخلفاء الامويون في الاندلس (اسبانيا) فانهم حكموا مايتين وخمسين سنة بغاية الانتظام لا سيما عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني ومحمد ابن ابي عامر المنصور حاجب هشام قد ابدوا من الهمة ما ازدادت معه الثروة وانتشرت المعارف وقوى امر المدنية حتى بلغ الغاية لكن بعد وفاة محمد ابن ابي عامر المؤمى اليه انعكس الامر فوقع الشقاق والنفاق بين الاهلين في كل مكان وخرج العمال عن طاعة الخليفة واستبدوا عنه بانفسهم ووقع الخلاف بينهم فصاروا يتقاتلون كما وقع في اوربا بين الامراء من اهل الحسب حتى تزلزلت جزيرة الاندلس وانقلب الحال فيها انقلابا كلياً فاغتنمت الفرصة عند ذلك الحكام المسيحيون واخذوا في التقدم ثم بعد سنة ٤٠٠ هجريه انقرض نسل الامويين بالكلية وقد اخذ بعض الامراء لقب الخليفة انتحالا لانفسهم ولكن بسبب الخلاف والشقاق الذي وقع بينهم بعد سنة ٤٥٠ هجرية لم يبق لهذا اللقب اثر ولم يبق للدولة العباسية من يشاركها فيه الا الدولة الفاطمية المقيمة في مصر

على انه كما ظهر الفساد في بغداد والاختلال في الايالات كذلك الخليفة الفاطمى في مصر وامراء الشام كانوا غير هادئين عن بعضهم ولهذا استمد القائم بامر الله احد الخلفاء العباسيين بالامير السلجوقى وفوض اليه الحكومة الجسمانية لجميع الممالك الاسلامية وذلك في سنة ٤٤٩ هجرية فجمع آل سلجوق وجميع طوائف الاتراك المتجولين في جهتى نهر جيحون وشمر عن ساعد الجد واخذ في اسباب الحرب ومع كون العرب والمستعربين اذ ذاك

كانوا مشتغلين بدرس العلوم وممارسة الفنون فانهم اهتموا للمحاربة فقويت شوكة دولته يوماً بعد اخر فسار بجيشه الى بلاد الاناطولي وحارب ملك الروم حاكم القسطنطينية وغلبه وظفر به واسره وكان الخطباء يخطبون في مكة المكرمة باسم الخلفاء الفاطميين فصاروا يخطبون باسم الخليفة العباسى على المنابر ويذكرون معه الامير السلجوقى اي الب ارسلان

وفي سنة ٤٦٥ توفى الامير السلجوقى الب ارسلان وخلفه في الامارة ابنه جلال الدين ملكشاه الذي كان اكثر اهلية للملك من ابيه ومتصفا بجميع الصفات الحسنة وكان له وزير يدعى نظام الملك ذو عقل كامل ورأي سديد فاخذ الامير والوزير يحسنان السياسة والتدبير في مصالح المملكة وتوسيع نظامها حتى صار اسم الامير يذكر على المنابر في مكة المشرفة والمدينة المنورة والقدس الشريف وبغداد وبخاري وسمرقند وكاشغر . ثم استولى بواسطة سليمان احد اقاربه على ولاية الاناطولي الى حد خليج استامبول ومع كون مدينة اصفهان كانت عاصمة ملكه فان مملكته كانت ممتدة من الهند وسمرقند الى بوغاز استامبول ووصلت شهرته وصوت سطوته الى جميع الاقطار ولم يبق للخلافة العباسية في بغداد حكم سار ولا امر جار بل كانت اسما بلا رسم . وعلى هذا الوجه كان ملكشاه اكبر حاكم في ذلك العصر . وبهذه الصورة تجددت الشوكة والقوة للملة الاسلامية

وتجدد سطوة الملة الاسلامية وقوتها كما ذكر بواسطة الاتراك قد شوش افكار ملوك النصارى وظهرت وقتئذ علائم النصر وتجددت القوة للمسلمين القاطنين في الاندلس . فان الامير يوسف (بن تاشفين) رئيس المرابطين الذي كان ملكاً مشهوراً في افريقيا عظم امره وقويت سطوته فدخل بلاد الاندلس . (اسبانيا) وغلب الملوك المسيحيين ودخل اكثر الممالك الاسلامية التي في اسبانيا في يده بسنة ٤٩٧ هجرية ثم بايع الخليفة العباسى ولما رأى ملوك اوربا ان جميع المسلمين صاروا على وشك الاتحاد والاتفاق زاد ذلك في تاثرهم وحنقهم مع اسباب اخرى سنذكرها . فامتعضوا واتفقت كلمتهم جميعاً وهجمت الجموع الصليبية واقتحموا ممالك الاسلام

وفي اثناء ذلك توفى ملكشاه المشار اليه سنة ٤٨٥ وخلفه احد آل

سلجوق الا انه لم تتيسر له ادارة تلك المملكة الشاسعة فوقع الشقاق بين السلجوقيين وانقسم ملكهم الى عدة اقسام فتشتت قوى المسلمين التي كان ملكشاه جددها وفي اثناء ذلك الاختلال هجم الخليفة الفاطمي المقيم في مصر على بيت المقدس واستولى عليه

اما اهل الصليب فانهم جاوزوا حدود اوربا ودخلوا قطعة الاناطولي كما سنذكره وتسلطوا على عدة اماكن من بلاد الاسلام وجاسوا خلالها ووصلوا الى بيت المقدس واستولوا عليه

وهذا الامر هال المسلمين فاخذ الخوف منهم مأخذاً عظيما ثم ظهرت اثناء ذلك دولة الاتابكية في الجزيرة فحارب الاتابك عماد الدين زنكي الذي مدحه الشيخ سعدي في كتابه المسمى كلستان اهل الصليب حربا عظيمة وظفر بهم واستولى على حلب وصار ركناً متيناً وسداً قويا دون اهل الصليب الذين كانوا يتابعون الغزو على بلاد الاسلام. واستولى ولده نور الدين من بعده على دمشق ايضاً وقوّى شوكة الاتابكية باكثر مما كانت من قبل

اما الدولة الفاطمية فقد كانت مختلة النظام وقتئذ فاغتنم اهل الصليب الفرصة وهجموا على القاهرة فاستمد العاضد الخليفة الفاطمي من الامير نور الدين واستنصره فارسل اليه جيشاً كثيفا الى مصر برئاسة اسد الدين شيركوه الكردي الذي كان من اكبر امرائه وكان ابن اخيه الامير يوسف صلاح الدين بن ايوب احد امراء الجيش في معيته فانقذوا بلاد مصر من يد الافرنج واستقل اسد الدين في مصر بلقب (سر عسكر) يعني رئيس العساكر فلما توفي خلفه صلاح الدين وقبض على زمام الحكومة وكان سنياً فاظهر شعائر اهل السنة ولاول ولايته عزل القضاة الشيعيين ونصب قضاة من الشافعية

وفي سنة ٥٦٧ هجرية ارسل الامير نور الدين من الشام خطابا اليه وأمره بقطع الخطبة باسم الخليفة الفاطمي العاضد على المنابر واقامتها باسم الخليفة العباسي حينئذ وهو المستضيء بامر الله المقيم في بغداد وصادف ورود هذا الامر مرض العاضد فتوفي قبل ان يبلغه هذا الخبر وبعد وفاته استقل صلاح الدين بالسلطنة في مصر. وطار الخبر الى بغداد فسر له اهلها واظهروا

علائم الابتهاج والفرح اياما عديدة وارسل الخليفة المستضيء بامر الله الخلع الفاخرة الى نور الدين وصلاح الدين والى الخطباء وارسل الاعلام السود معها وهى شعار الخلفاء العباسيين. فانقرضت دولة الفاطميين الشيعية من مصر وتأيد مذهب اهل السنة وصار صلاح الدين سلطانا على مصر غير ان نور الدين لم يعترف له بالاستقلال بل كان يعتبره اعتبار السر عسكر تابعاً له وكان يحاول الذهاب الى مصر ليخرجه منها ويستولي عليها فما مضت عليه ايام قليلة حتى توفي رحمه الله وانتقل الملك الى صلاح الدين وانقرضت دولة الاتابكية من الشام واسس صلاح الدين دولة عظيمة باسم الدولة الايوبية ثم انه غلب الصليبين واستولى على بيت المقدس فقويت شوكة المسلمين وضعفت قوى الصليبين من الافرنج الذين كانوا انتشروا في بلاد الشام وفي سنة ٦٤٨ هجرية انقرضت الدولة الايوبية وانتقلت السلطنة المصرية الى مماليكها من التركمان ثم الى الجراكسة الذين كانوا من مماليكها ايضاً وكان هؤلاء المماليك عبيداً ارقاء هم يستخدمونهم في الحرب والنزال فكانوا على غاية الشدة حتى حاربوا الافرنج واخرجوهم من الديار الشامية غير ان اهل الاسلام طرأت عليهم حوادث عظيمة وكان ذلك الزمن زمن طغيان واعتداء ومن اشد تلك الحوادث تسلط المغل والتاتار على البلاد فخرج جنكيز خان وخرب بلاد ايران وتوران

وفي خلال تلك الدواهى العظيمة سنة ٦٢١ هاجر سليمان شاه احد ملوك تركستان جد آل عثمان من بلاد الترك الى ديار الروم مع عشائر التركمان وهم خمسون الف عائلة. وفي سنة ٦٥٦ استولى هلاكو خان على بغداد وسائر العراق وقتل الخليفة المستعصم ومحا رسم الخلافة العباسية وشن الغارة على حلب وحماه

واما امراء مصر من الطائفة المدعوة (كوله من) فانهم قاوموا آل جنكيز اشد المقاومة ودافعوهم كما غلبوا قبلهم اهل الصليب حسبما ذكرناه

وحاصل القول ان دول العرب انقرضت في الشرق والغرب وظهرت ملوك من طوائف اخرى في كل جهة فاختلت احوال الممالك الاسلامية واستولى التاتار على الاقطار الشرقية وكان يظهر في جهات الغرب ايضاً دول

صغيرة ولضعفها لم تثبت ولم تطل ايامها وفي آخر امرها خرجت بلاد اسبانيا (الاندلس) من يد المسلمين بالكلية

وجنكيز خان ملك التاتار لم يكن مسلماً فلذلك قهر المسلمين في بلاد الشرق واذلهم مدة مديدة ثم اسلم بعد موته جماعة من ذريته ثم انقرضوا وبقيت بلاد الشرق في حوزة ملوك الطوائف الى ان ظهر تيمور خان

وفي سنة ٦٥٩ بايع الناس المستنصر وهو من اهل بيت الخلفاء العباسيين وكان وصل مصر هاربا من هلاكوخان ثم استمرت البيعة لاولاده من بعده على الخلافة خلفاً عن سلف الا ان نفوذ الاحكام كان للملوك في مصر ولم يكن في ايدي الخلفاء شيء من الاحكام وما يتعلق بالمملكة سوى الخلافة الاسمية التى كان يتبرك الناس بها كما يتبركون بمشايخ الطرق العالية . وكان الخطباء يذكرون اسم الخليفة واسم سلطان مصر معاً

والحاصل ان الوحدة الاسلامية فقدت . وكلمتها تشتتت . فلذلك لم يكن للاسلام اذ ذاك كهف يلجاؤن اليه فاصبحت ممالكهم في كل جهة مختلة النظام وآل امرهم الى حالة تستوجب الاسف

وكانت اعظم حكومة للاسلام اثناء ذلك حكومة آل سلجوق في مدينة قونية غير انها كانت تعاني اثقالا من غارات قبائل التاتار عليها شرقا ومن ملوك مصر غرباً فاستمرت مدة ضعيفة تدفع للتاتار الجزية السنوية الى ان اختل نظامها . وفي سنة ٦٩٩ هجرية اضمحلت وانقرضت

ثم ان ذلك الزمن الذي كانت مقدماته مظلمة ورؤياه مخيفة كانت عاقبته ولله الحمد والمنة حسنة وذلك باشراق كوكب سعد الدولة العثمانية من برج المهابة والاجلال على الاقطار الاسلامية وتنويرها به

وهذه الدولة السعيدة وان كانت في بدء نشأتها على هيأة حكومة صغيرة فانها كانت جامعة للديانة والشجاعة العربية متصفة بالثبات الذي هو من اخلاق الترك فلذلك كانت مع صغرها جمعية جميلة وكان يشير استعدادها الى انها ستكون كهفاً وملجأ للملة الاسلامية . واليك امر نشأتها فانها لم تستول على ملك مؤسس ولا ظهرت في هيأة ذات مكانة في العالم بل فتحت البلاد ووسعت المسالك وجعلت لنفسها مكانة واسست سلطنة جسيمة . وجمعت من

اداب الملل احسنها والفت لغة من لغات كثيرة ورتبت للملك هيئة جديدة ذات محاسن عديدة. فبظهورها قوي عنصر الاسلام وعظمت شوكته وتجددت سطوته وزال الضعف والهوان وتبدل الخوف بالامان

ان سليمان شاه المشار اليه آنفاً لما هاجر من بلاده ايام فتنة آل جنكيز ودخل ديار الروم ووصل الى حلب من طريق اذربيجان وألبستان اراد الرجوع الى وطنه بعد مدة قليلة فعند مروره من الفرات غرق ومات رحمه الله ودفن في جوار قلعة جعبر. والمحل الذي دفن فيه يعرف ﴿ بترك مزارى ﴾ اي مزار الترك . فرجع اثنان من اولاده مع كثير من العشيرة الى وطنهم القديم وبقى ولده ارطغرل واخوه الصغير دندار وبعض اناس من جماعتهم ثم توجهوا الى جهة الاناطولى ففى اثناء الطريق صادفوا عسكر السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية يقاتل التاتار فانضموا اليه وقاتلوا التاتار معه وهزموهم . ففرح السطان علاء الدين بهم واكرمهم واحسن قراهم. وانعم عليهم بناحية تسمى سكوت ليسكنوا فيها . وكانت هذه الناحية في التخوم التى بين مملكة السلجوقيين والروم فكان ارطغرل بك من امراء الحدود القائمين بالجهاد والغزو لا يألو في ذلك جهداً الى ان توفي في سنة ثمانين وستمائة وخلفه ولده الامير عثمان المسمى بين جماعته بعثمانجق فسار على منهج ابيه ومازال يقاتل الروم ويهاجم بلادهم حتى ابتز من ايديهم بلاداً كثيرة فعند ذلك ارسل اليه السلطان السلجوقى منشوراً ولواء ابيض وآلات الطبول اعلاماً بامارته وولايته وقد لقبه في ذلك المنشور بهذه العبارة ﴿ عثمان غازي حضرتلرى مرزبان عاليجاه عثمان شاه ﴾

استطراد

﴿ ذكر واصف افندي في تاريخه مقالة على سبيل الاستطراد بين فيها ما كان للالوية والتوغات من الاعتبار والمنزلة فاستحسنا ايرادها هنا ملخصة لمناسبة المقام ﴾

قال ـــ ان السر في احداث التوغ والسنجق واللواء هو انه اذا اجتمع

قوم تحت لواء واحد يحصل بينهم الاتحاد بمعنى ان هذا اللواء يكون علامة على اجتماع كلمتهم ودلالة على اتحاد قلوبهم فيكونون كالجسد الواحد ويألف بعضهم بعضا اشد من ائتلاف ذوي الارحام واذا كانوا في معركة القتال لا ييأسون من الظفر ما دام لواؤهم منشوراً بل تقوى همتهم ويشتد عزمهم فاذا سقط لواؤهم أخذوا من جانب الوهم وباتوا موضوعا للخوف والرهبة فينهزم بعضهم ويتبدد البعض الاخر بخلاف ما اذا كان علمهم مرفوعا خافقا مزدهياً تبتهج به نفوسهم فتأخذهم نشأة الفرح والبسالة وتتسلط على اعدائهم هزة الرعب فتأخذ بمجامع قلوبهم وكما ان الموسيقى العسكرية تنعش ارواحهم وتحثهم على الاقدام والشجاعة كذلك مناظر الالوية وتموجها فانها تحدث فيهم دواعي الغيرة وتجلب لاعدائهم الدهشة والفتور

كان لجميع الامم السالفة والدول الماضية آلات موسيقية متنوعة والوية واعلام عديدة

ولم يكن في زمن الرسالة موسيقى بل اعلام فقط. فان في السنة الاولى من الهجرة ارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قدرها ٣٠ نفساً من المهاجرين برئاسة (عمه) سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهم ليتعرضوا قافلة لقريش كانت قادمة من الشام معها ثلاثمائة مقاتل تحت رئاسة ابي جهل فعقد بيده المباركة صلى الله عليه وسلم علماً ابيض على رمح وسلمه لابي مرثد رضى الله عنه . وهذا اول لواء عقد في الاسلام واول سرية الفت من المسلمين لطلب المغانم فكان ابو مرثد اول من حمل لواء للمسلمين وكان هذا اللواء المبارك يعقد في كل غزوة وسرية الى حين غزوة خيبر . وكان يطلق على الكتيبة اسم سرية حتى يبلغ عددها ٤٠٠ نفس فاذا كان فيها حضرة سلطان الانبياء عليه افضل التحيات سميت غزوة واللواء هو العلم الذي ينصب في محل اقامة امير الجيش علامة له

وقد عقد لواء آخر اسود في وقعة خيبر وسمى راية . وعلماء اللغة يقولون ان اللواء والراية بمعنى واحد واما في اصطلاح عصرنا هذا اعنى عند العثمانيين فانه يقال للواء بيرق وللراية سنجق

وقد تعددت الالوية والرايات في زمن الخلفاء . فاما العباسيون فكانت

الويتهم سوداً وكان لباسهم اسود فسموهم المسودة دلالة على حزمهم وماتمهم لشهداء كربلاء وكانت الوية العلويين الذين خرجوا على العباسيين بيضاً فسموهم المبيضة وكانت الالوية ايام المأمون خضراً وكان اللباس اخضر ايضا وذلك لان المأمون غير لون الاسود بالاخضر ﴿ ثم رجع الى الاسود ﴾

واما عدد الالوية والرايات عند باقى الدول فكان عند البعض كثيراً وعند البعض الاخر قليلا فكان في صفوف دولة بنى الاحمر في الاندلس ما يزيد على مايه لواء كلها مزخرفة بالذهب مزينة بالاشكال والصور الغريبة

واما الوية ملوك الترك القدماء في الممالك الشرقية وبلاد دشت وترك وملوك الصين والهند فكانت عظيمة عليها علامات ملونة منسوجة من اذناب الخيول شبيهة بالشعور المرسلة وكانت تحمل امام الجيش وتسمى ﴿ حاليش ﴾ وكان هذا بعينه عند آل جنكيز وآل هلاكو . وقد استعملته الدولة الايوبية والملوك السلجوقيون لكنهم جعلوا على رأسه صورة زورق مذهبة وعقدوا الشعر المحلول المار ذكره ضفائر فازدان بذلك . هذا كان يسمى ﴿ توغ ﴾ عند الدولة العلية في القديم

وكانت تستعمل راية اخرى عظيمة في الدول الشرقية السالف ذكرها تنتشر على رأس الملك وتسمى ﴿ عصابة وسطفه وسنجاق ﴾ ولا يستعملها غير السلطان وفي دولة الخلفاء وضعوا على رأس الالوية والسناجق علماً في صورة الهلال من النحاس المطلي وعلامة اخرى شبيهة بدائرة الشمس مدورة مشقوقة الوسط ولما تغلب بعض الامراء والسلاطين على الخلفاء وتحكموا استنكفوا عن استعمال تلك الالوية ووضعوا على الويتهم وسناجقهم كرة مذهبة تشبه فلكة المغزل واقاموا على الالوية الكبيرة صفائح مذهبة منقوشة بالاشعار وزينوها بالوان سود وميناء منقوشة وهذه الالوية والرايات ذات الهلال الاسود والاخضر التى كانت في القديم مخصوصة بالخلفاء قد انتقلت الى مشايخ طرق الصوفية والى الجوامع والتكايا وكانت تنشر امام جنائز الاكابر وترفع في ايام عاشورا وما ماثلها من الايام المشهورة . ولا غرو فان هذه عادة الدنيا في اهلها فانه متى انقضت ايام دولة او امارة . منها اهملت رسومها وآثارها وما كان دليلا على شهرتها وطرحت في زوايا النسيان

وكانت الدولة العلية تستعمل لواء مخصوصا للوزراء اسمه (يورك بيراغى) عوضاً عن اللواء الابيض واستعملت ايضا سنجقاً كبيراً بدلا من العصابة والشطفة وجعلت الشعر الذي كان يعقد على الالوية ويعرف باسم (توغ) في غاية الاهمية فخصت كل امير من الامراء بواحد منه وخصت امير الامراء باثنين والوزراء بثلاثة وحضرة السلطان بتسعة وما زال استعماله الى يومنا هذا معلوماً . انتهى كلام واصف افندي

اعلم ان استعمال التوغ والعلم ما زال معروفا عند الدولة الى زمن غير بعيد كما ذكره واصف افندي ولكن لما رتب النظام الجديد غيرت هذه الاصول بالكلية وألغى اعطاء التوغ الى الباشاوات بالمرة اما الاصول المتعلقة بالبيرق والسنجق فهى معلومة عند الجميع فلا نخوض في بيانها ولنرجع الى ما كنا بصدده

ولما راى حضرة الغازي عثمان شاه ان الدولة السلجوقية التى كان تابعاً لها قاربت الزوال وان حكومة القيصر في القسطنطنية اختلت احوالها اي اختلال واهملت السياسة اهمالا تاماً وذلك لما حدث وقتئذ من الخلاف في امر الدين بين المسيحيين . اخذ في تمهيد اسباب الملك واستعمال الوسائل مع حسن التدبير مستعينا على نيل مآربه بما اتصف به من سعة العقل وعلو المدارك واحس من نفسه القوة على تأسيس دولة عظيمة

وفي سنة ٦٩٩ هجرية انقرضت الدولة السلجوقية وقام امراؤها وولاتها ونادوا باستقلالهم في بلادهم فتيسر حينئذ لحضرة عثمان الغازي ان يؤلف قلوبهم عليه وخطب باسمه في يكيشهر التابعة لبروسه

الفصل الرابع

(في بيان احوال الدولة العلية المختلفة)

اعلم ان حكومة حضرة عثمان الغازي خان الذي هو شريف الاصل واصل الشجرة العثمانية قد اتصلت ايامها احدى وعشرين سنة مضت كلها في الغزو والجهاد وفتح البلاد فكان احيانا يذهب بنفسه واحيانا يرسل السر عسكر

ولده الغازي اورخان بك ففتح كثيراً من المدن التى للقياصرة في جهة الاناطولي واسس الدولة العليــة الدائم بنيانها بهذه الممالك الجديدة وببقايا الدولة السلجوقية

ثم توفي رحمه الله سنة ٧٢٦ هجرية وكان ولده اورخان الغازي قد فتح وقتئذ مدينة بروسه فتولى مكانه وجعل هذه المدينة عاصمة المملكة . ثم قلد اخاه علاء الدين باشا منصب الوزارة فقام باعبائها واشتغل في تاسيس النظامات والقوانين واستمر حضرة الغازي اورخان على ما كان عليه من فتح البلاد فافتتح بلاداً كثيرة من الاناطولي وضمها الى مملكته العثمانية وارسل ولده الكبير سليمان باشا الى جهة الروم ايلي فاستولى على كليبولي ونواحيها وتمكن من فتح طريق اوربا

ثم توفى سليمان باشا هناك وهو مقبل على الحرب والجهاد ثم توفى بعده بقليل ابوه حضرة اورخان الغازي رحمهمـا الله فتولى مكانه ولده الصغير حضرة مراد الاول وكان يلقب (بخداوندكار) فاستولى على كثير من البلاد في الاناطولي وعلى مدن كثيرة وقلاع عديدة في جهــة الروم ايلي كمدينة (ادرنه وفلبه وسلستره) وضمها الى الممالك العثمانية

ثم توفي رحمه الله في السنة ٧٩٢ من الهجرة . وجلس مكانه ولده السلطان يلديرم بايزيد خان واقتفى آثار اسلافه واستولى على كثير من البــلاد حتى اتسعت الممالك العثمانية في ايامه اتساعاً عظيما فلقبه الخليفة العباسى المقيم في مصر وخاطبه بلقب سلطان اقليم الروم بعد ان كان يخـاطب اباه وجده بامير

فهذا القرن هو الدور الاول للدولة العلية فانها في تلك المدة اي بظرف مئة سنة قد عظم امرها وقويت اركانها وصارت دولة عظيمة بعد ان كانت امارة صغيرة وذلك بسبب استمساكها بوصية المرحوم الغازي عثمان وهى انه لما حضرته الوفاة اوصى ولده حضرة اورخان الغازي بوصايا ثلاث فقال اولا تمسك في كل امورك بالشريعة الغراء وشاور في المهمات اهل الرأي والدهاء ثانياً اعطِ كل ذي حق حقه من التكريم والانعام من الخواص والعوام لاسيما العلماء الاعلام الذين هم دعائم دين الاسلام لتكون مظهراً لما قيل (خيرالناس

من ينفع الناس》 ثالثاً حيث انك خليفتى من بعدي فتنبه لما هو اعظم ركن من اركان هـذا المقام وهو التعظيم《لاوامر الله والشفقة على خلق الله》 واطلب النتائج الخيرية من اعلاء كلمة الله والغزو لوجـه الله فعمل حضرة اورخان الغازي بهذه الوصية وسلك بنوه فيها على منهجه القويم وازالوا عن البلاد غشاوة الظلم وما كان في بعض الممالك الاسلامية من التعصب المخالف للسنـة النبوية وسلكوا جادة العدل والدين متمسكين بالشرع المبين من غير افراط ولا تفريط وعدلوا بين الرعية حتى رفع الله منارهم وقوى اركان سلطنتهم في برهة يسيرة وايام قليلة

اما العساكر في ذلك الوقت فلم تكن على هيئة منتظمة في جهة من الجهات الا ان عساكر الدولة العلية كانت بالنسبة لحال الزمان على غاية من الانتظام وكانت البلاد التى تفتح عنوة تعطى اراضيهـا للغزاة باعتبار التيمار《راتب》 والباقى يعتبر من الاراضى الخاصة التى يعين قسم منها للامراء والباقى لخزينة الدولة بعنوان《خاص همايون》 وبذلك كان يتزايد عدد فرسان ذوي التيمار كلما اتسعت البلاد العثمانية وكان هولاء الفرسان ماهرين في الفنون الجنديـة واستعمال السلاح وكانوا يتنافسون في اقتناء السلاح الجميل والخيل الحسان وكانوا على اتم وجه من الضبط والانتظام والمعرفة بالفروسية وكانوا يذهبون الى الحرب في معية امراء السناجق

وفي زمن الغازي اورخان رتبت الدولة عساكر مشاة موظفة من اولاد الاتراك وبعد مدة كانت تلتقط على هذه الصورة رجالا من اولاد النصارى فاذا صاروا الى حالة حسنة من التربية والانتظام ادخلتهم في سلك اليكچرى《الانكشارية》 فهم نخبة موظفون يقيمون في الثكنة على الدوام وهم على غاية الطاعة والانقياد مع ما هم عليه من الشجاعة والثبات في المعارك

ورتبت الدولة نوعا آخر من العسـكر وسمته《مُسلّم》 ورفعت عنهم الضرائب الاميرية بشرط ان يكونوا متهيئين للحرب بمعية امراء الالوية عند مسيس الحاجة

وحيث كان مشروطاً على الخيالة ذوي التيمار ان يتوطنوا ضمن اللواء الذي يكون تيمارهم فيه رتب ايضاً في زمن حضرة خداوندكار الغازي نوعان

آخران من العسكر سماها بلوك سپاه وبلوك سلحدار بشرط ان يكون اربابهم موظفين وعلى اهبة الحرب كالانكشارية . واما العسكر الذي له العلوفة ويسمى ﴿قپوقولى﴾ فكان المشاة فيه من الانكشارية والخيالة من بلوكى السپاه والساحدار وكان هولاء الخيــالة منتخبين من الملتقطين ومن اخذوا اسرى في الحرب وتربوا في السراي الهمايونية وفي بيوت الامراء والوزراء . كالانكشارية وفي زمن يلديرم بايزيد احدثت الدولة اصول التعليم الجندي وجدّت في تعليم هؤلاء العساكر المشاة والخيالة

وهيأ يلديرم بايزيد خان ما كان مطمح انظار العثمانيين منذ زمن حضرة عثمان الغازي وهو فتح القسطنطينية لكن من سوء الحظ استولت عليه اهواء النفس في أواخر امره فتهافت على ما لا يليق من الاسراف والتبذير والميل مع هوى النفس والاسترسال في اللهو والخــلاعة وغير ذلك من دواعى التأخر فاغتنم الفرصــة تيمورلنك وسار على الدولة العلية في سبعماية الف مقاتل. فقابله يلديرم بايزيد المشار اليه فوقع في يده اسيراً بحكمة من الله فاستولى عليه الهم والكدر فمرض ومات رحمه الله وذلك سنة ٨٠٥ هجرية

ولما كان اعتلاء شأن الدولة العلية في مدة يسيرة وازدياد شوكتها ورفعة مكانتها بوجه خارق للعادة مما ساء دول اوربا فرحوا طبعاً بما وقع من حكم القضــاء والقدر على يلديرم بايزيد حتى ان ملك الفرنسيس في ذلك الوقت ارسل يهنى تيمور بما حصل له من الظفر واجابه تيمور بكتاب باللغة الفارسية وقد اثبتناه مع ترجمته في ذيل هذا المجلد بعدد ٢

وبعد يلديرم بايزيد تنازع اولاده في امر الملك ووقعت السلطنة السنية لذلك في فترة فاصلة ﴿يعنى منفصلة عن محورها الاصلي﴾ مدة احدى عشرة سنة على ان ضربة اليمة كهذه لو وقعت على اية دولة كانت لمحتها عن اخرها الا ان اساس الدولة العلية كان متيناً جداً فاستقر امرها . ثم ان السلطــان محمد خان ﴿چلبى﴾ تغلب على اخوته فتهيأت له اسباب الاستقلال بالملك فرفع شأن الدولة العلية وعادت في زمن قليل الى سابق عزها ثم توفي في سنة ٨٢٤ للهجرة وقام بشأن الملك من بعده ابنه السلطان مراد خان الثاني فقوّى اركان الدولة ووسع نطاق المملكة بما يزيد على ما كانت عليه ولما توفي رحمه

هو السلطان الرابع كذلك حصل لها تهاون في امر الفتوحات وذلك في اواخر الدور الثاني من زمن السلطان بايزيد خان الثاني الذي هو ثامن السلاطين

فلما تنازل بايزيد خان الثاني وتخلى عن السلطنة سنة ٩١٨ هجرية وجلس ولده حضرة السلطان سليم خان توجهت الافكار الى الفتوحات وبلغت شوكة الاسلام الى الدرجة العليا

وذلك انه بعد الامير تيمور قام اولاده وقره قويونليلر واق قيونليلر واوز بكلر واقاموا حكومة في بلاد العجم مدة قليلة . وبهذا الاثناء ظهر بعض مشايخ يقال لهم الصفويه في مظهر الارشاد فكان مرامهم تحويل الامر من المشيخة الى السلطنة فكانوا يجمعون الناس في هيئه المريدين والدراويش حتى كثرت اتباعهم يوماً فيوماً وقوي عنصرهم وكان فيهم الشيخ اسماعيل الصفوي ابن احد المشايخ فانتحل لنفسه لقب شاه ايران وسار بجماعته على البلاد الشرقية بدعوى اشتهار مذهب الشيعة فاقتحمها واستولى عليها فاستمر مذهب تيمور (في فساده) وعزم على دخول بلاد الروم والاستيلاء على الاناطولي والوصول الى اسكدار ولم يدر ان الدولة العلية قد استتب لها الملك وتمكنت من اريكتها ولا علم ان هناك شهماً هماماً وبطلا مقداماً وهو السلطان سليم (ياوز) الذي لما بلغه خبره سافر اليه في عساكره العثمانية متولياً قيادتها بنفسه وهزمه اقبح هزيمة وفرق جيوشه (وجال في تلك الاقطار) فدخل ايران وكردستان وكرجستان وشن الغارة على تلك النواحي ودوخها بالخيل والرجل

ثم لما علم الشاه اسماعيل انه يتعذر على حكومة اسلامية ان تبقى في في جوار دولة اسلامية اخرى عظيمة ابدية القرار الا باختلاف المذهب اقبل على بث مذهب الشيعة في ديار ايران واقام الدولة الصفوية على اساسه فتمكن من القاء الشقاق وتحريك الاحن بين اهل الملة الاسلامية

ولما علم السلطان سليم ان دولة الجراكسة في مصر كانت ميالة الى الشاه اسمعيل اثناء الحروب التى جرت بينه وبين الدولة العلية قرر وجوب تربيتهم بالذهاب الى مصر ثم بلغه ان الغوري سلطان مصر اعد الاموال والذخيرة

واستعد للاستيلاء على ديار الروم وحصر الاستانة كما خطر ذلك في فكر الشاه اسمعيل فلم ينجح حسبما تقدم آنفاً فخرج السلطان سليم بعساكره فلاقى جيوش الجراكسة في ارباض حلب واشتبك القتال بين الفريقين ثم دارت الدائرة على الغوري وصرع في ميدان القتال وانهزمت جيوشه وتفرقت شذر مذر وتتبع السلطان سليم المظفر جماعة ﴿ المماليك ﴾ وابادهم واستولى على الديار الشاميه ثم الاقطار المصرية والحجازية . وتاريخ ذلك في حساب الجمل ﴿ فاتح ممالك العرب ﴾ وكان قبل هذا الفتح يدعى سلطان الدولة العثمانية وبعده لقب بخادم الحرمين الشريفين وخليفة الاسلام زيادة على لقب السلطان وعند رجوعه من مصر نقل الآثار النبوية الشريفة التى هى شعار الخلافة الى الاستانة عاصمة السلطنة العثمانية فجمع بين الخلافة والسلطنة ووصلت الدولة العلية الى مرتبة عليا هى خليقة بها فاتحدت كلمة المسلمين وتجددت قواهم

ومن الامور المسلمة ان قوة الدولة واتساع نطاقها وشدة اقتدارها في عالم الوجود انما تكون بحسب قوى عناصرها الاصلية وجسامتها وعنصر الدولة العلية الاصلي وان كان في اوّل نشأته ضعيفاً فانه قوي بعد ذلك وتجسمت الدولة وكثر عددها وقويت شوكتها بانحياز الاتراك اليها بعد انقراض الدولة السلجوقية مع من اسلم من الروم على يدها فصارت دولة عظيمة مؤلفة من الاتراك والروم وغيرهم ﴿ من القبائل والشعوب ﴾

ثم ان حضرة السلطان سليم خان ﴿ ياوز ﴾ لما جمع بين الخلافة والسلطنة كما ذكرناه آنفاً اقتضت الاحوال ان جميع الموحدين يعدون اعظم اجزاء عنصر هذه الدولة الاسلامية غير ان اهل ايران استمروا خارجين عن هذا العنصر حيث سرى فيهم سم النفاق الذي بثه اسماعيل شاه بين المسلمين فكانوا لذلك حاجزاً منيعاً بين المسلمين السنيين القاطنين في ما وراء النهر وبين الدولة العلية في بلاد الروم فلم يتيسر لاولئك السنيين ان ينالوا شرف التابعية فبناءً على ذلك رأت الدولة حينئذٍ ان تجمع بوحدة الخلافة تحت لوائها جميع الامم التى تعدمن عناصرها الاصلية في الشرق والغرب والهند والسند

هذا الذي كان يخالج صدر حضرة السلطان سليم خان ﴿ ياوز ﴾ حتى

الله في السنة ٨٥٥ تولى مكانه ولده حضرة ابي الفتح السلطان محمد خان الثاني

وكان وقتئذ حدث نزاع مذهبي بين الاروام ووقع الضعف والوهن في امبراطورية الاستانة حتى انه لم يبق للامبراطور من السلطة الا مجرد الاحتشام والرسوم والعادات البسيطة ويروى ان وكلاء القيصر لما بلغهم ان حضرة السلطان محمد خان الثاني بنى قلعة ﴿ بوغازكسن ﴾ وسد عليهم خليج القسطنطنية اختبطت عقولهم واضطربت افكارهم وعقدوا للمذاكرة في هذا الامر مجلسا كبيراً في ايا صوفيا فاخذوا يتزاحمون في اوقات الاجتماع على التقدم في الجلوس ولم يراعوا حقوقهم بحسب مراتبهم فأدى بهم ذلك الاختلاف الى التضارب بالكراسى على الروس . وفتح الاستانة وان كان ممكناً قبل هذا الاوان نظراً لارتباك احوال اهلها فان عوارض الزمان قد حالت دونه ثم لما صار الامر الى حضرة ابي الفتح محمد خان المشار اليه تمكن من حل هذه العقدة وفاز بما كان يامله

وذلك انه في سنة ٨٥٧ هجرية جهز المشار اليه عساكر جرارة ومدافع عظيمة وزحف اليها من جهة ادرنه وفتحها

فاهتدت الدولة العلية بذلك الى مركزها الحقيقى واصبح حضرة الفاتح بعد ان تمت له لوازم السلطنة بهذا الفتح جديراً بلقب ملك الملوك

ولا يخفى ان سعادة كل امة من الامم ناشئة عن اتحاد الكلمة واتفاق الراي وكرم السجايا كما ثبت ذلك وتحقق عندنا من هذه القضية فان الروم كانوا على غاية ما يكون من القوة المالية والمعرفة بامور السياسة الدولية حتى ان اوربا كانت تستفيد منهم وذلك ايام انتشارهم في اوربا بعد فتح القسطنطنية فغلبهم العثمانيون الذين كانوا بالنسبة اليهم شرذمة قليلة مقيمة في ضواحى الاناطولي وما ذلك الا لدخول الفساد على اخلاقهم وشدة الشقاق فيما بينهم فلم تنفعهم قواهم المالية ولا معارفهم السياسية

ولما كان موقع القسطنطنية الطبيعى والجغرافي من اجل المواقع السياسية في الكرة الارضية كانت غلبة الدولة التى تحل بها لسائر الدول امراً طبيعياً كما نقل عن نابوليون بونابرت انه قال لو كانت الكرة الارضية في حوزة

دولة واحدة لكان يلزمها ان تخذ الاستانة عاصمة لها . فبناء عليه لما فتحت الدولة العلية الاستانة استقر لها المقام فيها فبلغت سطوتها درجة الكمال واستكملت اسباب الغلبة على سائر دول اروبا في مدة يسيرة ولولم يساعدها القدر في فتح القسطنطنية لما استطاعت ان تبلغ هذه القوة والاقتدار ولذلك كان الملوك العثمانيون موجهين انظارهم الى هذا الامر المهم وقد ورد في الحديث الشريف « لتفتحن القسطنطنية فلنعم الامير اميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » اشارة الى هذا السر

وبعد فتح القسطنطنية احرزت الدولة العلية في مدة وجيزة اسطولا كامل العدة والذخيرة واستولى حضرة الفاتح على قريم وعلى قلاع ومواطن كثيرة في اسيا واروبا وضمها الى ممالكه وحيث كانت الدولة العلية تراعى جانب العلماء والفضلاء وتكرمهم كل الاكرام كانوا يؤمونها من كل فج عميق واصبحت القسطنطنية في ذلك العصر داراً للعلوم والفنون

وفي سنة ٨٨٦ هجرية توفى الفاتح وجلس مكانه حضرة ولده السلطان بايزيد خان الثاني ففتح ايضاً بعض بلاد وقلاع

وفي هذه المدة اعنى من زمن السلطان محمد جلبي الى هذا الزمن اي مدة مئة سنة تقريباً زادت سطوة الدولة زيادة عظيمة وقويت شوكتها ثم زيد في عدد مشاة الانكشارية المنظمة المسماة « قپوقولي » بلوكات « الطوبجيه والخمبره جيه والعربه جيه واللغمجيه والجبه جيه » والحق بعدد الخيالة المسماة بلوكات « سپاه وسلحدار » اربعة بلوكات سميت « علوفجيان يمين ويسار وغربايي يمين ويسار » واما عسكر الايالات ذوو التيمار فانهم زادوا زيادة عظيمة وانتظمت احوالهم انتظاماً تاماً وكان للدولة فرسان خفاف غير هؤلاء قاطنون في الروم ايلي واسمهم آقنجى وظيفتهم السير امام العساكر السلطانية والدخول قبلها الى بلاد العدو وشن الغارات ارهابا وتهويلا

وبالجملة فقد كان هذا العصر عصر نجاح واقبال للدولة العلية الا انه كما يدخل على الانسان فتور القوى والضعف اذا مضى عليه ماية عام من العمر كان لا بد للدول ان تضعف وتنتهك اذا مر عليها طويل زمن وكما حصل ضعف للدولة في اواخر القرن الاول في زمن يلديرم بايزيد خان الذي

عناصرها الاصلية التى تركبت منها لم تكن لها طاقة على صيانتهـا والاحاطة بها فخرجت من يدها في مدة يسيرة وعادت الى دائرتها الاصلية التى كانت تدور عليها رحاهـا في زمن السلطان سليم ﴿ ياوز ﴾ فلو سار الخلف على مسلك السلطان سليم الياوز لكان يظن ان قوة الدولة وجسامتها تنتقل الى حال اعظم

ومع ذلك فان الملوك العثمانيين الذين زينوا تخت الامـارة والسلطنـة والخلافة منذ ظهور الدولة الى ذلك الحين عشرة سلاطين على التعاقب فكان كل منهم سما به عصره وازدان به دهره وهذا لم يتسن مثله لدولة من الدول غير ان حضرة يلديرم بايزيد خان في اخر امره وقع في اشراك القضاء فالقت سفينة الدولة مراسيها مدة اخلدت فيها الى السكون ومر ايضاً عصر السلطان بايزيد خان الثاني على هذه الحال وكان ذلك سكوناً واقفـاً بين حركتين عظيمتين

﴿ قيل في امثال العامة ﴾ الورد يلازمه الشوك والدفينة تأوى اليهـا الافاعى فقد كانت الثروة التى حصلت في ايام السلطان سليمان داعية الى الشهوات والوقوع في السفاهة فدخل على مزاج الدولة امراض رديئة ظهرت آثارها سيئة في برهة يسيرة

وفي سنة ﴿ ٩٧٤ ﴾ هجرية انتقل الى دار النعيم حضرة السلطان سليمان خان القانوني فجلس على سرير الملك من بعده ولده السلطان سليم الثاني على ان وفاة السلطان سليمان وان كانت من الخسائر العظيمـة على الدولة والملة فان وجود محمد باشا صوقوللي في مقـام الصدارة قد عوض هـذه الخسائر فانه كان من اهل الذكاء والنبل ومن ذوي الصدق والامانة فيخدمة الدولة ممدوح المآثر عاقلاً للغاية مدبراً ذا رأي سديد فقام باعباء خدمـة الدولة على اتم الوجوه حتى ان الدولة لم تشعر بفقد السلطـان سليمان ثم انقضت ايام السلطان سليم الثاني على ما يرام

وفي سنة ﴿ ٩٨٢ ﴾ توفي الى رحمة الله تعالى وتولى مكانه ولده السلطان مراد الثالث فازدادت في ايامه دواعى السفاهة والذوق والصفاء وصارت كلمة الندماء والقرناء نافذة فضاق الوزير المشار اليه ذرعاً عن هذه الامور ومع

ذلك فلم تفتر همته بل عارض ووقف سداً مانعاً لجميع المضرات . وقصارى القول ان هذا الوزير الخطير لم يأتِ امراً مضراً بمصلحة الدولة في ايام صدارته التي مر عليها ثلاث سلاطين في مدة ١٥ سنة

وفي سنة (٩٨٧) دخل عليه احد الاشرار في زي مجذوب وهو في الديوان فقتله فذهب شهيداً وقتل القاتل ولم يعلم سبب جراءته وهل ارتكب تلك الفعلة المنكرة من عند نفسه ام كانت باغراء احد من ابناء جنسه

ومن بعده انحط اعتبار الديوان واهمل شأن القوانين والنظامات وصار الندماء والقرناء من ذوي النفوذ يتداخلون في كل امر فوسدت امور الدولة لغير اهلها فخرجت عن وضعها الأصلي وظهر الفساد داخل المملكة من جهات شتى وكان من جملة سؤ التدبير اشهار الحرب على النمسا بما لا طائل تحته فانتهى دور الدولة الثالث على هذه الحال المشوشة للافكار

استطراد

(ذكر واصف افندي في تاريخه جملة فصّل فيها فائدة ترتيب الدواوين)
(وتأسيسها فاوردنا خلاصتها بهذا المقام على الوجه الآتي)

(قال) ان من اجتمعت فيه النبوة والخلافة من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ومن اتى بعدهم من عظماء الملوك كانوا يتخذون لاستماع الدعاوي واجراء الاحكام وعقد الامور وحلها وفصل المنازعات وحسمها محلاً خاصاً يجلسون فيه ويباشرون فصل الامور بانفسهم. منهم سيدنا يوسف عليه السلام فانه كان يجري الاحكام وهو جالس على كرسيه في سرايته الخصوصية في مصر وسيدنا داود عليه السلام كان يباشر الاحكام ايضاً وهو جالس في قبة العهد بالقدس الشريف وسيدنا سليمان عليه السلام كان ينفذ الاحكام وهو على كرسى مرتفع في تلك القبة ايضاً . ولما رجع سيدنا موسى عليه السلام من الطور امر بنى اسرائيل ان يأتوا بالوف عديدة من اذرع القماش فخيطت وجعلت خيمة واسعة على شطرين احدهما خارجي والثاني داخلي سماها بيت النبوة وكان الشطر الداخلي مزداناً بانواع الزينة

انه كان يريد المسير ثانياً الى ايران ليقوض بنيان مذهب الشيعة ويمحو آثار الدولة الصفوية التى كانت مؤيدة له وجادة في نشره غير ان عمره كان قصيراً ففي مدة ثمان سنين التى كان فيها سلطاناً استولى على المشرق والجنوب وعزم على المسير الى المغرب والشمال ففاجاته المنية وذلك سنة ﴿ ٩٢٦ ﴾

فجلس بعده ولده حضرة السلطان سليمان خان القانوني فجهز الجيوش ايضاً ﴿ وبعث البعوث والغوازي ﴾ شرقاً وغرباً وسار بنفسه فافتتح ثلاثمائة وستين حصناً من الحصون المنيعة وروّج سوق العلوم والمعارف ووضع نظاماً مخصوصاً لترقى رجال العلم ونظم القوانين المالية للدولة وسائر دوائرها الاميرية وزاد في عدد طوائف العساكر المعروفة «بقبوقولي» وفي عدد عسكر الايالات المسماة ﴿ تيمارلو ﴾ ووضع لهم قوانين جديدة فاشتهر لذلك بالقانوني

وفي ذلك العصر كانت المشاة من عساكر اوروبا مجموعة من اصناف شتى جاهلة بامر الحروب وكان فرسانها على حالة غير مرضية فانهم كانوا يخدمون الامراء الذين يدعون المساواة بالملوك . اما الدولة العلية فكانت عساكرها المشاة والفرسان منظمة كثيرة العدد فلذلك تمكنت من مرادها وانتشرت سطوتها ووقعت رهبتها في قلوب العالم اجمع

وفي سنة ﴿ ٩٣٦ ﴾ سار السلطان الغازي سليمان خان الى بلاد اوستريا وحاصر مدينة ويانا المعروفة يومئذ بمدينة ﴿ بج ﴾ عاصمتها وبعد وقوع حروب شديدة ترك محاصرتها بسبب دخول فصل الشتاء فاقلع عنها ورجع ﴿ الى عاصمته ﴾ وكانت اساطيل الدولة العلية ايضاً في غاية القوة فائقة على اساطيل الدول الاوربية جميعاً كما سنبين ذلك في محله وكان ايضاً وزيرها خير الدين باشا المعروف بجليل المزايا وحسن السجايا رئيساً بحرياً خاض عباب البحار فارهب جميع ثغور اوربا بشدة سطوته فهو جدير بان يكون واسطة عقد امراء البحر . وكانت اساطيل الدولة في بحر الروم غالبة على اساطيل سائر الدول وكانت تتجول في البحر الاحمر ومياه عمان وتنفذ كلمتها في سواحل اليمن والهند

وفي اثناء ذلك قام امبراطور المانيا على دولة فرنسا فضيق عليها الجهات وحاربها فغلبها واسر ملكها فرنسوى فجاء جوني فرانجياني سفيراً مخصوصاً

الى الاستانة سنة (٩٣١) مستغيثاً بحضرة السلطان سليمان فدفع اليه كتاباً رجع به وقد ادرجنا هذا الكتاب في ذيل هذا المجلد رقم (٣)

وفي سنة (٩٣٣) سار حضرة السلطان سليمان في العساكر الى بلاد المجر فدخلها ومن بعد ثلاث سنين زحف الى ويانا وفي اثناء ذلك تمّ عقد الصلح بين الملك فرنسوى امبراطور المانيا .

وما برح ملك الفرنسيس بعد ذلك يستمد ويستعين بالسلطان ويتابع ارسال السفراء والكتب اليه في ذلك . وفي سنة (٩٥٠) بعث السلطان خير الدين باشا في الاسطول الهمايوني مدداً لفرنسا كما سنذكره . واستمرت فرنسا اخيراً تستمد من الدولة العلية فارسلت اليها سفيراً مخصوصاً وكان السلطان سليمان اذ ذاك يحارب في جهة الشرق مستنيباً عنه في الاستانة وزيره الثاني ابرهيم باشا فلما قابله السفير فى الديوان الهمايوني اجابه شفاهاً بما دل على اقتدار الدولة وعظم نفوذها في الاقطار الغربية وصورة جوابه اثبتناها في ذيل هذا المجلد في عدد (٤)

ثم عرض هذا الامر على حضرة السلطان وكان وقتئذ معسكراً في صحراء ترجان فاصدر امره العالي الى پياله بك امير البحر بالسفر حالاً بالاسطول الهمايوني مدداً لدولة فرنسا وقد اثبتنا صورة هذا الامر في الذيل عدد (٥)

وحاصل القول ان حضرة السلطان سليمان خان اخرج من القوة الى الفعل اكثر ما خالج خلد والده فكانت ايامه مزدهية زاهرة بمحاسن النبل حتى ان القلم يقصر عن ايضاح ما جرى فيها من الحوادث المهمة والامور الخطيرة

وقد تقدم ان السلطان سليم (ياوز) كان في عزمه ان يجمع اولاً الطوائف الاسلامية من الجهات المختلفة في نقطة واحدة تعزيزاً للشوكة الاسلامية وثانياً انه بعد ذلك يتوجه الى المغرب والشمال فهذا العزم المهم لم يحققه من جاء بعده ولم يراعوا حقه بل صرفوا هممهم مدة طويلة الى بلاد المجر ونحن لا ننكر ان الدولة العلية اتت بامور كثيرة حسنة لداخليتها وخارجيتها . وانها فتحت عدة ممالك جديدة ووسعت الحدود ولكن

عينه لجلوسه وجلوس اخيه هرون عليهما السلام وللوجوه من اولاد هرون يجلسون فيه ويجرون الاحكام والشطر الخارجى الذي كان بمنزلة ديوان اي (ديوانخانه) يقعد فيه من بقي من كبراء بنى اسرائيل للنظر في الامور واستمر الحال على هذا المنوال حتى ملك سيدنا موسى القدس الشريف حسب الوعد الالهى . وعلى ما نقله المؤرخون ان (كيومرث) وهو اول من جلس على سرير السلطنة (من بنى آدم) كان يقعد كل يوم عند طلوع الشمس على صخرة مرتفعة كالمصطبة مدورة الشكل في فضاء خارج البلدة ويسمع دعاوي الناس وينشر العدل بمقتضى الاحكام الالهية المسطرة في صحف سيدنا ادم وكان على راسه غطاء كالتاج من جلد الاسد ويجلس على سجادة من جلد النمر وبيده عصا وكانت الخدم تقف في خدمته مكتوفي الايدي ولباسهم من جلود النمر وينفذون الاحكام بين يديه . وجاء بعده الملك (هوشنك) واتخذ بدلا من الصخرة المذكورة سريراً وزينه بزينة فاخرة واقام فوقه مظلة . واما اسرة الملوك الاكاسرة فانها كانت مكللة بالجواهر وانواع التحف كما هو مسطر في التواريخ

ولما بعث حضرة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام كان يجلس مع جميع صحابته الكرام في مسجده الشريف للنظر في مصالح الامة (وهكذا سيدنا ابوبكر رضى الله عنه من بعده) وسيدنا عمر وسيدنا عثمان رضى الله عنهما اتخذا مجلسا على ترتيب الديوان فى بيت مخصوص وكذا معاوية اتخذ لنفسه دائرة خصوصية كان يجلس فيها على كرسى مثل التخت ويجري الاحكام ودام الحال على هذا لاخر ايام الدولة الاموية . وكانت الدولة العباسية تراعى هذا القانون رعاية تامة وفي اواسط ايامها زاد الاحتشام والاحتجاب عندها وفرشت الدواوين بالفرش الملوكى وعينت كراسى لقاضى القضاة والوزراء وسائر اصحاب المراتب وتركت محل الخليفة خالياً فكان الوزير يرى امور الديوان والخليفة ينظر اليه من منظرة عالية حيث لا يرى شخصه لكن في الاعياد كان يخرج ويأتي جميع الوزراء والاعيان الى حضرته فمنهم من يصافحه ومنهم من يقبل يد الخليفة والمعتصم الذي هو اكثر ميلا الى الاحتشام والابهة من جميع الخلفاء قد زاد في التعاظم وسمى الديوان دار العدل وعمل قصراً

عالياً يصعد اليه بسلم فكان ينقل ويوضع امام فسطاطه في الحروب وقدسماه قصر العدل وسدل على منظرته التى ينظر منها الديوان ستارا اسود مذهباً من كسوة الكعبة المكرمة وعلق في اطرافه سجافا مذهبا كان الموكلون به يرفعونه في يوم الجلوس ومع هذا ما كان يرى شخصه من وراء قضبان النافذة الذهبية وكان يجلس في الاعياد والايام الرسمية على كرسيه المرصع بما يدهش الانظار وعلى جانبه اليمين سيف سل نصفه وعلى الجانب الاخر قوس حديدي شد وتره وكان يلبس جبة سوداء مزركشة بالذهب وعلى دائرة القبة ذيل طوله سبعة اذرع مدلى على الارض فكان الذي يحضر لملاقاته يقبل طرفه المدلى وما وجد احد افرط في الثروة الكسروية مثل المعتصم وكان اجتماع اهل الديوان في قصر الملك من العادات القديمة واما الوزراء والوكلاء فانهم وان كان لهم دواوين في سراياتهم ينظرون فيها الامور المفوضة لهم لتخفيف الاشغال عن الحضرة السلطانية فانه كان لفتح الديوان في اوقات معينة في سراية الملك واجتماع الوزراء ووكلاء السلطنة فيه اسرار عظيمة

هذا هو الديوان الاصلي وما عداه من الدواوين كلها فرعية . فكان أعيان السلطنة واصناف العسكر في هذا المجلس يجلسون في اماكنهم المخصوصة بهم المعينة لهم في القانون بالالبسة الرسمية المتعارفة فينظرون في امور العباد على مرأى ومسمع من عموم الناس وكانوا يحقون الحق ويبطلون الباطل وكان ذلك اليوم شبيهاً باليوم الموعود يقف فيه خدمة السلطان كل واحد في مقامه على حسب استحقاقه ومرتبته الذاتية ولا يخفى ان لقيام الناس في مراتبهم بحسب استحقاقهم وخدمتهم لجانب السلطنة وثبوتهم في مراكزهم من حيث القرب والبعد اسرارا خفية وحكماً جليلة

وهذه القوانين والرسوم منها ما هو قديم طبيعي ومنها ما وضع برأي العلماء والحكماء حسب الاقتضاء

اما الدولة العلية فكانت تراعى هذا الترتيب لعهد قريب فكان ينعقد الديوان مرتين فى الاسبوع يطالعه الملك المعظم من مقره العالي والوكيل المطلق يجري المحاكمات ويحق الحق ومع ذلك فان الوكيل كان يعقد في كل يوم مجلساً في سرايته الخصوصية يرى فيه امور العباد ثم انحصر الديوان

الهمايوني بالتدريج شيئاً فشيئاً في ايام المراسم والاعياد ومقابلة السفراء وانحصرت المحاكمات في ديوان الوكيل المطلق المسمى ﴿ باشا قبوسى ﴾ حيث يؤخذ حق المظلوم من الظالم وينظر في الدعاوي بمقتضى العدل والنصفة ولم يزل ذلك جاريا الى الان

ومن الحكايات المتعلقة بفوائد الديوان السلطاني ما يروى من ان المرحوم نور الدين الشهيد لما سمع في اوائل دولته ان اسد الدين ﴿ شيركويه ﴾ اكبر امرائه اغتصب بعض املاك من الامراء والوكلاء والاعيان وان هولاء كانوا يغتصبون املاك الناس ظلماً امر ببناء دار تسمى ﴿ دار العدل ﴾ وامر ان يعين فيها محل للملك ومحلات لقضاة المذاهب الاربعة والمفتيين لتجرى فيها الاحكام الشرعية فبلغ اسد الدين انه شرع في بناء دار العدل على هذا المنوال فاخذ يتدبر في هذا الامر وقال ان عدل نور الدين وسياسته معروفان في المشرق والمغرب وجميع الامراء والعساكر تهابه فلا حاجة لبناء دار العدل والغالب ان بناء هذه الدار هو لاجلي فجمع من ساعته الامراء والعمال الذين كانوا تحت يده وقال لهم ان نور الدين امر ببناء دار العدل واظن ان بناء هذه الدار لاجلنا ثم نبه عليهم قائلا انه اذا شكا احد الناس منكم او منى فاني اقتلكم لا محالة فاخذ كل منهم يهتم بارضاء خصمائه من الاهالي ويحسن اليهم حتى زال ما كان في صدورهم ثم اصطلحوا جميعاً ولما تم بناء دار العدل كان نور الدين يجلس فيها ويحضر العلماء والوزراء فلم يات احد من التبعة شاكياً ولا متظلماً من الوزراء واتباعهم فحينئذ ترك الجلوس فيها وبقيت خالية الى ان مات فوجود ديوان كهذا كان باعثا على اطمئنان قلوب الخلق وراحتهم وعلى ردع العمال وخوفهم وخشيتهم لمن اعجب الامور

وقد كان سلاطين الدول الماضية يعينون عدة ايام في السنة يقابلون فيها الضعفاء والشرفاء فيعرضون لديهم احوالهم وكان يقال لهذه الايام ﴿ بر عام ﴾ ثم تركت هذه العادة لظهور بعض الموانع وبعد ذلك عينت كل دولة اوقاتا مخصوصة لاستماع الدعاوي وفصل المخاصمات على وجه مخصوص كما هو معلوم انتهى. ولنعد الى ما كنا بصدده

وفي سنة ﴿ ١٠٠٣ ﴾ هجرية توفي السلطان مراد الثالث وجلس ولده محمد

خان الثالث الذي كان والياً لمغنيسيا ثم الغت الدولة توظيف ولاة العهد في الولايات والامارات نظراً لما ظهر من سؤ الاستعداد في ذلك الزمن

ولما لم يتيسر لامراء الجيوش النصر والظفر في حروب النمسا وظهرت على المسلمين آثار الضعف اشار بعض اهل النظر من محبي الدولة على السلطان محمد الثالث بالسفر الى دار الحرب بنفسه اقتداء بجده الامجد حضرة السلطان الغازي سليمان فوافقه على ذلك وسار الى جهة الروم ايلي مع العسكر ففتح قلعة (اكرى) واشتهر بلقب (فاتح اكرى) ثم ظفر ظفراً عظيماً في ميدان القتال وذلك ان امبراطور المانيا وقيصر النمسا اتفقا مع سائر دول اوربا على خفض مقام الشريعة البيضاء ومحو المسلمين لاسيما العثمانيين عن وجه البسيطة فجمعوا عسكراً عظيماً لا يحصى عدده ولا تسعه الصحارى وزحفوا به الى تخوم الدولة العلية ولما وصلوا الى قرب قلعة اكرى خاف رجال المعسكر الذي كان هناك فاجتمع الامراء وتشاوروا فمنهم من رأى ان عدم الحرب اولى ومنهم من رأى ان الموكب السلطاني يتأخر وان العسكر يتقدم لمقاتلة العدو تحت رئاسة السر عسكر فقام سعد الدين افندي معلم السلطان مع بعض الاعيان وتكلموا بكلام اظهروا فيه شعائر الغيرة والحمية وذكروا ما قوى عزم الخليفة وحرك منه الشجاعة الموروثة له من اجداده الكرام فزحف مع الموكب الهمايوني الى قتال الاعداء واتصلت الحرب ثلاثة ايام متوالية فتغلب الاعداء على الجنود العثمانية فتشتت شملهم وكان العدو ينهب المعسكر حتى ان بعضهم امسك بالطناب فسطاط السلطان ومع ذلك فكان سعد الدين افندي وسائر الاعيان يجرأون السلطان ويشجعونه على الصبر والثبات فاشتدت عزيمته واستقر في مركزه كالقطب ثابت القدم فما كان من الحاشية والبطانة الا انهم اخذوا يضربون النهبة من عساكر الاعداء بالبلطات وما تصل اليه أيديهم من الآلات حتى تمكنوا من ارجاعهم القهقرى فشاع حينئذ بين الجنود العثمانية انّ العدو قد هزم فتحركت فيهم النخوة وردوا الكرة عليه من كل جانب وخرج اذ ذاك سنان باشا بن جغاله من مكمنه وهجم على الاعداء فانهزموا وقتل منهم في تلك الواقعة بحد السيف ما يزيد على خمسين الفاً

ثم بعد ذلك شددت الدولة وطاتها على من فر من العساكر في تلك الواقعة فقطعت رواتبهم وكانوا عدة الوف فاجتمعوا في جهة الاناطولي وعصوها ولقبوا انفسهم باسم ﴿ جلاله ﴾ وكان القرناء والمقربون وقتئذ يتنافسون في نفوذ الكلمة وكانت حرب اوستريا متصلة فلم يبق للدولة فرصة لتوجه انظارها الى جهة الاناطولي فكثرت طائفة الجلالية فشنوا الغارات وخربوا تلك البلاد

وحيث كانت كلمة قرناء السؤ نافذة انتصب المداهنون والمدلسون على منصات الوجاهة فلم يمتثلوا لامره تعالى ﴿ ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ﴾ فوسدت مصالح الدولة الى غير اهلها . وفتحت ابواب الرشوة والارتكاب واصبحت المأموريات والمناصب تباع وتشترى بالدرهم والدينار فاختلت الامور الداخلية من كل جهة وبرزت امارات الاعتلال والفساد ايضاً في دار السعادة وفي اثناء هذه الاحوال السيئة اغتنم الشاه عباس ملك ايران هذه الفرصة فاخذ يتجاوز الحدود العثمانية . وفي سنة ﴿ ١٠١٢ ﴾ هجرية توفي حضرة السلطان محمد الثالث وجلس ولده حضرة السلطان احمد الاول فارسل العساكر الى الشرق والغرب واجتهد مدة طويلة في اصلاح ما فسد من الامور . ثم عقد الصلح مع دولة اوستريا فسار وزيره الاعظم المستقل قويجى مراد باشا الى جهة الاناطولي فدمر طائفة الجلالية وطهر البلاد منها واستأصل عرق الفساد

وفي سنة ﴿ ١٠٢٦ ﴾ هجرية توفي السلطان احمد الاول وهو اخر السلالة المتصلة من عمود هذا النسب. ثم جلس اخوه السلطان مصطفى وهو اول من ارتقى على سرير السلطنة من اخوان ملوك بنى عثمان. لكن لما كان المشار اليه ممن تربى في حجر الانزواء كانت احواله مخالفة للمالوف من حال الزمان فلم يتيسر له البقاء سوى ثلاثة اشهر وعشرة ايام فخلع واجلس السلطان عثمان خان الثاني اكبر اولاد السلطان احمد وعمره اربعة عشر سنة فبذل هذا الشهم مع صغر سنه جهده في اصلاح الاحوال الا انه من سؤ الحظ كان طرأ على العساكر الفساد وخرجت الاشغال عن محورها ومرح الفجار في غيهم و بعد اربع سنين ثارت نار ثورة عظيمة فى الاستانة وخلع السلطان

ثم قتل شهيداً واجلس مكانه السلطان مصطفى مرة ثانية فلم يقم باعباء السلطنة نظراً لاحواله المعلومة فخلع ايضاً في سنة (١٠٣٢) وخلفه السلطان مراد الرابع وهو الابن الثاني للسلطان احمد وكان عمره ١٢ عاماً وفي اثناء هذا الاختلال وقع الخلل والضعف في نظام الطرق العلمية القديم واكثر قوانين الدولة الاساسية

والحاصل ان احوال الدولة اختلت من كل جهة وصارت محتاجة لمن يصلحها. ولما كان من يتولى الحل والعقد من اهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة واصلاح الامور من المحال فاغتنم الشاه عباس هذه الفرصة واستولى على بغداد وبعض الجهات وعلاوة عن ذلك ان العسكر الذي كان فى العاصمة (القسطنطينية) خلع ربقة الانقياد وساد الفجرة ولم يبق للسلطنة نفوذ

ثم لما بلغ حضرة السلطان مراد الرابع رشده واخذ بيده القوية زمام الدولة ودمر وقهر جماعة الفجار منع الناس عن شرب القهوة والتبغ كل المنع . فكان يخرج متنكراً يمشى في اسواق الاستانة ليلاً بدعوى تأديب المولعين بشرب الدخان والقهوة ويتلف الاشرار اثناء تجوله ومع ذلك فقد ازداد في الناس الحرص على شرب القهوة والتتن كما قيل (المرء حريص على ما منع منه)

استطراد

قد اختلف العلماء في شرب التبغ فقال بعضهم بتحريمه وذهب بعضهم الى كراهيته وبعضهم الى اباحته وآخر فصل ذلك بالنظر الى احوال شاربيه وسبب ذلك هو كون امزجة الناس مختلفة فشرب التبغ يضر بعضهم ويولد فيهم العلل فيكون شربه بمنزلة تجرع السم وكل ما تحقق ضرره فاستعماله حرام فشرب الدخان محرم على من يكون كذلك وقد تنعكس القضية فيكون نافعاً للبعض بمنزلة الدواء لهم فقد نقل ان بعض الذين كانوا مدمنين على شربه وتركوه اصيبوا بانواع من الامراض فعدم استعماله لهؤلاء خطاء لانه

بمنزلة الدواء لهم ويباح شربه للذين لا ضرر ولا منفعة لهم فيه طباً بل يتعاطونه لموافقته لذوقهم على انه متى تجاوز الحد الطبيعى ووصلوا فيه الى درجة الاسراف فانه يحرم عليهم وقد استوفى الشيخ عبد الغنى النابلسى تفصيل الابحاث المذكورة وادلة كل منها في رسالته التى صنفها في شرب التبغ وقد ابتلي بعض الصلحاء به مع قبح استعماله عندهم منذ القديم وعند اجتماعى بفاضل من علماء سمرقند وصلحائها وكان مبتلياً بشرب الدخان سألته عن سبب تعاطيه له وعرضت له باستهجان استعماله واستقباحه في جهات ما وراء النهر فاجابنى انه في بداية مجيئى الى الديار الرومية كنت استقبحه ولما كانت الرطوبة في الاستانة اكثر منها في الديار التى الفتها منذ الصبا اصابتنى نوازل شديدة وامراض عديدة اعياني علاجها فاشار علي بعض الناس باستعماله فجربته فاذا هو مزيل لتلك الامراض ومفيد لصحتى فصرت لذلك مجبوراً على استعماله

ذكر عبد الشكور افندي من شرفاء مكة المكرمة في تاريخه الجملة الاتية على سبيل الملاطفة قال . كان في مكة قاض يألف شرب التنباك وكان نائبه يراه حراماً ويبغض شاربيه ففى اليوم الثامن من ذي الحجة قال النائب للقاضى ياسيدي غدا يوم عرفة تتركون التنباك ان شاء الله فاني قداستحسنت تنبيهكم بهذا ناصحاً مخلصاً . فاجابه بجواب مسكت على وجه التهكم وهو اني ادخل الان في الاحرام فاتركه يعنى بقوله هذا ان التنباك نوع من الطيب وذلك ليس بحلال للمحرمين ونظم بعض الفضلاء في هذا الموضوع فقال

اشرب من التنباك واقصد به   توديعه يامن غدا يحرم
فهو لاهل الذوق طيب ومن   احرم فالطيب له يحرم

والحاصل ان التنباك والتبغ قد ظهر بعد عصر المجتهدين فصارت مسألته موضوعاً لمنازعة العلماء فمنع حضرة السلطان مراد الرابع شرب التبغ كما قلنا وجعل تجوله ليلاً بحجة منعه وسيلة لاعدام الفجار .

وبهذه الوسائل قهر حضرة السلطان المشار اليه عصبة الاشقياء ودمرها تدميراً وبعد ان قبض بيده القوية على زمام الحكومة ودمر بهذه الوسائل زمرة الاشقياء توجه بالعسكر الهمايوني الى جهة الشرق فاسترجع بغداد واخذ

من الايرانيين بالثار كما ينبغى على ان الاختـلال قد عاد ثانياً بعد موته وذهبت شهرته وثباته وتجلده وفتوحاته التى رن صداها في اقطار العـالم ومحيت من اذهان العصاة فعادوا ثانية الى مـا الفوه من الفساد وتحولت احوال الدولة الى حالة سيئة هى شر من الاولى

وجلس على اثر وفاته سنة ﴿ ١٠٤٩ ﴾ اخوه السلطان ابرهيم خان ولما كان مشابهاً في احواله واطواره لعمه السلطان مصطفى توزعت شؤون السلطنة بيد هذا وذاك فاختلت احوالها كل الاختلال وظهر العصيـان والفساد فى جهة الاناطولي وفي خلال ذلك فتحت حرب اكريت فهجم البندقيون على لواء بهكه التى كانت تسمى براكليس واستولت سفنهم على جزيرة مدللووسدت خليج جناق قلعة فامتنع المرور فيه الى البحر الابيض ولما كان عسكره غير منقاد اليه ولم يكن في خزينة الدولة ما يكفى لسد الحاجة كان ينظر فيهذه الاحوال بعين الحيرة وذلك لان مجاري واردات الدولة قد تحـولت عن باب الخزينة فسرى في عروق الناس دم الفساد نظراً لاختلال الجندوانحلال عقد النظامات الداخلية حتى امست الدولة معتلة الجسم كله

وفي سنة ﴿ ١٠٥٨ ﴾ قام الاهالي على قدم وساق وكثرت فيهم الآراء والاقوال فخلعوا السلطان ابرهيم واجلسوا مكانه ابنه السلطان محمد خان الرابع وهو صبي في السنة السابعة من العمر واستمر الاختلال شديداً في الدولة مدة ثمان سنين

وفي نهاية سنة ﴿ ١٠٦٦ ﴾ جعل محمد باشا الكوبلريلي صدراً اعظم مستقلا فاجرى امور المالية والعسكرية في مجراها فعادت للدولة صحتها . ومن عجيب امره انه كان عندما تولى مسنـد الصدارة شيخاً في نحو التسعين من العمر ومع ذلك فانه كان قوي العزم سديد الرأي فاحيـا جسم الدولة في مـدة يسيرة وذلك بحسن تدابيره وقوة جاشه فكان يهتم حيناً بتطهير روضـة الحكومة من الاعشاب الاجنبية ويجول آونة في العساكر السلطانية فينتقم من الاعداء في جبال اردل وسائر الحدود ويسعى تارة في فتح خليج البحر الابيض فوفق لاصلاح امور الدولة فى مدة السنين الخمس التى كان فيهـا صدراً اعظم

وبعد وفاته تولى ابنه فاضل باشا مسند الصدارة العظمى وهو وان كان صغيراً في السن عكس والده فانه كان موافقاً له في اصالة الرأي والتدبير موفقاً في اعماله فادى للدولة خدمات كثيرة في مدة صدارته التى استمرت خمس عشرة سنة وضم الى الممالك المحروسة بعض بقاع وقلاع كجزيرة اكريت

والحاصل انه بهمة واقدام الكوبريليين قد اصلح ما تداعى الى الخراب من احوال الدولة العلية حتى كاد يعود اليها رونقها القديم ولكن هيهات فان الاراذل كانوا اثناء الاختلال الماضى نالوا الوجاهة ووسدت المناصب الى غير اهلها فتزلزل لذلك ركن الدولة وفسدت اخلاق الناس فلم يتيسر العود تماماً الى ما كانت عليه في السابق وزيادة على ذلك فقد تقوضت اصول المعاملة بالمجاملة التى هى مستحسنة بل واجبة فى الامور السياسية يشهد لذلك انه لما فتحت اكريت قتل القائد محافظها وجميع من كان تحت امرته من ضباط البندقيين مع ان السلطان سليمان لما فتح جزيرة رودس واستحضر اليه ﴿ ويليه دوليل آدم ﴾ حاكمها اخذته عليه الشفقة فقال للحاضرين وقد تغرغرت عيناه اني لأتأسف على اخراج مثل هذا الشيخ من داره ثم امر بارساله بحراً الى حيث يريد بمزيد الاحترام مظهراً بذلك احسن وجوه السياسة وهذا مما يدل على الفرق بين المعاملات السابقه والمعاملات اللاحقه

وبعد فاضل باشا تولى قره مصطفى باشا صدراً اعظم وكان تربي تحت انظار محمد باشا الكوبريلي واستعمل في النيابة للصدارة العظمى مدة مديدة حتى صار معدوداً من مشاهير وزراء السلطنة السنية فلما تولى امرها بالاصالة قام بحسن ادارتها واتصلت ولايته لها سبع سنين

ولكنه في آخر مدته اشهر الحرب على النمسا وحاصر ويانا وكاد يفتحها الا انه ترك ما كان يتعين عليه قبل ذلك وهو فتح قلعة يانق النمسوية الواقعة بين ويانا والحدود الاسلامية فاستعجل في حصار عاصمة النمسا وترك وراءه القلعة المذكورة والاعداء فيها ولو ابتدأ بفتحها اولاً ثم انتقل لفتح ويانا في السنة القابلة لكان ذلك اولى به ولما وصل الى حدود ويانا وجد نفسه وعسكره في بعد عن الاراضى الاسلامية وكان عدد عساكره كثيراً

ونفد ما كان عنده من الذخائر فانتشر بينهم الجوع والغلاء وفترت هممهم وزيادة على ذلك فان اهل ﴿ له ﴾ نقضوا عهده وهاجموه فهزموا العسكر السلطاني وكبدوهم خسائر فاحشة وحاول اعداؤه قتله وتسببوا فيه فتمكنوا منه

ومؤرخو ذلك الوقت كانوا يقولون انه لو بقي في الحياة لكان يتلافي ما وقع في السنة التى بعد هذه واما اعداؤه فكانوا يقولون ان البازي اذا كسر جناحه فلا يتيسر له ان ينقض على فريسته فينبغى التعجيل بقتله ليكون عبرة لغيره وبهذا قضى عليه هولاء وذلك اما انهم لم يفتكروا فيمن يستطيع ان يتولى مكان هذا الوزير الغيور او انهم خافوا وتظاهروا بالنصيحة مقدمين اغراضهم الذاتية ومنافعهم الخاصة بهم على مصالح الدولة وعلي فرض ان هذا الوزير اخطأ بعجلته لضعف البشرية فان قتله كان بلا ريب خطاء اعظم من خطائه

حكى ان قائداً من قادة فريدريك ملك بروسيا المشهور انهزم في الحرب مراراً فقامت البطانة وطلبت عزله فلم يجبهم الملك بل قال لهم ان القائد قد تعلم اصول الهزيمة لكثرة ممارسته عليها فاذا نصب غيره يستغرق زماناً طويلا في الفرار وينهزم مرات عديدة حتى يتعلم اصولها وقد اصاب الملك فيما قال لان قائده فاز اخيراً

وهكذا لو أبقي على حياة قره مصطفى باشا لكان الامل قوياً في ظفره كما ادعى المؤرخون ثم استمرت الحرب مع النمسا بعد ذلك عدة سنين ولم ير العثمانيون يوم ظفر في خلالها فما رأوا الا الهزيمة والاضرار التى لم تكن تخطر على الافكار فان العساكر التي كانت ترسل في كل سنة الى حرب النمسا قد ضعفت قواها فلم يبق لها طاقة علي الثبات وفي تلك المدة كانت عساكر اوربا قد انتظمت ولذلك لم يثبت امامها السردار ولم يجد سبيلاً الا الى الهزيمة وكان السلطان محمد الرابع اذ ذاك يصرف اوقاته في الصيد ولم يلتفت الى مصالح الدولة فتغيرت عليه افكار العامة وسرى الخلل في المعسكر واتسع الميدان للطغام وعند ما تكرر صدور الفرمان العالي بجعل الروم ايلي مشتى للمعسكر الهمايوني عاد المعسكر للاستانة مجاهراً بالعصيان ولما صار على مقربة

منها رفع عرضاً عمومياً في خلع السلطان محمد وتنزيله عن سرير السلطنة فاضطر رجال الدولة لذلك وخلعوه في اوائل سنة (١٠٩٩) واجلس بدلا منه اخوه السلطان سليمان الثاني

ولما دخل العسكر الى الاستانة ضربت كتائب السپاهيين خيامهم في المحل المعروف بميدان السطان احمد والانكشاريون ضربوها في المحل المسمى (ات ميدان) فقبضوا على ازمة الاحكام واخذوا يعزلون ويولون وينفون ويحرمون من شاءوا ويقتلون ويصادرون الوزراء ويجرون ما شاكل ذلك من المنكرات حتى حملتهم الجرأة على الدخول الى الباب العالي يوماً من الايام وقبضوا على سياوش باشا الصدر الاعظم فمات شهيداً الا ان الله قد قهرهم وذلك انه في خلال هذه النوائب كان بعض الاشقياء ينهبون بيت احد الشرفاء الواقع في قرب (يزاستان) فرفع الشريف المذكور منديلاً على رأس هراوة واخذ ينادي قائلاً من كان مسلماً فليأت السنجق فلبى الخلق نداءه واجتمعوا لديه وشاع في جميع الاطراف خروج السنجق النبوي الشريف فاجتمع عموم الاهالي في السراي الهمايونية ظناً منهم ان سنجق هذا الرجل الشريف هو السنجق النبوي الشريف ثم علم ان تجمع الخلق انما كان بغيرة الهية فحينئذ اخرج السنجق النبوي الشريف للحال فكان في ذلك الوبال العظيم والنكال الشديد على الاشقياء وفى اثناء هذا الاختلال كان اهل البندقية قد استولوا على ايالة الموره والنمساويون وصلوا الى بلغراد واستولوا بعد ذلك على قلاع (ودين) و (فتح الاسلام) و (نيس) و (ديار الافلاق) وخرج احد الرعايا بجمع الاشقياء لابساً قلبقاً بدلاً من التاج مدعياً انه ملك (لقومانوه) من طرف النمسا فوقع وكلاء الدولة من وقوع هذه الامور في حيرة وعقدوا مجلس مشورة قرروا فيه ان هاته الاحوال السيئة ستكون نتيجتها شراً منها واعترفوا بان افكارهم وتدابيرهم عقيمة سقيمة وانه لا بد لاصلاح هذا الخلل ومداواة هذا الداء من مدبر غيور ووزير جسور تفوض اليه جميع الامور فوقع اختيارهم على مصطفى باشا الكويريلي فتسلم خاتم الصدارة فاعترض بعضهم علي ذلك وزعموا انه لا يصلح عزل الوزير في زمن الحرب واعتراضهم هذا وان كان صحيحاً فان

مثل هذه الاحوال الاضطرارية لا علاج لها الا اهل الرأي والتدبير على انه يوجد في كل عصر اناس فضلاً عن كونهم لا يقدرون على شيء لايحسن عندهم عمل فلا ريب ان هذه الكوارث الفاجعة هي نتائج وخيمه قد حصلت بعد تولي اصحاب هذه الافكار العقيمة والآراء السقيمة على ازمّة الامور

وما قبض على زمام الصدارة حتى ابطل جميع البدع والمظالم التي كانت احدثت في الكمارك وسائر الامانات والالتزامات لاجل تزييد الواردات نظرا لضيق المالية وابطل ايضاً بعض رسوم وعادات كهدايا الوزراء في مواسم الاعياد وتشبث باصول العدلية الا ان الناس قد اعترضوا عليه قائلين يا هل ترى ما يفعل هذا الوزير من التدبير في شأن النقود بعد ان ابطل هذه البدع الظالمة والواردات الرسمية التي كانت واسطة لانقاذ الادارة من المضايقة المالية وهل هذا الوقت ملائم لاجراء مثل هذه الامور

غير انه من الامور المسلمة ان واردات الدولة الحقيقية ناتجة عن صحيح ثروة التبعة والاهالي فلا يزداد ايراد الدولة الا بزيادة ثروتهم فان مثل هذه التكاليف الموجبة لضيق الامة وتقليل زراعتها وتجارتها وصناعتها وان كان يظن ابتداء انها تفيد خزينة الدولة بعض الفائدة الا انها بسبب ما تورثه للملك والتبعة من الاضرار والضجر في مدة قليلة تلحق بواردات الدولة نقصانا ولما ادرك الوزير المشار اليه بكمال فطنته وعلمه بدقائق هذه الاشياء لم يعبأ بظواهر فائدتها فالغى البدع والمظالم واسس اصول العدلية فاستفادت الدولة من ذلك خمسة اضعاف مما كان وفضلا عن زيادة الواردات على ما ذكر كان من ثمرة عدله ان عموم الجند كانوا يسرون به ويرغبون في السير معه الى الحرب ويطلبونه بقلوبهم والسنتهم وكان دعاء جميع الناس له ورضاهم عنه سبباً عظيما لفوزه وظفره غير انه لما قطع في خلال ذلك رواتب وتعيينات جماعة من غير المستحقين لم ينج من السنة الخلق ومع ذلك فانه لم يعبأ بتلك الاقوال وبعد ان رتب النظامات الداخلية على وجه السرعة بادر الى اخذ الثار من الاعداء

وذلك انه بينما كان مشتغلا بمحاربة دولة النمساو ﴿ له ﴾ والبندقيين من سنين عديدة نقض بطرس امبراطور الروسية المعروف ببطرس الاكبر عهده

وهجم على الحدود الاسلامية قصد التنصل من الجزية التى كانت تؤديها دولته من القديم الى بكوات القرم فساق الوزير المشار اليه على المذكور جند التتر فانهزم العسكر الروسى شر هزيمة تاركاً مدافعه ومهماته الحربية غنيمة للعثمانيين وابتسم ايضا ثغر الاسلام لظفر العساكر التى كانت ارسلت لقتال البندقيين وسار الوزير قره مصطفى باشا بالعسكر الهمايوني على النمسا فابتدأ من شهر كوي وفتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة الى قلعة بلغراد بما فيها وقلعة سمندرة وتيسر له اثناء ذلك ارجاع قلعة ويدين بواسطة الاسطول الهمايوني الذي كان رتبه في الطونه وحصلت الفرقة العسكرية التى بعث بها الى اطراف إردل على الظفر والنصر فانقلب والحمد لله بهذا الفوز المبين ما كان طرا على الملة الاسلامية من الاكدار السالفة من سنين عديدة مسرة وصفاء

وكان حضرة السلطان سليمان خان الثاني مقيما اذ ذاك بادرنه ينتظر نتائج هذه الحروب ويرسل نظر الفكرة الى اطراف البلاد يتجرع غصص الاكدار من تفكره الفشل الذي طرأ على الدولة العلية منذ سنين عديدة. ثم انه لما اتصلت به هذه الاخبار السارة رجع الى الاستانة وجلس على سرير السطوة والسلطنة بمزيد البهجة والصفاء وعلى اثر ذلك عاد الوزير المشار اليه بالعساكر الى الاستانة ورايات النصر والظفر تخفق فوق رأسه

وصادف ذلك وقت الشتاء فاخذ الوزير المواما اليه يصرف الاوقات في اجراء الاحكام الشرعية والعدلية ولما كان يعتقد ان البيع والشراء لا يتمان الا بالقبول والرضى ولا يجوز التداخل بشأنهما وكان وقته لا يمكنه من الاهتمام بامر الاسعار وما شاكلها من الجزئيات لاشتغاله بالكليات من امور الدولة قضى عليه ذلك ان يكون هدفاً لمطاعن الناس فيا للعجب هل يكون مثل هذا الوزير الخطير مضغة في افواه الخلق لكونه لم يلتفت الى صغار الاشياء كتسعير الغلات والخضر مع انه قد ظفر بفتوحات عظيمة ووفق لامور جسيمة وتسنى له في مدة يسيرة ان يشيد بناء قد تداعى الى السقوط اليس ذلك من عدم الانصاف

وعلى كل حال فان الوزير المشار اليه لم يعر هاته الاقوال اذناً سامعة

وفي هذا الشتاء احدث ايضاً للخزينة الجليلة كثيراً من الواردات الصحيحة بتدابيره الحكمية وتمسكه باسباب الاصول العدلية وعندما اقبل الربيع سافر حضرة السلطان الى ادرنه وتوجه السردار المقدام بالعساكر قاصداً بلغراد وبعد وصول حضرة السلطان سليمان الثاني الى ادرنه توفاه الله فيها سنة (١١٠٢) وجلس مكانه اخوه السلطان احمد خان الثاني وفي اثناء ذلك اصيب مصطفى باشا الصدر الاعظم برصاصة وهو في الحرب في ساحة بلغراد فمات شهيدا

وبعد ذلك اخذت تظهر امور مكدرة ودخل التنافس بين الوكلاء والقرناء فمن ذلك ان احمد افندى جانبى الدفتردار الذي كان محافظاً على الاموال الاميرية حريصاً على جمعها وكان لا يعرف الكذب والمداهنة اصلا قد عرض له ما كدر به بعض المقربين فعزل واستبدل بغيره وبالنظر لكونه معدوداً من الاعيان المعتمد عليهم في الخزينة سعى حاجى علي باشا الصدر الاعظم في ابقائه في منصبه سعياً كلياً ولما لم يفلح سعيه استقال وهو في الحضرة الشاهانية من منصب الصدارة وخطوبها الجسيمة وسلم الختم الهمايوني واختار التقاعد

وفي سنه (١١٠٦) ودّع السلطان احمد خان الثاني هذا العالم الفاني فجلس على سرير السلطنة حضرة السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد خان الرابع واقام مدة سنتين يتوجه بموكبه الهمايوني الى الروم ايلي ويباشر حرب النمسا بنفسه فظفر مرتين وفتح فيهما فتوحات جليلة وفي السنة الاولى من جلوسه جاء الروس وحاصروا قلعة ازاق فارسل اليهم تتار خان فاوقعهم في الفشل وهزمهم ثم انهم عادوا في السنه الثانية اي سنة (١١٠٨) هجرية واستولوا على القلعة المذكورة وبعد سنة انكسر عسكر الاسلام وهزم في حرب النمسا وكان ذلك من آثار النفاق والحقد الذي تأسس بين الوزراء واركان العسكر

فبناء على ذلك اعطى خاتم الصدارة لحسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلي وكان الناس يعدون من التدابير الحسنة اختيار الصلح طلباً للراحة غير ان الصدر المشار اليه اخذ بقول القائل اذا اردت الصلح والصلاح كن مستعداً للحرب والكفاح. والهزيمة التى وقعت علينا في السنة الماضية كانت فيها خسائر النمسا اكثر من خسائرنا ونظراً لما حصل للنمسا من الضعف

والفتور من اثقال الحروب خمسة عشرة سنة رغبوا في الصلح فلم يجبهم اليه الصدر المشار اليه وقتئذ وسار بالعسكر الهمايوني الى نواحي بلغراد ثم بعد ذلك توسطت دولة انكلترا وفلمنك في عقد الصلح فنظراً لماناب الجند من التعب لتوالي الحروب عليهم في اربع جهات مختلفة ولنفاد الاموال من الخزينة وما طرأ على البلاد من الخراب وما شعرت به الدولة من التعب راى الصدر الاعظم المشار اليه ان الدولة محتاجة الى الراحة والسكون رضى بالصلح . ونظراً للوقت والحال في ظرف مدة يسيرة اي بصورة حسنة

شعر

شكر خدارا كه بلطف ازل　　صلح وصفا سدز خصومت بدل

نادىء اقبال دزين كهنه دبر　　غلغله انداخت كه صلح خير

معناه بالعربي

جرى بعد الخصومة عقد صلح　　وغرّد للصفا والانس طير

وفي الدنيا بشير السعد نادى　　بمنطقه الفصيح الصلح خير

فتم امر الصلح مع الدول الاربعة وقد وفقه الله في مدة صدارته التى استمرت خمس سنين لحسن الادارة بتدابيره الحكمية وبث في جسم الدولة حياة جديدة

غير ان فيض الله افندي شيخ الاسلام لم يرض بشهرة المشار اليه وبعد صيته ونفوذه فاخذ يلقيه في مشاكل تكدر خاطره ولكونه كان وزيراً غيوراً لم يطق تحمل هذه الامور وقع مريضاً وانقطع عن الحضور الى الديوان واضطر اخيراً الى الاستقالة من مسند الصدارة فجاءه خطاب همايوني ونصه انا مسرور منك ولطلبك التقاعد قد اجبتك اليه

وقد ختمت بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكوبريلي وبعد ذلك تغيرت ادارة الدولة وذلك انه كان لحضرة السلطان انعطاف كلي وميل تام لفيض الله افندي شيخه الخصوصي قياماً بحق التعليم فتصدى لاجراء امور وحركات لم يأتها احد قبله من سلفائه ولا تليق بشأن العلماء الاعلام كترقية ابنه الى رتبة المشيخة وسائر اولاده ومن ينتسب اليه الى المراتب العليا وحصر النفوذ ومنافع الدولة فيه وفي اولاده واتباعه فنفد صبر الخلق على تحمل هـذه

الاحوال واضطر حسين باشا الى ترك الخدمة فكان ذلك سبباً داعياً الى اعراض اكثر اركان الدولة واعيانها عنه فظهرت على اثر ذلك واقعة ادرنه وكانت من الحوادث المفجعة التى لم يشاهد ولم يسمع بمثلها في الدولة العلية وذلك سنة (١١١٥) وقد كان البعض من محبيه نصحوا له ولابنه ان يعدلا عن مسلكهما فلم يقبلا وذلك للغفلة التى اوقعهما فيها مزيد الاقبال وكانت هذه النتيجه وبالاً عليهما وعلى ولي نعمتهما . فنسأل الله ان يحفظنا جميعاً من ضرر افراط الاقبال ومن سؤ حال تفريط الادبار

وعلى اثر هذه الفتنة العظيمة تخلص حضرة السلطان مصطفى الثاني من غائلة السلطنة واختار العزلة وجلس اخوه حضرة السلطان احمد خان الثالث على منصة السلطنه وبعد ان طهر رياض الدولة من الاعشاب الاجنبية اجتهد في تقوية بنيان الحكومة وعمرانها وبعد ان اكسب الدولة العلية كثيراً من القوة والانتظام ابتدأت وظهرت وقوعات الروسية واسوج

وكان بطرس الكبير المشهور قيصر الروسيه هجم على قلعة ازاق في القريم وانهزم شر هزيمة كما ذكرناه فاغتنم فرصة الحروب الواقعة منذ سنين عديدة بين الدولة العلية والبندقية ولهستان والنمسا فاعاد الهجوم على قلعة ازاق واستولى عليها ثم اغتنمها ايضاً في حرب اسوج والدانيمرك (وله)فاشهرها على اسوج وكان قارلوس الثاني عشر ملك اسوج المعروف بين اهل الاسلام (بتيمورباش) على غاية من الحكمة والتدبير والشجاعة فتغلب على اخصامه مرات كثيرة وان يكن طمع في تنزيل بطرس عن تخت ملكه ولكن هذا لم يلحقه من ذلك اقل ضعف بل ثابر على حربه في اطراف حدود لهستان المجاورة للدولة العلية فنال الغلب وكاد ان يأخذ ملك اسوج اسيراً ففر ملك اسوج الى بندر ملتجئاً لكهف الامان للسلاطين والملوك وهى الدولة العلية فظهر حينئذ الاختلال في بلاد اسوج وضمت روسيا قطعة عظيمة منها الواقعة في ساحل بحر البلطق الى ممالكها

وفى اثناء هذه الحرب تجاوز العسكر الروسى بعض الحدود السلطانية في حال تعقبه عسكر اسوج وكان (تيمورباش) قبل ذلك انذر الدولة العلية بما يتوقعه من الدولة الروسية من الضرر والشر لها فاعلنت الدولة العلية

الحرب عليها فشيد محمد باشا البلطه جى الصدر الاعظم والسردار الاكرم جسراً على نهر الطونه وقطع بعساكره ايالة ﴿ بسارابيا ﴾ من جهة يساقچى وكان الروس قطعوا قبل ذلك نهر بروث فنزلوا على ساحل الطونه في اراضى البغدان فلم يلتفت السردار اليهم بل استمر سائراً من الجانب الآخر وحاذاهم من غير ان يعبأ بهم بل بقى سائراً الى ان بلغ ممر فالچى وحاول عبور نهر بروث منه فعلم بذلك بطرس الاكبر فارسل فرقة من الجند تمانعه العبور اعتقاداً منه بان منعه للعساكر العثمانية من العبور في ممر فالچى يلجئهم الى اقامــة جسر جديد يستغرق بناؤه اياماً واعتقد ايضاً ان العثمانيين بعد مرورهم النهر لا بد ان يصرفوا بضعة ايام في ترتيب شؤونهم فيكون هو قد انتهز الفرصة اللازمة في الاستعدد لمقابلتهم فاخطأت سهامه الغرض وذلك لان العساكر الاسلامية لم تنتظر تشييد جسر آخر بل تجشمت النهر وقطعته واكرهت الروس على الفرار وفي الليل شيدت ثلاثة جسور مشى عليها القسم الاكبر ممن بقى منها عند السحر فتعقبوا الروس وهزموهم شر هزيمة والحقوهم بمعسكرهم وفي الصباح تم مرور العساكر الهمايونية جميعاً على تلك الجسور ومع كون المسافة التى بينهم وبين المعسكر الروسى كانت نحو ست ساعات فقطعوها غير مبالين بالسهر ومشاق الطريق فبلغوا المعسكر الروسى بغتة عند العصر ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجأوا الاعداء بالهجوم فلما رأي ذلك بطرس تحير وارتبك حيث انه كان يتوقع هذه الحـال بعد خمسة او ستة ايام فانهزم بجنوده فعارضه النهر من جهة وكان خان القريم في الجهة الاخرى فقطع عليه خط الرجوع من البر فبات محصوراً واجبره الحال على طلب الامان وهو في غاية الغلبة والقهر وقد ثبت بعد ذلك ان عسكر الروس في اثناء هذا الحصار اكلوا قشور الاشجار . ولذلك التمس الصلح والامان من السردار الاكرم معلناً له انه يرضخ لجميع مطالبه مهما كانت فاجابه الى ذلك السردار الاكرم وربطه بشروط شاقة لا تستطيع دولة ما على قبولها منها عدم تداخله في احوال دولة ﴿ له ﴾ وان يرد قلعة ازاق للدولة العلية وان يعطيها ما شيده على الحدود من القلاع وان لايكون له سفير في الاستانة وان يقبل بتنازله عن مقام سائر الملوك فألجأته الضرورة

الى قبول هذه الشروط العنيفة وانعقد الصلح واخذ منشور الوزير البلطهجي وسار الى مملكته والمنشور المذكور مسطر في آخر الجزء تحت عدد ﴿ ٦ ﴾

وكان السردار المشار اليه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر في اعماله وحركاته حتى انه نال مسند الصدارة العظمى بما اجراه من الدسائس الكثيرة ثم لما وقف حضرة السلطان احمد خان على حقيقة حاله اعرض عنه وعزله غير انه لما ظهرت اخيراً حوادث روسيا واسوج اقتضت المصلحة توليته مقام الصدارة مرة ثانية فاحسن فيها العمل وتغلب على ذلك الرجل الكثير الحيل وهو بطرس الاكبر وكان في امكانه محو عسكر الروس عن آخره ولكنه لم ير من الحكمة تتبع اثر الاعداء المأيوسين الذين قبلوا بشروط هذا الصلح فرضى بالظفر الذي وقع له وقنع به قناعة مبنية على قاعدة الحزم والاحتياط وشعار المرؤة فكان من ذلك ان بعض المؤرخين نسبه الى الغفلة وكان رجال السلطنة في الاستانة غير آمنين منه فسعوا في عزله زاعمين ان الفرصة قد سنحت له فكان ينبغى له ان يمحق عسكر الروس عن آخره وادعوا عليه انه اخذ رشوة من الروسية فلذلك قبل بالصلح الا ان حضرة السلطان احمد خان رد كلام الوشاة بقوله انه لا يرى من الصواب عزل مثل هذا الوزير الذي وجد في مثل هذه الغزوات بل من الصواب ان يحسن اليه ويتلطف به ولكن الافتراء في حقه كان بلغ مبلغاً لا يمر في خاطر وخيال فتمكنوا اخيراً من عزله ونفيه قبل ان يصل الى الاستانة وهو وان كان برىء الذمة من هذا الافتراء ففي صدارته الاولى ارتكب كثيراً من الدسائس على كثيرين فظهر به الان سر قولهم ﴿ الجزاء من جنس العمل ﴾

وعلى كل حال فان الدولة العلية وان كانت خسرت كثيراً في الحروب التى استمرت نيفاً وخمس عشرة سنة كما ذكرنا اعلاه فهذا الظفر اعلى شأنها واسمها علواً كبيراً

ثم ان الذين تولوا بعده مسند الصدارة العظمى كانوا يعزلون حالاً نظراً لعدم توفيقهم الى ان تولى علي باشا داماد فنظم احوال الدولة وساق الجند على الرعايا فى الجبل الاسود وذلك انهم كانوا جاهروا بالعصيان فردهم

الى الطاعة

ونظراً لاتصال الحروب مع البندقيين ذهب بذاته بالعسكر الهمايوني لقمعهم ففتح كثيراً من البقاع والقلاع كاستنديل وكوردوس وانابولي وقستل ورجع الى الاستانة ظافراً ظفراً تاماً وفي ربيع السنة التى بعدها سافر من الاستانه على قصد محو دولة البندقيين عن بكرة ابيها ونظراً للفتوحات التى حصلت في السنة الماضية تقرر في افكار دولة اوستريا ان الدولة العلية قادرة على محق البندقيين والاستيلاء على خليجهم وهذا مما يفتح باباً واسعاً لنقل الذخائر والمهمات وللهجوم على بلادها ويغنى عدوها عن المجىء اليها على طريق بلغراد وطمشوار فتقع النمسا على هذا الفرض في الهلكة فاخطرت الدولة العلية بمجانبة حرب البندقيين وانذرتها بانها اذا ابت ذلك اشهرت الحرب عليها فكان ذلك على السردار صعباً فصرف عنان عزيمته عن حرب البدقيين وسار قاصداً حرب النمسا وكان العسكر الهمايوني يعامل معاملة سيئة من جانب مدير اشغال السردار جرياً على ما طبع عليه من سؤ الخلق وكان بعض الرؤساء لا روية ولا ثبات لهم في الامور فلذلك انهزم العسكر واستشهد السردار

والحق يقال ان الوزير المشار اليه كان على غاية من التعقل والتدبير والعدل والشجاعة وقد وفقه الله لتسوية مصالح الجمهور وضبط الامور وظفر في مدة قليلة بفتوحات لم يكن فيها نصيب لاحد سواه من الوزراء وكان اعلى منهم همة غير ان القدر لم يساعده ومن عادته انه لا يلتفت الى ذوي الحسب ولا الى قبول شفاعة اصحاب الوجاهة بل كان يجري الامور على حسب الاستحقاق. وفي اثناء وضع النظامات اصلح حالة الطريقة العلمية وذلك ان اصول ونظامات الدولة كانت من قبل مختلة ونظام الطرق العلمية ايضاً في حالة الاعتلال وكان منصب القضاء يعطى لغير اهله فرفع قدر اهل العلم وانعم على من كان ممتازاً بالفضل من المدرسين بوظيفة (نيشانجى) ومنع الرشوة وما يتعلق بها كالهدايا فلذلك كان كثير ممن يفضلون مصالحهم الذاتية على مصالح الدولة غير راضين عنه

وقد كتب بعض المؤرخين ان من نال الظفر وحصل على الفتوحات

الكثيرة في مدة يسيرة من السلاطين العظام هو السلطـان سليم ياوز ومن الوزراء الفخام هو علي باشا داماد وكما كان العالم يرتعش من حضرة السلطان المشار اليه كذلك كان الناس يخافون من السردار المشار اليه ايضاً فلما توفاه الله ﴿ اي السردار ﴾ سر بذلك كثيرون وقالوا وان كان الوزير قد مات والعسـكر انهزم فنحن قد نلنا بذلك الامن وسننتقم من الاعداء عنـد سنوح الفرصة . قالوا هذا وهم غير مفتكرين فيمن يقوى على القيام باعباء الوزارة من الوزراء ومن الامور المعلومة طبعـاً انه متى سرى الخلل في نظـام الدولة واستولى الكسل على الناس عرف حينئذ قدر اهل الغـيرة والاقدام

ثم اخذ الفشل في الدولة يزداد يوماً فيوماً بالنظر الى عدم توفيق من تعين لحرب النمسا من السردارية والى عدم ثبات وغيرة العساكر الاسلامية في مواقع الحرب والصدام وظهرت ضروب من الفساد والاختـلال في المعسكرات فدخل في يد النمسا عدد كثير من المواقع حتى طمشوار ايضاً وبناء على ما شوهد في الجند من قلة الثبات اصبحت الحرب غير ممـكنة بعسكر هكذا غير منتظم ولما طلبت دولة النمسا انعقاد الصلح مال اليه داماد ابرهيم باشا نائب الركاب الهمايوني وقال فلنجر المصالحة الان وبعد تحسين نظام العسكر ناخذ بالثار من الاعداء فانكر العسكر ذلك وقالوا انهم كانوا قادرين على الفتك بالعدو وجعل بعضهم يحيل التقصير الواقع في الحرب علي بعض ستراً لقبائحهم ويقولون لا يمكن ان نترك طمشوار الجميلة في يد العدو فهيجوا الناس بقولهم هذا وتبعهم في ذلك طلبة العلم زاعمين ان العدو متى رأى ميلهم ورغبتهم في الصلح اعتقد فيهم الضعف واستحسن سائر النـاس هذا الرأي وانفرد ابرهيم باشا برأيه وبقي الكلام في الصلح نسياً منسيـاً واعيد الحرب مرة ثانية فانهزم العسكر هزيمة شراً من الاولى واخـذت بلغراد من ايديهم فرجعوا حينئذ الى رأي ابرهيم باشا في طلب الصلح مع انهم كانوا يأنفون منه حين لم يكن في يد الاعداء غير طمشوار ثم رجعوا تاركين بلغراد في حوزة النمساويين وعلى اثر ذلك صار ابرهيم باشا صدراً اعظم فعقد الصلح ولكن اي فائدة فيه بعد اخذ بلغراد وبالجملة فقد لحق

الدولة ضرر كثير من ذلك

واستحسن بعض المؤرخين فعل ابراهيم باشا في هذا الخصوص وكرهه اخرون وزعموا ان رغبة ابراهيم باشا في الصلح انما كانت لاظهار كونه صهراً للسلطان نافذ الكلمة وهذا مما قوى عزائم اعدائه وحملهم على الشطط والرد على قبوله ثم ان عقد الصلح تم بصعوبة كلية وشروط شديدة وقيل انه لو اظهروا للعدو علائم القوة والبسالة لتم عقده على وجه أسهل

ومتى بلغت الاحوال الى مثل هذا فلا بد لطالب الصلح ان يصادف جنفاً في عقده وهذه هفوة صغيرة وقعت من ابراهيم باشا ولكن لا تعد خطاء كبيراً. وما قاله منذ سنة ﴿ فلنجر الصلح الان ثم ننظم العسكر ﴾ لو صمم عليه وطابق كلامه فعله لرفع عنه ذلك معرّة قصوره وقد اقام في الصدارة اكثر من ١٢ سنة مستقلا بامرها ولم يصلح احوال الجندية بل اخل باصول الدولة القديمة ونظامها ولم يصرف افكاره الا الى الاسراف والسفه وكان يعد الكلام في امور العسكر والحرب من قبيل الكفر وبالجملة انه وجه همته الى الترف المدني وفروعه الباطلة وترك المحافظة على الامر الاهم وهو ما يتعلق بالنظامات العسكرية والادارة الملكية كما يعلم ذلك من التفصيلات الآتية

وفي اثناء هذا الصلح ادعى بعض المشايخ المدرسين انه يلزم النطق بحرف الضاد من مخرج الظاء وحيث ان هذا من باب المباحث العلمية وقع بين عامة الناس وجهلة الحفاظ نزاع قضى بالخوف على الجميع فنفي بعض المشايخ المدعين بهذه الدعوى ووبخ البعض الاخر وزال الخلاف على الضاد

ولما علمت الدولة العلية ان المحاربة السالفة خطت من شأنها رأت من اللازم تنظيم عسكر اصولي

مع انه بعد ان صار ابراهيم باشا صدراً اعظم ووقع على معاهدة الصلح كما سبق بيانه ترك امر الحرب رأساً وضربت على سيوف الغزاة الحداد حجب النسيان وصار الكلام في امر الحرب ممنوعا عن الناس وبخست اثمان جواهر السيوف ولم تتعلق الخواطر الا بدواعى الخلاعة ومعاطاة الصهباء واستبدل معمل السلاح بمعامل النقوش والفصوص المزخرفة وصارت رخاب

تعليم الجند ملاعب لطالبي البسط والارتياح ولما اتصلت هذه الاخبار بالروسية وامعنت النظر فيها وعلمت إن امر الحرب يكدر صفو ابراهيم باشا والمنتسبين اليه من اعيان العصر جاء سفيرها في الحال الى الاستانة واخذ يكلف الدولة بامور عنيفة وهو وان كان اجيب باجوبة مسكتة فان المشاكل الدولية لا تحسم الا بالسيف ولذلك كان ايراد البراهين القطعية عليه يذهب سدى وهذا نص ما قاله السفير اننا اكرهنا على الصلح سنة حرب بروث بسبب الفشل الذي المّ بنا لحط ذلك من قدرنا واسقط لقب ملكنا من بين جميع الملوك وبناء على ذلك فاذا لم يجدد لنا الصلح فاننا ننقضه ولاجل دفع هذه الغائلة اجيب الى ما طلبه وهو أن يكون للدولة الروسية سفير في الاستانة وأن يكون لقب ملكها كلقب سائر الملوك وبالجملة انه يعطى جميع مطالبه سوى شرط واحد وهو ان لا تتداخل دولته في امر بلاد (له) فقال ان تداخلنا في امر هذه البلاد مبنى على مصافاتنا للدولة العلية لان اهل (له) احرار قد خاصموا ملكهم (نعلقران) فلو تركوه وشأنه لما نالوا ما يرجونه ولكان ملكهم يدخلهم في حيز الطاعة والانقياد طوعا او كرها فيستقل بذلك ويجلب الضرر على الدولة العلية لكونه مجاوراً لحدودها فنحن ندخل بلد (له) وبعد ان ننظم امورها نخرج في الحال الى غير ذلك من الاعذار الواهية التى لا تقنع الصبيان فاجابوه بالايجاب واهملت الامور المهمة التى هلك لاجل الحصول عليها كثير من النفوس واهرقت من شأنها دماء وافرة كل ذلك حتى لا تتعكر كأس صفائهم. ودولة الروسية التى كانت يلزمها ان تتلف لاجل الحصول على كل طلب من مطالبها الوفاً من الجند نالتها جميعاً بلفظ (نقض العهد) ومع كون الصلح عقد على قصد تنظيم العساكر والاخذ بالثار بعد ذلك فان الناس دخلت عليهم جوائح وعوائد جديدة جعلت طبائعهم تألف السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فاصبح كل واحد منهم غريقاً في بحور الملاهى والملاذ وفضلا عن اختلال نظام العسكر فقد اضمحلت انوار الاداب وفسدت الاصول القديمة التى كانت مرعية بين الناس حتى ان الروابط الطبيعية الودية بين الزوجين اختل نظامها وشيد الناس القاعات الجميلة بانواع الرخام وزينوا اطرافها بالازهار واوقدوا المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منابر

لها فكانت تتجول في طرق القاعات والجنائن والانوار تسطع على ظهورها وترسل مرتبة على غاية الانتظام فاطلق عليها اسم (چراغان) «اي الشموع» وقد بنى ابراهيم باشا قصراً جميلا بجوار بشكطاش دعى بقصر چراغان فكان يأدب فيه كل سنة مأدبة حافلة يدعو اليها السلطان فيحضر بانجاله للتفرج على تلك السلاحف الحاملة الانوار فكان يقيم على هذه الحال عدة اسابيع وبعض الاحيان يأتي (باشا قبوسى) ليحضر سهرة كانوا يسمونها بسهرة تاطلى (الحلويات) فيقيم هناك خمسة او ستة ايام . وكان سهل (الكاغدخانه) قُسم على الاعيان والوجهاء فشيد فيها نحو ستين قصراً وحدائق عديدة حتى امتدت عمارتها الى (قرق اغاج) وبنى قصر دعى (سعداباد) واجرى نهر (چاغليان) بين تلك الحدائق والقصور وزين ذلك المكان بالانوار وهذا وان كان مما يظهر شأن الدولة وشوكتها في انظار السفراء والاجانب ويوافق ما هو لازم للسلطان ان يتخذه لسروره من المتنزهات فانه مخل بالاصول وقد اكثر الناس فى هذا المحل الذي هو الكاغد خانه من السفاهة والملاهى حتى تجاوزوا الحدود

وقد كثرت في الاستانة العلية انواع اللاله (هو نوع من الزنبق الاحمر اشبه بشقائق النعمان) واتسعت رياضها ورياض الورد وما شابههما فكان ذلك داعياً الى تشبيهات الشعراء وتخيلاتهم وباعثاً على زيادة الرغبة في الشعر والانشاء وارتفعت أسعار بصل اللاّله حتى بيع المعروف منها باسم محبوب بخمسمائة ذهب (ربعية) وكان الراغبون فيه لا يستطيعون شراءه لغلاء ثمنه فساءهم ذلك فوضع له سعر معلوم وصدر التنبيه على الناس ان لا يبيعوا المعروف منه باسم محبوب باكثر من الف غرش وصار هذا السعر دستوراً للعمل وسجل في محكمة الاستانة كما ورد في كتب التاريخ

وكان هذا الدور في الاستانة من احسن الادوار صفاء وذوقا الا انه اورث الدولة خللا والناس كسلا وبعد ان زالت هذه الجوائح تقلبت الاحوال وتغيرت الشؤون وصار من جاء بعد ذلك من الخلف على اثر اولئك السلف الاول تانف نفوسهم من ذكر العشق

وفي اثناء هذا الدور افاد درى افندي بعد رجوعه من سفارة العجم

ان بعض عقلائهم قالوا ان حال ايران سيئة وانه وان كان يوجد بيننا رجال من ذوي التدبير والدربة فان السفهاء ما تركوا لهم نفوذاً واذا بقيت الاحوال على هذا المنوال تزول الدولة الصفوية في مدة سنتين لا محالة فكان الامر كذلك فانه لم يمر على ما قالوه سنتان حتى غلبهم الافغانيون واستولوا على اصفهان ولما اتصل بالدولة العلية خبر اضمحلال هذه الدولة الصفوية رات من المناسب ان تستولي على بعض الايالات التى كانت قديما في حوزتها ثم دخلت في يد العجم قبل ان يبتزها غيرها فاستولت على عدة ايالات كهمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وحيث لم يكن لوكلاء الدولة معرفة بتدريب العساكر اللازمة لمحافظة الايالات المذكورة فعندما قام بعد ذلك نادر شاه في ايران استرد الولايات التى كانت في يد الدولة العلية والروس وذهب ما انفق في هذا السبيل من العساكر والذهب سدى واستولى الخراب على الاناطولى في هذه الحروب فندم ابراهيم باشا وعم الكدر جميع الناس

وفي اثناء ذلك قررت الدولة العلية اعلان الحرب على روسيا وذلك لكونها كلفتها من الشروط ما لا يطاق وعندما قرأت فاتحة الحرب راجعت افكارها وجنحت الى الصلح وعقدته معهم غير ان تلك المعاهدة تضمنت كثيراً من الامور المضرة بالدولة كما ظهر ذلك فيما بعد وبهذه الوسيلة توصلت روسيا الى وضع يدها على سواحل بحر الخزر . وقد اعترض بعض المؤرخين على ابراهيم باشا لرضاه بهذه المصالحة زاعمين انه لو ثبت مستمراً على الحرب لارتفع شأن الدولة وبلغت كبير النفع مع انه اصاب فى عقد الصلح بالنظر لما شاهده من احوال الدولة فى ذلك الوقت فانه لو لم يصالح لوقع ما كان وقع في الهزيمة التى جرت بعد ذلك في حرب سنة ١١٨٢ ولو نبذ روساء الدولة تلك السفاهات وساروا الى الحرب بقلوب قوية صحيحة لكانوا احسنوا عملا ولكن لما كانوا غريقين في بحر العظمة وكان النفوذ للسفهاء والعدو تنتظم جنوده يوماً فيوماً كان في الحرب وقتئذ خطر وخطاء كبير . فالاعتراض على ابراهيم باشا بقبوله الصلح في ذاك الوقت بعيد عن الحق والصواب ولكن لو تصدى احد الى الاعتراض على ما هو عليه من السفاهة والتوسع في دائرة الملاهى لما وجد من ينكره عليه

وكان ينبغي القيام بدفع فساد نادر شاه ولكن ذلك يقتضي قوة عظيمة ولما كانت الدولة منغمسة في بحر اللهو والخلاعة نشوانة بخمر اللذات فلم يتأت لها ذلك. وعندما ظهر الافغانيون كما اوضحناه واستولوا على اصفهان وخلعوا الشاه حسين الصفوي الذي كان آخر الملوك الصفوية طلبه احمدباشا والي بغداد اليه فلم يكن من الافغانيين الا انهم قطعوا رأسه وارسلوه اليه وعليه انقرضت الدولة الصفوية فلم يبق منها الا طهماسب بن حسين شاه الذي كان في جهة قزوين حين الاستيلاء على اصفهان فتسلطن هناك. وفي اثناء ذلك ظهر من عسكره رجل جسور من قبيلة افشار اسمه نادر علي فاشتهر بالاقدام والقوة شيئاً فشيئاً فعينه رئيساً لحجابه وتغلب على الافغانيين واستخلص منهم اصفهان فنال بذلك عند الملك نفوذاً تاماً وعين وكيلامطلقا ولقب (اعتماد الدولة) وسار الى الافغانيين لاسترجاع ايران من حوزتهم وفي اثناء ذلك انهزم الشاه طهماسب في حربه مع سر عسكر روان علي باشا ابن الحكيم كما انهزم في حربه مع احمد باشا والي بغداد في صحراءهمذان فاضطر الى طلب الصلح فعقدت المعاهدة معه على ان تبقى كنجه وتفليس وروان وشروان في حوزة الدولة العلية ويستمر في يد طهماسب همذان وكرامان شاهان لا غير على ان نادر علي لما بلغه خبر الصلح الذي عقده الشاه طهماسب امتعض لذلك وخلعه واجلس ابنه عباس مكانه وكان عمره ثمانية اشهر ثم خلعه ايضاً ولبس هو الخلعة الملوكية فصارت ممالك ايران جميعها مسخرة لامره واستولى بغتة على الايالات المذكورة لانها كانت خالية ممن يحافظ عليها بسبب الصلح المعقود واخذ يشن الغارة على الحدود الخاقانية فنشأ عن ذلك في الاستانة أقوال كثيرة واراجيف متنوعة وانكر جماعة من الصالحين هذه الاحوال السيئة على ابراهيم باشا وقدحوا فيه لسوء افعاله واما العامة فانهم جسموا هذه الاشياء وجعلوا الحبة قبة ولا يخفى ان القدح سجية خفية في الخلق تظهر عند وجود سببها فاطلقوا السنتهم في الوزير وقالوا انه ترك ما كان عليه اسلافه من الوزراء من شدة الاعتناء بتعليم العسكر وانه وقع في مهواة الملاعب وعود السلطان على اللهو والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة في ايدي الندامى بعد ان كانت تعطى للمستحقين

لها المستعدين للقيام بها من المجاهدين وانه اعطى لنادر شاه ما كان استولى عليه من الولايات في العجم وترك المسلمين في يد الاعداء الى غير ذلك من التنديدات والمطاعن المتوالية سراً وجهراً . ثم ان ابراهيم باشا شعر بان الحال سيئة فضرب السرادقات الهمايونية في اسكدار لارهاب نادر شاه واذاع السفر الى جهة العجم فكان تارة يذيع ان حضرة السلطان يسافر بنفسه الى العجم وآونة يقول انه هو الذي يسافر فقط فاشمأزت نفوس الناس من هذا التردد واثار بعض الاشقياء ممن الفوا الفساد نار الفتنة في الاستانة وذلك سنة ١١٤٣ وكان المعسكر الهمايوني اذ ذاك في اسكدار

كان بعض محبي ابراهيم باشا حذروه امر الفتنة قبل ظهورها الا ان جماعته كانوا سكارى بخمرة الجاه والترف معتادين على المداهنة والنفاق فلم يستحسنوا كلام المحبين بل كان مراً علقماً في اذواقهم وكذلك تقدم بعض الصادقين في الخدمة الى كتخدا بك وحذره وقال له ان الاحوال سيئة وانه يجب اخذ التدابير اللازمة لتسكين افكار العموم ظناً منه انه يقبل نصيحته فانكر عليه ذلك وقال هل هذا وقت هذه التصورات ثم انَّبه ووبخه فتباعد الناس حينئذ عنه وتحاشوا عن المداخلة في هذه الامور حتى انهم اذا رأوا الاشقياء في الاسواق يتظاهرون بالفساد يقولون لهم شأنكم وما تريدون واجتمع كثير من اركان الدولة قبل وقوع هذه الحوادث ورفعوا للاعتاب السلطانية امرها فلم يلتفت اليهم السلطان ولم يعزل وزيره ابراهيم باشا نظراً لعلو مكانته عنده فاعتزلوا جميعاً عن المداخلة ويئسوا من الاصلاح واقاموا ينتظرون ما يظهره القضاء والقدر من الغيب فاتسعت لهذا السبب دائرة الفساد ثم اخرج السنجق الشريف ولما كان الناس حانقين على ابراهيم باشا فلم يجتمعوا حول السنجق الشريف ثم ان حضرة السلطان احمد خان قتل ابراهيم باشا وبعض المنتسبين له وسلم اشلاءهم الى الاشقياء وتخلى عن السلطنة فتولاها السلطان محمود الاول وبجلوسه زالت غوائل الشر ثم ان تاخر الناس عن الاجتماع حول السنجق النبوي الشريف لم يكن عن ضعف او عصيان بل كان نكاية لابراهيم باشا والا فانهم لما رفع احد الشرفاء سنجقاً وظنوا انه السنجق النبوي اجتمعوا اليه من كل جهة كما ذكرناه في الفصل

السابق

والحاصل ان المعاهدة التى انعقدت مع شاه طهماسب كانت سبباً لخلعه وداعية الى حدوث هاته الحوادث في الاستانة على انه عند جلوس السلطان محمود هدأت الحال وزال الاضطراب . ومن الامور المجربة ان الافراط يدعو الى التفريط فالاشقياء الذين محوا بتعصبهم الرسوم السابقة تجاوزوا حدودهم وتظاهروا بحركات غير مرضية فكان ذلك داعياً للدولة العلية الى الاشتغال بدفع اضرارهم مدة طويلة حتى ان قاضى استامبول الذي كانت توليته على ايديهم لجهله وجنونه اصدر بعد هذه الحوادث اعلاماً هدمت بمقتضاه الرياض والقصور العالية التى كانت شيدت فيالكاغد خانه وهذا الامر اظهر رذالته الكبيرة في عيون الاعداء والاصدقاء

وقد ظهر في ذلك العصرميلالدولة الى السير في طريق المدنية ورغبتها في ترتيب عسكر منظم غير انها تركت الرؤوس وتمسكت بالاذناب بلشرعت في زخرفة البنيان من غير ان تنظر الى اساسه وذلك انها بدلا من ان تبذل الهمة في رواج اسواق الصناعة والفنون المنتشرة في اوروبا انخدعت للسفهاء واسترسلت في طرق الاسراف تاركة انوار المدينة الحقة وكان اهل الاستانة اذ ذاك على غاية التعصب والتصلب فنفروا من تصرفات كبار المامورين، وصاروا ينظرون بعين الازدراء الى جميع المحدثات الجديدة حتى الابنية

والحاصل ان سبل المدنية قد فتحت ايام صدارة ابراهيم باشا على ما يقتضيه الوقت فاسست صناعة الطباعة في دار السعادة الا ان كبار المامورين افرطوا في السفاهة حتى نفرت عنهم طباع العامة فظهرت الفتنة العظيمة التى ذكرناها سابقاً وجرى منها ما جرى ولم يبق في الاستانة من آثار المدنية الا صناعة الطباعة ومع ذلك فانها طرحت مدة في زاوية الاهمال وبقيت الدولة مدة لا تنظر الى هذه الامور بسبب ما ظهر من التعصب الذي لا طائل تحته وما توالى عليها من الحروب في ايران واوروبا كماسنذكره ولنبدأ الان في ذكر زمن اختراع فن الطباعة وكيفية تاسيسها في الاستانه

استطراد

﴿ في صناعة الطب ﴾

لا ريب ان صناعة الطباعة فن جليل لا مثيل له جدير بان يسمى ام المدنية لانه انفع وارفع شأناً من جميع المخترعات البشرية . وقد اتفقت الآراء على انها هى الاساس لما نشاهده في زماننا من الصنائع المتنوعة والتقدم العظيم في اهل اروبا واميركا فان الكتاب الذي كنا نستغرق فى استنساخه باليد زمناً طويلا بنفقة كثيرة مع كون اسرع الكتاب لايستطيع ان يكتب منه نسخة واحدة في اقل من ثلاثة اشهر صرنا نحصل منه على الف نسخة كاملة خالية من الخطا في مدة عشرين يوماً مثلا . وهذا مما يثبت ان انتشار العلوم النافعة حصل بواسطة هذه الصناعة التى كانت سبباً قويا في انتشار العلوم والاطلاع على كثير من الفنون ونشر فوائد المعرفة بين جميع الملل والنحل واظهار الخصائص والمعارف الانسانية وبيان مايلزم وما تحتاج اليه المدنية وبالجملة فهى التى جعلت الانسان انساناً ولا شك ان عدم انتشارها بين الاقدمين الذين كانوا متقدمين في الفنون والمعارف هو الذي كان سبباً في انقراض اثارهم وترك معارفهم وعلومهم كأن لم تكن شيئاً مذكوراً

اما الان فقد انتشر في كل جهة من جهات العالم عدد كثير من تآليف ومصنفات في كل فن من الفنون وذلك بواسطة الطبع واصبح الامل قوياً ببقاء المعارف الى ما شاء الله وقد اختلف المؤرخون فيمن اخترع هذه الصناعة وفي مكان وجودها الاول ثم ثبت انها وجدت في المانيا في مدينة ﴿ مايانس ﴾ من اعمال غرندوقية ﴿ هس دارمشتاد ﴾ واول مطبعة انشئت مطبعة ﴿ كوتنبورغ ﴾ باشتراك مع ﴿ فوست ﴾ غير انه يظن ان كوتنبورغ احدث هذه الصناعة من قبل في مدينة ﴿ ستراسبورغ ﴾ فقام كل فريق من اهالي هذين البلدين يدعى اختراع هذه الصناعة في بلده وكلهم متفقون على ان مخترعها هو كوتنبورغ

وقد ولد كوتنبورغ في مدينة مايانس سنة ١٤٠٠ مسيحية الموافقة لسنة

٨٠٣ هجرية من عائلة معتبرة شهيرة وفي سنة ٨٢٨ هجرية سار الى مدينة ستراسبورغ ونسب الى اهلها الي سنة ٨٤٨ هجرية وفي سنة ٨٤٠ للهجرة عقد مع رجل يقال له اندره دوريزن وغيره شركة على بعض الحرف والصنائع الخفية فمات اندره المذكور وقام اخوه جورج دوريزن يدعى بالارث وحق الدخول في الشركة المذكورة وعند المرافعة سنة ٨٤٣ حكم له باعلام رسمى ان ياخذ حقوق اخيه بوجه الشركة ولذلك كان يظن ان صناعة الطبع كانت من جملة الصنائع الخفية في هاته الشركة فيمكن القطع والحالة هذه بان الصناعة المذكورة وجدت في ستراسبورغ سنة ٨٤٠ للهجرة ولا يوجد ما يدل صريحاً على كيفية الابتداء بالطبع ويقال ان كوتنبورغ ابتدأ هذا العمل بحروف مصنوعة من الشجر الا ان عدم وجود اسمه على ظهر الكتب التى كان يطبعها اوجب اختلافاً كلياً بين المؤرخين

وقد تحقق ان كوتنبورغ اتخذ مطبعه فى مدينة مايانس سنة ٨٤٧ وعقد شركة مع فوست ومن روايات العامة ان الانجيل الشريف طبع فيها وهو المسمى (عندهم) باثنين واربعين سطراً وقد جهلت مطبعته وطابعه لعدم كتابة شيء عليه ومن المحقق ان كوتنبورغ وفوست كانا سنة ٨٥٥ للهجرة مشتركين في العمل معاً وانهما احدثا ثلاثة انواع من الطبع احدها بحروف محفورة في الخشب والثانية حروف صغار من الاخشاب ايضاً والثالثة تسكب حسب العادة

وفوست المرقوم ولد في مايانس واشتغل في صناعة الصياغة ولكونه كان من اهل الثروة اعان كوتنبورغ المذكور بالمال وقيل انه اعانه بمهارته في الصنعة وفي سنة ٨٦٠ وقعت بينهما منازعة ادت الى فسخ الشركة فاضطر كوتنبورغ الى ان يترك لفوست اسمه من الشركة فى مقابلة الدراهم التى كان دفعها له فبناء على ذلك ان اعانته له كانت مالية ثم استعان ببعض الوجهاء على انشاء مطبعة اخرى فطبع فيها بعض الكتب وتوفى في مدينة مايانس سنة ٨٧٣

واما فوست فبعد ان استولى على جميع المطبعة على الوجه الذي ذكرناه عقد شركته مع بتروس شوفر فشرعا فى الطباعة وفى سنة ٨٦٢ هجرية الموافقة ١٤ اغستوس سنة ١٤٥٧ مسيحية طبعا المجلد المسمى (يسوتيه)

المشتمل على الزبور الشريف وهو اول كتاب طبع مؤرخاً وقد ولد شوفر المرقوم فى قرية كرنس هايم من قرى دار مسشتاد فاشتغل بصنعة الكتابة واقام في باريس الى سنة ٨٤٣ هجرية ثم جاء الى مايانس واشتغل فى مطبعة كوتنبورغ وفوست ثم شاركه فوست وصاهره لانه كان على غاية الذكاء والدراية وكانت مطبعة كوتنبورغ وفوست تطبع بحروف على هيئة التمغا ثم اخترع شوفر قالباً لصب الحروف لم يكن يعرف من قبل واتقن صناعة الطبع فزاد سرور فوست من اختراعه هـذا وشاركه وصاهره كما تقدم . واول الكتب التى طبعت في المطبعة المذكورة بهذه الحروف الجديدة سنة ٨٦٤ كتاب المؤرخ دوراندي وفي سنة ٨٦٥ طبعت نظامات قلمانديسى وفي سنة ٦٧ طبعت التوراة الشريفة بلسان اللاتينى مؤرخة وهذه اول مرة لطبعها فمن هذه الروايات يتضح جلياً ان كوتنبورغ هو المخترع لفن الطبع وان شوفر قد اكمله وزاده اتقانا وقال المؤرخون ان محدث هذه الصناعة ومخترعها هو لوران فوستر من هارلم التابعة لمملكة هولاندا الذي صار اسمه منسياً ونسب الاختراع لكوتنبورغ وفوست كما نسى اسم قريستوف قولونب الذي اكتشف على اميركا في سياحته ونسب اكتشافه لرجل غيره يسمى امريك كان سافر الى هناك في تلك الاوقات

قيل ان لوران فوستر المذكور كان يتجول في بعض الجبال فصنع من قشور الشجر صور بعض الحروف وطبع بعض الاشعار وبعد ذلك اجتهد مع صهره فاخترعا نوعا من الحبر الثابت وطبعا به كتابا . ثم اصطنع حروفا من الرصاص ثم جعلها من النحاس لكونه اقوى واستجاب عملة واظهر صناعة الطبع وكان يكتم كيفيتها عن الصناع فوقف فوست على هذا السر لانه كان وقتئذ من جملة العملة فاكرهه فوستر ان يحلف له على كتمانه . وبينما كان استاذه لوران فوستر ذات ليلة في الكنيسة اخذ فوست آلات الطبع وفر بها وبقى مدة يتجول في اطراف آمستردام وغيرها من الانحاء الى ان حط رحله في مدينة مايانس وسنة ٨٤٦ طبع فيها عدة من الكتب ثم اشترك مع كوتنبورغ وشوفر واشتغلوا في هذه الصناعة سنة ٨٥٥

فعلى هذه الرواية ان اصل مخترع الطبع كان لوران فوستر واما كوتنبورغ

وفوست فلهما المزية المبرورة في نشر هذه الصناعة لا في اختراعها. ثم انه كان يستعمل في الازمنة القديمة آلات للطبع كالقالب الذي يطبع به الشيت وما شابهه وكانت صناعة حفر الخواتم من الصنائع القديمة ايضاً غير ان صناعة الطبع ليست في شيء من ذلك بل هي عبارة عن تركيب الحروف المصنوعة وفكها واختراع لوران فوستر لم يعلم من اي الانواع هو فلذلك يتعين ان ينسب اختراع فن الطبع الى كوتنبورغ

ثم بعد ان علم الناس منافع الطبع ظهرت روايات لم تبلغ حد الثبوت تفيد ان الصينيين او عرب الاندلس هم اول من اخترع هذه الصناعة ثم ان الطبع بحروف مصنوعة من الخشب على اشكال مختلفة كان موجوداً جارياً في الصين واليابان منـذ الف وستماية سنة ومألوفا في زمن اليونانيين وقدماء الرومانيين وقد وجد بين اثار هركولانوم التى في جوار نابولي في ايتاليا تذاكر دعوة مطبوعة وهذا مما حمل البعض على القول بان صناعة الطبع كانت معروفة عند الاوائل وان تفصيلاتها وان كانت مجهولة عندهم فان ذلك مما يوجب الحكم بان هذه الصناعة قديمة والذي يظهر انها كانت من قبيل صناعة القالب والخاتم اما فن الطبع المعروف الان الذي هو عبارة عن ترتيب الحروف وتفكيكها فمخترعه الحقيقى هو كوتنبورغ

والحاصل ان صناعة الطبع قد ظهرت في مايانس وبقيت جارية فيها متصلا عملها الى سنة ٨٦٧ كما قلنا الا انه بسبب الحرب الواقعة يومئذ في مدينة مايانس والاستيلاء عليها تعطلت المطابع وتعطل عملها مدة ثم انتشر بعد ذلك واستعمل فى كثير من البلدان

وبعد هذه الوقعة رجع فوست وشوفر الى عملهما وفتحا مطبعتهما واشتغلا مقدار سنتين بعناء وصعوبة وطبعا بعض الكتب ثم سافر فوست المرقوم الى باريس فى سنة ٨٧١ وباع فيها نسخ التوراة المطبوعة فافترى عليه جماعة من المتعصبين وقالوا انه ساحر وان الرسوم المصنوعة فى نسخ التوراة المذكورة باللون الاحمر قد رسمت بدم الانسان فالقوه فى السجن غير ان لويس الحادي عشر الذي كان ملكاً لفرنسا فى ذلك الوقت كان له ولع عظيم بهذه الصناعة فاطلقه من الحبس بقصد الوقوف على سرها ثم لم

يلبث فوست ان توفى فى باريس بعلة الوباء وبقيت المطبعة التى فى مايانس لصهره شوفر فاشتغل فيها مدة طويلة . وكان اسمه مسطوراً فى الكتب التى طبعت الى تاريخ سنة (٩٠٨) واستدل على وفاته فى التاريخ المذكور بوجود اسم ولده زان شوفر منقوشاً على كتاب فى فن الحكمة طبع فى مطبعته سنة (٩٠٩) ثم انتشرت الصناعة المذكورة فى جميع البلاد بعد وقعة مايانس واستعملت اولا فى ايتاليا ثم فرنسا . وراجت فى فرنسا رواجا عظيما فى مدة قليلة . ولويس الحادي عشر المشار اليه وان كان سيء الخلق فانه اهتم بنشر الصناعة المذكورة ورواجها فجلب من مايانس ثلاثة اشخاص وباشر فى طبع الكتب ثم ان بعض الخطاطين فى باريس لما رأوا ان صناعة الطبع تمس منافعهم الخصوصية من غير ان يلتفتوا الى المنافع العمومية حضوا الاهالي على الغائها فاجتمع منهم زمرة من المتعصبين واتهموا الاشخاص الثلاثة الذين اتى بهم لويس الحادي عشر لرواج صناعة الطبع بالسحر وسعوا فى منعهم من تعاطى هذه الصناعة وتاديبهم فصدر من البارلامنت اعلام يتضمن مصادرتهم وضبط اموالهم غير ان الملك المشار اليه انقذهم من هذه الورطة وجعلهم تحت حمايته واعطاهم عدة امتيازات واقتدى به فى ذلك لويس الثاني عشر واعطى الطباعين والمجلدين وسائر خدمهم امتيازات عديدة وقد كثرت هذه الصناعة فى زمن فرانسوى الاول ملك فرنسا الذي سار على سنن سلفائه فى استحسانها فصدق على الامتيازات المعطاة لهم وزاد عليها اشياء اخر ثم بعد ذلك تغيرت هذه الامتيازات وتبدلت وذلك لشكاية اساتذة مدرسة دار الفنون (صوربيون) فى باريس منها وصار من الاصول القانونية ان يتعين (صانسور) مفتش يقف على كل كتاب قبل طبعه

وفي سنة (٨٧٦) انتشرت الصناعة المذكورة في اسبانيا ولم تعرف في روسيا الا بعد ذلك بمائة سنة

واما في انكلترة فان احد الناس جلب اليها الحروف المصنوعة في سنة (٨٧٦) غير ان ضابطها وحكامها حالوا دون استعمالها وبعد ذلك تعلقت الهمة في انشاء مطبعة في مدينة (نواردیق) من اعمال انكلترة فقام ذوو

والعقول السخيفة من اهاليها وقدموا شكواهم لمجلس الامــة (البارلامنت طلبوا منع هذه الفائدة العموميه زاعمين انه لا يجوز استعمالها لانها كثيرة الضرر قليلة النفع لا خير فيها) وفي خلال ذلك اتسع نطاقها وانتشر عملها في الآفاق شيئاً فشيئــاً والذين اتوا بعد ذلك قويت مهارتهم في تحسين الحروف وزخرفتها وبلغت هذه الصناعة درجة الكمال خصوصاً الكتب التى طبعت سنة (١٠٠٠) في هولاندا فانها وقعت عند اصحاب العلوم والمعارف موقع الاستحسان

ومما يعتبر به هو ان كثيراً ما يتفق للعامة الذين هم فى قــلة العقل كالصبيان لا يعرفون منافعهم الشخصية ان يأتوا اموراً يجلبون بها منــافع واغراضاً لغيرهم من اهل المآرب وهم لا يعلمون ان ذلك يضر بهم كما وقع في اوربا فان كثيراً من النساخين حركوا الاهالي لمنع هذه الصناعــة العائدة بالنفع العمومى فاجابوهم الى ذلك وسعوا فيه غير ان الارادة الالهية قضت بعمران العالم في تلك العصور فلم تمكن احداً من منع ظهورها فانتشرت بسببها المعارف والعلوم ولم يبق لاصحاب الاغراض تأثير في حركاتهم

واول ما ظهرت الرغبة في هذه الصناعة في دار السعادة من الممالك الشرقية غير انها لم تبرز للوجود الا بعد سنين عديدة . ولا يخفى ان السعى والاجتهاد في تحصيل العلوم والمعارف وانتشارها فرض كما ان التشبث بالوسائل والاسباب التى عليها مدار انتشارها مطلوب بدليل ما ورد في فضائل العلم من الآيات والاحاديث الشريفة قال تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وفي الحديث (اطلبوا العلم من المهد الى اللحد) غير انه لما كان الوقت غير مساعد لذلك ولم يحصل الاختلاط بالاوربيين فلم يراع الشرقيون الحكمــة في قولهم (من عرف لسان قوم امن من مكرهم) وحديث (اطلبوا العلم ولو بالصين) ولذلك لم يصل ضياء شعاع مثل هذه العلوم والمعارف الى الممالك الشرقية الا بعد ان استنارت بها بلاد اوربا وانتشر ضياؤها في جميع اقطارها

وكان ظهور هذه الصناعة في دار السعادة كما يأتي وهو ان في مدة وجود محمد افندي المعروف باسم (يكرمى سكز جلبي) سفيراً في باريس كان معه ابنه سعيد افندي الذي كان من خلفاء مكتوبي الصدارة وصــار بعد ذلك

صدراً اعظم فشاهد منافع الطباعة هناك فلما عاد الى الاستانة تذاكر في هذا الخصوص مع بعض اصحاب المعارف والفنون فكان كل منهم يرغب في ذلك وكان وقتئذ ابرهيم افندي المجري المعروف بابرهيم اغا انكروسى المتفنن في الرياضيات الماهر فى كثير من الفنون الشهير بالذكاء والاقدام موجوداً في الاستانة واحسنت الدولة اليه براتب ٩٩ درهماً من الفضة ﴿سمى هذا الراتب متفرقه دركاه عالي﴾ مكافأة له على خدمه فعرف باسم ابرهيم متفرقه فجاءه سعيد افندي الموما اليه وبحث معه في اظهار صناعة الطبع في دار السعادة فافاده بانه يستطيع على اخراج هذه الصناعة من القوة الى الفعل اذا حصلت المساعدة بالمال فكتب تقريراً ورفعه لابراهيم باشا صهر الذات الشاهانية ملتمساً منه رخصة بطبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والهيئة وسائر الفنون ما عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام وكانت جرت المذاكرة قبل ذلك في دار السعادة باستعمال هذه الصناعة ولكن لم يتجرأ احد على اجرائها فتردد وكلاء الدولة في اجابته فأصرَّ سعيد افندي على ذلك واعانه الصدر الاعظم ابراهيم باشا وكتب بعض علماء العصر وعبدالله افندي شيخ الاسلام عدة تقاريظ بليغة على تلك العريضه وذلك في خلال سنة ﴿ ١١٢٩ ﴾ ثم افتى عبدالله افندي شيخ الاسلام باجراء هذه الصناعه فصدر الفرمان العالي موقعاً بالخط الشريف خطاباً الى سعيد افندي وابرهيم افندي بالرخصة في طبع سائر الكتب سوى كتب التفسير والحديث والفقه والكلام

وعلى هذا لم يبق من محذور يحول دون همة ابراهيم افندي وعزمه ولم يقصر سعيد افندي في الاعانة بالمال اللازم فبذل هذان الغيوران وسعهما مدة سنين واسسا مطبعة وجلبا آلات وادوات حسنة جداً وسكبا قوالب للحروف

وعين اسحق افندي قاضى استانبول السابق وبيري زاده صاحب افندي الذي عزل من سلانيك واسعد افندي اليانيلي الذي كان معزولاً من غلطة وموسى افندي شيخ مولويه قاسم باشا مأمورين بتصحيح الكتب المطبوعة وفي سنة ﴿ ١١٤١ ﴾ طبع من كتب اللغة اكثرها لزوماً والتى كان الطلبة

يعانون شدة فى مشتراها من كتب اللغة (قاموس وانقولي) في مجلدين فبيع كل نسخة منه بخمسة وثلاثين قرشاً وهى بمنزلة اربعمائة قرش فى هذا العصر ومن اراد الاطلاع على صور الفتوى الشريفة والفرمان العالي والتقاريظ المحررة على التقرير المذكور فليراجع ذلك الكتاب فانها مكتوبة فى اوله

وفي تلك السنة ايضاً طبع كتاب تحفة الكبار اثناء تصحيح القاموس وذلك لكى لا يتوقف عمل المطبعة ثم طبع تاريخ الافغان الذي ترجمه ابرهيم افندي من اللاتينى . وفي سنة (١١٤٢) طبع تاريخ الهند الغربي وتاريخ تيمور لنظمى زاده وتاريخ مصر القديم والجديد لسُهيل . وفي سنة (١١٤٣) طبع كتاب (كلشن خلفا) نظمى زاده ثم كتاب نظام الامم وفيوضات مغناطيسية لابرهيم افندي وكتاب جهانماسى للكاتب جلبى وتقويم التواريخ وتاريخ نعيما وتاريخ راشد وذيل جلبى زاده وتاريخ عمر افندي المتعلق بغزوات بوسنه وكتاب فرهنك شعوري

وعدا عن ذلك فقد حفر ابرهيم افندى حروفاً فرنسوية وطبع خريطتى البحرين الأسود والخزر باللغتين التركية والفرنسوية . ثم توفي سنة (١١٥٨) وخلفه ابرهيم افندي القاضى فطبع قاموس وانقولي مرة ثانية وكتباً اخرى الا انه وجد في طبع هذه الكتب كثير من الغلط والسهو مع رداءة الحروف

ثم توفي ابرهيم افندي حينما كانت الدولة العاية مشغولة بمشاغل كلية فلم يكن لها وقت ان تاذن في العمل من بعده لاحد فبقيت المطبعة المذكورة معطلة مدة مديدة ثم فتحت في سنة (١١٩٨) كما سنورده فطبع فيها تاريخا صبحى وغري وكتاب اصول المعارف في ترتيب المعسكر وكتاب اعراب الكافية ورسالتان في فن الالغام والحرب للمرشال (وبان) وترجمة قوانين الملاحة للموسيو (تروكه) واصول المعارف في ترتيب الاساطيل وهذه الكتب لم تطبع خالية من الغلط كالكتب التى طبعها (ابرهيم متفرقه)

ثم صبت حروف جديدة بنظارة عبد الرحيم افندي عندما اشتدت الرغبة في رواج الامور النافعة ايام الدور السليمى فاسست مطابع جديدة في اسكدار وقمبره خانه وطبع فيها من الكتب المفيدة نحو من خمسة واربعين كتاباً وانشئت مطابع جديدة اخرى وبلغت الصناعة المذكورة بالتدريج في

دار السعادة الى الدرجة التى نشاهدها الان

ولا يخفى ان الرخصة الممنوحة لابرهيم افندي وسعيد افندي لا تشمل طبع التفسير والحديث والفقه والكلام كما هو مقتضى الفتوى الشريفة التى صدرت على حسب استدعائهما كما ذكرناه وذلك حذراً من اعتراض اصحاب التعصب فمضت مدة طويلة لم تطبع بها كتب شرعية ولم يرَ علماء اصول الفقه من بأس بطبع الكتب الشرعية وان كان فيه اعمال تخل بتعظيمها وذلك استناداً على القضية المسلمة عندهم وهى ﴿ الامور بمقاصدها ﴾ فانهم بناء على هذه القضية اجازوا تجليد القرآن الكريم خوفاً من شتات اوراقه وضياعها مع ان في التجليد اموراً تخل بالتعظيم اكثر من الطبع مثل الرض بالمطارق والتضيق بالملازم وللمقاصد الخيرية في تكثير الكتب نوعوا طبعها تعميماً لمنافع الطلبة فاستفاد من ذلك جميع اصحاب الفنون ولنرجع الان الى بحثنا

وفي عصر حضرة السلطان محمود خان الاول صاحب الغيرة والاقدام والشأن العظيم فتحت فتوحات عظيمة وجرت وقائع جسيمة فانه ساق العساكر الى الشرق والغرب واتي باعمال كبيرة تدل على ما عنده من الغيرة وعلو الهمة

وذلك انه حارب نادر شاه عدة حروب اولاً واخراً فعين عثمان باشا الاعرج سر عسكراً لجهة المشرق فغلب نادر شاه وظفر به بعد امتداد المحاربة في صحراء كركوك نحو تسع ساعات ففر نادر شاه مجروحاً وامسى اكثر بلاد ايران خراباً ثم جرت بين نادر شاه والعثمانيين حروب عديدة كانت بينهما سجالاً وذلك ناشيء عن انكار المذهب الخامس الذي انتحله نادر شاه وفي آخر الامر في عصر حضرة السلطان مراد الرابع عقد الصلح على الحدود بين الفريقين فاخذ بعد ذلك نجم نادر شاه في الافول وخرجت خانات ايران عن طاعته واحداً بعد آخر ولم يمض قليل من الزمن حتى قتله ذووه وانتهى امره

واما الخدم المبرورة التى اجراها احمد باشا الذي كان والياً على بغداد اثناء هذه الحروب فهى مسطورة في صحف التواريخ

وعندما انتشبت الحرب بين اوستريا والدولة العلية في سنة ﴿ ١١٤٨ ﴾

اتفقت حنة ايضاً قيصرة الروسية مع اوستريا فساقت عسكرها على الدولة العلية بقيادة الجنرال مونيخ وقد اعلن الجنرال مونيخ انه سيحيي بها دولة الروم القديمة فاشرأبت نفوس الروم الى هذا المأمول وتلقى اهالي بغدان عساكر الروس عند دخولها الى بلادهم بالقبول ففشل المسلمون وهزموا لان عساكر الدولة العلية وقتئذ كانت مختلة النظام فلم تستطع مقاومة العساكر المعلمة ثم ان الجنرال مونيخ تصور في افكاره ان يقطع نهر الطونه. واما حضرة السلطان محمود خان المشهور بالغيرة والاقدام فقد استفاد من صلابة وغيرة العثمانيين الذين لم يسر الخلل في عروق حميتهم واعصابها فتغلب بهم على اوستريا واسترد بلغراد . وفي اثناء ذلك توسطت دولة فرنسا بين الروس ودولة اسوج التى قامت على روسيا فعقدت المصالحة بينهما في سنة ﴿ ١١٥٢ ﴾ هجرية وبقيت بلغراد في يد الدولة العلية وتخلصت دولة الروسية من العار والذل الذي لحقها في مصالحة بروث

وفي هذه الحروب قام علي باشا حكيم زاده ومحمد عوض باشا بخدمات مبرورة تتزين بها صحف التواريخ ولما ظهرت فوائد العساكر المعلمة في هذه الحروب رغب السلطان محمود الاول في ترتيب عساكره وتعليمها غير ان الدولة العلية وقعت يومئذ في المشاكل الداخلية فلم توجه افكارها الى ذلك بل بقيت هذه المسالة دائرة بين الالسنة

والحاصل ان الدولة العلية نالت حياة جديدة في مدة حضرة السلطان محمود خان الاول الذي استمر ملكه ٢٥ سنة وخرج من عهدة الوقوعات الجسيمة ومن امعن النظر في التواريخ علم ان تلك الوقائع جرت حينما كانت الدولة ضعيفة وكان المسلمون في حال ضجر وفتور وان دفاعها كان ناشئاً عن علو همة الحضرة السلطانية وغيرتها ولو لم يكن الامر كذلك لكانت الدولة ساعدت اهل اذربيجان الذين طلبوا حمايتها ومعونتها عندما اصبحت ممالك ايران بعد نادرشاه فوضى لا حاكم لها ولكانت استولت على كثير من بلاد ايران

ثم توفى السلطان المشار اليه سنة ﴿ ١١٦٨ ﴾ هجرية وجلس مكانه اخوه حضرة السلطان عثمان خان الثالث. وفي سنة ﴿ ٧٠ ﴾ صار راغب باشا المشهور

صدراً اعظم . وفي سنة (٧١) توفى السلطان عثمان وجلس السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان احمد الثالث فابقى راغب باشا في الصدارة

وكان راغب باشا يذهب بنفسه الى غزوات الروم ايلي والشرق فوقف على حقائق الاحوال وفي مدة صدارته وهى ست سنوات حافظ على السلم واجتنب الحرب. حتى ان حضرة السلطان مصطفى تحركت نفسه الى ايقاد نار الحرب مراراً وقال اذا كان المقصود هو الدراهم فاني اقوى على بسط بساطين من الذهب افرشهما من باب ادرنه الى روسجق فراجعه راغب باشا وقال ان دولتكم العلية هى غضنفر حرب ووغى كما انها مهابة في انظار الاجانب لما سبق لها من الوقوعات الجسيمة غير ان مخالبها الان مكسورة فاذا علم بها الاعداء عند الحرب وقعنا في الحيرة فالاولى اننا ننظم العسكر اولا ثم ننظر في امر الحرب فعلم مما ذكر ان هذا الصدر قد نصح بكلامه هذا في خدمته للدولة اذ لولاه لخيف ان يقع نظير ما وقع في حرب روسيا سنة ١١٨٢ وعلى كل حال فانه لم يوفق لانفاق المال المذكور في تنظيم العساكر

قال شاني زاده ان العقلاء صاروا يشمئزون من الحروب بعد تاريخ الف ومائة حتى ان راغب باشا اجتنب الحرب ايام صدارته (رحم الله امرءا عرف قدره ولم يتعد طوره) انتهى

والحاصل ان وكلاء الدولة وعقلاءها الذين صرفوا اوقاتهم في معامع الحروب ايام السلطان محمود الاول كانوا جانحين الى جانب الصلح لانهم علموا ان الدولة كانت تقع في اشراك المشاكل عند فتح الحروب بسبب الخلل الذي الم باصولها ونظامها القديم وباهمال تنظيم العسكر مدة مديدة وقد الف الناس الراحة والسكون واما الاعداء فانهم ترقوا بتنظيم جندهم وتضلعهم في معرفة الفنون الحربية ومن المسلم ان اهم الامور للدولة العلية تجديد تنظيمات العسكرية غير انه لم يتشبث احد به على اهميته اتباعا للاحوال فكانت الامور حينئذ تجري في اعنتها

وفي ذلك الوقت كانت نوبة قاترينة الثانية في حكومة الروسية والمشار اليها لم تكن من ذوي النسب المعتبر من انساب الروسية انما كانت زوجة بطرس

الثالث حفيد (دلي بترو) فقامت عليه وخلعته بالحيلة والدسايس وصارت امبراطورة عوضه ثم قتلته حذراً من غدره بها فصعب هذا الامر على الروسيين فارادت ان تستر قبائحها بتجشم الوقائع الجسيمة وعزمت على اجراء ما كان (دلي بترو) عازماً عليه ولم يجره وهو التعرض لبلاد (له) والممالك السلطانية فادخلت جندها في لهستان اولا ثم تداخلت في امورها فكان ذلك مخالفاً لما انعقدت عليه المعاهدة الهمايونية ومضراً بالدولة العلية وكان يقتضى منع ذلك ولكنها كانت يومئذ ضعيفة محتاجة الى تنظيم عسكرها

وكانت السياسة والموازنة الدولية تقضيان على دول اروبا جميعاً بتعرّضها لقاترينه وحملها على الوقوف عند حدها ومع ذلك فلم تهتم لهذا الامر بل وجه كل منهم اهتمامه الى منافعه الخصوصية. وقد كان بين فرنسا وبين قاترينه فتور وضغائن فرأت ان عاقبة هذا الامر وخيمة فلم تر بدأً من محاربتها فحضت الدولة العلية بواسطه سفيرها في الاستانة على الحرب مع علمها ان الدولة العلية لاتقوى على اقتحام نارها ولكنها ارادت ان تغتنم بذلك فرصة تشغل فيها روسيا مدة من الزمن وكان راغب باشا قد توفى ففتح ميدان واسع لارباب التملّق والمداهنة فكانوا يحسنون الحرب لذوي الوجاهة وهم لا يعلمون منها سوى لفظها ولا يدركون ما يقتضى لها من المهمات والذخائر فامست الحرب على الابواب وعقد العزم على اعلانها على روسيا وكان اذ ذاك محسن زاده محمد باشا صدراً اعظم وكان قبل ذلك في ايام الشبيبة جال في بلاد الروم ايلي واطرافها ووقف على حقيقة احوال عساكر الروسية وانتظامها ورأى عيانا احوال حدود تلك البلاد فمانع في اعلان الحرب وقال ان حدودنا خالية من الذخائر والمهمات والعساكر فاذا اسرع باعلان الحرب يخشى من وقوع العسكر الهمايوني فيما لا خير فيه قبل ان يصل الى الاعداء فالاجدر بنا والحالة هذه ان نصرف مدة من الزمن في بناء الاستحكامات وتحصينها على الحدود واكمال مهمات العسكر ثم نعلن الحرب في السنة الاتية ان شاء الله. فرماه بعض رجال الدولة والاعيان بالجبن والاهمال وكانوا سبباً في عزله ثم شوقوا حضرة السلطان مصطفى خان الثالث الى الحرب توصلا الى منافعهم الذاتية فاعلن الحرب على الروسية وذلك في سنة ١١٨٢

فنالوا بهـا امانيهم ورغائبهم وفتحوا جرحا عظيما في جسم الدولة. ثم ان حضرة السلطان زحف على روسيا بعسكر جرار لكنه غير منتظم فلم يقو على مقابلتها لقوة عسكرهـا وحسن انتظامها وزيادة على ذلك انه انتشر القحط والغلا في الممالك الشاهانية وكان العسكر الهمايونى اذ ذاك في ادرنه وعندما قطعوا نهر الطونه كانت ادارة العسكر اسما بلا جسم وظهرت فيهم آثار الضعف والتلاشى

هذا وان قريمكراي خان شن الغارة على ممالك الروس ونهبها آتياً من ورائها وجاء قسم من عسكر الاسلام من الامام ماراً بنهر الاوزي وضيقوا على الروس وجاء عسكر السردار الى اطراف خوتين وشيد جسراً على نهر طورله فاخذ عسكره في التقدم فنشأ عن هـذه الحوادث هول ودهشة في بطرسبرج وكادت تكون سبباً للاختلال فيهـا غير ان قريمكراي خان توفى وكان خلفه بطىء الحركة فلم يقدر على القيام مكانه وفي تلك السنة هاجت الانهر وفاضت قبل اوانها ففرقت العساكر الاسلامية الى اقسام شتى واتلفت اكثر مهماتها. فكان في ذلك فائدة عظيمة لعساكر الروسية واقتفوا اثار العساكر الاسلامية الى جهة الطونه. قال بعض مؤرخى اوربا ان طغيان نهر اوزي وفيضانه قبل وقته قد انقذ قاترينة من التهلكة كما ان غفلة محمد باشا بالطهجى انقذت الروس من الوقوع في الاضمحلال في وقعة بروث فبموت قريمكراي خان استفاد الروس فائدة عظيمة

وبهذه الاسباب المذكورة اضمحلت العسـاكر الاسلامية، كما قلنا ثم ان المعسكرات التى كانت تترتب بعد ذلك في كل سنة ويحصل لها الظفر فى بعض الاحيان كانت في عاقبة الامر تتوالى عليها الهزيمة وبالجملة فقد تلاشى امرها وذهب جميع ما كان في قبضتها من القلاع والبقاع في الجهة المقابلة للطونه وكان اسطول الروس الذي جاء من بحر بلطق الحق بجزائر البحر الابيض خسائر كلية. وفي سنة ٨٥ خرج القرم بالكلية من يد الدولة العلية

وألفت يومئذ رسالة بعنوان ﴿لا أدري﴾ ذُكر فيها سوء معاملة اركان لدولة واحوال العسكر الهمايوني وحركاته وصاحب هذه الرسالة غير معلوم والذي يظهر من افاداته انه كان من ارباب الوقوف على حقيقة الاحوال فقد

قال في رسالته ان العساكر من ذوي العلوفة واصحاب التيمار والزعامة القائمين بقوة الدولة وعصبيتها في القديم كان اقدامهم على الحرب اما لحماية ذمار ديانتهم واما لتحصيل العواطف الشاهانية المخصوصة بهم او على خوفهم من التأديب فلم يبق الان من الرجال الذين يجاهدون في سبيل حماية الدين الا القليل وذلك لان الزعامة والتيمارات والعلوفة وسائر المرتبات السلطانية انما تنال الان بالدراهم والشفاعة والمحسوبية بلا كلفة فلم يبق لذلك داع الى تشوق الرجال الى الحرب لحماية الدين فدخل الخلل في نظام العسكر. انتهى

وتفصيل احوال هذه الحروب وزلات روسائها مذكورة في هذه الرسالة وفي رسالة رسمى احمد افندي المسماة خلاصة الاعتبار وفي سائر التواريخ ثم اني رايت بعض افادات علاوة على ما ذكروه في بعض الرسائل المتعلقة باحوال قريم فاردت ان اذكرها على وجه التفصيل هنا

وهي ان خانات القريم كانوا يقيمون اكثر الاوقات في قوشان وكانت الدولة العلية غير ملتفتة لمراقبة احوال تلك الجهات كما ينبغي فانتهز جواسيس الروس الفرصة وبثوا الفساد في قلوب امراء القريم وروسائها ووعدوهم بالحرية كما يرغبون فصار التاتار يتمنون ابعاد الجنود الشاهانية من هناك وينظرون الى السلحدار ابراهيم باشا سر عسكر في القريم شذراً حتى ابوا عليه اعطاء العربات التى طلبها منهم لنقل المهمات العسكرية وقالوا لايلزم لنا عساكر عثمانية وكان التاتار عاقدوا الروس على الوفاق خفية عن العثمانيين فصاروا يمتنعون من امداد المعسكر الهمايوني بل كانوا يسعون في انهزامه كيفما كان وكثيراً ما كانوا يتمسكون باهداب السكون ويتركون الجنود الشاهانية تحارب الروس وحدها على قلة عددها وكانت مهمات المعسكر الهمايوني غير كافية للقيام بشؤونه ومع ذلك فقد كان الدفتردار وامناء النزل اي (الارزاق) يبذرون ويسرفون فاضاعوا الاموال في غير طائل. واصبح المعسكر الهمايوني في حال سيئة على حين كان السلحدار ابراهيم باشا لا يفتر قط عما فيه المصلحة حتى انه لما هجم الروس على قلعة اور سنة ٨٤ نقل عسكره اليها وتحمل مشقة عظيمة وظفر بالروس وغلبهم واستمال التاتار الى الدولة العلية ثم انهم مالوا الى الروس مرة ثانية عندما انتشرت الاراجيف

بانهزام العسكر الهمايوني واستيلاء الروس على بندر وسائر القلاع

وقال بعض مؤرخي قريم انه لما جاء خان القريم اليها وهو قبلان كراي خان الثاني استعد فيها للحرب والنزال فتمكن من فصل طائفة قالموق عن روسيا وضمها اليه وقرر انه يسير بها الى جهة قوبان غير انه عزل في شعبان سنة ٨٤ وقد ظهر من تحقيقات امائل الرجال الذين وقفوا على احوال القريم ايام كانوا في المعسكر الهمايوني ان تاتار نوغاي اتبعوا روسيا اولا وذلك عندما انتشرت تلك الاراجيف المذكورة آنفاً ثم جاء خان القريم حاكمها قبلان كراي خان الثاني وقابل السر عسكر باشا ثم سار الى بقجه سراي فجمع اعيان القريم وبين لهم احوال نوغاي ولزوم التجائهم الى روسيا حفظاً لنفوسهم واموالهم وامر بكتابة عرض محضر ختمه هو ورفعه الى اعيانهم فختموه ايضاً وبعد حين من الزمن جاء خبر عزله فجمع الامراء والاعيان وقال لهم قد عزلوني فهل اذهب ام اجاوب فاجابوه باستحسان ذهابه وقالوا ان اكثر اهل القريم يجهلون ما عقد بيننا وبين الروس من الوفاق فاذا جاء الخان الجديد اصبح اهل القريم فريقين فتساعد الجنود العثمانية فريقاً منهم وتنال الغلبة فنبقى نحن حينئذ موضوعا للتهم ولكن اذا هزمت الجنود العثمانية وغلبت بدون مداخلتنا يكون العذر لنا فركب الامير المشار اليه السفينة التى اتى بها المامور بعزله وسافرا معاً وعين عوضه سليمكراي خان الثالث وقد صرف السر عسكر فصل الشتاء في ناحية كفه غير ان المعسكر الهمايوني قد زاد احتياجه يوماً بعد آخر الى المهمات والدراهم وقبل ذهابه الى كفه رهن السر عسكر جميع مجوهراته وما تملكه يده حتى خاتمه لتدارك امر العساكر التى تبقى في قلعة اور لاجل المحافظة عليها وبعد ذلك سار الى كفه وتكبد مشاقاً وصعوبات كثيرة وقد كان طلب مرات من الاستانه الدراهم والذخائر والمهمات الكافية للعسكر في سنة ﴿ ٨٥ ﴾ فتاخر ورود الاسطول الهمايوني الى ان مرت ثلاثة اشهر من فصل الربيع والمهمات والذخائر التى احضرها الاسطول العثماني لم تكن كافية للقيام بما يلزم للجند فكان ذلك باعثاً على ظهور الاختلال وسيء الاحوال يوماً فيوماً

والغريب انه صدر الامر بارسال سفينة من كفه الى قلعة فاش لنقل الشعير والدقيق من القلعة المذكورة الى معسكر القريم وهذا الشعير والدقيق كانا باقيين من مؤونة معسكر اخسخنه لسنتى ٧٨ و٧٩ والحال ان نقلها يستغرق شهرين ومع ذلك فان السر عسكر الذي كان وقتئذ والياً على الاناطولي كان عالماً بانه لا اثر لهذه البقية لان الامر كان صدر باعطائها الى والي جلدر المأمور في ذلك الوقت لمحاربة بلاد الكرج ففتش عليها فلم يجد منها شيئاً وقد ارسل بذلك تحريراً على يد السر عسكر المشار اليه الى الاستانة ومن هنا يعلم ما كان عليه ماموروا الاقلام من التهاون في الامور فانهم حولوا الحبوب التى لا وجود لها الى القريم بعد ان حولوها الى والي جلدر قبل ذلك ولم ير لها اثر فساء ذلك السر عسكر وحدث به بعض خواصه وهو متأثر ممتلىء غيظاً على هذه الاحوال وازداد غيظه مما بلغه من ان محمد باشا ابازه محافظ قلعتى الجديدة وروباتي ووالي كفه طاب ان يكون سر عسكر بدلا منه حسدا له فوقع لذلك التضاغن بينهما فاصدر السر عسكر المشار اليه امرا الى محمد ابازه بالذهاب الى محافظة القلاع المذكورة فلم يقم بايفاء ماموريته وادّعى انه ليس عنده دراهم ولا مهمات

وفي ذلك الوقت حضر كتاب من سليمكراي خان الى السر عسكر المشار اليه يخبره بدخول الروسيين الى قلعة اور ويوعز اليه باقتفاء اثارهم فامتنع العسكر والانكشارية حينئذ من الذهاب وقالوا انه لا يوجد عندنا عربات لنقل المعسكر غير ان السر عسكر لم يعبأ بقولهم بل تقرر لديه ان ياخذ بطانته وقسماً من الجند المسمى سپاه ويقابل بهم الخان المشار اليه وقد كتب له بذلك ثم انه وان يكن خرج من كفه قاصداً قلعة اور فان الامراء خدعوا الخان بقولهم ان الشهرة في الحرب اصبحت منذ سنة او سنتين للعثمانيين فاذا كان الامر كذلك فالاولى بنا ان نذهب وحدنا ونكتسب هذه الشهرة فدخل على الخان الغش والخداع نظراً لغفلته وسذاجته فلم ينتظر قدوم العثمانيين بل اسرع بالذهاب الى قلعة اور على قصد نوال تلك الشهرة فلما وصلها خرج قسم من اهلها لملاقاته والقسم الآخر فتح القلعة للروس وادخلوهم اليها فلما رأى الخان ذلك اركن الى الفرار اما العساكر

الذين كانوا في قلعة اور فقد استشهد اكثرهم واصبحت القلعة في يد الروس وهى بمثابة مفتاح للقريم فتسلطوا على جميع القلاع المجاورة لها فتشتت شمل الاهالي فلم يقو سليمكراي على البقاء في القريم مع هذه الحال فذهب الى دار السعادة راكباً احدى السفن واقام الروس حاكماً في القريم صاحبكراي خان الثاني بانتخاب بعض الاهالي فعين هو اخاه سلطان شاهينكراي في منصب قالغاي

وقد أظهر السرعسكر المشار اليه غيرة وشجاعة وثبت امام الروسيين فجاء شاهينكراي سلطان المومى اليه الذي هو في منصب قالغاي بعدد كثير من جند التاتار واعلن المعاهدة التى عقدت بينهم وبين الروسيين ثم بين للعسكر الهمايونى وجوب رجوعه وانذرهم بالنهب والاستيلاء على مهماتهم اذا لم يرجعوا فركب الجند القوارب علناً واخذوا ينهزمون وفر ايضاً محمد باشا والي كفه عندما ساعدته الريح فلم يبق الا السر عسكر ابرهيم باشا السلحدار مع بطانته فثبت في وجه العدو ثم اسر واخذ الى بطرسبرج

وعقد التاتار مع الروسيين معاهدة على شروط عديدة وذهب شاهينكراي مفوضاً من قبل اخيه الى بطرسبرج يصحبه خمسون او ستون شخصاً من كبراء التاتار لتسوية بعض مواد لم يحصل الاتفاق عليها في القريم . فكتبت الروسية سنداً اشترطوا فيه ان يكون اهالي القريم تابعين لها اذا عقد الصلح بينها وبين الدولة العلية وكلفتهم ختمه فختمه شاهينكراي واما الاعيان فانهم امعنوا النظر فوجدوا عاقبة هذا الامر وخيمة فرفضوا وضع اختامهم فيه خلافاً لما فعل شاهينكراي ثم تركوه في بطرسبرج وجاءوا القريم فبينوا واقعة الحال فتشتت اهالي القريم فرقاً ولحقوا بالجبال واخذوا يجمعون العسكر الا ان الدولة الروسية كانت وقتئذ استولت على جميع الجهات فلم يفوزوا بالمرغوب وبقى الامر على هذه الحال من الاضطراب حتى عقدت معاهدة الصلح وفي خلال ذلك جاء شاهينكراي الى القريم رأساً فلم يدخل اليها لشدة الخوف الذي اعتراه ولا قابل اخاه صاحبكراي ثم اضطر الى الاقامة في قلعة بالطوه فاقام فيها الى ان عقدت معاهدة الصلح المذكورة

وعلى هذا الوجه دخلت القريم في يد الروسيين واستولوا على جميع

جهاتها كما هو مسطور في التواريخ ولما استولت روسيا على الجهة الشرقية من الطونه طلبت الصلح اواخر سنة ٨٦ وذلك في ايام صدارة محسن زاده الثانية فوافق اركان العسكر الهمايوني على ذلك حيث انهم رأوا الصلح ضرورياً فعقد من الطرفين مجلس مفاوضة ومخابرة فى بكرش وكتب المرخص عبد الرزاق باهر افندي عهداً وارسلت صورته الى دار السعادة ومن جملة المواد المذكورة فيه حرية التاتار وبقاء قلعة بكرش ويكى قلعة في يدالروسية وسير سفن تجارها في البحرين الابيض والاسود وحرية تجارتهم فاتخذت الروسية هاته المواد اساساً للصلح ولاسيما حرية التاتار فانها كانت اقصى آمالها ولنيل هذه المقاصد اظهرت التساهل وخيرت الدولة في هدم قلعة قلبرون او ابقائهـا وابقت ضرب السكة والخطبة باسم السلطـان الاعظم في قريم واجازت بناء قلعة في الجزيرة الواقعة بين يكى قلعة وطمان حتى لا تنقطع علائق الدولة العلية من القريم بالكلية وتجاوزت عن الخمسين الف كيس من النقود التى كانت ضربتها على الدولة في مقابلة نفقة الحرب (غرامة حربية) واظهرت التساهل لذلك

ولما كان الاعيان والكبراء في الاستانة وليس لهم علم بحـال العساكر الهمايونية فلم يستحسنوا ما اجراه اركان المعسكر المذكور من قبول هذا الصلح وانكروا قبول حرية القريم وسير السفن فاعادوا الحرب وفي الواقع انه لم يكن للروسية من مقصد في اصرارها على اعطاء الحرية للتاتار الا لالقاء الفتنة والفساد في القريم كما فعلت من قبل في لهستان ولكى يتسنى لها ان تستولي في المستقبل على ديار القريم مثل مـا استولت على ايالتى قزان وازدرهان . ولو اظهر المعسكر الهمايوني شيئاً من الحركة او لو جـال لحفظ وحراسة ضفة الطونه من جهته لامكن وجود الخلاص من تحت ثقل هذه المعاهدة المضرة نظراً لمـا انتشر وقتئذ من الغوائل والقـلاقل في داخلية الروسية

وذلك لان عساكر روسيا وان تقدم لها الفوز والانتصار فى الحروب فان كاترينه لما اخذت تدخل اولاد الاهالي تدريجاً فى السلك العسكري وتبتدع كثيراً من ضروب الظلم والتعدي سداً للخلل المالي الذي حل بها

من توالي الحروب نفرت قلوب الناس منها واشرف اكثر بلادها على الخراب والذي اوجب لها الضرر اكثر هو تزلفها بالمساعدة الكلية لتجار انكلترة بقصد ان تساعدها دولتهم بالمال وزيادة على ذلك فان عساكر التاتار خرجوا عن الطاعة وسعوا فى تخريب تلك الجهات وساقوا العساكر الكثيرة عليها ففى المقابلة ابتدرت الروسية للمحاربة

وبناء على ذلك اضطرت كاترينه الى الاستعجال بمصالحة الدولة العلية كما ان المأمورين العثمانيين لما رأوا ان عساكر الروسية عبرت نهر الطونه سنة ٨٨ وحاصرت العساكر العثمانية فى شمنه مع سريان الشقاق والنفاق وتفرق كلمة المعسكر الهمايوني استعجلوا في الامر واتفقت كلمتهم على عقد الصلح باي وجه كان فقبلوا الشروط التى تقررت في بكرش بل زادوا عليها . هذا بعد ان اتلف من العساكر والمهمات كثير انجبروا على عقد مصالحة معاهدة قينارجه المضرة

وفي سنة ٨٧ عين دولتكراي خان الرابع حاكم القريم الاسبق وحاجى علي باشا جانيكلي مأمورين لاستخلاص القريم فتوجها الى جانب طمان واستجلبا اليهما قبائل نوغاي وقبائل الجركس ودخلا الى القريم سنة ٨٨ وباشرا الحرب والصدام فاتحد معهما اهالي القريم بالاتفاق ونشطوا للانتقام من الاعداء وظهرت آثار النصر لجانب الاسلام وحيث كان من جملة شروط مصالحة قينارجه بقاء الحرية للقريم اضطر المشار اليهما الى ان يعودا الى قلعة كفه لصرف فصل الشتاء فيها

اما ما وقع للدولة العلية في هذه الحروب من الخسائر فمما لا يدخل تحت حساب حتى انه روى بعد ذلك ان الخيل انقرضت في الممالك العثمانية

فذلكة

ان الدولة العلية شجرة غرسها في الابتداء حضرة الشاه عثمان الغازي فسقتها مياه همم خلفائه فنمت واورقت اغصانها وبلغت في زمن حضرة

السلطان سليمان خان درجة الكمال ثم صارت تتقلب عليها الاحوال تارة يداهمها خريف الاختلال والانكسار وطوراً يأتيها ربيع الانتظام والاقتدار حتى توالت عليها الطوارىء والغوائل وبقيت كذلك الى ان اتيح لها ظهور حضرة السلطان محمود خان الثاني فازال بيد سطوته الخاقانية ما كان متسلطاً عليها من العوارض المكدرة والحشرات المضرة وقطع منها فروعاً يابسة وفروعاً رديئة وبعد ان طهرها من تلك الادران المضرة وجعلها بريئة من العيوب تجلى على طورها خير خلف له وهو حضرة السلطان عبدالمجيد خان الذي نرتع الان بسطوة عدالته في بحبوحة الامن وسعة الراحة والذي يعتبر دور خلافته فصل ربيع لذلك العصر فسقى بماء تدابيره الحكمية شجرة الدولة واحياها حياة جديدة وزادها رونقاً وبهاء

الفصل الخامس

في ذكر الخلل الذي طرأ على قوانين الدولة العلية

يعلم من دقق النظر في اخبار السلف ان الدولة العلية كانت الى زمن سلطنة حضرة السلطان سليمان خان ساذجة تغلب عليها احوال البداوة وبناء عليه فلم يكن للدولة ولا للرعية شيء من الرغبة والميل الى الشهوات والفساد والزينة وما شاكل ذلك من نتايج الترف فلا شغل للناس وقتئذ الا في الانتظام في سلك الجندية والسعى في توسيع الممالك وتأسيس الاصول والقواعد فكثرت الفتوحات وضم كثير من الممالك الى المملكة العثمانية في زمن سلطنة السلطان سليمان ففى مدة وجيزة بلغت الدولة الى منتهى درجات الكمال وحصلت على ثروة وانتظام خارق للعادة فقضى عليها ذلك بتغيير حالتها البدوية فالاعتراض على هذا والزعم بافضلية البقاء على حالة البداوة لا يقول به الا من انكر تصرفات الدهر الطبيعية وتعاورها على الخلق من غير اختيار منهم فقد مر عموم البشر على هذا الجسر وانتقلوا من طور الى طور آخر واما الذين لم يقدروا تصرف الزمان حق قدره وقاوموا الاحوال الطبيعية وثابروا على اطوارهم القديمة فقد وقعوا في بحار الجهل

وصاروا في حكم العدم ثم ان الخوف على الدولة والامة من الوقوع في الخطر والتهلكة انما يكون في زمن انتقالها من طور الى آخر وهذا من الامور المجربة فاذا لم يحصل الاهتمام الكامل والاعتناء التام بامر المريض اثناء تقدمه الى الصحة تنتكس علته لغلبة الضعف عليه ويصير الى حالة التلف وهكذا الحال في الدول فان احداها اذا لم تنتقل بالحكمة والتأني من حالها السابق الى حالها الذي اجبرت على الدخول فيه وانتقلت دفعة واحدة من الطور الاول الى الطور الثاني فلا بد ان يتزلزل جسمها ويعضل داؤها وبناء عليه فلا سلامة لها وذلك مثل السيل السريع الجريان فانه اذا انحدر متدفقاً ولم يكن له من الحواجز ما يجعل سيره متدرجاً خرب ودمر الاماكن التي ينصب عليها . فمن وقف في وجه تصاريف الدهر وحاول ردها كارباب الحكومة الذين يتصورون هذه التصورات كان بمنزلة ذلك السيل المنحدر فيخرب رياض الدولة . والحاصل ان النواميس الالهية مصونة عن التغير بخلاف القوانين البشرية التي تتغير تبعاً لاحكام الزمان فالقوانين والاصول التي كانت تحسب بالغة حد الكمال والانتظام في القرنين الماضيين امست الان بسبب التغير الذي طرأ على امزجة القوم واحوال العالم لا تنفع شيئاً فكان من الواجب على وكلاء الدولة ان يوجهوا الفكرة الى التقلبات الواقعة ويدققوا النظر في احكام الدهر وفي احتياجات الدولة الحاضرة غاية التدقيق ويطبقوا الادارة والنظامات الموجودة على الاحوال الحاضرة بمنتهى الحكمة والانتباه والطريق الموصل الى هذا المطلوب بل الطريق الاقل تعباً للوصول اليه هو انه يجب على جميع الرعايا ان يعرفوا قوانين دولتهم القديمة واحوالها السابقة وتقلباتها العارضة وهي اي قوانين السلطنة السنية القديمة واطوارها السابقة وان كانت مسطرة في كتب التاريخ وكان ذكرها في تاريخنا هذا خارجا عما نحن بصدده نوعا ما فان ذكر خلاصتها على الوجه الاتي وبيان ما طرأ عليها زمانا بعد زمان من اسباب الفساد يعد خدمة حقيرة لمن يأتي بعدنا ويريد الوقوف على حقائق الامور ويكون ايضاً وسيلة لفهم النظامات الجديدة التي ستصير من موضوع بحثنا في هذا التاريخ

ان الاحكام الاساسية لكل دولة تنقسم الى فريضتين فالفريضة الاولى

احقاق الحق للعباد باجراء العدل في داخل البلاد . والفريضة الثانية حماية الحدود من تعرض الاجانب فان رفعة شان كل دولة وبلوغها الى اقصى درجات المنعة والعظمة وحصولها على ارفع مراتب القوة والاجلال انما يكون على قدر سعيها واقدامها في هاتين الفريضتين . وقد كانت الدولة العلية في الاصل مهتمة غاية الاهتمام بايفاء حقوق الفريضتين المذكورتين . فطريقة العلماء المامورين وهى الحكم بالعدل بين الناس كانت على غاية الضبط والانتظام وكان حضرات الاسلاف من سلاطين آل عثمان خلد الله خلافتهم الى آخر الزمان يعتنون بذلك كل الاعتناء ويهتمون بمصالح المملكة وامور الدين والدولة ويحضرون بانفسهم في الديوان . وذكر في صحف التواريخ ان حضرة ياوز سلطان سليم خان كان يحضر بنفسه في ديوانه القديم

وكان امراء الامراء اي (ولاة الولايات) لا يكون احدهم الا ممن استعمل زمانا طويلا في امارة السناجق عارفا مدربا قد اختبر الدهر وله مزايا كثيرة وكذلك امراء السناجق ايضاً لا يكونون الا من محبي الدولة والملة الساعين في خيرهما المجربين في الاحوال وكانوا لا يعزلون بغير ذنب بل يستمرون في مناصبهم مدة مديدة فتكون قوتهم في منتهى كمالها وتحصر انظارهم فيما فيه عمران البلاد ورفاهية العباد وذلك ايام السلم فاذا وقعت حرب ساروا اليها بجنود منظمة واسلحة تامة

ولم يكن لدول اروبا في تلك الاوقات عساكر موظفة متهيئة دائماً للحرب وانما كانوا يجمعون العسكر ويجلبونه من الاطراف عند الاقتضاء واما الدولة العلية فقد كان عندها وجاقات من العساكر المرتبة مخصوصة بالموكب الهمايوني وتدعى قبوقولي فهذه كانت من اصحاب العلوفة متهيئة على قدم المسير تنتظر الاوامر والفرمانات وكان فرسانهم من اواسط الانكشارية وهم عبارة عن ستة بلوكات مؤلفة من ابناء السپاهين والسلحداريين وغرباي اليمين وغرباي اليسار واصحاب علوفة اليمين واصحاب علوفة اليسار

فالانكشاريون كانوا يقيمون دائماً في الثكنات ويواظبون على تعلم الفنون الحربية ومتى سار حضرة السلطان للحرب ساروا في خدمة ركابه فتسير كل فرقة بلوازمها بمزيد الرغبة وكان انقيادهم وطاعتهم لضباطهم على ما ينبغي

وكانوا يتحاشون اثناء مسيرهم في الطرق اقل تعدي على الرعية وكانوا في مدة اقامتهم فى الثكن لا تجول افكارهم الا في كيفية الهجوم وانتظاره فاما ان يقتلوا او يقتلوا وذلك لانهم تربوا منذ الصغر على بذل النفوس متعطشين الى الحرب غير مبالين بالوقوع في المهالك والمخاطر بل يتلقون العدو بصدورهم وقوة ثباتهم فكان الظفر والغلبة ملازمين لهم. وهولاء العساكر كانوا لا يتاهلون ما داموا قادرين على القتال فاذا عجزوا عنه تعطفت عليهم الدولة بمعاش المتقاعدين وحينئذ يتزوجون وكان للدولة ثكن مخصوصة لاقامة الشبان العجم وهم الذين يُراد انتظامهم في سلك الانكشارية وفي كل سبع سنين ينظر في فرق اوجاقات الانكشارية والنقص الذي يوجد في عددهم يتم من هولاء الشبان وكان نظام اوجاقات الطوبجية وحملة البنادق جارياً على هذا المنوال والمراد بالاولاد العجم المنتخبون الذين ينتقون صغاراً فيعلمون اللغة التركية ويتربون على السنن الاسلامى ويقيمون مدة في الثكن ومتى بلغوا الدرجة المطلوبة الحق منهم من كان فيه اهلية بالاندرون الهمايوني ﴿ وهو محل التمرين للخدمة السلطانية ﴾ والباقون تقيد اسماؤهم في الوجاقات وعلى هذا الاسلوب كانوا يتهذبون جميعاً. وهولاء المنتخبون لا بد ان يكونوا من اولاد الارناووط والبشناق والبلغار والارمن فلا يؤخذون من غير الطوائف المذكورة ولا من ابناء البلدة واما اولاد الانكشارية فانه يجوز اخذهم الى ثكن الشبان العجم فيتربون مع المنتخبين المومى اليهم ثم يتعينون فى الوجاقات بموجب النظام . وهكذا كان نظام وجاقات الخيالة الذين اتينا على ذكره اعلاه ففى كل سبع سنوات ينظر فى عددهم والنقص الذى يطرأ عليهم يتم من قدماء اغاوات الاندرون الهمايوني ومن اصناف الانكشارية والجبه جيه والطوبجيه ممن ظهرت درايتهم

فبناء على ذلك كان جميع الوجاقات المسماة قبوقولى مجموعة من منتخبى الطوائف المذكورة آنفاً ومن ابناء اهل الوجاقات والحاصل ان اوجاق القبوقولى عسكر خارج عن صنوف الاهالي وكلهم تربوا تربية حسنة منذ الصغر ودخلوا الوجاقات بالطرق القانونية فترقوا بعناية الدولة بهم فكان فداء الدولة بارواحهم طبيعة لهم وكانوا عساكر منتخبة في غاية الضبط لا يمكن لفرد

من غيرهم ان يدخل في سلكهم

والمراد باهل الوجاقات عموم عساكر السلطنة السنية الموظفة ومنهم تكون الاجزاء الاصلية التى ينتظم منها العسكر الخاص الهمايوني واما القوة الجسيمة للدولة فهى مجموع ارباب التيمار والزعامة وعددهم نحو مائتى الف خيال وعند استعدادهم وانتظامهم لا يحتاج الى عسكر الوجاق المعروف بقبوقولي ولصدقهم فى خدمة الدولة كان وجودهم مانعاً لظهور العصاة والبغاة داخل المملكة والمعينون منهم في الروم ايلي كانت فيهم الكفاية لمدافعة اي دولة كانت وقد كان عددهم في ذلك الوقت في الايالة المذكورة اثنى عشر الف سيف ﴿ اي رئيساً ﴾ بموجب القيود وكان من القانون ان كل صاحب سيف يجب عليه ان يتوجه الى الحرب ويصحب معه ﴿ جبه جيه ﴾ يكون عددهم على حسب ما يبلغ تيماره بنسبة كل ثلاثة آلاف اقجاية ﴿ الاقجاية ثلث باره ﴾ جبه جى واحد ﴿ اي عسكري واحد ﴾ فكان على هذا الحساب عدد ارباب التيمار والزعامة مع جبه جيتهم في الروم ايلي مقدار اربعين الفاً ومع ذلك كان بعض ابناء اهل الوجاقات كل واحد منهم يجمع حسبة لله خارجاً من القانون ثلاثين جبه جى الى الخمسين ويذهبون بهم الى الحرب وبذلك كان يبلغ عدد عسكر الروم ايلي نحو سبعين او ثمانين الفاً . واما في الاناطولي فكان عدد السيوف سبعة آلاف بموجب القيود ايضاً وجبه جيتهم بمقتضى القانون يبلغ عددهم سبعة عشر الفاً والذي فضل عن القانون يبلغ عددهم مع جبه جيتهم اكثر من ثلاثين الفاً وعساكر ديار بكروكردستان وسائر الايالات كان على هذا القياس . ومن كان مرتبه ثلاثة آلاف درهم الى ٢٠ الف درهم يسمى صاحب تيمار والذي يكون مرتبه ما فوق ذلك فهو صاحب زعامة . وكان ترقيهم موقوفاً على اثبات مهارتهم وشجاعتهم في ميدان الحرب وصاحب التيمار الذي يظهر كمال شجاعته يضاف له على كل عشر دراهم من مرتبه درهم واحد ترقياً وانعاماً عليهم . ومن فاق اقرانه منهم في الشجاعة والفروسية في ميدان القتال فانه يستوجب الترقى الى الزعامة وامراء السناجق ايام الحرب بمنزلة الضباط الآمرين وامراء الامراء بمنزلة رؤساء الفرق وامراء الايالات يكلفون بتنظيم امور العساكر . وجميع التوجيهات

كانت تعطى على مقتضى عرضهم فكان امراء الامراء يوجهون المرتبات المحلولة الى مستحقيها فترفع توقيعاتهم الى دار السعادة وبموجبها تصدر الارادة وبناء عليه فلا يوجه التيمار او الزيادة فيه من دار السعادة راساً كما ان التيمار او الزعامة لا تعطى لاحد بصفة ﴿ اربه لق ﴾ او ﴿ باشمقلق ﴾ وهما اسماء مرتبات كانت تنعم بها الدولة قديماً الى ما سوى المعسكر فالباشمقلق الغي وبقي الاربه‌لق مختصاً باهل سلك العلمية وكان الزعماء كبراء اصحاب التيمار ومن هذا يعلم قدر الزعامة ودرجة اعتبارها فان اصحاب رتبة ﴿ قبوجي باشى لدركاه عالى ﴾ الذين يترشحون لامارة السناجق وامارة الامراء مع كونهم من اهل الخبرة بالامور صادقين في الخدمة ويحبون الخير فقد كانت مرتباتهم باسم اربه‌لق لا تزيد على تسعة عشر الفاً وتسعة وتسعين درهماً فلا يبلغ مرتبهم الى درجة مرتب الزعامة وكذلك عندما تقتضى الحال تخصيص معاش باسم باشمقلق للحريم اللواتي يعبر عنهن ﴿ خاصكى ﴾ من ريع القرى السلطانية المسماة خواص همايون فمع قربهم كان مقداره لا يتجاوز ما ذكرناه يعنى انه لا يبلغ عشرين الفاً وكان اصحاب التيمار والزعامات يعيشون خلفاً عن سلف بالمرتبات السلطانية وهم من اماثل الناس ممتازون مجربو الاطوار لا توجه رتبة الزعامة ولا رتبة التيمار الى سواهم ولا يجوز دخول من هو دونهم في سلكهم وكانوا كثيري العدد مدربين عارفين باحوال الامة والدولة يقيمون في الويتهم وعند الاقتضاء فى ايام قليلة يكونون حاضرين ومتهيئين للحرب

وكان يوجد في الروم ايلي مقدار ٤٠ الفاً يطلق عليهم ﴿ يوركان ومسلمان ﴾ وفي الاناطولي ٣٠ الفاً يقال لهم ﴿ يايا ﴾ فاذا وقعت حرب في الروم ايلي يرسل منهم اليها خمسة او ستة آلاف نفس من ﴿ يوركان ومسلمان ﴾ واذا ثارت في الاناطولي يرسل اليها ثلاثة او اربعة آلاف من ﴿ يايا ﴾ وكل من الفريقين يستخدم في اقامة المتاريس وقطع الاحراش وفتح الطرق واما ارباب التيمار والزعامة فان مساعيهم محصورة في امر الحرب لا يتعاطون الاشغال المذكورة

وفضلا عن ذلك يوجد ايضاً في جهة الروم ايلي ٢٠ الفاً اصحاب قيود

يعبر عنهم (اقنجى) وعندما تقع الحرب يجمع أمراؤهم نحواً من اربعين او خمسين الفاً من الفرسان المتطوعة الخفيفة المؤنة ثم يزحفون بالجميع الى بلاد الاعداء وتقوم سوق الحرب فيها فتسلم بذلك التخوم الاسلامية وفي اثناء اشتغال الاعداء بالمدافعة كانت العساكر الهمايونية تصل اليهم وتنال الظفر فلا يحتاج وقتئذ الى طائفة التاتار اصلاً

وصنوف هذه العساكر المذكورة كانت قوة الدولة السيارة وتوجد عساكر اخرى يعرفون بالمستحفظ شأنهم محافظة القلاع السلطانية فكان منهم من يقيم في اهله الى حين الاقتضاء ومنهم من يقيم في القلاع وكانوا اهل شجاعة واقدام يبذلون ارواحهم في سبيل هذه المحافظه (وبهذا الترتيب) كانت الحدود والثغور في غاية الامن وكانت القوة الحربية حينئذ في انتظام تام

وكان للدولة صنف آخر من العساكر يسمى (بشلو) يقيمون فى مواقع مخصوصة وعند الاقتضاء تجمع الدولة عساكر اخرى باجرة يومية

يقول مونتو قوقولي في كتابه المتعلق بفن الحرب ان العساكر العثمانية تنتظم من ذوي العلوفة او المتصرفين بالتيمار والزعامة . وعند الاقتضاء تجمع جيوشاً اخرى من مشاة وخيالة باسم لوند وصاريجه وسكبان وهولاء ليس لهم رواتب قانونية بل تعين لهم اجور يومية مدة وجودهم في الحرب وذلك على نسق عساكرنا . والباشلويان من السواري العثمانية هم صنف من العساكر الخيالة شأنهم المحافظة وهم مثل عساكرنا الفرسان في ديار الانكروس واسمهم هوساري . ثم قال وما دمنا نخاف من العثمانيين يتعين علينا ان يكون لنا عسكر متهيء للحرب . وقال ايضاً في كتابه المذكور في وصف قوة واقتدار الدولة العلية ان الدولة العلية كانت لها سلطة قاهرة ذات بأس وقدرة وكان عندها عساكر لا تعد وكلها في غاية الشجاعة والاقدام الفوا الحروب والغارات وكانوا متهيئين لها دائماً يدخلون ساحات القتال قبل اعلان الحرب وكانوا كثيري العدد لا يحصون كالنجوم وكانت العربات التى تجرها الجواميس والابقار في سنة ١٦٦٠ ميلادية الى الطونه وبلغراد واوسكه وبور تحمل ذخائر ومهمات لا تعد ولا تحصى ومن دأب العثمانيين في الحرب انهم يتظاهرون بشيء ويفعلون سواه ويأتون بصور وحركات عديدة ستراً لمقاصدهم

ونواياهم فنى سنين عديدة اظهروا السفر الى قتال البندقيين فاذا بهم فاجأوا على حين بغتة راقوجى ملك اردل واعلنوا بمحاربة بلطه ولكنهم هجموا على اكريت بغتة وهذا التهيء قبل وقوع الامر كان من دأب الرومانيين القدماء فاقتفت الدولة العلية آثارهم فيه منذ ظهورها وكان وجود النجارين والبنائين واصناف العملة في المعسكرات الهمايونية في درجة عجيبة وكان ادلاء هولاء العساكر وجواسيسهم كثيرين. وكانت مهماتهم ومدافعهم كثيرة جداً فكانوا يجمعون العملة والمعاونين لهم من سائر الجهات اثناء الحرب وكان اكثر اساتذتهم ولاسيما المدفعيين منهم ممن فروا من اوربا واسلموا فالاشغال التى كانت تصعب على سائر الملل كانت سهلة لديهم وكانت متاريسهم على غاية المتانة والاحكام وكانت سرعتهم في انشاء المتاريس غريبة حتى ضرب بهم المثل فيقال ان من اراد مقابلة العثمانيين يجب ان تكون رجلاه من رصاص ويداه من حديد . انتهى

فكانت الممالك المحروسة وقتئذ محفوظة من الظلم والاعتداء والثغور الاسلامية وحدودها منيعة لا تجاوزها الاعداء فكان الناس اذ ذاك راتعين في بحبوحة الراحة والامن في الحرب والسلم واخذت الممالك في العمران يوماً فيوماً والدولة العلية اتسع نطاقها وزادت قواها ولاسيما في عصر حضرة السلطان سليمان القانوني فان قواها البحرية والبرية قد بلغت كمال امرها فزلزلت سطوتها وسلطتها اركان العالم وكما اخذ الكمال يتدرج في ايام حضرة السلطان المشار اليه كذلك اخذ الانحطاط يتكون من ذلك الوقت ايضاً غير انه لم يُشعر به لان قوة الدولة كانت حينئذ في درجة الكمال واخذوا في تطبيق القوانين وترتيبها على ما استحسنته عقولهم وبهذه الاسباب ظهر الاختلال في نظام القوانين شيئاً فشيئاً وبعد برهة وجيزة ظهرت آثاره الرديئة

وذلك ان قوة الدولة وشوكتها لما بلغت درجة الكمال في عصر السلطان سليمان احتجب السلطان عن الناس وترك الحضور الى الديوان مع انه كان قبل ذلك يحضره ويلقى السمع الى الامور من وراء الحجاب وكان يسافر مع العساكر الى الحرب وتارة يتوجه الى ادرنه ويانبولي لاجل الصيد وكان

المظلوم يرفع له عرض حاله بلا واسطة فكان يطلع على اكثر الاحوال وكان يهتم بالامور كما يجب وبهذا تهيأ للاهالي ان يتمتعوا بالراحة والامن والامـان

وكان منصب الصدارة لا يتوجه الا على من ثبتت لياقته واهليتـه بين الوزراء وكان ذا مزايا حسنة في ذاته وصفاته واستعمل في امارة السنجق ثم امارة الامراء ثم امارة امراء الاناطولي ثم امـارة امراء الروم ايلي وجرب احوال العالم ووقف على الغث والسمين من الامور لا يأخذ هدية ولا رشوة على توجيه المناصب بل كان الاستحقاق سائداً والاهلية معولاً عليها ثم ان حضرة السلطان سليمان خان خالف القاعدة القديمة فوجه مقام الصدارة رأساً الى ابرهيم اغا خاص اوطه باشى

ولما كان السلطان المشار اليه يدبر الامور بيد اقتداره وكانت الوكلاء بمنزلة آلات في يده فلم يكن نصب ابرهيم اغا الذى تربي تحت انظاره مضراً بالمملكة في زمانه الا انه كان مثالاً سيئاً من بعده فاخذ خلفاؤه في تعيين من يحبونه فى مناصب الوزراء وهم شبان غير مجربين للامور ولا واقفين على الاصول ولاغترارهم باقبال الحضرة الشاهانية عليهم كانوا يجرون الاحكام بما يرونه من غير ان يتنازلوا الى استفادة المسائل من ارباب الوقوف عليها غير مراعين لاحكام القانون ولا يخفى ان اسناد الامور لمثل هولاء مخالف للقاعدة الكلية المبنية على منطوق آية (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها) وبناء على ذلك صارت الاجراءات على ما تقتضيه الرغائب الشخصية بدون ان يتأمل احد منهم في غاياتها وحقائقها فاختل بذلك نظـام الدولة وتبدلت قوتها ضعفاً ومن جملة ما اشرنا اليه ان السلطان سليم الثاني لاول جلوسه ولى احد اغوات الانكشارية قائداً للبحر وحيث ان هذا الرجل يجهل امر البحر كان سبباً فى حرق الاسطول الهمايوني في مرسى (اينا بختى) كما سيأتي ومن ذلك الوقت اخذت قوة الدولة العلية البحرية تضعف وتنحط شيئاً فشيئاً

وكانت التيمارات تعطى لذوي الوجاهة وللمستحقين لها من الملازمين ثم لما تولى خسرو باشا في زمن السلطان سليمان القانوني منصب امارة الامراء

ولم يكن من اهله بل كانت وظيفته قبل ذلك انه يذوق طعام الحضرة السلطانية قبل احضاره اليها ابتدع بدعة سيئة وهي توجيه رتب التيمارات بالرشوة فظهرت لذلك اضرار عديدة

ذكر مونته قوقولي في كتابه السالف ذكره بعد ان مدح السردارية الاكرمين بالمهارة في فنون الحرب ورغبتهم في تنفيذ الاحكام وحسن تصرفهم وذكر استحقاقهم للشكر . اخذ يوضح الاسباب فقال قد كان وزراء الدولة العثمانية يستعملون في الوظائف الحربية ايام شبابهم ليكتسبوا الاستعداد واللياقة للقيام بالامور المهمة فكانوا لذلك يألفون النهوض باثقالها حتى صار ذلك ملكة لهم يتقلبون معها في الوظائف تدريجاً وينتقلون من مملكة الى مملكة ومن حرب الى حرب ويتفننون في استعمال الآلات والاسلحة وتنفيذ الاحكام يستمرون على ذلك منذ شبابهم الى شيخوختهم وبذلك وصلوا الى الغاية المطلوبة من الكمال ولكن لا يخفى انه قد ظهرت بدع عديدة يومئذ بين العثمانيين واختل نظام التمرين الحربي وكسد سوق الفنون والمعارف فانحطت شهرة السرداريين والسرعسكريين وذلك لان السلطان ولى في هذه المناصب رجالا كثيرين من حاشيته مع انهم كانوا جاهلين بامور الحرب الخطيرة المهمة

وكان في ابتداء الامر لا يتداخل احد بين السلطان ووزرائه العظام . ثم في زمان السلطان مراد الثالث صار ندماؤه والمقربون اليه يتداخلون في مصالح الدولة ويكلفون الصدر الاعظم بامور غير معقولة فاذا لم يجب طلبهم يفترون عليه الكذب فكانوا بذلك يتوصلون الى قتل بعض الصدور ونفي آخرين واصبح الصدور العظام لذلك مكرهين على اتباعهم وموافقتهم وبالجملة فقد كان هولاء المقربون لا يبالون بشيء بل كانوا يفعلون ما يشاءون

وفي سنة ٩٠٠ جرى الاحتفال بختان نجل السلطان محمد واتصل القيام بالفرح نحو شهرين وجاء الناس ارسالا من اطراف البلاد لحضوره وفي ختام الحفلة توجهت الافكار الى ما فيه زيادة فرح فهيئوا عدداً من الاجلاف الذين طلبوا الانخراط في سلك الانكشارية فصدرت الارادة باجابة سؤلهم وعين فرهاد اغا رئيس الانكشارية ماموراً باجراء مرغوبهم ومع انه كان

من مقتضى قانون الانكشارية ان جنودهم لاتنتظم الا من الاولاد العجم المقيمين في الثكنة المخصوصة بهم فاستشار فرهاد اغا رؤساءهم فقالوا ان دخول هولاء الاشخاص الخارجين عن طائفتنا في سلكنا يخل بالقاعدة والقانون ويحصل عنه ضرر عظيم للدولة العلية. وقرروا عدم قبولهم ثم ان بعض الندماء والمقربين الذين لم يتاملوا في عواقب الامور الحوا واصروا على هذا الامر فصدرت الارادة السنية مرة ثانية ففضل فرهاد اغا استقالته على هذه الرئاسة وتولى مكانه يوسف اغا فادخل الطوائف المرقومة في جند الانكشارية باسم (اغا چراغى) وهكذا بذرت بذور الفساد ثم ان خلفاء يوسف اغا الذين جاءوا من بعده احدثوا بدعا جديدة في الاسماء والالقاب وادخلوا اشخاصاً لا يعرف اصلهم ولا منشؤهم في سلك الانكشاريين الذين تربوا في الثكنات منذ الصغر فكانوا بذلك علة خراب هذا الوجاق. وبينما كان استخدام اصحاب العلوفة في دوائر الوكلاء والوزراء وسائر المامورين مستحيلا وكانت اقامة عموم الانكشارية في الثكنات مشروطة شرطاً لا ينفك وادخال الغرباء في سلكهم ممنوعا واجراء تقاعدهم قبل بلوغ الشيخوخة محظوراً اخذت الحال في التحول فصارت علوفات الانكشارية تعطى للخدم وتجري ارزاق التقاعد على الشبان والاقوياء فازدادت المفاسد بذلك واخذ اغوات الانكشارية وروساء الوجاق وكتبة الاقلام يبيعون ويهبون اسماء (اي مرتبات) الانفار وزيادتها الى من يريدون والاسماء المذكورة هى (چراغيه) (وايراد). ثم بعد ذلك سرى هذا الامر واشتهر وصارت الاسماء (اي المرتبات) كالاسهام والاقطاعات فانتقل اكثرها الى العامة والخاصة كخدمة (اندرون) و (بيرون) ودوائر العلماء وطوائف الخدم والاتباع. وسمى هولاء الذين يشترون تلك الاسماء (قبولى اسامى) واخذ روساء الثكن يدفعون مرتبات الجند ناقصة واعتادوا على ذلك وتزايدت اسماء الانكشاريين يوماً فيوماً ولكن الاشخاص الذين يعول عليهم في الحرب تناقصوا فلم يبق في ثكن الانكشارية الا الصعاليك الذين يسمونهم (باش اسكى) و (بيرقدار) و (قره قوللقجى) و (اشجى) وبالجملة فاسماء الانكشارية تضاعفت اضعافاً كثيرة على ما كانت عليه من قبل. وبينما كانت خزينة الدولة العلية عاجزة

عن صرف مرتباتهم كانت المبالغ التى تجمعها الدولة العلية بشق الانفس تعطى
الى المتقاعدين وهم الاتباع والخدم وغيرهم ممن لايذهبون الى الحرب ولا
يقومون بواجبات الخفارة ولا يصلحون لشيء ما فكانت الدولة تستاجر
رجالاً للخفارة واما رجال الحرب فلا وجود لهم . وكما كان في الاستانة
كثيرون من الاسافل والاجلاف يدعون بكونهم من الانكشارية كذلك كان
منهم في الخارج مئات الوف يدعون ما ادعوه ولذلك كان الذين يأخذون
المرتبات العسكرية من المنتمين الى الوجاقات اذا ارادوا فتنة اثاروها وحضوا
الاسافل على تجسيمها فيجمعونهم باسم الانكشارية في مركزهم ويظهرون
فيها عصيانهم مع ان الانكشارية كانوا بداءة بدء على غاية الطاعة والانقياد
حتى قيل فيهم اربعون منهم يقادون بشعره واذا كان احدهم يخالف قانون
الوجاق واركانه فاهل الوجاق لا يحمونه بل يوجهون الدعوى عليه ويسرعون
في تأديبه ولكن بعد ما اختل نظامهم وقانونهم اصبحوا لاينقادون والتحقوا
بزمرة الاشقياء وصارت فرقهم ملجا المتهمين ومأوى الجانين وبذلك كانوا
علة لكثير من الفظائع كالخروج عن طاعة السلطان مثلا وعدم النظر في
الاعمال النافعة للدين وللدولة وكانوا يرفضون المصالح الملكية مع انهم لايفرقون
بين النافع منها والضار فزاد فيهم الاختلال والغش حيناً بعد حين حتى بلغت
مساويهم واضرارهم للدولة العلية الى درجة لا يستطيع اللسان ان يصفها .
والحاصل انك عندما كنت تقول يا هل ترى يوجد للشقاء والعصيان من يرتكبهما
كنت ترى الوفاً مؤلفة منهم في الزوايا والاسواق وكلهم يدعون باسم الانكشارية
وما قصدوا بنسبتهم الى الانكشارية الا التنصل من ربقة التاديب والتكليف وماتقضى
به السياسة والتوصل الى الحرية المطلقة في اعمالهم ولم يعلموا ان الانكشارية وظيفتهم
الحرب عند الاقتضاء لا غير ولما وقعت الحرب ونودي عليهم اليها فلم يخرج
منهم من الاستانة الا فرق ﴿ قزغان ﴾ و ﴿ جوباجى ﴾ و ﴿ اوطه باشى ﴾
و ﴿ اشجى ﴾ وعدة اشخاص من ﴿ قره قوللقجى ﴾ وعشرون او ثلاثون نفساً
من المنتخبين ولما قيل لهم في ذلك قالوا ان رجالنا سيحضرون من الروم
ايلي والاناطولي وكان من الواجب على هولاء ان يحضروا بمعية سردار كل
قضاء ومع ذلك فانه لا يخرج معه الا خمسة او عشرة اشخاص واذا جاء

بعضهم من الخارج فانهم يأتون مع لواء المتطوعة وعددهم لا يتجاوز الثلاثين وان تجاوز فغايته الى الستين مع ان القانون يوجب عليهم ان يكونوا ١٢٠ تحت كل لواء ولكونهم من الفلاحين الجاهلين بامر الانتظام كانوا في حال سفرهم الى دار الحرب يعيثون ويهتكون الاعراض في كل مكان مروا فيه وعند وصولهم الى المعسكر لا يثبتون بل يهرب اكثرهم والبقية منهم عند ما يسمعون اطلاق مدفع واحد ينهبون موجودات المعسكر ويفرون بها فلا يبقى مع الضباط الا عدة اشخاص من فرق (الچوربچيه) . وكانت مرتبات الوجاقات التى تصرف من الخزينة وهى تبلغ الوفاً من الاكياس مأكلا لهذا وذاك فما كان يصل منها الى ايدي الجند الا شيء يسير واذا طلبوا مرتباتهم من ضباطهم قالوا حتى نصحح القيود او نفتح اكتتابات جديدة فوق العادة وما كانوا يكتبونه من العسكر يكون من اخلاط الناس ورعاعهم فلا يفيدون شيئاً بل يكونون سبباً لضيق الخزينة وزيادة عدد مرتبات العسكرية ولئن كان في الامكان تسديد المرتبات للمكتتبين الحديثين من محلولات الوظائف فان تلك المحلولات كانت بايدي اهل الوجاقات يظهرون منها ما يريدون ويخفون الباقى ومع ذلك فانهم كانوا يرون انفسهم معذورين ومجبورين على كتمان امرها وذلك لان اغاوات الانكشارية كان يؤخذ منهم مبالغ كلية سراً وجهراً باسم الجوائز والعبودية وهو من قبيل الرشوة المحضة فهم كانوا يغرمون كتخدا القول ورؤساء صامصونجي وزعرجي وطورنجى والچور بچيين الوسط وضباط الانكشارية الموجودين في الثغور بالرشوة حين توليتهم وهولاء ايضاً كانوا يغرمون من دونهم فكان لذلك المتولون على التكن والشيوخ مجبورين على كتمان المحلولات تحصيلا لما يدفعونه

وتلاشى عسكر الدولة المستحفظ المسمى يرلوقولى (اي الموجود في الثغور) بسبب انعدام مرتباتهم وذلك ان قسما منها اغتصب في الاستانة والقسم الآخر اغتصبه روساؤهم . ونظام المستخدمين في الثغور وان كان محفوظاً الا ان الفساد الذي وقع في سائر البقاع والقلاع سرى اليه بعد مدة وجيزة

والحاصل ان الدولة العلية وان كانت عينت مرتبات كافية لمحافظى

واراق الذي توفي من الضباط على هذا المنوال اي بضم اربع اقچايات واغلب الذين اشتروا هذه الاوراق (اي من الضباط) توفوا قبل ان يستوفوا ما كانوا دفعوه فطرأ الضعف والوهن على الوجاقات فلذلك كان كل من في يده من تلك الاكياس شي يستوفي ما دفعه من اصل المرتب عند صرفه من الخزينة وبناء على ذلك صار الانفار المحررة اسماؤهم في الاكياس المذكورة لا يدخل في ايديهم شيء فامتنعوا من الحضور الى الحرب

وعندما كانت العساكر الخيالة تأخذ رواتبها من الخزينة لم يكن موجود في المعسكر الهمايوني سوى الف او الفين وهولاء ايضاً ما كانوا من اهالي الاستانة بل من سيواس وتوقات وسائر الجهات

وكما كان يزداد اكتتاب اليكچري (الانكشارية) على ما بيناه من قبل كذلك كان يتزايد ايضاً عدد هولاء الجند والخيالة المعروف (بخلق البلوك) ففي عصر حضرة السلطان سليمان القانوني كان عدد الانكشارية نحو اثني عشر الفاً وكان عدد خلق البلوك المؤلف من ستة بلوكات نحواً من سبعة آلاف فلما جاء عصر السلطان مراد الثالث بلغ عدد الانكشارية ٢٧ الفاً وعدد خلق البلوك ١٣ الفاً وفي عصر السلطان محمد الثالث في سنة ١٠٠٤ بلغ عدد الانكشارية ٤٥ الفاً وعدد خلق البلوك ٢٠ الفاً وفي عصر السلطان احمد الاول في سنة ١٠١٨ صار مقدار الانكشارية ٤٧ الفاً ومقدار خلق البلوك ٢١ الفاً فصارت لذلك الخزينة التى كانت تعجز عن القيام بنفقات الجند ايام السلم غير قادرة على القيام بنفقاتهم نظراً للزيادة التى حصلت فيهم فلذلك وقع الفساد والفتن بينهم مع انهم لما كان عددهم قليلاً كانوا في غاية الضبط والانتظام ينتفع بهم فلما زاد عددهم الى مقدار عجزت معه الخزينة عن القيام باودهم اختل نظامهم وزال نفعهم وادى ذلك الى عصيانهم وعدم انقيادهم وصاروا علة لحصول التنافر والشقاق وباعثاً على ظهور المفاسد والمكاره العديدة حتى في ايام السلم ولما ابى العسكر المعروف بخلق البلوك الانقياد الى اوامر الدولة ارسلت عليهم الانكشارية فكبحوا جماحهم وكسروا شوكتهم ولكنهم لم يلبثوا حتى التحقوا بهم وشقوا العصا وبالغوا في العصيان وعدم الطاعة فصاروا بلاء مستمراً على الدولة

وكما اظهرنا آنفاً انه قد زاد عدد العساكر ﴿ ذوي العلوفة ﴾ الذين يأخذون المرتبات كذلك ازداد عدد سائر الطوائف من اصحاب العلوفة ايضاً فضاقت الخزينة ذرعاً عن تسديد رواتبهم فاضطرت الدولة الى زيادة الرسوم الاميرية فكان ذلك داعياً الى الظلم والاعتداء منافياً لدواعى العمران والثروة ولذلك جرى ما فيه خراب البلاد وفاقة الاهالي

ولهذا وقعت المباشرة في تقليل عدد اصحاب العلوفة حتى صار في زمن السلطان مصطفى الثاني عدد الانكشارية نحواً من ٤١ الفاً وصار عدد خلق البلوك ٤٧٠٠ نفس وخفض مثل ذلك مقدار عظيم ايضاً من سائر الطوائف ذوي العلوفة. وكما ان كثرة هولاء الطوائف ذوي العلوفة اضرت بالدولة كذلك اضر بها قلة اصحاب التيمار والزعامة وقد كان من مقتضى القانون ان ارباب التيمار والزعامة يكونون من اهل البلاد الساكنين داخل اللواء بين الهيئة الاجتماعية فلما اتي عصر السلطان مراد الثالث اسند توجيه التيمار والزعامة الى خدمة الوزراء وهذا يخالف نصوص القانون المذكور آنفاً فساءت الحال وكان اهل البلاد واصناف الرعايا من الاشرار المجهولي الاصل يتزلفون الى ارباب التيمار والزعامة فيركبون الخيل ويتقلدون السيوف ويتشبهون بهم . وكان من شروط القانون ان العامل الذي كان يسمى يومئذ ﴿ بكلربكى ﴾ اذا وجه تيماراً او زعامة الى غير اهلها اتى مستحقو هذه الوظائف الى دار السعادة وشكوا امرهم فيكون البكلربكى معاتباً ومسئولاً من طرف السلطان وكثيراً ما كان يعزله من منصبه فلما صار توجيه التيمار والزعامة الى خدمة الوزراء في دار السعادة لم يجد اصحاب الاستحقاق سبيلاً لاظهار شكاياتهم . وفي عصر السلطان مراد الثالث نال مقربوه وندماؤه الوجاهة العظيمة كما ذكر فاغتصبوا بعض القرى والمزارع التى كانت خاصة بغزاة المسلمين فكانوا يطلقون عليها اسم ﴿ اربه لق ﴾ وبعضهم تملكها فلما اثروا ثروة عظيمة وزعوا كثيراً من التيمارات والزعامات الى اتباعهم وحواشيهم وفعل وكلاء الدولة فعلهم ايضاً فصاروا يوجهون المحلولات من التيمارات والزعامات المهمة الى خدمهم حتى صار بعضها ﴿ اربه لق ﴾ وبعضها ﴿ باشمقلق ﴾ وبعضها الحق بالخواص الهمايونية ﴿ اي الاراضى السلطانية ﴾

وبعضها خصص لتقاعد اناس صحيحى الابدان

وكذلك قسم اغتصبه الاكابر فضمه الى املاكه تحت براقع اسماء مستعارة حتى انتقل بعض التيمارات الى بعض الكتاب واغاوات امراء السناجق وامراء الامراء واغاوات الوزراء والى سائر الندماء حتى المهرجين قصار القامة والبكم وبعضها قيد باسماء خدامهم ومماليكهم بمقتضى البراءات السلطانية وكان ريعها لهم وبعضها جعلها الندماء والمقربون وسائر الحاشية وقفاً لجهات مختلفة مع ان وقف هذه الاراضى لا يجوز مطلقاً لانها من حقوق المجاهدين والغزاة وبدعة وقف الاراضى الاميرية قد ظهرت في ايام السلطان سليمان فانه عندما اتخذ رستم باشا صهراً له وجعله صدراً اعظم التفت اليه كل الالتفات وساعده على نيل امانيه فملكه عدة من القرى التى فتحها اجداده فلم يكن من الباشا المشار اليه الا انه وقفها في وجوه مختلفة وقد رفع قوجى بك تقريراً بخصوص هذه الاوقاف الى السلطان مراد الرابع يقول فيه انه كان لما يتولى احد خواص السلاطين كانت مرتباتهم تدخل للخزينة غير ان الذين جاءوا بعد ذلك اخذوا يجعلونها وقفاً خلافاً لنصوص الشرع الشريف فلذلك ضاع قسم عظيم من الحقوق الخاصة لبيت المال فركبوا الاوزار معتقدين انهم يغتنمون الاجر بذلك . ثم قال ويوجد عدة املاك واوقاف لا يجيزها الشرع الشريف . وهى في ظاهر الامر انها من المبرات وفي الحقيقة هى اضاعة لبيت المال. فان ريع القرى والمزارع الموجودة في الممالك الاسلامية هى نفس بيت المال فهى حق الغزاة والمقاتلين . فكيف والحالة هذه يجوز وقف هذه الاراضى والمزارع التى عين وجه صرفها في الشرع الشريف . لعمري ان الاوقاف التى يجيزها الشرع الشريف هى اوقاف حضرات السلاطين الماضية اسكنهم الله في جنانه العالية فانهم جعلوا قسماً من الممالك التى فتحوها وقفاً لجميع المسلمين . وانعموا في الزمن السابق على الاعيان الملقبين بغازي نك وبكلربكى ببعض القرى والمزارع من الممالك التى فتحوها في ظل الدولة العلية جزاء لصدقهم في نصرة الدين والدولة ثم ان هولاء الاعيان وقفوا هذه المحلات باذن السلطان لجميع المسلمين بقصد نفعهم احتساباً لله فهذه هى الاوقاف التى اجازها أئمه الدين وما سواها

غير مشروع فكيف يسوغ للانسان بمجرد تقربه من السلطان ان يستولي على القرى والمزارع التى فتحت منذ سنين عديدة وهى مختصة ببيت المال او كيف يصلح وقفها

وحاصل القول ان رستم باشا هو الذي فتح باب وقف الاراضى الاميرية التى هى من حقوق الغزاة والمجاهدين فاقتدى به من جاء بعده فاوقفوها نفعاً لاولادهم واعقابهم واستدراراً لوارداتها عليهم فكان ذلك داعياً الى نقصان التيمارات والزعامات وانقراض اصحابها

فعلى هذه الصورة امست التيمارات والزعامة التى هى حق الغزاة ماكلا لهذا وذاك وفي مدة قصيرة اضمحلت هيئه العسكرية العظيمة التى كانت في غاية الترتيب والانتظام وزال رونق الالوية والايالات فاصبحت الدولة غير قادرة على تأديب العصاة الذين يظهرون داخل البلاد فضلا عن مقاومة اعدائها من الدول . فمع مرور الايام لم يبق من ارباب التيمار والزعامة اكثر من سبعة او ثمانية آلاف.وزيادة على ذلك فقد كانوا عندما يقع الحرب يأبون حمل السلاح وذلك لما وقع بينهم من الخلاف على مرتباتهم وبيان هذا ان التيمارات والزعامات كانت توجه من الاستانبول فوقع الخلل والتناقض في البرآءات حتى كان شخصان منهم يدعيان بتيمار واحد بناء على ما بيد كل منهما من البرآءات والمقرر نامه التى تناقض مضمونها واختلف فحواها وعندما طرق مسامع الحضرة الهمايونية ان فلاناً مثلا قد تعرض لحقوق سواه تزويراً منه فصدر الامر انه يلزم منعه وردعه واعادة الحق الى ذويه وكان الخصمان يحملان هذه البراءة وبينما كان الغزاة يفدون الدولة بارواحهم في ميدان الوغى كانت اخصامهم تذهب الى سناجقهم عند حلول موسم المحاصيل فتضبط جميع الريع وتأخذ قسما منها وياخذ قاضى البلدة القسم الاخر

فتضعضعت لذلك احوال اصحاب التيمارات والزعامة وزالت تأثيرات الفرمانات السلطانية. مع انه قد كان الاهالي من قبل ذلك اذا ورد الى احدى بلدانهم امر شريف ينتبهون اليه وتحصل دهشة للكبير والصغير منه ويخضعون لمنطوقه خضوعاً تاما ويقولون انه حضر فرمان سلطاني . فلما حصل التناقض في البرآءات والاختلاف في مضموناتها . زالت

لذلك هيبتها

ومن القديم كانت وظائف الاي بك اي امير الاي تتوجه على اصحاب الاستقامة واهل العرض والاعتبار فصار الولاة يعزلونهم منها بدون سبب موجب استرسالا الى منافعهم الشخصية فسادت الحماية والرشوة والشفاعة وصار اصحاب المناصب يتقلدونها وان كانوا اسافل ومن رعاع الناس لا يستحقونها وصار من عادة هولاء ايضاً ان يجدوا الاسباب والوسائل المتنوعة ويعزلون هذا ويولون ذاك واحدث الوجوه اضراراً كثيرة مضرة ومع قلة ارباب التيمار والزعامة واضمحلال حالهم فقد زادت اشغالهم عما كانوا عليه من قبل . وذلك لان طايفتي اليوركان والمسلمان ارتبطتا بمقاطعات مخصوصة والمشاة في ايالة الاناطولي نسخوا ايضاً خدمة التيمار وصار لا ياتي احد من هولاء الى الحرب وكلفت رايات التيمار والزعامة باثقال حفر المتاريس وما يتعلق بالمدافع وغير ذلك من الاشغال الشاقة والمشاة الذين هم في ايالة الاناطولي ابطلوا التيمار

فسرى هذا الخلل في جميع اصناف العساكر ثم ان بعضاً من طائفة ﴿ الاقنجي ﴾ تقلدوا وظيفة القول ذوي العلوفة وبعضهم أبى ان يبقى في الاقنجية فانقرضت لذلك هذه الطائفة ايضاً فاحتاجت الدولة العلية الى جند التاتار لايفاء وظيفة الاقنجين ﴿ المهاجمة ﴾ فكان عندما تتلظى نار الحرب يزحف خانات القريم الى بلاد الاعداء بجنود التاتار البالغين نحواً من ٣٠ او ٤٠ الفا من الخيالة فينهبون ويفتكون وحينما استولت مؤخراً دولة روسيا على القريم عينت الدولة العلية ﴿ رئيساً ﴾ من عائلة سلاطين آل جنكيز على جند التاتار الموجودين في البلاد العثمانية واخذت في استخدامهم كما في السابق الا انه لما تبدلت احوال العالم وتحولت الحركات الحربية الى هيئة اخرى وزالت صولة التاتار وشجاعتهم القديمة لم تحصل الفائدة المطلوبة منهم كما حصلت قبل ذلك

لم يكتف ندماء السلطان ومقربوه بما فعلوه بالغزاة من قطع رواتبهم كما ذكرناه بل فتحوا باب الرشوة وتداخلوا في توجيه الايالات والالوية وسائر المناصب الى من يريدون فتاخر ذوو اللياقة وتقدم من ليس اهلها وسروا

بما نالوه من الرتب كامارة السناجق وامارة الامراء وبات اصحاب الاستحقاق مهجورين وابتذلت رتب الدولة شيئاً فشيئاً وصارت الوزارة تُعطى لبعض بكوات السناجق ولعموم امراء الامراء وعلى هذا المنوال فقس. ولم يبق للرتب قدر واعتبار كما كان اولا . ولانه لما راى حضرة السلطان سليمان خان قوة الدولة ووفرة عسكرها مال الى التفاخر والتنافس والشهرة وعلو الشان وذهبت الاهالي مذهبه عاملين بما قيل ﴿ الناس على دين ملوكهم ﴾ فلم تعد رواتب اصحاب المناصب ووظائف طائفة القول تكفي للقيام بنفقاتهم فبسط الظلم والاعتداء جناحه وكلما كثرت اصحاب المناصب ازدادت المظالم والتعديات ايضاً. واحدث رستم باشا الذي تقدم ذكره اصول الالتزام بداعى تزييد الاموال الاميرية فطرح ريع الاراضى الهمايونية المسماة خواص همايون والاقطاع للملتزمين ولما أبى الاعيان اصحاب الدين والانصاف اخذ الالتزامات اخذها الاراذل والاسافل فصار ذلك سبباً آخر الى تخريب خواص ﴿ القرى الهمايونية والاقطاع ﴾ . فخربت المدن لهذه المظالم والاعتداءات ووقع الرعايا الذين هم في الحقيقة خزينة الدولة في شرك الفقر فنقصت واردات الدولة نقصاً عظيما ولم يبق من قوة كافية لدفع ايدي الاعادي الذين تطاولوا على الحدود الخاقانية فذهب اكثر المدن وزاد خراب الباقى بكثرة الفتن والفساد الداخلي

ان مصالح الدولة وان تكن تحسنت في ايام السلطان مراد نظراً لشدته وبطشه ولكن بعدها رجعت الى حال اسوأ من الاولى. والدولة وان كانت قد تقوت لسلوكها على النظام الذي رتبه في آخر الامر محمد باشا كوبريلي فانها بعد بمدة وجيزة اخذ امرها في الاختلال

وفي ذلك العصر اخذت الفنون والصنائع تترقى في اوربا وتحول تنظيم العساكر وتعليمهم الى هيئة جديدة وبناء على هذا فكان يجب على الدولة وقتئذ ان تصلح ما اختل من نظامها وان تصلح امر تنظيم عساكرها وتنظر في ادواتها الحربية غير ان السفاهة التى كانت سائدة في ايام وزارة ابرهيم باشا صهر السلطان حالت دون ذلك فطرأ على جسم الدولة الكسل وعلى اخلاق الامة الخلل فلو لم يات بعد ذلك بمدة ايام حضرة السلطان محمود الاول

المشهور بالغيرة والحمية لكان يتوقع من ذلك الوقت الخوف على الدولة من وقوعها في خطر عظيم وخلل جسيم

ولا يخفى ان حضرات اسلاف السلاطين العثمانيين العظام كانوا يخرجون مع عساكرهم الهمايونية وقت الحرب الى اكثر الغزوات فاذا عادوا الى مقر السلطنة لا يمكثون فيه مدة مديدة بل كانوا ينصبون احد الوزراء قائمقاماً لاستانبول ويحيلون وظيفة ضبط البلدة وربطها الى مامور يسمونه «سكبان باشى» بمعنى ناظر الضبطية وهو اغة الانكشارية الثاني ويذهبون بعد ذلك مع رجال الدولة والعلماء والوزراء ومستشارين وبطانة السلطنة فيجولون تارة في جوار ادرنه ويكى شهر وآونة يصرفون اوقاتهم في الصيد والقنص اللذين هما من ضروب تمرينات الحرب وحيناً ياتون بحركات واعمال تتعلق بالحرب كرمى الاهداف بالرصاص والسهام فصارت لذلك اركان السلطنة وسائر المامورين في ايام السلم بمثابة قوة سيارة خفيفة المؤنة اعنى احوالهم احوال المسافرين لا همة لهم في امور الرفاهية ودواعيها التى تقتضى كثرة النفقات فلذلك كانت وارداتهم تزيد على نفقاتهم. ومما يروى ان احمد باشا صهر رستم باشا تقلد مرتبة الوزير الرابع في محاربة سكتوار ثم رقى فصار وزيراً اعظم. ولما تقلد الوزارة في الابتداء كان لا يملك من البسة الابهة غير فروتين يلبس احديهما في الديوان الهمايوني والثانية في بيته مع انه كان يملك خمسمائة عبد كاملي العدة والذخيرة وكان كل الوزراء على هذا المنوال ولكل منهم في ضياعه مائة قطار من البغال ومائة من الجمال فكانوا لذلك اذا سار احدهم مأموراً الى جهة من الجهات يستغنى عن شراء جمل او حصان وتتيسر عليه اسباب السفر في مدة ثلاثة ايام ثم انتقلت الدولة العلية من احوال البداوة الى احوال الحضارة فكان حضرات الخواقين العظام يمكثون دائماً في دار الخلافة حتى الفوا الراحة وتبعهم في احوالهم سائر رجال الدولة فعمروا القصور الشامخة والبنايات العظيمة داخل استانبول وجملوها بانواع الزينة والزخارف والاثاث الثمين على حسبها فسرى داء التشبه الى العامة فتكلفوا لاتخاذ الملابس الفاخرة والمفروشات الجميلة الى غير ذلك من دواعى الترف فزادت مصاريف المامورين زيادة فاحشة على وارداتهم

الاصلية فاضطر اصحاب المناصب الى الرشوة والارتكاب . وجعل اصحاب الاقطاع والزعامات يلزمون اراضيهم باجور باهظة والملتزمون كذلك يكلفون الفقراء من الرعايا بما لا طاقة لهم على تحمله من الظلم والجور تحصيلا للاموال التى دفعوها وربحاً باهظاً لانفسهم فاكرهوا بذلك اكثر الاهالي على مهاجرة اوطانهم فارتحل الرعايا واهل الذمة منهم الى البلاد الاجنبية واكثرهم أتى الاستانة واستوطنوا بها وكثروا حتى غصت ديارها بالواردين اليها فلم يبق فيها محل فارغ من السكان وكانت البيوت والبنايات متصلة ملاصقاً بعضها ببعض فضاقت مع اتساعها وكثرة بيوتها فكثر لذلك وقوع الحريق وفسد الهواء من العفونة الكثيرة لازدحام النفوس فانتشرت العلل والامراض وعزت المئونة والغلات بيد السلطان فاضطرت الحكومة الى ابتياعها فكان الباعة يظلمون الاهالي ظلماً فاحشاً كما سنبين ذلك في محله وهذا صار داعياً آخر الى خراب البلاد وسقوط العباد في اشراك الفاقة

ومن المعلوم ان انتقال الامم من حال البداوة الى حال المدنية وترقيها في مراتبها يستدعى اتخاذ التدابير اللازمة لاحوالها وقيامها بما تستوجبه احوال الزمن وهو امر طبيعى فكان من فروض وكلاء الدولة وهم في حال الحضارة ان يوجهوا انظارهم الى اكثار الفنون والصنائع وتوسيع نطاق الزراعة والتجارة وتعليم العساكر وتدريبها كعساكر الامم المتمدنة تقوية لدعائم الملك وتعزيزاً له غير انهم بدلا من ان يغتنموا فرص الزمن ويتشبثوا بالوسائل الداعية الى بقاء الدولة في حال حضرتها صرفوا افكارهم عن ذلك وامضوا اوقاتهم في الشهوات والسفاهة التى نشأت عن الاحوال الرديئة التى كان عليها ابراهيم باشا فانه كان يصرف اوقاته بالملاهى والملاذ . فتعصب لذلك الجند وتمردوا على الدولة وحالوا دون اجراء التدابير النافعة لها ولا سيما ان الانكشارية نبذوا النظام ظهرياً لفرط جهلهم وتعصبهم ولم يتركوا الفرصة للدولة لتنظيم عسكر جديد فصارت لذلك مرتبات العسكرية نهبة بين الناس ولما كانت مسألة تنظيم الجند تمس اكثر الناس كان اكثرهم يأبي ذكرها بلسانه

يقول جاويد احمد بك ان العساكر الاسلامية في ابتداء امرهم عندما

كانوا منقادين الى الروابط والنظامات كانت شجاعتهم وبسالتهم لايختلف فيها اثنان ثم انهم في عصر السلطان احمد الثالث عند ما جرى الاحتفال الهمايوني وقتئذ وبمساعدة ابرهيم باشا المقتول لا اراحه الله ألحقَ اصحاب المطافي بسلك العسكر المسمى قول فاختل نظام الجند وامتلا وجاق الانكشارية العامر باسافل الناس . وفي الواقعة التي جرت في سنة ثلاث واربعين قل وجود الاعيان الذين يعرفون النظام وينقادون الى القانون . وفي جلوس حضرة السلطان محمود الاول اعدم كثيراً من الاشقياء وعم هذا البلاء كثيراً من الذين لا جنحة لهم والذين ينتفع باشغالهم . وفى حرب ايران قتل كثير من الذين كانوا من الانكشارية حقيقة فلم يبق منهم من يعرف فروض القانون وحق رعايته الا القليل ثم آل الحال الى ما هو مشهور ومعلوم عند الجميع ومن العادة انه يُقام على حراسة الثغور شرذمة من الجند فألِف لذلك كثيرون الدخول في معامع القتال غير ان ابرهيم باشا المقتول كان انس بالترف فابعدهم عن مراكزهم استرسالاً الى مرضاة الاجانب كما انه اعدم كثيراً من اصحاب الشهامة والاقدام في الاستانة لاسباب واهية فضعفت لذلك قلوب الرجال ولم يبق من ينتفع به منهم ثم اخذ اغاوات الانكشارية يبذلون الرشوة لنيل المناصب كما انهم يأخذونها ايضاً لتوظيف غيرهم في وظيفة الضباط وصارت وظيفة الاسامى ﴿ وهى وظيفة عسكرية ذات راتب ﴾ ﴿ كوظيفة الدعاكوا ﴾ ﴿ اي الذين لهم معاشات ولا وظيفة لهم الا الدعاء ﴾ تباع وتشترى واذا كان احد الانكشارية حائزاً على سبعة اقجايات من الاسامى كان يرى نفسه انه في راحة اعظم من راحة وزراء الدولة وكان يعتقد ان ما ناله هو عناية كبرى فصار اغاوات الانكشارية الذين نالوا هذا المنصب بالرشوة وبغير استحقاق كانوا يرسلون عند صرف مرتباتهم معاش عشرة ايام او عشرين يوماً من معيناتهم اليومية لرجال الدولة واهل النفوذ فيها استجلاباً لخواطرهم فلم يبق مع هذه الحال شجاع يركن اليه ويعول عليه من الانكشارية الحقيقيين فصارت لذلك الاسامى اي الوظيفة العسكرية التي كان يفتخر بها بمنزلة علوفة الكمرك التي تعطى الى خدمة قضاة العسكر وخدمة رجال الدولة المعروفين بقبوجوقدار فسقط لذلك اعتبارها . ولما

رأى الجند ان مرتبات الخدم تزيد على مرتباتهم ثلاثة اضعاف مع ما هم عليه من تحمل المشاق كحفر المتاريس وتعرضهم للجراح واذى البرد ضعفت هممهم وتمنوا ان يكونوا في عددهم بدلاً من ان يكونوا جنوداً وصارت الوظائف العسكرية المومى اليها تنتقل يومياً الى ارباب التقاعد فقل عدد العساكر الاشكنجي (اي المشاة) حتى اصبحت الدولة عند وقوع حرب ما مضطرة الى تجديد جند الاسامى وزيادته فتثقل ذلك على خزينتها وقد اعترف ملوك النصارى بشجاعة العثمانيين (الانكشارية) ورأوا ان دون مقاومتهم صعوبات كلية وعرفوا انهم يعتقدون ان من مات منهم فى الحرب مات شهيداً فلا يخافون الموت وكان الفرس في محاربتهم للدولة يسألون اولاً هل يوجد بين العساكر العثمانية من يكثر السجود (يريدون بذلك الانكشارية) ولكن قد تغيرت حالهم بعد ذلك واختل امرهم واصبحوا لا نفع لهم بشيء

وحاصل القول ان وجاق الانكشارية وخلق البلوك كانوا من الطبقة الاولى بين جميع جنود الدنيا غير ان تحول مرتباتهم العسكرية ودخول الخلل في نظامهم فصم عروتهم النظامية وصاروا في حال اسوأ من حال عسكر النفير العام

وفي عصر السلطان احمد الثالث ما امكن التشبث بالنظامات اللازمة كما انها لم تتيسر في عصر السلطان محمود الاول للمفاسد الداخلية والخارجية فاخذت حال العساكر تتغير يوماً بعد آخر حتى ضعفت الدولة وتغيرت احوالها على حين كانت دول اوربا مجتهدة في ترقى الفنون والصنائع وكان في امل حضرة السلطان مصطفى الثالث انه يرتب امور العسكرية وينظمها فانشأ لها مدافع سريعة الطلق بمناظرة طوت بك زاده المجري واحد ضباط فرنسا واجرى اصلاحات كثيرة في الطوبخانه غير ان مسألة تنظيم العساكر وتعليمها قد بقيت تحت المطالعة اذ لم يوفق لاجرائها وفي ذلك الزمن قل الذين يعرفون حال الدولة وما تحتاج اليه من الرجال واركان السلطنه فلما أُشهرت الحرب في سنة ٨٢ على حين فجأة كان نظام العساكر الاسلامية وقوانينها في اختلال على نحو ما ذكرناه وكانت المرتبات العسكرية نهبة للذين لا يصلحون للجندية فاصبحت الدولة مضطرة الى جلب رجال من الفلاحين

وارباب الحرف الذين ما اشتموا رائحة البارود ولا ألفت آذانهم استماع صدى القنابل والمدافع فجمعتهم بشق الانفس وبذلت لهم النفقات الباهظة ثم ارسلتهم الى الحرب بمنزلة جنود معلمة فلم يقفوا امام العساكر المنظمة لكونهم غير مدربين بل اركنوا الى الفرار فالهزيمات التى كانت متوالية اثبتت للعالم اجمع لزوم النظام الجديد وابانت فائدته غير ان اعتداء الانكشارية وعتوهم واختلال احوال سائر الطوائف قد حال دون وقوع ذلك وكان حضرات السلاطين العظام السالفين يهددون خلق البلوك الستة بالانكشارية ويهددون الانكشارية بخلق البلوك ويهددونهما معاً بارباب التيمار والزعامات فلما اختل نظام هولاء كما سبق وبلغ درجة الاضمحلال وصار في حكم العدم لم تبق للدولة قوة تكره بها اصحاب الاوجاقات على الطاعة والانقياد

وكما اختل نظام الملكية والعسكرية على ما بيناه سابقاً اختل ايضاً نظام ارباب الطرق العلمية وقوانينها ولنشرح على وجه الاجمال احوال الطرق المذكورة السابقة واللاحقة

كان اسلاف السلاطين العثمانيين يبذلون غاية الهمة والاعتناء في ترويج العلوم والمعارف حتى امتلات مدينة بروسه بالعلماء والفضلاء والشعراء واصحاب الانشاء وبعد فتح استانبول واتخاذها قاعدة للملك بذل حضرة السلطان محمد خان الفاتح جهده في سبيل ترقية العلوم والمعارف فيها فنفقت سوق العلم والمعرفة نفاقاً عظيماً حتى كان يحضر الى الاستانة العلية من جميع الجهات العلماء الذين يشار اليهم بالبنان فشيدت المدارس العلمية الكثيرة في مدة وجيزة وملئت دار السعادة باهل العلم والمعرفة واضحت رتبة التدريس في غاية الاعتبار لانها موصلة الى المولوية وقاضى عسكر وكان الوصول اليها لا يتيسر بمجرد العلم والاهلية بل بالاشتغال في المدارس زمناً طويلاً تحصيلاً للملازمة التى هى مدخل للتدريس واذا اراد احد الطلبة التوصل الى درجة العلماء تعين عليه ان يثابر اولاً على الدرس الابتدائي عند احدهم ثم يأخذه شيخه الى احد المدرسين فيقرا عليه الدروس الداخلية ولا يزال على ذلك الى ان يكتسب الاهلية لدروس ﴿ صحن ﴾ ولاجل الدخول في مدارسها كان ينبغي للطالب ان يكمل العلوم المعينة في المدارس التى هى لها في حكم المدارس الاعدادية

ويقال لتلك المدارس ﴿ موصلة صحن ﴾ ومدارس صحن هي المدارس الثمانيـة المبنية بالحجر والمسقوفة بالرصاص في طرفي الجامع الشريف للسلطان محمد الفاتح ويقال لها ﴿ صحن ثمان ﴾ والطلبة المقيمون في حجر هذه المدارس كانوا من افاضل العلماء ولهم تآليف عديدة مقبولة ويقال لقدمائهم ﴿ معيد ﴾ وهم الذين كانوا وكلاء على التلامذة يقرئونهم العلوم في المدارس الثمان المسماة ﴿ تتمة ﴾ وهي في مقام الاعدادية الواقعة وراء تلك المدارس . يقول قوجي بك في رسالة قدمها الى السلطان مراد الرابع انه الى حين تاريخ الف كان لمعيدي صحن قدر واعتبار نظير المدرسين الان

فهكذا كان الطلبة ينتقلون من المدارس الابتدائية الى المدارس الاعدادية فيكملون العلوم والفنون وكانت اسماؤهم تقيد في الروزنامة الهمايونية ﴿ اي السجلات السلطانية عندما يصيرون ملازمين داخل صحن وخارجه ﴾ والحاصل ان الملازمين كافة كانوا من اصحاب العلوم والمعارف ولم يكن فيهم احد من الجهلاء او من مجهولي الاحوال . وحينما يتحقق ان احدهم امتاز على اقرانه بعلومه ومعارفه ونال عنوان ﴿ قدوة العلمـاء المحققين ﴾ يعطى له الرؤوس المدرسية في مدرسة من مدارس ﴿ ابتداء الخارج ﴾ وبعده يترقى تدريجـا ويحوز اذا اتت نوبته على رؤوس مدرسة من مدارس ﴿ داخل ﴾ و ﴿ صحن ﴾ ويكون بذلك حائزاً على الشرف والاحترام والذي لا يحوز على هذه الرتبة من اصحاب المعارف والعلوم ينال منصب القضاء وكلهم كانوا من العلمـاء المستحقين للاحترام والاكرام لاسيما المدرسون الكرام فانهم كانوا في نظر الناس بمثابة المجتهدين . وحيث ان ارباب العلوم والمعارف كالاطباء والمهندسين يتعينون من بين اولئك الطلبة كانت تلك المدارس مركزاً لتربية العلوم ومنشأ للحاكم والحكيم ولسائر اصحاب المعارف الذين هم الاعضاء الرئيسية في جسم الهيأة الاجتماعية

ولا حاجة لبيان قدر وصيت المدرسين الذين يهتمون بالامر الاهم في التدريس . وخصوصاً مدرسى ﴿ صحن ثمان ﴾ لانهم كانوا ممتازين بين جميع العلماء وكانوا رفيعي الشـان في انظار الخواص والعام . ولما كان احد العلماء اسمه علي جمال افندي في الحجاز وجهت عليه مشيخة الاسلام فنصبوا له

وكيلا من مدرسى ﴿ صحن ﴾ لحين مجيئه وهذا دليل على علو منزلتهم ورفعة شانهم

وكان جميع المدرسين يحق لهم العنوان المحرر في فرمانات رؤوسهم وهو ﴿ قدوة العلماء المحققين ﴾ وكانوا يدرسون العلوم والفنون في الحجر المعدة للدروس في المدارس وما كانت تعطى رتبة رؤوس التدريس الا الى الذين كانوا يلازمون في طريقها وينالون ما يسمونه ورقة الملازمة اي الشهادة فيبذلون حينئذ مساعيهم مدة طويلة في التضلع من العلوم العالية ويثبتون اهليتهم وكمالهم بين اقرانهم وامثالهم كما بيناه قبل هذا وكان هولاء يعينون بداءة ذي بدء الى التدريس في مدرسة من المدارس التى هى اقل مرتبة من المدارس الاخر وبعد ذلك يترقون في مناصب التدريس كما كانوا ينتقلون من مدرسة الى اخرى اثناء تحصيلهم العلوم

وكان منصب قضاة عسكر الذى هو بمقام قاضى القضاة وقضاة البلاد الجسيمة كاسلامبول وادرنه يوجه الى العلماء الحائزين على رتب التدريس . وكان قضاة العساكر يتقلدون منصبهم مدة عشر سنين او خمس عشرة سنة كما كان غيرهم من القضاة والموالي يثبتون في مامورياتهم مدة مديدة فلا يعزلون منها بغير موجب وبعد انفصالهم يصيرون من اهل التقاعد بمرتبات كافية وكان بعضهم يختار التقاعد بمعاش التدريس

ولما صارت المعسكرات الهمايونية شديدة الاحتياج الى زيادة الاطباء والجراحين في بداية عصر السلطان سليمان خان وزادت اهمية المهندسين على ما اقتضته الاحوال شيدت مدرسة طبية بجانب جامع السليمانية الشريف وفصل صنف الاطباء عن غيرهم وبنيت في جوارها دار الشفاء ﴿ مستشفى ﴾ وهى لم تكن تخطر على بال احد من اهل اوروبا من قبل الى ذلك الحين وشيد ايضاً اربع مدارس كبيرة بجوار الجامع الشريف المذكور وجرت العناية الكبرى في ترويج العلوم الرياضية ونشرها فيها لانها مقدمات الفنون الحربية ثم انشئت دار الحديث امام الجامع المذكور واعتبر عدة من جملة المدارس اعدادية للمدارس السليمانية وسميت ﴿ موصلة سليمانية ﴾

وبعد ذلك قسمت رتب المدرسين الى اثنتى عشرة رتبة وذلك لما

اقتضته الاحوال المشروحة سابقاً ونظراً لمقدار الرواتب المخصصة للمدارس وهـذه الرتب الاثنتى عشرة هى ﴿ ابتداء خارج ﴾ ﴿ابتداء داخل ﴾ ﴿ حركت داخل ﴾ ﴿ موصلة صحن ﴾ ﴿ صحن ثمـان ﴾ ﴿ ابتداء التمشلي ﴾ ﴿ حركت التمشلي ﴾ ﴿ موصلة سليمانيه ﴾ ﴿ خوامس سليمانيه ﴾ ﴿سليمانية ﴾ ﴿ دار الحديث ﴾

ويقال للحائزين على رتبة ﴿ موصلة سليمانيه ﴾ وما فوقها كبارالمدرسين فهولاء يكونون متهيئين للمولوية. واما مادونهم فصنفان الاول منهما الحائزون على رتبة صحن ثمان فما فوقها والثاني الحائزون على رتبة موصلة صحن فما دونها والفرق بين هولاء انهم كانوا يذهبون ايام الملازمة في يوم الخميس من كل اسبوع لمقابلة شيخ الاسلام فالذين يكونون حائزين على رتبة ﴿صحن ثمان ﴾ وما فوقها يجلسون فى حجرة مخصوصة واما الباقون اي اصحب رتبة ﴿موصلة صحن ﴾ وما دونهـا فينتظرون خارجا وكانوا عند دخولهم بالطريقة الرسمية على شيخ الاسلام يرأسهم جميعاً مدرس ﴿ دار الحديث ﴾

المراد بدار الحديث المدرسة المذكورة آنفاً الواقعة امام جامع سليمانيـة ومدرسها هو اقدم جميع المدرسين واما قولنا سليمانية فهو عبارة عن المدارس الاربع المذكورة اعلاه وهى المدارس المبنية بالحجر في سوق الصبـابين ﴿ دوكمجيلر ﴾ ولهذه المدارس اربعة مدرسين ورتبة المدارس المذكورة هى في الدرجة الحـادية عشرة من طريق التدريس وخوامس سليمانية هى المدارس الخمس التى هى بين موصلة سليمانية وبين مدارس السليمانية الاربع كان يتعين لها من مدة قريبة خمسة مدرسين لاغير ثم كثر عددهم بالاعتبار اعنى حكماً لا فعلا . وكلمة خوامس تطلق في دفاتر المدرسين القدماء على ﴿ خواص سليمانيه ﴾ ثم اطلق عليها في الدفاتر الجديدة خامسة سليمانية ومدرسو ﴿ صحن ثمان ﴾ كانوا كما سبق ثمانية لا يزيدون ولا ينقصون . اما المدارس الباقية فمن كونها تعددت وكثرت رتبت بحسب مقدار مرتباتها والحقت باحدى الدرجات المذكورة

والاعيان الذين كانوا ينالون مناصب المولوية وقضاء عسكر الروم ايلي والاناطولي وقضاء استامبول كانوا متصفين بالاوصاف العالية متسمين بالفضائل

يتقلدون مناصبهم مدة مديدة ويحافظون على حقوق العباد بالعدل وكانوا يحضرون مجلس الشورى ويقفون على اسرار السلطنة واحوال المملكة فيوفقون للامور النافعة للدين والدولة . وكانوا بعد انفصالهم يتعيشون بمعاش التقاعد فيصرفون عمرهم في الدعوات الخيرية للحضرة السلطانية ويؤلفون تآليف عديدة في ايام تقاعدهم

وكان جميع القضاة المامورين باجراء الاحكام الشرعية في بقية الممالك المحروسة مجربي الاطوار مشهوري الاحوال علماء عارفين قد تربوا وتعلموا في المدارس عدة سنين كما ذكرناه فاشتهروا بالعدل في احكامهم بين العباد فاذا عرضوا للدولة شيئاً كان لكلامهم تأثير واذا تجرأ بعض الظلمة على ظلم احد من الناس حالوا دون نفوذه حتى صاروا كلهم سبباً في انتظام احوال البلاد وعين الرحمة للعباد

كانت الطرق العلمية في هذه الحال مضبوطة نقية حتى اذا قال العلماء في قضية هذا امر الله قال الكل السمع والطاعة فلا يتجاسر احد على المخالفة

وقد قال قوجي بك في رسالته السالف ذكرها اني لما جئت استامبول لم يكن للعلماء العظام خدم وحشم مثل هذا الوقت لكن اذا مر احد المدرسين في الطريق يقابله الناس بالاقبال التام وكمال التعظيم والاحترام فكان مقامهم محفوظاً وجاههم عظيما ومن بعد سنة الف اخذت قوانين الطريقة العلمية ونظاماتها تتغير حتى دخل التسامح في كل امر وكثر التداخل في المصالح حتى قضت الاحوال باعطاء المناصب الى غير من يستحقها فصار قضاة العسكر يعزلون لغير ذنب في مدة وجيزة فالذين ابتلوا منهم بالطمع والحرص صاروا يحسبون زمان توليتهم فرصة اغتنموها فكانوا يوجهون المناصب الى غير اهلها وصار الموالي يبيعون اوراق الملازمة ايضاً كما ان اوراقها صارت تعطى بزيادة عن قانونها ونظامها وبغير طريقتها وحيث انها مدخل لطريقتي التدريس والعلماء فباختلال نظامها اختل هذان الطريقان ايضاً وصار عوام الناس وكتبته (اويوه ده) اي امراء المقاطعات (وصوباشى) اي الضباط ملازمين بواسطة الدرهم والدينار وفي برهة يسيرة صاروا مدرسين وقضاة فامتلا صحن العلم بالجهلة . ولم يتميز العالم من الجاهل

بينما كان يشتغل المدرسون بتدريس العلوم في مدارسهم تركوا شرط الخدمة الفعلية وصار مدرس المدرسة يعتبر وجوده في ذلك الصنف المعدود منه شيئاً وهمياً. وما برحت هذه الامور تزداد شيئاً فشيئاً حتى صار المدرسون لا يذهبون الى مدارسهم وربما لا يسالون عن محلها وفى اي جهة هى وبعد ان صارت المدارس خرابا واحترقت ولم يبق الا عرصاتها كان يوجه التدريس الى مدارس هوائية كاسم بلاجسم وكثر عدد المدرسين وتنوسى امر التدريس الذي هو من وظائف المدارس. وصارت وظيفة التدريس عبارة عن ترفيع الدرجة بالنقل من مدرسة الى اخرى او عن مجرد ترفيع الرتبة . على انه وان كان الامتحان الاصولي الذي وضع وتأسس لاجل منع دخول الذين هم ليسوا من اهل هذه الطريقة ما برح مرعياً غير انه كان مخصوصاً بطلبة المدارس القانونية وبقى باب اخذ الرؤوس بلاامتحان مفتوحا الى ذوي البيوت المعتبرة وبعض المنسوبين. اما ابناء الصدور والقضاة فانهم ينالون وظيفة التدريس على حداثة سنهم ثم لا يلبثون ان يترقوا فى الوظائف حتى ان الواحد منهم كانت تاتيه نوبته في المولوية قبل ان يدب عذاره. وقد كان يوجد بينهم من اكتسب الكمال وحصل العلوم في ذلك الوقت ولكن اكثرهم كانوا ينظرون الى المناصب والمراتب العلمية بنظر الارث الابوي فلا يكلفون نفوسهم مشقة التعلم ولذلك استمروا في الجهالة . واخذ الوزراء وبعض رجال الدولة في ادخال اولادهم وكثير ممن لافائدة فيهم في الطريقة العلمية. حتى امتلأت هذه الطريقة باهل الجهل واستوى في الترقى العالم والجاهل

ولم يكن ينظر في المولوية الى التولية الفعلية فلذلك صارت ادارة الاعمال على الاكثر في يد النائب وصارت المدة العرفية لولاية القاضى وهى سنة واحدة في حكم الامور القانونية وصارت المولوية عبارة عن اخذ الرتبة والمقام وقسمت ايضاً الى درجات متعددة مثل المدرسين وهكذا في كل سنة يوجه مخرج المولوية الى ثمانيــة من المدرسين وهم مدرسو دار الحديث والسليمانية وثلاثة من المدرسين الذين هم في ادنى درجــة منهم بشرط ان تكون مدتهم سنة واحدة وبعد الانفصال يعتبرون من معزولي المخرج ويوجه

الى اربعة منهم في كل سنة قضاء مصر والشام وبروسه وادرنه على ان يكون لهم هذا المنصب سنة واحدة ايضاً والى اثنين من معزولي هولاء قضاء مكة والمدينة والى احد معزولي هولاء قضاء استامبول والى احد معزولي استامبول صدارة الاناطول يعنى قاضى عسكرها والى احد معزولى الاناطول قاضى عسكر الروم ايلي وصار ذلك على وجه الرسم والعادة

وعلى هذا النحو كان يخرج بوظيفة المولوية في كل سنة ثمانية مدرسين ثم يتعين ثمانية من الدرجة التى هى ادنى منهم في مواضعهم وكان هذا الترتيب متصلا كالسلسلة يعتبر من الاعلى الى الادنى الى حد رتبة خارج. ولما كان طبيعياً أعنى لا بد من فتح طريق للترقى في كل سنة كان عدد الخارجين برتبة ابتداء خارج من الدرجة السفلى اكثر منه بالنسبة الى عدد الخارجين من الطبقة العليا وكان عدد مدرسى صحن ثمان محصوراً في ثمانية اشخاص فقط. ثم تراكم وتزايد ايضاً عدد مدرسى موصلة وتزاحموا فسميت تلك الدرجة (باتاق) اي وحلة غيطه

وقد ترك النظر اخيراً في امر التقدم والامتياز من جهة الفضيلة والعلم والاستحقاق والاهلية وانما اعتبر مسلكاً واصولاً (الاقدم فالاقدم) وبقى قاعدة استثنائه تعرف باصطلاح المدرسين بالطفرة. وهى ان المنتسبين الى ذوي الشرف والمتذرعين بواسطة ذوي الشفاعة المجبرين كانوا يتقدمون على كثير من القدماء. وهذه القاعدة ايضاً بعينها كانت جارية في رتب الصدور والموالي وذلك بان يعطى الى احد المدرسين رتبة مخرج ويكون في حكم معزول المخرج ويعطى الى احد معزولي المخرج رتبة مكه ويكون في حكم معزول الحرمين فكثر لذلك عدد الذين نالوا رتب الصدور والموالي والمدرسين وقد ورد في لائحة تاتارجق عبد الله افندي المشهور الحائز رتبة روم ايلي التى كتبها في نظام الدولة فقال ان كثيراً من الذين ادخلوا في طريقة التدريس نالوا المولوية ثم ترقوا الى رتبة قاضى عسكر الرفعية من دون استحقاق ولا قابلية ولا اهلية ولا فائدة تحصل منهم للدولة ومع ذلك فانهم يرون ذلك قليلا عما يستحقونه بل يستحقرونه ثم انهم يتفاخرون ببلوغهم رتبة القاضى عسكر فيظهرون الجبروتية ويتكبرون ويصرفون اوقاتهم في ذكر

مساوي بعضهم بعضاً فلا شغل لهم الا هذا ومن حيث ان هولاء بلغوا هذه الرتب السنية فقد اصبحت المحافظة على مقامها واعتبارها من واجبات السلطنة السنية ولا شك ان ادارة هولاء حمل ثقيل على الدولة بلا فائدة

ولما كان من الواجب على ذمة الحكومة انها توجه اعتناءها الى اصحاب المراتب عينت لكل من المدرسين والصدور والموالي قضـاء يتولى ادارته نائب له فيتناول النائب منه حصته المعينة والباقى يأخذه صاحب المنصب باسم ﴿معيشة﴾ للمدرسين ﴿ واربه لق ﴾ للصدور والموالي فكان الصدور والموالي يتعيشون على هذا الوجه ويوجهون للجهات نوابا من اقاربهم واتباعهم ولكون هولاء ايضاً ليسوا من اهل القضاء فيلتزم كل منهم لتعيين نائب لادارة القضاء جرياً على سنن روسائهم فاصبحت النيابة في جميع الاقضية هى دستور العمل واصبحت رتبة القضاء نهبة للصدور والموالي والمدرسين وتبعهم في انتهابها الجوخدارية وسائر الخدمة ثم ان الطريق العلمية التى وضعت لنشر المعارف والعلوم واحقاق الحقوق صارت وسيلة لتعيش من ليسوا باهل لها فنشأ عن وقوع ذلك فساد وخلل كلى للملك والملة

ولمـا زاد عدد المدرسين اصبح اكثرهم في حالة تشبه حال المتسولين وتبدل عز وشرف التدريس بالذل وكان مخرج المناصب محصوراً في الاصل بقضاء القدس وحلب وازمير وسلانيك ويكيشهر فنار وغلطه ثم ضم اليه اخيراً قضاء اسكدار وقضاء ايوب وذلك بالنظر الى كثرة المدرسين وعلى الوجـه المشروح اخذ يظهر في كل سنة ثمانية من معزولي المخرج ومـا حدث هذا الا عن كثرة الموالي الذين لا يمكن ان يوجد لهم مرتبات تقوم بادارة معيشتهم لكن الدولة لم تر وسيلـة لدفع الضيق عنهم الا ان توجه لكل منهم قضـاء يتولاه فيتعيش منه باسم ﴿ اربه لق ﴾ على انهم هم ايضاً قـد صرفوا النظر عن كونهم يستخدمون نوابا ذوي دين ومعرفة باجراء الاحكام الشرعية بل استخدموا نوابا اهل مكر وجباية من الجهلة والاسافل ليكون لهم بهولاء القوم من الفائدة ما يكفى لسد مصاريفهم الباهظة وهكـذا كان هولاء النواب الخاسرون في حال وصولهم الى القضوات يتصدرون للمفـاسد لاستجلاب اموال العباد ويشتركون مع ارباب الظلمة فيظلمون عبـاد الله العاجزين

ويكونون سبباً لخراب البلاد

واما الباقون الذين اتهم ورقة الملازمة بالتقرب فهم فئة من الاسافل قد دخلوا في سلك القضاة بواسطة الشفاعة والانتساب والرشوة ودخل معهم ايضاً خدمة العلماء واتباعهم وهم قوم لا يعرفون يمينهم من يسارهم ولا قراءة اسمهم وقد امتلا دفتر القضاة بالذين لايجوز ان يتقلدوا قضاء بل لا يقدرون على اداء الشهادة على الوجه المشروع وهولاء يبيعون هذه الوظائف لغيرهم من الجهلة والاراذل الذين هم اكثر شناعة من النواب الذين توجهت عليهم المناصب لاجل ان يتعيشوا منها ولاجل ذلك دخل الاختلال الكلى على الامور الشرعية التى هى الامانة الكبرى

ودخول مثل هولاء الجهلاء والاسافل الذين هم على ما ذكرناه آنفاً في الطريقة العلمية نقص جاه العلماء ولم يبق لهم قدر ولا اعتبار عند الدولة ولا عند الناس حتى انهم كانوا يعزلون باشعار من جهة الملتزمين والجباة . واضطر من وجد بينهم من العلماء والصلحاء الى مداراة الظلمة للمحافظة على ناموسهم وشرفهم

والحاصل فباختلال نظام الملازمة اختل ايضاً نظام طريق القضاء وطريق التدريس وبعد ان كانت المناصب العلمية تعطى بالفعل لمن هم منوطين ومربوطين بخدمة العلم اصبحت بجملتها عبارة عن الرتبة والمقام . وعلى كل حال فلم يحصل في طريق التدريس ما حصل في طريق القضاء بل كان اهون حالا وذلك ان نظام المعارف في المدارس وان كان قد اختل فانه يعرف ولو بصورة رسمية واصول الامتحان للرؤوس والملازمة في مدرسة بايزيد لم تزل باقية

فالطلبة الذين يتقدمون للدخول في سلك التدريس كان يجب ان يكونوا من الذين ادوا امتحان الملازمة واثبتوا لياقتهم فمن كان منهم من اهل الدرجة العليا تعطى لهم الملازمة بمعنى انهم يلحقون رأساً بجماعة الملازمين ومن بقى منهم فانهم يقيدون في دفتر اهل المعارف في مدرسة بايزيد ويسكنون فيها على ما يقتضيه الامتحان ودرجاته وفي كل ستة اشهر يخرج منهم اثنان تعطى لهما اوراق الملازمة وكل من اقام سبعة اعوام يحق له ان يتقدم للامتحان لاخذ

الرؤوس فاذا ثبت استحقاقه نال رؤوس مدرسة الخارج التى هى المرحلة الاولى في طرق التدريس واول رتبة في مرقاة المدارس . اما الذين لا يلازمون سبعة اعوام فلا يجوز لهم ان يتقدموا الى امتحان الرؤوس واما التدريس في مدرسة بايزيد فقد كان منوطاً بحضرات مشايخ الاسلام الا انه عرض لهم اخيراً ما منعهم عن القيام بامر التدريس بالذات نظراً لمقتضى الوقت والحال فعهدوها الى وكلاء عنهم من كرام المدرسين القدماء الذين عرفوا بعلو المنزلة وسموّ الحيثية . ومن حيث ان هولاء المدرسين يكونون بمنزلة آمرين وضابطين لطلبة المدارس القانونية فقد اصبحت وكالة التدريس وظيفة مستقلة في باب الفتوى وصارت الدروس على العموم تؤدى في الجوامع الشريفة بصورة رسمية ووكلاء الدروس يذهبون في الاسبوع الى المدرسة المذكورة مرة واحدة لالقاء الدروس تبعاً لشرط الواقف وقياماً بالامر الرسمى ومع ذلك كان اجراء هذه الاصول بهذا المقدار على التمادي سبباً في حصول التشويق والرغبة في تحصيل العلوم

واما اصول هذا الامتحان على الوجه المشروح فقد كان مخصوصاً بطلبة العلوم الذين نشئوا في المدارس لا بتحصيل الرتبة المدرسية بالامتحان ولا بالتقدم في العلوم والمعارف باعتبار الطريقة العلمية وعندما كانت تعطى الرؤوس الى الذين استحقوها بالامتحان صاروا يعطونها باثناء ذلك لاولاد العلماء وعند الحاجة للذين يريد مشايخ الاسلام ملاطفتهم ولائمة السلطنة وروساء اطبائها عناية مخصوصة بهم واصبح ذلك عادة مستمرة . ومن حيث ان المدرسين كانوا ينالون بالتدريج رتبة قاضى عسكر والمولوية على الوجه السابق وهم لا يعلمون شيئاً ولا ينفعون لشيء أصبحت الرتب العلمية وسيلة لتعيشهم بلا تعب ودخل في طرق التدريس من لاقابلية لهم لتحصيل العلوم ولا استعداد لهم للاستخدام بخدمات الدولة من ابناء الكبراء وكذلك بعض الوكلاء والوزراء ايضاً كانوا يدخلون ابناءهم في هذه الطريقة العلمية بمجرد كون اهلها مصونين من القتل والمصادرة ولهذا السبب كثر الحائزون على رؤس التدريس وعنوان قدوة العلماء المحققين من ابناء الكبراء مع انهم لم يبلغوا اشدهم بل ولا الحلم بل ولا اقل من ذلك ولم يباشروا درس العلوم اصلا وبذلك

صار اكثرهم لا يجهد نفسه في تحصيل العلم فيبقى جاهلا غبياً . اما الذين ينالون رتبة المدرسين عند الامتحان لكونهم صرفوا عمرهم في المدارس وانحصرت دروسهم في الكتب المعتبرة من الفنون المرتبة فلم يبلغوا ارفع درجات المدارس وانما وقفوا في نصفها . واما الذين نالوا رتبة المولوية منهم وهم نادرون فلم يكن لهم المام ولا معرفة باحوال الملكية وامور الدولة. وجملة القول ان اولئك بالنظر لنيلهم رتبة التدريس مع صغر سنهم وهولاء لتأخر اخذهم لها نظراً لكبر سنهم ندر بين الصدور من هو اهل لحمل اسرار الدولة والوقوف على سياستها الخفية ومصالحها المهمة ليستفاد منه عند المشورة

فاصبح الوضع الاصلي للطريقة العلمية مختلا بحيث لم يبق الا الاسم والرسم فقط اما الاسم فصار مخالفاً للمسمى واما الرسم فاضحى مبايناً لاصول العلماء المستحسنة فصار هذا الامر سبباً لبدع شنيعة وهى استعمال سفلة القوم وجهلتهم الذين لا يقرأون ولا يكتبون كالملاحين والخدمة ﴿ الجوقدار ﴾ في منصب القضاء بل كان علة عظيمة لرواج البطالة والجهل بالطريق العلمية ولوقوع مضرات عظيمة لا تخطر في البال وذلك في امر احقاق حقوق العباد وهذا الامر قد استشعر بقبحه ولزوم اصلاح الخلل الواقع فيه ورؤى ذلك من اهم الامور غير ان ازالته دفعة واحدة والاعتناء بتوجيه المناصب لمن يستحقها مما لا يمكن فلذلك كانت المقاصد متوجهة للاصلاح بالتدريج

الفصل السادس

في فن الحرب

ان كل دولة وملة كانت تتخذ العساكر لاجل المحافظة على الملك . واستمر ذلك الى ان كان زمن فيليب والد الاسكندر الكبير فلم تكن حينئذ حركات العسكر واعماله في الحروب تحت قاعدة واصول معلومة . ثم ان فيليب وضع ابتداء للعساكر قاعدة ورتب منهم اربعين الفاً دربهم ونظمهم وهم الذين

سار بهم ابنه الاسكندر من اليونان وفتح الممالك حتى بلغ الهند وبهذه الصورة ظهر عند اليونان علم يعرف بفن الحرب وانتشر الى جميع الدول الذين اقتبسوه عنهم وبسطوة هذا العلم تغلب الرومانيون على كثير من الممالك حتى اوشكوا ان يستولوا على جميع العالم. الا ان لعسكر كل زمان قواعد ونظامات في الحرب يجب ان تكون الاسلحة على مقتضاها وهذه القواعد الحربية ما برحت حتى الان تتقلب على صور شتى فان سلاح الرومانيين واليونانيين انما هو السيف والرمح والقوس والمقلاع وهذه القواعد لا تنطبق على قواعد هذه الايام ومع ذلك فانهم اكتسبوا في علم الحرب شهرة كلية بواسطة ذلك السلاح الذي كانوا يستعملونه. وكان العرب يحاربون على اصول الكر والفر. وفي زمن النبوة كان الصحابة الكرام يحاربون صفوفاً وتقدموا كثيرا في فن الحرب وفي وقت قليل مهر منهم امراء عسكريون مهارة كلية تغلبوا بها على اقطار الدنيا. وكثر الاعتناء عند الدول الاسلامية بامر التنظيم العسكري ووضع الامثلة للتعليم الا انهم كانوا يعتبرون الخيالة اكثر مما عداهم ولهذا السبب ظهرت جنود ماهرة جدا خصوصاً مماليك مصر وهم (كوله من) فانهم كانوا يعدون في المنزلة الاولى بين فرسان الدنيا

وعلى نحو ما ذكر آنفاً اعتنت الدولة العلية بامر الخيالة ورتبت لهم وجاقات منتظمة واهتمت بشأن العساكر الرجالة اهتماما خارقا للعادة

وبعد انقراض الرومانيين تغيرت احوال اوربا وصرف النظر فيها عن المحافظة على العساكر الدائمة التى كانت تجرى عليهم المرتبات المعينة شهريا واعطى القرار بجمع العساكر المتطوعة اثناء الحاجة لمدة وقتية فاختل علم الحرب اختلالا لا مزيد عليه. وكان رعاع الناس لذلك العهد كالاسرى للاعيان وكانت اسلحة الاعيان الرمح والدرع وكانوا يقتنون الخيل وكانت اسلحة الجموع الكثيرة التى يسوقونها الى الحرب هى المقلاع والقوس ولا خيول لهم ولا شك ان عساكر مشاة كهذه لا ترتيب لها ولا نظام لا تقوى على الثبات في مقابلة الخيالة من العدو فلذلك كان الغلب لمن كانت فرسانه اكثر عدداً وكان الناس الذين لا يعلمون قواعد الحرب يظنون ان النصرة لا تكون الا للخيالة ولهذا كانوا يكثرون الفرسان ويجعلون المشاة كانها لا فائدة لها زاعمين بان

اصل القوة العسكرية انحصرت في الفرسان فقط واستمر الحال مدة على هذا المنوال الى ان تغيرت احوال اروبا نوعا ما ففي الابتداء نظمت فرنسا ستة عشر الف عسكري مشاة وتسعة الاف خيالة برواتب شهرية اول سنة ستين وثمانمائة هجرية قلدوا الرماح لاكثر المشاة وجعلتهم قسما مثقلا ولباقيهم القوس والمقلاع وجعلتهم قسما خفيفاً وكانوا يرتبون العسكر في الحرب فيجعلون صفوف العساكر التى تحمل الرماح ثمانية صفوف واقلها ستة امام العدو واما العساكر المشاة الخفيفة الذين يحملون المقلاع والقوس يجعلون قسما منهم يناوشون العدو من جوانبه واما الفرسان فانهم يسلحونهم بالرماح والدروع ويستعملونهم عند الاقتضا في وظايف الفرسان اولي الصنف المثقل

ثم اخذ ملوك اروبا رويدا رويداً يرتبون الجنود المنظمة في سائر الجهات على هذا الترتيب المذكور وانما كانوا يعتنون بالخيالة اكثر من المشاة وذلك لان كثيراً منهم فضلا عن كونهم لم يعترفوا ولم يسلموا ان المشاة انفع في الحرب من الخيالة بل ان الخيالة تفوق وتغلب المشاة وهذا زعم قديم فيهم فلذلك كانوا يجعلون عدد الخيالة اكثر من المشاة . نعم لا ينكر نفع الخيالة في حالة الصدام اذا التقوا بالمشاة الا انهم لا يقومون بغير اعمال كالمراقبة في الجهات اللازمة والاطلاع على امور العدو وتعقبه بوجه السرعة وذلك لثقلهم وثقل خيولهم بالدروع وسائر الاشياء الثقيلة ثم تبين لهم ذلك فرتبوا خيالة في غاية الخفة لا يحملون سوى السيف والقوس للقيام بالامور المذكورة آنفاً

وقد أحدثت المدافع قرب سنة ثمانين وسبعمائة غير انها لم تستعمل الا في حالة الحصار الى سنة ثمانمائة ثم صاروا يستعملونها في الحروب . ولما بعثت فرنسا عسكرها الى ايطاليا عدة مرات جهزتها بالمدافع الكثيرة

وفي سنة ٩١٠ صنعت بنادق خفيفة وصغيرة على شكل مدافع لتحمل باليد وهى على صورة تقرب من البنادق الموجودة الان واعطى قسم من هذه البنادق الى العساكر المشاة الخفاف واستخدموا في الحرب مع العساكر الذين يحملون القوس والمقلاع وبالنظر الى ظهور فوائد هذه البنادق اهمل استعمال القوس والمقلاع واعطيت هذه البنادق لكل فرد من المشاة فصار

العسكر يحمل الرمح والبندقية ولم يبق غير سلاح

وهؤلاء المشاة الخفاف من العسكر كانوا يرسلون لمناوشة العدو غير انه بسبب تكاثر البنادق اصبحت العساكر المشاة الثقال الذين لا يحملون سوى المزراق غير قادرين على الثبات امام العدو مع كونهم يقاسون اشد مصاعب الحروب فاوجبت الحال اعطاء قسم منهم من هذه البنادق فتقرر ان يكون الصفان اللذان من شأنهما التقدم امام الصفوف في الحرب وهما من ذوي البنادق وان الصفوف الثلاثة او الاربعة التى هى قائمة من وراء الصفين المذكورين ان يكونوا من ذوي الرماح وبهذه الوسيلة اصبح العسكر المسلح بالبنادق حمى لذوي الرماح. وعسكر الرماح حمى لذوي البنادق من حيث ان الرمح يزيد بالطول على البندقية ومع انه كان في معتقدهم ان هذا النظام قد بلغ منتهى درجات الكمال لم يلبثوا ان رأوا من الصواب ان يرتبوا العساكر الرماحة خمسة او ستة صفوف ويقيموا ذوي البنادق على جوانبهم . وفى قرب سنة عشر ومائة والف اخترعوا الحربة ﴿ السونكو ﴾ فرفعوا الرماح من ايدي العساكر والرجالة والخيالة واعطوا لذوي الرماح بندقية ذات حربة ولذوي البنادق حربة ليس الا. اما العساكر فقد كانت بداءة ذي بدء مؤلفة من اربعة صفوف على انهم رأوا بعد مدة ان لا فائدة للصف الرابع منها فابطلوه وابقوا الجنود مؤلفة من ثلاثة صنوف ثم لما صار سلاح المشاة سواء كان من اهل الثقل او الخفة في حالة متحدة جعلوا طرق التعليم لهم واحدة ايضاً واخذوا يستعملون كل صنف منهم بحسب اللزوم فتارة ينتظمون صفوفا وآونة يتفرقون طلايع في مراكز الحرب لمناوشة العدو ولم يبق بين الجنود الثقيلة والخفيفة تباين الا باللفظ فقط وكانت نظامات العساكر واسلحتها في ذلك الوقت تقارب ما هى عليه الان غير ان الاصول والقواعد الحربية القديمة لا تذكر بالنسبة الى ما صارت اليه الان من تجديد هذا الفن وظهور فائدته في بعض حروب اروبا

واما كيفية التعليم فان ﴿ مونته قوقولي ﴾ احد قادة جنود النمسا لما شاهد انتظام المعسكرات الشاهانية قال ان عساكر دولة النمسا ان لم تنتظم عسكرها على طريقة عساكر الدولة العلية التى لا شغل لها الا تعلم الفنون الحربية

والادمان على استكمال اهبة الحرب فلا يمكن ان تثبت امامها وذلك ان عسكر النمسا بالنسبة لعسكر الدولة العلية من قبيل عسكر النفر العام ثم انه رتب قسما من العساكر ودربهم ونظمهم وكتب كتاباً في فن الحرب ذكر فيه وقائع النمسا مع الدولة العلية وحوادثها وعدد الملاحم كلا في زمانها ومكانها وحرر اسماء روساء عساكرها ورسومهم وكميات الجنود وكيفيات حركاتها في معامع الحرب واحوال الكتائب وانتظامها وسرعة انقيادها الى روسائها ثم اظهر التحسر والتأوه وقال ان تلك العساكر المنظمة لا تقابل ثم رمى بالسفه والحمق كل من يدعى مكافحة عساكر الدولة العلية سواء كانوا من اهل بلاده او من سائر الدول . ثم نبه دولته الى تقليد نظام العساكر العثمانية ثم ذكر اثباتاً لمدعاه انه درب قسما من العسكر وادعى انه في سنة ١٠٧٠ هزم فرقة من عساكر احمد باشا الفاضل بن كوبريلي عند نهر رابه ثم عقد المصالحة هناك الى غير ذلك من التفاخر والمباهاة والدعوى التي لا طائل تحتها

والحق يقال ان غلبة (مونته قوقولي) هذه لم تكن ناشئة عن قوة انتظام عساكره بل سببها اختلال نظام العساكر العثمانية وكان ذلك الوقت مبدا اختلال العساكر العثمانية فان القائد مونته قوقولي قد حصل منتهى كمال انتظام الانكشارية ومبدا زوال نظامهم ويوجد فرق بين العساكر التي هزمها في هذه المرة والعساكر العثمانية التي رآها وعرفها قبل ذلك على اول ظهوره فيهم بعد ان بلغ نهاية الكمال فالفرق الذي رآه بين العساكر العثمانية التي ذكر انه هزمها في هذه المرة والعساكر التي راها وعرفها من قبل كان ظاهراً للعيان .

ثم ظهر البرنس (اوترن) وبذل سعيه في اتمام تعليم العساكر وفي ذلك الوقت ظهر في فرنسا ايضاً رجال اشتهروا في فن الحرب مثل (فونده) و (تورن) و (ووبان) فصرفوا هممهم في ترتيب القواعد الحربية وبذلك صارت اصول الحرب فناً عظيما وصناعة كبيرة شاعت في اروبا على قاعدة قولهم (تتزايد العلوم بتلاحق الافكار) ولما اطرد البروتستانيون من فرنسا تفرق الماهرون في هذه الفنون والصنائع الى الاطراف فجلب في ذلك الاوان

﴿ فره دريق كليوم ﴾ الذي استولى اذ ذاك على ملك بروسيا اكثرهم فصارت بروسيا في ايامه منبع المعارف والصنائع وعرف ابنه فره دريق الثاني وهو الرجل المشهور باسم ﴿ بيوك فره دريق ﴾ لكونه تربى بين اصحاب هذه العلوم وصار استاذاً للجميع في فنون الحرب واطلع على دقائق كثيرة في تفاريعها ومهر في ترتيب سوق الجيش وتعبئته فلهذه الاسباب ترقى علم الحرب في ايامه ترقياً تاماً ورتب صف المدفعيين من الخيالة

وبعد سنة الف ومائتين من الهجرة ازداد الترقى في هذا العلم شيئاً فشيئاً ولا سيما في اثناء ظهور نابليون بونابرت فانه اظهر اسرار هذا الفن الى العالم واوصل نظام العساكر الى الدرجات التى تراها في عصرنا

ومع كثرة التجارب اخذ فن الحرب في الترقى يوماً فيوماً. حتى اخترعت في عهد قريب البنادق المسدسة الزوايا ورتبت كتائب مستقلة من الجند حملت تلك البنادق والمشاة ساروا خفافا وفي محاربة روسيا سنة الف ومائتين وسبعين هجرية شوهدت له محسنات كثيرة. ولم يكن قبل ذلك فرق بين المشاة الخفاف والثقال من العساكر الا قليلا فلما وضعت التنظيمات الجديدة حصل فرق اساسى من جهة الاسلحة وعلى التعاقب صار ابطال البنادق القديمة واستعيض عنها بالبنادق المسدسة الزوايا

فانقسم لذلك علم الحرب الى فنين جرى الاعتناء بهما حتى صارا صناعة عظيمة وهما فن سوق الجيش وفن التعبئة واضحى من الفروض على اركان المعسكرات ورؤسائها انهم بعد ما يحصلون مقدمات العلوم يتقنون هذه الفنون

وفن سوق الجيش هو عبارة عن انتخاب المواقع المهمة في وقت الحرب سواء كانت للدفاع او للهجوم وأما فن تعبئة الجيش فهو اجراء التدابير والاعمال التى يترتب عليها الظفر عند المصادمة

وكان قادة الدولة العلية وسردارها اي ﴿ قائد قوادها ﴾ يتقنون فن الحرب عملا وتجربة كما ذكرناه سابقاً. فمن ذلك انه لما توجه قيصر روسيا بطرس ﴿ بترو ﴾ من بغدان الى الطونه خرج عليه محمد باشا البالطه جي وسبقه من طريق بسارابيا ليقطع عنه خط رجوعه فاستولى على مجاز نهر فالجى

وهي مكيدة حربية جميلة جداً موافقة لفن سوق الجيش ثم بعد ذلك هزم عسكر الروس الذين وقفوا لسد طريقه وقطع الماء وهجم واقتحم المعسكر الروسي بغتة وابرز بذلك مهارة عجيبة في فن تعبئته الجيش ايضاً. ومن ذلك ايضاً ان تقدير اهمية موقع شمنى واتخاذه أساً للحركات الحربية سنة اثنين وثمانين كان مطابقاً لفن سوق الجيش كما ان احكام مواقع الدفاع في ذلك الوقت كان موافقاً ايضاً لفن تعبئة الجيش

ولما انقسمت في آخر الامر القواعد الحربية الشبيهة بهذه الحركات الى فنين مهمين وصارت علماً كبيراً تحت اسم فن الحرب كان يلزم في تحصيلهما الوقوف اولاً على فنون عديدة فاصبح امراء العساكر ورؤساؤها عاجزين عن قيادة المعسكرات المنظمة على اصول اوربا ما داموا لم يقفوا على الفنون المذكورة ويتقنوها عملا ونظراً وكلما كان فن الحرب يتقدم في اوربا على الوجه المشروح كان نظام الجنود العثمانية الذي كانت تشهد به الاعداء ﴿والفضل ما شهدت به الاعداء﴾ يختل شيئاً فشيئاً . وبعد سنة الف ومائة تحقق ان الاستمرار على الحرب موجب لخسارة الاسلام وسقوطها في اشراك الاخطار فاهملت الدولة لذلك شأن المحاربات جانحة الى السلم والمصافاة وحسن معاملة الدول فكان اهمالها لشأن المحاربات مدة مديدة باعثاً على ضعف القوى العسكرية لعدم ممارسة الفنون الحربية فخسرت الدولة في الغزوات خسائر كلية ومن تلك الاحوال كان الروسيون اكثر علماً

وكان البحث في امر تنظيم الجنود الشاهانية الذي تحتاج اليه الدولة العلية جارياً منذ ايام السلطان احمد الثالث ولاسيما في عصر حضرة السلطان مصطفى الثالث فانه اهتم بذلك اهتماماً عظيماً الا ان خوفه من الانكشارية كان مانعاً له من المذاكرة به بكمال الحرية

وكذلك كان السلطان مصطفى المشار اليه حريصاً على جمع الاموال فكان منصب الدفتردارية ذا اهمية في زمانه حتى انه كان يشاور اهل هذا المنصب في جميع الامور فقال ذات يوم للدفتردار حليم افندي ﴿ اذا نحن لم ننظم العساكر حسب التنظيمات الجديدة فلا نقدر على مقاومة اوربا فما العمل حينئذ ﴾ فقال ﴿ فلندخل الانكشارية تحت النظام ﴾ فقال السلطان ﴿ وهل يقبلون النظام

قال نعم فقال (وهل تتعهد انت بذلك) قال (نعم) غير متردد فاوقع هذا الكلام عليه الشبهة وتصور حضرة السلطان ان حليم افندي لو لم يكن له مداخلة مع الانكشارية لما تجرأ على هذا الجواب القطعي واتهمه انه يكشف هذا السر لهم فابعد عن الاستانة خوفاً منهم في صورة متصرف على الموصل فلما كان في الطريق نفاه ثم اعدمه

وقد روى بعض الثقاة عن احد ندماء حالت افندي الذي كان من مشاهير رجال السلطان محمود خان الثاني انه قال له ليتكم تجعلون لكم يداً مع الانكشارية فقص عليه حالت افندي ما جرى على حليم افندي وقال له اخاف ان يجرى عليّ ما جرى عليه

اما حليم افندي فلم يكن ذا المام بالامور العسكرية بل كان من اصحاب الدفاتر واخذ الانكشارية تحت النظام لا يغيرهم عن انكشاريتهم القديمة ولا يدخلهم في حيز الطاعة كما هو المطلوب . وكان ترتيب العسكر الجديد وانتظامه موقوفاً على استجلاب معلمين ومهندسين من اوربا . وكان اكثر الرجال لم يكن لهم المام بالامور السياسية لحل مشكلات العصر وبعضهم كان يأبى دخول الاوربيين الى الممالك المحروسة حتى ان رسمي احمد افندي لما عاد من سفارة بروسيا ابان ايضاً الى يوسف افندي المشهور بين رجال السلطان مصطفى الثالث اموراً شتى اثناء بحثهما في مدنية اوربا واظهر له ايضاً محسنات المحاجر الصحية فاجابه يوسف افندي بقوله ظننتك ذا فكر ثاقب تفتكر في مستقبل الامور فاذا بك لم تلاحظ ان عدم مجيء الاوربيين بكثرة الى هذه الجهات هو ناشيء عن خوفهم من العلل الوبائية فاذا ضربنا المحاجر المذكورة يتواردون الينا فكيف نسوسهم او ندبر امورهم لا جرم ان هنا محل تأمل . والا نحن ايضاً نعلم ما ينشأ من المحسنات عن ضرب المحاجر

والحاصل ان الدولة كانت تريد تنظيم عسكرها في ذلك الوقت ولكنها لم تدر باي طريقة يجب السعي في تنظيمه . وبينما كانت الحال على هذا المنوال صارت في سنة ١١٨٢ حرب خسرت فيها الدولة خسائر عظيمة وذلك بسبب هيجان المغفلين من اركان الدولة وغيرتهم الصادرة عن جهل

حيث انهم كانوا يجهلون الاسباب التى يتوقف عليها امر الحرب

وهذه المحاربة كانت للدولة بمثابة بحث كبير ادرك بها كل العالم شدة الحاجة الى ترتيب العساكر المعلمة ومع ذلك لم يجر شيء منه سوى ان حضرة السلطان مصطفى الثالث سعى في اجراء بعض اصلاحات في معمل المدافع فادركته المنية اثناء ذلك . ويروى ان السلطان عبد الحميد الذي تولى السلطنة بعده نظراً لضعفه وشيخوخته قال لبعض حاشيته قبل وفاته انه غير قادر على ترتيب نظام العسكر الجديد الذي هو على الدولة فرض عين . واظهر انه يتمنى ان ابنه السلطان سليم يجلس على سرير السلطنة وبالجملة لم يظهر شيء يدل على التشبثات الفعلية الى حين جلوس السلطان سليم . ولا ننكر ان حميد باشا الصدر الاعظم في زمن حضرة السلطان عبد الحميد خان تعاطى بعض اصلاحات في دار الصناعة ومعمل المدافع غير ان آراء ذوي التعصب قد تغلبت عليه على حين كان المقربون من السلطنة يظنون ان اظهار الميل الى النظام الجديد يحمل على اتباع سياسة السلطان مصطفى تقرباً الى ابنه السلطان سليم فكانوا يخافون من المذاكرة في الامر فاخذ اعداء حميد باشا يبثون الدسائس حتى تمكنوا من سلب ثقة السلطان به

الفصل السابع

في الامور البحرية

كانت الفلك منذ القديم تسير بالمجاذيف فصنعت سفن كبيرة تسيرها ثلاثة ازواج او خمسة من المجاذيف واخترعت الدفات والشراع وصار فن البحرية يتقدم بالتدريج وكان الناس من قبل يسيرون المراكب على شاطىء البحار فقط لكونهم غير قادرين على الخوض في عباب البحور فلما ظهر الصوريون والفينيقيون وكشفوا من العلوم الرياضية اسراراً متنوعة واخترعوا فنوناً شتى خاضوا في البحار وساروا الى ارض اليونان وخليج سبتة وفي رواية وصلوا الى اماكن ابعد من هذه قصد التجارة حتى ان سائر الملل كانوا ينظرون الى افعالهم فيزعمون انهم سحرة او كهنة وذلك باعتبار

احوالهم وحركاتهم

وكان المسلمون الى خلافة سيدنا عمر الفاروق رضى الله عنه لم يسافروا في البحر وعندما فتح عمرو بن العاص مصر كتب اليه سيدنا عمر الفاروق وامره ان يصف له البحر فاجابه عمرو بن العاص رضى الله عنه بقوله ﴿ يا امير المؤمنين ان البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف فهم فيه كدود على عود ﴾ فمنع سيدنا عمرو ركوب البحر صيانة للامة المحمدية وامتنعت قريش وسائر القبائل من ركوبه . غير ان اهل مصر وسائر التجار المختلفى الملل والنحل في الممالك المصرية كانوا يالفون ركوب البحر لدواعى التجارة والحرب . وفي زمان الدول السالفة كانوا يصرفون اعمارهم في الاسفار البحرية حتى صارت حرفة نافعة لهم يتوارثونها اباً عن جد مدمنين عليها وكانت سفنهم تتردد بين اسكندرية ورشيد ودمياط وسائر السواحل وكانوا يسافرون من خليج السويس الى اطراف اليمن والهند لا يفترون عن الاتجار وكانوا يرغبون رؤساء قبائل العرب في سواحل مصر كزناته والمغاربة في الغزو والتجارة البحرية وكان الصحابة الذين أتوا مع عمرو بن العاص رضى الله عنهم ومن تبعهم من العربان قد امتثلوا امر سيدنا الفاروق وقبلوا نصيحته فلم يتجرأوا على مخالفته في بدء الامر ولكن قيل ان عرفجه بن هرثمه الازدي شيخ النخيلة الذي كان قابضاً على زمام القوة من المال والرجال وحاكم مسكت قالا انه ليس من الصواب منع الاسلام عن الغزو والجهاد واكتساب المنافع في البحر وخالفا نصح الفاروق وركبا السفن وسارا للغزو في بحر عمان وسائر الجزائر والسواحل فلما بلغ امرهما سيدنا عمر الفاروق كتب الى سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنهما كتاباً يسأله فيه زجر عرفجه ومؤاخذته ولا يخفى انه ليس من الحزم ان العرب الذين هم عنصر الاسلام الاصلي ان يركبوا السفن ويتفرقوا في البلاد ويتباعدوا عن مركز الخلافة قبل ان يتمكنوا في البلاد التى دخلت في حوزتهم وسخرها الله لهم . ثم ان اكابر المسلمين اشتركوا مع الاغنياء من اصحاب السفن المصرية وصاروا يركبونها تارة للغزو وتارة للتجارة فلما بلغ ذلك حضرة سيدنا عمر رضى الله عنه تركهم وشأنهم ولم يشدد عليهم الاوامر بالمنع وبقى المسلمون يتجرون ويغزون

في سفن صغيرة الى حين زمان معاويه رضى الله عنه . وكان اكثر رؤساء تلك السفن وخدمتها من النصارى الماهرين في فن الحرب فكان المسلمون يستخدمونهم باجور كثيرة . وكان المسلمون اذ ذاك ليس لهم المام بركوب البحر ومتعلقاته . وفي زمن معاويه لما عين عمرو بن العاص والياً على مصر مرة ثانية اذن للمسلمين اذناً عاماً في الغزو بحراً بامر معاويه ﴿ رضى الله عنهما ﴾ وقد وجه العلماء المحققون منع سيدنا عمر ركوب العرب في البحر بانه قصد به الشفقة عليهم والصيانة لهم من الغرق لعلمه انهم يجهلون امر البحر وما يتعلق به وحينما تمرنوا على ركوبه وتعلموا ما يلزمهم في ذلك من التفاريع سكت عنهم على سبيل المسامحة ثم لما كملت معرفتهم بهذا الفن اذن لهم اذناً عاماً في الغزو والجهاد بحراً

وبعد صدور الاذن العام على الوجه السابق صنع غزاة المسلمين سفناً مناسبة واستأجروا رؤساء من النصارى عارفين باحوال الرياح فصاروا يسافرون في البحر تارة بالادوات والآلات الحربية للغزو واخرى بالبضائع للتجارة . حتى ان امير مصر عقبة بن عامر غزا جزيرة رودس واخذ منها غنائم كثيرة . وروي عن الامام الواقدي في تاريخ الخميس ان حضرة معاويه غزا قبرص فى سنة ٤٨ هجرية وقد ذكر في تاريخ واصف ان عبد الملك بن مروان في ايام سلطنته ارسل امراً الى حسان بن نعمان عامله على افريقيا بان يبنى داراً للصناعة في تونس وذلك لانشاء السفن المتنوعة فكانت تلك الدار اول دار بنيت لانشاء السفن في الملة الاسلامية والان يطلق في التركية على دار صناعة السفن ﴿ ترسانه ﴾ فهذه الكلمة محرفة عن دار الصناعة . وقد صنع في دار الصناعة اكثر من خمسمائة سفينة خفيفة المؤنه تشابه ﴿ الفرقته ﴾ فلما تهيأت بعد ذلك تلك السفن كان اذ ذاك زيادة بن ابرهيم اميراً حوالي تونس وتولى عطا بن رافع امارة هذا الاسطول فتوجه به وفتح جزيرة صقليه العظيمة التى نسميها الان سيسيليا . وفي سنة ٩١ للهجرة توجه طارق بن زياد مأموراً من جانب موسى بن نصير حاكم افريقيا لغزو بلاد الاندلس فافتتحها ثم افتتح جزيرة سردينيا . وفي سنة ٩٢ خرج طارق بن زياد المذكور ايضاً قائداً واميراً لاسطول عظيم من خليج سبته

الى بحر الاوقيانوس وحارب الاسبانيول مدة وظفر بفتوحات عظيمة وكان هذا الاسطول اول اسطول للاسلام خرج من مضيق سبته وقد سمى هذا المضيق جبل طارق نسبة لاميره . وفي ذلك الوقت كان آل غوت يحكمون في الاندلس فكان الاسبانيول رعايا لهم وكان كرسى مملكتهم طايطلة وكان اغنياء اسبانيا يوقفون اموالاً كثيرة ونفائس ثمينة كما كان يفعل الاوربيون فشيدوا اديرة عظيمة وعمروا في طليطلة ديراً كبيراً جداً ملئوه بالاموال والتحف الثمينة . وقال بعض نقلة الاخبار الضعيفة انه كان في طليطلة بيت للحكمة والحال ان ذلك البيت هو نفس الدير المذكور لان اسبانيا كانت وقتئذ لا علم عند اهلها ولا حكمة ولا ندري باي سبب توصل الرهبان الى النفوذ واظهار القدرة في تلك الجهات حتى بلغ من امرهم انهم كادوا يدعون الاستقلال في بعض المدن ولما اتصل الملك بالملك رودريق من آل غوت جلس على كرسى المملكة وكان شاباً شجاعاً ذا حمية فلم يصبر على بلوغ نفوذ الرهبان الى هذا الحد فهجم على الدير المذكور وامر بنهبه فنفر منه الكبراء وبعض الاهالي وبعد ذلك اغتصب بنت السردار جوليانوس محافظ الطرف الجنوبي من الاندلس فبات هذا ايضاً عدواً لدوداً له فدعا العرب الى اطراف الاندلس انتقاماً منه بسبب حقده عليه وباتت بلاد اسبانيا عرضة للاستيلاء وكان الاسلام يومئذ في عنفوان شبابه وابان نفوذه وشوكته فلما وطأ المسلمون تلك الاراضى استولوا عليها فى مدة قليلة وغنموا غنائم كثيرة ولاسيما الاموال والاشياء الثمينة التى كانت في طليطلة عند الفتح مما لا يحصى عدده وهذه الفتوحات العظيمة لم تتيسر الا بالقوة البحرية . وبعد ان احرز غزاة المسلمين استعدادات بحرية قوية على ما ذكرناه صاروا يخرجون فى اساطيلهم في كل سنة من اطراف افريقيا وتونس ومصر وتغلبوا على كثير من ممالك الافرنج في جزائر البحر والسواحل وفتحوها فنالوا الظفر والفتوحات الكثيرة وكان اسطول الاندلس يشتمل على مائتى سفينة واسطول افريقيا على مائة وخمسين سفينة وكانت الحرب بين اساطيل الاسلام واساطيل النصارى سجالاً وكان كل منهم يستولي على بلاد الاخر . وكانت الحروب البحرية دائمة بلا انقطاع

ولما وجدت البوصلة (الابرة) ترقى فن البحر كثيراً . فابتدأ العرب بالسفر الى الهند وسائر السواحل والجزائر البعيدة اما الاوربيون فكانوا يسافرون الى الاوقيانوس (البحر المحيط) حتى تمكنوا من الاكتشاف على اميركا وغيرها من الجزائر العديدة . وكان السفر من اوربا الى الهند في طريق (اميدبروني) رأس الرجا الصالح

ولما احتاجت تجارة الدول والامم القاطنون في السواحل البحرية الى ركوب السفن والسفر في البحار اشتغلوا في فن انشاء السفن والملاحة وحصلوا فيهما مهارة عظيمة وترقت الصناعة البحرية شيئاً فشيئاً وكلما كانت تترقى الصنائع والفنون كان حجم السفن يزداد اتساعاً وكبراً حتى صنع منها ما هو كبير جداً كما هو مشهور فى عصرنا من النوع المسمى (قياق) (واوج ايبارلى) ثم وجدت البواخر والمدرعات فانقلبت احوال البحر والتجارة انقلاباً تاماً ودخلت معاملات الدول والامم وروابط الدنيا في دور جديد

وفي اوائل نشأة الدولة العلية لم تنصرف الهمم الى الاعتناء بامور التجارة لان اكثر الحروب كان جارياً في البر الا ان سليمان باشا بن السلطان اورخان الغازي اجتاز البحر في جهة كليبولي في صنادل الروم وبعد ما ضبطها استولى عليها وعلى عدة اماكن في بلاد الروم ايلي وضمها الى الممالك المحروسة وانشأ عدة صنادل في مجاز كليبولي . ولما كان حصار الاستانة لا يمكن الا من جهة البحر انشئت سفن كافية للهجوم عليها غير ان العدو مد سلسلة غليظة من الحديد بين غلطه واستامبول فمنع السفن ان تصل الى مرساها وفي رواية ان سليمان بك بن بالطه انشأ سفناً وانزلها من سورليجه وفي رواية اخرى انه انزلها من وراء حصار الروم ايلي الى المرسى المسمى (طوله بقجه) جرها بتدابير عجيبة دبرها المهرة من العارفين بفن جر الاثقال وذلك أنهم جعلوا تحتها الواحاً دهنوها بالشحم ثم دحرجوها عليها فتدحرجت بسهولة الى البحر وعندما تمكنت في مواضعها منه وضعوا فيها متاريس وهاجموا الاستانة وفتحوها بهذا التدبير العجيب وكان اول من عينته الدولة العلية اميراً للبحر سليمان بك بن بالطه المومأ اليه والمرسى المشهور في الجهة الثانية من حصار روم ايلي نسب اليه وسمى باسمه . وبعد فتح الاستانة جرى

الاهتمام في امور الترسانة ﴿ دار الصناعة ﴾ فانشئت في مدة قليلة سفن عديدة كافية لتهديد البندقيين الذين كانوا يعتبرون البحر الابيض انه ملك لهم وفي زمان الفاتح فتحت قلاع وبقاع عديدة بواسطة القوة البحرية فتقدمت الدولة العلية بهذه القوة وانتقت لها رؤساء مهرة من جملتهم الرئيس كمال الذي اشتهرت لياقته واهليته عند الاصدقاء والاعداء وفي عصر السلطان بايزيد الثاني سنة ثمانمائة واثنين وتسعين هجرية قام الاسبانيول على المسلمين في الاندلس وجزيرة سيسيليا فارسل ملك آل الاحمر حاكم تلك البلاد قصيدة غراء شكا بها للدولة العلية قيام الاسبانيول في البلاد والتمس فيها النجدة والامداد لانقاذها من ايدي الاعداء فجهز السلطان عدة سفن بقيادة الرئيس كمال الدين المذكور مدداً له غير انه وقتئذ قامت الحروب البحرية في بلاد الارناؤط واطراف المورة فحال ذلك دون اغاثة اهل الاندلس

وفي ذلك العصر شرع في انشاء عدة سفن كبيرة وروى كاتب جلبي عن بعض تواريخ اللاتين ان احد ملوك اوربا المسمى الفونس صنع مركباً يسع اربعة آلاف ﴿ طن ﴾ وسق وصنع مركبين آخرين له لم يتقدم مثلهما ابداً غير انه لم يستعملهما لان احدهما لطم الاخر في المرسى فتعطلا. وشرع حينئذ البندقيون ايضاً في انشاء السفن الكبيرة . وصنع ايضاً محمد خان الفاتح مركباً يسع ثلاثة آلاف ﴿ طن ﴾ وسق ولكنه غرق في المينا عند انزاله الى البحر

والطن بمعنى برميل ونحن نستعمله في لساننا بمعنى كيل قياساً لصغر السفن وكبرها والاوربيون يستعملونه لتعيين حجم السفن ويعتبرون الطن الواحد عبارة عن ٣٦ كيل غير ان هذا الاعتبار مقيد بانواع السفن المسماة ﴿ قليون ﴾ واننا وان كنا في عصرنا هذا نعتبر ﴿ قليون ﴾ من السفن ذات الطبقات الثلاث ومن القبق الا ان نوع القليون في الاصل هو السفن الكبيرة التى لا تستعمل الا بالشراع وله انواع عديدة مثل قراقه وبارجه وبوليقه. اما القراقه فهو القليون الكبير الذي كان الاسبانيول يستعملونه كثيراً وكان اكثر السفن الحربية عند سائر الدول من نوع بارجه . اما نوع ﴿ جكديرر ﴾ فانه يستعمل بالشراع وبالمجاذيف ايضاً . وله اقسام عديدة والقياس فيها ﴿ اوتوراق ﴾ مقعد فالذي هو من عشرة مقاعد الى سبعة عشر يقال له

﴿ فرقته ﴾ وهي التي يجر في كل مجذاف منها اثنين او ثلاثة من الرجال وان كانت من ثمانية عشر الى تسعة عشر مقاعد يقال لها ﴿ بركنده ﴾ ومن تسعة عشر الى اربعة وعشرين ﴿ قاليته ﴾ وان كانت ذات خمسة وعشرين مقعد يقال لها ﴿ قدرغه ﴾ وهي التي يجذف في كل من مجاذيفها اربعة رجال . وان كانت من ستة وعشرين مقعد الى ستة وثلاثين مقعد يقال لها ﴿ باشترده ﴾ وهي التي يجذف في كل من مجاذيفها خمسة او ستة رجال واذا كانت السفينة عريضة وعالية يقال لها ﴿ ماونة ﴾ وان كانت السفينة ذات طبقتين وكان اسفلها من نوع الماونة واعلاها من نوع قليون فتسمى ﴿ كوكا ﴾ ونوع قدرغه يجب ان يكون طوله من المقدم الى المؤخر ٥٥ ذراعاً وعرض باب العنبر ٢٠ شبراً وعلو مؤخره ١٨ شبراً وعلو مقدمه ١١ شبراً وعلو وسطه ستة اشبار واصبعاً واحداً ويجب ان يكون في كل قدرغه رئيس ماهر وخريت بارع ينظران في الخريتة والابرة . واذا وجد فيها ٢٠ زجلاً من الذين ينشرون الشراعات ويطوونها يتعين لهم رجل للنظر في حاجاتهم . واما نوتيتها فانهم يبلغون اكثر من ٣٠ نفساً منهم من يتولى امر الدفة ومنهم من يتولى امر الشراع ومنهم النجارون والمصلحون والمرفتون الخ . وزد على ذلك ان في كل قدرغه ٥٠ محلاً للمجاذيف على الجانبين يقوم فى كل منها ٤ جذافون وقد خص واحد منهم للطبخ . ويبلغ عدد الجذافين ١٩٦ نفساً فضلاً عن وجود مائة مقاتل فيها ويكون عددهم جميعاً فى كل منها ٣٣٠ نفساً . ثم ان السفن المعروفة ﴿ بباشترده ﴾ يكون في كل جهة منها ٢٦ محلاً للتجذيف وطولها ٥٧ ذراعاً وعدد انفسها يكون بالنسبة اليها واما السفن المسماة ﴿ باشا باشترده سى ﴾ فيكون طولها من ٧٠ الى ٧٢ ذراعاً وعدد محلات التجذيف فيها ٣٦ ويقف على كل مجذاف سبعة اشخاص ويبلغ عذد من فيها نحواً من ٨٠٠ شخص والماونة التي طولها ٦٥ ذراعاً يكون علو مؤخرها ٢٠ شبراً وعلو مقدمها ١٢½ شبراً وعلو وسطها ٧ اشبار ونصف شبر وفيها ٢٤ مدفعاً فالتي فيها ٢٩ محلا للتجذيف على الجانبين كان يقف على كل مجذاف لها ٧ رجال فيبلغ عدد من فيها ٦٠٠ نفس وكان الاسرى المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة يستخدمون على المجاذيف ويسمونهم ﴿ فورسى ﴾ بمعنى

مجبورين وكانوا يقعدون في المحل المسمى ﴿ اتوراق ﴾ ويجذفون وهم مقيدون بالسلاسل وعندما تنتشب الحرب يجعلون نصف المجذفين من هولاءالاسرى ﴿ فورسى ﴾ المجبورين ونصفهم من الاتراك وذلك لعدم امنية رؤساء السفن الاسلامية منهم

فلما اراد السلطان بايزيد الثاني الاستلاء على سواحل المورة امربانشاء سفن كبيرة فعمرت باثناء انشائها سفينتان كبيرتان من نوع ﴿ كوكه ﴾ كان طول كل منهما سبعين ذراعاً وعرضها ثلاثين ذراعاً واقيم في كل منهما عدد من المدافع الكبيرة والفان من الرجال بين مقاتل وجذّاف فترأس على احداهما الرئيس كمال المشهور وترأس على الثانية الرئيس براق ورتب ايضاً ثلاثمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة من جميع الانواع فارسلت السفن الى جهة ﴿ اينه بختى ﴾ فلما تجاوزت موقع اوارين ووصلت الى جزيرة براق قابلت عمارة العدو فثارت نار الحرب بينهما وهجم العدو باربع سفن اثنتان من نوع ﴿ كوكه ﴾ وواحدة من نوع ﴿ ماونة ﴾ وواحدة من نوع ﴿ بارجة ﴾ على سفينة الرئيس براق التى هى من نوع ﴿ كوكه ﴾ وفي اول وهلة كسرالرئيس براق الماونة والبارجة المذكورتين بالمدافع وغرقهما فهجمت سفينتا كوكه على كوكة الرئيس براق واحاطتا بها فاحرقهما الرئيس بزيت النفط الا انه لم يستطع ان يتخلص من بينهما فامتدت النار لسفينته ايضاً فاحترقت ومات الرئيس براق واستشهد معه خمسمائة نفس من العساكر الاسلامية وانقذ من سقط في البحر من غزاة المسلمين بالزوارق اما الذين سقطوا في البحر من سفن الاعداء فاحترقوا وغرقوا ولم يتخلص منهم احد واستولى المسلمون على القليون الذي اتي لامدادهم وانقاذهم وسميت الجزيرةالمجاورة لمحل تلك المعركة جزيرة براق

ثم تغلبالاسطول الهمايوني ايضاً على اسطول الونديك في سائرالمحاربات التىحدثت بعد ذلك وتيسر للدولة العلية فتح قلاع ﴿ اينه بختى ﴾و ﴿مستون﴾ و ﴿ قرون ﴾

وبينما كانت قوة الدولة العلية في البحر ترقى وتزداد حتى تغلبت على اسطول الونديكين كما ذكرناه اذ حصل الفتور والضعف في مزاج الدولة

واهملت الحروب في البحر وذلك مسبب عن اعتزال السلطان بايزيد عن امور السلطنة نظراً لشيخوخته وتهامل الوكلاء وتسامحهم اما حضرة السلطان سليم خان الياوز فراعى قاعدة تقديم الاهم على المهم واشتغل بالحرب في نواحى ايران وبلاد العرب ولذلك لم يتمكن من النظر في امور الاساطيل البحرية وعدا عن ذلك فقد منع قرصان المسلمين عن السفر في البحر الابيض في اثناء ذلك لئلا يكونوا سبباً لحدوث متاعب عظيمة على الدولة العلية فلذلك وان كانت قوة الدولة العلية البحرية اخذت في الانحطاط الا ان العثمانيين كانوا في حدة شبابهم يسري دم الغيرة والحمية في عروقهم فكانوا يحبون الجهاد والغزو فحمل اكثر قادتهم المتطوعة على سواحل الغرب مجاهدين مخافة ان يفقدوا انتهاز الفرصة فاوقدوا نيران القتال على الاروبيين وكان مقدمهم خير الدين باشا وفي ذلك الوقت جلس حضرة السلطان سليمان خان على سرير السلطنة فاهتم بامر الاسطول اهتماماً كلياً فتجددت حياة قوة الدولة العلية البحرية

وحيث كان حضرة السلطان سليم الياوز مهتما في تنظيم امور دار الصناعة البحرية عمر مخازن وحياض للمياه اكثر من الحياض التى بنيت في زمن السلطان الفاتح في جهة ﴿ ايينه لى قواق ﴾ وكان عزمه ان يتدارك امر الاساطيل واستعدادها وللاستيلاء على السواحل والجزائر الواقعة في البحر الابيض بتمامها وقد قال في اثناء كلامه الخصوصى لادريس بدليس ولبعض كتمة اسراره ان البحر الابيض هو عبارة عن خليج واحد يمتد الى حد بوغاز سبته فكيف يليق ان تجتمع فيه ملل مختلفة ثم انهم لا يكونون تحت حكم الدولة العلية فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية المقصودة هو من قصور الهمة المزري بشأن الدولة ثم قال اني آليت على نفسى وعاهدتها اذا مد الله في عمري اني احرمها الراحة والسكون ما لم انشىء الاساطيل الكافية لنيل هذا المرغوب واستولي على ثغور البحر الابيض. وبناء على ذلك شمر عن ساعد الهمة والعزم لتكثير وتكبير بناء دار الصناعة البحرية

ودولة الجراكسة في مصر التى كانت في نظر الناس معتبرة بشرف خدمتها للحرمين الشريفين وجليلة القدر بالنظر للشرف المستعار الذي اتصل بها من

الخلافة العباسية المصرية قد اظلم الجو بينها وبين الدولة العلية لاسباب متعددة فتداخل بينهما ملك تونس عثمان الحفصى وشيد دعائم الولاء وجرت المخابرات في مجراها وتبادلت السفراء بين الطرفين وحيث ان الجراكسة كانوا يواصلون اهل ايران واشقياء العربان سراً ومن دأب الدولة العلية انها لاتقبل الاشتراك فى مركز استقلالها رأت لذلك من اهم الامور ان تفتح مصر وتضبط بلاد الشام في طريقها فبذلت الهمة في ذلك واستولت على الجميع وبعد ان استولى السلطان سليم على مصر والشام كما هو مشهور رجع الى دار السلطنة وشرع في تنزيل الاساطيل الى البحر على قصد الاستيلاء على البحر الابيض جميعه ولكنه بادرته الوفاة في السنة الثانية من دخوله الى دار السعادة

ولما جلس حضرة ولده السلطان سليمان خان على تخت الخلافة جعل جل اهتمامه في امور دار الصناعة البحرية وكان فرسان رودس تقلدوا صفة قرصان وصاروا يجولون في البحر الابيض لقطع الطريق على التجار وبالاتفاق انهم صادفوا بعض السفن التجارية فاخذوها ولاجل تامين طريق مصر تعين على الدولة ان تفتح رودس وتستولي عليها فتوجه لذلك في بادىء الامر السلطان سليمان باسطوله العظيم وفتح الجزيرة المذكورة سنة ٩٢٩ وفي سنة تسعمائة واثنين وثلاثين توجهت قيادة بحر السويس على احد اهل القرصان وهو سليمان رئيس فارسله في عشرين سفينة من نوع ﴿ قدرغه ﴾ من ثغر السويس الى ديار اليمن فاستولى على سواحل عدن ثم لما دخل خير الدين باشا الى الاستانة كانت قوة الدولة العلية البحرية بالغة حد الكمال

وكان خير الدين باشا يعرف باسم خضر وعند الاورباويين باسم بار باروس اي صاحب اللحية الحمراء وكان مشهوراً باعماله العظيمة وغزواته الخارقة للعادة في البحر وهو مجاهد جليل المناقب حتى ظن الناس انه من اهل الكرامة المجاهدين الاجلاء ذوي المناقب وقد الف كتابا في اخباره بامر السلطان سليمان خان وقدمه لحضرته ومن هذا الكتاب تعلم تفاصيل احوال خير الدين باشا التى يمنع ضيق المقام من ذكرها وانما نرى

من المناسب ان نذكر على وجه الاجمال ترجمة حاله في الزمان الذي كان فيه رئيساً لسفن الدولة حينما كانت ذات شوكة واقتدار ولا سيما في البحر نقول اصل خير الدين من جزيرة مدللو وكان رئيساً يشتغل في سلانيك وكان اخوه الكبير عروج يسافر الى طرابلس الشام وبينما كان الرئيس عروج مسافراً الى طرابلس وقع اسيراً بايدي قرصان رودس وبعد تخلصه منهم كان السلطان قورفود في انطاليا فاستاذنه وذهب في مركب يسع ثمانيه عشر اوتوراق بقصد الجولان في البحر وبعد ان اغار على عدة سفن للنصارى في اطراف رودس وفي سائر السواحل توجه الى جهات الغرب لانه عند جلوس السلطان سليم خان اختفى السلطان قورفود فمنعت مراكب البحر الابيض عن السفر فحينئذ سار قرصان اهل الاسلام الى سواحل الغرب واتخذوا لهم مرسى ومأوى هناك وبعد ذاك نشر الرئيس خير الدين شراع مركبه وتوجه لجهة الغرب ايضاً ولدى الملاقاة مع اخيه الرئيس عروج في جزيرة جربه الواقعة في حدود تونس من جهة طرابلس الغرب عقدت معاهدة بين الاخوين على الغزو ووصلا الى تونس وطلبا محلا من حاكمها. وفي ذلك الزمان كانت تونس في يد آل حفص فعينوا لهما قلعة حلق الواد على شرط ان خمس الغنايم تسلم الى خزينة تونس. وعلى هذه الصورة خرج الاخوان الى البحر واخذا في الغزو وضبطا ما صادفاه من سفن الافرنج وبالتوالي كثرت سفنهما واوصلا شهرتهما وصيتهما الى المقام الاعلى وجعلا البحر الابيض يستجير منهما ثم هجما على مدينة بجايه الواقعة في طرف تونس من جهة الجزائر التى كانت في يد الاسبانيول وغلبا الاسطول الاسبانيولي الذي جاء عليهما. وفي هذه المحاربة جرح الرئيس عروج في كتفه فارسله اخوه خير الدين الى تونس وتوجه هو الى جزيرة ميورقه في الاندلس فخربها وفتح جملة قلاع وغار على عدد كثير من قراها وغنم اموالا وافرة وصادف في البحر اسطول قورسيقا فغلبه وعاد الى تونس مظفراً وبعده في موسم الشتا خرج مرة اخرى الى البحر لاجل القرصنة وفي ظرف شهر اخذ ثلاثة الاف وثمانمائة اسير وعشرين مركباً ورجع بالاموال والغنائم وبعد ذلك في فصل الربيع صار قايدا في مركبه على سبع قطع متطوعة واجلب بهم على

بعض سواحل اروبا وزيادة على ما اخذه من الغنائم الكلية اخذ خمسة سفن ارسل منها واحدة الى الدولة العلية مع الرئيس محيي الدين ابن اخت الرئيس كمال المشهور وفي مقابلة ذلك انعمت عليه الدولة العلية بمركبين من نوع القدرغه

وبعد هذه الغزوات لم يقدر احد ان يقف فى البحر لمقاومة الرئيس خير الدين وصار جميع البحر الابيض يرتعش من اسم بارباروس وانتشر الخوف منه في السواحل والجزائر وبعض اهالي اروبا حتى انهم كانوا يخوفون اولادهم وهم في المهد ويسكتوهم باسم بارباروس

وظهوره وخروجه على هذا الوجه كان موجباً لقلق دول اروبا وبناء على ذلك فالفرنساويون ايضاً ارسلوا اسطولا مؤلفاً من ثلاثين قطعة هاجموا بها جهة تونس وعادوا منهزمين ايسين ثم ان الرئيس عروج استولى على الجزاير وتمكن منها وتقاسم مع اخيه الرئيس خير الدين القلاع التابعة الى الجزائر وبجايه فما كان منها في جهة الغرب كان باسم الرئيس عروج وما كان في جهة الشرق كان باسم الرئيس خير الدين. فاتفق حاكم تلمسان مع الاسبانيول على طردهما من الجزائر وسواحلها وبينما كان حاكم تلمسان بصدد الهجوم من جهة البر والاسطول الاسبانيولي من جهة البحر اتصل الخبر بالرئيس عروج فاسرع في التوجه الى تلمسان مع مقدار من العسكر وكان الاهالي قد نفروا وقتئذ من الحاكم بالنظر لاتفاقه مع اعداء الدين. واعطت العلماء فتوى في قتله. وعندما قرب الرئيس عروج من البلد فر حاكمها الى اسكلتها وهران التى كانت دخلت قبلا في يدى اسبانيا واستمد منهم وجمع عسكراً من العربان بالاموال التى بذلها فانضموا الى ما جمع من عساكر الافرنج ثم ان عروج حاصر اولا قلعة المشور وبعده حاصر مدينة تلمسان وامتد الحرب والقتال اكثر من سنة وفي نهاية الامر استشهد الرئيس عروج وبعد استيلائه على تلك القلاع جاء الاسبانيول فى ماية وسبعين مركباً واخرجوا عسكرا كثيراً الى البر وهجموا على الجزائر وكانت جنود الرئيس خير الدين قليلة وحيث انه انقاد له نحو العشرين الفاً من عساكر العرب ثبت في مقام مدافعة الاسبانيين واجبرهم على الفرار بعد ان اتلف اكثرهم. وبعد عودته

من حصار تلمسان وبلد تنس وفتحهما جاء الاسبانيول في مائة وثلاثين مركباً وهجموا على مراكب خير الدين التى كانت رابطة في ليمان الجزائر ولكنهم انهزموا ايضاً وشطط بعض سفنهم في الرمل واسر منهم نحو ثلاثة الاف نفر وكثير من الضباط مع قبودان الاسطول

ثم بعد هذه الواقعة طلب اهالي الجزائر من الرئيس خير الدين قبول امارته على الجزائر فقبل ذلك منهم على شرط ان تكون الخطبة والسكة باسم السلاطين آل عثمان ولكن غضب لذلك حاكم تونس الحفصى وحاكم تلمسان الزياني فاتفقا على قتـال خير الدين بك وافسدوا عليه قلوب الاعيان من اهـالي الجزاير فنشأ من طرف هولاء ومن طرف اخر وهو بذل الاموال تشويش بعض القبائل على الجزاير وزيادة على مـا اجروه في نواحيهما فان بعضهم من اولاد ملوك تلمسـان استجاشوا حاكم فاس وبعضهم استعانوا باسبانيا وكانت الحرب والمناوشة مستمرتان وباثناء اشتغال خير الدين بك بدفع مضرات اولئك كان يسوق العساكر براً وبحراً وبعد ان حاصر مستغانم وهى واقعة في القرب من وهران واستولى عليها مر اسطوله بطرق الاندلس واخذ من اساكله غنائم وافرة وانقذ من يد الاسبانيين ما وجده من المسلمين الموجودين عندهم في حالة الذل ونقلهم الى الجزائر واسكنهم فيها. وكان خير الدين بك لا يخلو من مهاجمة البربر باغواء حاكم تونس من جهـة الشرق واسبانيول من جهة الغرب وبهذه الصورة استولوا على اكثر محلات الحصار التى بيده وكان الكثير من اهالي الجزاير مايلون الى الاعداء ولذلك بالنهاية ترك خير الدين بك الجزاير وهاجر والتجا الى قلعة جيجل الواقعة ايضاً بتلك السواحل وفي مدة ثلاث سنين كان يصرف اوقاته تارة بشن الغارة على سواحل اروبا وتارة على مراكب المخالفين من التونسيين وبعد ذلك استولى على الجزاير مرة اخرى واستقر بها وكان يرسل تحريراته في سياق النصيحة الى عبد الله حاكم تلمسان الذي كان من مدة لم يقرأ الخطبـة باسمه فلم يسمع كلمته وهجم على الجزاير بعسـكر من البر بر فانكسر واستامن الى خير الدين بك على شرط ان يخطب باسم آل عثمان ويدفع سنويا عشرين الف دينار ذهباً. وبعد ذلك لم يكن خير الدين بك خالياً من الجهاد والغزو

وحيث لم تكن مراكب اروبا قادرة على السفر في البحر الابيض . كان امبراطور المانيا وملك اسبانيا شارليكن المشهور يفتش على طريقة لهذا الامر . وكان المشهور والمعروف بالجسارة والمهارة بين قباطين اروبا القبودان المسمى اندريا دوريا فاعطاه اسطولا مكملا واخرجه الى البحر الابيض لمقاومة خير الدين بك

لكن لما كان اسم بارباروس ملأ بالرعب قلوب اهل اروبا كافة كان اندريا دوريا يحترز من ملاقاته على ان خير الدين بك كان يطوف في البحر الابيض طلباً له واما اندريا دوريا فانه كان يواصل الخسائر لبعض السواحل الاسلامية كلما وقعت له فرصة في ذلك وفي خلال ذلك ابتدا الاسبانيون يتظاهرون بالجفاء مع المسلمين الذين عندهم وصاروا يحرقونهم بالنار لم يرتدوا عن دين الاسلام مع ان هذا الامر لا يجوزه دين ولا يليق بالانسانية فاجتمع طائفة من الاسلام في محل واحتموا خلف جبل واستمدوا من خير الدين بك فنقل مقدار سبعين الفاً منهم ومن غيرهم من الاسلام واسكنهم في الجزاير وشن الغارة على كثير من سفن الافرنج

وبعد ذلك دعاه اليه حضرة القانوني السلطان سليمان خان فخلف على محافظة الجزائر احد معتمديه المدعو حسن بك وخرج هو من الجزائر في اسطول محكم في نية القصد الى دار السعادة فتوجه الى سواحل اوربا وغار على قلعة كائنة في قرب جينوى وخربها ثم صادف في ناحية مينه ثمانية عشر قطعة فاخذها واستولى عليها ثم جاء الى جهة پروزه يترصد اندريا دوريا وكان اندريا دوريا موجوداً في تلك النواحى فقيل له على سبيل الاخبار والاخطار ان بارباروس يفتش عليك فلا تكن غافلاً فهرب من هناك واختفى في برندزي من اعمال ايتاليا ولما لم يتفق لخير الدين بك ان يصادفه توجه نحو الاستانة فبلغها في اواسط سنة ٩٤٠ وغب وصوله اليها نصب قبوداناً على البحر والحق اليها رتبة جزائر بكلرلكى وبامر حضرة السلطان سليمان خان صار انشاء احدى وستين مركباً من نوعى الباشترده والقادرغه وكان احضر معه من الجزائر ثمانية عشر مركباً ومع الخمس سفن المتطوعة التى كانت معه سافر ثانية الى البحر الابيض في اربعة وثمانين قطعة حربية وكبس جزائر

مالطة وساردينيا ومينورقه وميورقه وخرب كثيراً من البقاع والقلاع واحرق كثيراً من سفن الاعداء وفي عودته الى الاستانة صدر الامر السلطاني في انشاء مائتى سفينة اخرى بقصد الاستيلاء على اطراف بوليا الواقعة في ايتاليا وبينما كان ساعياً باتمام المراكب ذهب في ربيع الاخر سنة ٩٤٣ الى طرف بوليا في ثلاثين مركباً خفاف الحمل وخرب قلعة منها ورجع . وفي اثناء ذلك صرف حضرة السلطان سليمان خان نظره عن جهة بوليا وعزم على حرب قورفو فتوجه جلالته في الاردوي الهمايوني نحو بولونيا وجعل لطفى باشا سرداراً على الاسطول وفي شهر ذي الحجة في سنة ٩٤٣ خرج خير الدين باشا الى البحر الابيض في مائتين وثمانين قطعة من السفن وكان فيها مائة وخمسة وثلاثون قطعة من نوع الباشترده والقادرغه ولحد هذا التاريخ لم يخرج من الاستانة هكذا اسطول مكمل . وبخروج الاسطول الهمايوني على المنوال المشروح اغار اولا على بعض القلاع الكائنة في اطراف بولونيا وخربها وبعد ذلك اتى الى جزيرة قورفو فاغار على جميع قراها ونهبها ثم انه لما طال امر حصار قلعتها الى ان قرب فصل الشتاء تركها واقلع عنها وعاد السلطان سليمان مع الاردي الهمايوني للاستانة براً ولطفى باشا في الاسطول الشاهاني بحراً اما خير الدين باشا فانه انتخب ستين مركباً من الاسطول من نوع القادرغه وبقى في البحر وافتتح جزائر كثيرة مثل جوقه واكنه ومرتد وباره وحصل منهن على غنائم لا تحصى حتى انه بلغ خمسها لبيت المال اربعمائة الف دينار مع الفين وخمسمائة اسير وعلى هذا القياس من الجوخ وسائر البضائع والاشياء وغب وصوله للاستانة في مثل هذا الانتصار العظيم عرض للاعتاب السليمانية تلك الهدايا والتحف التى لم يسبق في عصر من الاعصار تقديم مثلها من احد من رؤساء البحر فصار مظهراً للالتفات العظيم السلطاني والبسه الخلع الفاخرة

وفي شهر محرم سنة ٩٤٥ سافر ايضاً الى البحر الابيض في مائة وثمانية وثلاثين سفينة واستولى على بعض الجزائر مثل اسكرى واستندل ثم ذهب الى كريد وشن الغارة على كثير من قراها واخذ ما ينوف عن الخمسة عشر الف اسير ثم رجع اليها مرة اخرى وافتتح قلاعها الثلاثة في ظرف عشرة

ايام وربط الخراج على اهلها . والحاصل كان في كل جزيرة من جزائر ونديك التى جملتها خمس وعشرون جزيرة قلعة واثنتان وثلاثة فافتتحها كلها في هذه السنة ورتب على اثنتى عشرة جزيرة منها الخراج المقطوع والثلثة عشر الباقيات خربها وأعفى اثرها ثم انحدر بعد ذلك الى جهة الروم ايلي ووصل الى اغريبوز وترك فيها بعض المراكب التى كان سيرها بطيئاً وسار في المراكب السريعة وفي خلال ذلك كانت اساطيل الدول المتفقة تتجمع في قورفو فبلغ خير الدين باشا هجومها على قلعة بروزه واتت العشرون مركباً المتطوعة التى ارسلها للاكتشاف فاخبره ربانها انهم رأوا في مياه زاكلسه اربعين مركباً من نوع جكديرر كما ان مراكب العدو لما رأت مراكب الدولة رجعت مسرعة على اعقابها واخبرت الاسطول الراسى في قورفو بان باربارس قريب منكم فتركوا بروزه وخرجوا منها وبلغ خبر خروجهم خير الدين باشا وهو تجاه (متون) فمر الى جزيرة كفالونيا واخرج عسكره الى البر وغزا قراها ثم اتى بروزه وامر العسكر بترميم بعض محلاتها المنهدمة من قنابل العدو اثناء حصاره لها

وفي اثناء هذا بلغه خبر تجمع اساطيل البابا والبورتكيز والونديك في قورفو ايضاً وذلك لان خروج خير الدين وظهوره على الدول الاوربية سلب راحتهم لاسيما وقد صار اخيراً قبودان باشا ودخلت ترسانة الاستانة تحت امرته فانه يستطيع اذاً ان يعمل اساطيلاً بقدر ما يريد ويمكنه الاستيلاء بها على اي محل شاء ففكرت الدول في ايجاد قوة كافية لردعه وصده فاتحدت اساطيلهم وتجمعت في محل تترقب الفرص للهجوم على الاسطول الهمايونى وحينما كان خير الدين باشا في پروزه كما ذكرنا آنفاً اتوا الى محل يبعد نحو ميلين عن پروزه وذلك في جمادى الاولى سنة ٩٤٥ والقوا الحديد في البحر على هيئة المحاصرة للاسطول الهمايوني وكان رئيسهم الاول اندريا دوريا وفي معيته اثنان وخمسون قطعة من القادرغه وقطعة من القليون كبيرة جدا وكان مع قبودان الونديين احدى وسبعون قطعة من نوع القادرغه ايضاً وعشرة قطعات من القليون العظيم المدعو بفرقاته واربعون قادرغه للبابا والمالطيين وثمانون بارجة للبورتكيز والاسبانيين وعدد من البوارج

ايضا لغيرهم فكان عدد مجموعهم ماية واثنان وستون قادرغه ومايةواربعون غليونا ونيف وثلاثماية مراكب حربية كبيرة وفيما بينهم من المراكب المتطوعة الشراعية ما ينوف على ستماية مركب صغير على ان الاسطول الذي كان في معية خير الدين باشا كان نحو ماية واثنين وعشرين مركباً لا غير من نوع چكدير فجعل يشوق عساكره للقتال وبادر لاخذ الاحتياطات الحربية فانزل السواري عن المراكب ونبه على العساكر في مراقبته بالحركة والسكون واعطى التعليمات اللازمة لقباطين المراكب المتطوعة وان يقفوا خارج الالاي وبان اطلاق المدافع يكون بحسب الايجاب واللزوم وكان في جملة هولاء المتطوعين (طورغورجه) البحري الشهير اما الامراء البحرية فلما راوا كثرة العدو عرضوا عليه اخراج كمية من العساكر والمدافع للبر فلم يستصوب هذا التدبير اولا غير انه لما استخبر عن قصد دخول الاعداء من بوغاز بروزه ليلا اخرج الى الشاطىء عدداً كافياً من العساكر والمدافع الكبيرة وبادر للمحافظة عليها وبعد يومين جاء الى بوغاز پروزه عدة مراكب من نوع القادرغه السريعة المشى وابتدروا باطلاق المدافع على السفن الاسلامية فلما راى خير الدين باشا تجاسر الاعداء عليه وطلبهم له للبراز على هذه الصورة بعد ان كانوا يولون الادبار اينما سمعوا به كبر عليه ذلك وسلب منه الصبر والقرار وكان يقول (ديكرنيستا) كلمة بالفارسية معناها (انا لا غير) فخرج عليهم في جميع الاسطول الى خارج البوغاز وابتدا باطلاق المدافع عليهم من جميع السفن الاسلامية اعنى المايه والعشرين قطعة دفعة واحدة. فهجومهم هذا كان باعثا لخوف الاعداء ورعبهم وكان الليل يقترب فلم يقدر اسطول الاعداء على الثبات ففروا هاربين وفي اليوم الثالث من جمادى الاولى تقابل الاسطولان بعيداً عن مرسى پروزه وتهيأ الفريقان للقتال وكان الهواء مساعداً لجهة الاعداء فوقع الخوف عند الاسلام لان اساطيل دول اوروبا كانت من نوع الچكدير والقليون والدولة العلية وان تكن صنعت في عصر السلطان الفاتح وبعده من انواع القليون الا انها كانت تستعملها في النقليات واما في الحرب فلم تستعمل الا الچكديرز وهذا النوع في ذلك العصر كان في عصرنا بمنزلة الوابورات الحربية وهو ينفع للقرصنة ويغلب القليون فاذا راى القليون اطلق

نيرانه عليه وهو بعيد منه حتى اذا تمكن من تخريبه هجم عليه واخذه واما عندوجود الهواء فلا يقدر من القرب الى القليون والبوارج تدوس القادرغات وبالجملة فقد كان الهواء هذه المرة مساعدا للاعداء وموجباً لخوف الاسلام فكتب خير الدين باشا آيتين كريمتين وعلقهما على ساري مركبه استمداداً بالخواص القرآنية وبحكمة الله تعالى فارتبطت المراكب حالا صفاً واحداً وابتدأت باطلاق المدافع وكانت قنابل مدافع القليونات تتدفق كالسيل ولكن حيث كانت مدافعهم قصيرة فلم تصل قنابلهم الى السفن الاسلامية واما قنابل الاسلام فانها كانت تصل الى القليونات وحيث انهم بسبب الضرب من بعيد اضعفوا بوارج اخصامهم جاء اندريا دوريا وقبطان الونديك في قدرغاتهما واخذا هيئة الدفاع والتحوط وهكذا فعل ايضاً خير الدين باشا فهجم مصوباً افواه نيرانه عليهما فلم يتمكنا من المقاومة والثبات ودارا خلف البوارج وسعيا مراراً في الاحاطة بالاسطول الهمايوني وان يأخذوه بين بوارجهما فلم يتمكنا من ذلك وكلما هجم عليهما خير الدين باشا كانا يمران الى الناحية الاخرى من البوارج التى كانت مصطفة كالقلعة وغير ممكن تفريقها وانما نظراً لشدة السفاين الاسلامية دارت مراكب الاعداء التى هى من نوع الجكدير الى بوارجها فبعد ذلك كبر خير الدين باشا وهجم على البوارج مطلقاً عليهما نيراناً شديدة فاغرق منهما كثيرا واوجد طريقاً للمرور من بينهما فلما مر الى جهة قدرغات الاعداء استولى الخوف والرعب عليهم جميعا في صورة فوق العادة فلم تقدر مراكبهم الجكدير على الثبات فعندها اركنوا الى الفرار فاغرق بعضهم باطلاق المدافع وعطل بعضهم ولما راى اندريا ما آل اليه امره وكان الليل قد اسبل ستره اخذ ينتف لحيته ثم فر هو ايضاً خلف مراكب الجكدير وقد تعقبته العساكر الاسلامية ومسكوا سفينتين من نوع القادرغه اما باقى البوارج التى غرقت في البحر في محل الحرب فقد القى الاعداء بانفسهم عليها النار فصارت للاسطول الهمايوني شعلة في البحر الى حد الصباح

وبداية الحرب كانت في وقت الضحى وامتدت الى ما بعد غروب الشمس ولم يعلم قبل هذا وقوع حرب عظيمة وغريبة مثلها على وجه البحر وهذا

الظفر الذي حصل للاسطول الهمايوني على اساطيل الاعداء على هذه الصورة حالة كون عددها يزيد اضعافا عليها مع وجود اندريا دوريا المشهود له بالجسارة والمهارة باروبا قايداً لها انما هو ثمرات خيرية تنسب الى مهارة خير الدين باشا ومن في معيته من الامراء في الحروب البحرية وفرط شجاعة العساكر الاسلامية ثم ان اندريا دوريا بعد هزيمته التجأ الى جزيرة قورفو واما خير الدين باشا فانه بعد مرور بضعة ايام غزا جزيرة كفالونيا ثم احرق حصار پارغا ومنها اتى الى مدخل قورفو لكنه صادف نوءا عظيما فمر الى اولونيا واقام بها منتظراً سكون الرياح ولما قرب فصل الشتاء عاد الى الاستانة واما اندريا دوريا فانه ضرب قلعة نوه واستولى عليها اثناء النوء الذي حصل في البحر فلما اتى فصل الربيع خرج خير الدين باشا الى البحر الابيض في ماية وخمسين مركباً واستخلص القلعة المرقومة

وفي خلال ذلك ذهب سليمان باشا الخادم امير الامراء في مصر الى الهند والسبب في ذلك انه كما ان الاسبانيول ظفروا في امريقا في سنة ٩٠٠ كذلك كان البرتوغال توجهوا الى الهند من طريق راس الرجا الصالح واستولوا على بعض البنادر الهندية وقد عجزت عن دفاعهم ملوك تلك الديار فاستمدوا من السلطان سليمان فارسل سليمان باشا لامدادهم فقام من السويس بالاسطول واستولى على عدن واقام فيها عسكراً لمحافظتها ثم ذهب الى الهند وضرب بالمدافع بعض القلاع التى دخلت في ايدي البورتكيز ففتحها واستولى عليها

وكذلك حسن بك الذي كان اقامه خير الدين باشا محافظاً على الجزاير جهز ثلاثين مركباً من نوع قادرغه وقاليتا وكان لا يفتر عن الغارة على السواحل الاسبانية ولما توجه حضرة السلطان سليمان خان الى حرب الانكلروس وذلك في سنة ٩٤٨ جاء الامبراطور شارلكن الى سواحل ونديك في اسطول عظيم بقصد اعانة اخيه فردينان ملك اوستريا بايصال الخسائر على سواحل الروم ايلي غير انه لما بلغه خبر خروج خير الدين باشا الى تلك النواحى علم انه لا يقدر على اجراء عمل ما فخالا اقلع عنها واتى الى جزائر الغرب واخرج للبر عساكر كلية وهجم على الجزائر فاحسن حسن بك مدافعته واتلف كثيراً من عسكره ووقع في البحر نوء ورياح شديدة القت كثيراً من

سفنه الى البر وصار مجبوراً على الاقلاع بشر هزيمة

وبناء على استرحام فرنسا من الدولة العلية اولا واخراً ان تعينها على امبراطور المانيا ففى تاريخ سنة ٩٤٩ استمد ملك فرنسا من السلطان سليمان على شارلكن ففى فصل الربيع من سنة ٩٥٠ توجه خير الدين باشابالاسطول مدداً لفرنسا فوصل اولا الى مدينة مسينا فاجبرها على التسليم وبعد ان استولى عليها ذهب منها الى مارسيليا فقوبل بكمال الاحترام والاحتشام وتوجه مع الاسطول الفرنساوي الى مدينة نيس واستولى عليها وبينما كانت قلعتها في المقاومة جاءه الخبر بانه سياتيها امدادات كلية فاحرق البلدة المذكورة واقلع عنها

وبعد ذلك توجه الي البحر الابيض في مدة سنتين وغب وصوله توفى ولحق بدار البقاء في اليوم السادس من جمادى الاولى في عام سنة ٩٥٣ وقد تجاوز سنه الثمانين وجاءت هذه العبارة (مات الرئيس البحري) تاريخاً لوفاته

واقيم مكانه محمد باشا الصوقللى احد الوزراء قبطانا للبحر وبعد اشتغاله في محافظة البحر الابيض عدة سنين صار عوضاً عنه قبودانا للبحر سنان باشا اخو رستم باشا الصدر الاعظم ولما توفي هذا ايضاً في ٩٦١ جعل مكانه لرئاسة البحر يياله بك المشهور المخرج من الحرم الهمايونى بالقبوجي باشيه. وكان وقتئذ وجود ذات جليل الصفات مثل خير الدين باشا بمسند القبطانية قد اكسب الشرف والاهمية لهذا المنصب الجليل فصار يلتزم وجود ذات لقبودانية البحر ممتازا ومحترما من المؤتمنين عند وكلاء الدولة او ممن حصل على توجيه ونظر الذات الشاهانية. والا كان يوجد من يقوم مقام خير الدين باشا وهو طورغورجه بك القورصان المشهور وهو في الاصل كان من لوندية البحر ونظرا لفرط شجاعته استحصل قبودانية زمرة اللوند وكان في الحروب يصاحب خير الدين باشا ويروى ان خير الدين باشا اطراه في المدح والثناء وتكلم علناً في ديوانه وقال في حقه انه ينفع اكثر منى وهو نظير خير الدين باشا في افعاله فقد غزا غزوات وفيرة في جهة الغرب وعندما صار صاحب اموال زاد في عدد مراكبه حتى صار يطوف في خمسة وعشرين مركباً وكان

القبودان المشار اليه سيف الاسلام المسلول وله مع الافرنج غزوات كثيرة جدا وله فتوحات عظيمة وهو الذي هابه الاروبيون كهيبتهم من خيرالدين باشا وهو الذي خلفه في محله في البحر الابيض. حتى ان سنان باشا لما كان قبودانا للبحر تخابر معه مرة وخرج الى البحر الابيض في الاسطول وجاء طورغورجه من جهة الغرب فلما تلاقيا واجريا تمريناً بالمدافع ظهرت غلبة نيران مراكب طورغورجه لمقابلتها فقال سنان باشا ان هذا الرجل لو سلك في بعض الظروف سبيل المخالفة ولو مرة يكون من المشكل تاديبه ثم انه استماله اليه وجاء به الى الاستانة وكان معه ايضاً سبعة انفار من رفقائه القباطين المشهورين في البحر وفي جملتهم اولوج على القرصان المشهور ولما اتى الى دار السعادة على هذه الصورة احسن اليه بلواء قارلى ايلى واحسن لسائر رفقائه كل منهم بسبعين وثمانين اقجاية علايف. لكن رستم باشا كان لا يحب طورغورجه لانه كان ينظر اليه نظير رقيب ومعارض لاخيه وهو ايضاً لم يكن ممتثلا لرستم باشا لانه كان واقفاً على سوء قصده بحقده وبناء عليه لما ارسل رستم باشا جاويشاً لكي يستحضره الى دار السعادة بسبب دعوى امتنع عليه لعدم الامنية عليه في دار السعادة ففر في مراكبه الى جهة الغرب واقام هنالك نحو سنتين

وفي ذلك العصر كان طرأ الضعف على دولة بنى حفص في تو نس. وفي اثناء استيلاء الاسبانيون على اكثر سواحل المغرب اخذوا ايضاً قلعة طرابلس الغرب

وكان مطلوب السلطان سليمان افتتاح طرابلس غير ان امراً جسيما مثل هذا يتوقف على وجود ذات في الاسطول الهمايوني يكون خبيراً باحوال الحروب البحرية حقيقة مثل طورغورجه وكان السلطان سليمان متغيراً عليه لفراره لجانب المغرب كما مر ثم صفح عنه لاجل الحصول على هذا الامر المهم ودعاه اليه ووعده برتبة بكلربكية طرابلس ما دام حياً ان فتحها وجعل الامراء البحرية مامورين بمتابعته وفى ٩٥٨ ذهب سنان باشا الى تلك النواحى فى مائة وعشرين قادرغه وافتتح طرابلس بمعرفة ودلالة طورغورجه ووجه سنان باشا ايالتها على غيره فتكدر لذلك طورغورجه

وهمّ بالخروج الى جانب المغرب ثم خرج وتبعه سائر الامراء لانهم كانوا مامورين باتباعه ولما بقي سنان باشا وحيداً اشار عليهم طورغورجه بالرجوع اليه فرجعوا وارجعوه هو ايضاً معهم بكل منة وقبول وجاءوا به الى الاستانه.

وحرر في بعض التواريخ انه في ٩٦٠ صار سرداراً على الاسطول الهمايوني وذهب الى البحر الابيض في مائة وعشرين قادرغه. وكذلك في سنة ٦١ خرج الى البحر الابيض في خمسة واربعين قادرغه وذلك بناء على استدعاء ملك فرنسا وحصر قلعة مسينا الواقعة في سواحل ايتاليا واستولى عليها وبعد ان اتى باعمال عظيمة وخلص سبعة الاف من اسرى المسلمين عاد الى الاستانة بغنائم وفيرة وانعم عليه حضرة السلطان العالي القدر برتبة بكلربكية الجزائر مع القبودانية مكافاة له الا ان رستم باشا عارض في ذلك قائلا ان طورغورجه نشأ في الخارج وهو لا يرضى بوجوده في خدمة بابكم العالي وصار ابقاؤه في سنجق قارلي فتغير طورغورجه من هذه الصورة وامتنع عن القبول ثم قبل الركاب الهمايوني في الطريق والتمس شفاهاً ايالة طرابلس وبناء على استدعائه اعطاه السلطان طرابلس وبقي فيها الى ان مات شهيدا في مالطه كما ياتي

والحاصل ان القبودانية بعد خير الدين باشا كانت حق طورغورجه باشا ولكن حال دونها غرض رستم باشا

وهكذا الاغراض الشخصية تكون مانعة ابداً من تفويض الامور الى اهلها وتكون سبباً لاخراج كثير من المصالح المهمة من مجراها الطبيعي

وفي ذلك الاوان كان اسطول البرتغاليين يجول في مياه الهند وسبب ذلك هو ان سليمان باشا بعد ان استولى على عدن واقام فيها عساكر على مابيناه آنفاً اتحد اهاليها مع البرتغاليين وسلموهم قلعتها ثم ان الرئيس يبرى الذي الف كتاب البحر المشهور في احوال البحر الابيض قام من السويس في الاسطول وبوصوله استخلص عدن.

وبعد ذلك في سنة ٩٥٩ قام من السويس ايضاً في ثلاثين قطعة قادرغه وباشترده وقاليته وقليون وطاف سواحل اليمن وفتح قلعة مسكت وجزيرتي هرمز ودرخت وجاء الى البصرة فاخبروه قرب مجيء اسطول البورتكيز لتلك

الانحاء وانه لم يبق له امكان للمرور وقتئذ فى بوغاز هرمز وحيث انه لم يمكنه ان يخرح ويستصحب الاسطول جميعاً اخذ قطعتين من القادرغة وذهب الى مصر فراد بك الذي نصب قبودانا على مصر صدر له الامر بان يبقى في البصرة من الاسطول الذي كان راسياً بها بارجتين وخمس قادرغات وقالية واحدة وان يرسل الباقى الى السويس فخرج من البصرة في خمسة عشر قادرغة وبارجتين ولما وصل قبالة هرمز قابله اسطول البورتكز وحصل بينهما حرب عظيمة استشهد فيها كثير من العساكر والقباطين المعتبرين وتعطلت المراكب ورجع الى البصرة ثم لما كان القبطان سيدي علي صاحب الكتاب المسمى (محيط) الذي الفه في احوال البحر الهندي ماهراً في الفلكيات وفى علم البحر وشهد الحروب مع خير الدين باشا وكان ذاتا نادر الامثال جدا. فجعل قبطانا على مصر وذلك في اواخر سنة ٩٦٠ وكان ماموراً في ايصال ما بقي من المراكب بالبصره الى السويس فوصل البصره واصلح المراكب وخرح منها وحصلت له انتصارات عظيمة في الحروب التى كانت بينه وبين اسطول البورتكيز في جهات هرمز ومسكت مع كون اسطولهم كان اكثر من الاسطول الاسلامى بضعفين وثلاثة. ولكن بعد ذلك ظهرت عليه انواء شديدة اجبرته على اتباع الرياح واقتحام بحر عمان حتى صار آيساً من النجاة لوقوعه في ورطات غريبة فوقع في سواحل الهند وحيث انه في هذه الانواء غرق البعض من مراكبه وهال رؤساء الاسطول منظر انواء البحر المحيط خرجوا الى البر في سواحل كجرات وهم في غاية الاضمحلال وباقى المراكب اضحت خالية من اهلها فالقبودان سيدي علي المسكين ترك الستة قطع الباقية من المراكب في قلعة سرت وتوجه بمن بقي معه من رفقائه وهم نحو الخمسين طايفاً في اطراف الهند ومر بايران في طريقه حتى وصل بكل صعوبة الى ديار الروم والف كتابا تذكاراً لخلائفه حرر لهم فيه ما مر عليه. ومن ذلك جاء في المثل المشهور (اتى على راسه ما اصاب سيدي علي)

والحاصل ان حضرة السلطان سليمان خان كان له الاقبال والشوكة في البحر الابيض زيادة على ماكانت عليه اساطيله من التجول في بحر الهند وفي ذلك العصر كانت قوة البورتغال البحرية فايقة وعالية على سائر الدول

وكانت مراكب الدولة العلية لا تخلو من الحروب معهم سواء كانت غالبة او مغلوبة

وكما انه لم تستمر قوة الدولة العلية البحرية في بحر الهند فكذلك طرأ الضعف ايضاً على الاساطيل البورتغالية باسباب تلك المحاربات . ولهذه الاسباب اغتنم الاسبانيون الفرصة بتسيار اسطولهم في تلك الاطراف وهجموا على البورتغاليين ثم بعد ذلك انتهت سطوة البورتغال البحرية وانتقلت من بعدها الي الفلمنك والانكليز ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول

ان پياله بك الذي تولى قبودانية البحر بعد سنان باشا في ٩٦١ وان لم تكن نشأته من اللوند الا انه كان جريئاً وجسوراً ومفطورا على كمال الرشد والروية وذاتا ممدوح الصفات فاهتم بامور الاسطول باحسن اهتمام واقدام وجعل الامراء البحرية وعلى الخصوص طورغورجه باشا مسرورين فعلاً واستخدمهم والحق يقال انه خدم الدولة العلية خدمات جميلة واصلح اموراً جسيمة جدا وذلك انه في وقت تعيينه قبودانا ارسل ملك فرنسا سفيراً مخصوصا مستمدا من السلطان سليمان على امبراطور المانيا وفي ذلك الوقت كان السلطان سليمان في حرب العجم فاحال اجراء المقتضى بهذا الخصوص الى ابرهيم باشا الوزير الثاني الذي كان معيناً لمحافظة الاستانة وحينما كان المعسكر الهمايونى في صحراء ترجان كما بيناه في الفصل الرابع صدر من هناك الفرمان العالي وارسل پياله بك آمراً له ان يأخذ معه طورغورجه باشا ويتوجه في الاسطول الهمايوني لامداد فرنسا

وبمقتضى الفرمان العالي خرج پياله بك الى البحر في الاسطول وضرب اولا جهات پوليا واخذ منها غنائم لا تحصى ثم ذهب الى مياه نابولي لكونه سمع بوجود اندريا دوريا فيها على قيادة مراكب اسبانيا فغب وصوله اليها لم يجد فيها اندريا لانه كان لما بلغه الخبر فر منها هاربا ثم زحف على بعض حصون هناك بيد اسبانيا ففتحها واستولى عليها ثم اتحد بعد ذلك مع اسطول فرنسا وحاصر قلعة قاليبا وحيث ان عساكره لم يحصل بينهم حسن امتزاج مع عسكر الفرنسيس وكان غير ممكن ادارة الاسطولين معاً في صورة حسنة ونظراً لقرب ايام الشتاء عاد بالاسطول الهمايوني الى الاستانة وفي

هذه الحرب كان القبودان والقوماندان الرسمى هو پياله بك يشهد لذلك الفرمان المشار اليه المحرر من صحراء ترجان لكن قيادة الاسطول المعنويه بعد خير الدين باشا انما كانت لطورغورجه وبوجوده أنسى خير الدين

وبعد ان استولى خير الدين باشا مقدماً على وهران اسكلة تلمسان استولى عليها الاسبانيول اخيراً فذهب پياله بك سنة ٩٦٠ في الاسطول الهمايوني واستخلصها منهم وفي ٦٤ استولى على قلعة بنزرت الواقعة قريباً من تونس وفي ٦٥ ذهب في مائة وخمسين قادرغه وغزا ميورفه من جزاير اسبانيا وبعد عودته منها احسن اليه برتبة بكلربكية ايالة الجزائر علاوة على القبودانية مكافاة له

ثم وقعت البرودة حيناً بين طورغورجه باشا واشراف العرب واتحدت امراء العرب ومشايخهم مع الافرنج ايضاً وبهذه الوسيلة اشرأبت نفوس الافرنج الى الاستيلاء على طرابلس الغرب لكن كان اسطولهم في جزيرة جربا يقصد صرف فصل الشتاء فيها حتى اذا جاء الربيع تسلطوا على طرابلس فانهى طورغورجه باشا عن ذلك في ٦٧ وجربا هذه بلدة واقعة في الجانب الغربي على بعد مايتى ميل من طرابلس وهى جزيرة قريبة من الشط وفي الاصل كانت بايدي الاسلام واستولى عليها الاسبانيول وكان تأمين حوالي طرابلس موقوفا على فتح الجزيرة المذكورة وبناء على ذلك توجه پياله باشا الى تلك الجهة فيماية وعشرين قادرغة وذلك في عام ٦٧ وباثناء الطريق انضم الى اسطوله بعض الامراء البحرية مثل قورد اوغلى احمد بك امير رودس واولوج على البحرى المشهور وبعد ذهابه الى مالطه وغاراته وتخريبه منها كثيراً من المحلات ذهب الى جربا وكان اسطول الافرنج في تلك الجهة ولدى المقابلة اضمحل اسطول الافرنج فى المحاربة التى جرت بينهما غاية الاضمحلال وانهزم شر هزيمة . وفي اثناء محاصرة جربا مدة ثمانين يوماً وقع بها محاربات شديدة جداً وفي النهاية اخذت بالهجوم ومضايقة الاسبانيين من جهة المراكب ومن جهة العساكر كانت خارجة عن حد التعريف والتوصيف

ثم عاد پياله باشا للاستانة بهذا الانتصار في سنة ٦٨ ومعه اربعة الاف

اسير وثلاثة من مشاهير القپودانات والتمس له توجيه رتبة الوزارة العلية مكافاة له فلم يجوز ذلك حضرة السلطان سليمان خان وقال مضى الى الان على رتبة بكلربك المتوجهة عليه سنتان فاذا اعطيت له الوزارة هذه المرة يكون ذلك من العجلة ويتنازل قدر الوزارة العلية التى هى اعظم المراتب الدنيوية ولكن لما كانت رعايته ملتزمة ففضلا عن توقيره وترقيه بالاحسانات الوفيرة زوجه كوهر خان من الشهزادات اى بنت السلطان سليم . قال الكاتب جلبى ان عزة المناصب واعتبارها كانت في تلك العصور على هذا المنوال. ولكن في عصرنا صارت مبتذلة ولم يبق لها اعتبار ولم يبق للوزير القدر والاعتبار الذي كان لامير السنجق قلت فلو كان الكاتب جلبي في عصرنا هذا فماذا كان يقول وكيف كان يبين درجة تنزل المراتب واعتبارها

وفي تاريخ ٩٧٢ خرج پياله باشا الى حرب مالطه في ماية وخمسين مركباً وكان تعين مصطفى باشا الوزير الرابع سرداراً للاسطول ايضاً . ولكن لما كان اعتماد حضرة السلطان سليمان في امور المهام البحرية على طورغورجه باشا والي ايالة طرابلس الغرب السالف الذكر الذي كان بمثابة بارباروس في ذلك العصر صدرت ارادته العلية الى كل من السردار والقبودان قائلا لهم احترسوا بعدم الخروج عن رائيه وعند وصول الاسطول الهمايوني الى مالطه كان طوغورجه لم يات بعد فتركا امر ضرب قلعة مالطه واوقفوه لحين مجيئه وقال لابد لنا من ان ننظر شغلا الى ان يأتي وحيث رأيا من المهم فتح برج صانترمه المبنى لمحافظة المينا فابتدأوا بضربه بالمدافع . وفي مضى اليوم السابع من هذه المحاصرة أتى طورغورجه باشا باسطوله وعند خروجه الى مالطه تأسف على مباشرتهم حصار صانترمه وقال ماهى فائدة فتح صانترمه أليس من الممكن ضبطها اذا لم تؤخذ عنوة فالاصل هو قلعة مالطه لانه عندما تفتح دار الملك يدخل في اليد سائر اطرافها بسهولة وعند تقدير عدم دخول دار الملك في اليد فتكون المعالجة في توابعها من قبيل الاشتغال بالعبث وتكلم كلاماً كثيراً. ولكن ما الفائدة لانه حيث صار الشروع في ذلك فما امكن تركه واستمروا على حصار البرج المذكور وفي اليوم السابع عشر تيسر اخذه بالهجوم بعد ان استشهد ناس كثيرون وتعطل كثير من العساكر الذين ينتفع

بهم في الاشغال وجرح في اثناء المحاربة طورغورجه باشا الذي كان بمثابة الروح للبدن في اسطول الدولة العلية وفي اليوم الذي وقع فيه الاستيلاء على البرج المذكور انتقل بالوفاة الى دار البقاء وپياله باشا الذي كان شبيهاً له و بطلا في الحرب لم يلتفت اليه السردار بل لطف جميع العساكر بالبخاشيش والترقيات في الرتب ولم ينظر الى الغزاة واللوندات الذين كانوا فى قوله

وقبودان باشا ايضاً لم يعبأ به وكان لايراجعه ولا يتابعه في كثير من الامور فوقعت بينهما برودة وتركا مالطه وعادا . ولم يتفق في محل تلف فيه نفوس وصرف عليه مصاريف بهذا المقدار كما اتفق في هذه الغزوة وفي عودتهما الى الاستانة بالخجل جعل كل منهما يجلب اللوم على رفيقه ولكن حيث كان كلام عسكر الاسطول مثمراً ومؤثراً صار عزل السردار المشار اليه من الوزارة

وفي ٩٧٣ الحق پياله باشا جزيرة ساقز بالممالك المحروسه ثم بمروره على طرق پوليا خرب بعض القلاع والبقاع وبعد الفراغ من الغارة عليها عاد الى الاستانة في سنة ٩٧٤ وفي اثناء ذلك كان قد توفي السلطان سليمان وجلس على تخت السلطنة العثماني ابنه السلطان سليم واتى الى الاستانة في العسكر الهمايوني بعد وصول الاسطول الى الترسانه بعدة ايام ونظرا لكون پياله باشا من جهة انه قبودان باشا ومن جهة ثانية كونه صهر السلطان العظيم الشان احسن اليه برتبة الوزارة في مقابلة خدماته . ووجه مسند القبودانية على مؤذن زاده علي اغا الانكشاري لسابق خدمته في سكتوان

فوزارة پياله باشا ومكافاة علي باشا بهذه الصورة من واجبات استحقاقهما ولكن توجيه القبودانية على علي اغا الانكشاري كان من غرائب ذلك العصر وكان ذلك بعد السلطان سليمان داعياً لتوقف سفينة الدولة عن المسير في بحر الظفر كما كانت في الاول وكانت الاسباب الاولى التى ذكرناها مقدمة لتنزلها . وپياله باشا مع كونه كان ذاتاً في غاية الشجاعة والدراية والخبرة كانت ارادة حضرة السلطان سليمان خان له ان لايجرى حركة في عظايم الامور البحرية خارجة عن رأى المرحوم طورغورجه باشا وهو يرى ذلك من الواجب عليه وان لايكون خالياً من مشاورة ارباب الاهلية وبناء عليه اكتسب الوقوف على احوال

البحر وصار مظهراً لخدمات مشكوره

اما مؤذن زاده علي باشا فهو وان كان في نفسه جسوراً فانه موصوف بالشدة ومعتاد في حركته على اعجابه برأيه مع عدم وقوفه على احوال البحر فلذلك كان سبباً لفناء اسطول الدولة بالكلية على الوجه الذي سيأتي بيانه ادناه وذلك انه توجه لفتح قبرس في ماية وثمانين قطعة قادرغه وعشرة ماعونه وماية وسبعين بارجة وقره وبل وغير ذلك من انواع المراكب ومجموع ذلك ثلاثماية وستون مركبا وتعين لالا مصطفى باشا الوزير الخامس سرداراً على عموم العساكر واحيلت محافظة جانب البحر علي پياله باشا الوزير الثالث صهر الحضرة السلطانية ففي اوائل سنة ٩٧٨ وصل الاسطول على الوجه المشروح الى قبرص وافتتح وضبط كثيراً من محلاتها وفي الشتاء عاد پياله باشا وقبودان باشا الى دار السعادة وشتى السردار مصطفى باشا في قبرص وفي فصل الربيع تعين برتو باشا الوزير الثاني سرداراً للاسطول فاتى الى قبرص في مايتين وخمسين قادرغه ومعونه وسلم المهمات الى السردار مصطفى باشا وبالجملة بلغ الاسطول الهمايوني مع مراكب اللوند الى ثلاثمائة مركب ثم ذهبوا جميعاً الى انحاء رودس ليقطعوا خط سفاين الاعداء وفي مايس ٩٧٩ دخلت قبرص باجمعها في قبضة الاستيلاء

وهنا نذكر احوال الاسطول فنقول بعد وصول قبودان باشا وبرتو باشا الى رودس كما ذكرناه اقاما بعض ايام للاستراحة ثم اغارا على سواحل جزيرة اكريت ثم سار امير امراء الجزائر اولوج علي باشا بعشرين سفينة حربية ولحق بالاسطول الهمايوني وسافروا الى جزيرتي كفالونيا وقورفو وعاثوا وخربوا اكثر نواحيهما وبعد ذلك حاصروا قلاع الوندكيين (اسمبوث) و (اولكون) و (بار) الواقعين في اطراف الروم ايلي واستولوا عليها وجالوا مدة في تلك الاطراف ولما راوا ان فصل الشتاء قد حان اوانه ذهب قسم من العساكر الى محلاتهم والقسم الباقي رجع في الاسطول الى مرسى اينه بختى قبل ان يتلاقى مع سفن الاعداء وعند وصوله الى ليمان (اينه بختى) بلغه ان دول اروبا المتفقة كلمتهم جاءت اساطيلها وازمعت على الهجوم عليه وان الاساطيل المذكورة كانت اجتمعت في مسينه واقامت فيها

بدون أن تتظاهر في جهة ما في فصل الصيف منتظرة اواخره وهو
اوان فتور همم عساكر الاسطول الهمايوني وضعفهم فلما رجع الاسطول الهمايوني
الى مرساه في اينه بختي على الوجه المشروح حاصروه وكانت اساطيلهم تشتمل على
مائتي قطعة منها واحدة من نوع جكديرر وسبع قطعات من نوع ماونه وعشرون
قطعة من نوع بارجه وقطعتان جسيمتان من نوع القليون وكان اكثر مراكب
الجكديرر تحت رئاسة اندريا الخصوصية فاجتمع السردار برتو باشا ورئيس البحر
علي باشا واميرامراء الجزائر اولوج علي باشا واميرامراء طرابلس الغرب جعفر
باشا وحسن اغا ابن المرحوم خير الدين باشا وامراء خمسة عشر سنجقاً وسائر
اعيان العسكر وتشاوروا. فلم يرض اولوج علي باشا بالحرب وقال ان اسطولنا
ناقص وقد تجول منذ ستة اشهر في البحر فالمراكب معطلة وعند رجوعنا الى اينه
بختي اختل امر العسكر فعساكر السپاهيين والانكشارية تفرقوا فمنهم من ذهب بالرخصة
ومنهم بغير رخصة واسطول العدو لا يقدر ان يدخل داخل البوغاز وخروجنا
منه يجعلنا في خطر وتابعه على هذا الراي برتو باشا واما قبودان باشا حيث انه كان
شديداً متهوراً ولم يكن ذا وقوف على احوال البحر فقال ان الاوامر السلطانية التي
اتت تحثنا على مقابلة اسطول الاعداء في اي محل كان فينبغي العمل بها والا فالعتاب
يوجه عليكم. ثم قال فهل لم تبق لكم غيرة اسلامية ومحافظة على الزمام السلطاني.
فاذا كانت كل سفينة ناقصة خمسة او عشرة اشخاص فما الذي ينشا عن ذلك. وتابعه
الجميع في رأيه فقرروا الخروج والمسير الى الحرب اضطراريا. ثم قال اولوج
علي باشا حيث انكم قررتم الحرب فلنشق وسط البحر فعارضه قبودان باشا
وقال الاولى اننا نلازم الساحل في مسيرنا فاولوج علي باشا قال اين الذين
قابلوا العدو مع خير الدين باشا وشاهدوا الحرب مع طورغود رجه لم لا
يتكلمون وقال ان المركب اذا اصابه مدفع ربما يميل الى البر هرباً من
الغرق فيكون ذلك باعثاً لانهزام الجميع. فلما رأى كلامه غير مفيد قال فان
كان ولا بد فارفعوا الفنارات والبيارق الكبيرة والفلاندرات من المراكب
فاستهزأ القبودان بكلامه وذهب رايه سهللا. فالجأت الضرورة الى خروجهم
يوم الاحد السابع عشر جمادى الاولى سنة ٩٧٩ باسطولهم من مرسى
اينه بختي وسار برتو باشا في الميسرة واولوج علي باشا في الميمنة ورئيس باشا

سار في القلب وجملة المراكب مائة وثمانون مركباً ورتبوها على اسلوب الالاي وكان اسطول الدول المتفقة مقيما في ما وراء الرأس الكائن في جهة المورة القريب من البوغاز المذكور فارسل اولوج علي باشا الى قبودان باشا يقول الاولى نمر منحرفين امام سفن العدو التى هى من نوع الماونه والبارجة ولندخل من وراء العدو او من وسطه فقال لا يمكننى بان اكون سبباً في اطلاق اسم الهرب على اسطول السلطان وسار في الحال الى مقابلة العدو وبوصوله اليه خرج من اسطول العدو خمسون مركباً تقابلت مع القبودان ولم ير سائر المراكب وذلك لانها كانت وراء الرئيس فاطلقت المراكب الاسلامية النار على الخمسين مركباً المذكورة ابتغاء احراقها فخرجت مراكب العدو الباقية فيما وراء الرئيس واحاطوا بالاسطول الاسلامى واطلقوا عليه المدافع فخرج قبودان باشا في مركبه الباشترده وهجم على مركب ليحرقه ومن فناراته الثلاثة علمت الاعداء انها باشتردة قبودان باشا فهجموا عليه بسرعة وجاءت بارجتان ودهمتا باشتردة الرئيس في الوسط فاستشهد قبودان باشا واسر ولداه الاثنان وسائر من كان في الباشتردة المذكورة من الجند واغرق مركب پرتو باشا بالمدافع وبينما كان يسبح على وجه البحر صادفه حسن باشا وولده محمود بك فانقذاه الى مركبهما

اذا ذهب الرأس زلت القدم فعلى هذا المثل اذا ذهب الرئيس فسد الامر واستقل كل واحد برايه فاغرق بعض السفن الاسلامية بالمدافع و بعضها نشب في البر وستون قدرغه وقعت في يد العدو بآلاتها وادواتها واستشهد في هذه الحرب عدة امراء ورؤساء وكثير من المسلمين فلذلك سميت هذه المحاربة حرب اسطول السئامة

واما اولوج علي باشا فانه كان قرصانياً قديماً ماهراً وكان في الاصل من اتباع خير الدين باشا ومنه تعلم امور البحر ثم صاحب طورغورجه في حروب عديدة . فلما خرج الاسطول مال الى وسط البحر وعند ما رأى باشتردة قبودان باشا في قبضة الهلاك هجم على سفينة رئيس مالطة فاخذها واعدم الرئيس وبعد ان اغرق عدة مراكب من اساطيل الاعداء سار بسفن الجزائر في حال المدافعة الى موتون . ثم عرض اولوج باشا هذا الخبر

المخزن الى الاعتاب الشاهانية مع احد رجاله فوجه اليه مسند رئاسة البحر وأبدل لقبه بقليج وتحرر هذا اللقب في الامر وصاروا يدعونه قليج علي باشا اي السيف علي باشا ورئاسة البحر وان اعطيت وقتئذ لهذا الرجل الذي هو جدير بها فما الفائدة ولم يبق حينئذ اسطول ثم بهمم حضرة صوقوللي محمد باشا الصدر الاعظم التى تحير العقول افرز قطعة من البستان الخاص الواقع قرب دار الصناعة البحرية وانشأ فيها داراً لصناعة المراكب مؤسسة على ثمانية قناطر واسسوا مائة وخمسين سفينة من نوع قدرغة وثمانية قطع من نوع ماونة واتصل العمل فيهم في ذلك الشتاء بجد واجتهاد تام وفي الربيع تم اسطول مثل الاسطول الذى تلف وكان في اعتقاد دول اوربا ان الدولة العلية لا تقدر في تلك السنة على اخراج اسطول الى البحر فاذا بقليج علي باشا خرج في سنة ٩٨٠ الى البحر في اسطول مؤلف من مائتين واربعة قطع من نوع قدرغه وثمانية ماونه ولكن الاسطول في تلك السنة اكتفى بالمحافظة على حركاته متجنباً سفن الاعداء لكون الرجال الذين كانوا قائمين بالإشغال وكانوا بمثابة الروح للاسطول تلف منهم كثير في هزيمة الاسطول في السنة الماضية وباقى العسكر استولى عليهم الفزع

وفي سنة ٩٨١ حينما كان پياله باشا سرداراً خرج قليج علي باشا الى البحر في مائتين وثمانية وخمسين قدرغه واثنى عشر ماونه وغار على بعض البقاع والقلاع في سواحل ايتاليا

وبعد ذلك في سنة ٩٨٢ عند ما كان سنان باشا فاتح اليمن سرداراً جهز قليج علي باشا مائتين وثمانية وستين قدرغه وقاليته وخمس عشرة ماونه وخمسة عشر قليوناً وخرج الى البحر الابيض وبعد ان غار على سواحل مسينه استولى على قلعة حلق الواد المسمى (مرسى تونس) التى كانت بيد الاسبانيول وبعد ذلك خربها بقنابل المدافع واستولى على بلاد تونس وصيرها من الممالك المحروسة ونصب رمضان باشا والياً عليها

ومن بعد ذلك الى حين ظهور حرب اكريد لم يخرج اسطول الى البحر الابيض لاجل الحرب وانما كان مقيدا بالمحافظة ثم في عصر السلطان مراد خان الثالث والسلطان محمد خان الثالث في ايام قبودانية سنان باشا ابن جماله

وخليل باشا حصل بعض انتصارات بحرية

وبعد ان فتح حرب كريد في سنة ١٠٥٤ استعملت مراكب القليون في الاسطول الهمايوني واما قبل ذلك فكان يستعمل القليون الذي هو من نوع البورتن . ثم كثرت القلايين بالتدريج وسيقت المهمات والعساكر الجرارة في جملة الاسطول الهمايوني الى كريد وجرى الاستيلاء على قلعة خانية اولا وبعد ذلك شرعت سفن البدقين في قطع طرق كريد حتى ان ثلاث سفن كانت آتية بجنود من الاستانة الى كريد تعرضوا لها واغرقوا احداها بمن فيها من المسلمين وكان فيها ٤٢ مدفعاً واوقعوا بعض التلف في الاثنتين الاخريين ولكنهما انقذتا بعد ذلك . وكانت صناعة البحر في الاوقات الماضية ترقت بين الاسلام كثيراً وتغلب اسطول الدولة العلية على جميع اساطيل اوروبا الا انها اخذت بعد ذلك تتناقص تلك الصناعة من الاسلام بالتدريج وازداد رواجها في بلاد اوروبا اكثر من الاول ولا سيما الصناعة الشراعية وكذلك ترقت صناعة القليون فصارت اساطيل الدولة لا تقوى على مقاومة اساطيل الافرنج وبينما كان اسطول الدولة المؤلف من ١٤٠ مركباً راسياً امام خانيه للمحافظة عليها وكان الاهتمام جاريا بوضع المدافع على جانبي المرسى للمحافظة كانت سفائن البندقين الآتية لامداد سودا مؤلفة من ١٠٠ قطعة من جكديرر وبورتن وماونه تجول في الاطراف بقصد التهديد بدون مبالاة وبعد قليل هجم اسطول البندقين على سفن الجزائر مع سائر السفن الراسية خارج خانيه فاطلق عدة مدافع عليها وعلى القلعة وتقدم منه خمس سفن نارية لاحراق السفن الاسلامية غير انه قبل وصولها اليها تنبه المسلمون وعلموا انها من السفن النارية فلم يكن منهم الا انهم حملوا الكلاليب واغرقوا سفنهم بايديهم بدون أن تلحق بهم سفن العدو واذ كان يتعذر على البندقين الاستيلاء على قلعة سودا تعرضوا الى سواحل كريد فاستولوا على اكثر ثغورها . وفي ايام الشتاء ثارت انواء عظيمة في خانيه فاغرقت عدة سفن اسلامية وفي ربيع تلك السنة رجع اسطول البندقين الى اعماله وقطع طرق كريد فتعذر حينئذ على الدولة نقل الذخائر الى كريد على الوجه المرغوب فيه ثم خذ اسطول البدقين ياتي كل سنة في موسم الربيع الذي يخرج فيه الاسطول

الهمايوني الى البحار فيقطع عليه الطريق فيها فتعذر ايضاً لذلك خروج الاسطول الشاهاني على عادته الى البحر الابيض فاضطرت الدولة الى ارسال شيء من الذخيرة على ظهور مراكب بعض امراء البحر من الاجانب

ولهذا لم يتيسر فتح كريت تماما وهذه الاسباب التى قضت بامتداد حروب جزيرة كريت عدة سنين ولو وجد اسطول يضاهى اسطول البندقيين قوة لما استمرت ثلاث سنوات

وحيث ان الاعداء كانوا يتجولون في البحر بمراكب قليون ويستعملونها اثناء الحروب بالشراع ويدوسون بها السفن المسماة قدرغه فاضطر الاسطول الهمايوني الى التباعد عنهم فان مراكبه قدرغه لا تقوى على مقابلتهم وهم راسون فكيف بهم وهم يسيرون فتعين على الدولة حينئذ ان تنشىء مراكب نوع قليون ليتيسر لها مقابلة القليون بالقليون فتقرر انشاء القليونات وذلك في زمن جلوس حضرة السلطان محمد الرابع وفي ايام صدارة ملك احمد باشا سنة ١٦٠١ شرع في انشاء قليون طوله ٦٠ ذراعا في محل اسمه ﴿ باغجه قبو ﴾ واذ كان صنعه غير تام كما ينبغى غرق عند انزاله الى البحر. ثم انشىء عدد كاف من نوع جكديرر وبورتن على الطرز القديم واخذوا في تكثير القليونات شيئاً فشيئاً وعين لها قادة تخصها حتى انه في سنة ١٠٦٤ لما وصل الاسطولى الهمايوني الى الخليج وجد في خارجه اسطول البندقيين راسياً حسب عادته فساق عليه اولا القليونات ثم الماونات ثم الجكديرر ووقعت بين الفريقين حرب عظيمة فاضطر البندقيون الى ترك الخليج

وقد ظهر نفع هذه القليونات ولا سيما ان قائدها المسمى امير قبودان بك ابرز في هذه الحرب شجاعة فوق العادة ثم خرج اسطول الدولة من البوغاز والحق به قلايين مصر وتونس و١١ قطعة من قلايين الجزائر واغار على جزيرة استنديل وخربها ثم وقع بينه وبين اسطول البندقيين حرب شديدة في جهات دكرمنلك

ثم ان الاسطول الهمايوني لما وصل الى الخليج سنة ٦٥ ووقعت بينه وبين اسطول البندقيين حرب عظيمة على المنوال المشروع اعلاه خسر عدة قطع من سفنه وكذلك البندقيون فقد تلف لهم خمس او ست سفن والباقى

منها تكسر وتحطم فاكرهوا على الرجوع والذي ظهر نفعه في هذه المحاربة هو عدة من القلايين اما الباقون فقد ثبتوا مدة وجيزة في الحرب ثم تخلصوا الى جزيرة مدللو وبعد ذلك اجتمع الاسطول الهمايوني في ساقز واعادوا الماونات والقليونات بدعوى انها لا فائدة فيها كما ينبغي وساروا في البحر بمراكب الجكديرر

والسبب في ترك القليونات هو انه لما كان حسن استعمالها موقوفاً على المهارة في صنعة الشراع وكان في ذاك الوقت رجال البحر لم يكتسبوا حذقا في هذه الصنعة وفق المطلوب لم يتسن استعمال القليونات كما يجب فاصبحت مراكب چكديرر هى المعول عليها في الاسطول الهمايوني اما القليونات فلم تستعمل الا لدفع البندقيين من الخليج وهى للاسطول الهمايوني بمثابة معين ولما كان البندقيون في ذلك الوقت ذوي مهارة كلية في امر البحارة فلم يتيسر للعثمانيين فتح الخليج في كل سنة حتى انه في سنة ٦٦ كان تهيأ اربعون مركباً من نوع قدرغه وعشرة ماونة و٣٠ قليون فعجلت هذه المراكب وسارت قبل ان تستكمل لوازم الاسطول الهمايوني ومعها عشرون مركباً من مراكب البكوات ولما وصلت الى الخليج هالها الامر ولم تستطع مقابلة مراكب العدو ومقاومتها وهى سبعون سفينة للبندقيين متنوعة من مراكب چكديرر وماونة وبورتن كانت هناك لسد الطريق وبهذه المحاربة التى جرت بين الفريقين آل امر الاسطول الهمايوني الى حالة الاضمحلال التام وانهزم هزيمة تماثل هزيمة اسطول السئامة التى وقعت في اينه بختى

وفي تلك السنة صار محمد باشا كوبريلي صدراً اعظم فارسل مع قبودان باشا في ايام الشتاء المراكب الاربعين من نوع چكديرر التى تم انشاؤها الى اطراف استانكوى وردس لتكون في الخارج قوة بحرية قبل مجيء اسطول الافرنج الى الخليج وفي ايام الربيع اضيفت السردارية الى الصدر الاعظم محمد باشا كوبريلي فذهب الى الخليج ومعه ١٩ قليون و١٠ ماونات و٣٠ قدرغة وباشترده مع ١٥٠ فرقته وسائر ما في الاستانة من القوارب وفي هذه المرة ايضاً انهزم الاسطول الهمايونى في الحرب التى وقعت بينه وبين اسطول البندقيين في الخليج

والحاصل ان البندقيين كانوا يحاصرون الخليج في كل سنة ليقطعوا ارسال العساكر والمهمات الى اكريت على الوجه المرغوب للدولة العلية وكانوا يقيمون خارج الطراف القلعتين اللتين بنيتا في ايام الفاتح لاجل المحافظة على الخليج وفضلاً عن كونهم لم يدعوا السفن تمر الى الخارج فانهم كانوا يختطفون السفن التى تأتي الى الاستانة من سائر الجهات على ان الخليج وان كان قد فتح مرة او مرتين بقوة مراكب القليون الا انه لما كانت دار صناعة الدولة العلية معطلة الى ذاك الحين من عدم عملة للقليونات ماهرين وقعت تلك الكسرات العظيمة كما سبق بيان ذلك واستمر الخليج مسدوداً فاضطر محمد باشا كوبريلي الى بناء قلعتين متقابلتين في الجانبين السفليين من فم الخليج ازاء القلعتين المذكورتين قبلاً على مسافة ٢٠٠ ميل منهما

ومع كون انشاء القلايين يكلف كثيراً من النفقات فانه لم يحصل الوقوف التام على كيفية استعمالها فلذلك لم تنتظم احوالها ولم تنفع بشيء كما هو مرغوب فمن كون اصول استعمالها يخالف اصول استعمال الجكديرر المستعملة في دار الصناعة العامرة وكان يقتضى ان يكون جندها مستقلاً مرتباً على صورة مخصوصة فقبودان باشا وامراء البحر وسائر رجال دار الصناعة العامرة كانوا يستثقلون طائفة القلايين حسداً لهم وكانوا يقولون انهم طائفة حادثة فاذا انتظمت احوالهم وقاموا بالاشغال يشتهرون ويفوقون على امراء البحر وسائر رجاله فيحصلون على النظر الشاهاني فيصيرون صنفاً مستقلاً كصنوف عساكر الغرب فلذلك كانوا يستصغرونهم ويتهاونون بامورهم وبهذا السبب لم يتسن للدولة ان تحسن احوال مراكب القليون لصرف النظر عن انشائها تماماً في زمن صدارة فاضل احمد باشا ولذلك جهز اربعين قطعة من مراكب دار الصناعه واربعين مركباً من مراكب امراء البحر لاجل المحافظة على البحر الابيض وجرت المحافظة مدة بواسطة هذه المراكب واستعملوا قلايين التجار في نقل الذخائر والمهمات فقط اما في مصر وتونس والجزائر فانهم لم يتركوا القلايين لانها هى وسفائن شهتية كان المعول عليها في الحروب عندهم وكان يوجد ايضاً في تلك الجهات مهرة في فن البحر فاسطول الدولة كما قلنا وصل الى درجة لم يستطع معها مقاومة اسطول البندقيين في

ميدان الحرب واما مراكب تلك الجهات المذكورة فانها تسافر في البحر بدون ان تبالي باساطيل اوربا حتى انه سنة ١٠٧٩ وقع بين قلايين الجزائر وتونس وبين قلايين البندقيين حرب في مياه كريت دارت فيها الدائرة على البندقيين فغرق من قلايينهم مركبان يحمل كل واحد منهما سبعين مدفعاً واستولوا على قليونين من هذا النوع ايضاً

ثم لما اخذت قوة الدولة العلية البحرية في الانحطاط زالت شوكتها في سواحل الهند واليمن والحبش وقل نفوذها في البحر الابيض وزالت تلك الفتوحات والترقيات التى كانت تقع على التمادي في كل مكان فاكتفت كما تقدم بفتح بعض الجزر كاكريت وحصرت نظرها في المحافظة على الممالك الموجودة في قبضة تصرفها وكان هذا ايضاً من اثار همم وحمية الصدور العظام كالكوبريليين

وحيث تجددت برودة الحال بين الدولة العلية وبين البدقيين في زمن صدارة قره مصطفى باشا وكان لا يتيسر اخذ الثار منهم الا بغلبتهم في البحر فاستحصل سنة ١٠٩٣ على ارادة شاهانية بانشاء قلايين حربية وباشر في انشاء عشرة منها ذوي انابر ثلاث او اربعة يحمل كل قليون منها ثمانين مدفعا من معدن النحاس الاصفر والستة الباقية يحمل كل واحد منها ستين مدفعاً وكان طول بعض هذه القلايين خمسين ذراعا وبعضها خمسة واربعين ذراعا وجعل ادارة خمسة منها برئاسة ابرهيم باشا المصري من امراء البحرية وسمى الرئيس قبودان باشا والخمسة الباقية برئاسة بابا حسن بك الجزائري وسمى قبودانا ثانياً وخصص لكل منهما بعض السناجق ليأخذوا مال الميرى منها سنة فسنة وامر بمحافظة مارة رودس وصار رجال القلايين صنفاً مخصوصاً ممتازاً عن سائر صنوف دار الصناعة البحرية وعينت ايضا الى روسائهم واغاواتهم وجاوشياتهم ومعلميهم وطوبجيتهم ولسائر الافراد منهم رواتب كافية مثل رجال البحر في الغرب واستجلبت رجالا ماهرين في استعمال القلايين من صنوف رجال البحر فى الغرب فانتظمت بذلك امور القلايين كما ينبغي. وفي سنة ١٠٩٦ خرج الى البحر الابيض مصطفى باشا المعروف بمصاحب امير البحر بستين سفينة فمر بخليج سيسام حتى بلغ جزيرة رودس فكان

الخروج من الخليج المذكور والوصول الى رودس في البحر يعد ظفراً كبيراً وذلك لان اسطول الدولة العلية بقى مدة لا يتيسر له المرور في خليج سيسام وفي سنة ٩٧ نال ابراهيم باشا ابن المصري رتبة الوزارة وصار اميراً للبحر وتولى الرئاسة الاولى للقلايين بابا حسن بك وخلفه في موضعه الاول علي بك وفي خلال هذه السنة وقع بين قلايين الدولة و بين قلايين البندقية حرب عظيمة دارت فيها الدائرة على البندقيين ثم ان بابا حسن باشا مات بعد ذلك مطعونا فاحيلت ايالة قبرص التى كان متصرفاً فيها الى علي بك الذي صار رئيساً اول واعطى توغان ولواء اسكندرية الذي كان متصرفاً فيه على بك مع توغ واحد اعطى الى قبودان ممى الذي سمى رئيساً ثانياً للبحر

وعلى هذه الصورة كثر عدد القلايين في الدولة ونال روساؤها وامراؤها الاعزاز والتوقير وكثر ارباب الوقوف والاطلاع على امورها فترقت امور القلايين في دار صناعة الدولة العلية البحرية حتى انه لدى استيلاء البندقيين على ساقز سنة ١١٠٦ خرج الى البحر عموجه زاده حسين باشا وهو رئيس البحر وقره مورته حسين باشا رئيس القلايين بعشرين قطعة من القلايين المرتبة المنظمة واربعة وعشرين مركباً من نوع جكدير رفوقعت بينهما وبين البندقيين فى جهة جزائر قيون حرب كان الظفر لهما فتلف عدد من البندقيين وتشتت شمل الباقى فاضطروا الى الرجوع مهزومين الى جهة ساقز وبعد عدة ايام وقع ايضاً بين الاسطولين حرب ثانية انكسر فيها اسطول البندقيين واحترق منهم قلبون يحمل خمسة وخمسين مدفعاً وتحطم اربعة مراكب من نوع (ماونه) جكدير ر وفر الباقون منهزمين واستخلصت جزيرة ساقز من ايديهم

ولما تبين للدولة ان الظفر الذي بلغته لم يكن الا بواسطة القلايين عينت عموجه زاده حسين باشا ماموراً بمحافظة ساقز ووجهت لعهدة قره مورته حسين باشا امارة البحر مكافاة له على خدماته المشكورة المشهورة التى اداها في المحاربات البحرية فاهتم هو ايضاً بتكثير القلايين وتنظيم امورها وقد كان النصر ابداً في جانب الدولة العلية في سائر الحروب التى وقعت مع البندقيين في البحر سنة ١١٠٩ و ١١١٠ و ١١١١

وعلى هذه الصورة اكتسبت المراكب البحرية عند الدولة العلية جسامة عظيمة فاخرجت الى البحر الابيض سنة ١١١٤ عشرين قطعة من القليون مع ستة مراكب لامراء البحر من نوع جكديرر وفي البحر الاسود رتبت خمسة مراكب من القليون وعشرين قاليته مع خمسة عشر مركباً لامراء البحر فيه من نوع جكديرر وخمسة وعشرين قطعة من نوع شايقه وزيادة على ذلك فقد رتبت في نهر الطونة اسطولا مؤلفاً من نحو مائتي قطعة من فرقتـه وقاليته وشايقه وغير ذلك من السفن المعبر عنهـا (اوستى اجيق) اي مفتوحة الظهر

وايضاً في اوائل عصر السلطان احمد الثالث صرفت الهمة الى اكمال الامور البحرية وانشىء مجدداً قليون كبير . وفي تاريخ سنة ١١١٩ أغار امير القلايين محمد قبودان المعروف (بجانم خواجه) بعشرين قليونا على جزائر اسبانيا وبعض السواحل وعاد بعد ان خرب قلعتين ورسى امام جزيرة مالطه وفي اثناء ذلك هجم قبودان البترونة الذي هو مصطفى قبودان في قليونين كانا معه على قلايين مالطه التى كانت تجول بين الجزر الاسلامية واحرقها

وعلى هذه الصورة تقدمت صناعة القلايين في دار الصناعة البحرية عند الدولة العلية فصار الاسطول الهمايوني كله من المراكب القلايين وصارت السفن الاميرية التى هى من انواع الجكديرر تستعمل لمعاونة الاسطول فقط وكان الرجال الذين ينالون منصب القبودانية يركبون الباشترده الهمـايونية وهم بمثابة السردار الذي كان قبلاً يترأس الاسطول الهمايوني وبالغالبة صاريطاق قومندان الاسطول على قبودان القلايين والقليون الذي يركبه قبودان القلايين يسمونه قبوداني همايون وللقبودان الثاني بترونه الا ان بعد ذلك تركت الباشترده راساً وصار يقال لقليون القبودان (پاشا كميسى) اي مركب الباشا وللقبودان عنوان بك والى ثانيه بترونه بك والى ثالثه رياله بك

ولم يكن يعمل قبلا في الاستانة ما يلزم للقلايين من الحديد وقدر ثقل ذلك سبعون او ثمانون قنطاراً وانما كان يجلب من انكلـترة غير انه ظهر سنة ١١٢٠ من وجاق عملة القنابل رجل يقال له اوسطه علي وكان ماهراً بالفنون العديدة فانشىء بتعليمه وراء قناطر دار الصناعة البحريـة معملا

جديداً وفي مدة وجيزة عمل الياطرات اللازمة للقلايين على وفق المطلوب فاستغنت الدولة عن الحاجة الى الاجانب في هذا الخصوص وفي ذلك الاوان انشيء ايضاً سفينة من نوع باشترده وسفينة ثانية من نوع قليون يبلغ طولها ٥١ ذراعـاً

وفي اثناء ذلك كان يخرج جانم خواجه محمد قبودان المذكور الذي صار قبوداناً للقلايين المعروفة (قبودانىء همايون) لاجل محافظـة البحر الابيض واتصل خروجه مدة سنة او سنتين استولى فيهـا على عدد وافر من قلايين القرصان الجسيمة ثم يعود الى دار السعادة مظفراً وزيادة على ذلك فانه تغلب في آخر الامر على البندقيين في الحروب التي وقعت مراراً بينه وبينهم سنة (١١٢٨ و ١١٢٩) حينما كان قبودان البحر

وفي الايام الاخيرة في مدة السلطان احمد خان ايضاً انشيء سفينة ذات ثلاث مستودعات طولها ٦١ ذراعاً ونصف وقطعتان تعرفان بقره وله ثم انشيء ايضاً سفينة ثانية من القليون ذات ثلاث مستودعات وبعد ذلك في عصر السلطان محمود الاول انشيء بادىء بدء قليونان ثم انشئت القـلايين المسماة تحفة الملوك ومراديه وفاتح بحري وبر بحري (اي جنـاح البحر) وناصر بحري وبريد الظفر وزيور بحري وسفينـة ذات ثلاث مستودعات وانشيء في عصر السلطان مصطفى خان الثالث قليون اسمه حصن بحري اما القليون المسمى بر بحري وهو الذي تقدم ذكره فقد كان عند الاقتضـاء يسير بالمجاذيف مثل الجكديرر وكان مصنوعاً على طرز في غايـة الحسن والجودة بين المراكب الجديدة مشتملاً على صنائع عجيبة

فعلى هذه الصورة كانت قوة الدولة في البحر قد تجددت واتسعت الا ان الحروب البحرية بعد ذلك اهملت وتركت مدة مديدة الاسطول الهمايوني فكان يخرج للبحر الابيض على الوجه المعتاد لاجل المحافظة فقط وفي فصل الخريف يرجع الى دار الصناعة العامرة . فمن هذه الجهة لم يكن يوجد في دار صناعة الدولة العلية رجال من ذوي المهارة واصحاب العلم فعندما كانت تذهب العساكر ورؤساء البحر في الاسطول الهمايوني الى البحر الابيض لم يكن يترتب على ذلك سوى نهب الرعايا المساكين في الجزر وترقت الفنون البحرية

في ذلك الوقت في اوربا كل الترقى بسبب اتساع دائرة المعارف والصنائع فيها وكان رؤساء البحر عند الدولة مع كونهم معدودين في جملة اركان الدولة والسلطنة فانهم يجهلون الفنون البحرية . وفي الغالب كان لا ينظر الى الاهلية في توجيه المناصب البحرية بل كانوا يجهلون ان الاسفار البحرية تتوقف على معرفة علوم جمة وفضلاً عن عدم قوة الاسطول لمقابلة اساطيل الدول البحرية في اوربا لم يكن في امكانه ان يدفع القرصان الذي كان يتجول في البحر الابيض حتى احتاج الحجاج والتجار الذين يسافرون الى مصر الى سفن مامونة تحميهم من القرصان

ومع كون امور دار الصناعة البحرية على هذه الحالة من الخلل والتشويش فقد كانت مصاريفها باهظة واذا انشىء قليون واحد في عدة سنين كان يكلف الدولة عشرة اضعاف ثمنه حتى ان السفن التى خربت لاجلها القضاوات بوسيلة جلب الاخشاب منها وبوسائل اخرى كانت لا تنفع في الحروب اصلاً وذلك لان جهات مؤخرها كانت مملوءة بغرف عديدة وكانوا ايضاً يستعملون الاخشاب قبل جفافها حتى اذا جفت انفصل بعضها عن بعض

والحاصل ان واردات دار الصناعة والاماكن المخصصة الى چكديري باشا لقلري ﴾ وكذلك ما يجمع من الضرائب التى كانت معينة باسم قبودان المراكب صار نهبة لرجال الدولة ورؤسائها وكانت العساكر البحرية المعروفة بقليونجى عبارة عن اشخاص عديمى الحمية والشهامة يشتغلون بتجارتهم ويتعرضون لاعراض الناس فلا يأتي منهم نفع وقبودانية المراكب كانت تنال بالرشوة فيشتريها من لا خبرة لهم باحوال البحر يتناولون المبالغ الكلية المخصصة من طرف الدولة باسم علوفة قليونجى ويقتسمونها بينهم وفي حرب سنة ١١٨٢ كانت احوال البحرية على هذا المنوال وكان لدولة روسيا في بحر البلطيق اسطولا مؤلفاً من خمسة عشر قباق وست فرقتين وعدة من السفن الصغيرة بادارة علكسى اورلوف وبمعيته الاميرال اسبريدون فخرج الى البحر الابيض من خليج سبته ولما وصل الى مياه الموره سنة ٨٤ ارسل حسام الدين باشا امير البحر الاسطول الهمايوني الى البحر الابيض لمدافعته وهو وان كان اكثر عدداً من الاسطول الروسى الا انه كان يوجد في

الاسطول الروسى عدد كثير من رجال الانكليز والدنيمارك وسائر اوربا الماهرين بفن البحر وكان فيه ايضاً كثير من اميرالية الانكليز وكان رؤساء الاسطول الهمايوني اذ ذاك لا علم لهم بشيء من الامور البحرية والحيل الحربية واكثر عساكره من الفعلة والزراع الذين جمعوا بالجبر من الاطراف والاكناف وكانوا لا يحسنون ادارة المراكب بل لايترتب على وجودهم فائدة في الحرب ولا يستطيعون الوقوف على اقدامهم لدى ظهور ادنى تلاطم للامواج غير ان حسن بك الجزائري الذي كان رئيس السفينة المعروفة بقبودانة همايون الحاملة تسعين مدفعاً اعنى الغازي حسن باشا المشهور بالشجاعة الذي بقى مؤخراً مدة طويلة امير البحر ايام السلطان عبد الحميد خان الاول وهو في الاصل قد تعلم فن البحر في الجزائر قد قابل الاعداء في اطراف جزيرة قيون وباشر الحرب هناك مع قليون الاميرال اسبريدون الروسى المذكور فاظهر في هذه الحرب الهائلة من الشجاعة والاقدام ما شهد به العدو والصديق وفي نهاية الامر احترق المركبان وطيرهما الهواء ومع ذلك فقد تمكن حسن بك من انقاذ نفسه بالسباحة وسيفه في فمه وكذلك اسبريدون تمكن من النجاة بكل صعوبة . وفي اثناء هذه الوقعة المدهشة حصلت الهدنة بين سائر السفن ثم عادوا الى الحرب ثانياً وفي المساء افترقا عن بعضهما ثم ان قبودان باشا لجهله بفن البحر ادخل الاسطول الهمايوني الى مرسى چشمه واستدعى البلاء لنفسه فقرب اسطول الاعداء الى فم المرسى وشرعوا في الحرب وادخلوا جملة قطع من قوارب النار بمعرفة امراء الانكليز الى داخل المرسى واحرقوا الاسطول الهمايوني اجمع

بسبب ذلك انسد طريق البحر الابيض عن الاستانة ووقع اهلها في شدة من جهة غلاء الاسعار ولما لم يكن في الامكان سرعه انشاء سفن في الحال تكفى للمحافظة اعتزمت الدولة على شراء خمسة مراكب من جمهورية الونديك وامثالها وراسلتهم في ذلك بواسطة سفرائهم المقيمين في الاستانة وعرضت عليهم في اثمانها مبالغ وافرة فبعد ان ماطلوها مدة ارسلوا كتباً يعتذرون فيها بان بيع السفن ينافي الحزم والاحتياط في اثناء حرب دولتين عظيمتين ثم عرضوا بتقريع الدولة وقالوا اننا مع كوننا نحتاج الى تحصيل

آلات السفن وادواتها من خارج ممالكنا فانه يوجد عندنا سفن تؤلف اساطيل عديدة وانتم يوجد في ممالككم جميع اللوازم لانشاء السفن ومع ذلك فانكم لا تحتاطون لامركم بل تغفلون عن تداركه بانشاء سفن عديدة تكفي لتأليف اساطيل متعددة

وبناء عليه تولى وقتئذ حسن بك الجزائري السالف الذكر قبودانية البحر وقام بمحافظة البحر الابيض بما قدر على جمعه من السفن المنتظمة وغير المنتظمة ثم اهتم بعد ذلك بتجهيز اسطول احسن من الاسطول الذي احترق قبلا ولم يكن اهتمامه متعلقاً بانشاء السفن فقط بل كان جل اهتمامه في الحصول على رجال ماهرين في ادارة السفن ومع ان الحرب المذكورة كانت للدولة العلية بمثابة بحث كبير فقد بقي نظام امور الدولة لا يتعدى حد اللسان وكانت الرشوة سارية في جميع الامور حتى في نصب روساء السفن فلم يكن يبحث وقتئذ عن الاهلية والاستحقاق

وامارة البحر هي رتبة رفيعة ومصلحة عظيمة عند الدول البحرية وكان عرب الغرب والاندلس في اشتغالهم بالأسفار البحرية اكتسبوا الكمال في فن البحر وكان رئيس الاسطول عندهم يسمى امير البحر وكانت امارة البحر بينهم منصباً كبيراً ولفظ اميرال المستعمل الان في اللسان الافرنجي هي ماخوذة ومخففة عن لفظ امير البحر او امير الماء ومعناها في لساننا قبودان البحر

ولفظة قبودان ماخوذة ايضا من اللغة الايتالية ومعناها في الاصل ﴿ باشبوغ ﴾ اي الرئيس وسبب ذلك ان الدولة العلية عندما اهتمت بتكثير الاساطيل واكمال الفنون البحرية استجلبت اساتذة السفن ومعلمي البحرية من البندقيين لانهم كانوا ماهرين في فن صناعة السفن وكانوا غالبين حينئذ على اهالي جينوه الذين كانوا ذوي نفوذ واقبال في البحر فاستخدمتهم الدولة العلية في الامور البحرية ومن المعلوم انه اذا انتقل فن من بلدة الى بلدة اخرى تنتقل معه الالفاظ والاصطلاحات المتعلقة بذلك الفن ويكون ذلك في مقام الترجمان ايضاً فلذلك بقي في اطراف اسبانيا كثير من الالفاظ العربية المنقولة عن عرب الاندلس وكذلك البندقيون تعلموا كثيراً من

التعبيرات التى تناولوها عن مدرسة دار الصناعة العامرة التى كانت بنتها الدولة الايوبية في الاسكندرية زمن قوتها وسطوتها ونقلوها الى لغتهم هكذا الدولة العلية فانها عندما اكملت امور الاسطول البحري دخل في لغتها قسم كبير من كلمات الايتاليان فكانت اكثر اصطلاحاتها البحرية مأخوذة عن لسانهم وعلى هذه الصورة اخذت لفظة قبودان واستعملت فكان يقال في الدولة العلية لأكبر الاميرالية اولا ﴿ دريابكى ﴾ اي امير البحر وبعده ﴿ قبودان دريا ﴾ اي رئيس البحر وبعده اضيف الى القبودانية لفظة باشا فصار يسمى قبودان باشا

وعلى هذا فان كلمة لوند التى تطلق على عساكر البنادق في السفن انما هى ماخوذة من لغة الايتاليان ومحرفة عن كلمة ﴿ لوانتى ﴾ ومعنى لوانت في لغة الايتاليان الشرق وعند ما ضبط البندقيون في جهة الشرق خردات وارناود تداركوا من اهالي تلك الجهات رجالا للحرب يستخدمونهم في السفن فيسموهم ﴿ لوانتى ﴾ ومعناه ﴿ شرقى ﴾ واللفظ المذكور قد تحرف في اللغة العثمانية فصار يقال لعساكر الاسطول ذوي البنادق ﴿ لوند ﴾ ايضاً

وفي اوائل الدولة العلية كان اكثر القبودانية ينالون سنجق كلبولي برتبة ﴿ سنجق بكى ﴾ اى امير السنجق الا نه كان يوجه منصب القبودانية مع اللواء المذكور بحسب الاقتضاء الى بعض الوزراء على سبيل العلوفة ومن التفصيل الذي سنأتي عليه ادناه يعلم ان خير الدين باشا حينما اتى من الجزائر الحقت امارة امراء الجزائر برتبته التى هى قبودان واخيراً عند ما صار پياله بك قبودانا للبحر برتبة امير اللواء اعطيت له بعد ثلاث سنين رتبة امارة امراء الجزائر ايضاً مكافاة له على خدمه المبرورة

ثم بعد ذلك سمى لواء كليبولي ﴿ باشا سنجاغى ﴾ اي لواء الباشا واللواء المذكور مع سنجق اغريبوز واينه بختى ومدللو وصيقه جق وقوجه ايلي وقارلى ايلى ووردوس وليقا ومزستره في الموره وساقز ونقشه ومهديه وانضم بعضها الى بعض فصارت ايالة واحدة باسم قبودان باشا واطلق على متصرفي هذه الالوية اسم امراء البحر وكان كل منهم يذهب الى الحرب بمركب او اثنين وبناء على ذلك فكما كان للدولة العلية عسكر بري ذو رواتب باسم

قبوقولي وهم ٤٠ او ٥٠ الفاً مقيمون في الثكن ونحو مائتى الف من العساكر المعروفة بالسباهيين ذوي التيمار في الايالات كذلك كانت عساكرها البحرية تنقسم الى قسمين فالقسم الواحد يسمى خَلِق دار الصناعة البحرية وهى طائفة العزاب من ذوي الرواتب وتبلغ نحو الفين وخمسمائة نفس والقسم الثانى كان من الامراء وارباب التيمار والزعامة من السناجق الكائنة داخل ايالة قبودان باشا وكان هولاء العسكر البحريين يبلغون اكثر من عشرة آلاف ثم لاجل تكثير القوى البحرية الحق بايالة قبودان باشا بعض الالوية المجاورة للبحر من سائر الايالات البحرية والحق ايضاً وجاق يايا ومسلم القاطنين في ايالة الاناطولي الى دائرة البحرية فاتسعت الدائرة البحرية شيئاً فشيئاً واعطى لامير الامراء بعض ايالات وظيفة القبودانية على ان يكونوا بمعية قبودان باشا فترتبت الاساطيل صفاً صفاً وكان مرتباً وموجوداً في هذه السناجق فضلا عن السفن الاميرية اربعون او خمسون سفينة حربية

واخيراً اختلت امور الاسطول في الدولة العلية ومع كون اكثر عسكر السناجق المذكورة لا ينفعون شيئاً فانهم تشتتوا واجروا في داخلية الاناطولي خسائر كثيرة وتجاسروا على ارتكاب المنكرات العديدة ثم رتبت الدولة لوندات هذه الالوية ووضعتهم في وجاق مخصوص على قصد استخدامهم ببعض الخدم العسكرية غير انهم لعدم دخولهم ضمن رابطة ونظام معلوم قد سببوا للاهالي كثيراً من الشرور والخسائر مدة طويلة ومن ثم الغى اسم لونديه بالكلية في عصر السلطان عبدالحميد خان كما سنبين ذلك ادناه واعدم من دخل منهم في قبضة اليد ومن بقى منهم حياً تفرق في الاطراف اما السبب في استعمال اسم لوند في بعض جهات اسيا واطلاقه على البغاة ومن لاخلاق ولا ناموس لهم فقد نشأ عن انتشار شهرة شقاوة اللونديين في عموم اسيا على الوجه المشروح

وبعد ان فتحت الدولة رودس تحول من كان بها من الفرسان الى مالطه واخذوا هناك على عادتهم في مداومة القرصنة والتعرض للسفن الاسلامية فالدولة العلية غضت النظر عن طائفة وجاقات الغرب واستثنتهم في المعاهدة التى عقدتها مع دول اروبا فبهذا السبب داوم هولاء ايضاً القرصنة وفي

هذه الوجاقات كان كثير من الرجال الذين اكتسبوا المعارف والمهارة في فن البحر وكانوا اولا واخراً حين التحاقهم بالاسطول الهمايوني ياتون بالاعمال المفيدة في اثناء الحروب البحرية فعلى الوجه المشروح في هذه المحاربة ايضاً افادت مراكب تونس والجزائر واتت باعمال عديدة . ولكن لما كانوا طائفة مطلقة العنان غير مقيدين بشيء تعذر امر ضبطهم وادارتهم فلذلك كانوا تجاسروا في ارتكاب المنكرات العديدة في البلاد التي وجدوا فيها من الممالك المحروسة فكانت اضرارهم مقابلة لخدمتهم

وفي الاول عند وقوع الحروب العظيمة كانت الدولة تعين احد وزرائها سرداراً يكون قبودان باشا تحت امرته ونظراً لعدم استقلال قبودان باشا بالرأي كانت تصعب عليه رؤية الاشغال ولاسيما كون قبودان باشا في رتبة الوزارة فتعيين وزير اخر سردارا يشوش مصلحة الادارة وشوهد ضرر ذلك عدة دفعات

وعقيب ذلك أُعطى جميع قواد البحر (قبودان باشا) استقلالا تاماً فلم يكن يعين في هذه الوظيفة الا من كان من اركان الدولة وممن حصلوا على ثقة الحضرة الشاهانية واعتمادها وامنيتها من الذوات الفخام ثم ان الصدور العظام وان كان لهم بحسب وكالتهم المطلقة نظارة شاملة عامة على الترسانة العامرة الا ان قواد البحر قد ازدادوا استقلالا بعد ذلك وصاروا احيانا شركاء للصدور العظام في نفوذهم او على الاقل يديرون امور البحر بالاستقلال

الفصل الثامن

(يتعلق باصول اوروبا واحوالها السابقة واللاحقة)

فكما انه كان لوقائع الدولة الاسلامية السالفة تعلق بوقائع اروبا السابقة كذلك كان لتاريخ الدولة العلية ارتباط كلي بوقائع اروبا اللاحقة

وعلى الاخص ان الاختلال العظيم الذي ظهر في فرنسا منذ عهد قريب كان سبباً لحصول انقلابات عظيمة في اروبا فانه فتح طريقاً جديداً في

مناسبات ومعاملات الدول والملل وكان مبدأ لعصر جديد في اروبا . فهذه الاحوال قد اثرت في الدولة العلية تأثيرا كبيرا ونشأ عنها كثرة العلائق في دول اروبا فلزم لذلك ان نبحث احيانا في وقوعات اروبا فوقائعها الكلية كانت من النتائج الطبيعية لكثير مما ظهر من المبادى والمقدمات التى كانت متصلة ومسلسلة من عهد قديم جداً على ان حقيقة الحال لا تعلم من مجرد حكاية الوقوعات بل يلزم فيها بيان الاسباب الموجبة فلذلك رأينا من من المناسب في اول الامر ان نبين اجمالا احوال اروبا اللاحقة والسابقة على الوجه الاتي

بينما كانت قارة اسيا منبع التمدن في جميع اطرافها كانت الخطة المصرية قبل تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام بقرون متطاولة فيها امم متمدنة ودول جسيمة وكانت ممالك اروبا محرومة بالكلية من اثار المدنية لان اول بلاد سكنت بعد الطوفان هى القطعة المسماة بالجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات فكان موقعها قابلا لزيادة العمران والتمدن فاصبحت في مدة وجيزة عامرة وانتشرت منها اثار المدنية الى سائر اطراف اسيا فقد روى ان اولاد نوح عمروا ابتداء قطعة الجزيرة من جهة نهر الفرات وبنوا مدينة بابل في محل قريب من ملتقى النهرين وان النمرود من احفاد حام بن نوح نظم حكومة فيها ثم ان اشور احد اولاد سام بن نوح الذي طرده النمرود من بابل ذهب الى الجانب الشمالي وبنى مدينة نينوى على نهر دجلة يضاهى بها بابل فظهر في الجزيرة دولتان الا اننا لسنا على علم تام من احوالهما فان احوال الاجيال القديمة هى مظلمة جدا في التاريخ على انه يفهم من الروايات والاثار القديمة انه ظهر في الاشوريين حاكم يقال له نينوس وذلك قبل ميلاد عيسى بنحو الفى سنة وكسور فاستولى على بابل واقام في اسيا سلطنة كبيرة ووسع مدينة نينوى التى كانت عاصمة الملك ومن بعد ذلك صارت بابل ولاية يديرها وال وروي ان مصر كانت في تلك الاعصار لاسيما قبل الميلاد بالفى وخمسمائة عام حائزة على العمران والمدنية فى درجة الكمال ثم جاءت طائفة من الشرق واستولت على مصر ومحت اثار العائلة الوطنية الحاكمة حتى انه لما هاجر سيدنا ابراهيم على نبينا وعليه

السلام من جهة بابل الى سورية وذلك قبل الميلاد بالف وتسعمائة سنة ووورد على مصر صادف اوان سلطنة الطائفة الاجنبية وهى في حالة الخوف والرعب من دولة الاشوريين اصحاب آسيا. ثم بعد مائة واربع وتسعين سنة لما اتى اليها سيدنا يوسف عليه السلام ثم ابوه واخوته كان حكام مصر من هؤلاء الاجانب وبينما كانوا ينظرون الى بنى اسرائيل نظر الوطنيين ابناء البلد الواحد ويعاملونهم بالرعاية ظهرت الفراعنة من الوطنيين قبل الميلاد بالف وستمائة سنة فتغلبوا وطردوا اولئك الاجانب من مصر واستولوا على الحكومة وصاروا ينظرون الى بنى اسرائيل نظر الاجانب ويعاملونهم معاملة الاسرى ثم ظهر سيدنا موسى عليه السلام قبل الميلاد بالف واربعمائة واحدى وتسعين سنة فاخرج الاسرائيليين من مصر وانقذهم من الذل وظهرت بعد ذلك دولة بنى اسرائيل في ارض فلسطين . ولا يخفى ان الفينقيين في البلاد الشامية كانوا في اثناء ذلك متمدنين يروجون الاعمال التجارية وكانت مدينة صيدا عاصمة لحكومتهم وكانت بلدة شهيرة قبل الميلاد بالف وخمسمائة عام ثم انتقل الملك الى مدينة صور وكانت عاصمة لهم وذلك بعد خمسمائة سنة وفاق اهلها على اهل صيدا وكانت للفينيقيين تجارة عظيمة مع اهل بابل وجملة القول ان اكبر دولة كانت لذلك العهد في آسيا هى دولة الاشوريين. غير ان والي مديا من ممالك ايران اتفق مع والي بابل فشقا عصا الطاعة على دولة الاشوريين وحاصرا مدينة نينوى عاصمة الملك فتغلبا على حاكمها واستقل الولاة في اعمالهم وانقرضت دولة الاشوريين قبل الميلاد بثمانمائة وستة وسبعين سنة ثم ان دولة الاشوريين الثانية التى قامت في نينوى اخيراً استولت على بابل وسائر الايالات وصارت دولة قوية ايضاً غير انها حيث لم تتمكن من الاستيلاء على مديا وسائر ما كان في حوزتها من الايالات التى في اطراف الشرق لم تبلغ في السعة والقوة ما بلغته الدولة الاولى اما حكومة مديا فكانت توسع دائرة اقتدارها يوماً فيوماً فبنت مدينة همذان لتجعلها عاصمة لها وعلى هذه الصورة انقسمت ممالك اشور القديمة الى قسمين بقى قسم منهما فى يد هذه الدولة الاشورية الجديدة وهو يمتد من نهر دجلة الى البحر الابيض والقسم الثاني كان تابعاً لدولة مديا وكانت تحكم من نهر

السند الى نهر قزل ارماغ (يعني النهر الاحمر) ثم ان حاكم مديا خرج اخيراً عن طاعة نينوى ووافقه والي بابل على ذلك وارسل اليه ابنه بخت نصر وبعد ان حاصرا نينوى بعساكرهما مدة سنين فتحاها واحرقاها وبعد ذلك ظهرت دولة بابل ثانياً في الجزيرة فسميت بالدولة الكلدانية وفي اثناء ذلك اي قبل الميلاد بستمائة وخمس سنين توفي والد بخت نصر فجلس هو في بابل واستولى على ممالك ايران وجميع ممالك اشور ووسع بابل ليجعلها اكبر عاصمة في اسيا ثم زحف على سورية فاسر الاسرائيليين واحرق القدس الشريف والحق مصر بالدولة الكلدانية فحصلت له مكانة عظيمة غير ان دولة بابل لم تطل مدتها فانه بظهور كيخسرو احد ملوك الكيانية انتقلت دولة ايران من المدياويين الى الفارسيين وفتح كيخسرو المذكور مدينة بابل قبل الميلاد بخمسمائة وثمانية وثلاثين سنة واستولى علي اذربيجان وكردستان واوصل سطوته وسلطنته الى درجة الكمال حتى صارت الدولة الايرانية اكبر الدول واكثرها قوة واستولى على مدينة بابل التى كانت في ذلك العهد من اكبر المدن جسامة وعمرانا فارتفع بذلك صيته وشأنه ارتفاعا كبيراً

وكان في الجزيرة في ولايات بغداد وكردستان وحلب اراضى قليلة معمورة والاراضى الكثيرة الواسعة كانت مجالات للعربان وكان يشاهد خراب بابل من قصبة الحلة واذا حضرت الى الاماكن الواقعة امام الموصل تظهر لك بعض اثار نينوى (سبحان محول الاحوال) فلما تكاثر نوع الانسان في اسيا اخذ اكثر الطوائف والاقوام يهاجرون الى اروبا وقتاً بعد وقت ذاهبين من جبل قفقاس طائفين من جهة بحر الخزر الى سواحل البحر الاسود الشمالية او من طرق اخرى والذي الجأهم الى ذلك لايخلو اما الازدحام او الظلم والتعدي او البطالة التى توجب الجولان سدى وحيث ان عمران المنطقة الشمالية صعب والطوائف المذكورة كان يتعقب بعضهم بعضاً فتعين على الذين تقدموا امام الجميع ان يتقدموا ايضاً في نقلتهم وحركتهم الى الامام وهكذا كان الحال بدون راحة فعلى هذه الصورة كانوا غير متمكنين من التمدن وبقيت قطعة اروبا اوقاتا كثيرة مهجورة من التمدن والذين هاجروا ابتداء الى اروبا على هذه الطريقة كانوا اربعة اقوام رؤساء يعدونهم اجداداً لاكثر ملل اروبا فالاولى

منهم طائفة بلاسكى الذين هاجروا الى اليونان وايتاليا من طريق الاناطولي وهم اجداد اليونان والايطاليان القدماء والثانية طائفة غال وهم اجداداهالي فرنسا واسبانيا وايرلانده والثالثة طائفة الجرمان يعنى الذين نسميهم الالمان وروساء طوائفهم الالمان والفرنج وغوت ولومبارد وساقسون وانكل واندل والرابعة طائفة السلاف وهم عبارة عن اصول ملل موسقو وله وضرب وخروات

كما ان اسيا منشأ نوع الانسان فهى ايضاً مبدأ المدنية ومنها انتشرت العلوم والمعارف رأساً الى الغرب . واللاتين الذين نسميهم الان ايطاليان واليونان هم اول من ترقى في سلم العلم والمعارف في اروبا. وفي الابتداء اكتسبت اليونان قوة وتمكناً وصارت رقيبة وعدوة لدولة ايران فاخذاليونان في المحاربة والمجادلة مع الفرس الكيانين. وكذلك اللاتين ايضاً فانهم قبل تاريخ ميلاد عيسى بسبعمائة وثلاثة وخمسين سنة بنوا مدينة رومية واقاموا فيها دولة وهى الان عاصمة للبابا. وفي الكتب العربية تدعى روميه وفي اللغة التركية (قزل الما) اي التفاح الاحمر . وكان الغاليون خلق متوحشون يعبدون الاصنام ويتوجهون الى ايتاليا وسائر الجهات يطلبون الخدمات العسكرية. والقطعة التى نسميها الان فرنسا كانت تدعى في ذلك الوقت غاليا ولكن غاليا كانت اكبر من فرنسا في الحالة الحاضرة فانها كانت شاملة لاكثر ممالك المانيا الواقعة في الجهة الشمالية من نهر الرين ومحيطة بالجهة الشمالية من ايطاليا. غير انه في ذلك الوقت كان يوجد في غاليا وخصوصاً في الطرف الشمالي طوائف اخرى غير الغالين. ويوجد اليوم بين اهالي فرنسا الشمالية والجنوبية فرق في الهيئة وتفاوت وما برحت اثار هذه المباينة باقية الى الان فعلى الوجه المشروح من ظهور العداوة بين اليونانيين والايرانيين ووقوع المحاربات الكثيرة طرأ الضعف الكلى على الفريقين فاسكندر الكبير بن فيليب حاكم مكدونيا بعد ان استولى على جميع ممالك اليونان وفتح الحرب على دولة ايران ودخل چقور اوه ثم حارب دارا في جهة بياس فقهره واستولى على ممالك ايران وقسم من الهند وصار سلطان الدنيا توفي بغتة في مدينة بابل وذلك قبل الميلاد بثلاثمائة وثلاث وعشرين سنة فتجزأت دولته بين

رؤساء قواده على ان دول مصر وسورية ومكدونيا كانوا في منتهى القوة والجسامة ولكن ابتلاء حكامها تدريجاً بالسفاهة والترف وما شاكل ذلك من اسباب الفساد بدل قوتهم بالضعف

وكانت دولة روميه في اوائل امرها غير قوية فهجم عليها الغاليون قبل ميلاد عيسى عليه السلام بخمسمائة سنة وعادوا اليها بعد ذلك بمائة وخمس وثلاثين سنة فاحرقوها لكن لما كان الرومانيون اعتادوا بهذه الصورة على الحروب فرويداً رويداً غلبوا الغالين الذين كانوا القوا الرعب في قلوب الجميع مظهرين للعالم قوتهم ومكانتهم

وبعد ان كان للغاليين في الايام القديمة حكام مستقلون فالغوا اصول الاستقلال وقرروا ادارة امور المملكة بالحكومة الجمهورية فتشتت امورهم وتفرقت احوالهم ولم يبق من اتفاق فيما بينهم . وحيث ان اصول الجمهورية اولا واخراً وفي كل محل انتجت سوء الحال ادّى الامر بالغاليين الى الاضمحلال فزالت قوتهم وسطوتهم القديمة . اما الرومانيون فكانوا شديدي الغيرة على دولتهم فلما رأوا ضعف حال الدول اليونانية كما ذكرنا انفاً ورأوا الجو خلا لهم تحفزوا للقيام رغبة منهم في تملك الدنيا فادخلوا تحت امرهم ممالك كثيرة من الدول والامم . وكان اهل قرطاجنه العظيمة الواقعة في جوار مدينة تونس بافريقيا التى كانت بنيت في القديم بهمة تجار فينيقيا بالشام قد ضبطوا يومئذ تجارة البحر الابيض فازدادت ثروتهم ازدياداً مهماً ولكن بسبب وقوع العداوة والبغضاء بينهم وبين الرومانيين ثارت الحرب بين الفريقين فجاء الغاليون وامدوا اهل قرطاجنه فجاهر الرومانيون بحرب الغاليين واستمروا عليها مدة طويلة حتى غلبوهم وذلك قبل الميلاد بماية وتسعين سنة ومن ذلك الوقت اخذ الغاليون يجتنبون الهجوم على الرومانيين

وقبل الميلاد بستماية سنة تقريباً بنى تجار اليونان الذين هاجروا من جهة ازمير الى غاليا مدينة مرسيليا الموجودة الان فقدموا فيها امر التجارة تقدماً مهماً وبهذه المناسبة ظهرت المتاجر في جميع سواحل غاليا واصبحت تجارة الدنيا في ذلك الزمان كانها بيد اهالي قرطاجنه واهالي مرسيليا المذكورة . ثم ان اهالي مرسيليا رغبوا في بناء بعض المدن في غاليا الا ان

الغاليين حسدوهم مخافة توسيع دائرة حكومتهم فهاجموهم وحاصروا مدينة مرسيليا فالتمس اهلها من جمهورية روميه امداداً فجاءهم عسكر روميه وخلصوا مرسيليا وذلك قبل الميلاد بماية واربع وخمسين سنة ثم لم يمر وقت طويل حتى استولى الرومانيون على مدينة قرطاجنه وخربوها والصقوا جدرانها بالارض فاكتسبت التجارة في مرسيليا زيادة الاهمية فقام الغاليون وهجموا عليها مرة اخرى وذلك قبل الميلاد بماية وعشرين سنة فاعان الرومانيون اهلها وتغلبوا على الغالين واستولوا على مرسيليا واطرافها وشكلوها لواء الحقوه بحكومة روميه

والحاصل ان الرومانيين تغلبوا على الغاليين وسائر الامم وسخروا لامرهم الممالك اليونانية فاكتسبوا بذلك مالا مزيد عليه من القدرة والثروة وبينما كانت دولة روميه في اوائل ظهورها ملكية محضة اصبحت بقرار الجمهور جمهورية فراراً من ظلم الملوك وتنصلا من غدرهم الا انه لما كانت الجمهورية داعية الى التفرق والتشتت وبالنظر لزيادة ثروة المملكة كما اشرنا اليه واستمرار توارد الاموال على روميه من كل صوب بحيث غرق الخلق في لجج البذخ والسفاهة فسدت الاخلاق العمومية وتجاوز الكبراء حد الحرص والسفاهة فوقعت انواع الفتن والفساد في روميه وانتشرت المظالم وانواع الاعتداء فسقطت جمهورية رومية في مهواة التذبذب والخلل قبل الميلاد بخمس وستين سنة على حين كانت اقوى حكومات الدنيا واكبرها وفي اثناء ذلك صار احد اعيان روميه المسمى قيصر (سزار) قائداً على العسكر وكان ذا مهارة كلية في الامور الحربية والسياسية فكره ان تبقى روميه جمهورية على حالتها من الخلل فقر قراره على ترك روميه وسافر الى غاليا سرداراً اى رئيس القواد وفي الحروب التى وقعت بين الفريقين انكسرت غاليا بالكلية وقبل الميلاد بتسعة واربعين سنة الحق اكثر ممالك غاليا بجمهورية روميه وعلى ذلك طلب القيصر من سناتو روميه اى من مجلس الامة بعض امور فلما اجيب بالسلب قال انى احصل رغائبي بحد السيف فجاء روميه وصار بمساعدة القوة العسكرية رئيساً للجمهورية واخذ عنوان امبراطور ومعنى كلمة الامبراطور في اللغة اللاتينية في الاصل قائد جيش ثم

توسعوا في استعمالها فصارت تطلق على القواد الذين يكونون مظهرا للظفر والنصر . وقد حاز قيصر في حياته ارفع الرتب والمناصب في جمهورية روميه وصار مستبدا يجري امور المملكة بالاستقلال كأنه ملك وقد كان لقب (الامبراطور) في ذلك الوقت يطلق على القائم باهم الامور العسكرية فكان هذا اللقب شاملا لجميع وظائف القيصر ولذلك كان مقدما ومفضلا على غيره من الالقاب.وحيث كان اهل رومية ينفرون من اصول الملكية فلم يأخذ قيصر لقب ملك . ومع ذلك فقد كان يحكم فيهم حكماً مستقلا مظهراً علائمه كضرب النقود مرسومة برسمه فخاف الاهالي ان يتوصل بذلك الى الملكية فقام بعض اعدائه وقتلوه علناً في مجلس السناتو وذلك قبل الميلاد باربع واربعين سنة ولما كان مظهراً لحسن توجه الخلق وانعطافهم اليه كان قتله سبباً في فتنة كبيرة فاندفعوا على بيوت قاتليه فاحرقوها وقد كان قيصر اوصى بعنوانه واملاكه لاوقتافيوس ابن شقيقته فلما قضى عليه بالاعدام تولى اوقتافيوس امر الحكومة بالاستقلال وحيث كان مقبولا عند الناس لقب بالامبراطور رسما وذلك قبل الميلاد بتسعة وعشرين سنة وعمره اذ ذاك ١٨ عاماً . وبعد ذلك بسنتين اضاف مجلس السناتو على اسمه اسم قيصر الذي انتقل اليه بالارث وفضلا عن ذلك فقد الحق المجلس اليه لقب اغستوس بمعنى جدير بالاحترام ولكن اظهاراً لكون حكومته مشروعة واعطى له في مجلس السناتو المقام الاول واخذ ايضاً لقب برنسيس الذي معناه (اول). ولفظ برنس مشتق منه ومعناه (امير) فاستجلب اوقتافيوس اغستوس بحسن معاملته قلوب الخلق واكتسبت دولة روميه في زمانه صنوف الراحة والعمران وكان يستر حكومته المطلقة تحت هذه العنوانات المختلفة من دون ان يلقب نفسه بالملك تمويهاً على الناس الذين كانوا يظنون ان حكومة روميه لا تزال جمهورية محضة مع انه في الحقيقة كان يجرى ما يجريه من الوظائف العائدة الى الحاكم المستقل

ومع ان لفظ قيصر هو اسم علم وكلمة امبراطور تفيد السردار المظفر فقد توسع الناس فيهما حتى صارتا تستعملان بمعنى سلطان

وقد ولد سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام في زمن هذا الاغستوس

الذي استولى في ايامه على الاماكن التى لم تكن دخلت في اليد من قبل من بلاد غاليا وضرب عليها مكوساً فادحة .فتقلب الغاليون في اوحال الظلم والتعدى غير ان بعضا من طوائفهم وهم الذين لبثوا الى هذا الوقت متشتتين في البلاد متفرقين في الجهات جمعهم الرومانيون ووضعوهم تحت ادارة واحدة فاتحدوا بهذا السبب والتحموا كانهم جسم واحد حتى صح ان يقال انذلك من الاسباب التى صيرت غاليا بعد ذلك دولة عظيمة الشان

وفي زمن حكومة اغستوس ذهب الى غاليا عدد كلى من اهالي روميه فاحدثوا المكاتب والمراسح وغيرها من الابنية ونشروا فيها اثار المدنية الا انه لما كانت مدنية اهل رومية على نوع مادي ونفساني لم يكن لهم لذلك اهتمام بتهذيب الاخلاق الانسانية واصلاحها وانما كانوا يسعون وراء الفساد ولذلك ابتلى اكثر اهالي الاماكن التى دخلت في حوزتهم بصنوف شتى من الشرور . وقد اضاع الرومانيون بهذه المدنية الرومية حسن اخلاقهم الطبيعية وكان استيلاؤهم على اكثر الممالك بهذه الصورة فنشروا فيها مدنيتهم وافسدوا اخلاق عدة ملل واقوام سوى جزيرة العرب وجرمانيا فانهم لم يتمكنوا من الظفر بهما فبقيت اخلاق العرب والجرمان على حالها الطبيعى محفوظة ولم تمسهم مساوى مدنية روميه . وهاتان الملتان جددتا بعد ذلك نظام العالم واغستس في ايام حكومته استولى على ممالك سويسرا ودالماسيا وخروات والروم ايلي ومصر والحقها بدولة روميه غير ان الرومانيين انكسروا على نهر الرين ولم يتمكنوا من الظفر بجرمانيا . فساءت هذه الحال اغستوس اساءة كلية . فمات في السنة الرابع عشرة بعد الميلاد وخلفه تيبريوس وكان ظالما عاتياً فقتل خنقا في فراشه وفي اثناء حكمه وقع الاهتمام في القدس الشريف بامر صلب سيدنا عيسى وذلك في زمن واليها المسمى بلات ﴿ بيلاطوس ﴾ والامبراطوريون الذين اتوا بعد ذلك كان كل منهم شراً من الاول بانواع السفاهة مبتلين بسوء الاخلاق وفسادها فظهرت الفتن والفساد في ايامهم شيئاً فشيأ ومات اكثرهم بالسم وبغير ذلك من الطرق

وفي اعتقاد النصارى الذين على مذهب الكاثوليك ان الباباوات هم الخلفاء على الارض لحضرة عيسى عليه السلام وهم نواب بطرس الذي هو من

الحواريين لان سيدنا عيسى عليه السلام بعد ان ارتفع الى الملأ الاعلى جاء بطرس الى روميه لتلقين الدين العيسوي غير انه لم يتمكن من ذلك علناً لان العيسويين كانوا من جهة الدين تحت ظل الخفاء كما كانوا في سائر المحلات فعوقب بطرس ومن تبعه في روميه بالصلب على الاخشاب وكانت تجرى عقوبات شتى على العيسويين ايام قسطنطين

ثم ظهر الاختلال في اطراف غاليا واسبانيا ناشئاً عن سوء اطوار الامبراطورين وافراطهم في المظالم . واليهود الذين كانوا في ارض فلسطين نشطوا للحروب غير ان دولة روميه كانت دبرت الامر على قدر الامكان فدفعت هذا الخلل واستولت على جزيرة ﴿ بريتانيا ﴾ انكلترا باسرها ونقلت بعضاً من الرومانيين واوطنوهم ارض الافلاق التى كانت في بعض الاحيان ذريعة لسلب الامن في حدود الطونه فاقاموا فيها وصانوا الراحة ثم شهرت الحرب على دولة اشكانيان الواقعة في بلاد ايران فاستولت على جميع املاكها الممتدة الى منتهى خليج البصرة ومع ذلك فلم تتمكن من الاستيلاء على شبر واحد من جزيرة العرب فاثر ذلك في خيلاء الرومانيين . ولذلك سموا سورية يعنى بر الشام اي المواضع التى كانت تمتد في ذلك الوقت من دمشق الشام الى بحيرة لوط ﴿ عربستان ﴾ اي بلاد العرب مع انها لم تكن معدودة من بلاد العرب . والقياصرة كانوا يحكمون على اسلوب الحكام المستقلين ولم يكن تنصيبهم جاريا على اصول الوراثة بل كانت قاعدة الانتخاب دستوراً للعمل في تولي الاحكام لا على اصول الموارثة ولذلك لم يتسن لهم التملص من حال الجمهورية . وتوالى اعدام الامبراطورين كما تقدم وبقى امر الانتخاب بيد الاسافل فكان الجند ينتخبون القياصرة بواسطة الدراهم . اما اهل رومية فقد كانوا بوجه العموم منهمكين فى السفاهة والخلاعة وعدم الاحتشام وبناء على ذلك اخذت الدولة الرومانية في التنازل يوماً فيوما حال كونها كانت ديارها عامرة وكانت الى سنة ١٨٠ ميلادية تحكم على ١٢٠ مليونا من الاهالى . وفي سنة ٢٠٠ للميلاد تقريباً بدأ الجرمانيون في تجاوز غاليا وحينما شعروا بضعف روميه وهبوط قواها حصلت عندهم جراءة كلية على تجاوز الحدود . وفي سنة ٢٢٠ للميلاد انقرضت دولة اشكانيان ودخلت

دولة ايران في سلالة ساسان فخالج صدر ازدشير الذي هو مجدد الدولة أن يوسع حدود دولة ايران(العراق) كما كانت فى زمن دارا الى حد البحر الابيض وبحر مرمرة. فطالب دولة روميه برد كثير من الاماكن وعلى ذلك اضطر اسكندر (الكساندر) امبراطور روميه ان يسافر الى جهة الشرق ويشهر الحرب عليه وفي اثناء هذه الحرب دخل بعض طوائف جرمانيا في غاليا مرة اخرى فاصبح الكساندر لهذا السبب مجبوراً ان يعود الى نهر الرين لاجل تأمين حدوده

وقد اتفق بعض الطوائف الصغيرة من الجرمانيين الرحالين فى اطراف نهر الرين على حيواناتهم وانعامهم على حفظ انفسهم من الرومانيين فسموا انفسهم باسم (فران) اي اسم الحر المستقل وبسبب هذا الاتفاق وشدة طاعتهم لرؤسائهم ازدادوا قوة ونالوا امانيهم والذين يسمون منهم ساليق فرانق ويتوطنون في شاطىء نهر سال الواقع في جرمانيا اشتهروا اكثر من الباقين شهرة عظيمة فاخذوا كغيرهم من الطوائف الجرمانية الاول ان يتخطوا حدود غاليا

والحصل ان الطوائف الموجودة على حدود روميه خصوصاً الجرمانيين منها كانوا يتخطون ويتجاوزون الحدود على التمادي اما دولة روميه فبالنظر لما وقع بها من الخلل كانت قياصرتها تخلع وتقتل بالتتابع فاذا قتل احد القياصرة كان كثير من الناس ينهضون في ادعاء القيصرية في وقت واحد ففى سنة ٢٧٠ ميلادية جرى انتخاب اوريليانوس امبراطوراً على روميه وقام في كل من غاليا وبلاد الشام ايضاً من يدعى الامبراطورية. فلما توفي امبراطور الشام وافضى امر الحكومة الى زوجته زنوبيا قصدها اوريليانوس فدمر عاصمة مملكتها (بالمير) وهى تدمر وسار بعد ذلك الى غاليا وهناك نال الظفر ثم انه عند ما فتحت حرب ايران قتل في الطريق بفتنة ودسيسة ثم ان الامبراطورين الذين اتوا على اثره لم يلبثوا طويلا في تخت الملك لانهم وان كانوا تمكنوا من دفع الطوائف التى كانت تدخل الى غاليا من المانيا الا انهم اضطروا لاستخدام كثيرين من الطوائف الاجنبية المتنوعة في العسكرية لاجل المحافظة على الحدود فكان ذلك ايضاً داعياً لزيادة مشاكل

ثم في الاخير ادرك القيصر قسطنطين المشهور سوء الحال فقر رأيه على نشر الدين العيسوى واعلانه وفي سنة ٣١٣ مسيحية اعلن في مدينة ميلان الكائنة في ايتاليا حرية الدين العيسوي وبقي مدة مشغولا بمدافعة الرقباء وهو وان كان تغلب عليهم جميعاً ونال الاستقلال التام الا انه استولى عليه الغم والكدر من اهالي روميه بسبب هذا الدين ونفرت نفسه من سكنى مدينة روميه فقر رأيه على تبديل العاصمة وقال انه يجب ان العاصمة تكون قريبة من اعدائه الايرانيين وقد كان في معتقد اهالي روميه ان بانيها في الزمن القديم كان احد اهالي مدينة توردا الواقعة في جوار بابابورني خارج خليج البحر الابيض فرعاية لذلك عقد قسطنطين النية على عمارة خرابة مدينة توردا ثم انه عدل عن ذلك وجاء الى قصبة بزانتيون فابتنى هناك مدينة استامبول وجعلها قاعدة للملك واعلن ان الدين المعتمد في دولته بعد ذلك هو الدين العيسوي وقد اطلق على اهالي العاصمة وهم من طائفة اليونان اسم رومانيين يعنى بتخفيف روم ولا يزال باقياً الى الان . وقد كان الدين العيسوي الى ذلك الوقت جاريا في غاليا بوجه خفي الا انه بسبب ارتباط غاليا باستامبول صار اهاليها اثناء ذلك عيسويين ايضاً . وبسبب ما كان من المناظرة بين العاصمتين زادت مشاكل الدولة فاصبحت ادارة اوروبا من الاستانة في غاية الاشكال . وصار قسطنطيوس ابن قسطنطين مشغولا بانواع الاختلالات. وفي اثناء ذلك مرت طائفة فرانق التي اتينا على ذكرها بنهر الرين فتجاوزت غاليا فارسل قسطنطينوس الى غاليا رجلا من اقربائه يقال له جوليانوس وجعله قائدا للعسكر فتمكن هذا القائد من طرد قسم من هاته الطائفة المذكورة الى الجهة الثانية من نهر الرين واضطر ان يعطى القسم الآخر اراضى بلجيقا على شرط انهم يكونون تابعين لروميه وفي خلال ذلك صار جليانوس قيصراً بانتخاب عساكره وتوفي عقيب ذلك قسطنطيوس فدخل جوليانوس الى استامبول بعظمة الامبراطورية سنة ٣٦١ عيسوية وقد اجتهد في اعادة عبادة الاصنام الا انه لم ينجح اما القياصرة الذين اتوا على أثره فكانوا جميعا على الدين العيسوي

وفي عصر تيودسيبوس الذي صار قيصراً سنة ٣٧٩ وبقيت حكومته ١٦ سنة ظهر ايضاً في الممالك الغربية اضداد له الا انه تمكن من دفعهم وقام في الاستانة قيصراً مستقلا استقلالا تاماً ثم قسمت دولة روميه بين ولديه الاثنين فصارت احداهما تعرف بالدولة الغربية والثانيه توصف بالدولة الشرقية فظهر بذلك الى العيان دولتان. وكانت مدينة اشقودره حداً للدولتين واستمرت الدولة الشرقية الى عصر السلطان محمد خان الفاتح . واما الدولة الغربية فقد مشت على قدم الخراب وقسمت الى حكومات شتى فدخلت بذلك بلاد اروبا في هيئة جديدة. وعلائم الانقراض كانت ظهرت في تلك الاثناء فدولة روميه وانقسامها الى مملكتين كان من اسباب انقراضها فضلا عما كان يتناوبها من الاسباب الخارجية. ومن هذه الاسباب تركها قيصرروميه وسكن في مدينة روانه فشعر طوائف الجرمان في ذلك الوقت بضعف دولة روميه فطمحت انظارهم الى اراضى ايتاليا وغاليا اللطيفة . ولكن شاع في غضون ذلك ان جموعا عظيمة من تاتارستان يقال لهم ہن قادمون رأساً الى اروبا فخافت منهم طائفة غوت وهى من جنس الجرمانيين الذين سكنوا في سواحل البحر الاسود الشمالية فرحلوا الى الطونة وسمع الطوائف الاصليون الجرمانيون ايضاً بقدوم التتر فتركوا اماكنهم واخذوا يرحلون من مكان الى اخر ولم يستطع الغوتيون كلهم ان يتخلصوا من طوائف الہن المومى اليهم فاضطر قسم منهم الى ان يدخلوا في حمايتهم ويتبعوهم وقسم اخر التجأوا الى دولة روميه الشرقية غير ان الغوتيين كانوا من القوم المتوحشين فتحملت منهم الدولة الشرقية اثقالا لا تحصى ومهما كان من الحال فانهم استخدموهم تارة بالوعد وتارة بالوعيد حتى مالوا الى بلاد الغرب فقصدوها كغيرهم من طوائف جرمانيا فنجت بذلك الدولة الشرقية من غائلتهم . اما الدولة الغربية الرومية فان دخول هولاء الطوائف الجرمانية الكثيرة الى ممالكها وان استخدمت بعضهم في جنديتها فانهم لم يفيدوها شيئاً وصاروا ثقلا عظيما على عاتقها فخربوا ايتاليا وغاروا على روميه ونهبوها وذلك لتأخر رواتبهم مدة عنهم ثم تجاوزوا غاليا وهناك ايضاً اعادوا الغارة كما فعلوا بروميه .فعلى اثر ذلك زحف والي بريتانيا بعساكر روميه على

غاليا فتسنى له تأديب هذه الطوائف الجرمانية واجلي اكثرهم الى جهة اسبانيا ولم يبق منهم غير طائفة بورغون رخص لها في الاقامة بغاليا واخيراً ذهب الغوتيون ايضاً الى غاليا فلم يبق في الامكان اخراجهم منها فاعطاهم قيصر روميه بعض الاراضي وفي سنة ٤١٣ للميلاد انعم القيصر على البورغونيين وهم طائفة متحابة واذن لهم ان ينتخبوا ملكاً منهم تحت بعض الشروط . اما طائفة واندال التى اخذت منها لفظة اندلس وهى من الطوائف الجرمانية المطرودة الى جهة اسبانيا كما ذكرناه قبلا فانها دخلت جهة تونس بافريقيا واسست هناك حكومة مستقلة. ثم اشهر قيصر استامبول الحرب عليها فاستولى عليها وظهرت على اثر ذلك ملة الاسلام ففتحت هاتيك الجهات ولم يبق للاندلسيين من اثر وسميت بلاد اندلس بهذا الاسم نسبة اليهم. اما غاليا فانها كما تقدم الكلام كان بعضها تابعاً للبورغون وبعضها لطائفة غوت وان كان باقى اراضيها بقيت بيد دولة روميه الغربية انما كانت الطائفتان المذكورتان تزدادان مع تقدم الايام تمكناً واتساعا. وفي اثناء ذلك خدم الافرنج الدولة الغربية بالصدق والامانة فاجتهدوا كثيراً ان يمنعوا الطوائف الجرمانية من دخول غاليا غير انهم لم يتمكنوا من ذلك ومع ذلك فانهم لما راوا فتوحات البورغونيين والغوتيين املوا ان تصيبهم حصة من هذه الغنائم فتجمعوا على شاطىء نهر الرين وساروا في حدود سنة ٤٢٠ عيسوية الى جانب بلجيقا فاسسوا هناك حكومة صغيرة واتخذوا مدينة طورنه الواقعة في حدود غاليا مقراً لها. وبالنظر الى ما اتته الطوائف الجرمانية من الهرج والمرج في بلاد ايتاليا وغاليا كما تقدم بيانه عُلم عِلم يقين انه لم يبق في الامكان الاستيلاء على جزيرة بريتانيا فلذلك اعيدت عساكر روميه الموجودة هناك فعلى اثر ذلك استمد الاهالي المعونة من طوائف انكل وساقسون الاتية من الطرف الشمالي في جرمانيا لاجل المدافعة عن انفسهم من اهل اسكوجيا فجاؤا واستولوا على بريتانيا في سنة ٤٤٠ ميلادية وقد سميت جزيرة بريتانيا بانكلترة باضافة لفظة بر التى هى بمعنى ارض الى طائفة انكل

وفي خلال ذلك اتفق ان قيصر الخن المسمى الخاقان اتيلا سار

بخمسمائة او ستمائة الف من العسكر الى الغرب فكان يغير على كل مكان مر به حتى انه بعد ان هدم وخرب بعض القرى في الروم ايلي واكتفى باخذ الخراج من دولة روميه الشرقية توجـه منها رأساً الى الغرب فوصل الى وسط غاليـا بدون ان يرى مقاومة من احد ثم اتفق اهالي روميه مع الطوائف الجرمانية فهجموا عليه من كل جانب وهلك من الفريقين في تلك الحروب العظيمة التي جرت في غاليا جنود لا تدخل تحت حسـاب ثم ان الخاقان اتيلا توجه في السنة التالية لها الى ايتاليا ولكنه اكتفى منها باخذ الغنائم بناء على التماس البابا وهو رئيس اساقفة روميه وبعد ذلك بسنة توفي اتيلا فتشتت اهل خن والتجأوا الى الجبال في جهة البحر الاسود اما اهالي ايتاليا الذين تفرقوا وتشتت شملهم في اطراف البلاد بسبب تقرب اتيلا منهم كما اشرنا اليه من قبل فقد بنى بعضهم سنة ٤٥٢ للميلاد مدينة البندقية لاجل المحافظة على انفسهم

وبعد ان زالت غائلة الخنيين تجددت المنازعة بين الطوائف الجرمانية الموجودة في غاليا وبين الرومانيين وصارت الدولة الغربية الى حال هى شر من الاولى ولا سيما ان طائفة غوت قد اتسعت في الكبر والعظمة فاستولت على اسبانيا بجملتها والحقتها بممالكها الجنوبية من غاليا والدولة التى تغلبت عليها الدولة الاسلامية حين دخولها الى اسبانيا هى دولة غوت المذكورة . وبينما كان الخلل مستولياً على كل جهة حسبما اوضحناه ووقع في روميه سنة ٤٦١ للميلاد فتنة قتل بسببها القيصر فخرج على اثر ذلك اكيديوس سردار غاليا وهو من شيعة القيصر عن طاعة روميه واخذ يحكم بالاستقلال في طرف غاليا الشمالي الذي كان تحت تصرف روميه ثم قتل مسموماً سنة ٤٦٤ ميلادية في مدينة سواسون التى كان ساكناً فيها فتولى ابنه مكانه وسار على سنن ابيه من الاستقلال في الحكومة ونظراً لكون الجانب الجنوبي والشرقى من غاليا في تصرف حكومتى غوت وبورغون اخرجت غاليا بالكلية عن حكومة رومية ومع كون الدولة الغربية لم يبق في يدها سوى قطعة ايتاليا فقط لم تكن كلمة امبراطورها نافذة البتة لانهم كانوا تحت حكم قادة العساكر الاجانب الذين كانوا اتخذوهم لخدمتهم فزحف احد هولاء القادة المسمى (اودآقر)

سنة ٤٧٦ ميلادية على روميه يقود عسكراً مؤلفاً من الطوائف الالمانيـة المتنوعة فخلع قيصرها واعلن فيها بملكه فهذه هى نهاية دولة روميه الغربية التى قام ملك المانيـا عوضاً عنهـا ثم ان طائفة غوت احدى الطوائف الجرمانية التى كانت في طرف الطونة اشهرت الحرب على هذا الملك فقهرته وضبطت مملكة الايتاليان سنة ٤٩٣ للميلاد واتخذت مدينة روانه مركزاً لحكومتها

وحيث ان دولة روميـه الغربية هدمت من اساسها كما سبق بيانه فمن الامور الطبيعية ان الحكومات التى تبنى بالانقاض الواهية لا يتاتى لها الثبات فلذلك كان لا اساس لحكومة ابن اكيديوس الذي حكم في غاليا بعنوان ملك الرومانيين وفي حكومات طائفه غوث وبورغون ومع ذلك فانه كان يتعذر على الغـالبين ان يؤسسوا حكومة لانهم استمروا عدة سنين تحت حكم اجنبي عنهم ففترت هممهم وفسدت اخلاقهم الطبيعية لانغماسهم في اوحال مدنية روميه فلم يبق لحب الوطن اثر ما في عروقهم فلما شاهد (قلوديس) المقيم في بلجيقا (وهو احد اشراف عائلة مرودتينج ورئيس الافرنج) انه من قواعد الحكمة ان يحكم في الرومانيين من كانت اخلاقه كاخلاقهم السيئة واطواره كاطوارهم السافلة علق امله بالفتوحات العظيمة وتوجه الى مدينة سواسون عاصمة ابن اكيديوس سنة ٤٨٦ ميلادية ومعه خمسة آلاف جندي فاستولى عليها وتجمع الافرنج على اثر ذلك من كل صوب ومـا مر عليه زمن يسير حتى ازدادت قوته وعلى هذه الصورة تأسست دولة الافرنج في غاليا ولما كانت اكثر الاوراق والسندات في ذاك الوقت مكتوبة باللسان اللاتينى استعملت لفظة فرانق بمقتضى قاعدة اللسان اللاتينى فرانسيا ثم بعد ذلك قيل لها فرانسا

وكان قلوديس من عبدة الاوثان ثم انه تزوج بابنة رجل من امراء عائلة ملك بورغون وهى على دين عيسى فتنصر لسبب ذلك ودخل معه يوم تنصره في الدين العيسوي ثلاثة آلاف عسكري وكان يدعى بين النصـارى بالابن الكبير للجماعة العيسوية ثم انتقل هذا العنوان الى ملوك فرنسا علاوة على القابهم . وكان للافرنج قانون نظموه ايام عبادتهم للاصنام فاصلح بمعرفة

قلوديس على مقتضى اساس الدين العيسوي وقيل لهذا القانون الذي نظم
على هذا الوجه قانون ساليق لان طائفة ساليق الافرنجية كانت اول من فتح
غاليا وبقى هذا القانون مرعياً معمولا به مدة طويلة مع قوانين رومية .
وبعد ثلاثمائة سنة نقح وبدل شارلمان ملك الافرنج المشهور كثيراً من
مسائله بمواد قوانين رومية الا ان قانون ساليق كان الاساس الاول للقوانين
الفرنسوية . وكان للافرنج في اثبات الجرائم اصول غريبة فكان يخرج
المدعى والمدعى عليه الى الميدان فيقتتلان بالسيف اعتقاداً منهم بان صاحب
الحق يغلب وان البرىء لا بد ان يكون محفوظاً من الله تعالى . واجراء المبارزة
التى يقال لها الان في اوربا ﴿ دويللو ﴾ قد حدثت عن هذه القاعدة . وكان
بمقتضى احكام قانون ساليق ان المواضع التى تؤخذ عنوة تفوض الى الذكور
لا تنتقل الى الاناث لكونها مخصوصة بالخدمة العسكرية . وبناء على كون
بلاد فرنسا معدودة في جملة البلاد المأخوذة عنوة لم يجلس احد من طائفة
النساء على تخت الملك في فرنسا وقد ضبط قلوديس اماكن رؤساء طوائف
الافرنج الاخر بطرق متعددة ووسع في وقت قريب دائرة حكومته بما اتيح
له فتوحات كثيرة فمن جهة امتدت حدود مملكته الى نهر الرين ومن جهة
ايضاً اجبر ملك بورغون بالحرب على تأدية الخراج وفي المحاربة التى وقعت
بينه وبين الغوتيين كانت الغلبة له ايضاً وانهزم ملك الغوتيين هزيمة عظيمة
واكتسب قلوديس في ذلك العصر شهرة وشأناً خارقين للعادة . ومن الاسباب
التى سهلت له هذه الفتوحات هو ان الغاليين والرومانيين كانوا على مذهب
الكاثوليك واما الغوتيون والبورغونيون فكانوا على مذهب ﴿ اريان ﴾ . وكلمة
الكاثوليك معناها مذهب الجماعة العيسوية الذين يذهبون الى ان جوهر الاب
والابن واحد ويقولون بالوهيــة عيسى ومذهب الاريان نشره الاسقف
اريوس في الاسكندرية سنة ٣٠٠ عيسوية فكان الذين اتبعوه يقولون ان
الله تعالى هو الخالق وان روح الله مخلوق وروح الله معناه كلمة الله . بمثابة
روح سيدنا عيسى عليه السلام وجسده قولنا كسائر اجساد بنى آدم .
ويقولون ان روح القدس هو جوهر آخر . والحاصل انهم كانوا يذهبون
الى القول بالتوحيد على انه وان كان في المجلس المذهبي الذي عقــد من

الاساقفـة في مدينـة ازنيق سنة ٣٢٥ عيسويـة رُد مذهب اريوس باكثرية الاراء الا انه بقى عدد عديد في الاستانة متمسكا به وكثير من الاساقفةفي الممالك الغربية ايضاً بقى تابعاً له ثم بعد ذلك ترك هذا المذهب من مذاهب النصارى وذلك قبل الاعتقاد بالاقانيم الثلثة في كل مكان فلما جاءت طائفتا غوت وبورغون الى غاليا كانتا على مذهب ﴿ اريان ﴾ وكان قلوديس كاثوليكياً كالغاليين والايتاليين فلذلك كانت اميالهم منصرفة الى انه يكون مؤيداً غالباً وقد حصل لقلوديس الظفر في كل مكان حتى انه في زمن قليل وسع حكومة طائفته الصغيرة توسيعاً كلياً ثم نقل عاصمة حكومته الى مدينة باريس وتوفي بها سنة ٥١١ ميلادية فخلفه اولاده من بعده وساروا على اثره ففتحوا عدة اماكن في جرمانيا وضبطوا مملكة البورغونيين وزيادةً على ذلك فان الغوتيين الذين كانوا يحكمون في ايتاليا تركوا لهم سنة ٥٤٠ للميلاد ولاية برودانس يعنى مرسيليا التى كانت في تصرفهم وبذلك دخلت ممالك غاليـا وقطعة من جرمانيا في حوزة دولة الافرنج

وفي اثناء ذلك شرع ايضاً جوستينيانوس قيصر استانبول الذي ابتنى اياصوفية في محاربة دولة غوت الموجودة في ايتاليا فلاجل ان يستجلب لجهته الافرنج تخلى لملوكهم عن حقوقه التى كان يدعيها في غاليا. وقد امتدت هذه الحروب مدة طويلة وكانت الغلبة للقيصر فضبط ايتاليا سنة ٥٥٥ ميلادية وجعلها تابعة الى استانبول

وبعد ان جمع جوستنيانوس قوانين قياصرة روميه في كتاب مخصوص جمع ايضاً ما يتعلق بالمواد الحقوقية من تآليف رومية المشهورة ولخصهـا ورتبها تاليفاً واحداً في غايه النفاسة وكان هذان الكتابان معتبران لدى كل امبراطور فى الشرق. غير انهما لما كانا باللغة اللاتينية وكان اكثر اهالي الدولة الشرقية لا يعرفون غير اللسان اليوناني ترجمت خلاصتهما سنه ٩٦٠ ميلادية الى اللغة اليونانية وصـارت هذه الخلاصة بعد ذلك دستوراً للعمل بين الاروام

امـا جوستنيانوس فانه فضلا عن كونه ابرز مثل هذه الآثار المعتبرة للوجود استولى على ايتاليا التى كانت وطناً لقياصرة الروم القدماء كما ذكرناه

والحقها بممالكه وعين عليها والياً يلقب (اقسارق) ثم في سنة ٥٦٨ ميلادية جاءت طائفة لومبارد احدى طوائف جرمانيا الى ايتاليا فتغلبت على اقسارق وظهرت في ايتاليا حكومة لومبارد وجعلت مدينة باديا حاضرة حكومتها . لكن حيث انها لم تتمكن من ضبط ايالة اقسارق الواقعة في سواحل ايتاليا بقيت هذه الايالات مع اطراف مدائن البندقية ورومية ونابولي وجزيرة صقليه في تصرف قيصر استانبول غير ان نفوذ اسقف رومية الروحاني كان يزداد ويترقى قوة يوماً فيوماً

وذلك لانه لم يكن قط رئيس روحاني عمومي للدين العيسوي في بدء ظهوره بل كان ينتخب احد الشيوخ رئيساً لمناظرة الامور الدينية للجماعات المتألفة خفية في اماكن متعددة ثم اطلق على من كان ينتخب من الجماعات الكبيرة للرأسة على الجماعات الصغيرة اسم اسقف . غير ان اسقف روميه نظراً لكونه خليفة بطرس احد الحواريين على ما تقدمت الاشارة اليه كان له مزيد اعتبار عن سائر الاساقفة . ومع ذلك فانه كان لايتداخل في مسائل الحكومة في عصر الامبراطورين وفي ايام حكام جرمانيا . ولا سيما بعد قسطنطين فان الامبراطورين الذين خلفوه علموا ميل اسقف روميه الى الاستقلال فاوقفوه عند حده حتى انهم اناطوا عقد المجالس الدينية بالاذن منهم ثم بعد ذلك صار اكثر الامبراطورين لايستقرون في مدينة روميه بل اتخذوا مدناً اخرى كميلان حاضرة لحكومتهم وكذلك عند ما الحقت بلاد ايتاليا على ماسبق بيانه بقيصر استانبول اخذ الولاة التليانيون المتولون بعنوان اقسارق يقيمون في مدينة روانه ولم يبق للمأمورين الملكيين المقيمين في روميه اهمية ولا اعتبار في نظر العموم وصار الاكبر والاكثر اعتباراً الريم بابا اى اسقف روميه فكان مرجع جميع الامور اليه . والحاصل ان تساهل قياصرة استانبول والضعف الذي كان يطرأ تدريجاً على دولة روميه الشرقية لم يجعل لهم وقتاً للنظر في احوال روميه فاصبحت مدينة روميه كانها قائمة بنفسها . اما لفظ بابا فهو مأخوذ من كلمة باباس اليونانية ومعناها اب وكانت تطلق على جميع الاساقفة غير انها بعد ذلك صارت مخصوصة باسقف روميه . وفي نحو سنة ٦٠٠ ميلاديه اخذ بعض الاساقفة

يعلنون ان الريم بابا خليفة الله . اما الذي رتب ونظم الطقوس الكنيسية والمراسم وايام الاعياد والادعية والالبسة المخصصة بالكنيسة فهو البابا غريغوريوس المشهور الذي تولى مسند البابوية من سنة ٥٩٠ الى سنة ٦٠٤ ميلادية وتأسس الدين العيسوي في عصره على حسب مطلوبه وانتشر انتشاراً كلياً في اروبا وحصل مسند البابوية على اعتبار كلي ورونق بهى . على ان بطريك استانبول عاصمة القيصر التى هى منشأ اعلان الدين العيسوي وانتشاره كان يدعى انه يفوق على البابا ولم يتحمل ان يكون البابا مرجع الانام والاساقفة. الا انه في خلال ذلك كانت الدولة الشرقية في مزيد الغوائل بحيث لم يكن لها وقت يمكنها من النظر الى امور روميه . خصوصاً لوقوع الحرب بين كسرى وقيصر بعد سنة ٦١١ ميلادية وظهور الغلبة لعساكر الفرس الذين استولوا على مدن انطاكية ودمشق والقدس فان كسري كان في افكاره ان يمحى من هذه الاماكن اثار الدين العيسوي بالكلية لان يقيم في مكانه الدين المجوسى

والحال ان هذا العصر كان عصر السعادة المحمدية حيث نزل فيه القرآن الكريم آية فآية وكان صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم يدعو الخلق الى اتباع الشريعة الاحمدية البيضاء انذارا وتبشيراً وتطهيراً للعالم من ادناس الشرك وادرانه اما الروم فمع كونهم داخلين في هذه الدعوة فانهم اقرب الى الاسلام نظراً للامر الجامع وهو كونهم من اهل الكتاب خلافا لدولة الفرس التى كانت مأوى المشركين فان الفرس اغتروا بتغلبهم في حدود بلاد العرب مما يلي سورية على الروم الذين هم من اهل الكتاب ففرح المشركون بنصرتهم على الروم وشمتوا بالمسلمين وقالوا لهم ان اخواننا قد انتصروا على اخوانكم فنحن كذلك لا بد ان نغلبكم فكان كلامهم هذا ثقيلا على مسامع خاتم الانبياء عليه اكمل التحيات فنزلت الاية الكريمة ﴿ آلم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ وعلى ذلك خاطب ابو بكر الصديق رضى الله عنه المشركين قائلا ان الله لا يقر لكم عيناً ولا شك انه سيعطى النصر للروم فيتغلبون على الفرس في بضع سنين فعارضه من

بينهم ابيّ بن خلف وكذبه وقال له عين لما تدعيه وقتاً فاني ادخل معك في البحث فعين حضرة الصديق مدة ثلاث سنين وعقد شرطاً على عشرة من الابل ثم عرض الكيفية لحضرة سيدنا الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم فتفضل بان اوضح له ان لفظة بضع هي ما بين الثلاثة والتسعة فجدد حضرة الصديق البحث والشرط وابلغ الثلاث الى تسع والجمال الى ماية وفي الواقع فانه في سنة ٦٢٢ ميلادية ارسل هرقل قيصر استامبول عسكراً في البحر الى چقور اده فتغلب على الفرس في اطراف اياس ثم ارسل في السنة الثانية عسكراً في البحر الى طرابزون فسار الى تبريز وكان هناك مظهراً للظفر العظيم ثم استرد الممالك الشامية ونال الظفر ايضاً في وقعة جرت باطراف الموصل وتقربت العساكر الروميه الى عاصمة كسرى وقد صادف ظفر الروم في مصالحة الحديبية وظهر النصر الالهى الذى وعد به وبشر في الاية الكريمة المذكورة انفاً المشار فيها ببضع سنين وكان ابيّ بن خلف هلك قبل ذلك فاخذ ابو بكر الصديق رضى الله عنه المائة جمل التى عقد عليها الرهن من ورثته وامره النبي صلى الله عليه وسلم ان يتصدق بها ففعل

فعلى الوجه المشروح خربت ممالك الروم والفرس في الحروب المذكورة وصارت الاثنتان الى حالة الضعف وانتقلت قوتهما الى القوة الاسلامية التى كانت تستعد في بلاد العرب لمحوهما هذا مع ان كل واحدة منهما كانت توازن الاخرى من حيث القوة ولم يخطر في بالهم وقوعهم في خطر جديد من قوة دولة اخرى قريبة مقبلة عليهم .

اما دولة الافرنج فانها وان بلغت مبلغاً من الترقى في زمن ابناء قلوويس كما ذكرناه الا انها في زمن احفاده صارت الى اسوأ حال من الاختلال والاعتلال فعقد الافرنج مجلساً سنة ٦١٣ ميلادية للمباحثة في ملافاة هذه الاحوال فانتخبوا ثانياً رجلا من عائلة امراء مردونيج ملكاً على فرنسا غير ان هذه السلالة لم تكن نافعة بشيء . فبقى حل الامور وعقدها بيد وكيل الدولة المتولي بعنوان مدير الرأي وهو من ابناء البيوت المعتبرة من النبلاء فنال هؤلاء وجاهة ونفوذا فحصلت بينهم المنازعات والشحناء فنال امر

دولة الافرنج الى حالة سيئة وشق بعض الطوائف الجرمانية التابعة لها عصا الطاعة وجاهروها بالعصيان

وفي ذلك الاوان انتشر الدين العيسوي في كل الاطراف وترك من كان في اروبا من الوثنيين عبادة الاصنام وصاروا عيسويين ولما كان اساس الدين هو ترك عبادة الاصنام فوجود الصور والاصنام في كنايس العيسويين مع احترامهم لها وتعظيمهم اياها قد اوقع استغراب المسلمين واخذوا بالاعتراض على ذلك فخجل قيصر استامبول ليون عندما بلغه ووضع في سنة ٧٢٦ ميلادية قانونا يمنع به تعظيم الصور والاصنام منعاً قطعياً وامر بان تكسر جميعها ولما جرى التشبث باجراء هذا القانون في ايتاليا ايضاً خالف البابا في قبوله وبناء على مخالفته خالف اهالي روميه وروانا ايضاً وقتلوا والي ايطاليا وطردوا غيره من المأمورين القيصريين فقبلت اهالي روانه اللومبارديين في بلدتهم ودخلت اهالي روميه في صفة جمهورية فعينت البابا مديراً عوضاً عن مأمور الملكية في روميه. فمن هنا نشأت حكومة البابا الجسمانية غير ان البابا كان شديد الخوف والاحتراز من اللومبارديين فلم ير من المناسب ان يخرج عن طاعة القيصر فأغرى جمهورية البندقية على اللومبارديين وبواسطتهم خلص مدينة روانه من ايديهم وسلمها للوالي الجديد الذي عينه عليها القيصر. فلما انحل مسند البابوية بعد ذلك بايع البابا الجديد للقيصر بعد ان جعل والي روانه يصدق عليه ثم ارسل اليه مكتوبا شديد اللهجة في امر القانون المذكور والاهالي استدعوا ايضاً ابطاله فامتعض واستاء من ذلك وارسل على روانه اسطولا فدافعه الاهالي وحيث لم ترسل قوة عسكرية ثانية خمدت نار المنازعة في ايتاليا واصبحت مدينة روميه مع توابعها تحت رئاسة البابا.

اما هذه المنازعة فقد استمرت زمناً طويلا في الدولة الشرقية فان اكراه الناس على ترك عاداتهم من اصعب الامور وفي النهاية ابطل القانون المذكور وأذن للكنائس في الممالك الشرقية ان تعود الى سابق عادتها من تعظيم الاصنام والصور وبمثل هذه الوسائل ازداد نفوذ البابا ترقياً ورفعة

وفي هذا العصر كانت سطوة الاسلام ارسلت اشعة شمسها على الافاق فاذعن لها اهلها في مدة الخلفاء الراشدين والدولة الاموية بعدها ودخل ما لا يتصوره العقل

من الممالك في الطاعة وتجاوزت جيوشهم البحر الى بلاد اروبا فحاصرت استامبول فلم تتمكن اذ ذاك من فتحها فعادت الى سورية اما الفرقة الاسلامية التى كانت في افريقيا فقد عبرت خليج جبل طارق الى الاندلس وفازت في تلك الجهة من اروبا بفتوحات عظيمة والى سنة ١٢٠ من الهجرة النبوية دخلت في حوزة اهل الاسلام فضلا عن الاناطولي جميع الممالك الواقعة بين الهندوسمرقند ومصر ومنها الى البحر المحيط وجميع ممالك اسبانيا والبورتقال وايالة من فرنسا وكانت الدولة الاسلامية اكبر من دولة الاسكندر الكبير فان اهل الاسلام استولوا في مدة ٨٠ سنة على اماكن تزيد عن الاماكن التى فتحها الرومانيون بثمانين قرناً وكان الافرنج اذ ذاك مكرهين على تأديب الطوائف الجرمانية التى جاهرت بالعصيان عليهم ولكن دخول العساكر الاسلامية الى ممالك فرنسا من جهة اخرى كان يشوش عليهم

وبناء عليه وصلت دولة الافرنج الى حالة الخطر وفي ذلك الاثناء ظهر شارل مارتل من رعاع الناس فقبض على زمام منصب مديرية السراى وادخل الطوائف الجرمانية العاصية الى دائرة الطاعة فاضطرت العساكر الاسلامية التى كانت دخلت في اواسط فرنسا الى الرجوع فحافظ حينئذ على حدود دولة فرنسا وذلك انه سنة ١١٤ هجرية وقع بين عبد الرحمن امير العرب امام مدينة بواتيه من فرنسا وبين شارل مارتل محاربة عظيمة قيل انه تلف فيها ١٢٠ الفاً من الطرفين فغلب المسلمون في هذه الحرب فكان ذلك مانعاً من زيادة القوة الموجودة في الشرق في ذلك الوقت فاخذت تتقدم الى ديار الروم

واتحد اهالي ايالة مرسيليا مع الاسلام فراراً من متابعة الافرنج واستولى المسلمون وقتئذ على جميع المدن من مرسيليا الى ليون غير ان شارل مارتل استردها وادّب اهاليها

وعلى ذلك لم يبق في يد ملك الافرنج شىء فبقيت امور الدولة في يد شارل بالاستقلال مع انه لم يلقب بلقب ملك وانما ترك ذلك لاولاده فلما توفي ظهر على اثره ابنه بين وكان لم يزل باقياً الى ذاك الحين بعض طوائف فى جرمانيا من عبدة الاصنام فمحا كثيراً من حكوماتهم الصغيرة بقصد دعوتهم

الى الدين العيسوي والحق ممالكهم بدولة الافرنج ولم ينقصه من وظائف الحكم غير عنوان ملك ثم تخابر مع الاساقفة واعيان الشعب فنال موافقتهم ورضاهم وخابر البابا بذلك خفية فارسل اليه يقول اليس اولى لمن يقوم بوظائف الملك ان يسمى ملكاً فجاءه الجواب الايجابي على سؤاله وفي سنة ٧٥٢ للميلاد و ١٣٤ هجرية اعلن ملكيته وارسل الملك الرسمي الذي كان من آل مرودنيج الى احد الاديرة فظهرت في فرنسا على هذه الصورة الملكية الثانيه من آل قارلودتيج

وفي اثناء ذلك انقرض الخلفاء الامويون وظهر الخلفاء العباسيون فكان ظهور دولة كبيرة في الشرق ودولة اخرى كبيرة في الغرب بعصر واحد يعد من غرائب الاتفاق

وفي هذا الاوان استولت دولة لومبارديا السالفة الذكر على ايالة اقسارق التي كانت في حوزة قيصر استامبول فعزمت على ان تستولي على روميه بدعوى انها من ملحقات هذه الايالة فاستمد الريم بابا من متبوعه اذ ذاك قيصر استامبول غير ان حصول المشاكل الخارجية والمضايقة الداخلية في الدولة الشرقية منع القيصر من امداده فسافر البابا بالذات الى فرنسا طالبا مساعدة بين ولما كان هذا الرجل قد حاز لقب الملكية جديداً والاهالي يعتبرونه مغتصباً لتخت الملك فوافقه على هذا الطلب مع كمال المنة وعده وسيلة حسنة لاظهار ان حكومته مشروعة وكذلك البابا فانه في مقابلته اياه عامله تأييداً لملكه باجراء المراسيم الدينية كما اجراها مع زوجته واولاده واعطاه لقب حامي مدينة روميه معلناً انه يلعن كل من يخالفه ولا يكون صادقا في طاعته. وبين ايضاً وضع في مجلس دولته اصولا تقضي بحضوز فرقة من القسس فيه مكافاة لهم. وبناء على ذلك ساق العسكر على ايتاليا واسترد ايالة اقسارق من يد اللومبارديين فطالبه قيصر استامبول بردها فلم يسمع له بل احسن بها مع مدينة روميه للبابا

وعلى هذه الصورة دخل البابا سلك الحكام ثم ازداد بعد ذلك نفوذه وقويت في اروبا افكار التعصب وصارت ايتاليا تتفرق على التوالي وانقسمت الى حكومات صغيرة

وبعد محاربة لومبارديا المذكورة دخلت دوقية بافاريا الواقعة في جرمانيا

تحت حماية بين وصار نفوذ دولة الافرنج واعتبارها في غاية من الرفعة والترقى حتى ان اهل الاسلام الذين كانوا استولوا على بعض ممالك فرنسا الجنوبية اضطروا ان ينسحبوا الى اسبانيا وصارت جميع بلاد فرنسا في قبضة تصرفه .

اما الدول التى بنتها الطوائف الجرمانية من انقاض دولة روميه فقد انقرض اكثرها ولم يبق منها في حالة القوة غير دولة الافرنج التى هى ايضاً لم تنتظم امورها بسرعة بحيث ان الدول التىكانت في عصر بين اكبرها واكثرها انتظاماً الدولة الاسلامية ودولة قيصر استامبول

لا يخفى ان الشام كانت عاصمة الخلفاء الامويين وهى واقعة في وسط الممالك الاسلامية فكانت ادارة سائر الاطراف منها في غاية السهولة ولم ينتبه الخلفاء العباسيون لذلك فغادروها واتخذوا بغداد عاصمة الملك فصار اهالي اسبانيا والمغرب بالنظر الى بعد العاصمة عنهم في عدم الراحة فاتصل بهم ان عبد الرحمن من نسل الامويين جاء الى المغرب فاستدعوه سنة ٧٥٥ ميلادية و١٣٨ هجرية وتولى الخلافة فيهم ولذلك انقسمت الملة الاسلامية الى خلافتين حيث ظهر فى جانب الغرب مشارك للخلافة العباسية فاضطر الخلفاء العباسيون ان يتخذوا لاهالي افريقيا سياسة ملايمة ويعاملوهم معاملة تستميلهم اليهم فلما شاهد الافريقيون ذلك اخذوا يقلدون اهل الاسلام الموجودين فى اسبانيا ثم ظهر ايضاً في افريقيا عدة حكومات مستقلة كبنى ادريس وبنى الاغلب وهؤلاء وان كان بعضهم تابعاً للخلافة العباسية الا انهم قطعوا روابط التابعية بعد زمن قليل ومع هذا التفرق الذي وقع في الملة الاسلامية فان الخلافة العباسية كانت اول دولة في ذاك العصر

وفي سنة ٧٦٨ ميلادية مات بين فتولى مكانه ابنه شارلمان فمحا دولة لومبارديا وصار على حدود قيصر استامبول ثم لبس تاج تيمور الخاص بملوك لومبارديا بمعرفة البابا وصدق على ما كان والده وهبه للبابا من الممالك مضيفا اليها وملحقاً بها اماكن اخرى . وبعد ذلك اعطى للباباوات من الحكمدارين بعض اماكن ايضاً والبابات كذلك اشتروا غيرها فاتسعت بهذا السبب حكومة الباباوات الجسمانية . وقد اشتغل شارلمان نحواً من ثلاثين سنة حتى تمكن من ان

يقود طوائف الساقسون رتى كانت في جرمانيا مستمرة على عبادة الاوثان الى الانخراط في الدين العيسوي شيئاً فشيئاً على انه في اثناء اهتمامه وشغله بالساقسون ظهرت منازعة بين اهل الاسلام الموجودين في اسبانيا فالتمس بعضهم مساعدته فسار بعسكره الى اسبانيا وكان هنـاك ايضاً مظهراً للفوز والنصر الا انه اضطر الى العودة الى جرمانيا بسبب تجددغائلة الساقسون. ثم عندما ابتدأ الاسلام من اسبانيا بالدخول الى فرنسا والغارة على مملكته رأى من اللازم الاستيلاء على بعض مدن من الدولة الامويـة الموجودة في اسبانيا تاميناً لحدوده في شن الغارة فارسل ابنه لوى الى تلك الجهة واستولى على المملكة الممتدة الى نهر ابرو ثم استولى سنة ١٨٤ هجرية على مدينـة بارشلونه ايضاً

اما شارلمان فانه رغبة في حماية العيسويين الموجودين في الممالك الشرقية الاسلامية وخصوصاً زائري القدس الشريف ارسل الى بغـداد سفراء يستجلبون رضى وتوجهات هرون الرشيد احد الخلفاء العباسيين الذي كان معاصراً له وكذلك هرون الرشيد فانه اقتضاء لمصالحه السياسية وارادة ان يجعل اوربا من جهته فيقوى بها على الدولة الاموية التى ظهرت في الاندلس كما سبق البيان رقية للخلافة العباسية بعث الى شارلمان سفيراً يحمل شيئـاً من الهدايا فبناء على ذلك كان شارلمان يظهر الجميل الى هرون الرشيد في الاندلس على الوجه المشروح على فتوحاته. وآمال شارلمان لم تكن منصرفة الا الى ان يجعل دولته متقدمة على دولة القيصر في استانبول فلذلك كان مسروراً في الفوز الذي ناله هرون الرشيد في ذاك الاوان على قيصر استانبول فلذلك قابل بمزيد الاكرام السفير الذى قدم من جانب هرون الرشيد في المرة الثانية وفي ذاك العصر لم تكن تاسست دول روسيا وبروسيا واوستريا واما انكلترة فكانت منقسمة الى حكومات صغيرة واما ممالك الفلمنك وبلجيقا وسويسرة فانها كانت معدودة من ايالات دولة الافرنج واما ولايات الدانيمارقه واسوج ونروج والونديك وله فانهم كانوا حكومات صغيرة وكانوا مشغولين بالقرصنه فلذلك كان الدول الذين هم على المدنيـة الصحيحة هم الاسلام ودولتا الافرنج واستانبول لا غير

وقد اكتسبت دولة الافرنج بما ضم اليها شارلمان علاوة على الممالك التى ورثها عن ابيه قوة وجسامة على دولة قيصر استانبول وفاق الافرنج بالشهرة على سائر اقوام اوربا اما كلمة فرانق فهى باللاتينية فرانس وقد زاد العرب على اولها الفاً وعلى آخرها جيما فصارت عندهم أفرنج والتعبير الموجود عندنا باطلاق لفظة فرنج على الاوروباويين وبلاد الافرنج على ممالك اوربا مأخوذ من هنا

والحاصل ان شارلمان صار اكبر حاكم في اوربا غير ان عنوان دولة استانبول كان اكبر من عنوانه فانه تقدم لنا القول ان عنوان لفظة قيصر وامبراطور في قوة الاعتبار يستعملان مقام السلطان وملك الملوك ولفظة قيصر كانت مشهورة في جرمانيا كما ان لفظة امبراطور كانت مشهورة في غيرها من اوربا فهذا العنوان منذ القديم كان له اعتبار كبير عند الناس الا انه كان مخصوصاً في ذاك العصر بقيصر استانبول ليس الا على ان شارلمان لما كان متصرفاً باهم ممالك امبراطورين رومية القدماء كان ذا امل بالحصول على هذا العنوان . فاتفق وقتئذ ان البابا اهانه بعض اعدائه في احد الايام الرسمية وحبسوه في احد الاديرة فتملص البابا من الحبس وذهب بذاته الى شارلمان وهو اذ ذاك كان في جرمانيا يرجوه تأديب متهميه فسار شارلمان على الفور الى رومية ايفاء لوظائف الحماية

وفي سنة ٨٠٠ ميلادية كان قاعداً على ركبتيه بين يدي البابا فالبسه التاج بمرأى كثير من الناس فنادوا باعلى صوتهم فليعش امبراطور رومية وبعد لبسه التاج اظهر البابا خضوعه الى الامبراطور . وبهذه جددت امبراطورية الدولة الغربية واحييت فصار شارلمان معدوداً اكبر حاكم جسماني على ان يكون حامياً للامة العيسوية جميعاً وكذلك البابا فانه صار اكبر رئيس روحاني اذ صار له الحق بتلبيس التاج الى الحكام وعلى هذا الوجه انفصلت رومية بجملتها عن قيصرية استانبول

ولما كان تجدد الامبراطورية الغربية واحياؤها سبباً لقصور وقع في نفوذ قيصر استانبول وترقى نفوذ البابا وعلو شانه على هذا الوجه أخر نفوذ بطريرك استانبول فكما حصلت مباينات الحكومة الجسمانية بين مدينتي استانبول

ورومية كذلك صارت المضادة في المذهب ايضاً وظهر بعد ذلك بعض اختلافات بينهما في العقائد فاوجب ذلك في نهاية الامر انقسام العيسويين الى مذهبين بعنوان كنيستى الشرق والغرب وسمى التابعون للكنيسة الغربية بالكاثوليك والتابعون للكنيسة الشرقية بالارثوذكس

وكان الباباوات في اوائلهم يعرفون بباباوات رومية وينتخبون من الاهالي ولكن يجب التصديق من الامبراطور على نصبهم حتى انه يروى ان جوستنيانوس قيصر استامبول اخذ من البابا مبلغاً من النقود لاجل التصديق عليه بابا

كان البابا سبباً في معرفة ملكية (پپن) التى نالها بالغصب بصورة مشروعة كما تقدم الكلام عليه وكان (پپن) هو الذي ادخل البابا في سلك الحكام فبالنظر الى كون البابا هو الذي البس شارلمان تاج الامبراطورية مع كون البابا كان يدفع للقيصر نقوداً لاجل التصديق على البابوية قام شارلمان بناصر الباباوات واوصلهم الى درجة انهم يلبسون الامبراطورين التاج وبعد ذلك بلغ الباباوات مرتبة من النفوذ والاقتدار الى ان صاروا يتهددون الملوك العيسويين . وبعض الامبراطورين كانوا يستغنون عن التصديق على الامبراطورية فكان الباباوات يحرمون من لا يوافقهم على مرامهم منهم ومن الملوك والامراء وكان الذين يقعون تحت الحرم اي لعنتلمه يحرمون اشياء كثيرة من المذهب ويسقط اعتبارهم ولا يخالطهم احد وبعضهم كانوا لغرض ما يسودون صحيفة بعض اهل العرض في انظار العامة وبهذا السبب كان الملوك والامراء مجبورين على خدمة اغراض البابا طوعاً او كرهاً

وكان ظهور دولة الافرنج مشابهاً لظهور العثمانيين وكيفية تأسيس دولة شارلمان نظير تأسيس الدولة العثمانية الا ان شارلمان مع كونه متصرفاً في اهم ممالك دولة رومية الغربية لم يتسن له ان يتخذ رومية عاصمة له . واما السلطان محمد خان الفاتح فانه كان متصرفاً في جميع ممالك دولة الروم الشرقية واتخذ عاصمتها عاصمة له والافرنج قاموا اكثر من ٣٠٠ سنة حتى وصلوا الى المرتبة التى ذكرناها واما آل عثمان فانهم نالوا مقصودهم في مدة ١٥٠ سنة وزد على ذلك فان السلاطين (آل عثمان) كانوا جامعين بين السلطنة والخلافة واما امراء قارلوويج فانهم خلطوا الحكومة الجسمانية بالرئاسة الروحانية وسلموها

للبابا فحكام اروبا سلموا انفسهم في يد البابا

وقوم الافرنج عند ماجاءوا من جرمانيا واستولوا على غاليا بقيت اكثر الاراضى في تصرف الملوك وما فضل منها انقسم بين العسكر بالاقتراع ومعلوم ان الاراضى التى تقسم بالقرعة يتصرف فيها تصرف الملك اما الاماكن العائدة للملوك فانها تحسب من قبيل الاراضى الاميرية ولذلك كان يعطى مقدار منها الى بعض الذوات على وجه المكافاة ويشترطون فى ذلك مدة حياتهم فاذا مات اصحابها تعود ثانية الى الميري غير انها صارت بعد ذلك تنتقل من يد الى اخرى احياناً برضى الملوك واحياناً بالاجبار وعلى ذلك فهذه القضية اصبحت في فرنسامسألة حيرة ونزاع اما ﴿ ربين ﴾ فقد صار مجبوراً لغض الطرف عن بعض الامتيازات التى اغتصبوها بغير حق وذلك لجلب اصحاب الاراضى وتاليفهم ستراً للحال وبهذا اكتسب ذوو البيوت الشريفة قوة تزيد عن الاول وصار نفوذهم يترقى ويقوى يوماً فيوما

وفي زمان هرون الرشيد بلغت الدولة الاسلامية الى اطراف هندستان وتاتارستان في ما وراء النهر وكذلك شارلمان ايضاً فانه استولى على ممالك فرنسا وايتاليا والمانيا بجملتها الى حد لهستان ومجارستان وايزغلاونيا واسس ومهد في اروبا دولة عظيمة وجدد امبراطورية رومية القديمة على المنوال المشروح وحيث انه كان دائم الفكر والقلق من هجوم أهل الاسلام عليه اخذ من جهة يحارب الخلفاء الامويين الذين جددوا الدولة الاسلامية في الاندلس ومن جهة ثانية كان يسعى في تمكين علاقات المودة والاتفاق بينه وبين عدوهم هرون الرشيد حاكم ذلك العصر من الخلفاء العباسيين

وكانت الوحشة والنفرة اذ ذاك متمكنة بين الملل الشرقية والملل الغربية وانوار العلوم والمعارف خامدة بل منطفئة من اروبا بالكلية وذلك لانها بانقراض الرومانيين انقرضت واندرست وكذلك فان الجرمانيين انفسهم كانوا في حالة البداوة فظلت اروبا باسرها في ظلمات الجهل اما الخلفاء العباسيون فانهم كانوا مهتمين غاية الاهتمام بنشر العلوم والمعارف كما ان الخلفاء الامويين في الاندلس كانوا يصرفون مساعيهم وعنايتهم في هذا الخصوص ايضاً فسعى شارلمان سعياً كلياً في اصلاح وتجديد اصول وقوانين دولته مقلداً هرون الرشيد

في نشر العلوم والمعارف وفي كثير من الاحوال والاطوار كان يجتهد في ترويجها في اروبا الا انه لم يوفق لذلك فظلت اروبا في حال الجهالة الى عصر الحروب الصليبية التى سنأتى على بيانها ادناه

فبناء على ذلك كان فن الطب في تلك الازمنة في بلاد الافرنج بيد اليهود الذين حصلوا العلوم في الممالك الاسلامية وساروا بها الى بلاد الافرنج فانتخب شارلمان من هؤلاء اليهود رجلا يقال له اسحاق وارسله الى هرون الرشيد برسالة مصحوباً ببعض الهدايا وبعد اربع سنين حين كان شارلمان في مدينة روانه التى كانت حينئذ بمثابة عاصمة لايتاليا عاد اليه اسحاق مع ثلاثة اكابر من امراء هرون الرشيد ومعهم هدايا وهى ساعة وراغنون وفيل وبعض اقمشة نفيسة فلما نظرها جهلاء الافرنج ظنوها من الامور السحرية واوقعتهم في الحيرة والتعجب حتى انهم هموا على كسر الساعة فمنعهم الامبراطور وفي ذاك التاريخ اتفقوا على امور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس الشريف

وبينما كانت دولة شارلمان تحتوي على نصف اروبا وبلغت قوتها مرتبة الكمال قام اهالى الدانيمارق واسوج ونوريج الذين اعتادوا على القرصنة والتجول في البحار والانهار واشتهروا باسم ﴿ نورمان ﴾ اي رجال الشمال فدخلوا في فى ذاك العصر ممالك الافرنج ورموها بالخسائر فتاثر من ذلك شارلمان تاثيراً عظيما حتى روي انه بكى وذلك لانه كان يعتقد انه مهد الامن والراحة في جميع الاطراف واحكم روابطها بعد ان تحمل المشقات والمحن فلما ظهر ما ظهر تأثر

وفي سنه ٨١٤ ميلادية توفي شارلمان فجلس مكانه ابنه لوير وبعد ان ساس الحكومة مدة ٢٦ سنة سياسة حسنة قضى عليه فانتشبت على اثر وفاته حرب عظيمة بين اولاده الثلثة تلف فيها نحو من مائة الف مقاتل فلاجل ذلك عقد اصلاؤهم مجلساً تقرر فيه تقسيم دولة الافرنج بين الاخوة الثلاثة فتميزت دولة المانيا يعنى جرمانيا وايتاليا وفرنسا كل دولة على حدتها وفى الحقيقة ان دولة الافرنج التى كانت موجودة الى ذلك الوقت انما هى دولة جرمانيا وكان الحكام والمأمورون يتكلمون بالجرمانية متخلقون باخلاقها وعاداتها . ثم لما مات قسم عظيم في هذه المحاربة من امراء الافرنج

وعساكرهم واهاليهم الذين كانوا يتكلمون بالجرمانية غلب لسان غال وعاداتهم في فرنسا ولسان الغال الذي كان يستعمله الغاليون وقتئذ هو لسان روميه الركيك المختلط اعني لسان اللاتين ثم اصلح وصحح شيئاً فشيئاً فصار لسان فرنسا الذي نعرفه الان والغاليون والاقوام المختلفة الذين جاءوا الى غاليا منذ زمن حالة كونهم اخلاطاً تألفوا من امم الافرنج واصبحوا بعد ذلك جميعاً امة واحدة واطلق عليهم فرانسيس

ولما انقسمت دولة الافرنج بين الاخوة الثلاثة كما ذكرناه بقي عنوان الامبراطور لملك ايتاليا (لوتار) ولكن لما كان اخواه ملكين مستقلين انحط مكان الامبراطورية عما كان عليه ولكن على كل حال فقد تميز (لوتار) باخذ باية الامبراطورية ولم يحصل راحة لهذه الدول الثلاث نظراً لاستمرار العداوة بين الاخوة الثلاثة ولما لحقهم من الخسائر من دخول قرصان الشمال المتجولين في البحار والانهار الى بلاد فرنسا والمانيا . وفي اثناء ذلك ايضاً ضيق الاسلام على ايتاليا من جهة البحر حتى ان الامراء الاغلبيين وهم حكام افريقيا وصلوا بجنودهم الى رومية وخربوا الابنية التي هي خارج صورها

وفي سنة ٨٥٥ ميلادية انسحب لوتار الى احد الاديرة بعد ان قسم حكومته بين اولاده الثلاثة فمات اثنان منهم بلا وارث وقد كان من اللازم ان تبقى الممالك التي كانت بتصرفهما لاخيهما الثالث الحائز رتبة امبراطور رومية ومُلكية ايتاليا الذي هو لويس الثاني فاخذ عماه ملك المانيا وملك فرنسا الذي هو القسم الاعظم من مملكتيهما واقتسماه فيما بينهما . وعلى هذا التقسيم فالقطعة الواقعة على الشاطىء الشمالي من نهر الرين وان تكن معدودة من غاليا الا انه بسبب كونها كانت مسكونة بالجرمانيين دخلت في حوزة الالمانيين فهي الى الان باقية في تصرف دولة بروسيا والفرنساويون يدعون انها لهم بالاستحقاق ويريدون ان يجعلوا الحد بينهم نهر الرين

وفي ذلك الاوان كان العرب الذين يأتون بحراً من الممالك الاسلامية يواصلون الهجوم على ايتاليا من جميع الاطراف فكان لويس الثاني المذكور آنفاً يطلب الامداد من عميه فلم يصغوا لكلامه ولم يلبوا طلبه فاتفق هو ايضاً مع قيصر استانبول حالة كون القيصر لم يكن مسروراً من نوال

لويس عنوان الامبراطورية ومع ذلك فقد امده قليلاً الا انه بعد ذلك توقف عن امداده فظل لويس منفرداً في الامر يهتم في الحروب الاسلامية والمشاكل الداخلية وما مر عليه وقت طويل حتى قضى عليه فالبس البابا تاج الامبراطورية لكلشارلى ملك فرنسا واجبره ان يمده ليمنع اهل الاسلام عن تعرضهم وتسلطهم المتواصل على ايتاليا وهدده بانه اذا لم يرسل مدداً فانه يسلبه عنوان الامبراطورية ويعطيه لسواه ونظراً لاحتياج كلشارلى الى قوة الدراهم والجند دفعاً للخسائر التى المت بممالك فرنسا من قرصان اهل الشمال الذين كانوا يغيرون عليها مما كان يجبره على مساعدة اهل الشرف ادى به ذلك الى وضع قانون يتضمن انتقال الاراضى بالارث بعد ما كان يتصرف فيها على وجه التغلب

وكان في زمن الرومانيين يقال لولاة الايالات دوقة ولمتصرفي السناجق قونتة فلما فتح الافرنج غاليا ابقوا هاتين المأموريتين على حالهما فكان الملك هو الذي يعين الدوقات والقونتات ويخصص لهم في مقابلة رواتبهم ايراد بعض الاملاك والقرى وكان يقال لقونتات الحدود ماركى اي محافظ الحدود او امير امراء الحدود وقد ساعد لكشارلى في انتقال هذه الماموريات بالارث فكان عنوان المامورية اي لفظة دوقة وقونتة وماركى تنتقل بالوراثة ثم صارت عنواناً للمقام وقد وضع شارل ايضاً قانونا يتعلق بان يكون انتخاب الملك من حقوق الاصلاء فكانت الحكومة والحالة هذه بجملتها في يد الاصلاء واصول الفوداليته (اي اصحاب المقاطعات) بلغت حد الكمال

اما اصول اصحاب المقاطعات فكانت مشابهة لمعاملة الجفتلكات واصول التيمار والزعامة وارباب الملك التى كانت جارية من قبل في الممالك المحروسة غير انه كان يختلف بعضها عن بعض من جهات كثيرة . لان صاحب الارض الذي يسمى مالكانة واصحاب الزعامة والتيمار كانوا يأخذون عشر اراضيهم وحاصلات الطابو فقط واصحاب الجفتلكات ياخذون اجارة الارض او حقوقهم بحسب الشركة ولم يكن لهم حق الحكم على الاهالى اصلا . وكان المزارعون في الجفتلكات لهم الحق في المرافعة مع اصحاب الارض او مع اغوات

الجفتلك عند الحاكم مع انه بمقتضى اصول الفيوداليتيه اي اصحاب المقاطعات كان كل واحد من اصحاب الارض بمثابة حاكم مستقل ومأذوناً بتحصيل الويركو ضمن دائرة املاكهم ورؤية الدعاوى بل وصلوا الى حد انهم كانوا يضربون السكة ويشهرون الحرب على بعضهم بعضاً فكان كل واحد منهم يغير على املاك الاخر ظلماً وهذا مما كان يضطرهم الى انشاء القلع والمستحكمات في جفتلكاتهم لاجل الدفاع والتحفظ وما برحت آثارها تشاهد الى الان في اوربا وكان مستأجرو الجفتلكات عرضة للمظالم والتعديات ومكلفين لرسومات فاحشة . وكان الحق في الصيد لاصحاب الاراضى فمن اصطاد من المستأجرين ارنباً مثلا او حمامة يستحق الاعدام من صاحب الارض

وقد تقدم ان كلشارلى قضى بانتقال الاراضى بوجه الارث فلما تولى ابنه مكانه فوض مابقى في يد الحكومة من الاراضى القليلة الى هذا وذاك ليجعل له حزباً في البلاد . ثم فقدت الامنية من المملكة حتى صار كل فرد من الاهالي محتاجاً لمن يذب عنه ويحميه وكان اصحاب الملك ايضاً يعطون املاكهم طوعاً او كرهاً لصاحب ارض من ذوي النفوذ ويستأجرونها على اصول الفودالتية طلباً للحماية وكان كبار الدوقات والقونتات تحت حماية الملك رأساً واصحاب الاراضى القدماء تحت حمايتهم فصار الكبار المذكورون يؤجرون قدراً من اراضيهم ببعض شروط معلومة الى اناس آخرين وهؤلاء يؤجرون قسما من هذه الاراضى التى استأجروها الى غيرهم فاصبح الكبار حماة لأولئك وهم حماة لهؤلاء فعلى هذه الصورة كان الملك بالدرجة الاولى حامياً والمزارعون محميين واصحاب الاراضى حماة من جهة ومحميين من جهة ثانية بحيث ان فرنسا اصبحت مربوطة بحماية متسلسلة غير ان الدولة لم يبق في يدها شيء من الاراضى فاصبح الملوك بدون رعية الا عدداً معلوماً من كبار الدوقات والقونتات والاساقفة اما اصول الفودالتية في ذلك الوقت فقد كانت جارية ايضاً في اماكن اخري من اوروبا

وكان سكان اوروبا منقسمين في تلك العصور الى اربعة اقسام الاول الحماة من اصحاب الاراضى والثاني الاحرار في املاكهم والثالث المزارعون

والاحرار وهم المقاطعون الذين لم يكونوا مقيدين الا باعطاء الاجرة لاصحاب الاراضى والرابع المستعبدون من الرؤساء لتيمور باشا اي الذين كانوا يباعون ويشترون مع الاراضى . ففى زمن الرومانيين كان الانسان يباع ويشتري كسائر الاشياء غير ان ذلك منع في زمن الافرنج فلم يكن يباع الانسان بخصوصه وانما كان يباع تبعاً للاراضى فنظراً لتعديل مادة الاشارة وتنزيل التيمور باشية عن درجتها كانت اوروبا بالنسبة الى الزمن الماضى تدعى انها تقدمت شيأ في اودية المدنية على ان انواع المكاره والمظالم التى كانت متعلقة باصول الفودالية اي اصحاب المقاطعات لا تنطبق على شيء من مبادى الانسانية . فان حكم المحامين على المحميين كان شديداً خصوصاً من كان منهم كثير الغدر فكانوا اذا زفت بنت احد المزارعين فقبل ان تصل الى زوجها يفتض المحامى بكارتها ثم تزف الى زوجها الى غير ذلك من ضروب المعاملات التى لانستطيع تصديقها ولا تمر على خاطر وخيال في الممالك الاسلامية مما هو خارج عن حد العقل والانصاف فاكمل كلشارلى هذه الاصول السيئة وعلاوة على ذلك فان في ايامه كان قرصان الشمال من جهة يشن الغارات والاصلاء يَسِمون فرنسا بالخراب من جهة اخرى فخلد له ذلك في التاريخ شهرة قبيحة

وكان كلشارلى يهتم في تدارك الامر بكثرة العسكر والدراهم لاعانة البابا لاجل ان يلبسه تاج الامبراطورية وقد دعاه ذلك الى مساعدة الاصلاء مساعدة فوق العادة فساق مملكته الى اردى الطرق ومع ذلك فان وعده للبابا بمساعدته في كبح غارات اهل الاسلام لم يأت بفائدة مرغوبة له بل تزايد تعرض الامراء الاغالبه حكام افريقيا على ايتاليا واجبروا البابا على ان يؤدي لهم الخراج

وفي تلك العصور كان الباس تاج الامبراطور معدوداً من حقوق البابات فكانوا يريدون اعطاءه لاي حاكم يمدهم ويساعدهم على طرد اهل الاسلام الذين كانوا يتعرضون ويتسلطون على القطعة الجنوبية من ايتاليا فبعد وفاة كلشارلى لم يوجه عنوان الامبراطورية الى احد وبقى ثلاث سنين في حكم المنحل . وبالنهاية في سنة ٨٨٠ ميلادية و٢٦٧ هجرية جاء ششمان شارل ابن ملك المانيا الى ايتاليا فلبس تاج ملكية ايتاليا وبعد سنة اخذ لقب امبراطور

رومية ثم انتقلت اليه بالارث ملكيه المانيا فصارت الدولتان دولة واحدة

اما دولة فرنسا فكانت تتنزل عن عرش قوتها يوماً فيوماً واستفحل نفوذ الاصلاء فصار الدوقية والقونتية في حكم ملوك الطوائف حتى ان الدوق الذي كان في برودانس يعني في طرف مرسيليا ادعى الاستقلال واخذ لقب ملك وفي ذلك الوقت بلغت غارات قرصان اهل الشمال حد النهاية فبكلف ششمان شارلمان من جانب الاصلاء على ان ياتي فرنسا فيدير شؤنها فلبى دعوتهم وصارت ممالك شارلمان باسرها سنة ٨٨٧ ميلادية في قبضة يده. غير ان فرنسا تحملت بحركتها على اهل الشمال الذين كانوا يهاجمونها مشقات كلية وبقى اهل باريس محصورين سنتين وفي آخر الامر جاء ششمان بعسكره ولكنه اجتنب الحرب ودافع اهل الشمال عن فرنسا باعطائهم الدراهم وساعدهم مساعدة فوق العادة فنفرت من ذلك عموم التبعة وخلعه الاصلاء عن الملك فبقيت دولة الافرنج نحواً من سنتين في يد حاكم واحد منفرد وبعد ذلك قسمت الى ثلاثة اقسام وتأسست اذ ذاك دول المانيا وفرنسا وايتاليا

وذلك ان حفيد لويس ملك المانيا انتخبه اصلاؤهم ملكا على المانيا وانتخبوا ابن روبر دوق ايالة باريس ملكا على فرنسا واظهر شجاعة كلية في حرب اهل الشمال . وقانون انتخاب الملوك الذي اعطاه شارل لاصلائهم استعمل بعد احدى عشرة سنة صرفا ضد عائلته وذلك من الامور الموجبة للاعتبار

فمن هذه الجهة انقرض آل قارلوويج من فرنسا فظهر على اثرهم ابناء روبر الذين تولوا ملكية فرنسا وكان يقال لهم امراء قايت . على ان الملوك الذين اتوا من هولاء الامراء لم يحز احدهم عنوان امبراطور وانما بعض البطون منهم كان رجالها يجلسون على تخت فرنسا من وقت الى اخر حتى ظهرت الجمهورية الفرنسوية

اما في ايتاليا فقد وقعت حروب كلية لاجل الملكية فتغلب اخيراً احد الدوقية فصار حاكماً لايتاليا بعنوان امبراطور وبناء على ذلك انحصر امراء قارلوويج في المانيا ثم بعد نحو من عشرين سنة انقرضت ايضا من هناك سلسلة نسبهم فلم يبق لهذا البيت حكم في جهة ما

وعلى هذه الصورة انقسمت دولة الافرنج الى ثلاثة اقسام ثم ظهر ملك في مرسيليا كما تقدم واسس احد الاصلاء في سويسره ملكية بورغون فصارت بذلك دولة الافرنج منقسمة الى خمس دول . اما دولة فرنسا فقد صارت الى حالة سيئة وما مر عليها نحو من مائة سنة حتى انمحت وطارت في الهواء ولو ابصر شارلمان ان سعيه ذهب سدى واضمحل في وقت قليل لما وسعه غير البكاء

وبعد شارلمان تأسست دولتان كبيرتان احداهما دولة انكلترة وكانت جزيرة انكلترة منذ مدة تحت حكم ملوك صغار فتغلب أحد فاسس دولة اخذت تزداد على مرور الايام قوة وثروة . والثانية هي دولة روسية وقد اسس حكومتها قوم من اهل الشمال اتوا من بحر البلطيق سنة ٨٦٠ ميلادية واتخذوا مدينة كيف عاصمة وكان بعض الفرق منهم يجولون فيأتون استامبول وفيها يدخلون في الدين العيسوى ويستصحبون في عودتهم لبلادهم بعض القسيسين ثم عقدوا صلحاً بينهم وبين قيصر استامبول فصاروا جميعاً مسيحيين على مذهب الارثوذكس اي الروم فهذه الدولة على مرور الايام توسعت دائرة قوتها ومكانتها فاتخذت مدينة موسقو عاصمة لها ثم بنت بعد ذلك مدينة بترسبورج

اما دولة ﴿ له ﴾ فهي اقدم من دولة روسية فاللهوليون بعد ان تمكنوا من فتح كثير من الاماكن في روسية وبروسيا وچه وغير ذلك من الممالك ذهبت هذه الاماكن من يدهم

وطائفة چه هي من قوم السلاف وكانت قد اسست حكومة في حكم الملكية ودامت بنحو خمسمائة الى ستمائة سنة

وبقايا الخننيين الذين يعرفون الآن بالهنكاريين والمجريين كانوا يتجولون في اطراف جرمانيا مشتغلين بالغارات على الممالك التى يدخلونها ثم انهم بعد سنة ٩٠٠ ميلادية ابتدأوا بتأسيس حكومة

وبعد انقراض اولاد شارلمان صار ينتخب لالمانيا حاكماً من الهرسكيين يعنى اما من الدوقين واما من القونتيين المناسبين وفي الاكثر يجتمع مجلس الامة ويصدق على من انتخبه اصلاؤهم وحكومة المانيا وان كانت بقيت مدة في

عائلة من اصحاب النفوذ فانها لم تجر فيها قاعدة الوراثة وكما ان قاعدة وراثة
الاراضى المتصرف بها على اصول الفوداليته كانت جارية في فرنسا كذلك كانت في
المانيا فازدادت بذلك قوة اصلائهم وصار انتخاب الامبراطور بيدهم بالاتفاق مع
بعض الاساقفة. وكان هرسكيو المانيا يعنى دوقاتهم في ذلك الوقت بمثابة
ولاة فاعطى لبعضهم نفوذاً زائداً لاجل محافظة اسلاف المانيا من المجريين
فصاروا في اقرب وقت كالحكام المستقلين. اما قطعة ايتاليا فكانت في ذلك
العصر عرضة للخلل من كل الجهات فسرت في روميه انواع من الدسائس
ناشئة عن سوء سياسة البابوات وهذا مما حمل اهاليها على الميل الى الجمهورية

ومن غريب الاتفاق ان اليوم الذي مات فيه شارلمان مات فيه هرون
الرشيد الخليفة في بغداد وكما ان دولة الافرنج مالت الى النزول كذلك دولة
العباسيين ايضاً وعلى ما ذكرناه ظهرت على اثر ذلك ملوك الطوائف في
جميع الاطراف وصار كل من حكومة الخلفاء وحكومة حكام الافرنج
حكومة اعتبارية

ولما كان ينصب ويعين مديرا لقصر الملك عند الافرنج كان في الدولة
العباسية ما يقابل ذلك بلقب امير الامراء وهاتان الدولتان كانتا متشابهتين
في التقليد مختلفتين في خصوص نشر المعارف كما ذكرناه

وكانت الملة الاسلامية في مبدأ ظهورها مخوفة في اعين جميع العالم
وارتعدت منها اروبا ثم انها في هذه العصور وقعت في تفرق غريب حتى ان
الاروباويين لم يبق لهم في جانب الاسلام خوف وكان هولاء الاروباويون
متفرقين على الوجه المذكور ايضاً ولم يبق لهم للتجاوز طرف ما وكانت
فرنسا وقتئذ في حالة مضمحلة جداً وظهر فيها قحط عظيم وغلاء وكان
اهل اروبا جميعاً في درجة نهائية من الجهل والتعصب وكان الفرنساويون
يقولون قد تمت سنة ١٠٠٠ ميلادية وقرب اليوم الاخير (يوم القيمة) فتابوا
عن خطاياهم واوقف بعضهم امواله وذخائره على الكنائس وبعضهم اخذوا
يذهبون لزيارة القدس الشريف فغنى كنائس فرنسا نشأ عن ذلك

وقد توجه احد الفرنساويين المسمى زربر الى مدينة قرطبة عاصمة
الاسلام في الاندلس لحصل من مكاتب العرب فيها قليلا من فن الحساب

والهندسة والهيئة والكيميا وما شابهها ثم عاد الى فرنسا فكان ينظر اليه كانه ساحر على ان ژربر هذا قد نال بفضائل المعارف التى تعلمها واخذها عن العرب مقام الباباوية ثم مات في روميه وهو بابا سنة ١٠٠٣ للميلاد

والحاصل ان حالة اروبا في ذلك العصر كانت سيئة من جميع الجهات غير ان امبراطورية المانيا اكتسبت قوة قليلة . ونظراً لتعصب اهل ذلك العصر ازداد نفوذ الباباوات الروحانيين

وذلك ان هنرى حاكم المانيا المشهود له بحسن الادارة توفى سنة ٩٣٦ للملاد فانتخب مجلس الامة ابنه اوتون الكبير ملكا على المانيا فسار على نهج ابيه بحسن التدبير على ما يقتضيه العقل فاكتسبت دولة المانيا قوة ثم ادخل دوقة ولاية چه الى الدين العيسوي جبراً وضمها الى ألمانيا وتغلب على المجاريين فخلص المانيا من تجاوز التهم ثم احدث امارة بين ماركيزية المانيا ومجارستان وسميت اوسترماق اي امارة الحدود الشرقية وكلمة اوستور في اللسان الجرماني بمعنى الشرق وكلمة اوستريا مركبة منها

فهذا السنجاق الصغير الذي هو في حدود الدولة العلية والمعدود من توابع المانيا تأسست فيه دولة اوستريا وعاصمتها مدينة ڤينا والصقالبة ويسمونها بج وهى مذكورة في تاريخنا ايضاً باسم مدينة (بج)

اما الاقليم العظيم المسمى المانيا فهو ملك واسع يحده بحر البلطيق ولهستان والمجار وخروات وايتاليا وفرنسا والفلمنك ويقال لاهاليه المان ونمسه غير ان الجاري في لساننا في التعبير عن نمسا يطلق على الاوستراليين

فعلى الوجه المشروح اكتسب اوثون قوة فاستولى ايضاً على ايتاليا وسار الى روميه فلبس تاج الامبراطورية وزوج ابنه بابنة قيصر استامبول فوافق له على الامبراطورية وهذا اللقب بقى زمانا يُتناوب فيه بين ملك ايتاليا و بين ملك ألمانيا ثم صار بعد ذلك لالمانيا فقط واما لبس تاج جرمانيا فهو مخصوص بملك المانيا وملوكهم ينالون بالاكثرية عنوان الامبراطورية بعد ان يلبسوا التاج في رومية غير انهم متى لبسوا تاج جرمانيا فقد صاروا اكبر حاكم لحكومة رومية اي لجماعة الكاثوليك باسرهم وحصلوا مع ذلك على مزيد التقدم عند سائر الملوك وفي سنة ٩٧٤ ميلادية توفي اوتون و بعد جلوس ابنه

وحفيده على تخت الملك انتخب احد اقربائه هنري الثاني من دوقـة بافاريا ملكا لالمانيا فسار الى روميه وعندما لبس تاج الامبراطورية قدم له البابا تفاحة من ذهب وعليها رسم صليب فجعله ذلك في الممنونية وكان قصد البابا من تقديمها ان يشرب فكره انه هو الذي فوض اليه أمر الدنيا وان يوطد ويمكن هذا الفكر من الاذهان فلما اقسم هنرى اليمين على ان يكون حامياً لجماعة العيسوية اكرهه البابا على ان يقول له انه مخلص له ايضـاً وبهذه الالفاظ المتشعبة المعنى وبمثل هذه الدسائس ازدادت قوة البابا شيئاً فشيئاً

وكان هنرى المذكور من امراء سقس فلما توفي سنة ١٠٢٤ ميلادية لم يبق من هذه العائلة احد فاجتمع شرفاوهم والاساقفة وعموم الاهالي وانتخبوا قونراد من امراء جرمانيا فلبس تاج جرمانيا في مدينة مايانس وتاج ايتاليا في مدينة ميلان وتاج الامبراطورية في مدينة روميه فلما مات ملك بورغون وليس له وارث استولى قونراد على حكومته وبهذه المناسبة دخلت سويسره في حوزة دولة المانيا

واخذ قونراد المذكور يساعد الاساقفة واهالي المدن ويعطيهم كثيراً من الامتيازات كسراً لشوكة نفوذ الاصلاء فامتدت حكومته على هذا الوجه ١٥ سنة ثم توفي وجلس مكانه ابنه هنرى الثالث. وهو الذي ابتدأت الحروب الصليبية في زمانه كما سيأتي ادناه فصار هنرى المذكور ملكا لالمانيا وايتاليا والبورغون وعزل الدوقات المخلين بالنظام وعين مكانهم عمالا لاجل ان تكون ادارتهم من قبل الحكومة. وفي اثناء ذلك اجتمع في ايتاليا ثلاثة باباوات فسار اليها وخلع الثلاثة بقرار من مجلس القسس وانتخب قسيساً آخر فجعله في منصب البابا ولبس هو ايضاً تاج الامبراطورية. غير ان ابنه هنرى الرابع وسع للاصلاء دائرة النفوذ والقوة وكان من الاصول القديمـة وجوب تصديق الامبراطور على انتخاب الباباوات غير انه بامر البابا غريغوار السابع تقرر بمجلس الاساقفـة برضى الاهالي ان يكون انتخاب الباباوات من قبل الكردينالية الحائزين على ارفع رتبة في الكنيسة بدون احتياج الى تصديق الامبراطورية على ذلك واظهر بعض التدابير كمنع الكهنة عن الزواج ثم نشر بعض تنبيهات مفادها استقلاله وانفصال الاساقفة عن الحكومة الجسمانية بالكلية. فوقع بسبب ذلك بينه وبين

هنرى الرابع منازعات ثم توصل هنرى الى ان عقد مجلساً من الاساقفة تقرر فيه خلع غريغوار المذكور من منصب الباباوية وكذلك البابا ايضاً خلع هنرى وحرمه وانتخب بعد ذلك بمساعدة الاصلاء احد الدوقات بدلا من هنرى الا ان هنرى تغلب على البابا فسار الى ايتاليا وحصر مدينة روميه ثلاث سنين فنال الفوز ولبس تاج الامبراطورية من يد البابا الجديد الذي انتخب بمعرفته غير ان الكردينالية بعد ذلك تمكنوا من الحصول على انتخاب الباباوات وانحصر فيهم وما برحت هذه القاعدة جارية الى الان. وقد امتدت منازعة الاساقفة فتقرر في نهاية الامر ان يكونوا تحت حكومة البابا بالاستقلال وان الامبراطور يكون حامياً لهم ومحافظاً على الاراضى المتصرفين فيها. اما الحروب الصليبية فقد ظهرت في زمن هنرى الثالث المتقدم ذكره سنة ١٠٩٦ ميلادية و ٤٩٠ للهجرة واسباب هذه الحروب هى ان النصارى الذين كانوا يذهبون لزيارة القدس الشريف من قديم الزمان كان العرب يحسنون معاملتهم فلما ضعفت قوة الدولة العباسية وتلاشت سطوتها كثر ترداد قبائل التاتار والتركمان على جهات الشام والعراق فسرت خشونتهم الطبيعية في طبائع الناس فتبدلت الغيرة الدينية الصحيحة بالتعصب وعلو الهمم بالدناءة والمظالم فاضمحل لذلك حال الرعايا المستأمنين من النصارى فاخذ ژبر الذي توصل الى مقام البابوية بعلمه وجاهه وسعادة طالعه يحرك ويرغب اهالي اوروبا في الاجلاب على اهل الاسلام وذلك بعد ان زار القدس الشريف سنة ٣٨٠ هجريه وبعد ان صارت القدس الشريف فى يد السلجوقيين فكانت ارباب الحكومة هناك من طائفة التركمان يعاملون الزوار من النصارى بالجفا والاذى فدعاهم ذلك بعد عودهم من زيارة القدس الشريف الى التشكي والتظلم في كل جهة وطرف

وكان قيصر استامبول وقتئذ يخاف كثيراً من قرب السلجوقيين الى استامبول كما ذكرناه انفاً وكان يغرى الاوروباويين على الحرب مبيناً لهم ان استامبول تكاد تدخل في يد الاتراك فرأى ملوك اوروبا وامراؤها انه يتحتم عليهم اتخاذ تدبير يخلص اوروبا من الخطر المتوقع من السلجوقيين فيكون ما يدبرونه في ذلك سداً مانعاً لعزمهم وحروبهم المتواصلة

وكذلك ملوك فرنسا فانهم كانوا يرغبون وقوع الحرب لكى يسوقوا اليها

الاصلاء الذين جعلوا البلاد في اسوء حال فيحصلون على الراحة

اما البابا فلم يخرج من فكره تعهد اسلافه باعطاء الخراج للامراء الاغالبة وكان متكدراً مما وصل اليه اهل الاسلام من الترقى والرفعة ومؤملا ان يكون بيده القدس الشريف الذي هو مزار العيسويين فلذلك كان منذ جلوس ملكشاه يحرك اهالى اروبا على حرب اهل الاسلام

فهذه الاسباب هيجت اروبا عموماً فتقرر لديهم الزحف سريعاً على القدس الشريف للاستيلاء عليه وفي اول الامر نشرت في فرنسا رايات المتطوعين منهم فاجتمع تحتها عدد عديد من الناس

وجميع من يقدر على حمل السلاح من اهالي اروبا قاموا على قدم وساق سوى اهالي اسبانيا فانهم كانوا خائفين ومحترزين من عرب الاندلس فلم يتحركوا من اماكنهم وكل من دخل تحت الرايات المذكورة واكتتب وضع على صدره رسم الصليب فلذلك تسموا بالصليبين وخرج من ايتاليا وفرنسا والمانيا عدد من ذوي الصلبان لا يعد ولا يحصى ينادون القدس القدس متوجهين اليه

وكان السلجوقيون الذين ارهبوا اهل اروبا كما بيناه في الفصل الثالث وقعوا في حال عجيب من تفرق الكلمة كما ان اهل الصليب ايضاً لم يكونوا تحت ادارة منتظمة فمات منهم خلق كثير في مرورهم بمجارستان وبلغارستان من شدة الامراض والتعب والباقون منهم بعد وصولهم الى ازنيق هلكوا عن اخرهم في الحرب التى وقعت بينهم وبين من كان هناك من اهل الاسلام

غير ان دوقية بلجيكا التابعة لالمانيا اذ ذاك وجماعة من دوقات وقونتات فرنسوية باعوا اراضيهم وجمعوا لاجل هذه الحروب الصليبية عددا وافراً من النقود ورتبوا لذلك عساكر كثيرة كانت منظمة نوعا ما فسار قسم منها على طريق المجر وقسم اخر على طريق دالماسيا ومع كونهم حصل فيهم نقص غير قليل في الطريق فان الباقى منهم كان كثير العدد فلما بلغوا استامبول بهذه الكثرة خاف قيصرها فاجازهم الى اسكدار بوجه السرعة واستوثق منهم بانهم يعيدون اليه الممالك التى ستفتح في الجهات التى استولى عليها اهل الاسلام وكانت تابعة من قبل للامبراطورية وعلى ذلك سافروا من اسكدار

فاستولوا على مدينة ازنيق عاصمة قليج ارسلان احد السلجوقيين وكان ذلك سنة ١٠٩٧ ميلادية و ٤٩١ للهجرة ثم ساروا الى مدينة انطاكية على طريق الاناطولي وبعد ان حاصروها تسعة اشهر استولوا عليها فرتبوا فيها دوقية ثم استولوا على مدينة اورفه مولد سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام وفيها مقامه الشريف وبعد ان اسسوا فيها قونتية تركوا فيها حامية من من العسكر وساروا بالباقين الى القدس الشريف فحاصروها مدة تزيد على شهر ثم هجموا عليها فانتزعوها من يد الخليفة الفاطمى واستولوا عليها وقتلوا من فيها من المسلمين واليهود وبعد ذلك استولوا على مدن الساحل كبيروت وعكا وعلى الاماكن الممتدة الى بحر السويس ايضاً ورتبوا بالقدس ملكية تحت عنوان ملكية القدس الشريف

وقد ظهر في اثناء ذلك في الجزيرة دولة الاتابكة فاستولى الاتابك عماد الدين زنكى على مدينة حلب واستخلص اورفه من يد الصليبيين وقتل من فيها من المسيحيين فلما اتصل خبر مقتلهم بالافرنج في اروبا هاجوا وماجوا فجمع حينئذ لويس السابع ملك فرنسا مائة الف مقاتل وقادها بنفسه للحرب الصليبيه كفارة وتتميما للتوبة عن حرم البابا له في بعض الامور وكذلك امبراطور المانيا فانه رتب معسكراً ايضاً فمرت هذه العساكر من استامبول سنة ٥٤٢ هجرية غير ان ادارة معسكر الامبراطور لم تكن في حالة مرضية وعلى قول بعض الرواة انهم انخدعوا باولاد الاروام فتلاشى جمعهم في الحرب التى وقعت بينهم وبين المسلمين في الاناطولى ومن سلم منهم من السيف لحق بعسكر لويس وكذلك لويس تلف نصف عسكره في المحاربة التى وقعت بينه وبين العساكر الاسلامية في جهة ايدين فلما رأى انه لم يبق في يده قوة كافية عدل عن القتال وتوجه الى انطاكية بحراً من سواحل الاناطولى ومنها قصد زيارة القدس الشريف كما فعل الامبراطور من قبل

ثم اجتمع الامبراطور ولويس بملك القدس الشريف فهجموا على الشام ولكنهم لم يقدروا على اجراء شىء ما واكرهوا على ترك مدينة اورفه ايضا وعاد الامبراطور ولويس الي اروبا بخمسة او عشرة رجال ليس الا

ثم استولى نور الدين بن عماد الدين على دمشق الشام فاكتسبت دولة

الاتابكة مرتبة زايدة من القوة وكان الظفر يزداد ظهورا يوماً فيوماً للاسلام ثم ظهر بعد ذلك في مصر يوسف صلاح الدين بن ايوب من امراء نورالدين وتسلطن فيها فبادت الخلافة الفاطمية وقامت الدولة الايوبية بدلا منها فازدادت سطوة الاسلام رفعة وارتقاء وضعفت في تلك الجهات قوة الافرنج وتحولت غلبتهم الى الفشل ومالت الى الزوال

وقد اصبح الاصلاء في اثناء هذه الحروب محتاجين للنقود فصاروا يبيعون امتيازات حريتهم لاهالي المدن وهولاء كان يحصل لهم من الحكومات مساعدة كلية فبمثل هذه الوسائل كان يهتم بكسر وتقليل نفوذ الاصلاء الا ان نفوذ الباباوات كان في حال الزيادة والترقى حتى ان امبراطور المانيا الذي اكتسب قوة زايدة في ذلك العصر واخذ شهرة بارباروس وحارب البابا واهالي ايتاليا مرات متعددة التزم في آخر الامر ان يتنازل الى البابا عند اجتماعه به في ايتاليا الى درجة انه مسك ركابه عند ركوبه وبخضوعه هذا لبس تاج الامبراطورية واحرق الشخص الذي كان أطرده البابا وقتئذ من روميه وكان سبباً للاختلال في سبيل تاسيس الجمهورية ولما اتصل في ذلك الوقت اي سنة ٥٨٢ هجرية خبر استيلاء صلاح الدين على القدس الشريف بمسامع اهل اروبا وجموا واندهشوا له جميعا ومات البابا من شدة كدره وقام كافة اصلاء اروبا فتعاهدوا واتفقت كلمتهم على ان يسيروا عموما الى الحرب فتقلد فريدريك السالف الذكر مع فيليب ملك فرنسا وريشار ملك انكلترة علامات الحاج وعلى هذه الحال سار فريدريك بالعسكر في الحرب الصليبية غير انه غرق في النهر في جهة قونية اما فيليب وريشار فانهما سارا من اسكلة مرسيليا وجنوه بحرا الى بلاد الشام ثم وقع بينهما نزاع وخصام نشأ عن الحسد فسلم فيليب عسكره الى احد الدوقات وقفل عائداً الى فرنسا اما ريشار فانه وان كان اكتسب بجسارته الشهرة نوعا ما غير انه لم يتمكن من اخذ القدس الشريف وانما عقد مع صلاح الدين عقد متاركة كان من شرائطه ان تبقى السواحل الممتدة من يافا الى عكا بيد الصليبيين وان يرخص لهم في زيارة القدس الشريف وسائر اماكن الزيارة

وعلى اثر ذلك اغرى البابا كبار الملوك مرة اخرى بالحرب الصليبية الا

انه لم يحصل على طائل وانما تسنى له انه جلب اليه قسما عظيما من اصلاء فرنسا وسائر ممالك اروبا ولما كان هولاء قد علموا ان اسهل طريق الى القدس طريق البحر وادركوا انه اذا لم يستولوا على مملكة مصر في اول الامر فلا يمكن لهم ان ينتفعوا بشيء من ارض الشام فصمموا اولا على الاستيلاء على مصر فاستأجروا من البندقيين عددا كافياً من السفن رتبوها اسطولا وفي أثناء ذلك خُلع قيصر استامبول فدعا ابنه اهل الصليب للمجيء الى استانبول متعهدا لهم بتوحيد المذهب الكاثوليكي والمذهب الارثوذكسى وغير ذلك من الامور فجاءوا الى استانبول ودخلوها وذلك سنة ١٢٠٤ ميلادية ثم انه لم يف لهم بتعهداته وقام عليه الاهالي واعدموه ومات ابوه ايضاً من كدره فشن اهل الصليب الغارات على استامبول واحرقوا نصفها وكسروا كثيرا من اثارها القديمة ومحوها وانتخبوا منهم امبراطورا لهم ثم انقسم اكثر ممالك قيصرية استامبول بين اصلاء فرنسا واستولي البندقيون على معظم السواحل والجزائر فهذه هى القيصرة المعروفة بامبراطورية اللاتين في الاستانة

ثم ان احد الماركية اسس حكومة مستقلة على شرط ان تكون تابعة لحكومة الامبراطورية في بعض المحلات التى هى في اطراف سلانيك مع طرف من اراضى اليونان . وكما ان آل القيصر المخلوع اسسوا قيصرية في ازنيق كذلك احد عائلات قياصرة استامبول اسس ايضاً قيصرية اخرى في طرابزون

وبعد ان امتدت امبراطورية اللاتين ٥٧ سنة استرد الاستانة منهم ميشل باليولوغ قيصر ازنيق بمساعدة الجنويزيين فدرست امبراطورية اللاتين

ودخول الاستانة بيد الافرنج وان كان قد جلب النفع الى البابا بسبب اختلاف المذهب فان هذه الحرب لم تنتج شيئاً من المقصد الاصلي في شان القدس الشريف فلذلك رغب البابا العالَم المسيحى ثانياً في الحرب الصليبية لكن كانت افكار اهالي انكلترة في تلك الاوقات مائلة الى الحرية وداخلة تحت حكومة مقيدة وكان فيليب ملك فرنسا موجهاً مقاصده لعمران مملكته وترويج العلوم والفنون فيها وكان ظهر في جرمانيا اختلافات داخلية كثيرة فكان يوجد احيانا بعصر واحد عدة ملوك واحيانا كان يقع بين الملوك وبين البابا

واهالي ايتاليا مجادلة ونزاع فكان البابا يحكم على الملوك المذكورين بالحرمان

والحاصل ان احوال اروبا كانت وقتئذ متلونة وصار ملوكها لا يسمعون للبابا كلاماً ثم هاج بعض الاحداث وركبوا السفن من مرسيليا عازمين على فتح القدس فغرق بعضهم ومات اخرون والباقون وقعوا في ايدي المسلمين فباعوهم في الاسكندرية بيع الاسرى

وفي اثناء ذلك سار ايضا من المانيا نحو عشرين الفاً من المتحمسين قاصدين القدس الشريف فعاد اكثرهم من الطريق وهلك قسم منهم من الجوع وتفرق شمل الباقين

اما القدس فمع كونها بيد اهل الاسلام فقد كان عنوان ملكيتها وقتئذ على احد اصلاء فرنسا فرتب هذا ايضاً عسكراً لمساعدة البابا ثم سار به الى جانب مصر واستولى على دمياط وبعد مدة قليلة اضطر الى تركها ولم يتيسر له العود الى اروبا الا بصعوبة شديدة

وفي سنة ٦٢٠ هجرية توجه فريدريك الثاني قيصر المانيا باجبار البابا بعسكر الى عكا وعقد مع الكامل ملك مصر احد السلاطين الايوبيين متاركة فاعطاه بعض قلاع وفي مقابلة ذلك اخذ فريدريك القدس الشريف مع قسم من الاراضى والبس نفسه تاجا في القدس الشريف ثم عاد الى اروبا الا ان البابا لم يرض بما فعله من اعطاء القلاع بدون محاربة واخذ القدس فقط في مقابلة ذلك وكونه البس لنفسه التاج

ثم ان القدس الشريف دخلت ثانية في يد اهل الاسلام وبعد سنة انتقلت للعيسويين ثم لطائفة الخوارزميين الذين كانوا هربوا من المغول واتوا الى هذه الجهات فسار لويس التاسع ملك فرنسا بعسكره الى قبرص على قصد الاستيلاء على القدس مرة اخرى ومنها توجه سنة ٦٤٧ هجرية الى جانب مصر فاستولى على دمياط وهجم على القاهرة فتلفت جنوده ووقع اسيراً فرد دمياط وفدى نفسه باموال جزيلة وبعد رجوعه الى فرنسا نظم قوانين طبقها على ما اطلع عليه من اثار المدنية الشرقية التى اوجبت عبرته وكان متعصباً في الدين فنظم قانونا آخر في الاحكام المذهبية ليمنع بذلك تجاوز البابا حده

ثم استخلص حكام مصر وهم (الكوله من) ما كان باقيا بايدي الصليبيين كانطاكيه ويافا وعكا وغيرها من المواقع

ولما بلغ اروبا خبر استيلاء الاسلام على انطاكيه ويافا دعا لويس التاسع ملك فرنسا السالف الذكر الاصلاء الى باريس وقرر الحرب الا انه في خلال ذلك بلغه ان حاكم تونس من بنى حفص عزم على الدخول في الدين العيسوي فذهب بعسكره اول وهلة الى تلك الجهة فكان منه انه شاهد هجوم المسلمين عليه وفهم ان الخبر الذي اتصل به كذب فقفل من هناك راجعاً ونزل على اطلال مدينة قرطاجنه ومات هناك فلبث عسكره بها مدة شهر او شهرين ثم عقدوا مع حاكم تونس صلحاً اشترطوا فيه حرية الدين العيسوي وحرية التجارة الاوربية ثم رجعوا الى فرنسا

اما ادوار بن ملك انكلترة الذي كان مع لويس فانه لم يرجع مع معسكر فرنسا بل قصد بلاد الشام باثنى عشر الف مقاتل ثم انه لم يتمكن من اجراء شيء ازاء بيبرس (الملك الظاهر) سلطان مصر والشام فعاد الى انكلترة

اما ساحل صيدا الذي بقى بعد الجميع في يد العيسويين فقد استولى عليه مماليك مصر سنة ١٢٩١ ميلادية و ٦٩٠ هجرية ففترت بذلك غيرة الافرنج وهممهم وكان ذلك آخر العهد بالحروب الصليبية

والبلاد الاسلامية وان كانت على هذه الصورة انها تخلصت من تعرضات الافرنج فانهـا صارت بمهاجمات المغوليين خراباً يبابا (خالية) وكذلك سلاطين مصر قد اشتغلوا مدة من الزمن بحروب المغوليين والطائفة التى كانت باقية في بلاد الاناطولي من السلجوقيين ضعفت بمثل هذه الحروب وفي نهاية الامر انقرضت في عام ٦٩٩ للهجرة وظهرت الدولة العثمانية فاتسعت سطوتها وقوتها بسرعة لا مزيد عليها وجددت بل احيت قوة الملة الاسلامية ثم رتبت عسكراً موظفاً بمقتضى احوال تلك الاوقات وكانت عساكر اروبا تجمع عند الاقتضاء جموعا من غير ترتيب وكانت هيأة عساكر الدولة العثمانية مخوفة في عيون الاروبيين فبناء على ذلك صارت هذه الدولة العلية في زمن قليل مظهرا لفتوحات عظيمة في بلاد اروبا

ونذكر هنا ما ينبغى الانتباه له والعبرة به وهو ان الاتراك أعنى السلجوقين الذين

اخافوا الاروبيين تفرقت كلمتهم قبل ابتداء الحروب الصليبية وفيها لم يكونوا قادرين على عمل كبير واما اهل الصليب فانهم في اول الامر كانوا اقويا في اعمالهم قادرين على انجاز ما يريدون بغاية السهولة فلولا ظهور عماد الدين زنكي ونور الدين الشهيد ثم يوسف صلاح الدين بعدهم لكانت احوال الملة الاسلامية في حالة سيئة جدا وهولاء مع كونهم كسروا شوكة الافرنج فان دولهم لم تلبث طويلا حتى انقرضت فاصبحت الممالك الاسلامية بعد ذلك العصر خرابا باستيلاء التاتار عليها وبينما كانت احوال الافرنج قد تجددت بانتظام ما فبظهور الدولة العثمانية اكتسب اهل الاسلام حياة جديدة وتمكنت اعنى الدولة العثمانية من الاستيلاء والتصرف على اجمل قطعة من اروبا وصارت مقتدرة على تهديد اروبا. غير انه يقال ان الحروب الصليبية قد اخرت فتح القسطنطينيــة مئين من السنين ولو لم تقع هذه الحروب ربما كانت تدخل اروبا بجملتها في يد اهل الاسلام

وكان الغرض الاصلي من الحروب الصليبية انما هو بقاء القدس الشريف في يد الاورباويين على ان الافرنج وان لم يحصلوا على هذه الامنية المقصودة فقد انتفعت اوربا بهذه الحروب وخصوصــاً فرنسا وحصلت على منافع عظيمة . فان العلوم والفنون والصنائع في ذلك العصر كانت باعلى درجة في استامبول ومصر فتعلم الافرنج فيهما اشياء كثيرة واشتروا عدة كتب رومية وسريانية وعربية واخذوها الى اوربا واجتهدوا في مطالعتهــا ثم اخذوا ينظمون الشعر تقليداً ويؤلفون الحكايات والقصص وبعد ذلك صــاروا يجمعون كتب اليونان واللاتين القديمة وصاروا ينشرون في جهــات اوربا بعض العلوم التى نقلت من بلاد العرب الى اسبانيا وشاعت بين اهل الاسلام كالطب والكيمياء وعلم النباتات والحساب والهندسة والمنطق والهيئة وقد تعلمها الاوربيون الذين كانوا يترددون الى قرطبه عاصمة الامويين في الاندلس ومن ذلك الوقت ظهر لعالم الوجود كل ما كان غير معروف في اوربا من انواع النبات والامتعة . وبعد ذلك فتحت المكاتب في كل مكان من اوربا فوصلت فيها العلوم والصنــائع الى المرتبة القصوى التى لا نزال ننظرهــا الان بعين الحيرة . وقد كان الاورباويون ينظرون ويقلدون في ابتداء الامر العرب

والروم في المدنية وبعد ذلك وصلوا فيها الى حد الكمال وبمناسبة هذه الحرب تعلموا الاصول الحربيه وبعد ذلك العصر تقدمت صناعة انشاء السفن في اوربا ثم ان مرافقتهم في الحرب مكنت بينهم الالفة والاختلاط وصاروا يرون انفسهم كانهم ملة واحدة وبمقتضى المدنية اخذوا في التعاون والتعاضد فادى بهم النظر الى وجود طرق لمساعـدة الفقراء والضعفاء وبعد ذلك ظهرت في تلك البلاد جمعية الفرماسون التى لم تزل الى الان معتبرة عندهم ومن خصائصها خدمة الانسانية على قولهم وتقبل كل انسان من اي دين ومذهب كان ولها سر على حد قولهم ﴿ من لم يدخل لم يعرف ﴾ ولهم علامـات واشارات خصوصية يعرف بها بعضهم بعضاً . وتفتحت عيون الاورباويين بالسياحة في الممالك المتمدنة وبعد ذلك صاروا لا يتكلمون بشيء الا بعد تطبيقه على العقل وصرفوا النظر عن الاوهام الباطلة وافكار التعصب التى كان يلقيها الكهنة عليهم ثم انه بمناسبة هذه الحروب سافر اكثرهم الى روميـة فاطلعوا على ما كان جاريا فيها من الدسائس والاغراض الخصوصية وعرفوا حقيقة الحال فاعتدلت افكارهم كثيراً في الامور المذهبية . وبناء على ذلك فان نفوذ الباباوات الذي ترقى كثيراً اثناء الحروب الصليبية ضعف ومال بعد ذلك الى الزوال وسقطت قضية الحرم من الاعتبار في الانظار العمومية فاضطر الباباوات ايضاً ان يلتزموا في سيرهم وحركتهم خطة الاعتدال . حتى ان لويس ملك فرنسا السالف الذكر مع كونه شديد التعصب وسار بذاته الى الحروب الصليبية مرتين أعلن في الشعب ان فرنسا راجعة الى الله وحده . وان لا حق للبابا في المداخلة بامورها بوجه من الوجوه . وكذلك فان ملوك فرنسـا الذين اتوا بعده اجتهدوا في تقليل نفوذ الباباوات وفي توسيع دائرة نفوذ الحكومة الملكية . حتى انه بعد لويس المذكور انعقد لاجل مقاومة البـابا مجلس عمومي مركب من الكهنة والاصلاء وعامة الناس المندوبين اليه من كل الجهـات استجلابا لقلوب الاهالي وكان هذا المجلس يتكرر اجتماعه في فرنسا مرات عديدة عند مسيس الحاجة وكانَ انعقاده في المرة الاخيرة من جملة مقدمات ومبادي جمهورية فرنسا

فعلى هذا الوجه انحط نفوذ البابا ايضاً في سائر الاماكن . حتى انه سنة

١٣٣٨ ميلادية اجتمع في مدينة فرانقفورت في المانيا الامراء والاساقفة الذين جرت العادة بان يجتمعوا عند انتصاب الامبراطور ووضعوا لذلك قانونا مخصوصاً وقرروا ان المترشحين الذين يصير انتخابهم باكثرية الآراء لقيصرية جرمانيا ينتخبون بدون احتياج لموافقة البابا واذنه وان امبراطور رومية يتصرف بوظائفه وحقوقه على مقتضى الدين فمن اجل ذلك ضعف نفوذ البابا ضعفاً شديداً وصار الباباوات بعد ذلك غير قادرين على ان يحرموا امبراطور جرمانيا

امـا ملوك فرنسا فقد صاروا محرومين من عنوان امبراطور وكانوا غير خاضعين للبابا بل كانوا قادرين على مقاومته كل المقاومة ويفعلون في دولتهم ما يريدون . وكانت فرنسا في ذلك الوقت قد ابتدأت ان تتحد كلمتها على نحو ما نراه الان. اما حكام المانيا فبناء على حوزهم للقب الامبراطور كان تصرفهم في رومية يدعوهم لاحتياج العسكر والمال ولذلك كانوا مجبورين على مساعدة الدوقات والكونتات وسائر الاصلاء مساعدة كلية وحيث انه لم يكن لهم وقت للنظر في اشغال شعبهم ولا للمداخلة في امور ايتاليا ازداد نفوذ الاصلاء في المانيا اي ازدياد فوقعت دولة المانيـا في حالة سيئة من التصرف على ان رودلف قونت هايسبورغ الواقعـة في سويسرة الذي انتخب قيصراً اكتسب بعض القوة فمنع تجاوز الاصلاء عن حدودهم ثم انتخب بعده ابنه روبر الذي كان دوقا لاوستريا الى قيصرية المانيا فامتدت حكومته الى سنة ١٣٠٨ ميلادية ثم انتقلت الامبراطورية بعده الى عائلة اخرى وفي زمـانه خرجت سويسرة عن الطاعة فامتدت الحرب بينهم وبين دولة المانيـا مدة مديدة وفي آخر الامر انفصلوا عن المانيا وصاروا جمهوريـة مستقلة

وازدياد قوة الاصلاء في المانيا على الوجه المشروح كان سبباً في سلب الامن العمومي حتى ان اهالي بعض المدن اتفقوا فيما بينهم على محافظة انفسهم من شر الاصلاء ولفظة ﴿ويل انسياتيق بقيت من ذلك

وبينما كانت تترقى الامبراطورية في المانيا بالانتخاب لا بالوراثة كان الدوقات والقونتات وسائر الامراء من المنتخبين متصرفين في ممالكهم بالوراثة

ولما كان كل واحد منهم كحاكم مستقل حصروا حق انتخاب القيصر بالقوة فيهم وفي بعض اهل الكهنة فامست الامبراطورية امراً اعتبارياً وصار دوقات المانيا لا يقبلون الامبراطورية فعلم انه اذ ذاك لم يبق في الامكان رفع اصول الوراثة وتجديد نفوذ الامبراطورية. ومع ان مسئلة انتخاب القيصر كانت في المانيا من المواد المهمة فلم تكن معروفة رسماً ولا جارية تحت قاعدة واصول معلومة ففي سنة ١٣٥٠ ميلادية اجتمع في مدينة فرنقفورت في مدة ثلاثة اشهر بعد وفاة القيصر جميع الامراء والكهنة الذين لهم حق في انتخاب القيصر واتخذوا قانوناً في انتخابهم للقيصر باكثرية الاراء فحاز هولاء الدوقات والامراء والكهنة لقب منتخب ثم بعد ذلك صار انتخاب الامبراطور معدوداً من حقوقهم قانوناً. وكان ملك چه وماركيس براندوبورغ ايضاً من هولاء المنتخبين فلهذه الاسباب المذكورة لم تدخل المانيا تحت هيئة اتحادية بل انقسمت في نهاية الامر الى حكومات صغيرة كايتاليا

وكان لاوروبا كما قلنا سابقاً فائدة كبيرة من الحروب الصليبية وهي انه لما كان مقصد اهل الصليب واحداً حصلت المساواة والاتحاد بالافكار ووقع الميل الى ابطال اصول اصحاب المقاطعات ولم يبق الاعتبار منحصراً في الاصلاء واخذ في تحصيل اللياقة والشجاعة والغيرة فالذين كانوا عند الاصلاء لا يعدون من الناس صار لهم قدر وقيمة وكان الاصلاء لاضطرارهم في هذه الحروب الى المال يبيعون من اهالى المدن امتيازاتهم فيها وكذلك ان بعض اهل المدن كانوا ينظرون الى هولاء فيحصلون حريتهم بالقوة والاقتدار فمن هذا الوجه تخلصت عدة اماكن من مخالب تحكم الاصلاء وتسلطهم فاتسعت الصناعة والتجارة ووضعت فيها البركات ودخلت المدنية في درجة عالية من الترقي بواسطة ما صاروا اليه من سعادة الحال

وظهرت الراحة في فرنسا عند سفر اصلائهم الى الممالك الشرقية فعرف الاهالي قيمة الملك وهو عرف حق الاهالي فاتسعت بذلك سطوة الملكية وقوي نفوذها ثم اخذ في تنظيم بعض قوانين جديدة واعلانها مع المحافظة على اعتبار قوانين روميه القديمة وحيث لم يتنازل الاصلاء لتحصيل مثل هذه الاشياء نبغ في علم القانون كثير من لفيف الناس وابتدأوا يتوظفون في المحاكم

والمجالس وكان في فرنسا ملوك يحمون الاهالي ويصطنعون الاصلاء فلذلك دخلت دولة فرنسا وقتئذ في طور حكومة مطلقة

واما الانكليز فكانوا ميالين قبل سائر الناس الى اراء الحرية وكان الاصلاء منهم سائرين بالاعتدال والحكمة بحيث كانوا يرون امتيازاتهم الحائزين عليها موافقة لمقتضى الوقت والحال فدخلت دولة انكلترة في طور حكومة مقيدة وبقي شرف الاصلاء واعتبارهم محفوظاً واما اصلاء المانيا فبعد ان قاموا في داعية الاستقلال والاستبداد ضداً للامبراطور صاروا الى حالة تستلزم بعض موازنات في مثل هذه الامتيازات

والحاصل ان اوربا دخلت بعد الحروب الصليبية في دور من العمر جديد فرفعت من جميع اماكنها اعمال الظلم بل ازالتها كلها وسارت في جادة المدنية . غير انه لم تمكنهم ازالة الاخلاق الوحشية دفعة واحدة نظرا لتمكنها منهم منذ اعصار مديدة فلذلك لبثت بقايا افكار التوحش والجهل سائرة زمناً طويلا مع افكار المدنية الجديدة جنباً لجنب فمن اخلاقهم الوحشية انهم عندما ظهر القحط والغلاء في فرنسا بعد سنة ٧١٦ هجرية اسندوا ونسبوا الى اليهود انهم القوا السحر في آبارهم فعمدوا اليهم واعدموا منهم قسماً كبيراً ظلماً وعدواناً ومن عوائدهم انهم كانوا يعقدن مجالس عمومية في اوقات كثيرة يسنون فيها نظامات مفيدة ووقعت اذ ذاك حرب بين دولتي فرنسا وانكلترة كان الباعث عليها ادعاء والدة ملك انكلترة حق الوراثة لتخت الملك بسبب كونها من آل ملك فرنسا فامتدت هذه الحرب مائة سنة فكان ملك فرنسا في هذه الحرب يعتمد على همة الاصلاء وكانت قوته العسكرية حينئذ كلها من الركبان واما ملك انكلترة فقد جلب اليه افكار عموم تبعته فكان له ايضاً عسكر من المشاة الشجعان وزيادة على ذلك فانه كان يستعمل في الحرب نوعا من المدافع على شكل الهاون واما فرنسا فانها لم تكن باشرت الى ذلك الوقت استعمال شيء من هذا القبيل فبهذا وغيره تمكنت الانكليز من التغلب على الفرنسويين في كل مكان فاستولت على قسم كبير من ممالك فرنسا

وبينما كان اهل البادية يتغلبون في الحركات الحربية على اهل المدنية شاع استعمال البارود وصار للحروب فن مخصوص فانعكس الامر وصارت

المدنية فى حماية الاسلحة النارية والبارود الذى انتج تبديلا وتغيراً عظيما في الاحوال العمومية هو مما ظهر من الاختراعات على يد البشر وكما ان المدنية وقتئذ لم تتقدم كما يليق كذلك كيفية استعمال البارود لم تتعلم كما ينبغى وقد استعمل الانكليز نوعا من المدفع كما سبقت الاشارة اليه فرأوا منه فوائد عظيمة وظهر في العصر المذكور مرض عمومي من نوع الهواء الاصفر فنسب الى اليهود كما نسب اليهم السحر وفي هذه المرة ضيقوا عليهم كما ضيقوا عليهم اولا

وهذا الداء وان كان سبباً لفصل الحرب الجارية بين الانكليز والفرنسويين مدة قليلة فان نارها اشتعلت بعد ذلك وكان النصر والظفر للانكليز ثم انه لما صار في انكلترا احتياج شديد الى الدراهم اجتمع مجلس البارلمنت الانكليزى ورفع بهذه الوسيلة للملك بعض تكاليف اضطر لقبولها وبذلك توسع وازداد نفوذ البارلمنت وفي ذلك العصر اتخذت اصول انقسام بارلمنتو انكلترا الي قسمين يعنى دائرة الاصلاء والكهنة . ودائرة نواب الامة . وزيادة نفوذ نواب الامة في كل الامور تجت عن مثل هذه الاحوال

وبسبب موت بعض اصلاء فرنسا واسر آخرين منهم انحط نفوذ كلتهم وصار اهالي باريس احراراً في تصرفاتهم واكتسب مجلس الامة العمومى زيادة نفوذ تذكر . غير انه في اثناء هذا الاضطراب قام فلاحو فرنسا على التجار فصاروا يعدمون كل من يصادفونه من الناس ولاجل كبح جماحهم صار الاصلاء ينتقمون منهم بصورة وحشية

ولما ضبط في فرنسا كثير من الاملاك الى الميري انتقل بعض كبار الاصلاء عنها ثم لحقهم على اثرهم من عائلة الملوك جماعة من الامرآء وقد كانوا قبل ذلك متصرفين في الاراضى الكلية وصارت قوتهم تعارض نفوذ الملك وتزاحمه وبقى اهالي فرنسا بعد ذلك تحت المظالم والتعديات الكثيرة

وبسبب المناظرة التى وقعت بين الدوق اورليان شقيق ملك فرنسا وبين عمه الدوق بوربون انقسموا الى فرقتين وظهرت الحروب الداخلية وابتليت فرنسا بمصائب تزيد على مصائبها الاولى

وقد اتفقت فرقة بوربون مع ملك انكلترة فدخل الانكليز الى باريس

واخذوا يجرون الاحكام باسم ملك انكلترة ولم يبق في يد دولة فرنسا غير بضع ايالات ومن الحوادث الغريبة انه ظهر فيها اوائل المائة التاسعة للهجرة بنت امرها من خوارق العادات وذلك انها نشرت راية وقادت العسكر الذى اجتمع تحتها باسم ملك فرنسا لحرب الانكليز فغلبتهم ثم ان البوربونيين قبضوا على هاته الفتاة فباعوها من الانكليز فادعوا عليها انها ساحرة والقوها في النار فاحترقت ثم ان البوربونيين ندموا على ذلك وتأسفوا على ما حل باوطانهم وصاروا يخجلون من تعديات الانكليز الحاكمين في باريس فاتفقوا مع ملك فرنسا فاخرجوا الانكليز من باريس ثم اخذوا يستخلصون بلاد فرنسا من يدهم شيئاً فشيئاً

وظهرت وقتئذ في انكلترة حرب داخلية هائلة امتدت ثلاثين سنة فامنت لذلك فرنسا من تخطى الانكليز اليهم وحصلت على الراحة غير ان العداوة بقيت بين الفريقين مدة مديدة

وبعد استخلاص السلطان صلاح الدين القدس الشريف من يد الصليبيين وانقراض حكومتهم من بلاد الشام عادوا اليها وتوالي هجوم عساكرهم الجرارة ثمان مرات على جهات الاناطولي وارض الشام ومصر

واما بلد القدس الشريف فلم يزل تارة يدخل في يد الاسلام وتارة في يدهم على التناوب الى سنة ٦٥٢ هجرية ثم كثرت بعد ذلك المواصلات بين الممالك الشرقية والغربية ولم يطل الامر حتى انقسمت دول اروبا الى حكومات كثيرة وصارت احوالها كاحوال ملوك الطوائف وهذا الامر منعها زماناً طويلا عن الحصول على اعمال كبيرة

وفي ذلك الوقت ظهرت الدولة العثمانية واتسعت دائرتها سريعاً وفي حال اخذها في توسيع ممالكها في جهة الروم ايلى وقعت حكومات البابا والبندقية والمانيا وقياصرة القسطنطينية في الاضمحلال وحصلت المواصلة نوعاً ما بين ملوك الجنكيزيين واق قيونليلر وسلاطين مصر وزاحموا الدولة العلية في تلك الاطراف وسعوا فيما يشغلها عن توطيد امرها

ثم ان الدولة العلية وسعت دائرة مكانتها في المائة الثامنة للهجرة كما بيناه وبعد ان هيأت قوة من الجنود المظفرة لتسهيل فتح الاستانة توقفت

عن ذلك على اثر وقعة التيمورلنك فحصل لها فتور وقد بينا في الفصل الرابع ان قارلوس السادس ملك فرنسا هنأ تيمور في ظفره فاجابه تيمور بما كان من غلبه للسلطان يلديرم بايزيد ورغبه في ترويج التجارة التى هى اعظم سبب في عمران العالم ولكن اهل اوروپا وقتئذ كانوا مشتغلين بدفع غوائلهم حتى انهم اخرجوا الممالك الشرقية من افكارهم كانها لم تكن موجودة واهملوا اسباب التمدن والترقى كالتجارة وغيرها وبالجملة فلم تظهر من هذه المخابرة الوقتية فائدة اما سطوة تيمور فان رهبتها كانت تملأ القلوب رعباً ثم بعد زوالها جددت الدولة العلية حديقة سلطنتها وفتحت فتوحات عظيمة في الروم ايلى ولاجل الاتفاق والاتحاد على العثمانيين توجه باليولوغ قيصر استانبول وبطريركها الى ايتاليا بقصد جمع المذهبين الارثوذكس والكاثوليك ولكنهم لم يقدروا على اجراء شيء ما فرجعوا بلا نتيجة . وذلك لان الافرنج بعد انقضاء عصور الحروب الصليبية حصروا انظارهم في تحصيل العلوم والصنائع فلم تتوجه افكار العموم الى غير هذا. وانتشرت في انكلترة بعض مقالات في الحرية تضاد البابا والرهبان فسرت هذه المقالات الداعية الى الحريـة في المذهب الى اماكن اخرى في اوروپا . وبناء على ذلك فلم تبق الاعمال بيد الرؤساء الروحانيين كما كانت من ذي قبل . واخذت دول اوروپا كل واحدة منها تنظر في منافعها المخصوصة بها

ثم لما قرب العثمانيون من حدود المانيا رأت دول اوروپا انه لا بد من حاكم قوي العدة يقف في وجوههم ولذلك صار انتخاب اكبر امبراطور سنة ٨٤٢ هجرية وهو من عائلة هابسبورغ وكان دوقا لاوستريا ثم انتخب ملكا على المجار وبعد وفاته بسنة انتخب للامبراطورية فريديريك وهو من اقربائه والبس التاج من طرف البابا

وبعد ذلك اختصت الامبراطورية بعائلة هابسبورغ . وفي ذلك العهد صارت مدينة فيانا عاصمة للامبراطورية . وكان فردريك المذكور آخر من لبس التاج في روميه ثم بعد ذلك طرأ النقص الكلي والانحطاط التام في نفوذ البابا واصبح الذين جاءوا من بعده من الامبراطورين يجرون احتفال التتويج في المانيـا ويأخذون عنوان الامبراطورية فيهـا بدون احتياج الى التوجه الى روميه على ان انتخاب الامبراطورين على هذه الكيفية كان غير منحصر

في حكام اوستريا ثم صار محصوراً في عائلتهم لاتجاوزهـا وذلك لان دولة اوستريا استولت على مملكة المجر وسائر الممالك والايالات الواقعـة خارج المانيا كما بيناه وزاد ذلك في اسباب تمكنها واقتدارها . وصار الامبراطور يسعى في انتخاب ولي عهده للامبراطورية ويحصل على ذلك فبناء عليه بقيت امبراطورية المانيا في عائلة هابسبورغ التى كانت دوقية لاوستريا مئين من السنين وما زال الحال جاريا على هذا المنوال الى زمان نابوليون بوناپرت

وقد كان شان امبراطورية المانيا عالياً جداً ونفوذها قويا كما تقدم ذكره وكان امرآء الالمان يمتازون في الهرسك بعنوان دوق او ماركي وهذه الالقاب كانت لهم بطريق الارث وكان كل منهم حاكما مستقلا ثم صارت الامبراطورية بعد ذلك امراً اسمياً واعتبرت هيئة حكومات المانيا كانها دولة واحدة فينتخبون واحداًمنهم ويعطونه لقب امبراطور الالمان ويعرف برئيس امرآء الالمان واذا ظهر عدو قاصداً افساد نظامهم المرعية احكامه عندهم يجهزون مقداراً معيناً من العسكر ويقومون بدفع الصائل بحسب الشروط المربوطة بقيود وضوابط معتبرة عندهم وبهذا صارت رتبة الامبراطورية ذات شأن واعتبار وشهرة وكان من شأنها المحافظة على نظام الالمان فلذلك كانت رتبـة عظيمة معتبرة مستثناة . والحاصل انه لما رأت دول اروبا ان نفوذ اوامر الدولة العليـة سرى في البلاد وان سطوتها اخذ نطاقها يتسع يوماً فيوماً في بلاد الروم ايلي بوجه كان موجباً لقلق افكارهم اخذوا في التدابير الاحتياطية وكان استخدام العساكر ذوي العلوفة الى ذلك الوقت محصوراً في نظامات الدولة العلية اما سائر دول اروبا فكان الاصلاء يقدمون لها الجيوش عند مسيس الحاجة ثم انه احدث في سنة ٨٤٩ هجرية في فرنسا عسكر موظف فازدادت قوة الملكية وسقط نفوذ الاصلاء وضعف نفوذ البابا في فرنسا اكثر من سائر الممالك فاخذت فرنسـا اذ ذاك تظهر في هيئـة دولة منتظمة وصارت تبحث عن منافعها السياسية فبناء على ذلك اضطرت سائر دول اروبا الى استخدام عسكر موظف طوعاً او كرهاً ثم استعمل ملوك فرنسا عدة تدابير سياسية واستولوا على قسم عظيم من اقطاعـات الاصـلاء واوهنوا نفوذهم وزالت في ذلك العصر غائلة اصحاب المقاطعات التى كانت من اكبر البلايا على فرنسـا

واخذ اعتبار دولتها يجري في مجراه

وكان عسكر الدولة العثمانية في ذلك الوقت اكثر انتظاماً وضبطاً من عساكر بقية الدول وفي ايام السلطان محمد خان الثاني زاد الاعتناء في استعمال الاسلحة النارية وسكب المدافع الكبيرة وفي زيادة تنظيم امور العسكرية على ما هو جار عند الدول حتى صارت هيئة عساكره تدهش جميع الجهات فهجم في سنة ثمانمائة وسبعة وخمسين على اسلامبول وحاصرها وفتحها واستقرت الدولة العلية في عاصمة امبراطور الشرق وتأيدت وأمنت حكومتها في قطعة اوروبا فتغيرت افكار الافرنج وتجددت السياسة اما اصحاب المعارف الموجودون في اسلامبول فقد ذهبوا الى بلاد الافرنج واشتغلوا هناك بنشر العلوم والمعارف فأخذت الصنائع والمعارف تزداد رواجا في بلاد الافرنج وظهر فيها اختراعات متنوعة وأخذت احوال اوروبا من ذلك الوقت تترقى فيما نشاهده الآن فبناء على ذلك صار فتح اسلامبول معدوداً عند الاوروبيين من الوقائع المهمة

ان تاريخ العصر الخامس عشر في اوروبا الذى هو من سنة الف واربعمائة للميلاد الى سنة الف وخمسمائة يعد عند الاوروبين مهماً جداً لان كل التبدلات والتغيرات كاحداث عسكر منظم في فرنسا وفتح اسلامبول والتدابير اللازمة التى اتخذت بكل قطر لتحسين ادارة الممالك هى كلها من وقائع هذا العصر المذكور كما بيناه واكتشف فيه ايضاً على امريقا وعلي طريق رأس الرجاء الصالح وذلك لما شرع البندقيون في تجارة الهند على طريق مصر حسدهم الاسبانيول والبورتوغاليون فسافر القبطان قولومب من اهالي جنوه الى جهة الغرب في مراكب اسبانيا كى يجد في البحر طريقا الى بلاد الشرق فصادف امريقا وكذلك البورتوغاليون عند ذهابهم في شطوط افريقيا اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح . واكتشاف امريكا اتى بفوائد عظيمة للاوربيين من جهة التجارة بل من جهات متعددة فانه سهل المسير في طريق رأس الرجاء الصالح من اطراف الهند وافريقيا وجزيرة العرب الى عدة ممالك مهمة واخذت همة الاوربيين تزداد قوة واجتهادهم وسعيهم يتقدمان في الحصول على كل شيء

ووجدت صنعة الطبع والتمثيل في ذلك العصر كما ذكرناه في الفصل الرابع

وانتشرت انواع العلوم والمعارف بسهولة في اوربا واخذ التمدن يترقى بكمال السرعة

والحاصل ان العصر الخامس عشر للميلاد كان عصراً جديداً لاوربا وقد سمى المؤرخون الاوربيون ما مر من العصور من زمن آدم الى انقراض دولة رومية الواقع في سنة اربعمائة وست وسبعين للميلاد ﴿ التاريخ القديم ﴾ وسموا القرون التى مرت من ذلك الزمن الى سنة ١٤٥٣ التى فتحت بها الاستانة او الى سنة ١٤٩٢ التى اكتشفت بها اميركا ﴿ بتاريخ القرون الوسطى ﴾ وسموا الزمن الذي امتد بعد فتح اسلامبول او كشف اميركا الى يومنا هذا بالتاريخ الجديد

وعلم ان انقراض دولة رومية كان من المسائل المهمة وكذلك ظهور الاسلام في الزمن الذي انتشرت فيه الديانة العيسوية في ممالك اوربا زمناً طويلاً فانه اوجب تغير العالم الى حالة اخرى وهذه الحالة وان تخللها تقلبات عديدة فان الاساس الاصلي لم يزل باقياً الى الان وآثاره جارية وبناء على اهمية هذه الامور رأينا من المناسب ان نجعل التاريخ على قسمين يسمى احدهما بالتاريخ القديم وهو من زمن آدم الى عصر السعادة المحمدية والثانى بالتاريخ الجديد وهو من عصر السعادة المحمدية الى الزمن الذى بعده واهمية العصر الخامس عشر للميلاد الذى هو قسم من هذا التاريخ الجديد ظاهرة فان اوربا بلغت فيه درجة الكمال في المعارف والصنائع ودخلت في سلك التمدن واخذت الدولة العلية ايضاً في ذاك العصر بعد فتح اسلامبول في تقوية الامور البحرية

ولما دخلت اسلامبول بيد المسلمين كما ذكرنا سابقاً توجهت خواطر اهل اوربا للاستيلاء على الممالك الشرقية ولكنه لم يحصل اتفاق فيما بينهم ولم يقدروا على ان يأتوا بشيء نافع اما السلطنة السنية فكانت تكتسب يوما فيوماً جسامة واتساعاً وقوة جعلت كافة الدول تعترف لها بالغلبة الكاملة ووصل العثمانيون الى ابواب فيانا والتجأ فرانسيسكو ملك فرنسا الى الاعتاب السلطانيه

وفي اوائل المائة العاشرة هجرية افتتح السلطان سليم الياوز فتوحات عظيمة في قطعتى اسيا وافريقيا وكان اذ ذاك حائزاً على الخلافة الاسلامية

فارتفع شأن الدولة العلية وقويت شوكتها وعلت مرتبة اخرى فوق ذلك ثم اتم ولده السلطان سليمان القوانين والنظامات الملكية والعسكرية والقوة البحرية وفتح الفتوحات العظيمة واظهر شأن السلطنة السنية وعظمتها برًّا وبحراً وشرقاً وغرباً . وفي ذلك العصر كان فرنسوى ملك فرنسا حاكماً ذا قوة شديدة فاستولى على دوقية ميلان الواقعة في ايتاليا واشرأبت نفسه لتوسيع ممالكه . ودولة اسبانيا في ذلك الوقت كانت ايضاً دولة جسيمة جداً وكانت ايالة نابولي في ايتاليا وجزائر ساردينيا وسيسيليا واماكن كثيرة في افريقيا والاراضى التى اكتشفت في اميركا جميع ذلك تحت حكم ملك اسبانيا . وقد تزوج ابن مكسيميليان ابن فريدريك امبراطور المانيا السالف الذكر الذي هو من عائلة هابسبورغ بابنة ملك اسبانيا فاولدها شارلكان الذي صار ملكاً لاسبانيا بالوراثة وعند وفاة مكسيميليان سنة ١٥١٩ ميلادية اراد فرنسوى ان يكون امبراطوراً وكاتب في ذلك البابا والاساقفة والامراء الذين من شأنهم الانتخاب فلم يفده ذلك شيئاً وانتخب المنتخبون شارلكان للامبراطورية فانضمت الدولتان الجسيمتان المانيا واسبانيا وصارتا دولة واحدة كبيرة ونوى شارلكان ان يجعل جميع اوربا حكومة واحدة كما نواه شارلمان

وبناء على ذلك لم يمر زمن قليل حتى انفتح باب الحرب بين شارلكان وفرنسوى فغُلب فرنسوى واخذه شارلكان اسيراً ثم اطلقه على شرط ان لا يتعرض لايتاليا . وبعد ذلك اتفق مع دولتى انكلترة والبندقيين على شارلكان فغُلبوا ايضاً وأُكرهوا على عقد المصالحة وفي اثناء ذلك كان شارلكان في ايتاليا فالبسه البابا تاج امبراطورية رومية وتاج ملكية لومبارديا ومن بعد ذلك لم يلبس احد تاج الامبراطورية فى ايتاليا

ونظراً لهذه الحال اضحت دولة فرنسا بين المانيا وايتاليا واسبانيا واقعة في مخالب الامبراطورية واجتهد فرنسوى ملك فرنسا في تخليص ملكه من هذه الورطة فاذا به التى نفسه بذلك السعى في مضيق الحبس . ولما لم يجد طريقة للنجاة التجأ الى السلطان سليمان القانوني وكان تخيّل في عقله ظفر السلطان سليمان القانوني وقوته على الامبراطور وذلك بما رآه من آثار صولته وسطوته الجليلة الحاصلة في المجار وردس وطرابلس وتونس والجزائر ولم

يبال بتعصب اهل اوربا الشديد وجهـالتهم في ذلك العصر ولم يلتفت الى الاختلاف الدينى بل رجح احداث مناسبة بينه وبين السلطان المشـار اليه للاستمداد منه لاجل سلامة ملكه ثم انه استمد منه مراراً وأمده في البر والبحر على ما بيناه في الفصل الرابع والسابع

وفي اثناء ذلك ظهر البروتستانيون في اوربا وطعنوا وردوا حكومة البابا الروحانية ورفعوا الاصنام من الكنائس واعتبروا المسائل الاصلية في الانجيل وانكروا المسائل التى زيدت عليها وقتاً بعد وقت بعد ظهور الديانة العيسوية واتخذوا لهم مذهباً بسيطاً جداً . وللكاثوليك اعتقادات مخصوصة في البـابا منها انه يغفر خطايا الناس وان كل شيء يتكلم به ويعرفه فهو عن الهام ولهذا حصلت البغضاء والعداوة بين الطرفين ادت الى ظهور حروب مذهبية في كل جهة واما شارلكان فانه لم يقدر على الاهتمام بالامور المذهبية لانه كان يخاف السلطان سليمان كما انه يخاف غائلة فرنسوى وفي زمن قليل انتشر مذهب البروتستانت في مواضع كثيرة من المانيا وهذا المذهب وان يكن سرى الى فرنسا ايضـاً فان فرنسوى كان يميل كثيراً الى الحكومة المطلقة ولذلك لما رأى مذهب البروتستانت من جملة مذاهب الافكار الحرة وكونه مغايراً للحكومة المطلقة ولمطالعاته السياسية كعدم اخراج البابا من يده ضداً لشارلكان فلم يرد انتشار هذا المذهب واشاعته في فرنسا . ومع كون هذا المذهب شاع في جميع اطراف اوربا فان في فرنسا كان كل من يصير بروتستانت يعاقب. ولذلك كان البروتستانت الموجودون في المانيا يحركون شارلكان عليه

ولانتهاز الفرصة في الاستفادة من هذه المنازعة المذهبية دخل السلطان سليمان مراراً الى بلاد المجار وذلك في سنة تسعمائة وتسعة وثلاثين هجرية ثم ان شارلكان امد البروتستانت لمقاومة العساكر الاسلامية فرجعوا عنها وبعد بضع سنين فتح فرنسوى حربـاً اخرى على شارلـكان وبعد ان اتفق مع السلطـان سليمان اجرى متاركـة بدون حصول نتيجة وبعده عند ابتداء الحرب صالحه عليه ووعده شارلـكان بان يكون معيناً له على الدولة العليـة ويحاربها معه

وفي سنة ٩٥٤ هجرية مات فرنسوى وخلفه في الملك ولده هانري الثاني

ومع كونه اعدم البروتستانت الذين في فرنسا اتفق مع امراء بروتستانت المانيا على شارلكان وانتصر في الحروب التى وقعت بينهما. وكان يستمد من السلطان سليمان كابيه فارسل اليه الاسطول الهمايوني نجدة . وفضلاً عن استيلائه على بعض ممالك لويس الموجودة في تصرف المانيا فانه استرد ايضاً من الانكليز مدينة قاله التى كانت من مائتى سنة في ايديهم وسدت ابواب فرنسا امام الانكليز

ولما غلب شارلكان في حروبه مع الدولة العلية وعجز عن رد الاراضى التى دخلت بايدي الفرنسويين اجتهد في الجمع بين الكاثوليك والبروتستانت ولما لم يحصل على طائل في ذلك نقم على الدهر لسوء تصرفاته به وفي سنة ٩٦٤ هجرية جعل امر دولة اسبانيا الى ولده وترك دولة النمسا والامبراطورية الى اخيه الذي هو ملك المجار واعتزل هو في دير في اسبانيا وبقيت العداوة بين دولة فرنسا وعائلة هابسبورغ جارية موروثة واشتغل الامبراطورون اولاً في الحروب العثمانية وثانياً في المنازعات المذهبية

وبعد هذه الحروب التى نشأت عن التعصب الذي دعا اليه ظهور مذهب البرونستانت كما ذكرناه تداخلت دول فرنسا وانكلترة وروسيا في امر بعض حكام الالمان على وجه الحماية والتودد لهم واعتبروا اكتساب النفوذ في المانيا من مقتضيات مصالحهم. وبذلك دخل الخلل في الاتحاد الالماني شيئاً فشيئاً

ولتفاقم هذا النزاع المذهبي وقتئذ قامت في اسبانيا على قصد حماية المذهب الكاثوليكى طائفة اسمها الجزويت ومن قواعدها الاصلية انها تقبل الوسائط في حصول كل مقصد حسن عندها وكلمة الجزويت يضرب بها المثل في اوربا الى الان في مرتكب النميمة ذي الوجهين وردى الاخلاق واخذت بعد ذلك هذه الطائفة تتداخل في الامور السياسية فاطردتها دول اوربا

وفي زمن فرنسوى نجح الناس في العلوم والمعارف وكما ان الفرنسويين كانوا في ذلك الوقت يشكون ويتذمرون من مظالم الاصلاء كانوا ايضاً غير راضين من حكومتهم بسبب اعمالها الرديئة واحرم فرنسوى اهالي فرنسا من كافة انواع حرية الافكار المذهبية والسياسية . وحصره للافكار العمومية وبلوغه في ذلك الى هذه الدرجة كانت عاقبته غير حسنة لدولة فرنسا في المستقبل

وتلك العداوة التى كانت بين فرنسوى وشارلكان ونشأ عنها ما اشرنا اليه من الحروب العديدة التى امتدت بينهما عدة سنين اوقعت اوربا في ضيق شديد. وظهرت امور مهمة تستحق الذكر . ومن جملة ذلك ان شارلكان وفرنسوى كانا من اكبر ملوك اوربا في ذلك العصر . وكان كل منهما محباً لدولته حريصاً على اعلاء شأنها وشهرتها. فتخيل كل منهما ان يجعل اوربا كلها دولة واحدة له تقليداً لشارلمان ولكن لم يمكنه ذلك مع وجود السلطان سليمان وقتئذ الذي كان جالساً على تخت امبراطورية الشرق ومستولياً على اكثر العالم وايضاً فان كلاً من دولتى الانكليز والبندقيين كان في قوة وشدة فابتا ان يخرج ما تصوره شارلكان وفرنسوى من القوة الى الفعل واخذتا في المداخلة في امر الحروب والهدنة بينهما فكانتا مرة تتحدان مع احدهما وطوراً تعقدان اتفاقاً بينهما . وفي ذلك العصر ظهر للوجود اصول الاتفاق والاتحاد الذي لم يكن معهوداً عند الاوائل . وعلى هذا اخذ بعض المؤلفين القواعد والرسوم والعلاقات التى اعتبرت في علاقات الدول وطبقوها على العقل والحكمه فما كان مضراً تركوه وما كان من الاصول المعتبرة موافقاً للحكمة قبلوه ووافقوا عليه واضيف اليه بعض قضايا حسنة . فظهر للوجود فن يشتمل على الحقوق الدولية وصار معروفاً باسم ﴿دورده زان﴾ اعنى حقوق الملل

فبوسيلة هذه الحروب عرف قدر حقوق الملل ثم ان حكماء اوربا الفوا بعد ذلك زمناً بعد زمن كتباً عديدة وضعوا فيها بعض الاصول والقوعد المؤيدة لمحاسن ذلك الفن فادرك ملوكهم انها من المواد الخيرية الموجبة للامن والراحة فصاروا يعتبرونها كانها عهدة عقدت فيما بينهم . والى الان لا تقدر دولة ما ان تخالف اصول وقرار هذا الفن ومع ذلك لايقتضى ان نخرج من الافكار قاعدة ﴿ الحكم لمن غلب ﴾ التى هى تقاوم كل فن

وبمناسبة الاحوال المشروحة نال فرنسوا من السلطان سليمان عهداً في سنة ٩٤٢ وهو اول عهد انعقد بين الدولة العلية ودول اوربا . وذلك العهد كان حاوياً بعض مساعدات وامتيازات ثم بعد ذلك اضيفت اليه زيادات عدة مرات . وكان اساساً للمعاهدات التى عقدت بعد ذلك بين الدولة العلية

ودول اوربا . وفي ذلك العصر كان تجار اوربا في بلاد الدولة العليـة قليلين جداً . وكانت احوالهم كاحوال المسافرين او المستأمنين فلذلك كانوا لا يقيمون اكثر من سنة وكانت حرية التجارة في ايام الانكشارية موقوفة على مساعدة الدولة العلية وحيث انه لم يكن احد من تجار الدولة العلية في بلاد الافرنج فلم ترَ الدولة العليـة لزوماً لطلب شيء من دول اوربا في مقـابلة الامتيازات والمساعدات التى منحتها اياها موقتاً ولم تر لزوماً ايضاً للاستناد على معاهدة الاحكام وذلك اعتماداً على قوتهـا الكلية . وبناء عليه فلم تراع الاصول المرعية المتقابلة في المعاهدات التى انعقدت بينها وبين دول اوربا . ولما كانت المعاهدات الهمايونية عبارة عن شروط هى من قبيل المساعدة والامتياز ولا يوجد شيء في مقابلتها تمسكت بهـا دول اوربا واعتبرتها في حكم عهود لا تتغير ووصلت الامنية والراحة فى الممالك المحروسة الى درجة الكمال واخذ الاوربيون يتواردون اليها بكثرة وصاروا في حكم المتوطنين وتداخل معهم كثير من اهالي الوطن في الامور التجارية . ولما كان يتعذر العمل بعرفهم بل يشكل امره على ذوي الامتيـازات من الاهالي في داخل المملكة وكان دوام هذه الحال مغايراً لحقوق الملل فما امكن تعديل المعاهدات وتنقيحها وبقى الامر جارياً الى الان على وضعه القديم السقيم

وقد شاهدت دول اوربا حرص فرنسوى وشارلكان وطمعهما وادركت ان دولة من الدول اذا اكتسبت زيادة قوة بالنسبة الى سائر الدول يحصل خطر عمومى فرأت وضع موازنة للاصول السياسية لازماً ومنذ ذلك العصر سعت في منع من يرغب منهم في زيادة قوته . ولم تزل اصول هذه الموازنـة جارية ومعتبرة الى الان . وفائدتها ايضاً ظاهرة في حق الدولة العلية . ولما كان جلب مثل هذه الامور المهمة الى مركز الحصول موقوفـاً على التدبر بحكمة نشأ فن (الديبلومات) الذي هو عبارة عن فن المكالمة وادارة الامور الخارجية

والحاصل ان زمن حكومتى فرنسوى وشارلكان كان لمدنية اوربا مبدأ لعصر جديد ثم اخذت المدنية والعلوم والمعارف بعد ذلك فى التقدم يومـاً فيوماً . ولكنها لم تنتشر دفعة واحدة بل احتـاجت الى زمن طويل حتى

بلغت درجة الكمال . ويروى انه عندما كان السلطان سليمان يبنى في استانبول دار الشفاء للمجانين كان الاوربيون الى ذلك الوقت لم يتركوا عاداتهم الوحشية ويروى انه اذا حبس عندهم شخص يقولون دخل فيه شيطان ويلقونه في النار فيحترق

وبناء على ما حصل من الاهمية في جهات الغرب بسبب الوقائع والمحاربات التى جرت بين فرنسوى وشارلكان . توجه السلطان سليمان الى تلك الجهات . ولم يجر اهتمام كلى في غيرها وابتدأت اذ ذاك دولة روسيا تتقوى شيئاً فشيئاً في الجهات الشمالية واستولت على ولايتى ازدرهان وقزان وحصلت لها قوة بتوسيع دائرتها . ثم اخذت بعد ذلك تمو يوماً فيوماً

وفي ذلك العصر كانت دولة اسبانيا على ما ذكرناه سابقاً دولة جسيمة وكان الاسبانيول متعصبين جداً حتى انهم كانوا يهرقون الدماء لمجرد كلام كهنتهم الكاثوليكيين . ولذلك لم يتركوا شيئا من انواع الغدر والظلم الخارجين عن حد الانصاف والانسانية الا وعاملوا به الاسلام اهل الاندلس . فكم اتلفوا من الاسلام بانواع العقاب وهدموا بيوتهم وشتتوا شملهم وفي النهاية اخرجوا من بلاد الاندلس مليوناً من الاسلام ولم يتركوا مسلماً واحداً في قطعة اسبانيا وحيث كان هولاء الإسلام من القديم متمدنون وذوو همم وعرض وفيهم كثير من ارباب الصنائع والمعارف فلما اجرى بهم الاسبانيول هذه الاعمال المغايرة للاصول الدولية وقاعدة الحكمة وخلت منهم بلاد الاندلس وقعت دولة اسبانيا من ذلك الوقت في الاضمحلال ولم تقدر على التخلص من حالة الضعف ولا على ايصال مدنيتها الى درجة سائر دول اوربا

وكانت الطائفة البروتستانية ممنوعة شديد المنع في فرنسا كما ذكر سابقاً الا انه بعد زمن يسير اى سنة ٩٦٧ للهجرة سرت فيها ايضاً حرية الافكار المذهبية فدخل كثير من الفرنسويين في مذهبها وحدثت بسبب ذلك محاربات بينها وبين الكاثوليك واخذ كل منهما يعامل الاخر معاملات وحشية واذ صار بعض امراء العائلة الملوكية من البروتستانت اشتدت الحروب المذهبية وتزايدت بالتدريج حتى انه في احدى الليالي نهض الكاثوليك في باريس ودخلوا بيوت البروتستانت واهلكوهم عن آخرهم وهكذا جرى القتل العام في

البروتستانت في بعض الايالات وتلفت منهم نفوس لا تحصى وتوفي قارلوس التاسع .ملك فرنسا كدراً من اجراء هذه الوقعة المؤلمة فأخذ خلفه هنري الثالث يعامل البروتستانت بالرقة واللطف فانفعل منه الكاثوليك وحرمه البابا فتقرر لدى هنرى الثالث ان يتفق مع هنري رئيس البروتستانت الذى هو ملك ناوار من عائلة بوربون المقيم في اطراف جبال البيرانه فدخل عليه خوري وقتله بالخنجر فلم يبق احد من العائلة الملوكية سوى هنري ملك ناوار فلم يقبله الكاثوليك وحرمه البابا ولم توافق اساتذة دار الفنون على توليته فاجتمع مجلس فرنسا العمومى في باريس وبينما كانوا في كمال الحيرة في تنصيب ملك اذ نادى عموم الشعب بقبول هنري دفعاً للفتنة على امل ان يصير كاثوليكياً فجاء ودخل باريس و بعد بضع سنين اذن للبروتستانت باجراء واجباتهم في الحرية

فاستراحت فرنسا التى خربت من هذه المنازعات والحروب المذهبية التى امتدت نحو تسعة وثلاثين سنة وعندما ابتدأت الامور تجري في مجاريها هجم احد المارين في الطريق على هنري الرابع وهو في عربته وضربه بالسكين فقتله . وحيث ان ولده الذي صار ملكاً مكانه كان قاصراً جعلت امه وصية عليه وكانت متصفة بالاخلاق السيئة فانفقت جميع النقود الموجودة في الخزينه سدى واصبحت ادارة فرنسا في حالة سيئة فاجتمع اعضاء المجلس العمومى في سنة ١٠٢٣ هجرية للمذاكرة ولكنهم صرفوا وقتهم في المباحث والخطب التى لا طائل تحتها وافترقوا بدون نتيجة ولم يجتمع المجلس العمومى من بعد ذلك الى ان حصل اختلال فرنسا العظيم

وفرنسا وان بلغت هذه الحالة السيئة فبسعى الكاردينال ريشيليو وغيرته انتظمت احوالها في وقت قليل واكتسبت نفوذاً وقوة اكثر من الاول . وهذا ريشيليو هو الذي تولى مؤخراً رئاسة الوكلاء في فرنسا وهو من الاساقفة واستعمل في سياسته ثلاثة وسائط اساسية لكسر نفوذ البروتستانت والاصلاء وعائلة هابسبورغ ونجح مسعاه في الثلاث فانه امر باعدام الاصلاء المخالفين واسقط بعد ذلك بالكلية اصول اصحاب المقاطعات في فرنسا وضيق بالتهديد على البروتستانت الموجودين في فرنسا وصار يحرك بروتستانت المانيا على دولة

اوستريا ويستجلبهم لفرنسا . ومع كون دولة فرنسا دولة كاثوليكية فانها لم تفتر عن المداخلات حساً ومعنى في المحاربات التى جرت بين امراء المانيا المجتهدين في نشر مذهب البروتستانت وبين دولة اوستريا التى هى رئيس المحامين عن مذهب الكاثوليك بعنوان امبراطور . وبمثل هذه التدابير السياسية احسن ادارة امورها الخارجية . وجعل دولة فرنسا في مصاف الدول الاولية وافتتح مجلساً للمعارف واجتهد ايضاً في ترقى الفنون والعلوم . ومات في سنة ١٠٥٢ هجرية وبعده بسنة مات الملك وصار ولده لويس الرابع عشر ملكاً لفرنسا وحيث كان عمره تقريباً خمس سنين صارت والدته وصية عليه ووكيلة للدولة . وهى بنت ملك اسبانيا من عائلة هابسبورغ ففوضت رئاسة الوكلاء الى الكردينال مازارين الذي هو من احباب ريشيليو وهذا ايضا سلك على اصول السياسة التى اتخذها ريشيليو لاجل اسقاط عائلة هابسبورغ . واستمر على المداخلة في الحروب المذهبية التى كانت في المانيا لمجرد ضرر الامبراطور . واتفق مع دولة اسوج التى كانت اكبر مساعد للبروتستانت في هذه الحروب على دولتى اوستريا واسبانيا . ونال عسكر فرنسا الغلبة عدة مرات على عساكرها . وبناء على ذلك كان من اقتضاء الصلح الذي عقده في سنة ١٠٥٨ بان ترك محلات قليلة الى فرنسا وصار التصديق على حقوق البروتستانت . وبهذه الصورة استقل امراء المانيا استقلالاً تاماً وسقط نفوذ الامبراطور وصارت دولة المانيا شبيهة بجمهورية الاصلاء

وصار مجلس دولة المانيا وبعبارة اخرى مجلس امة جرمانيا يجتمع في مدينة راتسبون الكائنة في بافاريا وكان مؤلفاً من مائتين واربعين منهم امراء وكهنة ونواب المدن . ولا يحضره الامبراطور والامراء بانفسهم وانما يرسلون اليه وكلاء وبقى حال المانيا جارياً على هذا المنوال الى ايام نابوليون بونابرت

ودولة اوستريا وان كانت تخلصت على هذه الصورة من الحروب المذهبية التى امتدت نحواً من ثلاثين سنة لكنها لم تكن خالية من حروب الدولة العلية ولما لاحظ الفرنساويون ضعفها اشرأبوا لان يكونوا مكانها اول دولة في اوربا . ولهذا لم يتخلص الاوستراويون ايضاً من حروب فرنسا

ودولة فرنسا وان كانت قد تقدمت في امورها الخارجية على هذاالوجه فانها تأخرت في امورها الداخلية نظراً لعدم ملاحظتها للامور المالية فاجبرها فراغ خزينتها من الدراهم الى ان اصدرت قراراً بوضع الويركو وتكاليف جديدة فكان ذلك سبباً لظهور العصيان في باريس في سنة ١٠٦٠ هجرية ففر لويس الرابع عشر ووالدته ومازارين من باريس ومن الغريب انه ظهر كذلك في السنة ذاتها اختلال في انكلترة وحكم على الملك بالاعدام فدخلت انكلترة في هيئة جمهورية يديرها جنرال. وبعد ان حدثت حروب داخلية كثيرة في فرنسا اظهر الاهالي قبول الملك وبعد مدة اتى مازارين ايضاً الى باريس واكتسب نفوذاً فاق نفوذه الاول وحيث ان الفرنسويين اعتادوا على مثل هذه الحالات من المفاسد والاختلال كان ذلك سبباً للاستعدادات الرديئة في فرنسا ودامت الحروب بينها وبين اسبانيا وبمساعدة الجنرال مدبر امور انكلترة لدولة فرنسا انغلبت دولة اسبانيا وتركت اراضى كثيرة الى فرنسا وجرى عقد الصلح على ذلك وتزوج لويس الرابع عشر بابنة ملك اسبانيا وفي انكلترة ايضاً اعيدت الملكية الا ان الحرية تأيدت بها وتقررت في حالة حكومة ذات شروط . اما لويس الرابع عشر فانه لما عاد الى باريس قوى الحكومة المطلقة بزيادة وما كاد يبلغ سن الرشد حتى اظهر بحركته ما دل على شجاعته وفي الواقع انه حكم مدة تزيد على خمسين سنة بالقوةوالجسارة وربما سلك مسالك الظلم

وكان في القديم يعقد في باريس وفي المدن الكبيرة مجالس كبيرة باسم بارلمان . وهذه المجالس لا تتداخل في ادارة الدولة ولا في تنظيم القوانين كمجلس بارلمنتو انكلترة . وانما كانوا بمثابة دواوين الايالات ووظائفهم الاصلية عبارة عن رؤية الدعاوي الاستئنافية . وكانوا مجبورين على تقييد الاوامر التى تعطى والقوانين التى تنظم من طرف الملك ليجري بمقتضاها في المرافعات . واخذت هذه المجالس تتقدم بنفسها شيئاً فشيئاً حتى صاروا يعترضون على بعض القوانين ويخالفون ما لا يحسن عندهم من الاوامر التى ترسل من طرف الملك لاجل القيد. وبارلمان باريس اراد معاملةلويس الرابع عشر بمثل ذلك في اول الامر . فلم يعبأ بهم وجعل الجميع يعترفون

له بحكومته المطلقة واوقف البارلمان على حد وظيفته . واذ كانت فرنسا في ذلك الوقت في غاية الضيق المالي اذ مات مازارين رئيس الوكلاء وظهر عنده من المال مائتا مليون من الفرنكات فتوسعت بها الدولة وصرف لويس الرابع عشر المشار اليه نظره عن نصب رئيس للوكلاء والتزم ان ينظر في كل شيء بنفسه . وعين لكل واحد من الوكلاء وظائف تخصه ووضع لهم اصولاً بان يأتي كل منهم بمفرده ويعرض عليه ما ينظر فيه من المصالح ويستأذنه فيها وانتخب لكل عمل مأموراً من ذوي الاستعداد واصلح الملكية فراجت الصنائع والتجارة . ومع ان ديون الدولة كانت كثيرة والخزينة فارغة اجرى امور المالية ايضاً في مجرى حسن . وكان عسكره منتظماً ومارشاله المارشال تورن المشهور والمهندس دوبان الذي لم تزل آثاره مقبولة في فن الاستحكامات ومعتبرة الى الان . وفي ذلك الوقت كانت فرنسا من جهة عسكريتها تامة الاستعداد

ومات ملك اسبانيا والد زوجة لويس الرابع عشر فطلب لويس ان يترك له بعض بلاد بلجيقا الكائنة في تصرف اسبانيا ميراثاً لزوجته فلم تقبل بذلك اسبانيا فاعان لويس الحرب واستولى على اماكن كثيرة

ولاجل المحافظة على العدل في موازنة اوربا السياسية صار عقد اتفاق بين دولتى انكلترة واسوج . وجمهورية الفلمنك واجبروا لويس على الصلح ورد قليل من الاماكن التى استولى عليها وحيث ان لويس في ذلك الوقت كان غنياً جداً وهو من اهل الكبر فتكدر من جمهورية الفلمنك بالنظر لتحريكها غير دول منعاً لنيل مرامه كما ذكرناه فاعلن عليها الحرب وهاجمها بسرعة واستولى على مملكتها جميعاً فانسحب الفلمنكيون الى مدينة امستردام وفتحوا حواجز البحر فاندفع الماء ورجع الفرنسويون . واهاجت جمهورية الفلمنك كعادتها سائر الدول على دولة فرنسا فقامت لحربها ورتب لويس جملة معسكرات وشرع في قتالهم في كل طرف وانتصر الفرنسويون فى كل موضع وغلب الاسطول الفرنساوي في المحاربة البحرية التى وقعت في جهة سيسيليا غلباً تاماً واغرق كثيراً من مراكب اسبانيا والفلمنك واضر بالباقي

وجسارة الفرنساويين في اعمالهم جعلت الدول المحاربة لهم في اضطرار

الى الصلح وفي هذه المصالحة التى عقدت في سنة ١٠٨٩ هجرية اكتسبت دولة فرنسا اماكن كثيرة وتقدمت وقتئذ في العلوم والمعارف تقدماً زائداً وقصدها الرجال المشهورون في اتقان الفنون والصنائع وصارت للعالم انموذجاً لكل شيء وبالاخص الآداب الفرنساوية فانها وصلت وقتئذ الى غاية الكمال وكان اشهر الشعراء والمنشئين والمؤرخين الفرنسويين من رجال ذلك العصر . وكان لهم القبول والاعتبار في سائر اوربا . واشتغل الناس بتحصيل اللغة الفرنساوية في كل محل . ولمداخلة لويس الرابع عشر في امور اوربا صارت اللغة الفرنساوية تستعمل في المخابرات السياسية على وجه العموم وكانت له رعاية للعلوم والمعارف ورغبة في انشاء الابنية الجميلة فسراية فرساي وجميع ما يشاهد من الابنية الحسنة هى من آثاره. وفي عصره تقدمت فرنسا ايضاً في امر احكامها وتأسست القوانين والنظامات الجميلة

واما الدولة العلية فانها كانت وقتئذ بالنسبة الى سائر الدول فائقة وغالبة وكانت احوال الزمان تقضى عليها بزيادة الاعتناء في امور الملكية والعسكرية لكنها تساهلت في امورها والمواضع التى ينبغى فيها تقدم المعارف والصنائع جعلتها في يد التكاسل والاهمال وصارت امورها الملكية والعسكرية في اختلال ومن بعد الالف مالت الى الانحطاط . وهى وان كانت في غضون ذلك استظهرت في بعض الفتوحات بهمة اولاد الكوبريلي فانها بقيت متأخرة بالنسبة لترقى الاوربيين. وبعد ان رتبت اوستريا عسكراً منظماً تحت قيادة المارشال مونته قوقولي صارت عساكر الدولة ذات العلوفة التى كانت لا تعرف الانهزام والتأخر تنهزم وتولي الادبار في محاربة النمساويين. وصارت الدولة من ذاك الوقت محتاجة لتجديد احوالها واصولها

والحاصل ان اوربا صارت في ذلك العصر في غير هيئة وحال وبالاخص فرنسا فانها تقدمت تقدماً فوق العادة

واكتسب لويس الرابع عشر شأناً وشهرة زائدة ونفخته الكبرياء والعظمة وكان يهدد جميع دول اوربا في الامور الخارجية ويظهر التكبر والتعاظم وعلى هذه الاحوال كان جارياً في الداخلية حتى انه الغى القانون الموضوع من قبل مائة سنة في حق اجراء حرية البروتستانت وكان اكثر من مائة الف منهم

لا يقدرون على ترك مذهب عائلاتهم ومع كون خروجهم الى الممالك كان ممنوعا فقد خرج بعضهم خفية وتوطنوا في ممالك شتى والباقون منهم اقام اكثرهم في جبال فرنسا وتلف في هذه المقاومة نفوس كثيرة من الطرفين

ومع كون العلوم والمعارف تقدمت كما ذكرنا تقدماً فوق العادة في فرنسا فوقوع هذه الفتن كان موجباً للضعف . وفى هذه المرة وان يكن اعدم كثير من البروتستانت فان لقوة ترقى المدنيـة لم يحصل في حق البروتستانت اجراء اصول القتل العـام كما جرى قبل مائة سنة . وقد ذكرنا ان دولة اسبانيـا اخرجت من بلادهـا مئات الوف من المسلمين من ذوي التمدن والعمل فبسبب افعالها السيئة التى هى غير معقولة تضعضعت والى الان لم تخلص من حالة الضعف . وكذلك دولة فرنسا فانها عندما شتتت البروتستانت واخرجت من يدها التبعة الذين هم اهل صنائع ومعارف تأخرت في بلادهـا العلوم والصنائع نوعاً ما وكذلك المعامل التى لا تعد . وطرأ عليها بعض ما يقتضى من الضعف

وبالجملة فعلى الوجه المشروح منع لويس مذهب البروتستانت واظهر الغيرة في حق مذهب الكاثوليك ولمارأى نفوذ البابا مغايراً لسياسته شكل في فرنسـا مجلساً عمومياً للكهنة ورتب لهم نظاماً جعله بنوداً

منها ان البابا لا يحق له المداخلة في حكومات سائر الدول الجسمانية وان قرارات وآراء مجلس الكهنة العمومى تكون مرجحة على قرار البابا ورأيه

ولمـا كانت دول اوربا غير امينة من طمع وحرصه لويس اتفقوا على فرنسا بتشويقات جمهورية الفلمنك. فلما علم بذلك لويس سبقهم الى الحرب اظهاراً للانفة وعدم تأثر فرنسا لهذه العائلة البروتستانية وهجم على حدود المانيا . ووافق ذلك ان دولة اوستريا كانت في ذلك الوقت مشغولة بمحاربة الدولة العلية فلذلك كان الظفر في الاكثر لعساكر فرنسا وكان ملك انكلترة يميل الى الكاثوليك عكس ملك فرنسا فلمـا حدثت هذه الحروب اشرأبت نفسه لاعادة مذهب الكاثوليك الممنوع في انكلترة وبسبب ذلك سقط ولم تتأت له الاقامة بل فر الى فرنسا فاقتبله لويس بالاحترام . وبناء على ذلك خلعـه بارلمنتو انكلترة في سنة ١١٠٠ هجرية وانتخب فى محله صهره استات

هولدري غليوم ملكاً لانكلترة وكان اذ ذاك رئيساً لجمهورية الفلمنك .
وهو من اشد اعداء لويس ولذلك تجست هذه الحروب التى كانت جارية .
وعساكر فرنسا وان كانت لها الغبة على الاكثر في البر فان اسطولها عند
مقابلته لاساطيل انكلترة والفلمنك لم يثبت بل انهزم هزيمة شنيعة وهلكت
جنود كثيرة من الفرنساويين ولم يبق لهم قواد مشهورون وظهر القحط
والغلاء وظهرت امارات عدم الطاعة بين العسكر وضعفت ايضاً الصناعة
والتجارة فاصبح لويس من النادمين وترك البلاد التى استولى عليها في المحاربات
التى امتدت على هذه الحال عشر سنين . وفي سنة الف ومائة وتسعة هجريه
صار مجبوراً على عقد المصالحة مع اوستريا وانكلترة وهما من الدول المتفقة
وبذلك ضعف نفوذه كثيراً

وفي تلك الاثناء كانت الدولة العلية تحارب دول روسيا وله والونديكيين
واوستريا فتوسطت بينها دولتا انكلترة والفلمنك وبعد مضى سنة عقدت
المصالحة مع الدول الاربع المذكورة وتخلصت من مشقات الحروب التى كابدتها
مدة خمس عشرة سنة . ولكن قلعة ازاق بقيت لروسيا وفتح للروسية باب
التجارة من تلك الجهة وفي هذه الحرب شاهد بطرس الاكبر قيصر الروسية
فائدة العسكر المتعلم فاشتغل بتكثيره سريعاً وبتنظيم دولة على طرز دول
الافرنج فاتخذ طريقاً واسعاً جداً للترقى

وفي ذلك الوقت اشتد ضيق المالية في فرنسا حتى صارت الوظائف
ورتب الاصلاء تباع بالدراهم . والصلح المنعقد بين الدول المتفقة كان في
الحقيقة من قبيل المتاركة فقط

وكان ملك اسبانيا توفي عن غير ولد يخلفه وكانت ميلان ونابولي وسيسيليا
والمملكتان العظيمتان في امريكا وهما المكسيك وپرو تابعات الى اسبانيا في
ذلك الوقت. فنظراً لذلك اخذت دولتا فرنسا واوستريا فى البحث في حقوق
الوراثة . وبناء على ما هو معين في وصية ملك اسبانيا بان وريثه يكون
الحفيد الثاني للويس . فعندما توفي في سنة الف وسبعمائة مسيحية اجلس
في اسبانيا الحفيد المذكور عملاً بالوصية . فلم توافق دولة اوستريا على ملكيته
ووافقتها في ذلك دولة انكلترة والفلمنك والبورتغال واسوج مع دول

اخرى من اوربا خوفاً من اتحاد دولتى فرنسا واسبانيا

ولما كان امبراطور اوستريا محتاجا لنجدة امراء المانيا رضى بان يلقب منهم المار كيز براندوبورغ فريدريك الاول وهو من هرسك المانيا بلقب ملك استجلاباً له ولما استفحل امره اضاف مملكة بروسيا الواقعة في طرف بحر البلتيق الملحقه ببراندوبورغ الى مملكته واختص بلقب ملك بروسيا ودخل فى هذه الحرب وعلى هذه الصورة تقريباً ظهرت للوجود مملكة بروسيا وصارت بعد ذلك ضداً عنيداً لدولة اوستريا

وفي بعض وقائع هذه الحروب الموما اليها كان يحصل الظفر لجنود فرنسا وفى الاكثر منها لعساكر الدول المتفقة وفى اثناء ذلك استولى الانكليز على قلعـة جبل طارق (جبلزه) التى هى اعظم قلعة متينة فى الدنيا وهى الى الان فى يدهم

ولم يكن وقتئذ عند الفرنساويين قواد مشهورون بخلاف الدول المتفقة فانه كان عند الانكليز القائد (ماريبورغ) وعند اوستريا القائد (برنس اوزن) وهم قواد مشهورون وهولاء انتصروا فى عـدة حروب كبيرة . وانحطت فرنسا الى حالة الخمول وظهر في كل جهاتها القحط والغلاء فتضايقت جداً حتى ان لويس باع عدة من اواني سفرته . وبنـاء على هذه الشـدة طلب المصالحة فكلفته الدول شروطـاً كثيرة ثقيلة من جملتهـا ان يسوق عسكره لاخراج حفيده من اسبانيـا فجدد المحاربـة وانكسر الفرنساويون وعندما اذعن لويس لكل ما اشترطته الدول تغيرت الافكار بغلبة الفرنساويين الموجودين في اسبانيا لعساكر الدول المتحدة

وفى اثناء ذلك كانت الحرب قائمة ايضاً بين قيصر الروسية وهو بطرس الاكبر السالف الذكر ودولة اسوج فغلبها القيصر واستولى على كثير من المواضع في ساحل بحر البلطيق . وفتح باب التجارة الى بلاد الافرنج ثم وقع فى تهلكة عظيمة فى حرب پروت مع محمد باشا البالطه جى الا انه تخلص منها بطلب العفو والامان من الباشـا المذكور واستمر على اشغاله . وبناء على ذلك تحول النظر فى ميدان السياسة لجانب الشمال

ومال الانكليز فى غضون ذلك الى الصلح اما سائر الدول المتفقة فقد

اوجست خيفة من اتحاد فرنسا واسبانيا . ولاحظت انه اذا لحقت اسبانيا باوستريا وقع الخلل فى الموازنة السياسية وان الاصرار على طرد ملك اسبانيا واخراجه من البلاد لنفع اوستريا الخصوصى على حين كان رعاياه راضين عنه مغاير لحقوق الملل ومناف لها فجرت لذلك الاستعدادات بموافقة الجميع على صلح يحفظ الموازنة السياسية من الخلل . غير ان لويس الرابع عشر ملك فرنسا شرع في مخابرة انكلترة خفية وهادنها وفي سنة ١١٢٠ هجرية عقد الصلح مع انكلترة والفلمنك ثم عقدها مع اوستريا في السنة التى بعدها

ودولة اسبانيا وان كانت في الظاهر بقيت على عهد فرنسا فان هاتين الدولتين لم يحصل بينهما اتحاد في وقت من الاوقات. وكان من شروط المعاهدة بان يترك لانكلترة قلعة جبل الطار وكثيراً من بلاد امريكا التى في تصرف فرنسا فعظم ذلك عند دولة الانكليز وعلى الخصوص انها اخذت قوتها البحرية فى الزيادة وترقت تجارتها وصنائعها وصارت احدى الدول الاول

وقد شرط الانكليز في تلك المعاهدة امراً غريباً وهى اعطاء امتياز لشركة انكليزية بان تدخل الى بلاد اسبانيا الكائنة فى امريكا خمسة آلاف من العبيد في كل سنة لتبيعهم بها . وفي هذه المصالحة ترك ايضاً الى اوستريا بلاد بلجيقا ونابولي وميلان وساردينيا ولكن ساردينيا اعطيت مؤخراً الى دوقية سادوه الواقعة بازاء جزيرة سيسيليا . وتخلصت فرنسا من خطر عظيم ومن بعد هذه المحاربة المذكورة سقط نفوذ لويس الرابع عشر وشهرته وانحطت سطوة فرنسا وثروتها فضلا عن انه تلف منها ما يزيد على مليون نفس وظهر في كل جهة من جهاتها القحط والغلاء ووصل الويركو وسائر التكاليف الى حد الافراط واكثر الاهالي صاروا لا ينتفعون بشيء من حاصلات كرومهم بل كان البعض يخربونها بايديهم وآل الامر الى ان صارت دوابهم تؤخذ من ايديهم في مقابلة الويركو فكانوا لذلك يقتلونها وطرأ خلل عظيم في الزراعة وبقيت الحال فى فرنسا جارية على هذا المنوال الى ان زاد الاختلال وعظم

وقد تأثر لويس الرابع عشر من هذه الاحوال السيئة التى نشأت عن ميله لعلو الشان وحرصه على الشهرة . وكان اعظم كدره من وفاة ابنه وحفيده الذي كان معلمه فنالون مؤلف كتاب تليماك ووفاة سائر الامراء فلم يبق له وريث

سوى ابن حفيده الذي عمره خمس سنوات فاحضره قبل وفاته واوصاه وقال له انى بادرت الى الحروب فلا تقتد بي في هذا الباب ولا تكن مسرفاً مثلي واجتهد في سعادة حال الاهالي ثم اطلعه على هفواته التى صدرت منه وندم عليها ثم توفي في سنة ١١٢٨ هجرية وجلس هذا الحفيد على تخت الملك باسم لويس الخامس عشر . وتعين ابن اخيه دوك اورليان وكيلاً للدولة من طرف البارلمان مع انه مناف لوصية لويس الرابع عشر . ولويس فيليب المشهور الذي خلع ايام الاختلال الذي ظهر في فرنسا فى عصرنا هو ابن حفيد هذا الدوق

وكان لويس الرابع عشر مائلا الى الحكومة المطلقة مؤيداً للافكار الاستبدادية ولم يروَعنه انه مال الى الحرية قط . وقد سلك الاهالي على وفق مراده ثم انهم تهافتوا على استعمال الربا . ومن المجربات ان الربا يقضى بسوء الخلق وقلة الدين فسلكوا في اسوأ طريق بدون احتراز شيء ما . وهذا علاوة على ما صرفه من الاموال الكثيرة في الفواحش وما تدعو اليه الخلاعة والشهوات فكان ذلك سبباً في فساد اخلاق الاهالي . كما انه اتلف الخزائن في الحروب التى فتح ابوابها وعند وفاته ترك على فرنسا دينا قدره ثلاثة مليارات فرنك ويمكن ان يقال ان اسباب الاختلال العظيم الذي حصل في فرنسا كان تهيأ في زمانه . وكذلك الدوق اورليان السالف الذكر فانه كان ايضاً مائلا الى الخلاعة والصفا ومبتلياً بقرناء السوء وبعد ان تخلص الاهالي من ايدي تضييق لويس الرابع عشر وقعوا جميعاً في السفاهة والخلاعة تقليداً له . وعلى هذه الصورة زاد دين دولة فرنسا بمدة خمس او ست سنين نصف مليار فرنك زيادة على دينها القديم . وبينما كانوا يجثون على واسطة لتأدية تلك الديون جاء رجل الى الدوق اسمه (لاد) وعرض عليه بعض تدابير غريبة عجيبة ونال الرخصة باحداث بنك وشركة تجارية . وبالاتفاق مع الدوق تداولت اوراق هذا البنك التى كان لا حساب لها لكثرتها وفي مدة سنتين جمع هذا البنك نقود اهالي فرنسا جميعاً . ومع كون هذا البنك وهذه الشركة كانا بلا اساس تضاعفت قيمة اسهمهما وحصصهما عشرين مرة عن قيمتهما الاصلية وذلك بالتشبث مدة بانواع

الدسائس والكذب وبعض تخيلات وعلاقات تجاريــة واعمال صيرفية . فالذين فهموا سر هذا الاخذ والعطا وانه من نوع الخدعة اكتسبوا في اقرب مدة اموالا كثيرة بالمقامرة وصــاروا اغنياء من غير مشقة . واكتسب (لاد) شهرة زايدة . وكان في انظــار الناس في ذلك الوقت كانه لا يوجد رجل اعظم منه وقد اغتروا به حتى صار احدهم لكي يصير غنياً في اقرب وقت يبذل ما في يده من الدراهم للبنك ويبيع املاكه ويأخذ بها اسهاماً وحصصاً . وعلى هذا صار اعتبار الحصص والاسهم المباعة يفوق ثمانين مرة اعتبار النقود المتداولة في كل فرنسا ثم ان هذه الاوراق سقطت فى يوم واحد دفعة واحدة من اعتبارها وزالت تلك التخيلات والاعتبارات واصبح اكثر الناس فقراء في يوم واحد وفر لاد من فرنسا -

وهذه الخدعة الكبيرة وان تكن دولة فرنسا قد تخلصت بها من ديون كثيرة فان الاهالي ساء حالهم وصاروا في حالة الفقر والاضطراب . وقد ظهر في ذلك الوقت مرض الوباء في فرنسا ولم تقبل الدول الاجنبية دخول مراكب الفرنسيس في مراسيها فنشــأ عن ذلك ايضــاً خلل كلى في تجارتهــا وصنائعها وفي اثنــاء ذلك مــات الدوق وبلغ الملك سن الرشد فحصلت فرنســا على راحة قليلة

ولمــا لم يكن لقارلوس السادس امبراطور المانيا اولاد ذكور ولم يبق ايضاً ذكور في عائلة هابسبورغ وضعوا قانوناً في حق انتقال دولة اوستريا الى النسا . وحيث ان لقب الامبراطورية كان من وقت قديم في عائلة هابسبورغ . وامراء المانيا تعودت على هذه العائلة قبلوا باجمعهم القانون المذكور واجتهدوا ايضاً في ارضاء الدول الاجنبية في قبوله . ثم لما توفي قارلوس في سنه ١١٥٣ هجرية وجلست ابنته ماريا ترزيا على تخت ملك اوستريا وجه والمجــار ادعى الامير المنتخب الى بافاريا حق الوراثة في دولة اوستريا بالنظر لقرابة اجداده لها فوافق على ذلك كل من دولة فرنسا واسبانيا . واستعدت مــاريا ترزيا للدفاع عن حقوقها واستجلبت المجار ورتبت دولة انكلتره ايضاً معسكرين لاجل امدادها . وفرنسا وقتئذ غير قادرة على المحاربة . غير انها دخلت فيها رجاء ان تستولى على قليل من مملكة اوستريا الواقعة في اطراف نهر الرين وانتصرت

عساكرها في بعض الاحيان في البر ولكنهـا في البحر انكسرت واضمحلت بالكلية وبالجملة قد توفي قارلوس وترك لابنته هذا الادعاء وانتخب اكثر امراء المانيا فرنسوى دوق توسقانه زوج ماريا ترزيا للامبراطورية . وفي سنة ١١٦٢ تغلبت ماريا ترزيا على اخصامها وانعقد الصلح وباشرت امور الاحكام بالاتحاد مع زوجها . وفي هذه الحروب اكتسب الاسطول الانكليزي شهرة زايدة عما تقدم له . واما دولة فرنسا فقد تكبدت كثيراً من النفقات وذهبت سدى وساءت امور ماليتها وتعطلت اساطيلها وطرأ الخلل على تجارتها

ولم يكن لويس الخامس عشر ملك فرنسا حاكماً غيوراً على الملك بل كان يصرف اوقاته في طلب الصفـاء والخلاعة . وسلم نفسه في يد امرأة فاحشة يجري برأيها ادارة دولته وكان اهالي فرنســا تنظر الى ذلك مع التأسف وزال توجههم العمومى في حق الملك

ولسوء اطوار الملك انحط شأن واعتبار مسند الملك وبهذه المنـاسبة قال مونتسكيو المؤلف المشهور احد فلاسفة ذلك العصر (ما هى هيئة الدولة وما هى العدالة والحقانية . ثم اوضح اساسهما واصولهما) . وصـار فولتر المشهور ايضاً يهزأ بكل شيء فاسقط اعتبار العقائد والافكار القديمة . والمؤلف روسو كان منشئاً بليغاً ففى الكتب التى الفها بحث بوجه اوضح فيه أساس الدين والمذهب والدولة . وحيث ان اهالي فرنسا كانوا من القديم محرومين من جميع انواع الحرية سواء كان ذلك من جهة الافكار الدينية والمذهبية او من جهة الافكار السياسية فاتبعوا هاؤلاء المؤلفين وانقلبت الافكار العمومية الى الدخول في طور جديد وكانوا الى ذلك الوقت غير مهذبين فعند ما يلقى مثل هذه الافكار الفلسفية دفعة واحدة على اذهانهم لا يصل اليهـا فهمهم فضلا عن اذعانهم اليها ومنهم من لا يقدر ان يفهم الابحاث العويصـة فوقعوا في حيرة وصاروا يفسرون اكثر العبارات بغير معناها ووقعت الافكـار العموميـة في غلط كبير . اما المألفون الاخرون فانهم اقتدوا بطريق حكماء كليبون بان الدنيا عبـارة عن العيشة بالسرور وليس فيها فضيلة ولا رذيلة فاتخذوا كلامهم اسـاساً وساقوا به الناس الى عدم الدين بالكليـة وغلبت الافكار العمومية فى فرنسا على هذا يوماً فيومـاً وأمالوهم الى الحريـة ووصلوا

بهم فيهـا الى درجة الافراط . وبينما كانت فرنسا متطورة بطور غريب لتغير اذهان الاهالي على هـذا الوجه ساءت احوال الملكة وحدثت بينها وبين انكلتره منازعة من جهة بعض املاكها الكائنة في امريكا

ودولة بروسيا التى ذكرنا أنها اخذت لقب الملكية من عهد قريب على الوجه السابق كانت تعد من ملحقات امبراطورية المانيا لكونها حايزة عنوان الهرسكية ثم انها اكتسبت قوة وقدرة وصارت ضداً قوياً للامبراطور المتصرف في دولة اوستريا بالاتفاق مع الحكومات التى دخلت في مذهب البروتستانت

وكان فره دريقوس الكبير ملك بروسيا المعروف بفريدريك الثاني استولى على قطعة سيلزيا في محاربة ورثة ملك اوستريا السالفة الذكر فوسع ملكه وبذل جهده في ربط امور الملكية والعسكرية وتنظيمهما فوق الغـاية فترقت قوته ومكانته ترقيـاً عظيما على سائر الدول . وقـد دعاهم ذلك للمراقبة ودقة النظر وعلى الاخص عدوته الكبيرة ماريا ترزيا . على ان فرده دريك وان كان فيلسوفاً كبيراً في ذلك العصر فانه كان مستهزئاً بغيره جدا وقد استـاء منه بعض الملوك والوكلاء في اوروبا لطعنه في حقهم وهجوه لهم . ولما لم يحتمل احد بان تكون بروسيا مرجعاً ومركزاً للبروتستانت اجمعوا على تنزيله عن رتبة لقب الملكية واعادته الى حالة اجداده الاولى اى لقب الامير براند نبورغ المنتخب . وكانت دولة روسيا تتداخل في امور الشرق والغرب فاتفقت مع اوستريا على بروسيا ودخل في هذا الاتفاق ايضاً دوق ساقسونيـا الذي كان في عهدته ملكية لهُ فلما علم فريدريك بذلك نهض قبلهم سنة ١١٧٠ هجرية ودخل بغتة الى مدينة ساقسونيا فلم يقدر اميرها على مقاومته وسلم له نفسه فانعقد الاتفاق اذ ذاك بين دولة اوستريا وامراء الالمان واعلنوا الحرب على فريدريك . وساقت دولة روسيا ايضاً عساكرها من احدى الجهات على بروسيا واما دولة فرنسا فانها لما عجزت عن اخذ محل من بلاد اوستريا في المحـاربة السابقة خطر ببالها في هذه المحاربة ان تنهب شيئاً من بروسيا واتفقت مع عائلة هابسبورغ التى كانت اجتهدت في تنزيلها منذ بضعة سنين واعلنت الحرب على بروسيا . اما انكلترا فانها لاحظت ان اتفاق دولة فرنسا مع دولة اوستريا التى كانت عدوتها منذ القديم يجعلهـا تكسب حزباً وتقوم بعد ذلك عليها

فلذلك اتحدت مع دولة بروسيا واشتعلت الحرب على هذه الصورة وامتدت سبع سنين وانكسرت دولة فرنسا في البر والبحر واستولى الانكليز على عدة اماكن كانت تحت سلطة فرنسا في امريكا فضلا عن انها اخذت بلاد قنادا الكبيرة الواقعة في الجهة الشمالية من امريكا المتحدة . وهذه البلاد لم تزل الى الان بيد الانكليز

وفريدريك وان يكن انتصر في اكثر الحروب التى حدثت فقد تلف عدد كثير من عساكره فى الحروب المتوالية في جهات عديدة حتى اوشكت جنوده ان تفنى . واما بطرس الثالث الذي كان مشغوفاً بمعارف فريدريك وفضله وحيراناً باداب بروسيا واصولها . فحينما جلس على سرير امبراطورية روسيا عقد الصلح عن عجل مع فريدريك واعطاه قيادة العساكر الروسية التى دخلت الى ممالك بروسيا ولما صار خلع بطرس وجلست كاترينا الثانية المشهورة محله على سرير الملك وافقت على امضاء الصلح وقد تضايقت المانيا من اجراء هذه الحروب وخاف امراء الالمان من فريدريك فانسحبوا واحداً بعد واحد ولم يبق مجال لدولة اوستريا فعقدوا الصلح وتخلصوا من غوائل تلك الحروب التى امتدت كما قلنا سبع سنين ولم تقدر دولة اوستريا في مدة هذه الهدنة ان تسترجع ولاية سيلزيا بل بقيت في حوزة بروسيا ولحقت دولة بروسيا بمصاف الدول الاول وصارت من ذلك الوقت تعد من دول اوربا الخمسة العظيمة . اما اوستريا فقد غلب عليها الوسواس ولم تقنع بانها ابلغت عساكرها المنظمة الى مايتين او ثلاثماية الف بل راقبت الوقت والحال فكانت تارة تحد وتتفق مع فرنسا وتارة مع انكلترا واحياناً مع روسيا والتزمت حماية بعض حكام الالمان ليكون لها علاقة في داخليتهم وهى مع كونها تعلم ان دولة فرنسا من اكبر المعارضين والمضادين لها فانها نظراً لما اكتسبت دولة بروسيا من القوة بهذه الصورة رأت من مقتضيات مصلحتها انها تتفق وتحدد مع فرنسا ورأت من الواجب ايضاً مصافاة دولة روسيا احترازاً من دولة بروسيا

واما فرنسا فانها لم تجدها الحروب السالفة الذكر نفعاً بل خسرت اكثر ممالكها في امريكا وزادت مضايقة ما ليتها اكثر مما كانت عليه وكان لويس الخامس عشر معتكفا على الفواحش حتى انه لم يجد في الخزينة من الدراهم

مايصرفه فالزمه الحال ان يسبك اواني سفرته ويجعلها دراهم

وبينما كانت فرنسا على هذه الحال السيئة اذ تجدد النزاع بين الكاثوليك فى المسئلة المذهبية التى كانت باقية منذ القديم فيما يتعلق بقضية الارادة الجزئية وفى اثناء ظهور مذهب الجبرية المضادة لليسوعيين جرح احد المتعصبين للملك بخنجر وحمل هذا الامر على اغراء اليسوعيين فضعف مذهبهم وطريقتهم وبظهور مذهب البروتستانت اضمحل مذهب الكاثوليك ومن الغريب انه بينما اخذت الافكار العمومية في فرنسا تتغير وامور الديانة تتلاشى كان كهنة الكاثوليك مشتغلين بالنظر فى دقائق هذه المسألة واصبح الناس على العموم ضد الملك وتوسعت دائرة آمالهم في الحرية وتقدمت تقدماً كلياً وكان من مقتضيات اصلائهم والرؤساء الروحانيين ان يتداركوا هذا الامر ومع ذلك فان مجلس الامة في باريس استجلابا لتوجه العموم وتقوية لنفوذهم صاروا يعترضون على بعض اوامر الملك

﴿ استطراد ﴾

وفي ذلك العصر ظهرت صنعة تلقيح داء الجدري في اوربا وهاك تفصيل امرها وكيفية استعمالها على الوجه الاتى

هذا الداء قد ينجو منه القليل من الناس ولا يصب من يصاب به اكثر من مرة واحدة في العمر وقد تكلم جماعة من الاطباء الاقدمين على اسبابه فقالوا انه فضلة رطبة رقيقة تدفعها الطبيعة وهذه الفضلة تتولد عن اختلاط اللبن ودم الحيض في دماء الصبيان فبعد ان تخرج هذه الفضلات من البدن الانساني يصفو الدم ويقوى

وهذه العلة لا توجد في بعض الجهات من بلاد السودان والارناوط ولا تصيب سكانها الا اذا كانوا مسافرين في غير مواطنهم فعلى هذا فان الاقاليم لها تأثير فى ذلك غير ان بعض الاطباء المعاصرين يقولون ان عدم وجود هذه العلة في المواقع المذكورة لعدم الاختلاط الذي هو من الاسباب التى توجب السراية لان العلة المذكورة من العلل التى تنتشر فى

الهواء وتسرى بمشيئة الله تعالى الى الاطراف المجاورة لها وحصولها لهم عن اختلاطهم فنظراً لوجودهذا الداء فى الصبيان عموماً يستدل بانه مستعدللعدوى وسرايته عبارة عن اظهار هذا الاستعداد للفعل وعلى كل حال فان الاطلاع على حقيقة اسباب هذه الاشياء هو منوط بالعلم الالهي المحيط بكل شيء وعقل الانسان لا يحصل الا على الحيرة

ولم يكتب الطباء اليونان والعرب شيئاً عن داء الجدري الى حين تاريخ ٣٠٠ للهجرة النبوية فتصدى ابو بكر الرازي محمد بن ذكريا الذي امتاز بعلم الطب بين الطباء الاسلام سنة ٣٠٠ ورتب ونظم مستشفيات الري وبغداد الى هذا الامر وألف ما ينوف عن ماية كتاب ورسالة في صنوف الحكمة والفنون واكثرها في فن الطب منها كتاب وضعه في داء الجدري وكانت وفاة هذا الحكيم فى سنة ٣٢٠ وكان اول من بحث قبله عن داء الجدري ابو على ابن سينا الذي كتب بخصوص ذلك مباحث كثيرة .

ومن المستغرب ان الاطباء الاقدمين بحثوا كثيراً عن علل هى اقل اهمية من هذه جداً ولم يذكروا عن هذه العلة شيئاً وذكر بعض الاطباء ان هذه العلة لم تكن معروفة في العالم كله قبل سنة تسعماية او سنة الف وانما ظهرت وانتشرت في العالم بعد ذلك وكما ان امراضا كثيرة لم تكن موجودة ووجدت فكذلك كان مرض الجدرى ولا يستبعد احتمال حدوثها بعد التواريخ المذكورة ويؤيد هذا اعتقاد اهالي الصين فانهم يقولون ان هذه العلة لم تكن موجودة في الصين الى تاريخ ٨٠٠ وكسور وانها سرت لهم من تجار البصرة الذين كانوا يترددون لمدينة قانطون وروى انه لم يكن داء الجدري موجوداً في امريكا قبلاً ولكنه بعد كشف قولنب واختلاط اهالي امريكا بالاوربيين فشا هذا الداء بوجه لم ير مثله واتلف خلقاً كثيراً وعلى كل حال فانه كان يحصل تلف كثير في كل سنة بسبب الداء المذكور فظهرت صنعة التلقيح وخلصت الاطفال من هذه البلية منذ سنين معلومة

واول ما ظهر التلقيح في الممالك المحروسة وكانوا يأخذون من ماء حبة الجدري الممتلئة من الاطفال الذين اصيبوا به خفيفاً ويفتحون في ذراع الاطفال الغير المصابين به محلا ويضعون ذلك الماء فيه فتظهر حبة الجدري

في المحل الذي وضع فيه الماء المذكور وبهذه الواسطة كان الولد ينجو من داء الجدري

وقد تحققت بالمشاهدة زوجة مونتوكو سفير الانكليز المقيم عند الدولة العلية منافع تلقيح الجدري فى ادرنه وجربته في ولدها وارسلت في سنة ١١٣٠ هجرية تحريراً الى انكلترا بهذا الخصوص وقد جربوا التلقيح في انكلترا فتحققوا منافعه فانتشر في سائر الاطراف وقد صادقت عليه اطباء اوربا وقبلته غير ان الكهنة اعترضوا على هذا الامر وقالوا ان المداواة للمرض العمومى الذى يجىء من طرف الله هو ينافي مراد الله تعالى وبناء عليه اصر اكثر اهالي اوربا على عدم قبوله في بادىء الامر وصاروا يعتبرون الذين يجوزونه انهم لا دين لهم وربما انهم يرون ان قتلهم واجب وكان الملوك في اوربا بخلاف ما كان عليه الكهنة ولذلك كانوا يعطون بعض العطايا للذين يلقحون اولادهم ويعاملونهم معاملة لطيفة ومن بعد ذلك شاهد الجميع محسنات التلقيح واعترف جميع الناس بانه دواء انعم الله به على عباده وهداهم الى عمله واخذوا يصرفون الدراهم لاجل تلقيح اولادهم

وفي اول الامر تردد الفرنساويون في استعمال التلقيح ثم استحسنه بعض المؤلفين منهم فولتر وحسّنه وشاهدوا منافعه بالتجربة ووافقهم عليه مكاتب فرنسا سنة ١١٧٢ وحينئذ بادر العموم لاستعماله وهذه الصنعة يقال لها تلقيح الجدري واما تلقيح البقري المستعمل في كل جهة فهو اختراع الطبيب جنر الذي هو من اطباء انكلترا والطبيب المذكور تعين ماموراً من دولته في سنة ١١٩٠ كى يلقح اهالي بعض القرى واراد ان يفتح البحث عن التلقيح لبعض الفلاحين الذين يتعيشون من حليب مواشيهم فسألوه عن داء الجدري فاخذ الطبيب المرقوم يذكر لهم اسبابه ويصفه فقال بعضهم لربما هذا الداء الذي يظهر في ثدى الابقار فيسري الى اصابع الرعيان وتظهر منه دمامل فلما سمع الطبيب منهم ما ذكروه ورأى اثر حبوب في اصابع بعضهم امعن نظره في ذلك فعلم ان تلك الاثار هى آثار الجدري وان سبب الذين اصيبوا بالجدري انهم عندما يحلبون ابقارهم تنفقئ الحبوب التى في ضروعها فيصيب ما يخرج منها شقوق اصابعهم او بعض جروح في ايديهم فيظهر فيها نوع دمامل ثم انهم لا يصابون بعد ذلك بداء الجدري فجرب فيهم

الحكيم المذكور تلقيح الجدري فلم يؤثر فيهم ثم انه اجتهد في التجربة وكررها مدة تنوف عن عشرين سنة الى ان توصل الى الدواء وسماه بالتلقيح البقري والف فيه رسالة سنة ١٢١٣ ثم اتى بعد ذلك الى لوندرا واجرى العمل فيها وظهر نفع هذا التلقيح البقري فانعمت عليه دولة انكلترة بعطايا وافرة وترجم كتابه بسائر اللغات فانتشرت صنعة التلقيح البقرى واعطي الحكيم النياشين من مجالس المعارف

وقد افاد ارباب الفنون والتحقيق ان داء الجدرى ما زال يتلف مقدار سدس النوع البشري فلذلك كانت صنعة التلقيح مفيدة جداً ومع ذلك فان هذا الداء يتلف مع التلقيح في المائة واحداً فعلى كل حال غير خال من الخطر. واما التلقيح البقرى فليس فيه خطر اصلا فلذلك كان من انفع المخترعات الطبية وعند ظهوره تصدى من كانت معيشته من الاطباء بتلقيح الجدرى لرده وانكاره ولكنه انتشر في مدة قليلة في كل جهة فلم يبق لكلام المنكرين تأثير ابداً

والحاصل ان مادة التلقيح ظهرت اولا في ممالك الدولة العلية وكانت من قبيل الجراحات العادية واما في اوربا فانهم الحقوها بالطب وصارت صنعة. ولا يعلم بوجه الصحة من اخترعه في ابتداء الامر ولا كيف كان اختراعه وروى بعضهم ان العرب هم الذين اخترعوا صنعة التلقيح ولكن هذه الرواية لم تثبت

وروي ان اول ظهور التلقيح كان في بلاد الاناطول من طائفة تدعى اليورك وكان رجل منهم اتى دار السعادة وصادف فيها وجود علة الجدري بشدة فقال ان هذه العلة لا يحصل منها في بلادنا ضرر يصل الى هذا الحد لاننا في كل سنة نلقح اولادنا بالطم الذي ناخذه من الدمامل التى تظهر في اصابع الرعيان منتقلة اليهم من ضروع ابقارهم وعليه لا يحصل لهم الجدرى وعلى ذلك قام بعض الحذاق وجربه وسمعت به زوجة مونته كو فكتبت بذلك الى بلاد الانكايز على ما قيل لكن التلقيح البقري انتشر على الوجه المذكور بعد تاريخ الف ومائتين وعشرة ولم يكن يعرف ولا يقال به قبل ذلك

وزعم البعض ان صنعة التلقيح ظهرت من طوائف الجركس والابازه والكورج ولكنه لا يعلم اي طائفة منهم على الخصوص احدثتها لان القبائل المذكورة كانوا يتجرون بيعاً وشراء في العبيد والجواري ولكون داء الجدرى يزيل حسن وجه الانسان وجماله ويكون سبباً لخسارة اربابهم التزموا

ان يفتشوا لعلهم يجدون واسطة لهذا الامر فوجدوا صنعة التقليح غير ان هذه الرواية لم تثبت لان هذه الصنعة لا توجد عندهم الان ومن المستبعد ان هؤلاء القوم يكتشفون هذه الصنعة بعد التفتيش والتحري بناء على هذه المطالعة الاساسية ثم ينسونها او يتركونها بالكلية هذا فضلا عن ان القوم المذكورين سواء كان بالنظر لاحوالهم السالفة او بالنظر لاحوالهم الحاضرة غير مأمول ان يشغلوا اذهانهم في اكتشاف صنائع كهذه

والدليل الذى بقي لنا في هذا الباب هو المكتوب الذي كتبته زوجة مونته كو المذكورة من ادرنه الى لندرا اول يوم من نيسان سنة ١٧١٧ غربي ميلادية مفاده ان صنعة التلقيح في ادرنه جارية معمولا بها فدل هذا ان الصنعة المذكورة ظهرت في ادرنه قبل ذلك بسنين متعددة وقد سمعت من بعض الشيوخ ان هذه الصنعة كانت موجودة في ادرنه قبل الحاقها بفن الطب وورودها الى ممالك الدولة العلية ولكننا نجهل من احدثها ونجهل وقت استعمالها وكيفيته ولاجل ايضاح المسألة وتثبيتها ادرجنا باخر الكتاب ترجمة مكتوب زوجة مونته كو تحت نومرو ٧

ومن الغريب انه عند ما سرت صنعة التقليح على الوجه المشروح من ادرنه الى اوروبا اخذ الكهنة يعترضون عليها باعتراضات شديدة فقبلت اولا مع الصعوبة وبعد بلوغ تمام العرف فيها ورجوعها الى اسلامبول بواسطة الاطباء حصل اعتراضات شديدة من المتعصبين بخصوصها ولكنها اجريت بالارادة القطعية التى صدرت من طرف حضرة السلطان محمد خان الثاني

وفي اطراف حلب وكردستان ولورستان على العموم يظهر في كل انسان حبة تزول في مدة سنة حتى صارت معروفة بحبة سنة وفي اللسان التركى يقال لها حبة خرما وفي الايراني سالك وقد تشبثوا بها ايضاً في التطعيم وقد تطعم من ظهرت به سواء كان بحسب المدة او بحسب شدتها او خفتها وحيث لم ينظروا لذلك فرقاً تركوه . وهذه الحبة تطلع على الغالب في الوجه ويبقى لها اثر فلو استعملوا التقليح في غير الوجه من المواضع التى لا ترى فلربما انها تنتقل اليه ولكن لا نعلم هل جرب ذلك على الوجه اللائق ام لا ولنرجع الى ما كنا بصدده

وبناء على الحرب المتقدم ذكرها التى امتدت سبع سنوات ضعفت دولة فرنسا وحصل لها اضطراب عظيم في داخليتها ولم يبق لها نفوذ في خارجيتها فاغتنمت لذلك دولتا روسيا وبروسيا الفرصة وتداخلتا في امور دولة لَهْ بحجة اعطاء الحرية وموازنة الحقوق بين النصارى الذين هم من مذهب البروتستانت والارثوذكس القاطنين في بلاد لَهْ التى على مذهب الكاثوليك ودولة فرنسا حصل لها بسبب ذلك كدر عظيم ونظراً لضعفها لم تستطع اجراء شيء سوى التشبث بتحريك واغراء الدولة العلية واهالي لَهْ على الروسية

وكانت الدولة العلية في ذلك الوقت محتاجة لتنظيم العساكر ولم تكن في حالة يمكنها الحرب معها كما ذكرنا في الفصل الرابع والسادس ومع ذلك فقد حدثت الحرب المشؤمة في سنة ٨٢ وقام ايضاً اهالي لَهْ للمدافعة . فدخلت دولة اوستريا بالاتفاق المؤسس مع الدولتين وفي سنة ٨٦ هجرية صار اجراء المقاسمة الاولى لبلاد لهستان بين الدول الثلاثة فاضطرت الدولة العلية الى قبول معاهدة قينارجه المضرة وتوفي بذلك الوقت (لويس) الخامس عشر وجلس محله حفيده لويس السادس عشر على سرير ملك فرنسا وهو في سن العشرين وذلك لكى يجازى بسيئات ابائه واجداده كما سنذكره . وتزوج بقليلة الحظ (ماري انتوانت) بنت ماريا ترزيا امبراطورة المانيا

وكان لويس رجلا حسن النية الا انه كان ميالا للتعصب الذى لا يوافق ذلك العصر ولم تكن درايته وجسارته كافيتين وكافلتين لحل مشكلات الوقت وبناء على ذلك انحط نفوذ الذين لا دين لهم مع كثرة عددهم في زمان جده وسقط اعتبار التآليف القديمة التى الفت في مخالفة كل دين ومذهب وفي الحث على محاسن الاخلاق والاداب . وتحولت الافكار العمومية الى اسلوب آخر واقبلوا على اكتساب الفضائل وما تدعو اليه الانسانية من الرحمة وانتخب لويس وزراءه من ذوي الشهامة ووضع واسس نظامات حسنة واتخذ تدبيرات مناسبة وسعى في سعادة الاهالي واصلاح الاحوال السيئة التى حدثت في فرنسا من سوء تصرفات جده وكثرة حروب لويس الرابع عشر وكان ممدوحاً في مبدأ حكومته . ولكن كان قرناؤه والمقربون عنده غير راضين عن الرجال ذوي الشهامة والناموس وكانوا يخالفونهم دائماً في التدابير الحسنة فكان ذلك داعياً

لتوقفه في اجراء ما يجب من الاصلاحات وذلك لما يلقيه عليه اهل الفساد من اقوال الزور المتنوعة . ولما كان (موربا) الذي نصبه رئيساً للوكلاء كبير السن وليس من ذوى الوقار والتمكن مع ما كان يشاهده من احوال فرنسا السيئة فلم يدرك بفكره وسائل جديدة لازمة لاصلاحها وكان في امله انه باستراحة جسم الدولة تندفع بالطبيعة هذه العوارض وكثيراً ما كان يطلب استعفاءه من مأموريته عندما يكلفه لويس اجراء بعض اصلاحات جديدة وفي الوقت الذي كان يجب عليه ان يجتهد في تقديم الاشغال كان يسعى في ترجيعها الى حالتها وهيئتها القديمة . فيحصل من ذلك رغبة جديدة للذين من شأنهم طلب الامتيازات ويكرهون تجديد الاحوال واصلاح امور الادارة واجرائها على اصولها ففى تعيين مثل هذا الرجل المومى اليه صاحب افكار سخيفة بل عنيفة مضرة لرءاسة مجلس الوكلاء خطأ كبير . وكانت الثروة في ذلك الوقت في فرنسا محصورة في الاصلاء والكهنة اذ كان ثلثا الاملاك في تصرفهم وكانوا يعطون لخزينة الدولة شيئاً جزئياً بصورة الهدية والاعانة . واما الويركو وسائر الضرائب التى يصير استيفاؤها بوجه خارج عن حدها فكانت تؤخذ من اوساط الناس وضعفائهم لا غير وزيادة على ذلك فالضعفاء يعطون العشر الى الكهنة والاساقفة كما ان الاصلاء يستخدمونهم كثيراً في اشغالهم الشاقة

والحاصل ان العامة كانوا يجتهدون لانفسهم لما يدفع الضرر عنهم واما الاصلاء فكانوا يصرفون الواردات التى يأخذونها بدون تعب في السفاهة والكيف والصفاء . والكهنة يصرفون اوقاتهم فى البطالة ويتعيشون من جيب الاهالي كما سبق وكانت وظائف الكهنة الموجودين في الخدمة الدينية بالفعل في صورة عادية واكثر الواردات المربوطة بالكنائس والاديرة كان مأكلا للاساقفة الذين هم اصحاب الرتب والعنوان وكانت الدولة تلزم اكثر الواردات الى الشركات فلذلك كان اقل الناس يصيرون بهذه الوسيلة اغنياء بسهولة والباقون يلحقهم الفقر وكانت المبالغ الكلية التى تحصل بغير طريقتها المرضية لم تأت الدولة بفائدة والملتزمون على الغالب يشتركون مع اصحاب النفوذ فلم يخافوا من احد وكانوا يحصلون الاموال بطريقة خارجة عن النظامات وكانت الدولة

تساعد الملتزمين مساعدة كلية حتى لاتتأخر وارداتها. وتعاقب من يهرب من دفع ما عليه من المال ومع هذا فقد كان كل صنعة وتجارة تحت الحصر فتجارة الحبوب مثلاً كانت محصورة في اماكن معدودة لبعض الاشخاص وكان الطحانون والحمالون الذين يحملون الحبوب الى المطاحن يعدون عداً لا يقبل الزيادة

وكان تورغو ناظر المالية الذي ولاه لويس مستعداً غيوراً موقراً سياسياً عالماً باسباب الثروة والعمران العمومى فاتخذ وسائل لاصلاح المالية وازال كثيراً من الاعمال الفاسدة وكانت نفقات الدولة تجاوز وارداتها كثيراً ومع ذلك فانها كانت لا تحتاج الى استقراض او زيادة الويركو وذلك لحسن تدبيره وكان يقلل الزوائد من المصاريف يوماً فيوماً ويدفع فوائض الديون القديمة شيئاً فشيئاً ورفع حصر الصنائع والزراعة والتجارة الذي كان مانعاً لترقيها وزيادتها واغلق ابواب كثير من الاديرة التى هى بمنزلة مواضع اهل البطالة والكسل وفتح المكاتب لاجل ترقى المعارف العمومية وكان يتعاطى التدابير اللازمة كتنظيم القوانين الجديدة في كل مادة واصلاح ادارة امور الدولة والغاء الامتيازات ﴿ اى الخصوصيات ﴾ وحاز ذلك القبول عند الملك وامر باجراء بعض القضايا منها ولما كان الاهتمام بهذه الامور تمس بمنافع الاصلاء والكهنة الخصوصية فلم تكن مقبولة عندهم وحصل خلاف من البارلمان فصادف تورغو مشكلات عظيمة ولم يقدر ان يجري اكثر تنظيماته فالتزم ان يستعفى اما لويس السادس عشر فكان يحب تبعته وكان مالذريك موافقاً لرأي تورغو وحسن افكاره للملك ولكنه اظهر الصعوبة والخوف عند الاجراء ولم يفهم التدابير الكبيرة وذهب زاعماً الى ان التدابير الصغيرة قد تكون علاجاً للامراض الكبيرة ولما انفصل تورغو عن منصبه الغيت تنظيماته دفعة واحدة فذهبت تدابيره الحسنة بدون نتيجة ومع ذلك فان لويس كان يعرف احوال فرنسا معرفة تامة حتى قيل انه قال لتورغو عند انفصاله ﴿ انت اسعد منى حظاً لانك قادر على ترك مأموريتك ﴾

وعلى هذه الصورة عادت الامور المالية الى حالها القديم وتلاشت في اقرب وقت وظهر الخطأ في عزل تورغو والغلط في الطريقة التى اتخذت في

ادارة الامور المالية وقد اعطى القرار بتولية نكر ناظراً للمالية لكونه كان مشهورا بانه عارف بالامور المالية ولما لم يكن من الاشراف وكان على مذهب البروتستانت فلم يعطوه لقب ناظر المالية وقتئذ بل كان مأموراً بعنوان مفتش المالية وكان في الاصل صيرفياً مستعداً غنياً معتبراً عند الصيارف والتجار فلذلك كان تعيينه مناسباً لتجديد اعتبار مالية فرنسا وكان صيرفياً محضاً لا يعرف دقائق الملكية التى تتوقف عليها الاصلاحات المالية وكان معجباً برأيه فسلك على طريق الصيرفة المخالفة بل المضادة لاعمال تورغو و كان يمكنه سد الخلل بحسن الادارة ومع ذلك فانه اول شيء اهتم به الاستقراض وفي مدة مأموريته التى دامت اربع سنين ادار دولاب الاشغال واستعمل اصول الاستقراض في صورة حسنة لكن تدابيره كانت عبارة عن دفع المشاكل التى تعرض في كل يوم بصورة المبادلة فيلبس قاووق زيد الى عمرو وبالعكس . والحاصل ان امور مالية فرنسا اخذت في الاضمحلال يوماً فيوماً .ولنأخذ الان في الكلام على كيفية توسع الروسية وترقيها

لم تكن دولة روسيا في القديم ذات قوة وشهرة وفي هذا الوقت صارت ذات هيئة جسيمة تملك على تسع الكرة الارضية ومؤسس هذا الهيكل الجسيم هو بطرس الأكبر السالف الذكر ولما اخذت دولة روسيا تصعد في مدارج القوة حصل لها الاستعداد للتعرض والاجلاب تدريجاً على الحدود الخاقانية واستولت على ايالتى ازدرهان وقازان وكانت فرقة رحالة من الجنكيزيين تجول في ساحل بحر الخزر وبسطت يد حكومتها في القازان ووضعت الخراج على الروسيين وعندما كانوا يتداخلون بامورهم الداخلية كانت مملكة القريم اذ ذاك حكومة صغيرة

وبعد ذلك استولى الضعف الكلي والانحطاط الجلي على حكومة القازان وانقرضت سلسلة نسب عائلة خاناتها وبقيت كانها تابعة للقريم . وكان عندما يتعين احد سلاطين القرم لخانية القازان ويرسل لها كان ينقل ذلك على خانات القازان لان خانية القرم كانت مطمح آمالهم .وكان في الاختلال الواقع بين التاتار فائدة للروسية فخلا لها الجو واخذت في القوة شيئاً فشيئاً الى ان

استولت على ايالتى قزان وازدرهان وذلك في اواخر سلطنة حضرة السلطان سليمان القانوني ومن بعد ذلك كان امراء القريم يتابعون الغزو الى بلاد الروسية وينهبون ويحرقون وربما وصلوا الى حدود موسقو الا ان قوتهم كانت عبارة عن فرسان التاتار وهكذا كانوا يغزون بعض الجهات ومع ذلك فلم يكن عندهم اقتدار على ضبط الاماكن التى خربوها. وكان الروس يدفعون في كل سنة الى خانات القريم مقدارا من الويركو على قصد ان يكون بدلاً عن الخراج تخلصاً من الغزوات التاتارية . وبهذه الحال استولوا على الاقليمين الجسيمين المذكورين وتوسعت بهما مملكتهم . وكان امراء القريم يأخذون الخراج في كل سنة من الروسيين ومع ذلك فانهم كانوا غير قادرين على استرداد تلك الايالات الى طاعتهم وكان يمكنهم ذلك حينئذ بمساعدة الدولة العلية . ولكن الدولة العلية كانت تحس من الجنكيزيين ميلاً الى الفتن والفساد من القديم فلم تستصوب وجود قوتهم في حدود قازان ودشت قبجان فلذلك لم يقع التشبث من طرف الدولة العلية باسترداد تلك الايالات نظراً لما اقتضته مصلحتها وهى ان تكون ادارتهم بهذه الصورة او بالنظر لاسباب اخرى وكان الروسيون وقتئذ ليسوا بشيء ولذلك لم تعط اهمية الى تلك الجهة وانحصرت الافكار في الفتوحات الجديدة في جهة النمسا وكان الاوفق في مسلك السلطان سليم الياوز الذي ذكرناه سابقاً ان يضبط ويحافظ على هاتين الولايتين فان الاستيلاء عليهما كان في حق الدولة انفع من الاشتغال بالفتوحات في بلاد المجار وخروات . لانه على تقدير اخذ اهالي قافقاس وازدرهان وقازان باليد . فبحسب قرب مجانستهم واتحاد اكثرهم في الدين والمذهب كانوا بالطبع يدخلون في حوزة حكم الخلافة ويلتحقون بالعثمانيين . وبهذه الوسيلة تدخل القريم شيئاً فشيئاً في طاعة الدولة كدخول سائر ايالات الدولة العلية وكان بواسطة ازدرهان وقازان يجري نفوذ الدولة العلية ايضاً في جهات بلاد التاتار الكبيرة . وباستثمار الاموال التى يصير اكتسابها على هذا الوجه من تلك النواحى كان يمكن ضبط ممالك عديدة كبلاد المجار . وعلى كل حال فقد استفادت الروسية من وقوع الخطأ في مثل هذه المطالعة السياسية واستولت على هاتين الايالتين الجسيمتين

وايالة ازدرهان هي مملكة (حاجى ترخان) وهى الصحراء الواسعة المنفصلة من مملكة دشست قبجاق واصل عمرانها ان الحاج ترخان كان من اكابر السادات فقصد موضعا وابتنى فيه مسجدا ثم جاء الناس من الجهات وبنوا منازلهم عنده فصارت قرية يطلق عليها قرية الحاج ترخان ومع مرور الزمان اجتمع الناس هناك من الاطراف والاكناف وصارت القرية المذكورة مدينة جسيمة واشتهرت عند الناس باسم ازدرهان

وهذه الايالة هى منتهى جنوب قزلر وقبار طايلا الواقعتين في الحدالشمالي في طاغستان الشمالية وعندما استولت الروسية على هذه الايالة اقبلت على غزو بلاد القافقاس . ولما كانت وقتئذ غير منتظمة الاحوال وكان اوجاق عسكرها المسمى اذ ذاك استرليج لا يفتر عن قدح شرار الفتن والفساد فلم تقدر على اجراء شيء ما في تلك الجهات. ولما ظهر بعد ذلك بطرس المشار اليه اشرأبت نفسه الى توسيع سطوته وتمكين دائرة دولته وحيث ان بلاد الروسية غير منبتة ادرك يقيناً انه اذا لم يكن لها قوة بحرية لتدور عليها رحى الشهرة والسطوة بين الدول وتكون ذريعة لتوسيع نطاق التجارة فلا يدرك شيئاً من اماله فتصور انه يتجاوز الممالك المجاورة له لتوسيع بلاده فاخذ ينظم دولته على احوال تنظيم اوربا. وفي اثناء ذلك رتب بلوكا من العساكر وعلمه وانزل نفسه بمنزلة نفر منه ثم صار يزيد هذا البلوك بالتدريج حتى كبر وجعله طابوراً واتخذ فرصة الحروب الممتدة منذ سنين عديدة وسيلة لمراده كما بيناه اعلاه بين الدولة العلية ودول له والنمسا والبندقيين فبلاتفاق مع الدول المذكورة ساق عسكراً الى جهة القرم فانهزم ثم ساق عسكراً ثانياً بنفسه في سنة ١١٠٨ واستولى على قلعة ازاق. وفي اثناء ذهابه واياته كان يدبر امور الحكومة ويقوم بخدمته في الطابور المذكور وعندما وصل الى عاصمته مدينة موسقو كان احرز رتبة اليكباشية . وفي هذه الحرب شاهد فائدة العساكر المعلمة فاقدم على تكثيرها وابلغها الى اثنى عشر الفاً وبمقتضى الصلح الذى عقد في سنة ١١١٣ تركت الدولة العلية لروسيا قلعة ازاق وجميع الحصون القديمة والحديثة اللاحقة بها وتركت لها ايضاً اراضى مسافتها عشر ساعات من ازاق الى جهة قوبان

بما ذكرناه تمكن بطرس من ملك قلعة ازاق وبنى قلعة طيغان لتكون مرسى لتجارة الروسيين في البحر وجعلها مركزاً لها

وبعد ذلك ذهب متنكراً الى بلاد الفلمنك يعنى مغيراً هيئته لاجل تعليم الصنائع واشتغل في التجارة هناك بالاجرة مع العملة ثم توجه الى لندرا وبعد ان دقق النظر هناك في امر الصنائع والاعمال واجتهد في تكميل الفنون الرياضية عاد الى مملكته وابطل وجاق الاستزليج والغاه واشتغل بالحكومة واخذ ينظم دولته كما يريد وباثناء ذلك ظهرت الحرب بين دولة اسوج ودولتى دانيمارقه وله فاتفق بطرس مع دولتى دانيمارقه وله واعلن الحرب على دولة اسوج فانكسر وغلب في اول الامر وفي نهايته انتصر وذلك في واقعة (پولتاوه) ففر ملك اسوج والتجأ الى جهة بغدان واستولى بطرس على اكثر القلاع والبقاع الواقعة في سواحل بحر البالتيق التى كانت في تصرف الاسوجيين

وعندما وقع بطرس في ورطته الكبيرة في معركة بروث في حرب الدولة العلية التى صار اشهارها عليه بدس من ملك اسوج كما بيناه في الفصل الرابع تخلص بالهدنة التى عقدها في سنة ١١٢٣ في حالة الغلب مع محمد باشا البالطه جى على ان يخرج حاميته من قلعتى ازاق وطيغان وتسليمهما الى الدولة العلية مع قبول سائر الشروط الشاقة ومع كونه توجه الى بلاده ومعه منشور الوزير المشار اليه المكتوب بسنان الظفر يتضمن العفو عنه والامان له ووصل الى بلاده سالماً (كان كما قيل ربي لايرى الحية البردانة وجه الشمس) نكل عن الوفاء بالعهد وامتنع عن تسليم القلعتين المذكورتين ازاق وطيغان وشرع في عمل السفن في بحر الازاق وعمران الاراضى التى اخذها من الاسوج وبناء مدينة بطرسبرج التى هى الان عاصمة الروس وزاد في عنوانه لقب امبراطور وكان لقبهم قبلا (چار) قيصر

وكانت تصورات بطرس واسعة جداً بحيث لا تفي بها مدة حياته فكتب وصية لخلفه ليقدموا من بعده باجراء ما بقى من تصوراته ثم مات وفارق دار الدسايس سنة ١١٣٨ هجرية

وقد ادعى بعض المؤرخين ان بطرس لم يكتب وصية بقلمه لكونه كان يخفى

افكاره عن كل احد وايضاً فان موته كان يشبه موت الفجأة فلم يكن له وقت يتمكن به من كتابة مثل هذه الامور التى ذكروها ولكن يحتمل ان يكون قد كتبها من قبل وابقاها لاننا نرى جميع حركات دولة الروس السياسية والحربية مطابقة لمضمون هذه الوصية التى اشتهرت بعنوان وصية بطرس منذ زمن مديد الى الان وقد اثبتناها بحروفها في الذيل تحت عدد (٨)

ومن سياسة الروسية انها كلما اعلنت الدولة العلية بالحرب مع امبراطورية المانيا تطمع فيما يعود عليها بالفائدة . فلما ظهرت الحرب في زمن السلطان محمود الاول مع النمسا اعلنت هى ايضاً بالحرب على الدولة العلية اعانة للامبراطور فتركت الدولة العلية لها قلعة ازاق بموجب العهدة المنعقدة سنة ١١٥٢ وتنازلت عنها . وكما ان دولة الروسية ملكت هذه القلعة وفتح لها طريق التعرض الى بلاد قافقاسيا بالمسير في بحر الاسود وفي طول نهر قوبان . فكذلك الدولة العلية ابتنت لمحافظة الحدود يكى قلعة من جهة البحر وقلعتى آجو وتمرك (طرق) من جهة البر

ونهر قوبان ينقسم الى جدولين يتفرع من كل منهما قسمان قسم يصب في مرفاء قزل طاش واخر في بحر ازاق وبانقسامه وانصبابه حدث منه جزيرتا طمان ومنتا فكان يسكن فى هاتين الجزيرتين وعلى ضفتى اصل النهر قوم من القزاق المخالفين للروس وجماعة من التاتار التابعين للقرم . وقلعة طمراق واقعة في منتهى الجانب الشرقى من جزيرة طمان المسماة (اضهٔ شاهى) اي جزيرة السلطان وهذه القلعة مع قلعة قزل طاش قد بنيتا قديما لدفع اضرار الاشقياء من قبايل الشركس واباذا ولما استولت الروسية على قلعة ازاق كما ذكرنا جعلت قلعة طمراق في مقام سد حائيل دونها ومع ذلك بنت الدولة العلية قلعة آجو مقابلة لروسيا في جزيرة منتا عند مصب نهر قوبان في بحر ازاق من الجهة المقابلة لطمان

ويروي ان بطرس لما استولى على قلعة ازاق وبنى قلعة طيغان وشاهد بناء قلعة آجو ندم على عدم استيلائه على محل قلعة آجو ليشيد فيه قلعة بدلا عن انهماكه في بناء قلعة طيغان لان الخروج من هناك الى البحر الاسود كان ممكناً بدون عبور نهر قوبان ومرسى قزل طاش ومنه الى مضيق يكى قلعة

وكان منتهى مراد بطرس تسيير السفن في البحر الاسود فلو استولى على محل آجو لكان نال مراده بايسر وجه وسهل عليه الاستيلاء على طمان بحلوله مرسى قزل طاش

ثم ان الروسيين استولوا على اطراف قزلر واخذوا يتعرضون لقبار طايلر المعدودة من ملحقات خانية القرم وادعوا انهم هم السبب في النزاع بين الدولتين وفي هذه المرة ايضاً حملوا السلطنة السنية على ان تقبل ببقاء (قبار طايلر) على الحيادة لا تتعين لاحد منهما بل تكون بصورة مستقلة لا يتداخل احد فى اعمالها . ومع هذه الحال كان اركان الدولة العلية ياملون استرداد قلعة ازاق من الروسيين حالة كون قلعتى آجو وطمراق اللتين يمكن جعلهما سداً في وجه الروسية لم تكن استحكاماتهما تامة في القوة فكان يتعين في اول الامر ان يكون استحكاماتها تامة ، وقد اطلعت على رسالة جغرافية بين فيها مؤلفها كيفية اكمال الاستحكامات وصورة استرداد قلعة ازاق وهى مكتوبة من ذلك الحين . وذكر فيها انه اذا تقرر وجوب تعمير وتوسيع قلعة طمراق يقتضى ان تؤخذ الاحجار من الخربة المجاورة لها وان تنقل من القلعة الجديدة بالسفن . ولكن لم يجرِ شيء من هذه التصورات واما الروسيون فانهم حلوا رباط اهالى قبارطيلر واخرجوهم من حماية الدولة العلية وبعد ذلك بقليل جعلوا اهالي قبار طايلر الصغير تابعين لهم ثم ابتدؤا بالهجوم على قبارطايلر الكبير ومن جهة اخرى ابتدأوا في زيادة قوتهم البحرية في بحر ازاق ومالوا الى اعداد اسطول في البحر الاسود

وفي سنة ١١٧٥ جلست كاترينا على كرسى امبراطورية الروسية وشرعت في تنفيذ واجراء ما بقى من وصية بطرس متخيلة انها تملك جميع الدنيا وفي اول الامر تعرضت الى لهستان فادركت الدولة العلية انها تأتيها النوبة بعد ذلك فاعلنت عليها الحرب سنة ١١٨٢ بناء على تشويق فرنسا لها فتكبدت خسائر عظيمة في الحروب التى امتدت ست سنين واصبحت الدولة تحت ثقل عظيم مثل العهدة الموقع عليها في قرية قينارجه

والحاصل ان دول اوربا لم تهتم بالحرب المذكورة واتفقت اوستريا مع الدولة العلية على روسيا وعوضاً عن كونها تصرف قواها على روسيا

حولتهـا على لهستان واكتفت بما قسم لها منها اما فرنسا فانها صرفت الوقت في المذاكرة

وعهدة قينارجه تحتوي على ثمانية وعشرين مادة ظاهرة وعلى مادتين خفيتين وصورتها مذيلة تحت رقم (٩)

والخسـاير المـادية والمعنوية التى لحقت بالدولة العلية في هذه المحـاربة والمعاهدة خارجة عن حد الاحصاء وقد استفادت قاترينـا فايدة لم تكن في مأمولها

منها ان ازاق وطيغان بقيتا في يد الروسيين كما بقيت في ايديهم ايضـاً القلعة الجديدة وقلاع كرش وقلبرون واراضى كثيرة بين نهرتين ونهر اوزى . وكفت الدولة العلية يدها عن القبارطيين . ومنها ان اجراء اصول الحرية في القرم اعطت الروسية حق حماية التاتار وبذلك استولت على القرم استيلا معنوياً . ومنها انهـا تهيات لها بحسب الشروط وسائل عديدة تتوصل بهـا لاضرار الدولة العلية في جزائر البحر الابيض والافلاق والبغدان . ومنهـا ان القلعة التى دخلت في يدهـا من المقاسمة الاولى التى جرت في لهستان بينهما وبين اوستريا وبروسيا اثناء تلك المحاربة قد سهلت لهـا سوق العساكر الى سواحل نهر الطونه وفتحت لها طريقاً سهلا لايصال الاضرار بحدود الدولة العلية وقرب لها ان تمحو دولة له من اصلها

والحاصل ان قاترينا اجرت كثيراً من وصايا بطرس واكتسبت شأناً ونفوذاً في اوربا

وحيث ان توزيع بلاد (له) كانت في ذلك الوقت مجهولة الاهمية والجسامة في اوربا كذلك توزيع لهستان لم تجعل له الدول اهمية . ثم اتحدت قاترينا مع ملك بروسيا واستجلبت فلاسفة فرنسا المشهورين نظير ولتر وبواسطتهم كانت تجري حركاتها وتزعم انها مقبولة والحال ان زعمها كان في غير محله وبمثل ذلك كانت تظهر لاوروپا ان معاملتهـا للدولة العلية كانت بوجه الحق والانصاف وانها مع كونها مظهراً للغلبة اقتنعت بالقليل وردت لها كثيراً من الممالك التى استولت عليها فكانت دول اوربا تنظر لذلك بنظر المرؤة .
وقد ظهر بعد ذلك لرجال الدول ان روسيا صارت قذى في اعينهم وعلموا انهم

اخطأوا خطاء كبيراً في عدم سعيهم مع الدولة العلية في قمع شوكتها

ومن جملة ما كان مندرجا في معاهدة قينارجه ان تنظيم الامور الدينية لاقوام التاتار هو من حقوق سلطان الاسلام بمقتضى الشريعة الاسلامية ففسرت هذه العبارة بان الخطبة والسكة تكون باسم آل عثمان وهذا وان كانت دولة روسيا وافقت عليه فان خانات القريم لم يقوموا برعايته ومن بعد ذلك صارت السكة التى تضرب في القرم لاينظر فيها اسم حضرة السلطان عبد الحميد الاول والسكة التى سكها سليمكراي خان ودولتكراي خان كان محرراً على احد وجهيها اسمهم وعلى الوجه الثاني ضرب في بغچه سراي وكان بعض سكة شاهينكراي الفضية على هذا الطرز واما سكته الذهبية واكثر سكته الفضية فقد نقش عليها اسمه بشكل الطغراي

استطراد

كتب واصف افندي في تاريخه عبارة استطرادية فى حق المسكوكات العتيقة غير ان احوال السكة قد صارت الان فناً مخصوصاً وارباته يتحرون في بحثهم على المسكوكات العتيقة ويقتنون منها مسكوكات الامم السالفة نوعا فنوعا وبهذه الصورة توصلوا الى كشف وحل مشكلات كثيرة مهمة تاريخية. ويوجد الى الان في دار السعادة رجال وجهاء صرفوا جل مساعيهم في ذلك. وماذكره واصف افندي في هذا المبحث لم يكن موافقاً للفن المذكور . ومبحث المسكوكات وان كان خارجا عما نحن بصدده فقد راينا من المناسب ان نتعرض لذكر اشياء تفيد المطالعين في تاريخنا علماً اجمالياً بذلك فنقول بناء على التحقيقات التى وقفنا عليها في هذا الباب. وبالنظر لما حققه اصحاب هذا الفن تبين ان اليونانيين هم الذين احدثوا السكة قبل الفين وسمائة سنة وكسور وكانوا قبل ذلك يتبادلون الاموال بالسبايك المصنوعة من الذهب والفضة وما شابهها. وكل امة من الامم القديمة تخذ لها آلهاً من الكواكب ويسندون لكل منهم مزاجا مخصوصاً ويصنعون اصناماً وتماثيل باسماء تلك الآلهة وكانوا يثبتون آلهة كثيرة مثل اله الحرب واله الصلح وقد صارت اساطير الاولين وخرافاتهم الان فناً مخصوصاً بين ارباب الاثار القديمة . وكان رجال الامم السالفة

ينقشون صور اصنامهم على مسكوكاتهم

اما اليونانيون فكانوا ينقشون على مسكوكاتهم تارة رسم اصنامهم وطوراً رسم الابنية مثل البروج والقلاع وبيوت الاصنام والجبال والنبات والاشجار وطوراً كان الحكام المستقلون يرسمون صورهم على مسكوكاتهم والحكومات الجمهورية كانت ترسم دار حكومتها او اسم البلدة التى ضربت فيها ومسكوكات الروم كانت على مثل هذا الطرز . واما اليهود من حيث ان التصوير ممنوع في دينهم فكانوا ينقشون دائماً على مسكوكاتهم الازهار والاشجار وما شابهها واما الكيانيون فكان بعضهم ينقشون على الوجه الواحد صورة سلطانهم على عربة ذات عجلتين وعلى الوجه الثاني رسم قارب بمجاذيف . وبعضهم كانوا يرسمون على الوجه صورة بوم وعلى الوجه الثاني رسم سمك ذو اجنحة وذنب شبه ذنب السمك وصورة سلطان على حصان وبيده قوس ونشاب والبعض كان على شكل الطولاني فالوجه الواحد يكون محفوراً والوجه الثاني منقوشاً وعليه صورة السلطان وبيده قوس ونشاب . ولهم ايضاً سكك مماثلة لهذه . ولما كانت دولة الاشكانيين في بلاد ايران مؤسسة من بقايا حكومة اليونان كانت سكتهم بالحروف اليونانية على طرز سكة اليونان واما سكة الساسانيين فكان منقوشاً على الوجه الواحد منها صور سلاطينهم والقابهم واسمائهم وعلى الوجه الثاني رسم النار وكانوا ايضاً ينقشون على الوجهين رسم انسان

وازدشير بن بابك مؤسس بيوت الساسانية الذي يدعى انه من سلالة الكيانيين لما استفحل امره ابطل عبادة الاصنام التى كان الاشكانيون متدينين بها وسالكين عليها اتباعا لليونانيين ومحى اثرها واسس عبادة النيران التى كانت دين الفرس فى القديم فلذلك وضع رسم النار على مسكوكاته مع عبارة فارسية بخط بهلوي واتبعه من جاء بعده من ملوكهم على ذلك

قال واصف افندي في تاريخه ان احوال السكة لم تكن مضبوطة قبل الطوفان فوجد في الدفاين التى عثر عليها بعده اقراص من فضة وذهب مدورة ومكعبة وقطع في شكل الريالات وقطع طويلة على شكل نوى البلح وينقلون انها منقوشة بما يسمونه قلم الطبيعة باشارات وصور نبات وتماثيل

حيوانات واشكال مختلفة واما بعد الطوفان فمن الشداديين والكيانيين من عمل على سكته صورة سبع ومنهم من عمل صورة عقاب ومنهم من عمل صورة بوم فالذين كانوا يدعون الشجاعة والاستقلال والغلبة على الكل كانوا يصورون صورة اسد والذين يحبون المسالمة والهدو كانوا يصورون بوماً وما اشبه ذلك من الحيوانات التي ليس لها مضرة . والذين يدعون العلو اختاروا صورة العقاب وكان البعض من هؤلاء واكثر ملوك النصارى والمجوس يجعلون على مسكوكاتهم صورة سلاطينهم او دار السلطنة او رسم بلد معظمة والبعض ينقش سريراً وتاجا و البعض سيفاً . وحسّنوا مسكوكاتهم شيئاً فشيئا بالتصاوير التي كانوا يختارونها . وفي دولة الاشكانيين كانوا يصورون على المسكوكات صور ملوكهم ويكتبون اسمائهم وتواريخهم بلغتهم . ودولة الساسانيين التي انقرضت بانقراض يزدجرد وانوشروان وغيرهم من تلك السلسلة . كانوا يكتبون على مسكوكاتهم باللغة الفارسية ابياتا موزونة . والبعض يكتبون اسمائهم بالنقوش المتنوعة والاشجار والازهار

ويعلم من تفصيلاتنا السابقة ان اقوال واصف بهذا الخصوص غير ثابتة ولا مقرونة بما يصححها لوجوه الاول ان الشداديين والامم المعاصرة لهم الذين لا يرجعون الى دين يعرفون به لم تكن لهم سكة . فثبت على هذا الوجه ان ضرب السكة انما حدث عمله قبل الفين وستماية سنة وكسور . الثاني ان التصوير ورسم الاشجار والنباتات والابنية وسائر الاشياء انما وجد بكثرة في سكة الروم واليونان وذلك مبنى على الملاحظات الدينية والحال والموقع وكان اليهود ينقشون على سكتهم صور الاشجار والازهار وما شابهها . والمسلّم بين اصحاب الفن ان ذلك ناشىء عن مجرد امر الديانة الثالث كان يوجد في بعض مسكوكات اليونان والروم رسم بعض الابنية والجبال او اسم مدينة غير انه لم ينظر في مسكوكاتهم رسم مدينة بتمامها . الرابع ان سكة الاشكانيين كانت بالحروف اليونانية وسكة الساسانيين كانت على الوجه الذي بيناه اعلاه والسكة التي كان مكتوبا عليها ابيات موزونة صارت عادة في الدولة الصفوية وفي دول الاسلام في الهند وذلك بعد ظهور الاسلام بكثير

وفي زمن الرسالة المحمدية لم يقع اعتناء بامر السكة نظرا لكون الملة

كانت في ابتداء امرها ساذجة مع بداوة العرب . فاستمرت النقود المتداولة بين الناس على الحال التى كانت عليه وفي الاكثر كانت تستعمل المقادير الميزانية وبالجملة فان السكة التى كانت جارية في بلاد العرب هى الدراهم والدنانير التى كانت مسكوكة بسكة ملوك الفرس والمجوس والهند والروم . وفي زمن الخلفاء الاربع رضوان الله عليهم اجمعين واوايل الدولة الاموية كانت الهمم والانظار متعلقة بامر الغزو والجهاد ولذلك لم يقع اهتمام بضرب السكة . ثم ان بعض الولاة والعمال في جهة الشرق ضربوا سكة فضية على الطرز الكسروي اعنى على طرز السكة الساسانية التى كانت بالحروف البهلوية فكانوا يكتبون على حرف دائرتها اسمائهم بالحروف العربية وفي وسطها البسملة والهيللة « لا اله الا الله » وقد نظرت الفقير كثيرا منها . واقدم سكة رايتها ضربت في سنة (٢٨) هجرية في قصبة هرتك من بلاد طبرستان ورايت مكتوبا في دائرها بالخط الكوفي . بسم الله ربي . وفي خلافة حضرة علي كرم الله وجهه كان مكتوبا على دائرة السكة التى ضربت في سنة (٣٧) بالخط الكوفي ولي الله . وقد راينا مكتوبا على دائرة السكة التى ضربت سنة (٣٨ و ٣٩) بسم الله ربي على المنوال السابق . وكان مكتوبا على دوائر السكة المضروبة في سنة ٦٠ في دار بكرد وفي سنة ٦١ في يزد بخط كوفي بسم الله فقط وعلى حرف دائرتها بخط بهلوي عبد الله ابن زبير امير المؤمنين . وروى انه كان مكتوبا على السكة المضروبة باسم الحجاج في نسف سنة ٧٨ بخط كوفي على طرف دائرتها الحجاج بن يوسف وفي وسطها بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله . وقد نظرت الفقير سكة في سنةماية واثنين وعشرين واربعة وعشرين وسبعة وعشرين وتسعة وعشرين ضربها احد الرؤساء اسمه عمر من سلالة بعض المحافظين على حدود طبرستان مكتوب عليها عمر بالخط الكوفي . وفى المسكوكات المذكورة سكة رايناها فى اقرب تاريخ وهى السكة التى ضربها احد امراء طبرستان يقال له سليمان فى سنة ١٣٧ ومكتوب على طرف دائرتها سليمان . وممن اعتنى كثيرا بفن المسكوكات وجمعها فى دار السعادة وجعل لها بيتاً ملاه من المسكوكات الشرقية احد احبابنا صبحى بك افندى فقد رأيت بينهما المسكوكات القديمة

واحدة بعد واحدة وقرأت العبارات السالفة الذكر مكتوبة بالخط الكوفي . وكان تاريخها واسم البلدة التى ضربت فيها مكتوبا بالخط البهلوى وحيث كان هذا الخط مجهولا لنا فاستندنا في ذلك على افادات وتحقيقات بعض الاعيان الذين يسلّم لهم في المعرفة بقرآءة هذا الخط وكذلك رأينا كتابة على حرف السكة المضروبة باسم عبد الله بن الزبير سطرين بحروف بهلوية فهمنا من كتابتها على حسب الرواية ان معناها عبد الله بن الزبير امير المؤمنين

والمسكوكات المذكورة لم تكن سكة الملة الاسلامية الرسمية . وانما سكها بعض الامراء على الوجه السابق لمجرد تسهيل المعاملات . وقد تبين من تحقيق اصحاب الفن وافادتهم ان النقود التى ضربت بالحروف العربية وكانت تتداول فى ابتداء ملة الاسلام في صورة رسمية هى المسكوكات الاموية احدثها الحجاج . وذلك لما نصبه عبد الملك من الخلفاء الامويه واليا على العراق وامره بضرب السكة فشرع في ضربها في العراق سنة خمس وسبعين هجرية وقيل ان ذلك كان في سنة ست وسبعين ومن بعد ذلك انتشر ضرب المسكوكات الاموية في سائر البلاد الاسلامية ولم يبق الان اثر لهذه النقود الاموية التى ضربت في التاريخين المذكورين . واقدم سكة اموية رايتها الفقير التى ضربت في سنة ٧٨ وهى ذهب بخط كوفي مكتوب في احد وجهيه (لا اله الا الله وحده لا شريك له) وفي دائرته (محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وعلى الوجه الثاني (الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد) وفي دايرته (بسم الله ضرب هذا الدينار في عام ثمانية وسبعين) وروي عن بعض اصحاب هذا العلم انه رأى في متحف فلورانسا ذهباً واحداً من مسكوكات الاسلام ضرب في سنه (٧٧) ومن قبل هذا التاريخ لم تنظر سكة اسلامية ذهبية . ومن اقدم المسكوكات التى رأيتها نقود فضية مضروبة في البصرة سنة ٧٩ مكتوب في احد وجهيها بخط كوفي (لا اله الا الله وحده لا شريك له) وفي دائرتها (بسم الله ضرب هذا الدرهم بالبصرة في سنة تسع وسبعين) وعلى الوجه الاخر (الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد) وفي دائرتها (محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

وجميع مسكوكات الدولة الاموية الذهبية والفضية كانت مسكوكة على الضربين المذكورين الى تاريخ انقراضهم سنة (١٣٢) وقد رايت النقود التى ضربت في السنة المذكورة جميعها على الطرز المذكور. غير انه في تاريخ جلوس مروان الحمارسنة ١٢٧ خرج عن طاعته بعض امراء الشرق فاعلانا بميلهم الى آل البيت النبوي اختاروا طرز اخر للمسكوكات الفضية التى ضربوها. وقد نظرت الفقير بعض هذه المسكوكات ومن جملتها السكة التى ضربوها في قصبة جى مكتوب على الوجه الواحد (لا اله الا الله وحده لا شريك له) وعلى اطرافها (قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة في القرب) وفي خارج دائرة اطرافها (بسم الله) ضرب بجى سنة سبع وعشرين ومایة) وفي الوجه الاخر (الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد) وقد نظرت الفقير ايضاً سكة ضربت على عين هذا النمط في البلدة التى تسمى نميره في سنة ١٢٨

وذكر واصف افندي انه نقل عن التواريخ الموضوعة في اخبار سلاطين الغرب ان حضرة عمر رضى الله عنه ضرب سكة في عام ثمانية عشر هجرية على النقش الكسروي وكتب على بعضها (لا اله الا الله محمد رسول الله) وعلى بعضها لا اله الا الله واسم عمر وان عبدالله بن الزبير ضرب ايضاً دنانير مستديرة في مكة المكرمة وكتب على احد وجهيها (محمد رسول الله) وعلى الوجه الاخر (امر الله بالوفاء والعدل) ونقش على دائرتها لفظ (اعبد الله) الا انه ثبت نقلا ان حضرة عمر لم يضرب باسمه سكة ما والرواية المذكورة يحتمل ان تكون غلطاً حصل من السكة التى ضربها احد امراء طبرستان المسمى عمر على المنوال السابق فالظاهر ان تاريخها المكتوب بالخط البهلوي لم يتمكنوا من قراءته واسندت الى حضرة عمر رضى الله عنه عندما قرءى اسم عمر محرر على دائرتها بالحروف العربية . وكذلك السكة التى نسبوها الى حضرة عبدالله بن الزبير رضى الله عنه الى الان لم يطلع عليها اهل العلم ولا رواها احد عنهم . ومن المسلم عند اهل العلم ان الذي احدث ابتداء ضرب السكة العربية هو الحجاج وكان ذلك على المنوال السابق في سنة خمس وسبعين او ست وسبعين . ولكن ظهر خلاف هذا عند وقوع الكشف الجديد في هذا الفن سنة ست وسبعين

بعد الالف ومائتين وذلك ان رجلا ايرانياً اسمه جواد اتى الى دار السعادة بسكة فضية عربيةضربت في البصرة سنة اربعين هجرية والفقير رايتها بين المسكوكات القديمة الاسلامية عند صبحي بك افندي. مكتوب على احد وجهيها بالخط الكوفي (الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد) وفي دورتها (محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وعلى الوجه الاخر (لا اله الله وحده لا شريك له) وفي دورتها (ضرب هذا الدرهم بالبصرة في سنة اربعين) ونقل بعض المؤرخين انه ضرب على السكة صورة حضرة معاوية او صورة حضرة خالدبن الوليد رضى الله عنهما مقلدين سيفيهما وتابعهم واصف افندي في ذلك فادرج في تاريخه ان حضرة معاوية ابن ابي سفيان كتب صورته على السكة مقلداً سيفه ولكن هذه الرواية المذكورة لم يصل نقلها الى درجة الثبوت والصحة

وروى ايضاً واصف افندي في تاريخه ان الحجاج ضرب السكة في العراق سنة خمس وسبعين هجرية وكتب على احد اوجهيها النقود بخط كوفى (هو الله احد الله الصمد) وعلى الوجه الثاني (عبد الملك)

ولكن الفقير رايت على وجه الترتيب جميع المسكوكات الاموية المختلفة التى ضربت عندهم فى بيوت الضرب من ذهب وفضة فى كل سنة على الترتيب السابق من سنة ثمان وسبعين الى تاريخ انقراض دولتهم سنة ماية واثنين وثلاثين هجرية. فلم يكن على احدها اسم الخليفة. ومن القضايا المسلمه فناً انه لم يكتب اسم خليفة على المسكوكات التى ضربت في الاسلام الى ايام خلافة المهدى العباسى. نعم قد رؤي اسم عبد الملك مكتوبا على النقود النحاسية التى سكها الروم في اقليم الشام باسمه

ورايت الفقير ايضاً كثيراً من المسكوكات العباسية. ففى الابتدا ضربت السكة على الشكل العباسى في سنة (١٣٢) مكتوب على احد وجهيها (لا اله الا الله وحده لا شريك له) وفى اطرافها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالكوفة فى سنة اثنتين وثلاثين وماية) وعلى الوجه الاخر (محمد رسول الله) وفي اطراف خارج دورة دائرتها (محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره

على الدين كله ولو كره المشركون) هكذا ضربت النقود فى اوايل خلافة العباسيين على هذا الطرز وبعده في زمن جعفر المنصور كتب ابنه المهدى والي الخطة المحمديه على احد اوجه النقود الفضية التى سكها (لا اله الا الله وحده لا شريك له)وعلى اطرافها(بسم الله ضرب هذا الدرهم بالمحمدية سنة اثنين وخمسين وماية) وعلى الوجه الاخر(مما امر به المهدي محمد ابن امير المؤمنين) وفي الاطراف محمد رسول الله ارسله بالهدى الى اخره) وفى السكة الفضية التى ضربها في سنة ١٠٥ رؤي اسم وزيره الحسن بعد اسمه ولكن في ذلك الوقت لم يكن يكتب اسم ولا عنوان في السكة التى تضرب فى مقام الخلافة ببغداد ولا في المواضع التابعة لها راساً واول من نقش اسمه من الخلفاء الاسلاميين على السكك الفضيه هو هذا المهدي الذي جلس على سرير الخلافة في سنة(١٥٨) وكتب على احد اوجه السكك التى ضربها فى بغداد دار السلام في سنة(١٥٩) (لا اله الا الله وحده لا شريك له) وفي اطرافها (بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة السلام في سنة تسع وخمسين وماية) وعلى الوجه الاخر (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفة المهدي) وفي اطرافها (محمد رسول الله ارسله بالهدى اه) . وولده هرون الرشيد عند ما كان والياً في هرون كتب على احد اوجه السكة التى ضربها في سنة (١٦٩) (الخليفة المهدي مما امر به هرون بن امير المؤمنين) ولما جلس هرون الرشيد على تخت الخلافة فى سنة(١٧٠) كتب على السكة الفضية التى ضربها (الخليفة الرشيد) واما السكة الذهبية فانه كتب على احد وجهيها (لا اله الا الله وحده لاشريك له) وفي اطرافها (محمد رسول الله ارسله بالهدى اه) وعلى الوجه الاخر (محمد رسول الله) وفي دورتها (بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبعين وماية) ولم يكتب اسمه ولكن فوض نظارة عيار السكة التى سكها على الوجه الذى ذكرناه اعلاه الى وزيره جعفر وهو بحسب نظارته نقش اسمه على السكة وقد رؤي اسم جعفر على النقود الذهبية التى ضربت في سنة (١٧١) واول من نقش اسمه على المسكوكات الذهبية من الخلفاء الامين بن هرون الرشيد وكتب على السكك الذهبية التى سكها في سنة (١٩٥) (الخليفة الامين)وبعده ظهر المتغلبون وصاروا ينقشون على السكة اسماءهم

مع اسم الخليفة ثم لما تولى الخلافة احمد الناصر لدين الله واعاد قوة الخلافة صار يكتب على السكة اسم الخليفة فقط لاجل اظهار شعار شوكة الخلافة وقوتها

ذكر واصف في تاريخه ان محمد الامين بن هرون الرشيد كتب في اعلى السكة (ربي الله) وفي اسفلها (محمد امين بن هرون الرشيد) ولما اخذ ولاية العهد لابنه موسى لقبه الناطق بالحق المظفر بالله وضرب دنانير باسمه وكتب عليها (كل عز ومفخر لموسى المظفر) ولكن لم تر هذه السكة. واصل حكاية موسى مروية على هذا الوجه وهو ان المأمون نازع اخاه الامين وخالفه فرغماً عنه اراد تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين فجعل علي الرضى بن موسى الكاظم من الاولاد العلوية ولياً للعهد وبعد ان غلب اخاه الامين واستقل بالخلافة قيل انه سمم ابن موسى الكاظم وبالنظر لهذه الحال فمن المحتمل ان يكون المأمون ضرب سكة باسم موسى وعلي الوجه السابق لم تنظر هذه السكة

والامويون الذين تسلطنوا في بلاد الاندلس كتبوا على احد اوجه سكتهم (بسم الله ضرب هذا الدينار بالاندلس والتاريخ) وعلى الوجه الاخر اسم الخليفة وعنوانه والفاطميون كتبوا على احد اوجه سكتهم (لا اله الا الله وحده لا شريك له § محمد رسول الله علي ولي الله) وعلى الوجه الثاني اسم الخليفة وعنوانه . وجاء في تاريخ بن حماد انه لما ظهرت دولة الموحدين في الغرب ضربت نقود فضية وذهبية بامر المهدي مربعة الشكل مكتوب على احد وجهيها البسملة والحمدلة وعلى الوجه الاخر اسماء الخلفاء من سلالة الموحدين الى اسم الخليفة الذي هو في ذلك العصر ولعهد مجيء تيمورلنك كان يوجد كثير من هذه النقود . وفي سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين لما دخل ابو الحسن جوهر الكاتب الصقلي الى مصر بعسكر المعز لدين الله وابتنى القاهرة المعزية ضرب سكة باسم المعز وكتب على احد وجهيها ثلاثة اسطر في الاول معز لتوحيد الاحد الصمد وفي الثاني المعز لدين الله امير المؤمنين وفي الثالث ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وعلى الوجه الاخر (لا اله الا الله محمد رسول الله ارسله بالهدى اه)

والملك الظاهر بيبرس يعنى بارس بك نقش على الدراهم ايضاً صورة بارس

وفي اوائل ظهور الدولة العثمانية كانت اكثر الدراهم الجارية هى مسكوكات الافرنج والمغاربة والعراقيين والهند والسلجوقيين ولكن ضربت سكة فضيـة في زمان السلطان اورخان الغازي

ذكر واصف افندي في تاريخه ان السلطان اورخان الغازى فتح بروسه في تاريخ سبعمائة وست وعشرين وفي السنة الثامنة عند ما حصل على القوة التامة وضع القوانين وعين الكسوة والالبسة المتنوعة ولم يتعرض للسكة التى بايدي الناس . ورأيت مجموعة محررة بخط ادريس البتليسى ذكر فيها انه كان مكتوبا على احد اوجه سكة السلطان اورخان (المجاهـد في سبيل الله السلطان اورخان) وعلى الوجه الثاني ضرب ببروسا وبعده التاريخ الهجرى

وهذا الذي ذكره واصف افندي ثابت في التواريخ بعينه وكذلك علاء الدين باشا عند ما نظم العساكر في زمن السلطان اورخان ضرب السكة ايضاً . ومسكوكات السلطان اورخان الفضية والنحاسية موجود منها الى الان حتى انى الفقير رايت منها في مجمع المسكوكات العثمانية عند الامير المومأ اليـه اربعة عشر عددا منها ثلاثة عشر فضة وواحد من النحاس . مكتوب على احد وجهيها (لا اله الا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الاخر (اورخان خلد الله ملكه) كذلك مكتوب على مسكوكات السلطان مراد الاول كلمـة الشهادة وعلى الوجه الاخر (مراد بن اورخان خلد الله ملكه)

وسكة يلديرم بايزيد خان مكتوب علي احـد وجهيها خلد ملكه والتاريخ وعلى الوجه الثانى بايزيد بن مراد ومسكوكات چلبي السلطان محمد خان والسلطان مراد الثاني كانت على هذا النمط ايضاً . وفي الدولة العثمانيـة من اولها الى زمان السلطان محمد خان الثاني فاتح استانبول لم تضرب سكة من الذهب وانما فى زمانه ضربت منـه وكتب على الوجه الواحد ضارب النضر صاحب العز والنصر في البر والبحر وعلى الوجه الثاني سلطان محمد خان ابن السلطان مراد خان ضرب في قسطنطينية والتاريخ . واستمر من جاء بعده من السلاطين مدة مديدة يضربون السكة على هذا السياق وقد رأوا ايضاً مكتوب عنوان سليم شاه على المسكوكات التى ضربت بعد فتح تبريز .

ذكر واصف افندي في تاريخه عن بعض اقرباء السلطان سليم الثاني انه قال ان جدى حضرة السلطان سليم خان لكونه ملك ديار مصر والبلاد العربيــة وعراق العرب والعجم والبحر الابيض والاسود ومالك الممالك الممتازة الاناضول والروم ايلي من المنـاسب ان يكتب على سكته سلطان البرين وخاقان البحرين وانه بعد ان فتح قبرس اصدر فرمانا بضرب السكة بهذا العنوان . ولكننى الفقير نظرت مسكوكات الدولة العلية من ابتدائها الى حد عصرنا على الترتيب واحدة بعد واحدة سواء التى ضربت في دار السعادة او التى ضربت في بيوت الضرب المتعددة في الخارج . فالى زمان السلطان محمد الثالث كانت جميع المسكوكات على نمط سكة السلطان محمد خان الفاتح . وسكة الذهب التى ضربت فى زمانه ايضاً في مضارب دار السعادة واكثر الايالات كانت تضرب على ترتيبها . لكن السكة الذهبية التى ضربت في مضارب حلب ومصر وبعض مدن الغرب كتب عنوانها سلطان البرين وخاقان البحرين . وبقى الامر على ذلك الى زمان السلطان محمد الثالث فكان يكتب في احد وجهى السكة الفضية قسطنطينية او اسم البلدة التى ضربت بها وعلى الوجه الاخر اسم السلطان وعنوانه وفي وقته رسم السلطان داخل الطغراى على السـكـة الفضية وفي القديم كانت ترسم الطغراى في الختم الهمايوني فقط لا على السـكـة ثم فى زمانه كما قلنـا صار نقش الطغراى على احد اوجه السكـة الفضية غير انها لم تكن مطبوعة ومنتظمة على صورة الطغراى التى في عصرنا

وسكة السلطان احمد الاول الفضية كان بعضها بالطغراى وبعضهـا بدون طغراي. وسـكـة الذهب كان يكتب على بعضها سلطان البرين وخاقان البحرين وبعضها كان على الطرز القديم يكتب عليها ضارب النضر صاحب العز والنصر. والسكك الفضية التى وجدت في عصر السلطان مصطفى الاول والسكك الفضية والذهبية التى كانت في عصر السلطان عثمان الثاني جميعها مكتوب عليها عنوان سلطان البرين ولم يرَ على احد منها رسم الطغراي. وكان يكتب كذلك على سكة السلطان مراد الرابع الذهبية وعلى بعض سكته الفضية عنوان سلطان البرين وطبع على بعض سكته الفضية رسم الطغراي. وكانت سـكـة السلطان

ابراهيم الذهبية والفضية ايضاً على هذا المنوال. وكذلك كان مكتوبا على سكة السلطان محمد الرابع الذهبية عنوان سلطان البرين ولكن رؤي في بعض السكة الذهبية المضروبة في عصره في مضارب الغرب عنوان ضارب النضر على الطرز القديم اما سكته الفضية فكان بعضها بالطغراي وبعضها بدونها.

وفي عصر السلطان سليمان الثاني صار ضرب قروش بوزن ستة دراهم وكتب عليها عنوان سلطان البرين وكانت قروش السلطان احمد الثاني ومسكوكاته الذهبية ايضاً على هذا المنوال.

وفي عصر السلطان مصطفى الثاني صار التنظيم والتحسين في رسم الطغراي وطبع رسم الطغراي على شكل مطبوع ومنظم على بعض سكته الذهبية. واما سائر سكته الذهبية والفضية فكتب عليها عنوان سلطان البرين

وفي عصر السلطان احمد الثالث ازدادت صورة الطغراي حسنا وانتظاماً وضربت نقود متنوعة كبيرة وصغيرة مطبوعة على غاية الانتظام وكتب على احد اوجه السكة الفضية وعلى بعض النقود الذهبية عنوان سلطان البرين وطبعت الطغراي ايضاً على الوجه الاخر وعلى البعض من السكة الذهبية كتب على الوجه الواحد الطغراي وعلى الوجه الاخر قسطنطينية او البلدة التى ضربت بها وكتب على بعضها اسلامبول بدلا من قسطنطينية ونقشت الطغراي على احد اوجه المسكوكات الذهبية المسماة فندقى وزر محبوب التى ضربت في دار السعادة وعلى الوجه الاخر ضرب في اسلامبول. والمسكوكات التى ضربت في مضارب اكثر الايالات كتب عليها ضرب في روان وضرب في تفليس وهكذا. والذهب الفندقى الذي صار سكه في مصر محرر عليه على هذا المنوال ايضاً ضرب في مصر واما الزر محبوب المصري فكتب على الوجه الواحد الطغراي وتحتها ضرب في مصر وعلى الوجه الثاني عنوان سلطان البرين وخاقان البحرين. والذهب الفندقى الكبير الذي ضرب على وزن فندقين وثلاثة واربعة وخمسة وسبعة وعشرة فنادق نقش على وجه الواحد الطغراى وتحتها عز نصره ضرب في قسطنطينية وعلى الوجه الاخر كذلك عنوان سلطان البرين . وبعد ذلك لحد عصر السلطان سليم الثالث جميع المسكوكات المقطوعة المتنوعة كانت جميعها على طرز مسكوكات السلطان احمد

الثالث والتي ضربت في دار السعادة مكتوب على بعضها قسطنطينية وعلى بعضها اسلامبول . ولكن كان فيها تفاوت في الوزن والعيار. وفي عصر السلطان عبد الحميد خان ضرب نوع من السكة الذهبية على صورة مطبوعة مستحسنة مكتوب على الوجه الواحد الطغراي فقط وعلى الوجه الاخر ضرب في دار السعادة العلية وتاريخ الجلوس والذهب الفندقى وزنه درهم وخمس قمحات والذهب المجيدي الذي هو بماية غرش وزنه درهمان وست عشرة قمحة ولكن الذهب الفندقى من عيار ثلاثة وعشرين والذهب المجيدي من وزن اثنين وعشرين وكل اثنين ذهباً من الذهب الفندقى يعادلان الذهب المجيدى الذي هو بمائة غرش وزنا بوزن وحيث ان ذهب زر محبوب في جرمه وسعته يعادل الذهب الفندقى في سمكه ويساويه في الوزن فهما في قيمة واحدة وبعد ذلك ضرب زر محبوب بقيمة اقل من الاول . وكان زر محبوب في تاريخ الف وماية وست واربعين رايجاً بثلاثة غروش وثلاثين بارة ثم في سنة ماية وثمانية وسبعين في ٢٠ المحرم صار بمائة بارة وعشر بارات وذلك نظراً الى الخمسين الف زر محبوب التى قدمها اسماعيل رائف بك افندي امين الضربخانه الى حضرة السلطان مصطفى وقدم في ذلك بوصلاية بخط يده وقد نظرت الفقير هذه البوصلاية محررة هكذا ﴿ زر محبوب جديد عدد . . . . ٥ غروش . . ١٣٧٥ كيس ٢٧٥ ﴾ وعلى الوجه الذي ذكرناه اعلاه لما صار النظام في تاريخ سنة مايتين واثنين على ان يكون ذهب الفندق وذهب المجار رايجاً بخمسة غروش صدرت الارادة ان يكون زر محبوب رايجاً بثلاثة غروش ونصف

﴿ الفصل التاسع ﴾

﴿ فيما يتعلق باحوال جهات القرم وقافقاس ﴾

حيث اننا عزمنا على ان ندرج في اوائل تاريخنا اكثر وقائع القرم راينا من المناسب ان نبين اجمالا الروابط الاصلية التى كانت تربط القرم بالسلطنة

السنية فادرجنا في هذا الفصل خلاصة المواد اللازمة في هذا الباب نقلا عن تاريخ صغير اسمه كلبن خانان لحليمكراي وعن سائر التواريخ

اعلم انه من القديم كان السلاطين الجنكيزيين اعنى الخانات الذين هم من نسل جنكيز خان من التاتار يجلسون بالارث على سرير خانات القرم وما اليها ويحكمون فيها بالاستقلال ثم انهم دخلوا في حماية الدولة العلية في زمان حضرة السلطان محمد خان الفاتح وازدادت روابطهم ومتابعتهم للدولة العلية شيئاً فشيئاً حتى صارت خطة القرم من جملة ممالك الدولة العلية

ولما كان الاطلاع والوقوف على تفصيل حقيقة هذا الامر موقوفاً على معرفة ترجمة حال بعض خانات القرم. فقد بادرنا الى ذكر حال جماعة من اسلافهم المشاهير على الوجه الاتي فنقول

ان زيادة لفظة كراي على اسماء خانات القرم لم تكن معروفة عند قدمائهم وانما صارت عادةً وعرفا بعد الحاج كراي خان الذي صار خان القرم في تاريخ ثمانمائة واحدى واربعين وحكم مدة ثلاثين سنة. وقد كان من داب خانات وسلاطين واعيان التاتار من القديم انهم يسلمون اطفالهم الى بعض رجال قبايلهم من حين الرضاع الى ان يبلغوا سن الشبوبية. فغياث الدين سلطان والد الحاج كراي خان المذكور المتصل نسبه بجنكيز خان بسبع بطون قد رضع وتربى ونشأ ونما في قبيلة كراي وبالمصادفة انه رزق ولداً في اليوم الذى وصل فيه دولت كلدى من معتبري تلك القبيلة الى اهله راجعاً من الحجاز. وكان صوفياً فرأى غياث الدين سلطان ان يسمى ابنه حاجيكراى تبركا به وتذكاراً بقبيلته التى تربى فيها وبعد مدة صار حاجيكراى خانا في القرم وفي حياة دولت كلدى الصوفي المذكور جرت المذاكرة معه في حقوق ابوة الرضاع فقال دولت كلدى ان مما يوجب له الافتخار ويكون فيما ياتي من الزمن وسيلة للتذكار زيادة لفظة كراى التى هى اسم قبيلته علاوة على القاب السلاطين الجنكيزية وانه يرغب في حصول ذلك من الان فصاعداً فحاز مرغوبه القبول واستمرت بعد ذلك هذه الزيادة وصارت دستوراً للعمل بينهم

استطراد

كانت قرابة الرضاع في غاية الرعايــة بين القبائل. فكان كل ولد ينسب الى القبيلة التى رضع فيها وتغار عليه كانه منها. وكان من العادات القديمة ايضاً عند سلاطين وخانات القرم انهم يعطون اولادهم الى احد قبائل الشركس لاجل تربيتهم. وهذه القضية محررة في تاريخ صغير اسمه عبرتنماى دولت قال مؤلفه. ان قبائل الجراكسة عندما يبلغهم ان خان القرم رزق ولداً يجتمعون في وقت معين في بطحاء يعينونهـا بينهم وبحضور وجهائهم ينتخبون ظئراً اى مرضعة لذلك المولود ويتوجه نحو ماية من الخيالة من قبايل السباه والاوز ومن سائرهم والظئر معهم ويدورون في القرم ثم ينزلون على الخان ضيوفاً ثلاثة ايام. ولكنهم لا يتناولون شيئاً من مطبخه وانما ياكلون مما يستصحبونه معهم من الدقيق والعسل والبرغل ومشروب مصنوع من الذرة يسمونه (بوزه) ويضيفون الخان ودائرته وبعد ذلك ينتخبون سفيراً من رجالهم يرسلونه الى الخان فيبلغه انهم حضروا ليأخذوا ولده لاجل تربيته وانه لايمكن رجوعهم بدونه. وبناء على التعامل القديم يجيبهم الخان فياخذ الولد من امه ويسلمه الى تلك الظئر (المرضعة) التى صار انتخابها ويعود الجراكسة الى اماكنهم شاكـرين. ولا يتساهلون في تربيته بل يرجحونها على تربية اولادهم. وعندمـا يبلغ الولد سبع سنين يعلمونه الركوب والنزول وفن الحرب والضرب والكر والفر. وأبواه من الرضاع لا يقولون له شيئاً مكدراً فينشأ وينمى على فطرته الاصلية. واذا بلغ عمره خمسة عشر سنة يكون قد حل زمن تسليمه الى والده. ففي اي وقت يطالبه يلبسونه البسـة جديدة واسلحة تامة ويركبونه فرساً جيداً مزيناً وياخذه ابوه من الرضاع وكما انه حصل الاحتفال اولا عند اخذه من والده كذلك يحتفلون لرده اليه فيجتمع ميئات من الفرسان وجميعهم على المنوال السابق فياخذون معهم ما يكفيهم لادارتهم وادارة دائرة الخان من الماكول والمشروب في مدة الضيافة ثلاثة ايام ويطوفون في القرم وعند وصولهم الى بغچه سراي ينصبون طواجنهم ويقيمون في دائرة الخـان ثلاثة ايام وعلى هذه الصورة يسلمون للخان ولده. والخان لاجل ان يجعلهم جميعاً مسرورين من طرفه يجمع هدايا بقدر

ما يكفيهم من الحور والسختيان والبواريد والاقواس والقصب والجوخ ويضعها في ميدان المقاسمة وبعد تقسيمها بينهم يرجعون الى مواطنهم وكانوا على الغالب يسمون اولاد الجنكيزية باسماء الحيوانات المفترسة ترهيباً للاعداء عند سماعها كما جرت بذلك عادة القبايل

وخانات القرم وسلاطينهم يميلون بالطبع الى التبدى لكونهم يتربون في القبايل على الوجه الذى ذكرناه ويكونون في غنى عن غايلة التكاليف الزايدة ويقنعون بثوب واحد ولا يجددون الكسوة والقميص ما لم يصر خلقاً واذا نزع احدهم ثوبه اخذ ما يلبسه من بعض الرجال الموجودين بمعيتهم ولا احد يلبس الالبسة التى ينزعها هو

والتاتار هم في حالة البدوية والبساطـة الخالصة فلذلك يكونون خفيفى المؤنة في اكلهم وشربهم والبستهم وركوبهم ونزولهم وهم مطيعون جداً الى سلاطينهم وفي اي وقت اراد الخان السفر تصدر ارادته الى مشايخهم وامراء قبائلهم بان يقول لهم في يوم كذا لا بد ان تكونوا حاضرين فى محل كذا وفي الوقت المعين يكون العدد الذي طلبه من الفرسـان موجوداً حاضراً في المحل الذي عينه ويسارعون في الغارة والهجوم على المحل الذي امرهم به. وقبل سفرهم بايام يركبون خيولهم لاجل الادمان على ركوبها ولا ينزلون عنها الى وقت سفرهم وكل نفر يسافر يكون معه من الخيل ثلاثة او اربعة احتياطاً. ويكتفون في اثناء الطريق باكلة يسمونها طالغان وهى مصنوعة من شحم الخيل بدقيق الذرة كما ان خيولهم تكتفى بالعشب واصولهـا التى تخرجها بحوافرها من تحت الثلوج والجليد فكانوا لذلك غير محتاجين الى المهمات وسائر التكلفات مثل سائر العساكر بل يذهبون مسرعين قاصدين المحل المعين لهم ويشنون الغارة عليه. ويحملون الصبيان على الدعاء لهم بان يكون الشتاء شديداً وتجلد المياه ليهون عليهم شن الغارات. ومجموع هيأتهم بمثابة فئة طياحة او طياره ويشنون الغارة ليلا ونهاراً ويذهبون الى الاماكن البعيدة بمدة قليلة وياتون بالاسرى والغنـائم التى لا تحصى . وليس عندهم شفقة ولا مرحـمة بالاسرى بل يستخدمونهم ويعاملونهم بزيادة الجفاء والاذى. وبناء على ذلك كان الروسيون يخافون ويرتعشون من التاتار وكانت دولة الروسية بعد استيلائها على

قازان ايضاً مجبورة على اعطاء خانات القريم خراجاً سنويا تخلصاً من غاراتهم واضرارهم

وكان هولاء الخانات يهتمون كثيراً بالاحكام الشرعية فينصبون احد فحول العلماء في منصب قاضى عسكر بمعاش وتعيينات كافية فينظر في امور العباد بدون اخذ رسم القسمة وسائر الرسوم وكانوا يعطون مراسلات النيابة للفقهاء والذين يحكمون بين القبايل بلا جائزة ثم بعد ذلك تركوا الرسم القديم . وصار الاصناف يلتزمون مراسلات النيابات ويبيعونها لطالبيها بالربى وعندما اختل عندهم النظام الشرعى مالوا الى الحضارة والسفاهة وطرأ الكسل على حركاتهم فلم يبق لهم قدرة على رد الاعداء . ولاجل بيان تفصيل احوال حكومة القرم المختلفة عصراً بعد عصر ظهر لنا ان نذكر على الوجه الآتي بعض طبقات خاناتهم المتفاوتة

(التجاء منكلى كراى خان للدولة العلية)

لما انصب الجنكيزون كالسيل على الاطراف كانت فرقة منهم جسيمة اثناء مباشرتهم الهجوم على سائر البلاد خاضت بحر الخزر واستولت على قازان واژدرهان واكرهت الروسية على الخراج واتخذت قازان مقراً لحكومتها . ثم ان شعبة من هاؤلاى فتحوا القرم وحكموا فيها على المنوال السابق ثم طرأ الضعف شيئاً فشيئاً على حكومة قازان. فصاروا اكانهم تابعين ومربوطين بحكومة القرم ثم بعد ذلك وقع الخانات فى غاية ما يكون من الضعف والفتور وصاروا مجبورين على الالتجاء الى الدولة العلية والاحتماء بها . وذلك انه لما توفي حاجيكراي خان السالف الذكر في سنة ثمانماية واحدى وسبعين صار ابنه منكل كراي خانا في محله وبعد ان حكم مدة ثلاثة اشهر تعصب عليه اولاد عمه وبعد وقوع عدة حروب فيما بينهم انكسر منكلى كراى خان وتخلص بالفرار الى قلعة منكوب التى كانت في ذلك الوقت بايدي الجنويزيين . ومؤخراً تجمعت احزابه وادخلوه مرة اخرى في داخل القريم واعادوا الحرب والجدال ففى هذه المرة غلب منكلى كراي خان وعاد حاكماً للقرم بالاستقلال التام ونظراً لما يعلمه ان اولاد عمه لا يتركونه وشأنه استشار اركان دولته في

ذلك فقرروا انه لا بد من الالتجاء الى حماية ملاذ السلاطين العظام حضرة السلطان محمد خان الفاتح وبذلك يكونون مامونين الغائلة فعرض وانهى امره الى حضرة السلطان محمد خان الفاتح وقال انه اذا صار الاهتمام سريعاً من طرف السلطان بفتح قلاع كفه وطمان ومنكوت الواقعين فى سواحل البحر الاسود فهو مستعد ان يبذل نفسه بالسعى والاقدام بهذا الخصوص ويلتزم بعد ذلك خدمة الدولة العلية فارسل له السلطان التوغ والعلم وسائر التشريفات الملوكانية واخيراً عندما صار فتح القلاع المذكورة والاستيلاء عليها ارسل له ايضاً رسالة همايونية يظهر له فيها سروره من خدماته المقبولة وحركاته المرضية التى اجراها بخصوص فتح القلاع المذكورة

وعندما فتح اخيراً حضرة السلطان بايزيد قلعتى (اقكرمان وكلي) كان منكلى كراى خان في خدمة الركاب الهمايونية وابرز شجاعة تامة في تلك الحروب فانعم عليه من طرف الذات الهمايونية مكافاة لخدمته فرواً سموراً بوجه من قماش قطيفة ابيض وقلباقاً مذهباً (او طربوشاً جركسياً مذهباً) واهداه كثيراً من انواع التحف واعطاه قرى بلطه وطومبصار وقوشان وسائر القرايا وما اشتملت عليه من الاراضى التى فتحتها عساكر التاتار في سواحل نهر طورله على وجه التمليك

احداث رتبة قالقاى

عند ما عزم منكلى خان المذكور على غزو بلاد الاعداء قيل له بطريق الاستفسار من هو الذي تعينه قائمقاماً بعدك في القرم فاراد ان يقول اوغلم محمد كراى قالسون اى يبقى ولدى محمد كراى فافاد مرامه بلسان التاتار فقال اوغلم محمد كراى قالقاى (اى ابدل قالسون بكلمة قالقاى) . ولحين رجوعه من الغزاة سالماً غانماً كان ولده ذاق حلاوة الحكم فلم يظهر له ان يحرم ابنه من لذة الاحكام بالكلية فلقبه بلقب قالقاي سلطان وافرز له ايراداً معيناً من الملاّحة والجمارك وجعل مقره قصبة اقمسجد من اعمال القرم والحق له قره صو وتوابعها واعطاه البرآة العالية الشان من طرف السلطان على ان يكون ولي عهده . ومن بعد ذلك صارت القالقاي منصباً وصارت العادة ان

بمنصب قالقاى واحد الى كل من يصير خانا في القريم . وبناء عليه لما توفي منكلى كراى خان وصار ولده محمد كراى خان المذكور خانا للقرم ادخل السرور على اخيه بهادر كراى سلطان بتعيينه في منصب قالقاى

(ترجمة احوال سعادة كراى خان)

ولما توفى محمد كراى خان بعد ان حكم القرم مدة عشر سنين نصب اخوه سعادة كراى خان خانا للقريم وهـذا ايضاً بعد ان حكم خانا مدة تسع سنين تنزل عن الخانية واقام في دار السعادة

وتفصيل احواله هو انه حينما كان نجل حضرة السلطان سليم الياوز والياً على طرابزون شرف الى قلعة كفه لبعض اسباب فتفضل بنزوله في سراية منكلى كراى خان وبعد ذلك عند سفره الى جهات الروم ايلي اخذ بمعيته سعادة كراى خان ابن منكلى كراى خان المذكور وبهذه الوسيلة اقام في معيته مدة مديدة في السفر والحضر . ثم لما جلس على تخت المهابة العثماني جعله مسروراً مرفهاً باعطاء معاشات وتعيينات كافية

وفي المحرم سنة تسعماية وثلاثين وصل الى دار السعادة خبر وفاة محمد كراى خان وفي رجب من السنة المذكورة وجهت خانية القريم الى سعادة كراى خان فسار الى القريم بالاسطول الهمايوني واستقر في مسند الخانية ونصب غازى سلطان كراى بن محمد كراى خان الذى كان مدعياً بخانية القريم في منصب قالقاى

ولكن بعد مدة قام ابناء اخيه عليه ودامت الحرب متصلة بينهم مدة خمس سنين واخيراً تفرغ عن الخانية وفي شوال سنة تسعماية وثمانية وثلاثين وصل الى دار السعادة وبعد ان اقام مدة ست سنين في جوار ابي ايوب خالد الانصارى رضى الله عنه ارتحل الى دار الاخرة ودفن في جوار حضرة ابي ايوب رضى الله عنه

(خانية صاحبكراى)

في اوائل خانية محمد كراى خان اخو محمد خان ابتلى صاحبكراى ابن منكلى كراى خان بالحبس مدة مديدة لاسباب دعت الى ذلك وفي ذلك التاريخ

مات خان قازان ايجم خان بلا ولد وبناء على عرض واستدعا اهالي الولاية
ان ينصب عليهم سلطانا عوضه من السلاطين الجنكيزية صار نصب صاحبكراى
خان في ذلك الوقت خانا على قازان. وبعد ان اضاع وقته بذلك المنصب بلا
ايراد مدة خمس سنين عين قائمقاماً لحكومة قازان صغاكراى سلطان ابن
اخيه محمود كراى بحجة التوجه لحج بيت الله الحرام وانسحب باللطافة
الى جهة الروم وعندما جاء الى دار السعادة عين له حضرة السلطان سليمان
خان القانوني التعيينات الكافية فزال احتياجه وبأثناء اكتسابه رفاهية
الحال ارسل اسلامكراى سلطان الذى جلس في مقام الحكومة رأساً مدة
خمسة اشهر بعد تنازل سعادة كراى خان عريضة للدولة العلية وطلب العفو
عن جرائمه السابقة ملاحظاً عواقب الامور فصدر الامر السلطاني بتحرير
المنشور باسم صاحب كراى خان المشار اليه في شهر ربيع الاول سنة ٩٣٩
وانعم عليه السلطان بتاج (قلباق) من السمور وريشتين مجوهرتين
ومحفظة مجوهرة للسهام وسرج مرصع وفرو سمور وسيف مرصع رفع
بذلك قدره وجعله غريق نعمته وزاد على ذلك ان اعطاه ستين جندياً من
الطوبجية وثلثماية من الجبه جه والف من السكبان واربعين من المتفرقة وثلاثين
جاويشاً وستين من اصحاب التيمارات والزعامة وجعل نفقاتهم منه اى من
كيس الخليفة ثم ارسله الى القريم

والمبالغ التى تعطى من طرف الدولة العلية الى خانات القريم باسم دراهم
السكبان الى حين استيلاء الروس عليها انما هى لاجل انفاقها على الجنود
المذكورة آنفاً وكان ذلك من اثار المرحوم السلطان سليمان وحسناته

وعلى هذا الوجه كان دخول صاحبكراى الى القريم ولما جلس على منصة
الخانية نصب اسلام كراى سلطان في منصب قالقاى وبعد ذلك أعدمه ونصب
احمد كراى سلطان ابن سعادة كراى خان ولما لم يكن اميناً من جهته فلم يمر
زمن كثير حتى قتله ايضاً ونصب ابنه امين كراى سلطان في منصبه

ومن آثار صاحبكراى خان انه ادخل الى القرم التاتار الساكنين في
الخيام على سواحل الانهر الستة وهى نهر جم وچاليق وانل اى دلقه وقوبان
وتن واوزى ووزع عليهم الاراضى وملّكهم اياها لاجل اسكانهم

ولما سافر حضرة السلطان سليمان خان بالعسكر الهمايوني الى مملكة البغدان نال صاحبكراى خان الشرف بوجوده بخدمة الركاب الهمايوني مع عساكر التاتار وبعد ذلك في حرب النمسا كان ابنه امين كراى سلطان القالغاى في هذه الخدمة الموجبة للافتخار

خانية دولتكراى واخذه الروسين تحت الخراج

ان دولتكراي خان هو ابن مبارك كراى سلطان ابن منكلى كراى خان وابوه مبارك كراى توفي في معركة فتح مصر في عصر السلطان سليم خان فنشأ ونما في حجر اعمامه المكرمين محمد كراى خان وسعادة كراى خان . وكان حايزاً على رتبة القالقاى في وقت خانية سعادة كراي خان وعندوقعة اسلام كراى حضر مع عمه سعادة كراى الى دار السعادة واكتسب الانتساب الى سليمان الزمان وتشرف بخدمته في الحرب والسلم وصار مظهراً لالتفات ملك الدنيا وبهذه المناسبة كان صاحب كراى خان الموجود خاناً في القريم يترقب وسيلة يبعده بها من جوار دار السلطنة على ان اقبال صاحب كراى خان كان بلغ درجات الكمال وقرب من الزوال كما يشير الى ذلك هذا البيت (اذا تم امر بدا نقصه ترقب زوالا متى قيل تم) وكان تناقص عنه توجه السلطان بسبب امور نسبوها اليه . وفي اثناء ذلك توفي خان قازان صفا كراي خان فعرض وانهى صاحب كراي خان الى دار السعادة بنصب دولت كراي خاناً على قازان لينال قصده بهذه الحجة من ابعاد دولت كراى خان عن جوار السلطنة على الوجه المحرر فكان ذلك سبباً لغضب السلطان عليه فعزله ونصب محله دولت كراى خان وبوصوله الى القرم قتل صاحب كراي واولاده وحصل على الاستقلال في الخانية

وكان هذا دولت كراي خان فارس الخيل في ميدان الوغا ومشعل نار الحرب ولم يترك الغزو والجهاد حتى انه بعد ان حاصر مدينة موسقو التى كانت عاصمة روسيا في ذلك العصر مدة اربعين يوما فتحها واستولى عليها قهراً بقوة بطشه واخذ اموالا لا تحصى كانت موجودة فى خزينتها ثم انه عقد الصلح مع روسيا على شرط ان يقدموا بكل سنة جزية الى خان

القرم الذي يعبر عنها بلسان التاتار (طيش) كما هو مذكور في تواريخ القريم وعدا عن شجاعته كانت له ملكة في الشعر ومن اثار شعره هذا البيت

(ياقه‌سن صدچاك ايدن هر بركلك   كاشن ايچره ناله سيدر بلبلك)

معنى هذا البيت في البيت الاخير من الابيات الاتية التى جعلناها توطئة له

في خلوة الاسرار غنى شادن	وبكفه قدح الرحيق السلسل
لما تمكن صوته في مسمعي	وبراحه امسيت رخو المفصل
مزقت استار الحياء فقال لي	اني ارى عنك الوقار بمعزل
فاجبته يابدر لا تعتب على	من كان آخر أمره كالاول
قسما بطلعتك التى هى بهجة	للناظرين وفرعك المسترسل
(ما شق زر الورد جيب قميصه	في الروض الا من غناء البلبل)

وبعد ان حكم مدة عشرين سنة مات مطعونا في تاريخ سنة تسعمابة وخمسة وثمانين ونصب في محله ولده سمين محمد كراي خان

(احداث لقب نور الدين)

عندما نصب سمين محمد كراي خان خانا للقريم مكان ابيه دولت كراي خان نصب ابنه عادل كراى في منصب قالقاي . ثم لما وقع عادل كراى اسيراً في يد الاعداء في الحرب التى جرت في جهة الشرق وقتلوه اخيراً وقع في فكره ان ينصب مكانه ولده سعادة كراي الا ان اخاه بكراي سلطان كان اكبر منه سناً فطلب المنصب فهذا الطلب منعه عن نصب سعادة كراي فوجه منصب قالقاي المذكور على بكراي سلطان ولقب سعادة كراي تسلية له بلقب نور الدين سلطان نسبة للميرزا نور الدين الذي تربى في حجره وحدث عند ذلك هذا المنصب الجديد وقسم له مقدار ما يكفيه من اصل المرتب الذي خص به كل من كان خاناً اي اميراً وصدر الامر السلطاني باعتباره ولي العهد الثانى واخذ بيده البرأة العالية الشان الواردة بذلك وقد عُز بها . ثم كل من نال هذا المنصب من بعده لقب بنور الدين سلطان وامتاز به على اقرانه

(فى تقديم اسم السلطان وتأخير اسماء خانات القرم فى الخطب)

عندما كان دولة كراي خان خاناً على القرم ارسل ولده اسلام كراي خان للاستانة العلية بصفة رهن جرياً على العادة وكان يعتبر ذلك منصباً فحصل له مقام عظيم عند الدولة في زمن السلطان سليم وفي عهد السلطان سليمان ثم لما تولي الخلافة السلطان مراد الثالث لم يلتفت اليه كاسلافه وسقط من اعتباره القديم فاختار الاقامة في مدينة قونية

ان سمين محمد كراي خان السالف الذكر بعد ان مكث في الامارة مدة سبع سنين عزلته الدولة لاسباب موجبة لذلك واستحضرت اخاه اسلام كراي خان من قونية ووجهت امارة القرم عليه وتوجه اليها وذلك سنة ٩٩٢ فابقى بكراي في منصبه وهو قالقاي وادخل السرور على ولده مبارك كراي باللقب الجديد وهو نور الدين سلطان

وما مضى زمان يسير حتى ظهر سعادتكراى بن محمد كراي واتحد مع اسنى بك وغيره من امراء النوغاى وجمع من التاتار عسكراً ودخل القرم وهجم على بغجه سراى فاضطر اسلام كراى الى الالتجاء بقلعة كفه وشرع في تجهيز العسكر مع اشعار الاستانة العلية بواقعة الحال فامرت الدولة بان يكون امير امراء كفه في معيته هو وعسكره فالا تقابلا مع جماعة سعادتكراي في محل يقال له اندال وظهرت اثار الغلب والانتصار في جهة اسلام كراى وفر سعادتكراى فقال بعض الشعراء في ذلك هذا المصراع (قيلدى اسلامى بعون الله قوى سلطان روم) وكان هذا المصراع تاريخاً للوقعة ومعناه ان سلطان الروم القوي ايد الاسلام بعون الله

ولما استقل اسلام كراي خان بالمسند على هذه الصورة بلغ مسامع الخلافة ان اقوام النوغاي الساكنين حوالى بوجاق اعتدوا على رعايا البغدان بسلب اموالهم ومواشيهم فصدر امر همايوني باسترداد الاموال والمواشى المغصوبة فتوجه اسلام كراي خان الى البوجاق لاجل اجراء مأموريته وبعد اتمام هذه الخدمة امر بتقديم اسم سلطان الزمان في ولاية القريم وتوابعها على منابر المساجد وفي المحافل وتاخير اسامى خانات القرم فكان

ذكر اسماء سلاطين الاسلام في الخطب في القريم من اثار اسلامكراى خان الخيرية وكانت مدته في الخانية ثلاث سنين توفى رحمه الله في جمادى الاولى سنة تسعماية وست وتسعين . وكان رجلا عاقلا ذا فكر ثاقب ومعارف غزيرة وكان يصرف اكثر اوقاته في دار السعادة وكان ذاتاً متسما بسمات السعادة ونال التفات ثلاثة سلاطين من ذوي الشان

حدوث خدمة اغاوية الخان

بناء على حدوث هذه الخدمة المذكورة فى زمان بوره غازى كراى خان ظهر لنا ان نذكر ترجمة احوال الخان المشار اليه على الوجه الاتي. فنقول ان بوره غازي كراى خان هو ابن دولتكراى خان الذي تقدم ذكره وكان وقع اسيراً في يد العجم في حرب الشرق وهو في معية اخيه الكبير سمين محمد كراى خان وبقى اسيراً سبع سنين متوالية في قلعة قهقهه . وكان كبار العجم شاهدوا جلادته وشجاعته فعلقوا اطلاقه من الاسر على شروط وقيود كلفوه للارتباط بها فانشدهم رباعية من شعره اظهر فيها انه يفضل بقاءه اسيراً في الحبس على قبول تلك الشروط وما قاله مسطر في تذكرة الشعراء لصادقى افندى كاتب شاه عباس. وهذه صورة الرباعية المذكورة

نابود غم وشادىء حرمان بوده　　زنيكونه كذشته تاكه دوران بوده

ما تجربه كرديم كه در ملك شما　　راحت همه در قلعه وزندان بوده

وملخص معنى ذلك في الابيات الاتية

يقولون ان اليأس للمرء راحة　　اذا كان ما يرجوه فيه متاعب

ونحن قد ارتحنا بمحبس ملككم　　ولو ان فيه الضنك للنفس صاحب

والحاصل انه بعد اقامته سبع سنين في الحبس يقاسى العناء الشديد تمكن من الفرار متنكراً فوصل الى ارضروم وبعد ان اقام مدة في دائرة واليها جاء الى دار السعادة ووافق وصوله وفاة اخيه اسلام كراى خان فوجهت لعهدته خانية القريم وذلك في سنة تسعماية وست وتسعين . وعند وصوله الى القريم عين اخاه فتح كراى في منصب قالقاى واعطى بختكراى سلطان بن اخيه عادلكراى لقب نور الدين واعطى احمد اغا احد

امكداريته لقب باش اغا بمعنى الوكيل او الكتخدا وبعدزمان تلقب كل شخص تعين في الخدمة المذكورة بعنوان خان اغاسى . وهذه الخطة بمثابة وظيفة المحتسب يناظر امر الاسعار وبعض ضوابط الامور البلدية

ولما توجه حضرة السلطان محمد خان الى فتح اكراى كان فتحكراى سلطان الموما اليه في عسكر التاتار في خدمة ركابه الهمايوني

وكان بوره غازى كراى خان في غاية الشجاعة والاقدام وكان ماهراً في جميع الفنون ومقتدراً على الشعر والانشاء في ثلاثة السن وكان خديويا محترماً وصاحب سيف وقلم وله المكاتبات المنظومة الى سعـد الدين افندى شيخ السلطان وله ايضاً انشاءات بليغة وتحريرات منثورة الى غنى زاده نادرى افندى من الصدور ومن شعره هذا الغزل الذي لم يسبقه اليه احـد كتب بقلم الاعجاز

غزل

رايته ميل ايدرز قامت دلجو يرينه	توغه دل باغلا ميشزكاكل خشبو يرينه
هوس تيروكمان چيقمدى دلدن اصلا	ناوك غمزه ء دلدوز ايله ابرو يرينه
سوررز تيغمزك ذوق وصفاسن هردم	سيمتنلر له اولان لذت پهلو يرينه
كردن توسن زيباده قطاس دلبند	باغلدى كوكلمزى زلف ايله كيسو يرينه
سوررز اسب هنرمند صبا رفتارى	بر پرى شكل صنم بر كوزى آهو يرينه
كوكلمز شاهد زيباى جهاده ويردك	دلبر ماه رخ ويار پرى رو يرينه
سفرك جورى چوق اميدوفا ايله ولى	اولدق اشفته سى برشوخ جفاجو يرينه
. اوليشمز جان ايله بالله غزا يى تشنه	قانى دشمن دينك ايچرز صو يرينه

وملخص معنى ذلك في الابيات الاتية

نرى العلم الخفاق في حومة الوغى	لنا عوضاً عن قامة الغادة الحسنا
وارواحنـا معقودة ببنوده	وان الفروع السود نحسبها عهنا
وحب سهام القوس يعرو قلوبنا	وليست سهام اللحظ تلقى بها وهنا
وجاذبة الجسم اللجينى عندنا	تنافي عناق السيف بالفعل والمعنى
وقبض عنان المهر لاشك رابط	لغاياتنا لا سالف جاوز الاذنا
به نسبق الريح الرخـاء وصوته	لاسماعنا مثل الهزار اذا غنى

ونعطى لمحبوب الجهاد نفوسنا ولم نستلف منه على فقدها رهنا
وعن صحبة الظبي الشرود يصدنا هوى سفر منه ثمار المنى تجنى
وشرب دم الاعداء يغنى عطاشنا عن الماء والراح التى تنعش المضنى
فهذا به ذو العقل يرضى وغيره جهالته ترضيه بالمقصد الادنى

وتوفي بالطاعون في شعبان سنة ست عشرة والف بعد ان ابقى له اسما مخلداً ببناء القاعة المسماة غازي كرمان الذي بناها باموال الغنايم التى غنمها ودفن في بغچه سراي

مجمل احوال خانات القريم المتاخرين

ان خانات القريم الذين سبق ذكرهم كانوا من قدماء الخانات الجنكيزية . وكانوا على جانب عظيم من مكارم الاخلاق وكل منهم صاحب مسند الامارة وكلهم كانوا اعيانا متسمين بالمحاسن وبعد ان مر دورهم مال اكثر الذين صاروا بعدهم خانات القرم الى مشارب السفاهة والكسل وصار من ينصب في خانية القرم من السلاطين الجنكزية غير اهل لهذا المنصب وبعضهم ينالون بالرجاء والشفاعة فلذلك تناقص اسم الخانات الجنكيزية القديمة. وضاعت شهرتهم واستولت طباع التاتار على طباع خلفهم فكسلوا وتراخوا وابتدأت صولتهم القديمة في التناقص والتنازل

وزيادة على ذلك انه دخل بين بطونهم وعشائرهم الشقاق والنفاق وعجزوا عن مقاومة الاعداء الاجانب وعن ادارة مملكتهم والمحافظة عليها. فاغتنم الروس الفرصة في هذه الاحوال ولم يكتفوا بعدم تأدية الجزية التى كانوا متعهدين بدفعها الى خانات القريم بل ادخلوا تحت استيلائهم وحمايتهم ولايتى قازان واژدرهان الواقعتين في جهة نهر اتل ثم شرعوا في التضييق على القريم ايضاً. وهذه الدولة الروسية كانت قديماً تراجع خانات القرم في معاملاتها الضرورية ولما نصب مراد كراي خان على القريم سنة الف وثمانية وثمانين وكان يعاقر الخمر في بعض الاوقات وقع منه ما فيه احتقار لسفير الروسية بدون شعور وبعد ذلك صارت سفراء الروسية لا تاتي الى القرم بل بادرت لرؤية مصالحها بواسطة ولاة البندر وبالتدريج اكتسبت الاقتدار

بواسطة ارسال سفيرها الى دار السعادة . وفي خلال سنة الف وماية وثمانية واربعين هجمت عساكر الروسية على القرم ودخلوا من باب اور الى بغچه سراى التى هى دار امارة القرم واحرقوها مع سائر القصبات والقرى ورجعوا الى وطنهم

وفي خلال تلك الاعصار ظهر رزمى بهادركراى خان واسلامكراى خان الثاني وحاجى سليم كراى خان ودولتكراى خان الثاني وتلافوا ما فات على قدر الامكان ولكن بعد وفاتهم عادت الاحوال الى ماكانت عليه من الاختلال . وكان هؤلاء الامراء الاربع يعطون القوة والجلادة للحكومة بمنزلة العناصر الاربعة بل بهم نال خانات الجنكيزية المتأخرون العز والشان وامتازوا بالشهرة الكاملة وبين ثمانية وعشرين خانا من خانات القريم اي بين ايام بوره خان الذي نصب خانا للقرم سنة الف ومائة وخمس وثمانين وبين ايام صاحبكراى غازى كراى خان السالف الذكر ولتتميم الفائدة بادرنا هنا الى بيان ترجمة حال كل منهم اجمالا على الوجه الآتي

ترجمة حال رزمى بهادركراى خان

في زمان سلطنة حضرة السلطان مراد الرابع وقع بين اقوام التاتار فساد آل بهم الى اختلال نظامهم وشاع بينهم كثير من الامور الردية كقتل النفوس وهتك الاعراض وبناء على ذلك ففي المحرم سنة ١٠٤٧ نصب السلطان المشار اليه رزمى بهادرخان اميراً على القريم فكان اسمه مطابقاً لمسماه وحركاته موافقة للرضى السلطاني وعند وصوله الى القريم دمر الاشقياء وقهرهم وبعد ان طهر القريم حرر الاوامر الشديدة المؤكدة وارسلها في الحال مع مأمور مخصوص الى الروسيين الذين كانوا وقتئذ اظهروا التردد في امر اداء الجزية التى كانوا يدفعونها الى خانات القريم فالروسيون نظراً لخوفهم من شدة صولة الخان المشار اليه اجبرهم الحال على ارسال الجزية المذكورة (مع بعض هدايا علاوة عليها) ولكن اجله كان قريباً فبعد ان اقام خانا مدة اربع سنين ونصف توفى في اثناء سنة الف وخمسين

وكان الخان المشار اليه شاعراً مطلعاً على الاثار وهذا الغزل الآتي هو من اثر قلمه

غزل

خطسر سبريكك اوستنده ايدر يرزلفك — چمن اوستنده بتن سنبله بكزر زلفك
ابر سبيراب صفت برده فكن خورشيده — افتاب رخنه سايه صالار تر زلفك
باش قالدردى يوزه چيقدى سياه خطك — فتنه وهميله دوشوب رعشه يه دترر زلفك
صاقينور اول كل رخسارى اسن يللردن — صانمه تحريك صبادن يوزك اورتر زلفك
نجه ممكن كيره رزمىء كدانك الله — كنج حسنك سنى اژدركبى بكلر زلفك

وملخص معنى ذلك في الابيات الاتية

عجبت لمن اضحى يعذب مهجتي — على انه لي في الانام حبيب
له منطق عذب وروح خفيفة — وجفن مريض للقلوب طبيب
وسالفه المخضر فوق عذاره — يروّح جمراً ليس فيه لهيب
تراه كغيم في سماء وظله — نقاب لوجه الشمس وهو عجيب
وان شئت بالثعبان مثله حارساً — لكنز جمال عنه ليس يغيب
وريح شذاه يختشى من هبوبها — على ورد خد منه يعبق طيب
ولما رأى جيش العذار مقابلا — له وهو في قصد الهجوم قريب
توهم ان يلقى به شر فتنة — فابدى ارتعاشاً كاد منه يشيب

ترجمة حال اسلامكراى خان الثانى

لم تمر مدة طويلة بعد وفاة بهادركراي خان السالف الذكر حتى اظهرت روسيا امتناعها من اداء الخراج فلما نصب اسلامكراى الثانى خانا على القرم في خلال سنة الف واربع وخمسين تصدى اولا الى تاديب بعض القبائل التى سلكت طريق العصيان ثم سير عادلكراي سلطان الذي كان في منصب نور الدين لتحصيل الخراج وساق معه عساكر التاتار على الروس فاغار عليهم ونهب الاموال وخرب البلاد واستمر على عمله هذا الى مدينة موسقو التى كانت وقتئذ عاصمة الروسيين ولما راوا ذلك عقدوا معه الصلح على شرط ارسال الجزية التى تعهدوا بدفعها في كل سنة وقدموا له في مقابلة الصلح اربعين الفاً

من الذهب نقداً وافرية وانواعا من التحف والتفاريق بقيمة ستين الف ذهب. وفي بعض تواريخ القرم ان الخان المشار اليه وقعت بينه وبين اللهويين حروب شديدة وفي النهاية انكسر اللهويون وانهزموا وبعد ان اعطوه خمسة مدافع ومائتي الف ذهب وثمانين الف غرش عقدوا معه الصلح على اداء الجزيـة السنوية

وكان الخان المشار اليه جليل المآثر مدبراً شجاعا مشهوراً لا يفتر عن الغزو تارة بنفسه وتارة بارسال قالقاى سلطان او نور الدين سلطان حتى اشتهر انه ملأ بلاد القريم بالغنائم والاموال التى اكتسبها

وكان في ابتداء امره جاء الى دار السعادة واختار السكنى في داخل البوغاز ثم نفي الى جزيرة رودس بناء على انهاء سلفه محمد كراى خان الرابع حسدا له. ثم جيء به مؤخراً الى دار السعادة لشفاعة بعض المقربين عند الحضرة الشاهانية وبعد مدة قليلة نصب خانا على القريم وحكم في مسند الخانية مقدار عشر سنين ووفق لاجراء اعمال مقبولة على الوجه المذكور ثم توفي في شوال سنة اربع وستين والف

ترجمة حال حاجى سليم كراى خان

ان الحاج سليم كراى خان مر في مدة حياته خمسة سلاطين عظـام وهم السلطان محمد خان الرابع والسلطان سليمان خان الثاني والسلطان احمد خان الثاني والسلطان مصطفى خان الثاني والسلطان احمد خان الثالث وكان في ابتداء امره مستشاراً في امور الدولة وكاتم اسرار السلطنة وكان اميراً عاقلا جليل القدر وتولى اربع مرات اميراً على القريم وفي كل منها يوفق لاداء خدمات مبرورة وخصوصاً في المرة الثانية عندما هجم الروس بعساكرهم على القريم فانه قاتلهم واتصل الحرب بينهم ثلاثة ايام متواليـة وفي آخر الامر نال الظفر الكامل واخذ منهم ثلاثين مدفعاً واسر منهم ما يزيد على الف اسير ثم تعقب عساكر الروسية الى حدودهم . وفي شوال سنة الف وماية كان مأموراً لحرب النمسا فزين صحائف التواريخ بانتصاراته المبرورة التى وقعت في جوار اسكوب . وحيث ان هذه الخدمات حازت القبول عند الذات

الهمايونية دعاه لكي يستريح ويصرف شتاء تلك السنة في جهة ادرنه الى وقت الربيع . وفي اثناء وجوده في ادرنه مدحه الشاعر الشهير ثابت افندي بقصائد عديدة ذكر فيها غزواته السابقة . وفي امارته الرابعة على القريم انتقل الى دار البقاء وذلك في شعبان سنة ١١١٦ ومن مماليكه كوجك عثمان باشا الذى كان قائمقاماً وقبودانا في رجال كثيرين من مواليه الذين تربوا وارتقوا في ايامه واستخدمتهم الدولة في المناصب الجليلة . وله اثار وصدقات كثيرة في القريم وفي جوار اسلانبول وسائر الجهات تزينت بها صحائف اعماله الحسنة

ترجمة حال دولتكراى خان الثانى وآخر احوال القريم

كان دولتكراي خان الثاني حاكما شهماً فائقاً على اقرانه بفرط الشجاعة والجلادة ذا وفاء للاوداء وجفاء على الاعداء وقد نال امارة القريم مرتين

وفى امارته الثانية سار في فصل الشتاء الى بلاد الروسية وشن الغارة عليها واستولي على بعض الاراضى واسر الوفا منهم وفي سنة ١١٢٣ لما حصلت الحرب الهائلة في جوار نهر البروت بين القيصر بطرس الأكبر وبين بالطه جي محمد باشا ابرز الخان المشار اليه من الخدم والمساعى الحسنة ما كان زينة لصحائف الايام . ثم اخذ الخلل يظهر في احوال القريم وطرأ الضعف والهوان على التاتار الى ان انقطعت صولتهم . وكانت الاعداء يوماً فيوماً يزدادون قوة وشوكة وفي النهاية استولى الروسيون على بلاد القريم جميعها وذلك سنة ١١٨٥

وفي هدنة قينارجه تخلت روسية عن تلك البلاد ولكن على حسب ما اقتضته الشروط المذكورة فى صك الهدنة بقيت هى وما حولها تحت تغلب الروسيين وتحكمهم . وقد ذكرنا تفاصيل الاحوال التى طرأت عليها بعد هذا في مواضعها

وقد رأينا من المناسب ان نتعرض هنا لذكر جغرافية جبل قافقاسيا على الوجه الآتي وهو من القطع المهمة في بلاد الجركس المعدودة من ملحقات امارة القرم

اقسام ممالك قافقاسيا

ان قافقاس ويقال له ايضاً جبل قاف يطلق على سلسلة مجموعة من جبال عظيمة تبتديء من قلعة اناپه الواقعة في ساحل البحر الاسود وتمتد رأساً من الغرب الشمالي الى الجنوب الشرقى وتنتهى الى قلعة باكو الواقعة في ساحل بحر الخزر ومسافة هذا الجبل المجموع من عدة جبال من ابتدائه الى انتهائه تقدر بمائتين وتسعين ساعة واذا اعتبرنا مسافته على خط مستقيم يكون قدر امتدادها مايتين واثنى عشر ساعة

والملل المختلفة المتوطنة فى جهاته بعضهم من الجركس واللزك والكرج وامثالهم وهؤلاء هم اصل سكان هذا الجبل كما هو معلوم عند قدماء مؤرخى جمهوريات اليونان وممن اتي بعدهم . وبعضهم من بقية طوائف اندي وغوت وجون وءالان وخزر چچن وقموق وآوار الذين جاءوا من بلاد التاتار الكبيرة وهجموا على الجهات الغربية والجنوبية وذلك قبل الهجرة النبوية بمايتين او ثلاثماية سنة . وقسم من طوائف الاتراك اسكنهم السلجوقيون في ايامهم هناك لاجل المحافظة على الحدود عند ما هاجموا على جهتى الغرب والشمال

والجبل المذكور ينقسم الى قسمين القسم الشرقى يقال له داغستان اي بلاد الداق والقسم الثاني الغربي يقال له جركستان اي بلاد الجراكسة ويقال لقنته الواقعة فى وسطه التى هى اكثر ارتفاعا جبل (البرز) وهى فاصلة بين بلاد داغستان والجراكسة . وفي جانب شمال الجبل المذكور طائفة قبارطى الذين هم من طوائف الجركس وهم اصل ساكنى ذلك الجبل من القديم وفي الجانب الجنوبي يوجد طوائف الكرج . وبناء عليه تنقسم بلاد قافقاسيا الى اربعة اقسام جسيمة بلاد الجركس والقبارطى وداغستان والكرج

فاما قسم بلاد الجراكسة فيحده غربا ساحل البحر الاسود وطرفها الجنوبي متصل ببلاد الكرج ويحد طرفها الشمالي نهر كوبان وطرفها الشرقى جبل (البرز) الذي هو اعلى قمة في الجبل المذكور اي الذى يمتد الى حدود بلاد داغستان الغربية . واهالى هذه المملكة على سبيل الظن والتخمين

تجاوزون ماية الف بيت يسكنون في السناجق المسماة شابسيغ وباترا وچكيت واوبيخ وبسليني وناقوغاى وسبيل ومع كونهم اقواماً مختلفة فانهم في الاصل ينقسمون الى طائفتين . الاولى طائفة الجركس واكثرهم في الجانب الشمالي من هذا القسم على طول نهر قوبان . والثانية طائفة الاباژه واكثرهم يسكنون في الجانب الجنوبى يعنى في جهة بلاد الكرج واكثر هولاء الاقوام الى عهد قريب لايعرفون ديناً ولا دولة وانما انتشر فيهم الدين الاسلامى بعد ما نصب فرح علي باشا والياً على بلاد الجركس في زمن سلطنة حضرة السلطان عبد الحميد خان . وتفصيل ذلك سنذكره في مواضعه

والقسم الثاني من جبل قافقاس هو قسم قبارطاي ويلقب ايضاً قبارطى وقبارطه وهذه البلاد بين نبع نهر قوبان الذي يصب في البحر الاسود ونبع نهر الترك الذي يصب في بحر الخزر وهى واقعة في شكل مربع منحرف بين بلاد داغستان التى هى في الجانب الشمالي من الجبل المذكور وبلاد الجركس واهلها قبارطاى وهم قبيلة كبيرة معتبرة في طوائف الجراكسة وقبائل طوغاي وقره بولاق وأوس وتغالور ويبلغ عددهم جميعاً مقدار ستين الف بيت . وجميعهم من اهل السنة ويقال انها تنقسم الى قسمين القبارطاي الكبير والقبارطاى الصغير . وهذه القطعة وان كانت الدولة العلية تخلت عنها بموجب معاهدة قينارجه فان ارتباطها المعنوي لم ينقطع لاتحاد الدين والمذهب وفي هذه المملكة طريق واحد في صورة بوغاز ضيق صعب المرور يمر قريباً من طرف جبل قافقاسيا في قرب القلعة الشامخة التى يعبر عنها قزبك فاذا اراد الروسيون المرور من طرف الشمال الى بلاد الكورج فليس لهم الا هذا الطريق . وعند مرورهم يضطرون دائماً الى استصحاب شرذمة من فرسان القوزاق خوفاً من هجوم اهالي الجچن عليهم من جهة والجركس من الطرف الثاني . وكلمة قازبك غلط مشهور اصله غازي بك والجراكسة يقولون غزبك وغزي بك .

والمملكة الثالثة في الجبل المذكور وهى داغستان . واقعة في طرف بحر الخزر وكانت موطناً لبعض عشاير داق ولذلك سميت داغستان . ويسكن في مواطن هذه المملكة اقوام يخالف بعضهم بعضاً . ولكونهم يتكلمون

بالسن مختلفة سمت العرب ذلك المحل بجبل الالسن . والمملكة المذكورة تنقسم الى ثلاثة اقسام . داغستان الوسطى .وداغستان الشمالية . وداغستان الجنوبية .

فداغستان الوسطى يسكنها ملل عديدة مختلفة على غاية الاستقلال والحرية . وهم عبارة عن سناجق كبيرة وصغيرة اسماؤها آوال وآندلال وقوبصو بوى وانقراتل وانقيرات وباقلال وجمالال وشنيدا وسونده وسلاتو واندى وكنبد وشوبوت وچچن وغالاش ويبلغ عدد اهاليهم تقريباً مماية الف بيت وجميعهم من اهل السنة . ويوجد في اطراف هذه المملكة بعض طوائف قليلة يعبدون الاصنام . وفيها ظهر منصور الذى سيأتي ذكر ترجمته

وداغستان الشمالية واقعة في اسفل جبل قافقاسيا في ساحل بحر الخزر وهى تشتمل على السناجق المسماة قوبه وطبسران ودربند وغازى قموق وقيصاق وآقوشه وتارخو وكوره واندراى وبخساى وسكانها من الترك واللزك وجميعهم من اهل السنة . يبلغون تقريباً ماية الف بيت . ومدار تعيشهم على الحراثة والزراعة في السهول الكائنه في ساحل بحر الخزر . وبها القلعة التى يقال لها دربند باب الابواب وباب الحديد وتيمورقبو . ومملكة بونياق الذي يعبر عن حاكمها شمخال . واقعة في هذه القطعة

وداغستان الجنوبية واقعة في اسفل طرف جنوب هذا الجبل وهى عدة سناجق تسمى چاروبلهكان . وايليصو . وشكى . وارس . وقبله . وشروان . وباكو . وسليان . ويبلغ جميع ساكنيها سبعين الف بيت منها في مدن سليان وباكو مقدار عشرة الاف بيت من اهل الشيعة ومنها في اطراف شروان وشكى مقدار عشرة الاف بيت من الارمن والباقى وهو خمسون الف بيت من الترك واللزك جميعهم من اهل السنة . وحيث ان مدن باكو وسليان واقعة في ساحل بحر الخزر وكانت هى الاساكل البحرية للتجارة الجارية بين العجم والداغستان فان العجم وان كانوا تمكنوا منها الا انها بحسب النفوذ المعنوي بقيت تحت حكم الداغستان لكونها فى الاصل من اهله

وفى القطعة الرابعة من الجبل المذكور مملكة بلاد الكرج وهى واقعة في جنوبه ويحدها شرقا نهر قانق الذى هو راس حد الغرب الجنوبي

من بلاد الداغستان وجنوبا الذى يقال له بورچالي وعشاير القزاق وهم من اهل الاسلام وسنجاقى كومرى واخسخه وجبل اجاره وغربا سواحل البحر الاسودوشمالا القلل الشامخة المتصلة بمملكة الجركس الكائنة في جبل قافقاس واهلها عبارة عن طوائف الكورج واوس واسوان والارمن ثم جاءها مقدار من الروسيين والنمسا واستوطنوها معهم. وكافة الملل المذكورة يبلغون ماية الف بيت منها ثمانية الاف بيت يعبدون الاصنام وهم طوائف الاوس واسوان وبلادهم متصلة من جهة ببلاد داغستان ومن جهة اخرى ببلاد الجراكسة ولكونها صعبة المسالك لا ينقادون الي حكومة ما. واربعة عشر الف بيت من اهل السنة والباقى ثمانين الف بيت تقريباً على الديانة المسيحية. وبلاد الارمن الواقعة في الجانب الجنوبي لبلاد الكرج والداغستان. تنقسم الى قطعتين. الواحدة منهما واقعة في اطراف ارضروم ووان وهى من ممالك الدولة العلية. والثانية تشتمل على سناجق وهى كنجه وقره باغ وخوى وروان وهى معدودة من البلاد الايرانية. وفي اثناء ما وقع في بلاد العجم من الاختلال صار كل من هذه السناجق مستقلا بيدخان وفي سنة ١١٩٠ صاروا مجبورين على الميل الى طرف الدولة العلية.

وبلاد الكرج تنقسم على هذا الوجه الى قسمين القسم الواحد الذي يقال له خانية تفليس هو اصل بلاد الكرج وكان مركز حكومتها في تفليس وبلاد هذا القسم كانت على الاكثر ملحقة بالبلاد الايرانية. وذلك قبل ان يكون خان تفليس وهو اركلي خان من تبعة الدولة العلية وقبل ان يدخل في حمايتها في سنة ١١٩٠ ثم استولت الروسية على قبارطاي واستمالتهم اليها وبعد ان صارت تتردد لجهة بلاد الكرج على الطريق السالف الذكر أخذت تلقى المفاسد في تلك النواحى فنى الخدعة والدسيسة انغش اركلى خان فترك حماية الدولة العلية الموجبة لنجاته وسلامته ودخل فى حماية الروسية. والقسم الثاني قسم بكوات آچيق باش ومكريل وكوريل ويمتد الى سواحل البحر الاسود وفي هذا القسم مدن كوتايس وبغدادجق واوزركت. وكانت هذه الجهات معدودة من بلاد الدولة العلية

والحاصل ان المسلمين من اهالي قافقاس كانوا تارة يتاثرون من العجم

واحيانا من الروسيين الذين يهاجمونهم من الجنوب والشمال وعلى كل حال فانهم اعترفوا بالخلافة العثمانية وصاروا اكثريا مظهراً لحماية الدولة العلية الجليلة وانحازوا الى طرفها

ذكر بعض الوقايع السالفة فى ديار القافقاس

عند ما فتح قائد الاسلام سراقة بن عمرو اذربيجان خلال فتح الديار الايرانية سنة (٢٢) في ايام خلافة عمر رضى الله عنه امر سراقة بكر ابن عبدالله وعبد الرحمن بن ربيعة بفتح البانيا وكان في ذلك الوقت يقال لطرف بلاد داغستان البانيا . وكانا في مقدمة الجيش وهو ابي سراقة على اثرهم وكانت حركتهما الى جهة البانيا . فعند قربهما من مدينة شروان جاء شهريار حاكمها في ذلك الوقت وهو من نسل ملوك الفرس اليهم واشترط لهم في طاعته لهم ان يمنعوا عنه هجوم الترك وهم طوائف الآن وخزر وهم ممتدون في الجانب الشمالي من جبل قافقاس الى تلك الجهة فاجاب كل منهما الى ذلك ثم عرضا الامر الى سراقة فاستحسنه ورأى ان ما فعلوه معقول واعلم بذلك عمر فجوزه . وعلى هذا الشرط اعطى الامان الى شهريار ولما توفي سراقة تعين في محله عبد الرحمن بن ربيعة ففتح مواطن كثيرة في بلاد داغستان ولقن اهلها دين الاسلام وصالح حكام بلاد الكرج على بذل الجزية

ولما شاع خبر هذه الفتوحات الجديدة في داغستان ففضلا عن كونه روي بعض الاحاديث في حق الدربند وانه محل مبارك وحيث كان الاستيلاء على تلك النواحى موجباً لامان البلاد الجنوبية وداعياً لراحة اهلها اقبل الصحابة الكرام افواجا كالسيل على غزو تلك الاطراف

وعلى ما هو محرر في كتاب جهانثماده ان مسلمة بن عبد الملك غزا تلك الديار في ايام خلافة بنى اميه وان اهلها دخلوا وتمذهبوا في دين الاسلام . وانه استولى على الدربند ومن هناك توجه راساً الى الشمال وفتح مواضع كثيرة . وكان محمد بن يزيد الذي هو من نسل بهرام چوبين والياً على شروان وتيمورقبو وكان مسافة حكمه تمتد قدر شهر . ثم في سنة مايه وثمانين هجرية استولت طائفة الخزر على الدربند وهزمت اهل الاسلام وكانت وقعة دربند لم يسبق مثلها في الاسلام واستشهد

في هذه المعركة من المسلمين على ما قيل نحو ماية واربعين الف شهيد

كلمة خزر مخففة عن خوزار وهى قبيلة كبيرة من قبايل الترك والبحر الذي يعرف بحر الخزر منسوب اليهم و كان يقال له بحر قاسى وبحر البلغار وبحر الديلم نسبة لاسم القبيلة التى تسكن في سواحله ثم بعد ذلك قيل له بحر الخزر نسبة الى هذه الطائفة اما التعبير عنه في هذه الاطراف لبحر خزز بزاين معجمتين فهو غلط

فهؤلاء الخزر طائفة كبيرة امتدت حروبهم مدة مائتى سنة وفي نهاية الامر كان الظفر والغلبة للعرب . وبعد مائتين للهجرة النبوية خرج من الحرمين الشريفين نحو الفى نفس من قبيلة قريش من اولاد واقارب الشيخ محمد المعروف بكندي العباسى واولاد ابى اسحاق من ذرية حضرة حمزة بن عبد المطلب وبعد ان جالوا مدة في بلاد مصر والشام وصلوا الى بلاد الجراكسة التى هى دار الحرب في ذلك الوقت وبعد حروب كثيرة قتلوا الامير عضال امير الجراكسة واستولوا على املاكه واسروا اولاده وبعد ذلك قتلوا الامير غضنفر وهو امير مملكة قيطان الواقعة في داغستان وحملوا اهله على الدخول في دين الاسلام وهولاء الغزاة استولوا ايضاً على ديار قموق وخربوا اكثر قرى وقصبات طائفة الخزر الذين هم في شمال وجنوب بلاد داغستان وغيرهم وفتحوا القرم والحاصل انهم فتحوا عنوة وعلى وجه الصلح جميع الممالك من بلاد داغستان الى القرم ودعوا سكان تلك البلاد الى دين الاسلام ولذلك كان اكثر قبايل الجراكسة اهل اسلام مثل قبائل بستى وقبارطاي

وكانت حكومة العرب جارية في ممالك قافقاس على هذا الوجه مقدار اربعماية وعشرين سنة . وكانت كلمة الخلفاء العباسيين فى ذلك العصر نافذة في تلك الجهات وولاتهم يحكمون في بلاد اذربيجان والارمن . وبعد ذلك فى سنة ٤٠٤ هجرية اقتفى ملكشاه من السلالة السلجوقية آثار ابيه وجده في توسيع نفوذ الحكومة وجلالها بالفتوحات الكثيرة . ولاجل ان يكون امينا من عصيان اهل البلاد التى استولى عليها وهى الاناضولي وممالك البانيا وبلاد داغستان التى اولها بلاد الكرج وآخرها بحر الخزر اسكن كثيراً من طوائف الاتراك في تلك الجهات

ثم ان الملوك السلجوقيين الذين حكموا على هذه الصورة مدة تزيد على مايتى سنة في جهات ايران والاناطولي والشام تشتتوا واضمحلوا بظهور المغوليين اي التاتار وقبل ظهور التاتار بماية سنة اي في الماية السادسة هجرية قام منوجهرشاه من السلجوقيين ونشر علَم الاستقلال في مملكة شروان الواقعة في جنوبي داغستان واتخذ مدينة شماخ مقراً لحكومته. واكتسب شهرة ولُقب بخاقان تقليداً لحكام التاتار الكبار . وبعده ظهرت سلاطين شروان وهم من السلجوقيين يعرفون بشاهات شروان وعند ظهورهم حكموا ايضاً بعض اماكن في بلاد الارمن وضموها الى داغستان الجنوبية وفي ذلك الوقت كانت الجهة الشرقية والجنوبية من داغستان الشمالية داخلة تحت اسم شروان. واما بلاد شمال وغربي داغستان الوسطى فكانت مسكنا لطوائف آوار وچچن . وهم وان كانوا غير طائعين الى سلاطين شروان فانهم كانوا معهم دائماً في الحروب لنسبة الوحدة الاسلامية . وفي ذلك الوقت كان حكام بلاد الكرج احيانا يكونون تابعين الى سلاطين شروان واحيانا الى سلاطين قونيه

وفي اثناء هجوم المغول والتاتار من الجنوب والشمال على الاتراك حينما اشهر التركمان راية استقلالهم في بلاد اذربيجان وارمينيه اظهر شاهات شروان وحكام بلاد الكرج تبعيتهم للتاتار سواءكان بالحرب او بطريق المصالحة والمتاركة بتقديم بعض الهدايا مثل سلاطين قونيه. حتى ان الشيخ ابراهيم بن محمد سلطان شروان في تاريخ الثمانماية كان مع تيمور في محاربات كثيرة . واستمر حكم شاهات شروان قريباً من اربعماية سنة على هذا الوجه وفي سنة تسعماية واثنين واربعين هجرية عند ما جلس شاهرخ بن سلطان فرخ بن شيخ شاه على تخت شاهانية شروان وكان طفلا دون البلوغ اشاع اق قيونلى شيخ التركمان مذهب الشيعة في اردبيل من الذربجان فلبس هو ومريدوه اثنى عشر تاجا من تاج الدراويش معمولين من تركى احمر وكانت تلك التيجان مضلعة كل تاج اثنى عشر ضلعاً اظهاراً واشعاراً بانه هو ومريدوه اثنى عشر اماماً للشيعة فاغتنم طهماسب الاول من اولاد الشيخ حيدر الصفوي المعروف بقزلباش فرصة وجود تخت شروان بيد صبي وساق العساكر على البلاد

المذكورة وبعد محاربته مع اهالي داغستان مدة طويلة غلبهم وقتل شاهرخ وكبراء شروان واستولى على الخزائن العديدة وبهذا انقرضت سلاطين شروان

وكان جماعة من نسل شاهات شروان يحكمون بالاستقلال في داغستان الاوسط والشمالي وكانوا يستمدون من خانات قيطان وآلان وآوار وقموق وحاربوا مدة ومع ذلك فانهم لم يحصلوا على طائل وبقيت داغستان الجنوبية مدة احدي واربعين سنة تحت حكم القزلباشيين

وخان داغستان الشمالية كان في ايام مهاجمات التاتار محتقراً ثم انه بعد ذلك اعاد عزه واستقلاله . ولما استولى جنكيز خان على ولايتي دشت قبچان ومسقو ثم على ممالك ايران بتمامها كان انتظام امر دشت قبچان ومسقو متوقفاً على استيلاء (تيمور قبو) وعندما بادر جنكيز خان للاستيلاء عليها قابله اهها بالقتال فساق اليهم ولده الكبير چقتاي بعساكر التاتار التى هى في كثرتها كالنجوم فغلبهم وقتلهم جميعاً واسكن طائفة من التاتار فيها عوضاً عنهم ونصب جغتاي اميراً عليهم . وعند ما ظهر تيمور بعد ماية سنة واستولى على قلعة تيمور قبو سلم ذلك الى الامير (طوقتمش) او طوقطامش الذي كان منتسباً له وعلى افكاره . وبعد زمن اظهر طوقتمش العصيان على تيمور وكان اذ ذاك في المحاربة في جهات تبريز وشروان وساق عساكر التاتار مرات على تيمورقبو فانهزموا فاعرض تيمور عن تبريز وشروان . وبعد ان حارب حكام بلاد الكرج وظفر بهم اخذ طوقتمش وخلعه ونصب عوضه اميرا اعتمده واعطى حكومة تبريز وكيلان وبعض بلاد ايران الى ولده ميرزاميرانشاه وزاده على ذلك اطراف تيمورقبو

وبعد ان حكم اولاد ميرانشاه مدة في تلك الاطراف ظهر الاقاقيونيون واستولوا على طرف داغستان وبذلك زال حكم اولاد تيمور من هذه الجهات . واحرز اهالي شمال داغستان استقلالهم وولوا عليهم اميراً من العائلة الجنكيزية وكانوا يسمونه شمخال

وفي عصر السلطان مراد الثالث صار اعلان الحرب على العجم ولما سار مصطفى باشا الصدر الاعظم بالعسكر الهمايوني على بلاد ايران كان بمعيته

عثمان باشا اوزدمير فعقد له على كتائب من العساكر وارسله الى داغستان فسار واستولى على شماخى وباكو ونصب سلطان برهان شاهاً على شروان وهو من عائلة شاهات شروان. ولم يكن مستقلا في نفوذه بل كان فى اموره مستنداً ومنقاداً الى الدولة العلية .وحصل عثمان باشا نفوذا ايضاً في جهة الشمال لاسيما عندما تزوج بابنة الشمخال وترك له قلعة الدربند وابقاها بيده . ولم يحتمل اللزكيون نفوذ عثمان باشا في تلك الجهات فوقع بينهم وبينه خلاف وحروب وفي آخر الامر صار عقد الصلح على ان تقرأ الخطبة باسم السلاطين آل عثمان. وأنه عند ظهور حرب على العجم يمر من بلادهم مقدار من الجند الى حد ثلاثين الف عسكري من عساكر التاتار التى تحضر من جهة القرم ويصير ايصالهم الى عثمان باشا مع كافة ذخائرهم واسلحتهم التى تبعث لهم من طرف الدولة العلية وان يكونوا مرافقين ومعاونين لهذا العسكر العثماني وان لا يتداخل احد في نصب امرائهم الشمخالية بل يجرى ذلك على عوائدهم القديمة من كونه اذا اراد السلطان نصب احد منهم يرسل له التوغ والعلم والخلعة والسيف وان لا يؤخذ من تجار الممالك المحروسة العثمانية باج ولا كمرك ولا شيء من سائر الرسومات. وفي ذلك الوقت كانت هذه الشروط مرعية الاجراء من الطرفين. ومر عبد الكراى خان في ثلاثين الف من عساكر التاتار على بلادهم فرافقوه واوصلوه الى عثمان باشا

واخيراً عند موت سلطان برهان صار في محله ابنه ابو بكر وفي خلال ذلك ظهرت طائفة الجلالية في جهة الاناطولي فاغتنم الشاه عباس الذي كان اذ ذاك شاه ايران فرصة شغل الدولة العلية بهذه الغائلة فاغوى واضل الداغستانيين فاضطرت العساكر العثمانية لهذا السبب ان تنسحب من تلك الجهات الى جرد الاناطولي . وبعد ذلك صار الشاه عباس في كل سنة يرسل الخلع والهدايا الى بكوات وامراء داغستان الشمالى استمالة لهم وبهذا الوجه كان العجم يعدون الداغستان من ممالكهم واما الداغستانيون فانهم كانوا ينظرون لهداياهم هذه ضريبة رسمية ولذلك كانوا يغيرون على بلاد ايران اذا تاخروا عن ارسالها لهم في اوقاتها لسبب ما . وعندما اختلت احوال العجم بظهور الافغانيين هجم الداغستانيون من جهة الشمال على

ولايتى شروان وروان معتذرين في ذلك بانهم لم ياخذوا رسماً في تلك السنة .
ونهبوا كثيراً من اموال تجار روسيا

وفى أثناء هذا الاختلال في بلاد العجم تعدى الروسيون على جهات تيمور قبو واخيراً تركهم على وجه الصلح الذي عقدوه مع طهماس شاه قلعتى دربند وباكو وايالات كيلان ومازندران واستراباذ فاستولوا عليها وتملكوها ولما كان تخطى الروسيين الى هذه الاطراف مضراً بالدولة العليـة اقتضت الحال تدارك العـلاج قبل تفاقم الداء فصـارت المسارعة في ايام السلطان احمد من طرف الدولة العلية للاستيلاء على قطعة تفليس التى هى كرسى بلاد كرجستان ونصبت من طرفها ايضاً حاكماً في مدينة شماخى عاصمـة شروان واستمالت اهالي تلك الجهات لنحوها وارسلت مهندسين ومامورين مخصوصين لكشف سواحل البحر الاسود فرأوا من المناسب بناء قلاع في بعض الثغور وعلى هذا القصـد صار بناء قلعة فاش وبافتتـاح الطريق منها الى تفليس صار تسهيل عظيم في امر ايصال المهمات التى تبعث اليها من الاستانة العلية في الاسطول برسم تفليس وداغستان . ثم بعد ذلك عند ما ظهر نادرشاه استرد المواضع التى استولت عليها الدولة العلية ودولة روسية . غير انه عجز عن تأييد نفوذ امره في تلك النواحى وهزمـه الداغستانيون شر هزيمة ومن المعلوم ان الداغستانين اجسر واشجع اهل جبل قافقاس

وبعـد نادر شاه تضاعف الاختلال في العجم و التجأ اهالي تلك الجهات الى الدولة العلية . وفي عصر السلطان محمد الاول وقع التفكر في الاستيلاء على داغستان واستمر هذا التصور في الافكار الى ايام حميد خان فصارت المذاكرة في جلب قبائل القافقاس تداركا لحصول قوة تقابل الروسيين ولكن لم يساعد الوقت في ذلك

ذكر بعض احوال مخصوصة تتعلق ببلاد الجراكسة

قد كنا ذكرنا حدود بلاد الجراكسة على اصول الجغرافيين والان رأينا من المناسب ان نبين حدودها ايضاً على حسب التعليمات المحررة في مجموعة هاشم افندي التى اخذنا عنها وقائع بلاد الجراكسة لعلمه بها وكان توجه الى تلك

البلاد بمعية فرح علي باشا واقام بها زمناً طويلا

فنقول قد قدرت مسافة ما بين اسكلة صخوم الواقعة في ساحل الاناطولي الى بوغاز قزل طاش الذي هو تحت صحراء جمه تي الكائنة في طرف نهر قوبان في في الاناطولي الذي يقطع الحدود الاسلامية بمسير ماية ساعة ومن البوغاز المذكور الى منبع نهر قوبان في اسفل جبل البرز الذي هو مقر ومسكن قبيلة بستى الى ان يصل الى المحل الذي يقال له قلعة الحُجاج قبالة القبارطاى بماية ساعة ايضاً ومن المحل المذكور الى قلعة صخوم الواقعة في ذيل الجبال العظيمة التى هى الحاجز بين ممالك اللزكيين والابازة كذلك بماية ساعة فتكون هذه البلاد المذكورة مثلثة الشكل في مسافة ثلاثماية ساعة

فهذه الاراضى اللطيفة المعلومة الحدود هى بلاد الجراكسة يسكن فى جانبها الشمالي قبائل الجراكسة وفي جانبها الجنوبي قبائل ابازه وبعض طوائف الجراكسة وهاتان الفرقتان تشتملان على قبائل وبطون مختلفة . والقبائل المتميزة من الجراكسة الساكنين في هذه القطعة هم قبائل بشتى وكوركوى وبزادوخ وتخاج وشابشيخ وابازخ ويوجد لهولاء ايضاً بطون كثيرة والقبائل المذكورة ينادي بعضهم بعضاً (اديغه) بمعنى ابن بلده وابن ملته وذلك تميزاً لهم من سائر الخلق . وذكر في جهاتنما ان للقبائل المذكورة عادات يهودية وذلك انه في القديم ارتحل ثلاثة اسباط من اليهود الى هذه الجهة ومنهم تولدت الجراكسة ولكن لم نقف على شىء في تحريرات هاشم افندي في هذا الخصوص وهو امر بعيد عن العقل لان طائفة اليهود انتشرت فى كل طرف ولم تضيع ملتها وعوائدها في اي محل حلت فيه فكيف بهولاء الذين اتوا الى هذه الجهه ينسون نسبتهم ولا يعرفون من اي قوم كانوا فهذا لا تقبله العقول والصحيح ان اللزكيين والكرج والجراكسة هم اقوام قديمون جداً كما بيناه قبل

واطلاق اسم الجركس على كافه القبائل الساكنين في هذه القطعة وان يكن جاريا في العرف فهم في الحقيقة صنفان على ما ذكرناه سابقاً فالابازه غير الجراكسة

وقال هاشم افندي انه روى انه كان يرى فى جبل (البرز) انسان وحشى . ويوجد بين نهر انابه ونهر يوجغز قوم الجلاليه القزاق ولكنهم لم يخلو

لهم وقت من غارة الجراكسة عليهم ومن نهبهم وسبي عيالهم واولادهم
وعندما طالت يد الروسية بالتعدي على اطراف القرم وطمان هاجر كثير من التاتار والتجأوا دخيلين على اولئك القبائل وسكنوا فى تلك الجهات
وقلعة صوغوجق كانت موجودة من قبل ولاية فرح علي باشا على تلك الجهة. ولكن حاميتها كانت قليلة جداً فلذلك كانوا لا يقدرون على الطلوع الى خارجها. وفي تلك الاوقات كان يوجد ايضاً في قلعة صخوم محافظ اسمه كلش بك وهو في الاصل من امراء تلك الجهات. اما محل قلعة انابه فانها كانت احد البلاد العامرة على حسب ما فهم من بعض رسائل الجغرافية التى الفت بتلك الاوقات. وآثار ابنية القلعة التى هدمت لم تزل باقية
واهالي هذه القبائل على ثلاث مراتب يعبر عن الاعلى منهم مقاماً (بشى) يعنى بك وعن الاوسط (اوزدن) وعن الدون (طوقاو) ففى ابازه وابازخ لا يكون بك بل الاعلى عندهم صنف (اوزدن) فالاوزدنيون فى الجراكسة هم قسم المحافظين في خدمة البكوات الذين هم امراؤهم منذ القديم . واما عند ابازه فهم بمثابة امرائهم. ومن عاداتهم في التزويج ان كل صنف ينظر الى كفؤه لا يتنازل الى ما هو ادنى منه . حتى ان احد الاوزدنيين من ابازه وابازخ اذا اراد ان يتزوج من بعض قبائل الجراكسة لا يسوغ له ذلك لكونه غير كفؤ لهم بل له ان ياخذ من امثاله الاوزدنيين. وبناء على ذلك فهذه الاصناف لا يختلط بعضهم ببعض وبذلك توصلوا الى المحافظة على شرف انسابهم . والامراء والطوقاويون متميزون عن بعضهم بعضاً لهجة وصفة

﴿ استطراد ﴾

تشعب الناس من ثلاثة اصناف ولكل صنف اوصاف مخصوصة يتميز بها عن غيره فالصنف الاول القافقاسيون. فهم مدوروا الرءوس بيض الوجوه في الغالب طوال الانوف ضيقوا الافواه شعرهم اسود او احمر وهذا الصنف اجمل الناس فالجركس والكرج والارمن والهنود والعرب وقدماء ديار بكر والعراق والصوريون والحبش واليهود وقدماء المصريين من هذا الصنف الذى

انتشر في محلات كثيرة جداً من الكرة الارضية. واكثرهم اهل ادب ومعارف وصنائع . واهالي اروبا هم من هذا الصنف ايضاً . ولكن لم يكونوا منه خالصاً بل اكثريا وجدوا مخلوطين من الصنف الثاني الاتي ذكره

والصنف الثانى وهم المغوليون رؤوسهم مربعة ووجوههم مسطحة وخدودهم بارزة وعيونهم سود وصغيرة مائلة الى الوحشية يعنى مؤخر عيونهم مائل الى جهة فوق فطس الانوف صغارها وشعرهم اسود ولون جلدهم بين الاصفر والاسمر فينظر الى الوانهم الطبيعية كانها مخطوفة ومغيرة وفي الصنف الاول وان يكن يوجد اشخاص صفر الالوان فذلك لقلة دمهم وهم معدودون من جنس البيض ايضاً . واما صفرة جلد هذا الصنف فانها كيفية طبيعية . وهذا الصنف لكثرته استوعب اكثر نصف الكرة الشرقية فاهالي شمال اسيا وبلاد الصين والجزائر والهند والسند من هذا الصنف . ومن مزية هذا الصنف بل من فطرته ان يكون ذا خاصية تامة في الاستعداد للحكومة . وزاد اهل الصين عليهم بتقدمهم في انواع الصنائع

الصنف الثالث الزنج فالزنجى صغير الرأس واسع الخدين لحيمهما بارز الانف افطس ذو ذقن طويل ناتيء الفم غليظ الشفتين مكشوف الاسنان ابيضها جلده اسود خلقة وشعره مثل الصوف الاسود قصير ناعم وهذا الصنف يكون فى نواحى خط الاستواء كبلاد كينة والسودان وكافور وهوتانتو ويوجد منهم في سواحل ماداغسقار وبعض جزائر البحر المحيط وهؤلاء غير قادرين على اصلاح احوالهم نظراً لشدة الحرارة التى تعطى ضعفاً في قواهم العقلية فلذلك استمروا الى هذا الوقت في حال التوحش والجهل . والبعض يثبت النقص في فطرتهم الانسانية

ومنشأ الصنف الاول في جبل قافقاس وهم طوائف الكرج والجركس ومنهم تفرعت سائر الطوائف والصنف الثاني وان يكن قد وجد في بعض الكتب ان اصله خرج من الجبل المسمى (آلت طاغ) الذي هو في طرف حدود ممالك الروسية في اسيا فانه لم يثبت عندنا بالبرهان . وانما التاريخ الطبيعى يخبرنا بان الناس تكاثروا من هذه الاجناس الثلاث المذكورة وانه في كثير من المواضع اختلط الصنف الاول والثانى ودخل بعضهم في بعض

وعلى الوجه المذكور اعلاه استولى التتر على جهات داغستان فصارت بذلك كانها مسكن للصنف الثاني وامراء الجراكسة وان كانوا من الصنف الاول فان الطوقاويين من الصنف الثاني يعنى من جنس التاتار

فى عقائد قبائل الجراكسة قديماً

ان الممالك الشرقية التى يقال لها قطعة اسيا كانت مشرق انوار الدين ومنذ نشأت الخليقة تنورت جهتها بالنور الالهي والذي ميز اهل ذلك الطرف من اولاد آدم باخلاق الانسانية الصحيحة عن سائر الحيوانات هو اعتقادهم وجود الاله سبحانه وكانت بقية جهات الدنيا اذ ذاك في ظلمة الجهالة لان الانسان بحسب فطرته وصفته التى تميز بها عن غيره لا بد له ان ينظر بعقله نظرا يعرف به الخالق سبحانه ليعبده ويخضع لاوامره ونواهيه فالناس الذين استمروا في ظلمات الجهل اقاموا مقام الاله كل ما وصلت اليه عقولهم القاصرة في حال هذه الظلمة فبعضهم عبد الانهار والاشجار وبعضهم عبد النمل والحيات وكل منهم عمه نوع من انواع ظلمة الضلالة

فانظر الى قبائل الجركس والابازه تجدهم من جملة الاقوام المتوحشة قد اتخذوا لهم شجرة يسمونها قودوش معبودا لهم واستمروا على عبادتها لاوهام واسباب باطله

وتفصيل ذلك ان الجبال التى بين ضخوم وصوغوجق المعبر عنها بغويه يوجد في بعضها شجرة كبيرة عجيبة المنظر تقرب في كبرها من شجر السنديان وهى مكونة من انواع كثيرة من الشجر تنبت في موضع واحد فتتكون منها هذه الشجرة فقيل لها شجرة قودوش وفي كل سنة ياتي اليها طير يعرف ببوغه مرة واحدة وهو كبير هائل فيسند راسه الى تلك الشجرة ويتهيأ ليكون قربانا ولا ينازع من ياتيه ليذبحه على قولهم فيقوم احد الجماعة الحاضرين هناك فيذبحه في الحال ثم يصبون على راسه وعينيه خمرا وبوزة ثم ياخذون طاقياتهم عن رؤوسهم بايديهم ويقولون يا الهنا العظيم ان عنايتك بحق عبيدك ليس لها حساب ولا حد ويسجدون ويتضرعون لهذه الشجرة وهم مكشوفو الرأوس. وبعد الفراغ يقتسمون فيما بينهم لحم البوغه وجلده ويتشكرون

لمعبودهم . وعندما يتوجهون لاجل القرصنة بحرا في قايق يسمونه خجابا او لاجل السرقة يقول الواحد منهم ان غلبت فاتى انذر لشجرة قودوش احسن بارودة او احسن درع او احسن شيء لا تفنيه الامطار وعند ما ياتي بما نذره يعلقه على اغصانها . فكان يرى على شجرة قودوش اشياء كثيرة جدا من هذا القبيل باقية معلقة محترمة فلا يستطيع احد ان ياخذ منها شيئاً وذلك لانهم يزعمون ان من يسرق شيئاً من هذه الاشياء لا تمكن نجاته بوجه من الوجوه بل يقولون انه يهلك ويموت في الحال

وكان لقودوش هذا في سائر المحلات وكلاء عنه يعبر عنهم باسم (طغالك) فاحسن شجرة تعجبهم من الاشجار التى تكون بقرب بيوتهم يتخذونها وكيلة لقودوش ويسترون اطرافها بحاجز (درابزين) ويربطون اعلاها بحبل وحشيش ويديرون ذلك في هيئة العمامة ويسمونها (طغالك) ويحيلون اليها في كل سنة نجاح الحبوب التى يزرعونها ويجعلون حراستها اليها ايضاً ويقولون ان ماكولاتنا وماكولات مسافرينا كانت في السنة الماضية قليلة فنرجو كرماً منك ان تكون في هذه السنة كثيرة ويرفعون طاقياتهم عن رؤوسهم ويسجدون تحتها لجهة المشرق ويذبحون راساً من الغنم او المعز قربانا يصبون على رأسه خمرا او بوزة ويستمرون في الرجاء والدعاء الى وقت الحصاد فاذا حصل مرادهم يعرضون تشكرهم الى الطغالك واذا ظهر خلاف مأمولهم ومرامهم ينفعلون منها ويقولون لها لماذا لم تسمعى كلامنا ويقطعون اوراقها واغصانها ثم يجتثونها من اصلها ويحرقونها وينصبون شجرة غيرها في محلها وبعد اجراء تمام الحرمة يتوجهون لهذه الطغالك الجديدة ويقولون يا معبودنا الجديد ان الطغالك التى عبدناها قبلك كانت اساءت الادب فلذلك القيناها فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة عبدناك فانت كذلك اذا لم تسمعى كلامنا فاننا نحرقك ايضاً وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة

وكان من عادة السلاطين الجنكيزيين يعطون اولادهم لاحد امراء الجراكسة لاجل ارضاعهم وتربيتهم . حتى اذا اتموا مدة الرضاع والتربية ردوهم الى آبائهم فبهذه المناسبة كانوا يغدون ويروحون الى بلاد القرم وبسبب اختلاطهم مع الذين اسلموا من التاتار مالوا الى دين الاسلام .

وصار البعض من قبائل الجراكسة يصومون شهراً في السنة وبعده في الشهر الرابع يطبخون حبوب عاشورا وبعده بشهر يدعون لقراءة المولد شيخاً عارفا بلسانهم من طمان تقليداً للاسلام وبعضهم كان يجمع اخوانه ويعمل لهم في كل سنة ضيافة على اسم سلطان الابطال صهر النبي(صلى الله عليه وسلم) حضرة علي المرتضى ويترأون بصفة العلويين ولكنهم كانوا غير واقفين على الاحكام القرأنية وغير عارفين بالاداب والشعائر الاسلامية . والحال انه عند القبائل المتوحشة في مبدا ظهور الدين الالهى . الاعتقادات الباطلة الذي اعتادوا عليها من القديم كانت تختلط في الدين الذي يظهر حديثاً . فالجراكسة ايضاً لكونهم وجدوا في هذه الحال فالعبادة التى اخذوها عن التاتار ما كانوا يقصدون بها عرض العبودية لجناب الحق وتعظيم وتحية الرسول المكرم بل كانت في امل حصول الفيض والبركة

وفي زمان ولاية فرح علي باشا على بلاد الجراكسة كان بعضهم مستمرين على اعتقاداتهم القديمة في عبادة الشجرة وبعضهم كانوا على الديانة الاسلامية ولكن مع تشويش وتخليط وبعضهم يقلدون النصارى في اعتبار البيض الاحمر والاغرب من ذلك كله ولا اعلم باي عقل يعملون لروح ابي جهل اللعين الخبيثة عيد فصح صغير اسمه (صاوصوروق)

وقبائل الجراكسة متعددة كثيرة وعند ما اتى العرب لتلك الجهات يدعون الى الدين الاسلامى على الوجه السابق بيانه اسلم كثير من القبائل في جهة داغستان وبانقراض العرب انقطع هذا الخير وبقى كثير منهم في الجهالة واعمال الشرور

والذي يستغرب ان امراء الجراكسة الذين صارت منهم دولة في مصر وكان نفوذهم جاريا بها مدة مديدة لم يذكروا وطنهم الاصلي

وسبب دخول النصرانية فى تلك الجهات واستحسانها في افكار اهلها هو ان الجنويزيين فى القرون المتوسطة عند ما جاءوا وتوطنوا في ساحل البحر الاسود تشبثوا باسباب نشر الدين المسيحى في تلك الجهات ولكن لما ظهرت الدولة العلية واستقر امرها امتنعت تلك التشبثات وقطعت تلك الاسباب

وعلى الوجه الذي سياتي مفصلا دخل كثير من قبائل الجراكسة في دين الاسلام بهداية وارشاد فرح علي باشا وكانوا عندما يتحدثون فيما بينهم ويذكرون الطغالك يخجلون ويندمون وذكر هاشم افندي ان جهات غويه بقي اهلها على عبادة شجرة قودوش اذ لم تساعدالاحوال على فتحهاوقتئذ ولكن بعد ذلك انتشر الدين الاسلامى في تلك السواحل كلها شيئاً فشيئاً وبطلت تلك العقائد الباطلة

وفي الغالب يوجد عند الاقوام المتوحشين بعض حكايات تكون مخالفة للعادات المالوفةوذلك من قبيل الخرافات فحالهم في ذلك حال الاطفال الذين يصدقون بما يخوفون به كالبعبع وابو العيون السود وعندما يبلغون سن التمييز يسمعون هذه الكلمات باذن الاستهزاء ويعرفون انها مقالات لا اصل لها. وهكذا الانسان في حال جمعيته البشرية في مبادي أطوار سن طفوليته يعتقد الصدق فيما يسمعه من امثال ذلك ثم بعد بلوغه الى سن التمييز ودخوله في حال المدنية يعلم ان هذه الاشياء لا اساس لها. ولما كان اعتقاد مثل هذه الاباطيل ميزاناً يعلم به درجة تربية المرء او القوم الساري فيهم ذلك الاعتقاد راينا من المناسب ان نحرر في هذا المحل بعض حكايات غريبة لم تزل تنقل عن الجراكسة

منها انهم يروون انه يوجد رجل محبوس يقال له ضحاك مارى في مغارة في جهة قلعة الحُجاج الكائنة في جبل البرز. وبالقرب من هذا الجبل قرية فبينما رجل من اهاليها يجول في الجبل يريد الصيد والقنص اذ نظر هذه المغارة فقال في فكره. ياهل ترى تصلح هذه المغارة ان تكون ماوى للغنم ثم دخل اليها فسمع صوتا مريعاً فتوقف ولبينما تعودت عيناه على ظلام المغارة نظر شيئا هائلا على شكل انسان مربوطة رجلاه الى عنقه ويداه مقيدتان بقيد محكم وفي وسطه سلسلة من حديد وقد شاهد هذا كله بعينيه وعلم انه محبوس ففى اول الامر حصل له خوف عظيم ثم زال عنه بعض ما كان يحس به من ذلك وبينما كان ينظر اليه ويتعجب من شأنه اذ قال له يا اخى لا تخف انى مرهون هنا ومنتظر للوقت الموعود فاتنى بعصى طويلة تشبه القصبة الطويلة التى يعلق بها حبل الغسيل فان فعلتَ وقدرتُ على ان انزل

هذا السيف المعلق امامى فاننى اتخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التى انا مربوط بها واحسن اليك كثيراً فعند ذلك جاءه الرجل بعصاة على حسب مطلوبه ومع كون يديه مربوطتين فانه مد العصى الى السيف واجتهد جهده في تنزيله فلم يقدر وعند ذلك قال للرجل لم يات وقت نجاتي وكسر العصى فجعلها جذاذاً كقطع المسواك وبعد ذلك جاء الصياد الى قريته ونقل هذه القصة الى عياله واولاده وبعد مضي ثلاثة او اربعة ايام مات بدون مرض فقال اصحابه ان جد المرحوم واباه عاشا اكثر من مائة سنة وهو لو لم ير المحبوس الذي في المغارة لعاش مثلهما ثم استولى خوف الموت على اهل تلك القرية فاتفقوا كلهم واجروا مقاولة فيما بينهم على انه لا يذهب احد الى ناحية تلك المغارة ابداً واتبعهم في ذلك اهالي قرى تلك الجهات واتحدوا جميعاً بالاتفاق وجعلوا لذلك حدوداً وتخوماً . ويوجد في تلك البلاد داخل تلك التخوم كثير من الحيوانات الوحشية كالثعلب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو واللَّيل واللنحام والغرنوق ودجاج الارض والتدرج وصيدها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد من المارين آمنة سالمة . ومن عادتهم عند بكاء اولادهم يخوفونهم بصاحب المغارة ويقولون لهم بلسانهم ياتيكم المحبوس الذي في المغارة . وقيل انهم في بعض الليالي يسمعون صدا طقطقة سلسلة ذلك المحبوس وقد رُويت هذه الحكاية في مجلس فرح علي باشا وكان كاتبه هاشم افندى السالف الذكر حاضراً فلم يصدقها وفي الحال امر الباشا باحضار سبعة من التجار الذين يترددون الى القرية المذكورة وعند حضورهم قرروا ما يطابق ما قيل وبثبت الحكاية ورواها هاشم افندي ومع ذلك فانه قال والعهدة على الراوي

وقد سالت عن هذه الحكاية بعض امراء الجراكسة الذين سافروا الى تلك الجهة فوافقوا على اصل القضية . وحيث انه وجد في هذه الحكاية ما يخالف بعض التفريعات والتعبيرات ظهر لي ان اذكر ما سمعته فيها على الوجه الاتي

روى ان مغارة في جبل البرز في داخلها محبوس على ما تقرر سابقاً وهو على شكل البشر وفي مقابلته سيف معلق وفي كل سنة يتحرك مرة فيهتز

الجبل حتى ان الوحوش والطيور التى عليه تجفل من تلك الهزة وتنفر وقد اخبر الذين دخلوا على ذلك المحبوس انه يسال هل (النيابي) ينبت بكثرة وهو نوع من الحشيش ينبت في بلاد الجراكسة كثيراً وهل الاولاد يداومون على المكاتب ثم انه لاجل ان ياخذ السيف الذي في مقابلته يقول اعطوني شكلا من الشجرة التى يفتح زهرها قبل جميع الاشجار وتعطى ثمرها بعد الجميع . (يعبروا عنها قزلجق اي شجر الشوم) فكان الاهالي يعدونه ولا يوفون له وذلك لخوفهم واحترازهم من ان يقع بهم ضرر اذا اخذ السيف بيده او انهم لا يجدون تلك الشجرة التى طلبها فياتونه بجنكل من غير الشجرة التى قال عنها فيغضب ويرمى من ياتيه بذلك

وقد سمع ايضاً من بعض الذين ساحوا في تلك الجهة انه يوجد عين ماء في قرب هذه المغارة فاذا وقع فيها ما يصيبه الصيادون تعود له الحياة فيطير ويفر وقالوا انهم عند ما يقربون من هذه العين تحدث اهوية عاصفة فلا يمكن الوصول اليها وينقلون في ذلك حكايات عجيبة مماثلة لذلك

(فى اخلاق الجراكسة وعاداتهم)

على حسب ما فهم من تحريرات هاشم افندي المذكور ان قبائل الجراكسة والابازه ارضهم نظيفة طاهرة وهم عقلاء مستعدون لكل شيء ذوو شجاعة وجسارة صادقون في اقوالهم ثابتون فيها لا يتكلمون بالكذب اصلا ولا يحلفون ايمانا كاذبة . فاذا وجد خادم من الجركس او الابازه او الابازخ فمهما كان عنيداً عاصياً لاجل اكتساب الامنية من نحوه ووضعه تحت الضبط والربط يصير تحليفه اليمين فمن المحال انه يظهر ما يخالف اليمين . غير ان الامر يقتضى الدقة عند تحليفه اليمين ويلزم التصريح بكل مادة يتهم فيها فاذا صار تحليفه مثلا على جملة مواد فانه يحفظها واذا خالف بعد ذلك في مادة وعوتب فانه يقول صراحة ان هذه المادة خارجة عن اليمين ولا يرتكب الكذب

وهم قوم في غاية السخاء يبالغون في اكرام الضيف حتى انه لو كان صاحب

البيت بيكا مثلا والمسافر من احاد الناس فانه لا يقعد في حضوره بل يخدمه واقفاً على رجليه ولا ينام بل يبقى مسلحاً لحفظه وحراسته . ومن عاداتهم ان صاحب البيت لا ياكل من الاكل الذي طبخ للمسافر ولا يفرقون راس الدجاجة عن بدنها بل يذبحونها ويطبخونها ويضعونها مع رأسها امام المسافر بمعنى ان رؤسهم واجسامهم فداء له . والبستهم كلهم على لون واحد فلا يكون فرق بين الغنى والفقير وفقراؤهم لا يصيرون اغنياء واغنياؤهم لايصيرون فقراء. وبالنظر لادعائهم الاخوة فاذا لزم لاحدهم شيء وطلبه من الاخر فانه يعطيه اياه ولا يجيبه بقول لا. واذا اخذ احدهم شيئاً بقيمة خمس بارات ثم طلب منه بعد ذلك خمسة غروش فانه يدفعها له حالا ولا يخطر في فكره انه اخذ قليلا واعطى كثيراً ومن عادتهم مع الاجانب انهم عند زيادة اضطرابهم يتعدون حدود الروسية وياخذون ما يجدونه من الحيوانات وياسرون ولا يخافون من الروسيين اصلا والواحد من الجراكسة او الاباظه ياخذ وياسر عشرة اسرى من تاتار التوغاي الذين يعدون عند الناس في غاية الشجاعة . ومن العوائد الجارية بينهم ان لا يقتل احدهم الاخر ولا يشتمه ولا يضربه . ويستخدمون اسراهم بكمال الحرية من غير ان يضربوهم او ياذوهم ويعتنون غاية الاعتناء فى امر ماكولهم ومشروبهم . وليس معيباً عندهم امر النهب والسرقة بل يعدون ذلك من الشجاعة والاشخاص الذين هم غير مقتدرين على ذلك لا ينظرون اليهم بنظر القبول ولا يعدونهم من نوع الانسان . وهم قبائل شتى وليس لهم جهة تجمع وحدتهم فى داخليتهم . وشبانهم يطيعون كبارهم ويخدمونهم مثل العبيد وكل قبيلة تنقاد فى حركاتها الحربية الى بكواتها وكبرائها . ويوجد من القديم في كل قبيلة عائلات كبيرة ذات حسب ونسب . يحترم جانبها وترعى ذمامها ويرفع قدرها بين القبائل ويتزوجون ببنات الاصناف الذين هم احط منهم درجة ولكنهم لايعطونهم بناتهم . وكل قبيلة يكون اميرها الكبير من هذه العائلات ويكون نافذ الكلمة مرعى الخاطر وليس لهم أندية ولا جمعيات بل بيوتهم متفرقة في رؤس الجبال فعند ظهور امر مهم يصرخون بما يعبر عنه بلسان التاتار (ايش قيريق) وبهذه الواسطة تصل الاخبار لبعضهم بعضاً من جبل الى جبل آخر وعند الايجاب

يجتمعون في وقت قليل فى احد المواضع ويتشاورون في تسوية مصالحهم . واذا لزم الامر بتوجههم على العدو يختارون واحداً منهم يجعلونه قائدا للعسكر ويكونون منقادين ومطيعين له في كل امر ولكن بعد رجوعهم يبقى كل واحد مستقلا برايه وحيث انهم لم يكن لهم روساء لادارتهم العمومية الدائمة فلا يكتسبون نتيجة فى مصلحة ما. والحاصل انهم امة عجيبة لايقة لخدمة الدولة العلية. والسن هذه القبائل لا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة وهم متوحشون جبليون لايفرقون ولا يميزون بين الكفر والايمان ولا بين الخير والشر. ولا يقدر غريب ان يطوف بينهم واذا اراد ان يمر داخل بلاد قبيلة من قبائلهم يلتزم ان ياخذ دليلا من تلك القبيلة ليوصله الى الحدود احتراساً من ان يصيبه ضرر منهم. وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يقتضى ان يكون معدود الخاطر ليكون مسموع الكلمة عند كل واحد

وان اقتضت المصلحة مخالطة اولئك القبائل والائتلاف معهم والتطواف بينهم فعلى من يضطر لذلك ان يتبنى لاحد من اصحاب الحسب والنسب. ويجعل لذلك وسيلة وهى انه ياخذ اولا ثوبين بفتـه وسختيانا وابرة وخيطاً ومشطاً وكستبانا ثم يطلب دليلا فاذا وجده يعطيه ثوبا من بفته فيوصله الى بيت بك القبيلة التى يطلبها فيعطى هداياه الى اهل صاحب البيت واذا كان صاحب البيت غير حاضر فانه ينزل في بيته حالا ويهجم على امرأته فيأخذ ثديها بفمـه فيرضعه ويقول صرت في بيت الوالدين وصرت لك ابناً في الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتاً وكان زفافها اليه تلك الليلة واذا كان لا يعرف اللسان فانه يفهمهم ذلك بواسطة الترجمان وقاعدتهم في هذا الامر ان المرأة تمسح بيدها على ظهره اشارة لقبولها بنوته وتاذن له في الاقامة عندهم وعندما ياتي زوجها تقول له هذا تبنيته وتامر الرجل بتقبيـل يده فيجيب الى ذلك ويقبله وياخذ في تدارك امر ضيافته وفي الحال يحضر الطعام والشراب ويعزم قبيلته ومن جاورهـا من القبايل فيجعل ذلك الوقت عيدا للمسرات وفي ختامه يقول ان هذا قد تبنيته ويعرف الجميع به وبعد ذلك يذهب كل انسان الى محله ويصير الرجل وصاحب البيت في الاتصال كالاب

والابن ويظهر كل منهما للاخر محبته

وبعد ذلك يصير هذا الابن يذهب وياتي الى اي محل يريده بكمال الحرية واذا كان من التجار فلا يحتاج احداً للمحافظة على ماله بل يكون اميناً من جميع المخاوف والمحاذير واذا كان ماشياً وحده وكان الطريق خالياً من الناس وصادف احد الدعار وراءه واشرأبت نفسه لاخذ ماله فقال له انا متبن لفلان فانه يكف يده عنه واذا لم يراع قانون القبائل واخذ ماله او اسره فعند اتصال الخبر بابيه يسترجع ما اخذ ويستخلصه وزيادة على ذلك فانه ياخذ في مقابلته كل نوع من الاشياء الماخوذة تسعة امثاله ويسمونه (عيلق) اي عقوبة ما ارتكبه من العيب وهذا من رسمهم القديم واذا كان قاطع الطريق ليس له قدرة على دفع ذلك فيأخذه اسيراً ويبيعه ومن عاداتهم انهم يعدون من يهرب من المجازات التى تترتب عليه قانونا اشد شيء مخلاً بالناموس فلذلك لا يقدر المجرم على الفرار بل يسلم نفسه حالا ولكن اذا كان للمجرم بنات ورضى الاب باخذهن فانه يجوز بحسب قانونهم اخذ ابنتين منهن بدلا عن ابيهما فعلى هذه الصورة ياخذ ابنتيه ويبيعهم

وقتل النفس عندهم ذنب عظيم وجنحته كبيرة لم يأتلفوا عليها بل يخافون ويحترزون منها وان اتفق ذلك وضرب واحد منهم شخصاً آخر فقتله فان الجزاء يكون على حسب مراتب الاهالي وهم كما سبق على ثلاث مراتب وفي ذلك فرق بين ديات البكوات والطوقاد اي عامة الاهالي واما دية الاوزونيين فانها بالدرجة الوسطى بين الجهتين. وعلى هذه الصورة اذا قتل رجل من الذين هم في الدرجة الوسطى فتكون ديته عشرين عدداً بحسب لغتهم يعنى خمسة منها خمسة اسرى تقاس قدودهم على قدر معلوم بالشبر وخمسة منها عبارة عن خمسة رؤوس من الخيل كل رأس بقيمة اسير وخمسة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قيمة اسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقه) يعطى فيها سيف وبارودة وقوساً وبكل حال يصير استيفاؤها وصار ذلك قانونا وحيث انه لا يوجد عندهم نقودا ولا سكة فيكون تقدير قيمة الاسير بحسب الشبر . ولا يعتبر بينهم ثمن الاسير بحسب جماله او بشاعته بل ينظر حسابه على اعتبار الشبر . فيعتبر الاسير التام ستة اشبار واذا كان اقل من ذلك يعد ناقصاً فاذا التزم

احدهم ان يعطى للاخر اسيراً تاماً واعطاه اياه بقياس اربعة اشبار فيلتزم ان يتمم الباقي بشيء اخر. وكثرة خروج الاسرى (المماليك) من بلاد الجراكسة نشأت عن هذه الاسباب. ويعبرون عنها بكلمة (شلقه) ويريدون بها ما اصطلحوا عليه من عوائدهم الغريبة وهو انهم اذا اخذوا اسرى من قزاق الروسية يزوجونهم بالجوار الموجودين عندهم. ويعدون اولادهم من قبيل المحصول فعند الاقتضاء يبيعونهم. ومن قبائل التاتار القبيلة المعروفة (بجان بويلق) يبيعون اولادهم الذين هم من جواري الاوز. وامراؤهم ياخذون البنات والاولاد اليتامى والنساء الارامل والذين ليس لهم احد ويقولون فيهم هولاء قسمتنا يعنى مال الميري ويضبطونهم فيزوجونهم بقزاق الروس ويبيعون اولادهم الذين يعبر عنهم بلفظ (طوقه) واما الجراكسة فانهم لايبيعون اولادهم ولكن اذا زنت المرأة فانهم يبيعونها مع اولادها. وذلك انه اذا عرف ان احد عدا على امرأة وزنا بها او بابنتها ففى الحال يذهب زوج المرأة الى ابيها وامها ويخبرهم بظهور هذا الامر ويقول ان ابنتكم بنت حرام لا اقبلها فخذوها واعطوني ما اخذتموه منى مقدماً في عقد نكاحها. فيتبرا منها والداها. وعند ذلك ياخذ منهما الرخصة ويحمل المرأة والاولاد على عربية لانه يعتبرهم انهم اولاد حرام فياتي بهم الى النخاس ويبيعهم له وياخذ ثمنهم ومثل هذه المرأة ليس لها في العادة ان تصرخ وتقول انا امرأة هذا الرجل وقد افتروا عليّ مثلا بل في الحال تقر وتعترف بجرمها وتنقاد الى القانون فتباع بدون صوت واحد وتسلي نفسها بان نصيبها المرافق لها كالظل هو هذا. واما زوجها فانه لحين وصوله الى بيته يفرق المال الذي اخذه من النخاس على اخوانه واحبابه وفي اليوم الثاني يذهب مع بعض الروساء الى المحل الذي فيه الزاني ويقول انا بعت المرأة ويذكر له المقدار الذي باعها به وعادة القبائل معلومة فيدعى ويقول اطلب حقي ويرسل ماموراً من قبله بذلك. فعلى الزانى ان يدفع مثل القيمة الذي باع به المرأة ايضاً مع تسعة امثال ذلك باسم عيبه واذا كان الزاني ليس في اقتداره ذلك ولا يوجد من يعينه فعندها يمسكه والداه ويقيداه بقيد ويسلماه الى الرجل ويقولان له هذا حقك وحيث ان الشتم والكلام الفاحش عيب بينهم فلا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه ولا يوبخه ولا يقول له انك عملت هذا

واجريت ذالك بل ياخذه الى السوق بلطافة ويبيعه باي قيمة اعطيت فيه واذا كان الآخذ منفعلا للغاية فاي قيمة تيسرت في سوق الدلاله يبيعه بها كانه يقول للجاني هذه قيمتك والقيمة التى اخذها فيه يفرقها على الموجودين بمرآى منه ويكف يده. ثم ان قبيلة الجاني توفي بقيمة حقه

وكذلك اللواط بينهم معيب للغاية فلذلك وقوعه يكون نادراً. فاذا اجرى احدمنهم هذه الخباثة من الغرباء الداخلين جديداً الى القبيلة ونظره احد فيخبر الجميع بذلك ويصير الولد من خوف المذمة وشدة العار لا يجد موضعاً يختفى فيه في تلك الجهات فيهرب الى الساحل واذا راى احدا من الروساء او الملاحين فانه يترامى عليه يقبل يده ويسترحمه ويطلب منه ان يقبله اسيراً له يتصرف فيه كيف شاء او يبيعه في مصر او في استامبول. ويمكنه من بيع نفسه. وكذلك اللائط فلا احد ينظر في وجهه بل يحتقرونه فيضطر الى ان يترك الديار والا قتل بايدي قبيلة الولد

فبهذه الاسباب كان الزنا واللواط بين تلك القبائل صعباً جداً وخيم العاقبة يخاف الجميع معرته ويحترزون منه

وكان النكاح عندهم الى زمان فرح علي باشا في صورة غير مشروعة فكان يحصل بين الزوج والزوجة رابطة اتحاد وكانوا يدركون بعقولهم واستعدادهم انه لابد ان يتقيدكل منهما مع الاخر بقيد الاختصاص. وجعلوا بينهم قانونا فى هذا الامر يحتوي على شروط معلومة وكلهم كانوا يراعونه والخارجون عن العمل بهذا القانون يعدونهم زواني وعلى مقتضى هذا القانون وفيأته كانوا يعطون البنت الى كل ملة

وكيفية عقد نكاحهم هى ان ياتي الشاب الى بيت البنت ويحادثون ويتحاورون فاذا عجب بعضهم بعضاً يتوجه ذلك الشاب الخاطب عند التصريح بالقبول في يوم معين مع اقربائه واصدقائه الى بيت والد البنت ويتفقون على شيء معلوم المقدار بحسب رتبهم وذلك بواسطة سفير بينهم وياخذ اصحاب الصهر احدها درعا والثاني سيفاً والاخر حصانا ويسلمون ذلك الى عم الصهر (والدالبنت) على الحساب. وينفض المجلس على ان الباقى يعطيه عند اقتداره وكل انسان يذهب الى محله. وبعد ذلك يتوجه الصهر غالباً الى بيت عمه ويتلاقى مع البنت

التى ستكون زوجة له وعندما يجد فرصة بغيبة وجود والديها يتكلم مع البنت في امره ثم يقول لها في الشهر الجديد مثلا في الليلة الثالثة او الخامسة منه عند ابتداء صياح الديك اجدك تحت الشجرة الفلانية ويؤكد في ذلك عليها وفي الوقت الموعود يحضر الى تلك الشجرة نحو عشرين او ثلاثين فارساً من ذوي الشجاعة الحاذقين في فن السرقة اقوياء . فيجدون البنت منتظرة عند الشجرة عن غير علم من والديها فمن سبق من اولئك الفرسان الى البنت يردفها حالا وراءه ويهرب بها. ثم ياتى بها الى بيته ويتبناها ثم يزوجها من خاطبها.وفي قانونهم ان اولاده واولادها لا يجوز لهم ان يتزوج بعضهم بعضاً الا بعد سبعة بطون. وان اطلع والد البنت ورجال قبيلته على الذي اخذها في وقت فراره بها. ركبوا في الحال خيلهم وتعرضوا له ويحصل بين الطرفين الجدال وربما آل الامر بينهم الى قتال كبير . وعلى تقدير انه حصل قبل اختطاف البنت اتفاق على قيمة البنت مع والدها برضاه واخذ مقداراً من اصل القيمة فانهم لابد ان يختطفوها جرياً على عادتهم ويستحسنون ذلك ولو كان مغايراً لطبع سائر القبائل ومن عادتهم انهم لايعطون ام البنت شيئاً وعندما يهيء الصهر محلا مثل كوخ الرعاة (الرعيان) في احد الجبال ويهيء قدراً ودلواً وقصعة ياخذ امرأته ويقيم كالمسافر مع امرأته ياكلان ويشربان عند ذلك الفارس الذي خطف البنت على الوجه المذكور

وبعد ايام فرح علي باشا انتشر الدين الاسلامى في تلك الجهات. والآن ياتون بالامام ويجرون عقود انكحتهم بالصورة المشروعة. الا انهم لم يتركوا عاداتهم القديمة كلها. وهكذا الشاب بعد ان ياخذ البنت فلا يغدو ولا يروح الى بيت عمه ولا يواجه عمه ولا امراة عمه وفي ابتداء اخذه البنت يضعها في محل مخصوص. ثم اذا اراد ان ياخذها لبيت ابيه فان البنت لا توافقه على الاقامة في بيت عمها مع امرأة عمها ولا ان تواكلهم وبقى ذلك من عاداتهم المستمرة

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الاربعة جميلة واراضيها خصبة وذات محاصيل كثيرة وينبت فيها جميع انواع الخضر بل كل شيء يزرع فيها فانه ينبت. ومع ذلك فان قبائل الجراكسة والتاتار لا ياكلون الخضر بل

يقتصرون على اكل اللحم فقط . وفي قرب بيوتهم يزرعون شتل الدخان ويتعاملون به في بعض اشياء وعلى حساب الدراهم تكون اقته بخمسة وعشرين بارة . ويزرعون مقدار ما يكفيهم حاجتهم ولا يهتمون بزيادة على ذلك وهؤلاء القبائل ذوو كسل وبطالة وطباعهم تشبه طباع العرب البادية وحيث انهم لم يكن من عادتهم ان يقتل الواحد منهم الاخر او يضربه او يشتمه او يغشه في شيء فلا يخافون من بعضهم بعضاً ولا يداهن احدهم الآخر ولا توجد بينهم اداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب التوقى والحشمة والاحتراز من بعضهم بعضاً وبناء على ذلك فلو اقاموا مائة سنة على هذه الحال ولم يتمدنوا ويبتنوا منازل تجمعهم فلا يمكنهم ترك عاداتهم القديمة . وقد قال هاشم افندي انه نظراً لفطنتهم وطيب طينتهم لو اجتمع منهم مثلا عشرة بيوت او عشرون بيتاً فى موضع وأنشئ لهم محلات وجوامع ومكاتب لتحولت الطباعهم هذه وفي وقت قريب يكتسبون حسن التربية

وفي بلادهم انواع من النباتات ففى جوار انابه ينبت السنامكى والراوند الصينى ونوع من السحلب القوي ويوجد في سواحل صخوم جميع انواع الفواكه والخضر وفي المواضع المسماة چوبسين وغويه وصوچه يوجد الزيتون والكستنة بكثرة وشاي بري جميل جداً ينبت لحاله وكذلك شجر البقس فانه في تلك النواحى كثير جداً . واهل السفن الذين يذهبون الى هناك لقطع شجر البقس متى وجدوه كانهم وجدوا دفينة مال وحيث انه يخشى من قرصان تلك القبائل الذي يعبرون عنه ﴿ حيچايا ﴾ فالعالمون بذلك يعطون الى بكوات تلك الجهات رهاين وياخذون منهم رهاين ثم يذهبون لقطع شجر البقص في امان وحرية . وحيث ان الملح لا يوجد فى بلاد الجراكسة وهو عندهم عزيز للغاية فمن عادة المراكب التى تذهب الى هناك ياخذ اهلها كثيرا من الملح ويتعاملون به معاملة العروض وذلك بان يضعوا مقداراً من الملح في عينة الميزان ويجعلون في العينة الثانية مقداراً من العسل مثلا او شمع العسل او جلود الثعالب والسمور

ويوجد ايضاً في بلاد الجراكسة سائر انواع الصيد وعندهم في القنص امر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك انهن يعلقن قطعة

من اللحم بين شعبتى شجرة ذات اشعاب فياتي الفهد ويقفز لاجل اخـذ اللحم فتعلق رجله في شعبة الشجرة فيمسك . وفي الحال يسلمنه لرجل طويل القامة يسلخ جلده . وهكذا من جملة عاداتهم الغريبة المرعية ان الذي يسلخ الفهد لابد ان يكون مساوياً للفهد فى الطول

ومن عوائدهم انهم في الشتاء في عيد قاسم يعفون لحاهم وذلك لشدة البرد في تلك الجهات وفي عيد الخضر حين يزول البرد يحلقونها . قال هاشم افندي ان هؤلاء مع كونهم يعرفون الفرائض والسنن فانهم لايعفون لحـاهم على الدوام الى الان

(لاحقة)

في الافلاق والبغدان

ان من جملة الطوائف التى جاءت من اطراف دشت طائفة قيچاق ونزلت في جهات بحر الخزر وجاءت ايضاً اليها طائفة يقال لها داق وبقى اثر الجميع في تلك الجهات وعرفوا باسم مملكة الداغستان

وفيئة من هذه الملة جاءت ايضاً من قيچاق على طريق صحراء القريم وانتشرت في جهات اق صو وطورله والطونه وحاربت الرومانين مدة مديدة والبلاد التى سكنت فيها الفيئة المذكورة اشتهرت باسم راكيا وراجيا

ولم تنقطع مهاجمة هذه الطوائف على ايالات الدولة الرومانية ولذلك قام الامبراطور طرجان وهو من اشهر القياصرة بعساكر جرارة وصرف اوقاته واقداماته الى تذليل الطوائف المذكورة وتدويخها ثم استولى عليهم والحق ولاياتهم بولايات الدولة الرومانية القوية واقام بينهم بعض الايات من العسكر وخصص لكل بلك منها محلا باسم المسكن فاختلطوا بمرور الايام مع الاهالي فظهر قوم وسطاً بين الرومانيين وبين طائفة الداغ واشتهروا باسم رموني كما يدل عليه الان لسان سكان ايالات الافلاق والبغدان وبسارابيا وبوقو وينه واردل

وبعد انتقال مقر الامبراطورية الرومانية بمرور الدهور الى مدينـة القسطنطينية كانت هـدفا للخسائر والاغتصاب من طوائف الخزر وآوار

والبلغار وانكروس اي المجار وسائر الاتراك والتاتار الذين كانوا يغزون بلاد اروبا من شمالى اسيا مئات من السنين ولما تبددت غيوم هذه العشائر الوحشية قام الرومانيون المذكورون الذين كانوا التجأوا الى الجهات المنيعة من جبال قراپاق ونزلوافيها فوجا بعد فوج واقاموا نحو مائتى سنة يدافعون عن انفسهم ويصدون تعديات المجريين والبلغاريين

وفي قرب سنة ٦٠٠ هجرية قام (رادونغرو) وهو من مشاهير روساء المملكة واوقع بعساكر باتو خان احد السلالة الجنكيزية ما آل به الى الاضمحلال وقصبة باتو شاني التى بنيت في موقع تلك المحاربة العظيمة نسبة للخان المذكور لم تزل موجودة الى الان. وبعدهذه الوقعة صار رادونغرو (ويوده) اي حاكماً على البلاد الواقعة بين نهري الطونه والبروت وبنى مدينة تيرغوويج وجعلها مقراً للحكومة واذعن ميخال بسارابه لطاعته وهو رئيس طوائف رموني التى بين البروت والبحر الاسود وطورله

وقام رجل اخر من الروساء اسمه ميخال ايضاً وحكم البلاد المدعوة روموناجى وتحكم باسم (بانو) اى سردار وبنى مدينة قره يوه ولم تزل تلك الجهات معروفة حتى الان باسم بانات الافلاق الصغيرة وبعض نواحيها لم تزل الى الان في يد النمسا.

ولما كان رادونغرو هو الذي وضع اصول ادارة تلك الايالات ونظاماتها وقيد حكمدارية البلاد بشرط الانتخاب انتخب لمحله بعد ذلك ميخال بسارابه المذكور اعلاه

وبعد ان مضت مدة على هذا المنوال قام في خلال سنة السبعماية هجرية احد الروساء المدعو بغدان ومعناه في لغتهم (هبة الله) وجمع اليه اهالي مولداوه اي ولاية بغدان ومولداوه هى الجبال القاطنة فيها امة داق وبنى مدينة دوروخوي وانفرد باجراء الاحكام

وهولاء الروساء قد بنوا كنايس واديرة بقصد اخراج اهالي تلك البلاد من ظلمة التوحش وكان ذلك من الوسائل في مواصلة بطارقة القسطنطنية. ويروي ان العساكر التى ارسلها الافلاق لاعانة نقولا ملك الصرب في محاربة قوصوه يعنى كوسوه دمرهم سيف السلطان مراد خداوندكار

وفي اثناء انكسار شوكة سيزمان ملك البلغار في محاربة احمد باشا الغازي هاجمه بتروميرجه حاكم الافلاق واستولى على جهات سلستره وزيشتوي ودبريجه

وكان ازدياد قوة بتروميرجه حاكم الافلاق وقتئذ على هذا المنوال موجباً لخوف الملك سيزمان فبايع ملك ﴿ له ﴾ لصيانة ملكه من تسلط بتروميرجه المذكور

وفي شهر اذار سنة ٩٥٧ هجرية قام بتروميرجه من زشتوى وهجم على العساكر العثمانية ولما عاد مغلوبا بادراليه من خلفه لاوسلاس حاكم اردل التابع الى ملك المجار وقرب منه العساكر فاضحى في حالة اليأس فارسل الى السلطان يلديرم بيازيد في نيكيولي وفداً في طلب الامان فارسل له في ذلك التاريخ براءة عالية الشان وهى التى زعم الافلاقيون انها عهدة وضعت مملكتهم تحت شرط مع الدولة العلية مع ان تلك البراءة لم تكن سوى فرمان مشتمل على بعض المساعدات الممنوحة لهم وبعض المواد المكلفين بها من طرف الدولة العلية متبوعتهم وهاك خلاصة تلك البراءة

بمقتضى عواطفنا العلية الملوكانية نساعد ولاية الافلاق التى بقوتنا القاهرة دخلت اخيراً الى دائرة الانقياد والتبعية ان تكون ادارتها بحسب نظاماتنا ايضاً وان يكن حاكمها ماذونا باعلان الحرب وعقد الصلح وسياسة التبعة وان النصارى الذين دخلوا في الدين المحمدي ثم رحلوا من ممالكنا الى الافلاق فعند تنصرهم مرة اخرى لا يصير الاصرار على قبول استردادهم وان الحكام حيث انهم من الملة العيسوية فلا بد ان يكون انتخابهم بمعرفة الاساقفة والبوياران وبحسب آثار الطافنا العلية السلطانية قد جرى قيد حاكم المملكة المذكورة رعية في دفتر رعايانا واشترط عليه ان يؤدي في كل سنة الى خزينتنا الخاصة ثلاثة الاف غرش من غروش المملكة اي خمس مئة غرش من سكتنا حرر في شهر ربيع الاول سنة ٧٩٥.

فالخمسمائة غرش المذكورة هى من غروش الاسدية قيمتها خمسون اقچه والذهب اليالدز في ذلك الوقت قيمته ستون اقچه وعلى ذلك تبلغ الخمس مئة غرش المذكورة في يومنا هذا اربعماية وستة عشر ذهب يالدز وكسور

اقجه وبحساب صاغ المعاملة تبلغ قيمتها اثنين وعشرين الف غرش وكسور
غير انه نظراً لقلة المعادن في ذلك الوقت فتكون قيمة النقود بالنسبة للاشياء
وبالنظر لاخراج المعادن العظيمه في تلك الاقاليم بعد اكتشاف امريقاوورود
كثير من الذهب والفضة ففى التطبيق تبلغ الزيادة اكثر من خمسة اضعاف
الرائج وقتئذ فاذا نظر للمبلغ المذكور بعين الحقيقة نجده يقوم مقام مائة
وعشرين الف غرش فى ايامنا الحاضرة

وعلى الصورة المذكورة تقرر ارتباط ايالة الافلاق في ممالك الدولة العلية
غير ان الافلاقيين كانوا يرون هذا الارتباط كمقاولة اتفاقية ولذلك اقدم
بترومیرجه بعد ذلك على توسيع قلعة سلستره من غير اذن من الدولة العلية
واصر على ذلك فمست الحاجة لسوق العساكر عليه وفي وقعة نيكبولي المشهورة
وجدت عساكر الافلاق في معية المجريين ثم ان موسى چلبي اغرى الافلاقيين
على الخروج عن طاعة چلبي سلطان محمد وفي حصار بلغراد وفي معركة
وارنه العظيمة وفي حرب قوصوه الثانية كان المذكورون في عداد اعداء
السلطان مراد الثاني كما هو مذكور في التواريخ المشهورة

وفي تلك الايام سنة ثمانمايه وعشرين هجرية في اواخر حكومة ميرجه
نزلت طائفة النوَر المعروفة باسماء سند رومى ومولتاني وررومس من اطراف
دشت قبچان والقريم الى سواحل الطونه واتخذ اكثرهم السهول وعلى الخصوص
جهات بكرش مسكناً لهم فساقهم ميرجه لبعض الصنايع كالحدادة وسوق
المركبات وكان يسعى في قطع ايديهم من السرقة وبمرور الزمان اختلط اكثرهم
باهالي الافلاق. والقليل منهم ايضاً عبروا الجبال وانتشروا في بلاد اردل والمانيا
وعلى الخصوص بلاد چه اي بوهيميا ومن هناك ذهبوا الى ممالك اوروبا
الغربية ولهذا يلقبون حتى الان في بعض الاماكن بالبوهيميين وطائفة من
هولاء نزلت في جبال بلخ ومازندران وبلاد الارمن والاكراد الى جهات
بر الشام ومنها الى مصر وبعد ان استقروا هناك مدة اجتازوا الى اسبانيا
وايتاليا مارين اليها من ممالك افريقيا الشمالية وذلك يقال لهم القبط في تلك
الجهة ولغاتهم جميعاً قريبة من بعضها شبيهة باللسان الذي يقال له الان في
الهند لسان الرومى واما القبط فهم من القديم من اهالي مصر وهم مغايرين

ومباينين لهم من وجوه

وقد نقل ان سبب خروجهم من بلاد الهند وانتشارهم هو انهم كانوا في الهند يشتغلون الصنايع الخسيسة وكانوا شعبة من الطوايف المحتقرة المكروهة عند سائر الطوايف وكانوا يتجولون امام عسكر تيمور وخلفه فكان خروجهم من مواطنهم الاصلية على هذا النمط وبهذا السبب تفرقوا في جهات مختلفة والذين نزلوا في جهات الافلاق والبغدان تعاطوا اولا الصنايع التى يعرفونها وبتداول الايام صار اصحاب الاراضى والحوانيت يستخدمونهم استخدام العبيد والمماليك وما برحوا الى الان في الاسترقاق ابا عن جد والى يومنا هذا يبيعونهم كالقطيع لاكن لم يعرض خلل في افكارهم وعاداتهم التى هم عليها منذ الوف من السنين ولم يتعلموا القرأة والكتابة ولم يتبعوا ديناً من الاديان بل انهم في اي بلاد وجدوا اذا لم يروا فيها حرية في امر الدين يتبعون ظاهراً الدين الذي عليه اهل ذلك المحل ولاكنهم لا يرتجعون في الحقيقة عن ما هم عليه ولنرجع الى ما كنا بصدده فنقول

ان الافلاقيين لما لم يستقروا على وجه الطاعة كما تقدم البيان ساق عليهم حضرة السلطان محمد خان الفاتح الجيوش في سنة ثمانماية وخمس وستين ولما علم (ولا دد راقول) حاكم الافلاق حينئذ بانه عاجز عن المقاومة طلب تجديد التبعية وتعهد بان يدفع سنويا جزية قدرها عشرة الاف ذهب يلدز ثم طلب بغدان حاكم مولداوه في تلك الايام قبول تبعيته ايضاً غير ان حكام المملكتين خافوا من ان ولاياتهم تحول بتمامها الى هيئة سنجق فتنزع الحكومة من ايديهم ولذلك لم ينفكوا عن الشقاوة والعداوة اثناء مهاجمات العدو الواقعة على الدولة من تلك الجهات وبناء على ذلك كانت تصدر الفرمانات وقتاً بعد آخر لاجل ترتيب مجازاتهم وترسل القوة العسكرية ثم تجدد لهم فرمانات العفو والامان ومن جملة هذه الفرمانات الامر العالي الذي صدر في زمن السلطان محمد خان الرابع ايضاً وكان السلوك على موجبه فيما بعد

وفي اواسط نيسان من سنة ٩٢٣ هجرية مات بغدان المذكور وولى ابنه استفان حاكماً في محله وفي اواخر شهر ايار من سنة ٩٢٧ هجرية لما شاهد استفان المذكور ظفر العساكر العثمانية التى دخلت الى الافلاق وراى تاخر

بعض حكام اروبا الذين كانوا عاهدوه واتفقوا معه على المعاونة عرض حينئذ تجديد تبعيته فالبسه حضرة السلطان مكافاة له قلبقاً معمولا من اللباد الابيض بريش ابيض نظير قلبق كبير الانكشارية وكانت بكوات الافلاق تلبس القلبق الاسود فتكدروا وحزنو واضاعوا حق تقدمهم بحيث انهم امسوا دون بكوات البغدان ولذلك ما زالت بكوات البغدان الى الان تتقدم فى المواقع الرسمية على بكوات الافلاق والحاصل ان حكام الافلاق كانوا تارة يعلنون التبعية وتارة يتظاهرون بالعصيان ثم ان (شربان ودده) المشهور وهو من عائلة (قانطه كوزن) بسبب المخابرة مع النمسا وله في اثناء حصار ويانا الثاني عندوقوع رجعة العسكر الهمايونى خطر في وهمه ان ياخذ للنمسا الجهة الثانية من ضفة الطونه ويضم لهم ممالك البوسنه والصرب والبلغار وان ياخذ لدولة (له) القطعة التى هى من نهر بروث الى القرم وان يكون هو قيصراً في القسطنطنية ثم ان (برانقوانو بسارايه) خلف قسطنطى برادا واظهر رسما تبعيته الى امبراطور المانيا وجعل ضرب السكة باسمه ورتب لنفسه ايضاً ما هو مختص بالملوك كالمهترخانه والتوغ واظهر بهرجة الاستقلال التام وكذلك ديمترى حاكم البغدان وهو من نسل قانتمير خان استماله بطرس امبراطور روسية فعقد معه عهداً وجعل بلاده تحت حمايته وفي سنة ١١٢٥ هجرية اضطره الامر الى الفرار والخروج من الايالة مع عساكر الروسية. وحيث لم يبق اعتماد ولا امنية في البويارين الوطنين ورات الدولة انه من اللازم انتظام المملكتين وتامين رفاهيتها وبعد ان انتهت وقعة السلطان احمد في دار السعادة وتجدد فتح ابواب الحرب على النمسا خلال سنة ١٢٨ نصب (نيقولا كى ماوروقورداتو) ترجمان الديوان الهمايوني حاكماً على الافلاق ونصب (ميخال راقوديجه) من اعيان ملة الروم حاكماً على البغدان . وبهذا الاسلوب انتقل الحكم من البيوياريين الوطنين الى الفناريين يعنى الى المعتبرين من ملة الروم الموجودين في دار السعادة وبالاخص القسم الموجود في خدمة ترجمانية الديوان

وتعيين الحكام من الفناريين وان يكن اوجب توسيع الحكمدارية ولوحظ انه من حقوق حكومة الدولة العلية بموجب استيلائها فان الروسيين استفادوا فوائد كثيرة من ذلك وفي اثناء ذلك اختل نظام الدولة لانه بسبب عدم انقياد الانكشارية

في تلك الاثناء وكان وكلاؤها ورجالها يعزلون ويبدلون فى مدة قليلة والمنصوبون يبادرون لتبديل حكام المملكتين طلباً للمنفعة . والحكام ايضا تصدوا الى المظالم والتعديات على الرعية لاجل ان يحصلوا المبالغ التى صرفوها في دار السعادة والدولة العلية عندما كانت تقف على ظامهم وتعديهم لاتجوز التوقف في تاديبهم واختلف احوال الحكام في ذلك فكان بعضهم يولى ويعزل قبل ان يمر عليه سنة وبعضهم ينكل ان فعل مثل ذلك ويؤدب بانواع العقوبات وبناء على ذلك ارادوا في اول الامر ان يتداركوا امرهم ويهيئون لهم ملجأ يلتجئون اليه ويكتسبون به القوة على اخصامهم ورقبائهم الموجودين في دار السعادة فكانوا يعرضون بعض خدامات خفية الى الروسين لاجل ان يستفيدوا من نفوذ الروسية التى كان نفوذها يتوسع يوماً فيوماً في تلك الجهات

والحاصل ان الفناريين رأوا ان من مقتضى المصلحة ان يتحاشوا جانب الروسية فكان بعضهم يجري ذلك اضطراراً وبعضهم كان صديقاً لها فى الباطن فكان يجب في هذه الحالة على الاعيان الذين كانوا اركان الدولة ان يجروا كمال الدقة والاهمية في امر انتخاب ولاة المملكتين ولكن بلاء الرشوة والارتكاب احدث في الوجود خطأ واخطاراً كبيرة جداً

وكان اهالي المملكتين ينظرون الى الفناريين بنظر الاغيار الملتزمين وفضلا عن تشكياتهم الدائمة من مظالمهم الواقعة فقد كانت عساكر الدولة العلية ومامورها الذين يترددون الى المملكتين في تلك الاوقات يؤذونهم ايضاً ويجورون عليهم بزيادة فضعفت طاقة الاهالي المرقومين واصبحوا آيسين من تغيير هذه الاحوال فمالوا حينئذ الى روسيا واتخذوها حامية لهم والحاصل ان انتقال حكم المملكتين الى الفناريين كان سبب خرابهما وتنفير اهاليهما وبالنهاية ادى الامر الى وقوعهم في حضن العدو

وفي حرب الروسية في سنة ١١٨٢ لما اهتمت الروسية لجلب الرعايا وبذلت البيضاء والصفراء في سبيل استمالة اهالى الموره وبلاد الارناوط ليكونوا حلفائها وارسلت جاسوساً اسمه ديرمانوس في هيئة راهب الى المملكتين فالمذكور اضل الاساقفة والمطارنة وسائر الرهبان وادخل عليهم الغش بما

كان يلقيه عليهم من بيان ظلم البكوات وحماية الروسية ولطفها بهم .
وعند ما كانت عمارة اورلوف اميرال روسية تقع منها اضرار عظيمة في سواحل البحر الابيض سار اهل القرى في جهة المملكتين ايضاً واخذوافي حرق البلاد المجاورة لهم والضياع ويفعلون افعال اللصوص وقطاع الطريق واضروا بالعساكر السلطانية التى مرت الى جهة الافلاق ثم لما استولت الروسية على قلعة خوتين رفع اهالي المملكتين معاريضهم الى قاترينه امبراطورة الروسية يتشكون بها من حالة الفقر والفاقة ويتضجرون من ذلك وقاترينه وقتئذ كانت تترقب وسيلة للمداخلة فى امور المملكتين لتقوية نفوذ امرها هناك فادخلت في معاهدة قينارجه بعض الشروط في جانب اهالي المملكتين التى تسميهم اخوان الدين وفي حق المفسدين الذين مشوا على هواها خفية وجهاراً

وفي الواقع ان حال الفقراء والعجزة هناك كان يرثى لها وذلك لسبب ظلم بكوات الفناريين وتعديهم ويظهر من دفتر المصاريف المدرج في ذيل هذا الجزء تحت اشارة (ى) كيف كانت تنفق واردات ايالة الافلاق البالغة اثنين وعشرين يوكا ومصاريف ايالة البغدان البالغة ايضاً اربعة عشر يوكا

(الفصل العاشر)

﴿ في البلاد العربية وما حواليها ﴾

ان اكثر الوقائع التى سنذكرها ادناه تتعلق بجهات البلاد العربية وهي منبعثة عن اسباب تاريخية مسلسلة متصلة من القديم وقد استنسبنا ان نبين احوالها السابقة واللاحقة اجمالا مبتدئين بذكر الوقائع المصرية السالفة لان اهم هذه الوقائع كان ناشئاً عن احوال ولدتها مصر القاهرة المسماة ام الدنيا وحاملة مواليد الفتن

اصل البلاد العربية جزيرة العرب ثم ان الملة العربية الممدوحة لمَّا اتحدت وكانت على قلب واحد بالوحدة الاسلامية هجمت اعلاءً لكلمة الله على البلاد الخارجة عن جزيرتها وضمت اليها بلاداً كثيرة كمصر والشام والعراق واطلق على الجميع في لساننا عربستان اي البلاد العربية

(اوائل احوال مصر)

ان سكان مصر قديماً هم امة القبط وكان يطلق على حكامها اسم فرعون وفرعون موسى عليه السلام من اولئك الفراعنة ولم تمكث الدولة القبطية الاصلية الا مدة قليلة وانقرضت ودخلت تلك الامة بعد ذلك تحت حكومات غريبة فانقاد القبطيون قرنا بعد قرن لحكومات قاهرة من غير قومهم

وبعد ان فتح حضرة عمر رضى الله عنه بلاد مصر استمرت ادارتها مدة طويلة تحت امر الخلافة ثم ظهرت فيها دول بالاستقلال. منهم الدولة الرافضية وبعد ان شاع مذهب الرفض زمناً طويلا في مصر ظهرت الدولة الايوبية فرفضت البدع ومحت التشيع واسست في مصر شعائر اهل السنة والجماعة واحيتها ثم انها قهرت الصليبين الذين استولوا على السواحل الشامية ودمرتهم

وكانت مدة هذه الدولة احدى وثمانين سنة اول ملوكها الملك صلاح الدين وآخرهم شجر الدر زوجة الملك الصالح واول من اتخذ المماليك في مصر ورتب منهم العساكر المستقلة هو الملك الصالح المذكور وكان انقراض الدولة الايوبية على ايدي هولاء المماليك وهو انه عند ما توفي الملك الصالح وصار ابنه توران شاه سلطانا في موضعه لم يلتفت لعسكر الكُولَهْمَنْ اي المماليك الذين رتبهم ابوه ونفروا منه وقتلوه واجلسوا والدته شجر الدر في محله وبعد ثلاثة اشهر خلعوها وقامت في مصر الدولة التركية

وبعد ان حكم السلاطين الذين تولوا من هولاء المماليك في مصر مدة ظهر منهم سنة ستمائة وثمانية وسبعين الذات المسمى قلاوون واستولى على بلاد مصر ولقب نفسه بالملك المنصور ورتب الدولة القلاوونية

واستمر حكم هذه الدولة القلاوونية في مصر اكثر من ماية سنة وانقرضت كالدول التى قبلها. بفتنة المماليك وذلك ان الملك الاشرف القلاووني لما رأى كثرة فساد المماليك وشقاوتهم وطغيانهم اجلاهم عن مصر فاجتمعوا وتظاهروا بالعصيان وتقدموا لحربه فغلبهم وهزمهم وقتل منهم جماعة ونفى اخرين والباقون منهم استامنوا والتجاوا الى بعض الامراء في مصر. فهولاء

المماليك اخلاطهم من امم مختلفة انما اكثرهم من الجركس وبهذه الوقعة سقطوا عن النظر والاعتبار وصاروا في مصر في غاية الاحتقار ولشدة غضبهم وحقدهم على الدولة القلاوونية كانوا يترقبون الفرصة لاخذ ثارهم منها ومع اضمحلال امرهم وكونهم اوزاعا عند الامراء. كانوا في الباطن متحدين وكان بعضهم في صحبة سلطانهم الملك الاشرف ثم انهم انتهزوا الفرصة وقتلوه وبعد ان كانوا ثقلاء على الناس محتقرين بينهم صاروا خفافا اعزاء موقرين كلمتهم نافذة وامرهم مطاع اكثر من سائر الامراء وحصروا المنافع والنفوذ في مصر لانفسهم. ولكن بقيت احوال مصر على ما كانت عليه من الاختلال ووقعت حروب كثيرة واتصلت الى ان قام برقوق الجركسى فسكن الثورة وقهر الجميع وغلبهم وبعد ان استقل بامور الحل والعقد خلع ابن الملك الاشرف واخذ السلطنة لنفسه

فكان برقوق المذكور اول ملوك الجراكسة واستمرت سلطنتهم فى مصر نحو مائة وثلاثين سنة له ولاولاده واحفاده آخرهم الغوري الذي قتل في محاربة حضرة السلطان سليم وانقرضت دولة الجراكسة وصارت حكومة مصر يعين حكامها من لدن الخلافة العثمانية كما كان من قبل في وقت الخلفاء الراشدين ولكن تشغيب المماليك لم ينقطع بالكلية بل تجدد الجدال بين الامراء المصريين الذين ظهروا من المماليك . وبعد ايام السلطان سليم انقسم اولئك الامراء والعساكر المصرية الى فرقتين فقارية وقاسمية وبظهور هذه العادة الجاهلية والبدعة الشيطانية لم تخل هاتين الفرقتين من الحرب والجلاد وايقاد نار القيل والقال مدة مديدة وسبب ذلك حسبما هو محرر في بعض تواريخ مصر ان حضرة السلطان سليم بعد ان فتح مصر واستأصل امراء الجراكسة قال يوماً في ديوانه الهمايوني يا هل ترى بقى احد من الجراكسة لم نظفر به وكان في ذلك المحضر الهمايونيّ خيره بك فقال نعم افندم في مصر رجل يسمى سودون بك من اهل الصلاح الى الغاية ومن مدة لازم بيته واختار العزلة والانزواء وله ولدان احدهما يسمى ذو الفقار والثاني قاسم وهما على غاية من الشجاعة والقوة والمهارة فى امور الحرب بحيث انهما ليس لهما قرين في ذلك وقد حبسهما معه في بيته ومنعهما من الخروج والاختلاط مع

الناس. فقال حضرة السلطان سليم لا بد ان يكون هذا الرجل مستيقظاً وملاحظاً عواقب الامور فلنذهب حالا لزيارته ونستفيد من نصائحه وفي الحال توجه في جماعته لبيت سودون بك فوجدوه يتلو القرأن الكريم وحواليه طائفته من اتباعه وخدمه وحشمه يخدمونه فعند مافهم سودون بك بانه السلطان سليم قام في الحال مرتاعاً مهتما باداء واجبات العبودية فالتفت اليه السلطان ولاطفه واعطاه الامان وامر له بالقعود في حضرته وساله عن سبب اعتزاله وانزوائه فاجابه بان دولتنا اختلت امورها وسلطاننا لم يعمل براي العقلاء والمدبرين وقتل اكثر اعيان دولته ووجه مناصب الكبراء الى المماليك فاخذوا الوجاهة وسلكوا مسالك الفساد والاعتساف وظلموا الفقراء فاعرضت الرعايا والفقزاء عن السلطان لهذه الاسباب وتوجهوا بقلوبهم الى حضرة الحق تعالى بالتضرع فعندما رايت هذه الاحوال علمت وجزمت بان هذه الدولة ستكون موآخذة من طرف الله تعالى وتقع في عدل الانتقام الالهى واعتزلت في الحال ولخوفي من البلية الملحوظة منعت اولادي ايضاً عن الاختلاط بالناس. ثم استحضر السلطان سليم ولدي الامير المذكور فرأى على وجوههم علائم البسالة والجسارة فلطفهما واكرمهما واحسن اليهما واقطعهما بعض اراضى لها واردات. وفي اليوم الثاني خرج الى الصحراء ودعا كافة الامراء والعساكر وجاء الامير سودون وولداه ايضاً فامر السلطان سليم قاسما واخاه ذا الفقار ان يركبا ويظهرا ما يدل على الفروسية فركبا الخيل واظهرا من المهارة في الفروسية ما ادهش الناظرين واستدعى استحسان الموجودين وخصوصاً العثمانيين فانهم زاد تعجبهم من ذلك فالبسهما السلطان الخلع واظهر احترامهما. وبعد ذلك بيوم جمع حضرة السلطان سليم العساكر في هيئة حربية وجعلهم فرقتين فرقة رئيسها ذوالفقار بك وفرقة رئيسها قاسم بك ثم ميز بعضهم من بعض بالالبسة فالبس الفرقة الفقارية اثوابا بيضاً والفرقة القاسمية اثوابا حمرا ثم امر بهجوم احدى الفرقتين على الاخرى كالمتحاربين حقيقة فتقابلوا بالهجوم وثار الغبار فتقارعت السيوف وتصادمت الرماح وصارت تلك الصحرا ميدانا لحرب حقيقية وصارت فيها الصفوف كانها صحيفة مسطرة واشتدت الحماسة من الفريقين وكاد الامر

ينقلب من الهزل الى الجد ويؤول الى قتال عظيم

ولولا انهم تربصوا قليلا لكان ذلك اليوم يوم قتال وجدال وبينما هم في هذه الحال اذنادى المنادون بالامر السلطاني ان يفترقوا وينفصل بعضهم عن بعض وبعد جهدجهيد تيسر انفصال تينك الموجتين بل البليتين عن بعضهما بعضاً وتكونت من هذا الامر ضغائن بقيت في الطرفين الى ان صار الامراء والعساكر المصرية الى فرقتين يقال لهما فقارية وقاسمية فالفقارية كانت تميل الى اللون الابيض والقاسمية الى الاحمر وكل واحدة كانت تحب لونها وتنفر من اللون الاخر والفقارية كانت ميالة الى العثمانين والقاسمية الى المصريين ودخلت هذه الغيرة الجاهلية فيما بينهم وصارت في حكم عادة لاتتغير وكل طائفة كانت تراعى لونها حتى في المآكل فضلا عن الملابس وكان ملتزماً عندهم ان تكون بيارق الفقارية بيضاء وبيارق القاسمية حمراء وبسبب هذه التفرقة تلفت نفوس كثيرة واشخاص كثيرة راحت هدفا لسهام البلاء

واختلفت الاراء وانقسمت المناصب بين هاتين الفرقتين فامير الحج مثلا يكون من الفقارية والدفتردار من القاسمية ورأس المتفرقة من الفقارية وكتخدا الجاويشية من القاسمية وفي بعض الاحيان بداعى تغلب احدى الفرقتين على الاخرى كان يقع بينهم قتال عظيم .

واستمر امرهم على هذه الاحوال المشوشة الى سنه الف وماية واثنين واربعين وفي ذلك التاريخ الذي هو سنة خلع السلطان احمد وقع بين هاتين الفرقتين حرب كبيرة وفي النهاية كانت الغلبة للفقارية فاستأصلوا القاسميين وما بقى منهم من السيوف . منهم من فر الى الشام وبلاد الروم ومنهم من فر الى الصعيد واختفى هناك . وبسبب ذلك اختصت الفرقة الفقارية بامارة مصر بوجه الحصر والاستقلال ثم تفرقت كلمتهما بعد ذلك لاوهام ومنازعات في الاسماء والالقاب وآل امرهم الى الحرب والجدال . واتحاد هذه الفرقة الفقارية واتفاقها كان ناشئاً عن غيرة جاهلية في مقابلة للقاسمية . ولما اضمحلت الفرقة القاسمية زال ذلك الاتحاد والاتفاق بينهم وصاروا فرقا شتى وكل فرقة تطلب النفوذ والاستقلال لها ودخلوا ميادين القتال والجدال .

وعند مـا كان راغب باشا المشهور والياً في مصر سعى فى اصلاحهم فلم يتيسر له ذلك . وفي سنة مماية واحدى وستين شغبوا عليه وعزلوه عن الولاية . وكان هولاء الامراء لا يخلو لهم وقت من قتل بعضهم بعضاً غيلة واستمرت الحال جارية على ذلك الى سنة ثمانين ومائة . وفي تلك الاثناء تغلب علي بك المشهور الذي يقال له (بولوت قپان) بمعنى خاطف الغيم على اخصامه وحصر المناصب المصرية في جماعته . وقتل كثيراً من خصمائه بيد احد مماليكه وهو محمد بك ابو الذهب الشهير واكتسب الاستقلال في الاقطار المصرية . وكان يشتري كثيراً من المماليك ويهتم بتربيـة كل منهم ويدخله في سلك الامراء وعندما وجه منصب الامارة على اسماعيل بك الذي كان خزنداراً له نصب محمدا ابا الذهب المذكور في محله ولما كان مدبراً شجاعا فلم يمر وقت قليل حتى اعطاه الامارة وقدمه على سائر الامراء وسبب شهرته بابي الذهب هو انه عندما لبس في القلعة خلعة الامارة فرق البخاشيش على الجميع ذهباً ونثر الذهب على الفقراء في الازقة وكان في نفسه سمحاً سخياً ولم يخل من التصدق والاحسان بالذهب دائماً فصار لذلك معروفا بابي الذهب . وبالجملة فقد كان طالعه سعيداً ولم ير مغلوبا في معركة قط . وبناء على ذلك كان ذا شان في الانظار العمومية وكان عند مولاه علي بك ايضاً في غاية القبول والاقبـال

وكان احمد باشا الجزار المشهور في ذلك الوقت من روساء الامراء المصرية ايضاً وكان علي بك يوليه اموراً كثيرة الاهمية من اموره مع ابي الذهب . وكان يعدم على ايديهما كل من خالفه . وبناء على كون حسن بك احد الامراء المصرية جزم انه ما دام فى قيد الحياة لا يترك علي بك يتم داعية استقلاله قتله ايضاً بواسطة ابو الذهب والجزار . وقـد بقي من الامراء احدهم وهو صالح بك وكان علي بك يحترز منه وكان عقد معه ايمانا وعهوداً ومواثيق على انه لا يحصل من احدهما غدر واهانة للثـاني وبذلك حصل منـه على الاطمئنان ايضاً . ولكن لما كان صالح بك في الطبع يكون شريكا له فى النفوذ والادارة اشرأبت نفسه لازالته ليكتسب بذلك تمام الاستقلال والاستبداد . فامر الجزار وكان من الامراء الباسلين الجسورين

ان يكون مع ابي الذهب يداً واحدة في قتل صالح بك فامتنع الجزار من ذلك لقدم عبوديته ومحسوبيته على صالح بك . وبذلك انقلبت محبة الجزار لعلي بك الى العداوة واضطر الجزار الى الفرار من مصر . ولاجل ان يعلم تفصيل ذلك نوعا ما ظهر لنا ان نذكر ترجمة احوال الجزار واوائل امره على الوجه الاتي

(في اوائل احوال الجزار)

ان احمد باشا الجزار هذا اصله بوسنوى . وعندما كان عمره ثمانية عشر سنة جاء الى دار السعادة وبمناسبة كونه حلاقاً كان يتردد الى دائرة علي باشا حكيم اوغلي وفي سنة ١١٦٩ عند ماصار علي باشا المذكور والياً على مصر كان في معيته وبعد ان استخدم مدة في دائرته انتسب الى صالح بك السالف الذكر من الامراء المصريين وكان يذهب الى الحج وياتي معه ولم يكن من المماليك بل من طائفة البشناق الذين هم اشجع واقوى طوائف الروم ايلي وفضلا عن كونه في ذاته جسوراً وجريئاً فانه اكتسب المهارة في فن الجندية فانشرح له صدر صالح بك وبالغ في رعايته . والبسه زي المماليك المصرية وصار معروفاً ببوشناق احمد وبعد مدة انحاز الى عبد الله بك من الامراء وعند ما توجه لتاديب عرب الهنادي القاطنين بالبحيرة توجه معه ولما قتل عبدالله بك في المحاربة نصب بوشناق احمد هذا حاكماً على قرية في البحيرة من طرف ذي الفقار كاشف فكان كلما صادف احداً من عرب الهنادي يقتله ويعدمه وقتل اربعة من كبرائهم وقال هذا انتقام لسيدي وكان يرسل رؤوس من يقتلهم الى مصر فلقبوه لذلك بالجزار بمعنى القصاب وصار مشهوراً باحمد الجزار ولما بلغ علي بك احوال احمد وشهرته هذه استحضره من البحيرة الى مصر ونصبه والياً .

ويعنون بالوالي في اصطلاحهم مامور امور الضابطة وفي ماموريته كان يطوف داخل البلد ليلا ونهاراً وكل من صادفه من الدعار والذين يجرون سوء الادب يحبسه ويؤدبه ويضربه على مقتضى وظيفته وماموريته .

وهذه الخدمة التى اجراها الجزار في هذا الباب كانت مقبولة عند علي

بك ولذلك وجه اليه الامارة وجعله صاحب سنجق وصار يقال له احمد بك الجزار وصار معدودا من روساء الامراء المصريين

والحاصل ان الجزار حول صنعته من الموسى الى اعمال السيف وصار ممتازاً بين الامراء المصريين فجعل اليه علي بك مهام اموره مع ابي الذهب ثم عينهما لقتل واعدام بعض الامراء على قصد ازالة الرقباء ورفع الشركاء وعلى المنوال السابق امرهما بقتل واعدام صالح بك وعندما اعتذر بانه لا يجري فيه سوءاً لرعاية حق الخبز والملح وما ناله من احسانه غيَّر علي بك الكلام وقال له حياك الله ياجزار انا مرامى ان اجربك وامتحنك وقد صارت صداقتك عندي ثابتة ولكن الجزار لم تحصل له امنية بذلك وبعد ان خرج من عنده توجه الى دار صالح بك وافاده خفية ما وقع فاستبعد ذلك صالح بك وقال ان علي بك اخى لا اصدق ابداً بانه يجري في حقى سوءاً وذلك نظراً للعهود والمواثيق المعقودة والمستحكمة بيننا منذ حال البداية. وفي اليوم الثاني جاء علي بك الى دار صالح بك وفي اثناء الموانسة قال له هل احدثك كيف جربت ابا الذهب والجزار في حقك واقنعه بالكلام من جملة اوجه وقال له كما انى جربتهما في حقك انت كذلك يلزمك ان تجرب رجالك في حقى وجعل واقع الحال على وجه اخر فصدقه صالح بك ثم بعد ذلك استحضر ابا الذهب وقال له الذي يلزمنا الان هو راحتنا من صالح بك والجزار معاً واحال له امر اعدامهما وقتلهما فاصبح ابو الذهب مترقباً لوقت الفرصة فوقعت له فرصة في احد الايام بقربه من صالح بك فسل سيفه وقتله وتفرق مماليك صالح بك شذر مذر وكان الجزار موجوداً معهم في هذه الواقعة وكان الملحوظ منه لفرط جسارته وجراءته انه تحرك قبل كل احد فلم يتحرك بل وقف على الحيادة حتى ان بعض حلفاء علي بك عاتبه في ذلك . وفي اثناء ذلك استل ابو الذهب سيفه وجعل يمسحه ثم قال للجزار ارني سيفك لاراه هل هو نظير سيفى ام لا واخفى ما كان يامله من غيلته وغدره واخذ في حال الكلام ان يقترب من الجزار لياخذ سيفه منه ويعدمه به فالجزار ادرك ذلك واحس به فقال له سيفى لا يخرج الا في وجه العدو وتغير وجهه وانسل لطرف آخر فصار يضحك ابو الذهب وجعل يمازحه

وبهذا الامر صار الجزار عديم الامنية وخرج في تلك الليلة من بيته وتوجه
الى الاسكندرية في زي مغربي واوصى اهله انه اذا سئلوا عنه يقولون انه
مريض رجاء ان يكون ذهابه في غفلة من اعدائه فياخذ مدة قليلة ولو
يوماً او يومين يصل فيهما الي الاسكندرية فعمل اهله بما اوصاهم به
وبعد ايام عُلم فراره وشاع ثم اتبعه الجند ليمسكوه في الطريق ولكن
كان في تلك المدة وصل الى الاسكندرية وفي الحال ركب في مركب حربي
وكانت عادة اهل المراكب في ذلك الوقت لا يمنعون احداً من الركوب ولايخرجونه
بعد ركوبه فجاء الجزار الى دار السعادة . وقضيته هذه كانت في سنة
١١٨٣ ثم بعد ذلك طاف وجال في داخلية الاناطولي في غاية السفالة ثم
توجه الى حلب ومنها الى الشام وسنبين ذلك فيما ياتي ولنرجع الان الى ما
كنا بصدده من ذكر احوال مصر

ذكر نهاية حال على بك

بعد قتل صالح بك وفرار الجزار أمن علي بك ولم يبق في مصر من يخافه
ويحترز منه واستولى على كافة البلاد المصرية وصارت في قبضة تسخيره يتصرف
فيها كيف يشاء وكان عند ما يسمع اخبار الجراكسة يقول هم كانوا مثلنا
مماليك فصاروا ملوكا وكان يطلق على نفسه انه الملك برقوق وعلى تقدير انه
بالدسيسة التى اكتسبها كان معادلا لبرقوق فلا يصح ان تقاس الدولة
القلاوونية بالسلطنة السنية في شرفها وعظم شوكتها وشأنها. ولم يدرك هذا
المجازف ان كثيراً من امثاله غلبت عليهم الشقاوة فعصوا الدولة العلية ثم وقعوا
في شرك العقاب والجزاء الذي يستحقونه . وعندما تخيل علي بك المحال في تجديد
دولة الجراكسة في مصر كانت الدولة العلية مشغولة في حرب الروسية فوجد
الميدان خالياً وكان الروسيُّون يغرونه ويضلونه . ولذلك خرج عن طاعة
الدولة وعصى اوامرها وعزل محمد باشا والي مصر وانزله عن منصبه ثم قتله
مسموماً ولم ترسل الدولة بعده والياً الى مصر مدة اربع سنين . وفي تلك الاثناء
كانت شقاوة علي بك تزداد على التوالي وفي سنة ١١٨٤ ارسل العساكر الكثيرة
مع ابي الذهب وجداوى حسن بك الى الاقطار الحجازية فضبطها واستولى

عليها وارسل ايضاً العساكر الوفيرة مع اسماعيل بك لاجل الاستيلاء على بلاد الشام

وبعد رجوع ابي الذهب من الحجاز جهزه بالعساكر الكثيرة والقوة الكاملة سنة ١١٨٥ وارسله ايضاً الى الشام وفي ذلك الوقت كان الطاهر عمر حاز الاستقلال واستبد فى بلاد الشام فكتب اليه بموافقة ابي الذهب فاطاع وارسل اولاده في العساكر الكثيرة ليكونوا في معيته ولدى ملاقاتهم مع ابي الذهب في صحراء يافا توجهوا جميعاً الى الشام وعند ما بلغ خبرهم الى كورجى عثمان باشا الذي كان والياً على الشام وعلم انه لا يقدر على مقابلتهم ترك الشام وذهب الى حماه واشتغل بجمع العساكر. فجاء ابو الذهب واسماعيل بك ومن معهم الى الشام واستولوا عليها واتتهم التحارير من طرف علي بك مبيناً بها ومشعراً لهما بانه لا يحصل منه قصور في كل ما يطلبونه من العساكر والمهمات ويامرهم بالتقدم

وكان اسماعيل بك في حد ذاته مصادقا للدولة العلية وكان يلاحظ عواقب الامور فجرى في فكره انه من المحتمل ان اباالذهب في هذه الدرجة يكتسب الشان والشهرة فيفوق ويحكم على الجميع ويصير هو ايضاً في حالة الاسترقاب فاخذ يحول عزم ابي الذهب ويغير ما في افكاره ويلقى عليه ان الدولة العلية لا بد ان تخلص من غائلة الحروب وفي ذلك الوقت يصير الحال مشكلا عندما تتوجه لنا بحالة الغضب وهل يجوز لنا عصيان سلطان المسلمين بل هذه الحال التى نحن عليها وسوسة شيطانية . وعلي بك كما تعلم قد سلك على غير مسلك الاستقامة فانه ترك الطريقة الاسلامية المعروفة واتبع قاترينه امبراطورة الروس مع ان الروسيين اعداء دولتنا العليـة ويجب على كل مؤمن موحد ان يحاربهم في كل وقت . الا تنظر الى جماعة الطاهر عمر فانهم قوم جبابرة فجرة. اما رايتم ابنه الشيخ علي الطاهر كيف ترك الادب وقعد فى حضور سعادتكم غير مراعى لمقامكم ولا مبالي ولا تقيد باجراء الاحترام اللائق في شأنكم . وايضاً فان رجاله لا يخلون من الفسق والفجور . وبمثل هذه النصائح المحققة حول افكار ابي الذهب . وقد نقل انهما عند مواجهتهما لامين الصرة الذي دخل الشام تلك الايام اعترفا له بانهما غير عاصيين على الدولة

وانهما كانا مجبورين على مجيئهما الى الديار الشامية وانهما لا يستقيمان بها بل انهما سيبارحانها وبواسطة امين الصورة المذكور اتصل قولها هذا بالدولة العلية . وكانت العساكر المصرية تعبت وبينما كانوا يتمنون الرجوع الى اوطانهم اذ جاءت التحريرات من علي بك يامرهم فيها بالتنقل في بلاد الشام وجهاتها واقامتهم مدة مديدة في ديار الغربة وباطلاعهم على ذلك حصل لهم الفتور

فجمع ابو الذهب الامراء والضباط وافهمهم جميعاً منطوق التحريرات الواردة من علي بك وهذا نص ماقاله لهم ان افندينا مراده ان يبقينا جائلين في ديار الغربة الى ان يحصل على مرامه ونحن قد ادينا ماهو مفروض على ذمتنا فكان يجب والحالة هذه ان نكون ماذونين في الرجوع الى ديارنا فانتم ماذا تقولون وعندما افادهم الحال بهذه العبارات المهيجة تحرك اولئك الامراء للعود الى اوطانهم وتمنوا القاء انفسهم في مصر لا سيما لما سمعوا لفظ الرجوع من ابي الذهب وجميعهم كانت قلوبهم وارواحهم في الوطن فقالوا له الامر لكم وبناء على انقيادهم لامر ابي الذهب فى الحال عاد الى مصر بجميع العساكر المصرية ولما اتصل خبر رجوعه بعثمان باشا وهو بحماه رجع الى الشام ودخلها بالسهولة . وكان الامير منصور الشهابي استمر حاكماً في جبل لبنان اربعة وعشرين سنة ثم انه لما بلغ سن الشيخوخة تنازل عن الحكومة باختياره لابن اخيه الامير يوسف وكان ذلك في اثناء مجيء ابي الذهب الى الشام فلما سمع الامير يوسف برجوع عثمان باشا الى الشام جاء اليه فاجرى له زيادة الالتفات والاحترام وتقررت عليه حكومة الجبل

اما علي بك فقد كان في امله توسيع ممالكه بتقدم ابي الذهب وعندما رجع تعجب من عودته على حين غفلة وعند استعلامه منه عن اسباب رجوعه اشتكى اليه من احوال واعمال اولاد الطاهر عمر ومن سوء افعال عساكرهم . فتكدر علي بك وكتب فى الحال مكتوبا الى الطاهر عمر كدره به وعند وصول المكتوب الى الطاهر حرر اليه الجواب واخبره ان ما اخبره به ابو الذهب ليس له اصل وان ابا الذهب بعد ان ملك الشام وخافت من سطوته المدهشة الخواص والعوام عاد الى مصر بدون سبب ثم ان الطاهر ارسل

ولده الشيخ عثمان الى مصر لاجل عرض الواقع شفاهاً . وبسبب ذلك نشأت البرودة الباطنية فيما بين على بك وابي الذهب وصمم على بك على قتله . وابو الذهب كان من قبل ذهابه الى الشام مقبولا عند الناس وكان انصاره واتباعه كثيرين. ثم انه لما توجه الى الشام كثرت جمعيته وتوفرت احزابه. وكان الناس كلهم في مصر يميلون اليه وينفرون من اعمال على بك . ولما حصل منه ما حصل نقم عليه علي بك وارسل اليه العساكر وهو في داره فاحاطوا به ليقتلوه ففر وتخلص من بعض اطراف الدار وتوجه رأساً الى الصعيد ورافقه جماعة من الامراء ثم انه جمع هناك عساكر كثيرة من الذين كان طردهم على بك ومن بقايا القاسميين فاتسعت قوته . فخاف لذلك على بك وجعل اسماعيل بك قائداً على العساكر وارسله الى الصعيد لتأديب ابي الذهب ولما وصل الى تلك الجهات وقرب من ابي الذهب اتحد معه وزحفوا جميعاً على مصر فلما اتصل خبرهم بعلى بك وعلم انه ولو جمع العساكر مرة اخرى فلا يمكنه ان يقابل جموع ابي الذهب لكثرتها فر حالا الى عكا وفي معيته الشيخ عثمان وجاء ابو الذهب الى مصر وضبطها وحرر واقعة الحال الى الدولة العلية ووصل هذا الخبر الى الاوردوي الهمايوني في شمنى في اوائل سنة ١١٨٦ وكان ذلك موجباً لزيادة الممنونية

وبعد ذلك جمع علي بك عسكراً في بر الشام في داعية الاستيلاء تكراراً على مصر ولهذا المقصد استدعى الى عكا الاسطول الروسى الذي كان في البحر الابيض وفي سنة الف ومائة وسبع وثمانين توجه قاصداً مصر بالعساكر الوفيرة وفي معيته اولاد الطاهر عمر وخرج ابو الذهب ايضاً من مصر في قوة كافية والتقى الفريقان في الصالحية فانتصر ابو الذهب واخذ على بك في المعركة اسيراً مثخونا بالجراحات وتلقاه ابو الذهب بالرعاية والاحترام لكونه سيده وولي نعمته وعين له اطباء لمداواته وبعد مدة سقاه السم فمات وعلم عند موته انه جوزي بما فعله من قبل بمحمد باشا والي مصر

وخلا الجو لابي الذهب واستقل بحكم اقطار مصر كلها وعرض انقياده وخضوعه للدولة العلية وارسل الاموال لدار السعادة وقام بمعينات الحرمين

الشريفين وبعثها لمحلها فقبل ذلك عند الدولة العلية. وبعد مدة وجهت الدولة العلية خليل باشا والياً على مصر. فجلس على منصة الحكم في مصر على العادة القديمة ولكن لم يكن له من الامر شيء بل كان النفوذ بالاستقلال لابي الذهب

وعلى هذه الحالة استقر امر مصر وصار كل انسان ممنونا ومستبشراً بحصول الراحة والرفاهية. وهكذا كان من شيمة ام الدنيا استعدادها في تربية كثير من مواليد الفقر كما يعلم من الوقائع الاتية ولما كانت هذه الوقائع المصرية مختلطة بوقائع بلاد الشام راينا من المناسب ان نبين اولا احوال تلك الجهات على وجه الاجمال

ذكر كيفية ادارة جبل لبنان الماضية والحاضرة واصول احكامه ورسومهم القديمة وعدد اهاليه واقسامهم

ان ايالة صيدا التى يقال لها بر الشام تنقسم الى سناجق متعددة وجبل لبنان لكونه داخلا في هذه الولاية ينقسم الى مقاطعات اي نواحي وقضاوات عديدة وكل مقاطعة منه تحتوي على كثير من القرى والقصبات ولكل مقاطعة عائلة تتصرف فيها وكلهم يكونون تحت حكم امير الجبل يعني الحاكم العمومى. وهو من امراء بنى معن وبعد انقراضهم ظهر بنو شهاب ووضعوا ايديهم على حكومة الجبل. وذلك بعد وفاة الامير احمد آخر بنى معن وهو ابن اخى فخر الدين المعنى الشهير. وسبب امارة بني شهاب على الجبل ان الامير احمد المذكور كانت له بنت متزوجة باحد بنى شهاب حكام وادي التيم اسمه موسى فاولدها ولداً سماه حيدر فورث امارة الجبل واستقل بها سنة ١١١٨ والامير حيدر هذا هو الجد الاول للامراء الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان مدة مديدة. وعلى يده اضمحلت الفرقة اليمنية لان اهالي الجبل في القديم كانوا فرقتين قيسية ويمنية ونظراً لما كان بينهم من العداوة الشديدة لم تخلو ايامهم من المحاربة والمنازعة. وفي الملحمة المشهورة التى وقعت بينهما في عين دارا في ايام الامير حيدر بن موسى من بنى شهاب انكسرت الطائفة

اليمنية واضمحل امرها وصار النفوذ في الجبل بايدي القيسية واختصت به دون اليمنية ثم حصل الامير حيدر في حكومة الجبل على الاستقلال التام . وبعد ذلك تنازع بنو جنبلاط يعنى اولاد جان بولاد وبين بنى العماد فمال بعض اهالي الجبل لهولاء وبعضهم لاولئك وانقسم اهل الجبل الى فرقتين مرة اخرى جنبلاطية يعنى اصحاب بنى جنبلاط والثانية يزبكية يعنى اصحاب بنى العماد نسبة الى جدهم الاعلى يزبك واستمرت العداوة واستحكمت حلقاتها بين هاتين الفرقتين فصار اهـل الجبل لا تخلو ايامهم من الحرب والجدال وبقى مشايخ الطـائفة النكدية في هذا الامر على الحيادة وبحسب الاغراض كانوا يميلون الى الفرقة التى يريدونها ومع وقوع هذه الامور كانوا جميعهم منقـادين الى الامير الشهابي حاكم الجبل

ثم توفي الامير حيدر الموما اليه سنة ١١٤٠ وخلفه في محله ولده الامير ملحم وفي ايامه اظهر المتصرفون في المقاطعات عدم الطاعة فاتصلت الحروب بينه وبينهم مدة حياته الى حين وفاته وهو وان يكن غلبهم جميعاً فان الاهالي لم تحصل لهم راحة فى ايامه وخلفه في محله بعد وفاته اخوه الامير منصور وبعد ان حكم في الجبل اربعة وعشرين سنة بالنفوذ التام استعفى من الحكومة نظراً لهرمه وكبر سنه وتولى في محله اخوه الامير يوسف ابن الامير ملحم

وفي الاصل كانت حكومة الجبل عبارة عن سنجق جبل الشوف الحاوي على سبع مقاطعات وهم الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب فمقاطعة الشوف تنقسم الى قسمين يقال لهما الشوف السويجاني والشوف الحيطى وكذلك العرقوب مع الغرب ينقسم الى قسمين يقال لكل منهما اعلى وادنى . وصار لفظ لبنان علماً لذروة هذا الجبل ثم اطلق على مجموعه

وفي كل مقاطعة من هذه المقاطعات عائلة ممتازة فكان في الشوف بنو جنبلاط وفي المناصف بنو ابي نكد وفي العرقوب الاعلى بنو العبد وفى العرقوب الادنى بنو العماد وفي الجرد بنو عبد الملك وفي المتن بنو اللمع وفي الغرب الاعلى بنو تلحوق وفي الغرب الادنى بنو ارسـلان وكان كل منهم متصرفا في مقاطعته وكان بنو ابى نكد يحكمون الشحار

وهولاء البيوت كافتهم دروز وبسبب استيلائهم على هذه البـلاد اطلق

عليها بلاد الدروز وربما قيل جبل الدروز ثم ان بني ابي اللمع تنصروا بعد ذلك وهولاء المتصرفون بعضهم امراء وبعضهم مشايخ ودرجة الامراء اعلى من درجة المشايخ ويوجد فيما بينهم فرق فى الرسوم والقاب الاحترام سواء كان ذلك في المعاملات او في التحريرات وبنو شهاب اعلى درجة من الامراء ثم يليهم بنو ابي اللمع ثم بنو رسلان.ثم سائر المشايخ وبنو مزهر ويقال لهم المقدمون في الدرجة الوسطى بين الامراء والمشايخ وفى المراسم يكون وقوفهم وجلوسهم احط من الامراء واعلى من المشايخ. وعند ما يتواجه احد الامراء او احد المشايخ مع حاكم الجبل فرسومهم القديمة على هذا الترتيب اعنى اذا كان الامير من عائلة بنى شهاب فعندما يدخل من باب الاوضة يقوم له الحاكم من مكانه وينزل عن البساط. فيتقدم الداخل ويلقى السلام ثم يقبل كتف الحاكم. واذا كان الداخل من سائر الامراء والمشايخ فلايقوم له الحاكم قبل السلام وانما يقوم له بعده واذا كان الداخل من بنى ابي اللمع يقبل ذراع الحاكم لاكتفه واذا كان من بنى ارسلان يقبل ساعده واذا كان من المقدمين او المشايخ يقبل طرف ابهام كفه واذا كان من سائر الناس يقوم له عند ركوعه لتقبيل يده وبعضهم لايقوم لهم ابداً وبعضهم لايسوغ له الدخول على الحاكم اصلا

والحاكم الشهابي يكتب في تحاريره لجميع هولاء الامراء والمشايخ اخ عزيز الا امراء بنى اللمع فانه يحرر لهم (جناب حضرة الاخ العزيز الامير فلان المكرم حفظه الله تعالى ابدي اولا مزيد الاشواق لمشاهدتكم في كل خير وثانياً كذا وكذا) ويكون المكتوب نصف طبق ورق. واذا كان من بنى ارسلان يكتب له هكذا لكن في ربع طبق ورق ولا يذكر قوله (وثانياً) والامضاء اخ ومحب مخلص ويكتب للمشايخ كما يكتب الى بنى رسلان ولكن لا يكتب لهم (جناب) ويكتب الى النصارى من بنى بليبل الساكنين في المتن والى بنى شاكر الساكنين في دير القمر وكافة المعتبرين في الجبل حضرة عزيزنا ويستعمل في محل حفظه الله سلمه الله وفي محل لمشاهدتكم لرؤياكم ويكتب الى اهالى قراياه الخاصة والى المشاهير فى القرى عزيزنا فقطوالى سائر الناس اعز المحبين

واذا وقع ذنب من احد الامراء او المشايخ فلا يتعرض لحبسه او ضربه او قتله وانما يامر بمصادرته او نفيه وتغريبه. وعندما يحضر عنده منهم فانه يجري له كافة الرسوم الاحترامية بحسب ما توجبه رتبته. وعادته في مكاتبة المغضوب عليهم انه لا يجري خللا في الالقاب والعنوان وانما يترك الالفاظ الدالة على المحبة ومن عادته انه يختم المكتوب من خارجه الا اذا كان المكتوب في صورة مكدرة فانه جريا على الاصول القديمة يختم في اعلى وجه الصحيفة

واصحاب هذه المقاطعات يتصرفون في مقاطعاتهم بتنفيذ نهيهم وامرهم ويجمعون الخراج والويركو فيرسلون منه الى الحاكم المقدار المعين عليهم والباقي يبقى لهم . واذا كانت لاحد الرعايا دعوى فعلى الاصول انه يراجع صاحب المقاطعة فاذا لم يفصلها على وجه العدل يذهب الى الحاكم ويشتكى له فيحرر في اول الامر لمتصرف المقاطعة في ذلك. فاذا لم يعمل باحقاق الحق ووقعت الشكاية مرة اخرى فحينئذ يعين الحاكم مباشراً من طرفه ينظر في القضية وهكذا عند وقوع نزاع بين اصحاب المقاطعات وبين الاهالي ففي اول الامر تجرى الاوامر بالمكاتبة من طرف الحاكم فان وقع الاتفاق وارتفع النزاع فذلك والا فان الحاكم يرسل مباشرا من عنده وتكون مصاريفه وما يلزم لفرسه في المدة التي يقيمها هناك كلها على المدعى عليه وفضلا عن ذلك فانه ياخذ مقداراً معيناً من الدراهم لاجراء وظيفته . واصحاب المقاطعات مأذونون في الحكم بالحبس والضرب واما العقوبة في عظائم الامور فهي للحاكم فقط لا لغيره واجراء المواد المهمة كالقتل مثلا لا بد ان يكون بمعرفة العمال المنصوبين من طرف الحاكم وللعامل ان يولي في كل مقاطعة مديراً بشرط ان يكون من اهل تلك المقاطعة. وسائر رجال العائلة التي هو منها يكونون تحت حكمه وادارته كسائر الاهالي . اما دير القمر والقرى الملحقة بها فانه يجرى فيها حكم الحاكم رأساً يولي فيها من شاء ويعزل من شاء

فحكومة الجبل القديمة المشتملة على هذه المقاطعات السبعة يراد بها سنجاق الشوف ثم تفرعت منها زماناً بعد آخر مقاطعات كثيرة وفي بعض الاحيان كان ينفصل بعضهم من بعض وذلك لان الجبل المذكور مجموع من جبال

متسلسلة ممتدة فاحيانا يضاف بعضه الى صيدا وبعضه الى الشام واحيانا يصير كله حكومة مستقلة

وفي ايام الامراء الشهابية كانت المقاطعات التى بقيت داخل حكومة الجبل في الجانب الغربي منه اقليم الخروب واقليم التفاح واقليم جزين وفي الجانب القبلى جبل الريحان مع البقاع وفي الجانب الشرقى كسروان والفتوح وبلاد جبيل وبلاد البترون وجبة المنيطره وجبة بشري والكوره والزاوية. فالجانب الغربي يتصرف فيه المشايخ الجنبلاطية اما في الجانب القبلي وفي بلاد جبيل والبترون من الجانب الشرقى فيتصرف فيها الحاكم الشهابي رأساً فكان ينصب المامورين ويرسلهم من طرفه اليها واما كسروان فيتصرف ويحكم فيه مشايخ بنى الخازن وجبة المنيطرة مشايخ بنى حماده والكورة الفوقانية مشايخ بنى العازار والزاوية مشايخ بنى الظاهر. ثم اختل هـذا النظام في الجانب الشرقى وبالاخص في مقاطعات مشايخ بنى حماده فانها خرجت من ايديهم بالكلية وصارت ادارتها في يد الحاكم الشهابي.

وكافة المشايخ المذكورين كانوا في درجة مشايخ بلاد الشوف الا بنى حماده فانهم كانوا في درجة امراء الملمعين. وكان بنو العازار احط درجة من سائر المشايخ وغير هؤلاء المشايخ الذين ذكرناهم كان يوجد في كسروان مشايخ بنى حبيش وفي البقاع مشايخ بنى حيمور ولكن هولاء لم يكن لهم حكم ولا تصرف في موضع ما. وكان منهم سنية وهم بنو حيمور ومنهم شيعية وهم بنو حماده والباقون نصارى. وكان في جبل البترون قوم يدعون النسب الى الاكراد الايوبية وكانوا اذ ذاك اصحاب حكومة وثروة ومع تقلب الايام تغيرت احوالهم وانحطت درجتهم وانخرطوا في سلك ادنى عامة الناس واضطر بعضهم الى تعاطى المهن والاشغال كالزراعة وبعضهم الى السؤال من النـاس. ولكن بقى عندهم اثر حب شرف الحسب وكانوا اذا خطبوا بنات العوام لا يعطونهم واذا اضطر احدهم الى التساؤل فلا يتنزل للسؤال والاستعطاف من العامة بل يسأل من معتبري الامراء والمشايخ. وكان لهم حرص زائد على لقب الامارة فلو كان احدهم في غاية الاحتياج ولم يدعى بلقب الامير فـلا يمكن ان يجيب واذا احد القى عليهم السلام بغير لقب الامراء

فلا يردون عليه السلام وهؤلاء موجودون الى الان في قرية رأس نحاش ولطول مدة ما هم عليه من الذل والمسكنة تناست القابهم القديمة وصاروا مشهورين بامراء راس نحاش

وفي الجهة الغربية كان من هذا القبيل مقدمو جزين اصحاب رفعة وشان ولكن لما سقطوا بعد ذلك عن مرتبتهم ومنزلتهم صارت قريتهم لقباً لهم وصاروا يعرفون بمقدمى جزين. وامراء رأس نحاش المذكورون كانوا سنية . واما هؤلاء مقدموا جزين فانهم كانوا شيعية ينتسبون الى علي الصغير جد طائفة من المتاولة. وعائلة هؤلاء بنو الصغير كانوا من مشايخ بنى متوال وكانوا هم اصحاب بلاد بشاره التى هى قطعة مستقلة في ايالة صيدا ثم ان احمد باشا الجزار دمرهم عن اخرهم وسياتي بيان ذلك

واما الامراء بنو شهاب فانهم اتخذوا دير القمر مقر امارتهم وكثيراً ما كانوا يقيمون في بيروت ايضاً . وفي ايام استقلالهم في الجبل وسطوتهم البالغة حد الكمال كان لهم من الاعمال الحسنة الكثيرة ما بقيت آثاره تذكر بعدهم ونظراً لحسن سيرتهم ومعاملتهم للناس بالرفق والملايمة مال الناس اليهم واتصل حكمهم وتصرفهم في الجبل جاريا اكثر من مائة وخمسين سنة وكانوا يدفعون الى حاكم ايالة صيدا مال الميري على سبيل المقطوع وقدره مائة وثلاثون كيساً. وفي بعض الاحيان عند ظهور بعض عوارض في ايالة صيدا كانوا يوفون رسم تبعيتهم الى والي الشام. وكانوا في ادارتهم الداخلية واحكامهم مستقلين فلا يقدر احد من حكام الدولة ان يتداخل في امورهم الداخلية. حتى ان اهل الجنايات الذين كانوا يلتجئون اليهم لخوفهم من الولاة يامنون على انفسهم وذلك لانه كان من الاصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب اليهم ويحتمى بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرون على استرداده . وكان لهم امتيازات في سائر الخصوصات على هذا الوجه. وكان حاكم الجبل اذ ذاك مرجعاً لحكام العشائر الموجودين في نواحيه وكذلك غيرهم من الامراء والمشايخ القاطنين في اطراف الجبل كانوا خاضعين لهذه الطائفة الشهابية فلا يقدر احد من كبرائهم ان يقاومها بل يوافقون امرائها على ما ارادوه وعلى الاخص مشايخ بلاد بشاره وحاصيا وراشيا الذين هم اهل وادي التيم وكذلك مشايخ بعلبك ومشايخ الضنية

فانهم كانوا في كل حال يراجعون الاميرالشهابي حاكم الجبل فى عظائم الامور مع كمال التعظيم له

وهذه الطائفة الشهابية كانت كلها في الاصل من اهل الاسلام وسلسلة نسبهم تنتهى الى احد الصحابة الكرام(رضى الله عنهم). ثم تنصر البعض منهم. واعلم ان المسلمين في جبل لبنان طائفة قليلة جداً وكذلك اليهود فانهم قليلون . فاكثر اهاليه دروز ونصارى وهم اي النصارى وان يكونوا بالنسبة الى الدروز اكثر فان الدروز اشجع واجسر واكثرهم يكونوا مسلحين وفي اكثر الوقائع الحربية كانت توجد طائفة المتاولة معهم. والطائفة المارونية في الجبل اكثر من جميع الطوائف في عدد النفوس وفي كل ستة تقريباً يخرج منهم مسلح واحد واما المتاولة ففى كل اربعة واحد واما الدروز فان المسلحين منهم يكونون اكثر من ربعهم واكثر الامراء والمشايخ يكونون من الدروز والمنافرات الكثيرة التى تحصل بين سكان الجبل ليست دينية او مذهبية بل اتحادهم واختلافهم مبنى على العصبية ولذلك غلبت طائفة الدروز من القديم سائر الطوائف وبقى النفوذ والادارة في الجبل في كبرائهم. ونفوذ الخوارنة المعنوي كان جاريا فى ما بين النصارى . ثم ان الامراء الشهابيين لاجل ان ينالوا الاستقلال في الجبل تشبثوا بما يكسر نفوذ هولاء الروساء. ثم لما رأوا النصارى لهم الغالبية في كثرة النفوس فلاجل ان يجعلوهم معاونين ويجلبوا خوارنتهم لحزبهم تنصر البعض منهم على هذه الصورة

وبفعلهم هذا القوا بين اهالي الجبل بعض المنافرة الدينية وكان ذلك سبباً لزوال حكومتهم وانقسام الجبل منذ عهد قريب الى قائمقاميتين والحالة هذه صار جبل لبنان قائمقاميتين احداها قائمقامية الدروز وهى تطلق على لواء الشوف الذي يقال له جبل الدروز وهى المقاطعات السبعة التى سبق ذكرها يعنى عبارة من مقاطعات الشوف مع مقاطعات الخروب والتفاح وجزين . والثانية قائمقامية النصارى المشتملة على لواء جبيل ويقال له جبل النصارى وبلاد جبيل وكسروان والفتوح وسائر المقاطعات الشرقية ومن هذين السنجقين ارتفعت ايضاً الحكومة الشهابية

وفي خلال ذلك صار الحاق البقاع لايالة الشام وترك دير القمر خارجا عن

القائمقاميتين وصارت ادارته بيد قائمقام يعين من طرف والي ايالة صيدا . والحاصل كان في جبل لبنان رعاية زايدة للمراتب ولذلك لم يؤثر الفقر والفاقة في حقوق شرف الحسب والنسب ولم يقدر احد على تحصيل مرتبة هولاء باكتساب الثروة والغناء وعندما كان كل شخص محافظاً على رتبته ومنزلته الاصلية كان الامراء الشهابيون جادين في امحاء البيوت القديمة عاملين بما تخيلوه من توسيع حكومتهم الموروثة فاضاعوها بالكلية

وان يكن يوجد في لواء النصاري كثير من الدروز انما الاكثر منهم في لواء الشوف وهاتان القائمقاميتان انقسمتا الان الى اثنى عشر مقاطعة مساحة ارضها مربعة تربيعاً سطحياً مائة وخمسون ساعة تشتمل على نحو تسعمائة من بين قرى وقصبات ومزارع والمزرعة تحتوي على نحو خمسة بيوت او ستة ويطلق عليها قرى صغيرة

وكافة اهاليهم يبلغون من النفوس مائتين وسبعة عشر الف منهم ستة الاف وخمسمائة من المسلمين اهل السنة واحدى عشر الفاً وخمسمائة من الشيعة ويقال لهم متاولة وثلاثون الف دروز ومائة وواحد وعشرون الفاً موارنة وسبعة واربعون الفاً ملكيون وروم ونحو الف يهودي . ويوجد خارجا عن هاتين القائمقاميتين وفي اطراف الشام نحو مائة وتسعة وثلاثين الف نفس ماروني وثمانية وعشرين الف درزي واربعة الاف وخمسمائة متاولة وحيث ان هولاء كلهم اصلهم من اهل جبل لبنان وعليه فيبلغ عدد اهل الجبل ثلاثمائة الف وكسور . فعلى هذا الحساب يكون عدد كافة المارونية مائتين وستين الف يخرج منهم اثنان واربعون الف مسلحين والمتاولة يبلغ عددهم ستة عشر الف يوجد بينهم اربعة الاف مسلحين واما الدروز فهم ثمانية وخمسون الف يكون منهم سبعة عشر الفاً مسلحين فيكون الذين يحملون السلاح منهم اكثر من ربعهم . ولا يخرج في ملة ما مسلحين بهذا المقدار

واكثر الدروز مزارعين وفي النادر يوجد بينهم اصحاب صنائع واما الطوائف الباقية اكثرهم يتعاطون التجارة والصناعة . ونساء الدروز من حيث الجمال دون نساء سائر الطوائف

ولا تنكر جودة ماء وهواء جبل لبنان ولطافتهما ووجود اهاليه بالصحة دائماً

وذلك لعدم اكلهم الاغذية المتنوعـة والطائفة المارونية على مذهب الكتولك ينتسبون الى الراهب مـارون الذي لقن الدين العيسوي في تلك الاطراف قبل الهجرة النبوية بثلاثمائة وتسعين سنة. والملكيون بفتح الميم هم طائفة الروم الكاثوليك. واما الدروز فانهم يدعون الاسلام في الظاهر حالة كونهم ينكرون كافة العقائد الاسلامية بل سائر الاديان ولنبين عقائدهم وعاداتهم مفصلة في فصل مستقل على الوجه الاتي

عادات الدروز وعقائدهم

ان الدروز تغلب عليهم الحمية والنخوة وعندهم صبر وتحمل زايد ويحفظون السنتهم عن النطق بالفحشاء وفي حال الغضب لا يتكلم احدهم مع الاخر بسوء. ويحافظون على العهود والمواثيق للغاية واذا اتخذوا صاحباً يصادقونه صداقة تامة حتى انهم لا يحترسون لاجله من الوقوع في الخطر والتهلكة في سبيله

وكثيراً ما كانت العداوة تقع بين الطوائف فتنشأ عنها حروب عظيمة والفرقة الغالبة المظفرة تجبر الفرقة الثانية على ترك وطنها . وفي هـذه الحروب كل فرقة تتصحب لجماعة من اصدقائها واحزابها ويلقون انفسهم لاجلهـا في المهالك. وتكون الصحبة الحاصلة بين طائفتين موروثة خلفاً عن سلف ولا ينافي ذلك عندهم اختلاف الدين والمذهب وفي حين وجود اتحـاد العصبية فيما بين الدروز والنصـارى يجرون في حق بعضهم بعضاً ما يوجب التعصب والتصحب. ومن عادتهم انهم في حال العداوة والحرب لا يتركون سبيل المرؤة ومنها انهم ياخذون الثار في مجرد الغلبة بالشجاعة ويتجنبون الغدر

روى عن احد الدروز انه دخل بيت احد اعدائه فوجد زوجته تشتغل في شغل لها وبينما كان يهتم في معاونتها جاء زوجها فسلم عليه كعادته مع احد اصحابه واتى بالطعام فاطعمه وعند عودته شيعه الى خارج الدار وعند الوداع قال له نحن على حالنا القديم يعنى العداوة باقية

ووقع بين طائفتى بنى الغضبان والحسينية في العرقوب ما اوجب العداوة فغلبت الحسينية ولم يقدر بنو الغضبان على الاقامة في بيوتهم ففروا الى الاطراف وبعـد مرور مدة اتفق ان واحداً من الطائفة الحسينية بينما كان يسوق

بقره في محل بعيد عن القرية خرج عليه بغتة رجلان من بني الغضبان وعندما صدماه وهجما عليه ركض فاراً فاصابت رجله حجركان موضوعا على حاجز فوقع عليه فمنعه عن الحركة ويئس من الحياة وعندما وصلا اليه رفعا عنه الحجر وقالا له قتلك الان لا يوجب لنا فخراً ولكن بعد الان احترس على نفسك منا وتركاه

ونقل من هذا القبيل ان شخصاً من الدروز يدعى ابرهيم نكد كان له نوع شبهة في زوجته ولاجل استكشاف الحال قال لها في بعض الايام انا ذاهب الى دير القمر حيث لي شغل هناك وركب فرسه وذهب وفي اثناء الطريق نزل في احد البيوت ومكث هناك الى المساء ثم عاد ونزل في محل قريب من بيته وربط فرسه في شجرة وأتى الى بيته بلطافة وكان باب البيت مقفولاً فسمع في داخله صوتا وكلاماً فصرخ لزوجته فلم تفتح له الباب بل داخلها الرعب بحيث انها لم تقدر على رد الجواب ثم تقدم واخذ الباب بصدره ودخل وكان رجلا شجاعا مهابا للغاية فالزاني لما رآه كادت نفسه تزهق من الخوف

ثم ان ابراهيم لما رأى ذلك الجاني على نفسه محتاراً فيما يصنع سكن خوفه ومسكه من يده وقال له اذهب بالسلامة ولكن اكتم هذا الامر واذا شاع يكون سبباً لقتلك . وفي ذلك الوقت كانت زوجته آيست من الحياة فلم يتعرض لها بشيء كأن ذلك الامر لم يكن ولم يعاملها معاملة ردية وبعد مدة اجرى لها سبباً آخر وطلقها بدون ان يشعر احد بحقيقة الحال

وهذه الاحوال وامثالها عند الدروز هي من قبيل الاداب وعندهم قضاة للاحكام الشرعية فيحكمون في المعاملات بالشريعة الاسلامية . واما فيما يتعلق في بعض مواد كالعبادات والنكاح والطلاق فلهم في ذلك اصول مخصوصة . واما كيفية تزويجهم فهي على الوجه الاتي . اذا اراد احد ان يخطب ابنة فانه يرسل اولا الى بيت البنت واسطة لاجل ان يختبرهم فان كان مراد اهل البنت اعطاءها فانهم في الحال يأتون بالحلوى ويأكلونها سواء ويقال لهذه الحلوى نعمانية . فمتى أكلت النعمانية بث الامر وتكون تلك البنت قد تعينت للخاطب . ثم ان الواسطة يخبر الزوج وهو يخبر جماعة من قومه ثم يكتبون

سنداً في المهر المتفق عليه وتصير البنت زوجته فياخذها اي وقت اراد فان وافقته فذلك والا فانه يطلقها حالا ويتزوج بغيرها. وهذه الثانية اذا لم توافقه فانه يتركها على حالها الى ان يجد واحدة توافقه فيتزوجها على الوجه السابق ولا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين واذا لم يطلق الواحدة لا يقدر على اخذ غيرها . وعندهم طلاق النساء باشياء جزئية جدا. مثلا اذا استاذنت امرأة بالذهاب الى محل ما فاذا قال لها اذهبي فقط ولم يقل لها وارجعي فانها تكون طالقة. وفي مذهبهم لايجوز رد المطلقة ولو تزوجت غير زوجها وطلقها لاتقدر على الرجوع الى زوجها القديم

ولهم في بعض المعاملات عادات مخالفة للشريعة الاسلامية. ومن اصولهم مثلا اذا اوصى احدهم لاحد اولاده بجميع امواله ويحرم الباقين يسوغ له ذلك ولكن هذا في الاموال التى اكتسبها بيده. واما الاموال المنتقلة عن الاباء والاجداد حيث انها لم تكن كسبه فهى عائدة الى العائلة تتساوى فيها الاصول والفروع فيجب قسمها بين جميع الورثة ومن الاصول القديمة في ذوي البيوت من طائفة الدروز ان المرأة لا ترث اباها. ثم سرت هذه العادة الى الجميع وصارت جارية فى سائر الطوائف الموجودين في الجبل

ومعتقدات الدروز الباطلة على هذا الوجه انهم يعتقدون ويقولون بالوهية الحاكم بامره من الملوك الفاطميين الذين حكموا مصر ويعبدونه

والحاكم بامره هو منصور العبيدي بن عبد العزيز بن عبد المعز الفاطمى الذي ظهر في اوائل القرن الخامس . وكانت له رغبة في علم النجوم والرمل والطلسمات فاتبعه الدروز في ذلك واشتغلوا بتحصيل هذه العلوم ولم يعتنوا بغيرها

وكان الحاكم بامره في الاصل رافضياً كاسلافه الملوك الفاطميين وكان لقبه وقتئذ الحاكم بامر الله . ثم ادعى الالوهية ولقب نفسه الحاكم بامره . وامر الخطباء ان يقولوا بسم الحاكم المحيي المميت عوض بسم الله الرحمن الرحيم الى امور لا يسعها العقل والشرع واطوار وحركات لايطابق بعضها بعضا وفي نهاية امره كان مدّعاه هذا سبباً في قتله وقد اختلف المؤرخون في كيفية قتله . واما الدروز فانهم يزعمون بانه توجه احد الليالي وحده الى بركة

الزرقاء ويقال لها قصبة حلوان ومن هنـاك عرج الى السماء . والحال انه من عادته يركب حماراً ابيض يطوف عليه متجولا ففى احد الايام خرج من مصر على عادته وعند توجهه الى ناحية بركة الزرقاء هجم عليه بغتـة بعض المسلمين الذين كانوا يترصدون له الفرصة فقتلوه وطرحوه في بئر هناك وتركوا ثيابه عند حماره ورجعوا الى البلدة واخبروا بذلك اهل الاسلام واما اتباعه ومعتقديه الذين يتسمون بالباطنيون فانهم لما رأوا انه تاخر رجوعه عن وقته توجهوا الى تلك الجهة لملاقاته ولمـا لم يجدوا له اثراً غير ثيابه وحماره زعموا انه عرج الى السماء

واول من صدق ابتداء دعوة الحاكم محمد درز وعندما اعلن الوهيـة الحاكم هجم عليه عوام الناس وقتلوه. فتغافل الحاكم عن ذلك في اول الامر وبعد مدة قتل قاتليه. وانتسبت اليه هذه الطائفة فاسم درزي ماخوذ من هذا ثم ظهر بعده حمزة بن علي ودعا الناس لعبادة الحاكم والذين اجابوا الدعوة اتخذوا لهم فى مصر معابد سرية وعكفوا على عبادة الحاكم بامره . وكما انهم اعتقدوا الحاكم الهاً اعتقدوا ايضاً ان حمزة بن علي رسولا له ولذلك يبالغون في احترامه ويسمونه هادي المستجيبين وحجة القائم. ويبغضون محمد درز ويطعنون فيه ويقولون انه لم يبادر لدعوة الناس رأساً لابتغائه ان يكون في محل حمزة ويغصب منصبه وهذا يعلم من مطالعة رسالتى الدروز الموسومتين بالغاية والنصيحة

وعلى هـذا المنوال اعتقد اتباع حمزة الوهية الحاكم وعبدوه ولاجل عبادته عملوا في مصر معابد سرية . ولكـن غلبهم المسلمون وظفروا بهم واطردوهم وابعدوهم عن مصر ففروا الى الاقطار الشامية وبعضهم الى الجبل الاعلى في نواحى حلب وبعضهم نزلوا في حوران وبعد تطاول الايام تفرقوا فنهم من جاء الى وادي التيم ومنهم من سكن جبل الشوف ثم على التوالي تكاثروا وبلغوا المقدار الذي ذكرناه آنفاً فالطائفة التى يقال لها الان دروز هى ذرية هولاء وقرابتهم. وكانوا يتظاهرون في زي الاسلام وفي الباطن ينكرون الانبياء ويطعنون ويشنعون في حق المسلمين وفي حق اليهود والنصـارى. فديانتهم الحقيقية هى عبارة عن توحيد الحاكم ويقولون ان سـائر الاديان

منسوخه . وعندهم الفرض صدق اللسان وحفظ الاخوان بدلا عن الصوم والصلاة ورعاية كل من الصداقة والصيانة مخصوصة بملتهم ولا يجوزون اجراء ذلك في حق الملل السائرة وهم وان كانوا يقرءون القرآن الكريم فانهم ياولونه على حسب معتقداتهم الباطلة بتاويلات مناقضة للعقل والشرع ويأتون في ذلك بمعاني لا يقبلها خاطر ولا تاتي على فكر . ويعتقدون قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ويقولون بالتناسخ ويعبرون عنه بالتقمص ويقولون للجسد قميصاً ويعتقدون ان روح الميت حين وفاته تنتقل الى مولود آخر . ويتحدثون فيما بينهم ان فلانا كان في الوقت الفلاني فلاناً ثم دخل في القالب الفلاني ويقولون ان هوية الحق تعالى في كل عصر تحل في قالب وقد ظهر حلولها في هذا العالم غير مرة . وفي آخر الامر تجلت في الحاكم . ويقولون باتحاد الظهور والبطون وانه لا ينافي وحدانيته ظهوره في زمانٍ عزيزاً وفي زمان معزاً وفي زمانٍ حاكماً فلذلك يقولون انه تجلى قبل الحاكم بامره فى ابيه وجده ايضاً ويفسرون قوله تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ انه يظهر في كل عصر في صورة . وان امامهم ومقتداهم حمزة يكون ايضاً في كل عصر في قالب فكان في زمانٍ مسيحاً حقاً وفي زمانٍ سليمان بن داود وفي زمانٍ شعيب وفيثاغورق الحكيم . وان النبى الكريم هو حمزة ايضاً وان سلمان الفارسى هو حمزة العصر المحمدي . ويزعمون ان القرآن الكريم اوحى في الحقيقة الى سلمان الفارسى وانه كلامه وان محمداً عليه السلام اخذه عنه حتى انهم يقولون ان قوله تعالى في الآية الكريمة ﴿ يا بنى اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ﴾ حكاية عن لقمان فيما خاطب به ابنه وان ذلك خطاب سلمان لمحمد عليه السلام وان المراد بقوله ﴿ يا بنى ﴾ بنوة التعليم . ويعتنون بكتمان هذه العقائد الباطلة فيما بينهم اشد اعتناء بناء على انها من الاسرار وكما انهم لا يبيحون بالاسرار الى الاجانب عنهم فانهم يكتمونها عن ابناء ملتهم ما لم يعتمدوا عليهم ويأتمنوهم . فلذلك اعتبروا انفسهم على قسمين قسم منهم عقال والقسم الثاني جهال ويجعلون نساءهم كذلك ايضاً على قسمين عاقلات وجاهلات ويقولون للعاقلة جويدة وللجاهلة غير جويدة ويقسمون العقال ايضاً الى قسمين احدهما خاصة وهم اهل الوثوق والاعتماد الذين عرفوا دينهم حق

المعرفة والثاني عامة وهم الذين لهم بعض وقوف على دياناتهم فيحسنون الظن فيهم ويعتبرونهم كالمجتهدين . واما عامة الجهال فانهم لا يعرفون كلياً ولا جزئياً من اصول دينهم وليس لهم حصة ولاحظ منه سوى انهم تحت اسم الدروز . واينما وجد العقال منهم فانهم يجعلون خلوات لتكون محلا للعبادة وذلك انهم يبنون دائرة ضمن دائرة وفي ليلة الجمعة يجتمع اهل كل طبقة وبعد ان يجتمعوا في الدائرة الخارجة وتتلى بعض قرآة تتعلق بالمواعظ والنصائح يؤتي بشيء حلو كالزبيب فيؤكل ثم تخرج طبقة العامة ويدخل رجال الخاصة الى الدائرة الداخلية ويغلقون الابواب ويبسطون سفرة البحث والمحاورة على مسطبة الشرك والالحاد ويفتح كل منهم فم سراير دينهم الباطل للاخر وعندهم طبقة اخرى من العقال وهم اتقياؤهم . ويقال لهم المتنزهون فانهم بزعمهم على ورع شديد وعبادة كبيرة وبعضهم لا يتزوج حتى الموت . وبعضهم لا ياكل اللحم مدة حياته وبعضهم يصوم الدهر . وكان الشيخ حسين المعروف والمعتبر فيما بينهم في جبل الشوف وهو شيخ العقال لا ياكل الفواكه الا في اول وقت ظهورها فانه ياكل منها مرة واحدة ثم لا يضعها في فمه الى السنة الاتية ولما اعترض عليه بعض اصحابه في ذلك قال انى اخشى ان يدخل علي الكبر اذا لم اطعمها اصلا . وجميع العقال ولو كانوا في ايام جهلهم استعملوا المسكرات ووقعت منهم السفاهات فانه بعد دخولهم في سلك العقال لا يستعملون المسكرات ولا يتكلمون بالفحش ولا يسرفون في الاكل والشرب لان الاسراف عندهم يورث نقصا عظيما في اخلاق الموحدين ويعتقدون ان اموال الحكام والامراء حرام فلا ياكلون طعاماً في بيت حاكم ولا في بيت خادمه ولا ياكلون شيئاً نقل على حيوان قد ابتيع بمال الحاكم . ورجال طبقتهم المتنزهين يحتاطون اكثر من ذلك فلا ياكلون شيئاً من بيت احد سوى بيوت العقال وجميعهم يستحلون مال التجار كائناً من كان فلذلك اذا قبضوا مالا فيه شبهة ياتون به الى التاجر فيستبدلونه منه

ومذاهب الدروز وعقائدهم على المنوال المشروح كانت مكتومة بينهم . وكانت تفاصيل دياناتهم غير معلومة وفي سنة احدى وخمسين ومائتين والف لما هجم عليهم ابراهيم باشا رئيس عساكر مصر في وادي التيم واكتسحهم

ونهبت العساكر المصرية ومن حضر معهم من عسكر المير بشير حاكم الجبل ما في منازلهم اخذت كتبهم الدينية وانتشرت في العالم وكانت كلها عربية العبارة ثم ترجم بعضها باللسان الفرنساوي والانكليزي والف بعد ذلك جماعة من العلماء عدة رسائل في ديانتهم بالعربية اخذاً من تلك الكتب ولكن لما كانت هذه الطائفة لها الاعتناء التام في امر كتم الاسرار حرر كتابها مقاصدهم في تلك الكتب بطريق الرمز والاشارة فلذلك لم يهتد احد الى حقيقة امرهم والذي علم منه ان اساس دينهم مبني على ابطال ظاهر الشرع وباطنه ويذكرون عقائدهم على طريق الحكاية ويردون فيها مباحث علم الكلام وبعض اقوال غلاة المتصوفة والارفاض والملحدين لاسيما فرقة الاسماعيلية من غلاة الشيعة فانهم يعترضون على تآويلهم اعتراضاً كلياً فلهذه الاسباب المذكورة لم يطلع احد على حقيقة ديانة الدروز كما هي

ورئيس الفرقة الاسماعيلية المذكورة اختلف فيه فقيل هو عبدالله ابن ميمون القداح وقيل هو حمدان قرمط والقرامطة ينكرون ظاهر القرآن ويزعمون انهم يقولون بباطنة ولذلك تسموا بالباطنية . ويقال هم ايضاً السبعية . نسبة لسبعة ناطقين بالشرائع يعنى الرسل السبعة . وهم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام والسابع الامام محمد المهدي . وان الشرائع فيما بين كل اثنين منهم تكون متممة ويقولون بثبوت سبعة ايمة في كل عصر عليهم مدار الاقتداء والاهتداء فالاول امام العصر يكون غاية فى العلم والمعرفة بادلة الدين . والثاني الحجة الحامل لعلوم الامام . والثالث ذو المصه الذي اخذ العلوم عن الحجة . والرابع اكبر الداعين المرتب درجات المومنين . الخامس الذي ياخذ العهد من الطالبين ويكون ماذونا في ادخالهم مع جماعة الامام . السادس المكاب وهو الذي تكون درجته عالية في مذهبهم ولا يحصل على هذه الدرجة الا بعد ما صار مأذونا بالدعوة وهو مثل كلاب الصيد يدل للطالب على صاحب الدعوة . السابع منيب الطالب الذي يكون دخيلا لجماعة الامام بالاتباع والانابة لصاحب الدعوى

فهذه الاقوال التى هى خرافات محضة هى اساس اعتقاد الاسماعيلة وعليها بنو كثيراً من التاويلات الباطلة فاوّلوا مثلا الوضوء بمحبة الامام .

والتيمم باخذ الانابة من الماذون في غياب الامام. وقد بحث الدروز في موضوع هذه المقالات وقلبوها كلها وسلكوا في ذلك ايضاً طريق الشرك والضلالة بصورة لا تشابه ملة ولا نحلة . ولما كان الوقوف (في الجملة) على عقائدهم الباطلة متوقفاً على معرفة فساد اوهام امثالهم من اهل البدع. وكان لي سابق معرفة ومطالعة في علم الكلام نوعا ما. اقبلت على مطالعة بعض كتب الدروز وبعض الرسائل التى كتبت عنهم وبناء على ذلك رايت من المناسب ان نبادر لذكر تفاصيل عقائدهم مرتبة على الوجه الاتي وهو ما وصلت اليه وقدرت على استنباطه من كلا الطرفين

فنقول قد بنى الدروز عقائدهم الباطلة على انواع من الاوهام والخرافات رتبوها مثل ترتيب حساب الجمل واشكال الحروف مثلا عدد (١٦٤) يكون اشارة ورمزاً لاصحاب حمزة ونقبائه واعوانه وانصاره ويكتبون كلمة سدق بالسين لكونها مطابقة للعدد المذكور بحساب الجمل فيقولون سادق واسدق. ويسمون اهل البيت المحمدي اي كافة اولاد النبي وزوجاته بحروف (كدب) بالدال المهملة فيكون (٢٦) بحساب الجمل ويضيفون عليه عدد الخلفاء الراشدين فيكون العدد الحاصل من ذلك (٣٠) ولكون عدده مطابقاً للصاد بحساب الجمل فانهم يطرحونه من عدد (٩٠) فيبقى (٦٠) فيكون مطابقاً لحرف السين. ويزعمون ان هذا الحساب يوجب كتابة صدق سدق

ويقولون بالتناسخ كما سبق ذكره ويعتقدون ان كبار عقالهم اولياء فاذا مات احدهم تذهب روحه الى جهة الصين وتحل في قالب هناك ويزعمون ان لهم اولياء كثيرين وراء جبل الصين. ويثبتون وجود عوالم كثيرة قبل هذا العالم الانسى. منها العالم الجنى والعالم البنى. ويقولون انه مضى قبل الحاكم بامره سبعون دوراً وكل دور اربعة ملايين وتسعمائة الف سنة ومن مبدأ الخليقة الى عصر الحاكم مضى ثلاثمائة وثلاثة واربعون مليون سنة ويقولون بان دور الحاكم هو دور القيامة وينتظرون في كل وقت ظهور يأجوج ومأجوج وخروجهم من داخل الصين ويحترمونهم ويقولون ان هولاء القوم كرام ياتون الى مكة بمليونين ونصف من العساكر وفي ثاني يوم وصولهم صباحا يتجلى عليهم الحاكم بامره من الركن اليماني من البيت الشريف وبيده

سيف من ذهب يتهدد به الناس ثم يعطى بسيفه لحمزة فيقتل الكلب والخنزير ثم يهدم الكعبة ويجعل التصرف في المسكونة وحكومة الارض الى الدروز بوجه الحصر ويصير جميع الخلق رعية لهم. وتفصيل ذلك ان الناس اذ ذاك يصيرون اربعة فرق الاولى منهم الموحدون وهم عقال الدروز ويصيرون سلاطين ووزراء وحكام . والفرقة الثانية اهل الظاهر وهم المسلمون واليهود . والفرقة الثالثة اهل الباطن وهم النصارى والشيعة . والفرقة الرابعة وهم المرتدون وهم جهال الدروز . ويقولون ان حمزة يدمغ كافة الطوائف بايديهم ويضع عليهم الجزية . ما عدا عقال الدروز الذين يعدونهم موحدين . وانه يحتقر الطوائف ويعاملهم بمثل هذه الحقارات واما عقال الدروز فانهم يصيرون اصحاب سلطنة وثروة ويسار على الوجه المشروح وجهال الدروز يكلفون بانواع المشقات والعذاب الشديد زيادة على سائر الطوائف لكونهم من اهل الايمان ومع ذلك فانهم لم يسلكوا طريق التوحيد . ومرادهم من الكلب والخنزير الناطق والاساس ويفهم من رموزهم انهما اي الناطق والاساس مظهران وفي زعمهم ان الشيطان غير ابليس ويقولون ان الناطق ابليس والاساس الشيطان الحالي . ومن الحادهم واقوالهم الفاسدة ان الناطق ظهر اولا في ادم ثم انتقل الى نوح ثم الى ابراهيم ثم الى موسى ثم الى عيسى ثم الى محمد ثم الى سعيد بن احمد المهدي ويعدون هذا المهدي في سلك اولي العزم من الرسل . ويطلقون كلمة الناطق على هولاء السبعة ويثبتون في عصر كل منهم اساساً فالاساس على هذا الوجه ظهر اولا في شيث بن ادم فهو اساس ادم ومنه انتقل لسام وبعده الى اسماعيل ثم الى هارون ثم الى شمعون ثم لعلي بن ابي طالب ثم في العصر السعيد الى قداحه

وفي زعمهم ان الناطق هو صاحب الشريعة الظاهرة والاساس هو صاحب الشريعة الباطنة وعندما ظهر الحاكم بامره نسخ الشريعتين المذكورتين وصار توحيده وعبادته عوضاً عنهما وبسبب اعتقادهم هذا يسمون اهل السنة الذين هم اهل الظاهر في اصطلاحهم منكرين وكافرين واهل الباطن الذين هم شيعة مشركين . وعلى هذا الوجه تكون سائر التكاليف الظاهرة والباطنة منسوخة . مثلا اعتقاد اصحاب الرفض والالحاد الباطل ان الصلاة عهد مالوف وهي عبارة عن

الصلة ورابطة المحبة فيما بين حضرة علي رضى الله عنه وتابعيه ومحبيه ويقولون ان الذي يصل الى هذه المحبة يقتضى ان يكون بريئاً من محبة حضرة الشيخين رضى الله عنهما ويقولون ان المراد بالفحشاء والمنكر في قوله تعالى ﴿ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ابو بكر وعمر. وان الزكاة عبارة عن التولى والتبري. والتولي هو محبة علي واولاده والتبري هو بغض ابي بكر وعمر وعثمان وتابعيهم وسائر اصحابهم. فهذه العقيدة الفاسدة هى اساس اعتقاد المتاولة. واما الدروز فكما انهم ينكرون هذه العقيدة التى هى من عقائد الروافض الكاسدة كذلك ينكرون الصلاة والزكاة الشرعيتين ايضاً ويزعمون ان الحاكم بامره نسخ الشريعة الظاهرة والباطنة وصارت الصلاة الحقيقية عبارة عن تصديق الوهيته وعبادته وتعظيمه ويزعمون ان الزكاة معناها تطهير القلب في الظاهر والباطن والحاصل انهم يقولون بسقوط كافة العقائد الاسلامية. وينكرون سائر الاديان وجميع ماظهر من كفريات اصحاب الرفض والالحاد وبدعهم وينكرون ايضاً كافة التكاليف الدينية الثابتة بالنصوص القرآنية ويذهبون الى طريق مسدودة لا منفذ لها وهى طريق الشرك والالحاد الخارج عن جميع الطرق كما يستفاد ذلك من مطالعة الرسالة المسماة النقض الخفى

ويعتقدون ان ادم نبى كريم. الا انهم بسبب اعتقادهم التناسخ ينكرون خلقه من التراب ويقولون بوجود ثلاثة كل منهم ادم ولهم اب وام كسائر الناس اولهم ادم الصفا وهو ادم النبى الكريم. والثاني ادم العاصى. والثالث ادم الناسى. وهما خليفتا ادم الصفا. وله مما عداهما اصحاب ونقباء ودعاة وان الملائكة الكرام عبارة عن هولاء. وان الضد الذي لآدم هو ابليس وان الشيطان من اصحاب ابليس ويفسرون الايات القرآنية بحسب اعتقاداتهم بالمعاني الباطلة التى لا تخطر على خاطر ولا خيال ويقولون ان ادم الصفا قام بدعوة التوحيد في الادوار التى قبل هذه الادوار الاخيرة وفي ذلك الوقت كان لم يتسمّ بادم وان ظهوره كان في دور عالم الجن الذين كانوا يعبدون العدم. وكان الحاكم بامره في ذلك الوقت بحسب بشريته اي في حيثية وجوده في القالب البشري اسمه بارى وقول الفرس بارى خدا ماخوذ من ذلك. وان آدم هذا اصل مولده في مدينة آدمينية فى بلاد الهند وكان اسمه شطنيل واسم ابيه دانيل

وكان يتظاهر بطب الاجسام وفى الحقيقة طبيب الارواح مع علوم التوحيد. ثم خرج على هذه الحال من بلدته واتى الى صرنه من بلاد اليمن ومعنى صرنه في العربي المعجزه . ولما دخل البلدة المذكورة ورأى اهلها مشركين دعاهم الى توحيد الباري فانقسموا الى فرقتين فاجابت منهم فرقة فصاروا موحدين وفرقة بقيت على الشرك فشطنيل الحكيم قال للموحدين من ذينك الفرقتين (بيشوا عن المشركين) اي ابعدوا عنهم فامتثلوا امره وتباعدوا عنهم وظهرت البينونة بينهما فقيل بن فظهر دور البن . وفي عالم الجن دعا ابليس الناس ايضاً الى توحيد الباري وكان اسمه الحارث واسم ابيه الترماح. واصله من اصفهان وهو ايضاً كان يسكن بلدة صرنه ولما اظهر الباري شطنيل الحكيم الى الوجود لتوحيده كما ذكر امر الملائكة يعنى دعاة توحيد الباري بالسجود اي بالطاعة والتذلل الى شطنيل فامتثلوا هذا الامر وصاروا اصحاب شطنيل واركان حزبه ونقباء دعوته الا الحارث بن ترماح الاصفهاني فانه ادعى قدمه في خدمة الدعوة وقال خلقتنى من خالص النار يعنى من عالم الحقائق ونور الدعوة وخلقت شطنيل من المشاورة التى هى بمثابة التراب وانك اخرجته للمذاكرة مع اصحابه واتباعه فاستكبر وابى ايضاً امتثال الامر بترك الاكل من الشجرة واستنكف عنه فاخرج من دائرة الدعوة التى هى بمثابة عين الجنة واسقط الى الارض اي من اركان التوحيد وكافة الحدود. ثم لما بادر شطنيل الى دعوة التوحيد بعد ترتيب الحدود على الوجه المشروح قيل له ادم يعنى امام ركن الدعوة ثم ان المجيبين لهذه الدعوة لما بشروا بادم سموا بشراً وبسبب قولهم التوحيد صار لهم ابا فى امر الدين فسمى ابو البشر وحيث ان زوجته حوا ارضعت المؤمنين لبان العلم الحقيقى وربتهم به صارت ام البشر ولما ارسل ادم اصحابه ودعاته الى الجهات وباشر امر الدعوة قام الحارث الاصفهاني ضداً له فقيل له ابليس فعلى هذا الوجه سار الناس بالضرورة على قسمين. وامر آدم اتباعه بالتبري من ابليس ومن قومه الذين هم الجن . فكان اتباع آدم اذا لقى بعضهم بعضاً قال له (اهجر وحزبه) يعنى اترك ابليس وقومه وتباعد عنهم ولذلك سميت بلدة صرنه هجر . وشريعة آدم شريعة لطيفة التوحيد وظهر من بعدها كثير من

الشرائع التكليفية وفي النهاية ظهر حمزة ابن احمد الصفا الذي هو ادم هذا العصر وشريعته عبارة عن الدعوة الى التوحيد ثم قالوا ان امر الدعوة رجع الى حالته القديمة ﴿كما بدأنا اول خلق نعيده﴾ فآدم الصفا هو شطنيل المذكور وحين امر بالدعوة على ما ذكر كان اصحابه ونقباؤه اثنى عشر نفراً وهؤلاء الانفار كلهم كانوا حدود شريعته وملائكة دعوته . فاولهم اخنوخ البصري والثاني شرخ المنسوب الى بلدة سرمن وسمى شيثاً وكلاهما خليفة ادم هذا واما آدم الثاني الذي ذكر في القرآن انه عصى ربه المراد به اخنوخ المذكور. واما ادم الثالث الذي ذكر في القرآن بقوله تعالى ﴿فنسى ولم نجد له عزماً﴾ فهو شرخ المسمى شيثاً . فانتخب ادم الصفا هذين الاثنين من بين اصحابه ونقبائه واقامهما مقامه في امر الدعوة فقيل لهما آدم ايضاً واسكنهما في جنة الدعوة الا ان اخنوخ بسبب تقدمه في الترتيب صار بمثابة المذكر وشرخ بمثابة المؤنث واخذت العهود الجديدة من شيث بان لا يعبد غير الباري وان لا يخالف امر شطنيل واجريت الوصايا الشفاهية الى اخنوخ ايضاً . وخاطب الباري اخنوخ فقال له اسكن انت واخوك شيث في جنة الدعوة وتنعموا بنعم الفضائل والمراتب ولا تقربوا هذه الشجرة اي لا تدّعوا مرتبة شطنيل ورفعته فتكونا من الظالمين اي تكونا من الذين نقضوا العهد واغواهم الشيطان وانزلهم عن رتبهم . وتفصيل هذه ان الشيطان واسمه هبل امر بالدعوة من جانب ابليس وكانت الحية رجلا اسمه انيل من دعاة اخنوخ وكان طلوس ايضاً امر بالدعوة من جانب اخنوخ واسمه طابوح . وكان هبل يتردد دائماً على انيل وطابوح . فقال لهما يوماً عندي نصيحة اريد ان ابديها الى سيدنا اخنوخ واخيه شيث تعود عليهما بالخير فارجو منكم ان تمكنوني من الدخول عليهما فادخلاه على اخنوخ وشيث . فلما راي اخنوخ هبل قال له اظن انك عدلت عن الكفر والنفاق وعن معاونة ابليس فقال هبل ﴿لا وحق البار﴾ ولكن اتيت في نصيحة لكم . وذلك بلغنى ان مولانا البار كان يقول ان الامامة لاخنوخ وان شرخ خليفة فعلى هذا يكون شطنيل قد غدركم وقصدي المجرد تذكيركم بهذه القضية لاني احب خيركم فاغتر اخنوخ بكلام الشيطان وادعى الامامة ونصب شيثاً خليفة ونسى العهد وقبل الخلافة وحيث ان اخنوخ ادعى الرتبة

التي ليست له ووافقه عليها شيث فنودي بين المجيبين ان اخنوخ اغتر بكلام هبل وعصى امامه ولما ظهر عيبهما للوجود اظهرا الندامة وبكيا بكاء كثيراً ثم عفا الباري عن جرمهما بشفاعة شطنيل واعاد لهما حالتهما السابقة وقالوا ان الكلمات التي في اية ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ حروفها خمسة وهي تشير الى شطنيل لان حروفه خمسة ايضاً

والذي نقول له عالَم الانس هو دور آدم هذا. وكان جناب الباري يتلطف بمخلوقات هذا الدور ويرحمهم الى ان تغيرت نياتهم ومالوا الى الشرك فعند ذلك نزع منهم نعمه والطافه وارسل اليهم نوحا بشريعة تخالف شريعتهم ودعاهم الى عبادة العدم وترك توحيد الصنم وقال لمن امن ظافراً ولمن لم يؤمن كافراً وتشبه بادم الصفا في نصب الاركان والنقباء وكان له اثنى عشر صاحباً وخليفة وكان ابنه سام اساس امره ثم ظهر بعد ذلك ابراهيم بن آزر واسم آزر اخنوخ فظهر وغير شريعة ابيه وشريعة نوح ونصب اسماعيل اساساً لدعوته وكان له ايضاً من اركان الدعوة اثنى عشر وثلاثين داعياً يدعون الناس الى عبادة العدم وترك توحيد الصنم وطاعة ابراهيم ويسمون من آمن وقبلَ ذلك مؤمنا ومن لم يقبل كافراً ثم ظهر بعد ذلك موسى فغير شريعة ابراهيم ونصب هارون اساساً لدعوته وكان له ايضاً اثنى عشر صاحباً يدعون الى غائب غير معروف والى طاعة موسى ثم بعد ذلك ظهر عيسى فغير شريعة موسى ونصب شمعون اساساً لدعوته وكان له ايضاً اثنى عشر صاحباً سماهم الحواريين وكانوا يدعون الناس الى عبادة العدم وترك توحيد الصنم والى طاعة عيسى والى اعتقاد أنه الولد المعنوي للوالد الكلي الذي هو الحجة القائمة لكن لم يفهم أكثر الناس كلامه ورموزه فسمى من آمن به وقبل منه ذلك مؤمناً ومن لم يقبله كافرا ثم ظهر بعد ذلك محمد بن عبدالله بالسيف فنسخ كافة الشرائع ووضع على اصحابها الجزية ونصب علياً اساساً وكان له اثنى عشر ركناً هم اركان شريعته وهولاء هم الخلفاء الاربعة وبعض الاصحاب الممتازين واحدهم هو معاوية وكان بعد عثمان. بالترتيب ولما كان عليّ اساساً عزله الا ان معاوية قال له ان حضرة محمد نصبني قبل ان ينصبك فلذلك عارضه وادعى الخلافة بعد عثمان. وقيل لمن قبل شريعة محمد موناً ومسلماً ومن لم يقبلها كافراً وشقياً ووضع

في الاسر والجزية. والحال ان القيام بالسيف وابطال سائر الاديان مخصوص بحجة القائم وصاحب القيامة الذي مع اقرار اصحاب الشرائع التكليفية احدهم للاخر يلزمه ان يتقي اتباعه من الغدر. فيعلم من هذه الاحوال المتناقضة ان كافة النطقاء تشبهوا بصاحب القيامة وقلدوه مع انهم في الحقيقة شيء واحد وانما صوره مختلفة. ثم ظهر بعد ذلك ناطق واسمه سعيد المهدي واساسه قداح وبهما تمت العصور وظهر دور القيامة وقالوا ان المراد من الشيء النكر المذكور في آية ﴿ويوم يدعو الداعي الى شيء نكر﴾ هو عبادة الحاكم التي دعى اليها في هذا الدور وينكرها جميع النطقاء واصحابهم. واتباعهم ثم انهم يفسرون هذه الاية على حسب تفسيرهم سائر الاديان بزعمهم الباطل بما لا اساس له ولا معنى

هذه خلاصة عقائد الدروز الباطلة وهي عبارة عن خرافات عجيبة واساطير غريبة ولم نر من تصدى لجرحها وابطالها وذلك لان كل من له ادنى شعور وادراك يجزم ببطلانها واذا تاملنا في حالتهم الخاسرة بالنظر الى قوله تعالى ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ نقول بخلوص القلب الحمد لله على دين الاسلام الذي منّ الله به علينا من الطافه الازلية وهو الدين المبين المحمدي ونجتهد في اداء فريضة الشكر وفي اهداء اكمل الصلوات والتحيات الى خاتم الانبياء وآله واصحابه واتباعه

ومبادرة العلماء في كتب العقائد الى سرد بعض المذاهب الباطلة والتصدي الى جرحها وابطالها انما هو لاجل ان يعلم بطلانها فيتجنب عنها واما مثل هذه العقائد التي لا اصل لها ولا فصل فهي بديهية البطلان وما ذكرناها الا لكونها من قبيل الخرافات والغرائب ولنبين لاهل البصيرة ان اولئك القوم سقطوا في مهواة الضلال والخسران بامر خسيس جداً فيحمدون الله على نعمة الاسلام ويشكرونه تكراراً على الطافه وارشاده. ثم ان في بر الشام مذهباً اخر اغرب واعجب يقرب من عقائد الدروز يقال له المذهب النصيري وقد راينا من المناسب ان نذكره اجمالا في هذا المقام

كيفية ديانة النصيرية

هولاء النصيرية يسكنون في الجبال الكائنة في جهات اللاذقية وطرابلس الشام .

ويوجد منهم ايضاً في دمشق والصالحية. وهم ايضاً فرقة من الباطنية. يجرون التقية مثل الدروز. اي يخفون مذهبهم ودياناتهم ويظهرون حالهم انهم اسلام ولهم عقال وجهال ايضاً. ويقولون بالتناسخ نظير الدروز. ولكن عند النظر في تفاصيل وتفاريع عقائدهم يوجد بينهم فرق كلى. وهو ان الدروز عندهم العفة ويجتنبون الدناءة. واما النصيرية فانهم يعتقدون ان الزنا مباح واذا اباحت المراة فرجها يكمل ايمانها

ثم قالوا ان ذلك مخصوص بعقالهم واما الجهال والعزاب فمن اللازم ان يجتنبوه

والنصيرية منقسمون الى فرق متعددة فبعضهم يعتقدون ان النساء في درجة سائر الحيوانات وانهن لا نفس لهن وبناء عليه فلا ثواب لهن ولا عقاب عليهن بالكلية

والدروز يقولون ان الارواح الانسانية تنتقل من انسان الى انسان آخر من اهل ملته بمعنى انها تنتقل الى قالب من قوالب تلك الملة فروح الدرزي مثلا تنتقل الى درزي وروح المسلم الى مسلم وهكذا من اي دين كان فهى تنتقل الى جسد من اهل ذلك الدين. واذا تنصر الدرزي مثلا او صار مسلماً سنياً ومات على ذلك. فذلك دليل على ان والدته زنت به قطعياً. لانهم يقولون انه بظهور الحاكم سد الباب فالذي آمن امن والذى بقى بقى وانقطع الامل ولم يبق لاحد وجه ان يخرج من دينه فاذا خرج احد فهو في اصله ليس من اهل دينه

واما النصيرية فانهم يعتقدون ان الارواح الانسانية تحل في البهائم والحشرات وربما في المعادن ايضاً وفي زعمهم ان مدار تفاوت الموتى يكون في الشان والحال الذي كان عليه من التقوى والعصيان. وأما من يكرم الضيفان ويؤدي حقوق الغرباء فروحه تحل في اجساد بشرية على حسب مرتبته. فان كان من الطبقة العليا اي من الابرار تحل روحه في اولاد الملوك والسلاطين وان كان من الطبقة السفلى تحل فيمن هو ادنى منهم وان كان شريراً فان روحه تحل في الحيوانات كالكلب والخنزير الذي صادفت ولادته وقت وفاته وان كان يستحق عذابا شديداً فروحه تحل في معدن كحديد مثلا يحرق بالنار وحيث ان دور الروح هذا انما هو لاجل المجازاة فانها تتكرر على هذا المنوال الى ان تكتسب

الصفاء فاذا كملت تكون نجماً في السماء

واما الحادهم وزعمهم الباطل فيما يتعلق بالالوهية والنبوة فلا يشبه عقيدة امة من الامم مطلقاً . وذلك انهم يقولون ان الالوهية لهابيل ومنه حلت في شيث . وان ادم كان نبياً كريماً . وان الالوهية انتقلت بعد ذلك الى اسماعيل والنبوة الى ابراهيم ثم انتقلت الى موسى ثم الى عيسى ثم الى سيدنا محمد ابن عبد الله وبالمثل انتقلت الالوهية الى هارون ثم الى شمعون المعروف بين النصارى ببطرس ثم الى علي بن ابي طالب واستقرت فيه الى ان التف بالحلة وصعد الى السماء وحل فى الشمس وانه موجود في الشمس الى الان وان الكواكب التى في السماء هى ارواح كبار عقال النصيرية فلذلك يسجدون للشمس حين طلوعها وغروبها ويحترمون الكواكب وفي ادعيتهم يطلبون حاجاتهم من العلي الاعلا بالتوسل بحرمة الكواكب الزاهرة ويدعون المقداد بن ابي الاسود احد الصحابة الكرام (رضى الله عنهم) برب الناس ويقولون ان علياً خلق محمداً وان محمداً خلق سلمان الفارسى وان سلمان خلق المقداد وان المقداد خلق سائر العباد . وليس لهم معابد كالجوامع والكنائس بل يجتمعون كل وقت فى بيوتهم وتاتي اليهم العقال والمشايخ ويتلون عليهم القصص والخرافات والاباطيل ويقولون عن ذلك اليوم يوم عيد . ولهم محل مخصوص محفوظ في بيوتهم لجمعية هذه الاعياد لا يدخلها غيرهم ولا يقف على امرها احد وعلى الفرض لو دخلها غيرهم فانهم يسعون في قتله واخفائه من دون ان يشعر به احد ولهم عيد ميلاد وعيد رأس السنة مخصوص بهم واما العيد الاكبر عندهم فهو اليوم الرابع من شهر نيسان ويدعونه بالنيروز

والحاصل انهم يشبهون الدروز في جهات عديدة ويشبهون المجوس بعبادتهم الشمس وتعظيمهم وتملقهم للكواكب . ويشبهون النصارى في بعض اشياء كتعظيمهم لبطرس واستعمالهم الخمر في الجمعيات الدينية وتحليل شربها وموافقتهم لهم في بعض الاعياد ويشبهون الروافض في غلوهم في تعظيم حضرة على رضى الله عنه والأئمة الاثنى عشر واما فى حقيقة الامر فان احوالهم تخالف الجميع واطوارهم خارجة عن اطوار كافة الملل حفظنا الله من شرور

كيفية ظهور الظاهر عمر وظهور الجزار وشهرته فى بر الشام وبعض حروب فيه

ان النفوذ والاستقلال الذى اكتسبه الشيخ ظاهر عمر في بر الشام منقول على هذا الوجه . وهو ان رجـلا اسمه زيدان جاء من المدينة المنورة الى صفد فاولد عمر وعمر اولد الظاهر هذا . ومن عادة اهـل الشام ان يضيفوا اسم الابن للاب فقيل له ظاهر عمر بالظاء المعجمـة واشتهر في سائر الجهات بطاهر بالطاء المهمله وهو غلط . وبعد انقراض اولاد معن دخلت ديار صفد في يدي بنى شهـاب وفي ابتداء امرهم تولى ظاهر عمر حاكماً على تلك الديار من طرفهم ثم صار امره ينتقل يوماً فيوماً الى ان اكتسب الاقتدار والثروة فصار متصرفا في كافة بلاد عكا وصيدا ويافا وحيفا والرمله ونابلس وصفد. وجعل عكا مركز امارته وولى اولاده على النواحى فكانت صيدا وصفد تحت ولاية ابنه علي الظاهر وكانت مشايخ بنى متوال اصحاب بلاد بشاره تحت امره

وعندما عصى علي بك في مصر على الدولة العلية على ما ذكرناه سابقاً كان الظاهر عمر ممن اتبعه وعندما خرج علي بك مغلوبا من مصر وجاء الى عكا دخيلا عليه واستمد من الروسيين لاجل الاستيلاء ثانية على مصر . وجلب الاسطول الروسى الذي كان في البحر الابيض الى عكا وفى تلك الاثناء وقعت العداوة بين بنى شهاب واولاد ظاهر عمر وسيقت العساكر من الشام عليه . وصـار علي بك مضطراً الى اعانة ظاهر عمر بسوق العساكر المصرية التى في معيته براً وسوق الاسطول الروسى الذي جلبه بحراً الى الجهة الثانية

وتفصيل هذه القضية على هذا المنوال حسب ما سبق من اخبار الجزار وهو انه فرمن مصر وجاء الى دار السعادة ثم توجـه من دار السعادة الى حلب ومنها الى الشام ولما لم يجد فيها سبباً لتعيشه جاء الى بيروت ومنها الى دير القمر وذلك في سنة ١١٨٤ فتلقاه الامير يوسف الشهابي حاكم جبل (لبنان) الدروز واجرى له زيادة الاحترام وبعد اقامته مدة عنده عاد الى دمشق

وبعد ان اقام مدة هناك يرتكب السفالة بلا دراهم توجه الى مصر في زي ارمنى وبعد ان بات في بيته ثلاث ليال اخذ المال الذي في بيته وجاء مرة اخرى الى الشام.

وفي سنة ١١٨٠ في خلال اقامته في الشام وجد فرصة العداوة التى ظهرت فيما بين اولاد ظاهر عمر والدروز على المنوال السابق وكان اذ ذاك عثمان باشا مصرلي نُصب سر عسكر جانب الشام فجاءه الامر باستخلاص صيدا من ظاهر عمر بالاتفاق مع الدروز. فجمع العساكر الكثيرة وعين خليل باشا متسلم القدس سابقاً قائداً للعسكر واصحبه باحمد بك الجزار فخرجوا من الشام وفي قرب صيدا اجتمع بعساكر الدروز وتهيأوا للهجوم على صيدا وكان على ابن ظاهر عمر جهز جيشه مع العساكر المصرية التى جاءت مع علي بك وخرج من عكا للمقابلة وعند تقابل الفريقين فى المحل المسمى سهل الغازيه قرب صيدا وقع القتال بينهما فكان الغلب للاشقياء ورجعت عساكر الدولة العلية الى الشام ورجع الدروز الى الجبل . وفى اثناء ذلك جاء الاسطول الروسى على حين غفلة الى مينا بيروت والقى مراسيه وهذا هو الاسطول الروسى الذي جلبه علي بك الى عكا لاجل ان يسترجع استيلاءه على مصر مرة اخرى ولما عرض امر العداوة بين الدروز والظاهر عمر على الوجه المذكور خرج من عكا الى جهات صيدا لاجل المحافظة عليها وعندما انكسرت جموع الدروز مع العساكر جاء الاسطول الروسى المذكور لاسكلة بيروت صباحا حينما كان كل شخص في فراش نومه وعند وصوله اخرج قائده مقداراً من العساكر الى البلد ونهبوا بعض البيوت والخانات ثم عادوا لمراكبهم

والامير منصور الذي اقام حاكماً على الجبل مدة اربع وعشرين سنه وترك الحكومة الى ابن اخيه الامير يوسف كان مقيما وقتئذ في بيروت ولما رأى الاسطول الروسى جاء بغتة كما قلنا وارسى في اسكلة بيروت استصحب جماعة من بنى شهاب وفر منها. ثم انه لما كان بينه وبين ظاهر عمر من الحقوق القديمة والمودة المستديمة دس اليه باعطاء خمسة وعشرين الف ريال الى قائد الاسطول اذا هو اقلع عن بيروت فاجابه الى ذلك واعاده الى عكا. ولما كان مجيء الاسطول

على هذا الوجه سبباً لضرر الامير يوسف استدعى وانهى الى عثمان باشا يطلب اعانته بقدر من العساكر مع احمد بك الجزار لاجل المحافظة على بيروت فارسل كاخيته والجزار معاً الى بيروت مع العسكر وحيث ان بيروت وقتئذ كانت في يد بني شهاب فسلم الاميريوسف قلعة بيروت الى الجزار وجعله محافظاً عليها واحضر من كان فيها من المحافظين وسائر المامورين وامرهم ان يكونوا تحت طاعة امره. ثم انه اخذ الجزار والمغاربه الذين اتوا معه وتوجه الى بلاد جبيل لاجل تاديب مشايخ بني حماده الذين عصوه في اثناء ذلك. وباتمام المصلحة وعودته الى بيروت لم يعد من حاجة لاقامة كاخية بك والجزار بها وعندما صار وقت رجوع الكاخية الى الشام تذاكر الامير يوسف مع عمه الامير منصور في ابقاء الجزار محافظاً على بيروت فلم يوافقه على ذلك واخبره ان اطوار الجزار لاتعجبه وقال له لا ينبغي لك ان تامنه على امرك واذا استقر في بيروت وثبت فيها لا تقدر بعد ذلك على اخراجه واوصاه واستنسب ارسال الجزار الى الشام فلم يسمع الامير يوسف نصيحة عمه وابقى الجزار في محافظة بيروت وعندما عاد كاخية بك الى الشام وبقي الجزار في محافظة بيروت صار مالكاً زمام امور المدينة.

وبهذا الاثناء ظهر تكراراً للوجود اسم الجزار ونظراً لما بينه وبين ابي الذهب من العداوة كما تقدم ذكره لم يرض بوجوده في هذه الجهات. وفي اثناء سنة ١١٨٦ كتب مكتوبا خفية الى الامير يوسف ذكر فيه الجنايات التي وقعت من الجزار عندما كان في مصر ووعده بمائتي الف ريال اذا قتله وارسل راسه الى مصر. وكان الجزار في هذه المدة صار معروفا عند الدولة العلية منظوراً اليه فلم يقدر الامير يوسف ان يجيب الى ما طلبه ابو الذهب وكتب اليه مكتوبا يتضمن الاعتذار قائلا فيه انني اخاف من تكدير الدولة العلية وعتابها

ومن بعد ذلك شرع الجزار في ترميم ما انثلم من قلعة بيروت واحكام اركانها ولما رأى الامير يوسف انهماك الجزار في هذا الامر وحرصه عليه حصلت عنده الشبهة ولاحظ انه في نهاية استحكامات القلعة يكون اخراجه من هناك متعذراً فحرر اليه بان يترك تعمير القلعة ويذهب الى الشام قائلا له انني اتعهد الى

الدولة العلية بمحافظة القلعة فلم يسمع لذلك ولم يعمل به بل زاد اهتمامه بامر القلعة وتحصينها اكثر عن الاول ومنع اهالي الجبل المسلحين ان يدخلوا الى القلعة فعندها تحرك الامير يوسف بالعساكر على بيروت ولما اتصل ذلك بالجزار وصار معلوما عنده ارسل خبراً الى الامير يوسف يطلب الملاقاة معه في محل لاجل قطع مادة المخاصمة وانه يكون هو مع بعض اتباعه والامير يوسف مع بعض المشايخ ايضاً فعلى هذا الوجه جاء الامير يوسف مع جماعة قليلة وتلاقى معه قرب بيروت فتلطف في المراجعة واقنع الامير يوسف بانواع الدسائس واخذ منه مهلة اربعين يوماً وانه بعدها يترك بيروت ويتوجه الى الشام . وبناء على المقاولة التي جرت بينهما في ذلك عاد الامير يوسف الى الجبل فرجع الجزار الى بيروت واجتهد ليلا نهاراً وبعد ان اتم كافة لوازم القلعة ومهماتها في مدة ٤٠ يوماً جاءه امر الامير يوسف بالرجوع الى الشام انجازاً لوعده الذي وقعت عليه المقاولة فاظهر الخلاف ولم يلتفت لامر الامير يوسف المذكور وصار حيناً بعد حين يخرج بالمغاربة الذين في القلعة وينهب البلاد والقرى التي في الخارج. وبناء على ذلك جاء الامير يوسف بالعساكر الجرارة وحاصر بيروت براً واستنجد الطاهر عمر فانجده واستدعى الاسطول الروسي الذي كان وقتئذ في قبرص ووعد رئيسه بستمائة كيس عند استخلاص بيروت من يد الجزار فحضر الاسطول واخذ يرسل قلله على بيروت بحراً . وامست محصورة براً وبحراً واتصل ذلك مدة اربعة اشهر واشتد الامر ولم يبق اثر للذخيرة فاضطر الجزار حينئذ الى تسليم القلعة بواسطة الطاهر عمر على شرط ان لا يحصل له ولرجاله ضرر ولما وقع الاتفاق على ذلك سلم القلعة الى معتمد من رجال الطاهر عمر وهو سلمها الى الامير يوسف وذهب الجزار بعد ذلك الى عكا مع جماعة الطاهر عمر واجرى له الطاهر عمر الرعاية الزائدة واعطاه ما يحتاجه من الدواب والمواشي وارسله معززاً الى دمشق الشام. وبعد وصوله اليها احتاط على الدواب المذكورة وامتنع عن ردها واعادتها الى الطاهر عمر . ثم ان الامير يوسف بعد ان دخل بيروت غرّم اهاليها ستمائة كيس ودفعها الى قومندان الاسطول وفاء بشرط المقاولة

والعداوة التى كانت منذ زمن بين الامير يوسف والظاهر عمر قد تبدلت في هذه القضية بالمحبة وفي خلال ذلك افتكر الظاهر عمر في طلب العفو عن قصوره فخابر في ذلك عثمان باشا والي الشام ووعده بدفع الف كيس من بقايا اموال ايالة صيداو بعد ذلك يدفع في كل سنة على وجه المقطوع اربعمائة وخمسين كيساً واشترط في ذلك ان تعفو الدولة العلية عن جرمه. وقد وجد بين الاعلانات التى نشرها والي الشام في الجهات وقتئذ بوفاة حضرة السلطان مصطفى اعلان ارسله عثمان باشا الى الامير يوسف من جملة ما فيه ان الظاهر عمر عرض انقياده للدولة العلية وانه صار انهاء الكيفية من طرفنا الى الدولة العلية في ذلك وانى تعهدت له بانها تعفو عنه. وكذلك الظاهر ارسل مكتوبا ايضاً الى دار السعادة طلب فيه العفو عن قصوره وعرض ان البرودة التى كانت بينه وبين وكيل عثمان باشا سرعسكر هذه الجهات زالت والغيت. وهكذا صار انهاء الكيفية والاشعار من طرف عثمان باشا على المنوال المذكور فاجابته الدوله العلية الى ذلك وصدر قبول الانهاء من طرفها وحصل حسن الوفاق في الاقطار الشامية واتحدت كلمة الطاعة فى كل طرف وانصرفت الغائلة

غير ان هذه المحبة والاتحاد لم تطل مدتهما كثيراً وظهرت العداوة بين عثمان باشا والامير يوسف وبناء على ذلك خرج عثمان باشا من الشام في اكثر من خمسة عشر الفاً من الجنود ونصب خيامه في البقاع وعند التهيء للحرب استعان الامير يوسف بالشيخ ناصيف نصار شيخ مشايخ بنى متوال فجاء بعساكره الى جهات البقاع نجدة له ولما اتصل الخبر بعثمان باشا فر ليلا راجعاً الى الشام واتبعه الدروز فنهبوا اثقاله ومافيها من مدافع وخيام وطار الخبر الى الدولة العلية فرفعت عن عثمان باشا لقب الوزارة واحالت خطة الشام الى محمد باشا العظم

فى احوال العراق

مدينة بغداد ابتناها الخلفاء العباسيون وجعلوها عاصمة حكومتهم ومركزاً لادارة البلاد العراقية التى كانت من القديم منشأ الشقاق والنفاق. ولما دخلت في حوزة الدولة العلية جعلت بلاد الاكراد تحت نظارة والي بغداد وان يكن

جعل عزل ونصب امرائهم يكون فى البيورلدي من طرف والي بغدادكانت الامارة منحصرة في بعض ذوي البيوت المعدودة على ترتيب اصطلاح الاوجاق ولا سيما ابناء عائلة البابان فانهم بالقهر والقوة كانوا متصرفين في لواء البابان وكان نفوذ حكومتهم جاريا في سائر بلاد الاكراد . وكانت بينهم ضغائن فيقاتل بعضهم بعضاً واحيانا يظهرون العصيان على ولاة بغداد واذا ضاقت بهم الحال عطفوا عنان وجهتهم الى بلاد ايران فكانت لذلك تلك الجهات لاتخلو عن الفتن والاختلال ومن جهة اخرى كانت طوائف العربان في بعض الاوقات يظهرون العصيان فكانت كذلك جهات البصرة لا تستريح من الغوائل والارتباك ولبعد تلك البلاد عن دار السعادة مقر السلطنة السنية كان قديماً يوجد صعوبة في ادارة ايالة بغداد

وكان احمد باشا بن حسن باشا المشهور بفاتح همدان لاحظته عناية التوفيق فاحسن ادارة تلك البلاد مدة مديدة وبعد وفاته سنة ١١٦٠ ارسلت اليها الدولة العلية ولاة متتابعين فلم يساعدهم التوفيق على حسن ادارتها مع انهم من الوزراء المتحيزين والمنظور اليهم ولما كان من اللازم احالة ذلك الى احد الرجال الذين تربوا في تلك البلاد واكتسبوا الوقوف على امور داخلها وخارجها واحرزوا معلوماتها . وحيث ان سليمان باشا الذي هو من مماليك احمد باشاوظف مدة مديدة في خدمة الكتخدائية للباشا المومى اليه ثم صار صهراً له فمن رتبة الميرميرانية وجهت عليه رتبة الوزارة مع ولاية بغدادوذلك سنة ١١٦٣ فاشترى كثيراً من المماليك وعلمهم الجندية واستعمال السلاح واستخدمهم في جميع الامور الخصوصية في دائرته وفي سائر المصالح المهمة ثم قام بسد باب نفوذ ذوي البيوت الموجودين في تلك الجهات واستبدادهم واشتدت وطأته حتى انه لم يتمكن لاحد ان يرفع رأسه سواء كان من طوائف العربان او من الامراء الاكراد وكان من عادته انه يشن الغارة في الليالي ويصبغها بالدماء فاشتهر لذلك بين العربان بابو ليلة وَوُفق لضبط الامور واقتدر عليها وربط الاحكام ببغداد مدة اثنى عشر سنة وبسبب زيادة اعتباره لجانب المماليك فتح بابا في بغداد لظهور وجاق الكولهمَنْ يعنى المماليك

ثم انه عندما توفي الباشا المذكور سنة خمسة وسبعين ووصل خبر وفاته الى

دار السعادة وجهت ايالة بغداد الى سعد الدين باشا والى ايالت الرقه ثم ان اهل
بغداد ارسلوا قبل سفره المحاضر يتبع بعضها بعضاً يطلبون فيها تعيين احد
الكتخداية السبعة الذين كان سليمان باشا اظهرهم وتعينوا سابقاً ولاحقاً في بغداد
وصاروا امنظورين ومعتبرين فانتخب من بينهم الكتخدا علي ووجهت لعهدته ايالة بغداد
مع رتبة الوزارة . وهذا ايضاً كان رجلا فاضلا ممدوح الصفات ووفق مدة لحسن
ادارة الايالة ثم بداعي حسد بقية الكتخداوات ومراقبتهم له بادروا لاغراء
الاتباع وبعض السفهاء على مضادته والتعصب عليه ولما احس بذلك بادر لتأديب
اولئك الاشقياء فاوقد الكتخداوات نار الفتنة واجتمعوا تحت رئاسة احدهم
اسمه عمر كتخدا بك وفي النهاية قتلوا علي باشا واعدموه وذلك سنة ١١٧٧
وانهوا الى دار السعادة ان علي باشا شيعي الاصل ومراده يعطى بغداد الى
العجم وبناء على ملاحظتهم في هذا الامر قالوا انهم اذا عرضوا ذلك في تحرير
ربما تتاخر المصلحة فبادروا بقتله حالا واندفعت غائلته وان الكتخدا عمر عاقل
ورشيد على ادارة المملكة فالدولة العلية بحسب ايجاب الوقت والحال اضطرت
الى موافقة طلبهم ووجهت ايالة بغداد مع رتبة الوزارة لعهدة عمر كتخدا
فنال الكتخداوات مرامهم بهذا الوجه وساقهم الحال الى ان جعلوا انفسهم
وجاق (كوله من) واخذوا في تقليد امراء مصر باجراء كل ما يريدونه وبعد
ذلك ظهرت غائلة المماليك في بغداد ايضاً وصار ولاة بغداد يصاهرون المتحيزين
منهم ويجعلون منهم الكتخدا ويسلمونهم زمام امور المملكة فرويداً رويداً
صار الحل والعقد في بغداد بايدي هاولاي

ونال عمر باشا المذكور ولاية بغداد على هذا الوجه وهو في حد ذاته كان
ذاتا شجاعا قادراً على الضبط والربط وفي ابتداء امره ارهب الناس وادب
بعض العشائر التى سلكت طريق العصيان فصار الناس يخافون من شدته
ويرتعشون من صولته ومضت اكثر ايامه على الراحة وفي حرب سنة اثنتين
وثمانين كانت الراحة مفقودة من جميع الجهات الافي بغداد فانه لم يحس احد
بعدم الراحة وبذلك صارت جديرة بان يقال لها على وجه الصحة
دار السلام .

لكن لما ظهر الطاعون سنة ستة وثمانين تغير الحال وفي مدة قليلة لحقت

نفوس عديدة بالدار الاخرة وفر اكثر اهلهالما استولى عليهم من الدهشة والخوف الى ديار اخرى وكم من بيوت اغلقت ابوابها وكم امرأة ترملت وانقلبت مدينة بغداد عما كانت عليه من العمارة الى الخراب

وبعد ستة اشهر انقطع ذلك البلاء وانطفت تلك النار واندفع خوف الناس وزالت خشيتهم وعاد كل هارب الى محله وهي وان كانت بعد ذلك ظهرت عليها صورة العمار فان اعادتها الى احوالها القديمة تحتاج الى وقت مديد اذ لم يبق فيها للنظر في الامور اناس مجربو الاطوار والذين تنفع اراؤهم في الاشغال ويعرفون مداخل المملكة ومخارجها فاضطر عمر باشا الى استخدام بعض الجهال من الاكراد والعرب وصارت الاحكام بيد غير اهلها فلم تكتسب البلدة الغنى والانتظام وباتت المصالح المهمة مقلوبة على وجهها معطلة واخذ العربان والعشائر المترصدون للفرص في القيام واثارة الفتن من كل جهة

وكانت بلاد الاكراد في تلك الاثناء مختلة النظام وذلك بسبب ما وقع بين امراء البابان من الجدال

احوال اراضى ايران

كنا ذكرنا سابقاً طرفا من اخبار نادر شاه والان نقول انه بعد ما هاش وطاش مدة بداعى الاستيلاء على الكون قتل وخلفه بعض الامراء وجلس مكانه غير انه لم يتمكن من شيء ونادر شاه لكونه عسكريا ودعته نفسه الى الاستيلاء على الكون بذل وسعه الى ان صار شاه ايران ووضع هذا الفكر الخام في افكار امراء العجم فلذلك صار كل منهم يدعى الاستقلال فبعضهم يقصد ان يكون شاهاً وبعضهم يقصد بسعيه ان يجلس احد اولاد الصفوية او النادرية الذين هم شهزادات على تخت مملكة ايران واثاروا الفتن بسبب ذلك من كل جهة في الممالك الايرانية

لكن لما كان زند كريم خان سالكاً مسلك العدل والكرم استجلب اهل ايران لجهته فكثرت جموعه وغلب على الباقين فاستولى على جهات فارس وعراق العجم من ممالك ايران واكثر بلاد خراسان واما بلاد اذربيجان فانها

وان كانت في ايدي امراء مستقلين الا انهم اظهروا وجه الانقياد الى كريم خان وخدموه بارسال الهدايا وغيرها

فصار كريم خان بهذه الصورة حاكماً مستقلا في ممالك ايران ومع ذلك فانه لم يدع انه شاه بل ادعى طريق الامامية ومذهبهم في جميع رسومه ولقب نفسه بوكيل شاه

وعلى ما قيل ان كريم خان هذا هو احد الانفار الذين اخذهم نادر شاه كرهاً من عشيرة الزندية من الاكراد سنة اربعين وهم من القوم السالكين مذهب الغرابيه من غلاة الشيعة المتوطنين في جهات شيراز على طريق الاعراب الرحالين . وانه خدم نادرشاه مدة وخدم ابن اخيه عادل شاه وغيرها بكونه عسكريا واحرز رتبة اونباشى الى ان وصل الى رتبة بيكباشى ثم في خلال سنة خمس وستين اختلس فرصة ثورة العجم ولقب نفسه برتبة خان وتغلب على غيره ثم في اثناء سنة ٧٢ تخميناً صار مرجعاً للكل في تلك الجهات وحاكماً مستقلا في ايران . وحيث انه لم يكن من الاصلاء والايرانيون لايرضون بشاهٍ ليس بذي نسب معروف عندهم فلاحظ انه اذا ادعى السلطنة لم يوفّق كما لم يوفّق غيره من الشاهات السالف ذكرهم وكانت له في سوء عاقبة نادر شاه مع ما اكتسبه من القوة والقدرة العظيمة عبرةً كبرى ولذلك صرف النظر عن عنوان شاه واحرز الاستقلالية باسم وكيل ايران واتخذ شيرازاً عاصمة للحكومة واخذ كفلاء معتبرين يعتد بهم من اولاد الامراء واقاربهم المتحيزين في بلاد ايران ثم وجه اليهم المناصب والايالات فقوّي بهذا حكومته وحصنها وبهذه الصورة حكم هو وذريته من بعده اربعين سنة ويقال لهم الزندية

ان طوائف لور وبختياري وكوران ولك وكرد تشعبوا من اصل واحد وانقسم كل شعب الى بطون عديدة وهولاء مع انهم من الوطنيين قديماً في بلاد ايران فانهم انحازوا الى الجبال هروبا من الوقائع الجسيمة القديمة وامتدوا من ديار هرمز الواقعة في مملكة شيراز الى جوار ملاطية ومرعش ولاستيلاء الجهالة والبدوية عليهم نسوا اصلهم ونسبهم لكن اتحادهم واتفاقهم في بعض الاصول والعادات القديمة جعلهم يستشعرون بانهم من اصل واحد ولذلك

تاخذهم الغيرة الطبيعية على بعضهم بعضاً

وعشيرة زند التى منها كريم خان هى بطن من بطون قبائل الاكراد وكان كريم خان المذكور كرديا خشن الطبع . ولما زالت دولة نادر شاه في اثناء ما وقع من الهرج والمرج في بلادايران جلس كريم خان المشار اليه على كرسى سلطنتها وهو كالمتعجب المتحير مما اتفق له من السلطنة وحيث انه كان خبيراً بالاحكام وما يتعلق بها استقل بملك تلك الممالك الايرانية ووقعت للطوائف المرقومة غيرة الاتحاد المقوية لنفوذه وتباهوا به وافتخروا بظهور ملك مثل هذا منهم ومالوا اليه وانجذبوا جميعاً لطرفه ولهذه الاسباب امسى امر المحافظة على بلاد الاكراد التى هى من جملة الممالك العثمانية المحروسة محتاجا لحامية قوية عظيمة وكانت حكومة بغداد المنوط بها امر المحافظة على بلاد الاكراد مختلة النظام مشوشة الافكار اذذاك كما سبق بيانه وبهذا صارت تلك الجهات آيسة في حالة الخطر

ولما اتصل خبر كريم خان المذكور بالدولة العلية صادقت على حكومته في ايران وفي ابتداء جلوس حضرة السلطان عبد الحميد خان ارسل له ماموراً مخصوصا حاملا رسالة همايونية بشره فيها بجلوسه الهمايوني وعندما وقع النزاع بين خانات ايران وقام بعضهم على بعض بسبب اختلال امر المملكة اضطربت الاهالي وطلبت اهل اذربيجان الحماية من الدولة العلية وكان كثير من الناس رغبوها وشوقوها مرات كثيرة الى الاستيلاء على بعض اطراف ايران وكان هذا وقتئذ ممكناً باقل كلفة ومع ذلك فانها اعرضت وراعت حق العهدة التى كانت عقدت مع الايرانيين في زمن نادر شاه فتباعدت عن وقوع حركة مخالفة للعهدة المذكورة ورات ان وسعة ممالكها المحروسة كافية ولذلك لم يقع ادني تعرض للممالك الايرانية بل جرى التنبيه على الوزراء والامراء الموجودين على الحدود بان لايجروا حركة مخالفة للعهدة ومنافية لحقوق الجوار وبناء على ذلك صار كريم خان اميناً من جهة الدولة العلية ثم بعد ذلك حصلت برودة بين الدولتين بسبب مصالح بلاد الاكراد .

وجاق البابان

كان في قضاء (بوجدر) رجل من المعتبرين يدعى الفقيه احمد أحدث وجاق البابان ثم قام ابنـه ماودو واستولى على شهربازار وقضاوات اخرى في تلك الجهات ثم بعد ذلك اعطت الدولة العلية لابنه سليمان بك سنة ١٠٨٠ حكومة تلك الجهات باسم لواء قره چولان فسليمان هذا عندما عاد مع العسكر الهمايوني لطرف الاستانـة توفي في ادرنه وبقي القليل من المواضع التى كانت تحت تصرفه بيد ابنه بكر بك واما الاكثر منها فقد حازه متصرفوها القدماء وهم عشيرة (زنكنه) . ولما وقع الحرب بعد مدة مع ايران أُعطى لواء قره چولان مع انضمام اردلان اي اراضى سنه وصوغوق بولاق الى ابنـه الاخر المدعو خانك باشا وبعد ذلك تولى الحكومة اخوه خالد باشا وابنه سليمان باشا وفي مدة هذين الاثنين الحق لواءي كوى وحرير ايضاً الى قره چولان . وعند تقدم نادرشاه في تلك الجهات ايام هذين الاثنين سلط الايرانيون على تلك الجهات رجلا اسمه سليم بك احد اولاد اخ خالد باشا لاكنه لم يعتبر ولم يعدّ في سيـاق متصرفي اللواء المذكور كما ان الاشخاص اللذين تسلطوا على الادارة بمظـاهرة الايرانيين لم يحصل التصديق على حكومتهم تاريخياً

وبعد سليمان باشا دارت المتصرفية بين اخوته محمد باشا واحمد باشا ومحمود باشا وكل منهم صار متصرفا لذلك اللواء بالمناوبة

وكان المترشحون للمتصرفية من عائلة البابان يقيمون في بغداد في الاكثر لاجل ان يتخذوا لهم احزابا واحيانا يجعلون منهم رقباء على المتصرف ثم على ما تقتضيه مصلحتهم فلذلك كان توجد في بغداد دائماً دار كبيرة مخصوصة لهذه العائلة واي شخص كان متصرفا من هذه العائلة يجعل عليه المترشح لمحله من يراقب احواله وصـاروا لذلك اذا اخلص احدهم في عبوديته للدولة العلية يكون المقابل له من الطرف الثاني ميالا للايرانيين

وعلى هذه الصورة كان احمد باشا ومحمود باشا منقادين الى والي بغداد بالاتحاد وكان اخوهما الكبير محمـد باشا منحازاً الى الايرانيين وبالجملة فالحرب

التي حدثت بين الفريقين كانت سبباً لظهور غوائل كثيرة وفي النهاية كانت داعية للحرب الايرانية كما سنبينه في المجلد الآتي

وبعده مال محمد باشا الى بغداد ومال اخوه احمد باشا الى ايران ومن هذا ايضاً ظهرت مفاسد كثيرة وفي آخر الامر تقررت متصرفية البابان على محمود باشا وبقي في المتصرفية الى سنة الف ومائة وسبعة وتسعين

ومن بعده صار ذلك اللواء لابراهيم باشا وخالد باشا اولاد احمد باشا وبعدهما لعثمان باشا وعبد الرحمن باشا اولاد محمود باشا ومن بعدهم لسليمان باشا ابن ابراهيم باشا ومحمد باشا ابن خالد باشا بالتتابع

والايرانيون كانوا ينتفعون دائماً من المراقبة والمشاحنة التي كانت بين امراء البابان ولم تخل بغداد من غوائلهم وفي نهاية الامر صار الغاء هذا الوجاق وتفرقت امراؤه . وسليمان باشا ومحمود باشا وعزيز بك المعروف الان والمعلومة اسماؤهم جميعاً في زماننا هم اولاد عبد الرحمن باشا المومى اليه . واحمد باشا وعبدالله باشا وقادر بك ومحمد بك اولاد سليمان باشا ما برحو الى الان فى قيد الحياة

وكان مركز هذا اللواء قره چولان وفي الاخير صار مركزه في قصبة السليمانية التى انشأها ابراهيم باشا المومى اليه. وتفصيل ذلك ياتي في المجلد الثالث .

خاتمة

اما فهرس احوال الدولة العلية ومناسباتها مع سائر الدول في سنة ١١٨٨ فهى على المنوال الذي صار بيانه واما وقائعها التى ظهرت بعد ذلك فسيصير بيانها بمنه تعالى في المجلدات التى بعد هذا

ذكر الاوراق التى وعدنا بها فى اثناء الكتاب

صور التقارير التى كتبها واصف افندي ليقدمها الى جرائد الوقائع التى جمعها

يعرض عبدكم

ان الوقائع التي حررها من قبل نوري بك في ست مجلدات من اواخر

سنة ٢٠٨ الى رمضان سنة ثلاثة عشرة نقلتها بقلمي على موضوع مخصوص
في التاريخ وعند كل مناسبة ذكرت الفوائد الملكية وصرفت ما في الكيس من
نقد بضاعة الحكمة العلمية وضممت والحقت اليها ما برز منها في مرآة الوجود
من الوقائع الديوانية والحوادث اليومية منذ ابتداء مامورية عبدكم الى الآن
وزينت صحائف السطور بقلمي العاجز جميع الوقائع التى ظهرت منذ الجلوس الهمايوني
المقرون باليمن الى يومنا هذا وهذا امر اوجب الفخر العظيم لهذا العبد
الحقير وحيث ان الاجزاء الجديدة المذكورة التى حررتها من قبل لتكون
مجلداً ثانياً للمجلد الاول جرى تذهيبها وتجليدها وقد تقدم اولا مجلدان في
الوقائع القديمة والان اقدم لمعالي آصفيتكم المجلدات المذكورة مع المجلدات
الاربعة الباقية لاجل رفعهم الى حضور الحضرة الشاهانية المحصورة بها المكارم.
ولما كان عبدكم القديم في فن الانشاء والتأليف معنىً ولفظاً قاصراً بل أعيا
من باقل فاسترحم ان يكون قصوري الواقع بغير اختياري في سبك الكلام وافادة
المرام مستوراً بذيل عفوكم وان تنظروا الى آثار هذا العاجز بعين الرضى
والامر والفرمان لحضرة من له اللطف والاحسان

تقرير آخر

ان الحوادث والاحوال التى وقعت فى الدولة العلية الابدية الاستمرار من خامس
عشر محرم سنة الف ومائتين الى غاية صفر الخير سنة ست عشرة تحررت
تفصيلا واجمالا بقلم عبدكم الكثيب البال ورفعت لمعالي مقامكم السامى
لاجل عرضها وتقديمها الى الحضرة الشاهانية المحصورة فيها المواهب والتى
هى كعبة اقبال ذوي الآمال وان يكن عنايات اولي النعم التى لا نهاية لها والتى
تجلت ظاهرة في جلوة الكرم في حق هذا العاجز لحد الان لم تجعل لي وجهاً
لاستعطاف المروءة والاحسان فاصبح العبد الفقير غريقاً في لجة الادب والحياء
وان يكن ذلك اجلى من البديهيات لكن اظهار صورة الاستغناء ايضاً عن
الطاف ومكارم اولياء النعم يكون معنى خارجا عن رسم العبودية وعلى الخصوص
القضاء الفجائي الذي وقعت فيه بمقتضى تقديره سبحانه وتعالى جعلني على كل
حال انا العبد الضعيف المستحق للرافة والشفقة الخسروانية استرحم ان وافقت

رأي آصفيتكم الرزين الذي هو للاصابة قرين ان يصير ضم مقدار علاوة على العطية الهمايونية التى يصير الاحسان بها من طرف الميري عند عرض اجزاء الوقائع في كل سنة لتكون مداراً لبناء محل يستر الاولاد والعيال من المذلة والامر والفرمان

تقرير آخر

ان الحوادث اليومية والرسوم الديوانية التى ظهرت بمرور الايام في الدولة العلية الابدية الدوام كانت تحرر وترقم بقلم العاجز الفقير نقش الحرير وفي كل سنة كانت تعرض مرة لحضور خديويتكم اللامعة بالنور فالان اقدم لمعالي آصفيتكم ما جمعته ونظمته بكمال الدقة والتحري من الحوادث التى تولدت من مشيخة العالم في مدة سنة واحدة وذلك من صفر سنة ست عشرة الى صفر سنة سبع عشرة لكي ترفع الى عتبة المرتبة الشاهانية الرفيعة هذا اذا تعلقت ارادتكم المشيرة بعرض الاجراء المذكور كالسابق والامر والفرمان

منقبت زيب شه جم مسند كمترين بندۀ واصف احمد

ملخص معناه

عبدكم ياسيدي واصفُ احمد من عبيد الملك السامي المؤيد

ملك مسنده مرتفع فوق جم ملك الفرس الممجد

نمرو (٢)

صورة ترجمة مكتوب تيمورلنك الى شارل السادس ملك فرنسا

الامير الكبير تيمور كوركان زِيدَ عُمره

فليقبل ملك فرنسا مائة الف سلام من هذا المحب واخلاصاً كثيراً بقدر الدنيا. وبعد تبليغ الادعية يعرض لرايكم العالي انت ايها الامير الكبير ان فرنسيسقوس الاخ الراهب الواعظ حضر لطرفنا واحضر مكتوبكم الملوكى واوضح لنا ايها الامير الكبير عن اسمكم الطيب وشان عظمتكم فسررنا جداً وهكذا نبين ايضاً باننا ذهبنا بعساكر جرارة وبعون الباري تعالى جعلت قوة اعدائنا واعدائكم مضمحلة وبعد هذا ارسلت لحضوركم الاخ جوانى مرخص مدينة سلطانية فهو يعرض ويقرر كلما وقع فالآن ارجو منكم ايها الامير

الكبير ان تواصلونا برسائلكم وتعلمونا خبر سلامتكم وعافيتكم ليحصل لنا راحة الخاطر ومن اللازم ايضاً ان تجاركم بطرفنا كما اننا نمسكهم معززين مكرمين كذلك تجارنا يذهبون لطرفكم فاعزوهم وطيبوا خواطرهم ولا تتركوهم من انظاركم فيحصل لهم زجر او تحدي من احد وبعد هذا اقول فلتبق دولتكم سنيناً عديدة بالظفر والسلام

ترجمة صورة المكتوب الهمايونى الذى ارسل من طرف السلطان سليمان الى فرنسيس ملك فرنسا

الله العلي الغنى المعطى المعين

بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته وعلت كلمته وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم الكثيرة البركات وبموازرة قدس ارواح حماية الاربعة ابي بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وجميع اولياء الله انا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك ظل الله في الارضين سلطان البحر الابيض والبحر الاسود والاناضول والروملي وقرمان والروم وولاية ذِمى القدرية وديار بكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة ايضاً التى فتحها آبائي الكرام واجدادي العظام بقوتهم القاهرة انار الله براهينهم وبلاد اخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتى بسيف الظفر انا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان الى فرنسيس ملك ولاية فرانسا وصل الى اعتاب ملجأ السلاطين المكتوب الذي ارسلتموه مع تابعكم فرانقپان النشيط مع بعض الاخبار التى اوصيتموه بها شفاهياً واعلمنا ان عدوكم استولى على بلادكم وانكم الان محبوسون وتستدعون من هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم وكل ما قلتموه عرض على اعتاب سرير سدتنا الملوكانية واحاط به علمى الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشرح الصدر ولا تكن مشغول الخاطر فان ابائي الكرام واجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خاليين من الحرب

لاجل فتح البلاد ورد العدو ونحن ايضاً سالكون على طريقهم وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلا ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بارادته ومشيئته واما باقى الاحوال والاخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا تحريراً في اوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة

بمقام دار السلطنة العلية
القسطنطينية المحروسة المحمية

ترجمة النطق الرسمى الذى اورده ابراهيم باشا فى الديوان العالى الى سفير فرنسا فى عصر السلطان سليمان

ان الحكمة فى اجتماعنا كل يوم في هذا الديوان العالي مع وكلاء الدولة العلية انما هى قضية مبنية على كوننا مامورين مخصوصين من طرف صاحب الشوكة والقدرة مولانا السلطان ملجأ الانام بالمذاكرة والمشاورة بالكلام في الامور الملكية وعندما يتشرف كل منا بالقدوم والدخول في الديوان العالي نترك الاغراض والعلل المخصوصة ونبين ونفيد خلاصة الافكار والتدبير بالحرية مع رعاية حق الكلام فالامل منكم ان لاتكونوا مكدرين الخاطر من كافة ما نفيده بهذه المرة لجنابكم بالحرية التى هى للصدق والحق انيس حقيقى وقرين صحيح . انه منذ عقد متبوعكم سلطان فرانسا اتفاقاً مع السلطنة السنية فبمقتضى ما للذات العلية الملوكانية من حسن التوجه نحو ملة فرانسا لم يقع قصور من طرف الدولة العلية قطعاً بامر صرف الهمم واستكمال جميع الاسباب والوسائل اللازمة المنوطة بقوة السلطنة السنية القاهرة لاجل ضرر اعدائكم ودفعهم وتقوية بنيان دولتكم واستحكامه وبذل ما تمنيتموه وانتظرتموه من المساعى الجميلة وترويج مسائلكم ومع ان الامر كذلك فان مدعى فرنسا وُجد بعيداً عن طريق الحق والانصاف ومنافياً للعرض والناموس وموجباً لفسخ قانون الحب والاتحاد ونحن نقول وكذلك الاجانب الذين لا يحبونكم يقدرون ان يقولوا ان ما وقع منكم كان مخلا بمراسم الحياء والادب نظراً لما ظهر من اطواركم المنافية للادب ومن الواجب ان الدولتين المتفقتين لابد ان تكونا بخلوص

الطوية وصدق النية متشاركتين بما يعرض للطرفين من المهالك والاضرار والمصاريف وان تكونا ساعيتين ببقاء الاتفاق والا فاذا حصل قصور من احداهابرعاية قاعدة المقابلة بالمثل والمعاونة يصير الاتفاق طبيعياً ملغىً ومفسوخاً اما انتم يا احبابنا الفرنساويين كلما وقعت الدولة العلية في تهلكة واضطراب تظهرون دائماً التغافل والتساهل واذا انخرطت ملتكم في محاربة ومخاطرة فانكم تظهرون كل التيقظ والتنبّه وتسارعون لطلب الاعانة مع انكم لم تمدوا الدولة العلية بالمعاونة اللازمة في وقت من الاوقات بل طالما هرعتم فوراً لاظهار الحب بالوعود وبالسفارات التى لا فائدة منها . وهذا شارل امبراطور المانيا وملك بروسيا جلب وجمع عساكر كافة الممالك الغربية وحشدها في اوستريا والمجر التى هى ضد الدولة العلية وساقها وسلطها على بلاد جزيرة الموره وحاصر تونس فاي اثر ظهر لمحبتكم واعانتكم في امر اشغال عدو الطرفين . ولكن لامر ملتزم لدينا نصرف النظر مروّة عما وقع منكم حتى الان من القصور والتساهل ونعاملكم بالعفو وكذلك نصرف النظر ايضاً عن عدم رأفتكم وشفقتكم لحال اضطرابنا ومضايقتنا في تلك الايام وعدم تاثركم اصلا من الحقارة والاهانة التى اظهرها العدو في ذلك الحين فهذا كله نتركه الآن على حدة وبعده كيف نقدر ان تحمل التبريك الذي اجريتموه الى عدونا في معرض الخلوص . هذا مع ان السرعسكر الذي أمر بتجاوز ايتاليا لاجل اعانتكم وخدمتكم قد قطع مسافة لحد اولونيا وساق العساكر الاسلامية فلم ينظر احداً من الاطراف والمحبين الذين كنتم وعدتم بهم واخبرتم عنهم متفاخرين بانهم يقومون باعانة عساكرنا في سواحل ايتاليا . ومع انه من اقتضاء شروط الحب ان يتعين من طرفكم عسكر لاجل اشغال ايتاليا في وقت واحد بالاتفاق فما ظهرت منكم حركة لذلك . واما نحن وان كنا استغنينا اولا وآخراً عن رايكم وتدبيركم ومعاونتكم وهمتكم فانتم لم تظهروا في طور مفيد لا لنا ولا لكم بل دائماً تفوتكم فرصة الفعل الطيب والصداقة .

فجمهورية البندقية قد جربت كما ينبغى بالفعل قوة السلطنة السنية القاهرة وشعائر وفائها وخلوصها . واما انتم فبينما كنتم تعقدون عهد المتاركة مع عدونا وعدوكم وتروجون بدون ترويءٍ قصده المكنون في ضميره بحق الممالك

المحروسية نهضنا نحن بانفسنا وانتقمنا من عدونا المذكور من غير توسط ومعاونة احد ووفقنا لدفع صولة اعدائنا بلا امداد منكم وبهمة خير الدين باشا فرقنا قوة العدو البحرية شذر مذر ودفعنا قرصان اسبانيا ومحوناهم وبعد ان اشتخلصنا ممالكنا فتحنا بلاداً كثيرة واستولينا على ممالك عديدة . وليكن معلوماً عندكم انه حيث لا دخل لكم ولا همة بهذه الفتوحات فلا نبث لكم امتناننا وشكرنا . ومع ذلك فلاجل الاحترام واعتبار المحبة المربوطة بين الدولتين لا نرى من اللائق ان نذكركم بالماضى بل نرغب ان نبث لكم آثار خلوصنا وحبنا . ومن الصواب ان لا تكون القوة منحصرة تماماً بالاعتماد على حسن الطالع والحظ فنحن ننظر الى اقتضاء الوقت والحال فى الممالك المحتمل حدوثها ونلاحظ الموسم والهواء فانت ايها المحب اتيت الدار العليـة في هذه المرة متأخراً كثيراً والاسطول الذي تطلبونه منا اذا اخرجناه لسطح البحر في هذا الموسم وجعلناه يقوم بالعمل يكون ذلك منا جسارة ومخاطرة لان فصل الصيف مضى وعيد قاسم صار قريباً فالوقت والامكان لا يساعدان على تجهيز الأسطول واخراجه لاسيما الانفار الذين لم يعتادوا على السفر البعيد في البحر المديد فانهم قد وقعوا في العلل والامراض وهذا لا يحتاج الى بيان ومـا اصاب خير الدين باشا من القضاء والسقوط يكون دليـلا كافياً وبالجملة فان السفر في البحار فى هذا الفصل انما هو خطأ مبين .

وحيث انى افدت جنابكم عما في ضميري بحرية وخلوص هذا مقدارها فاؤمل انكم لا تتكدرون واما من خصوص مطالبكم وتكليفاتكم التى عرضتموها فهو امر منوط بالارادة السنية السلطانية وحسبما يصدر الامر والفرمان بها نفيدكم عنه .

نومرو

٥

صورة الامر الشريف المرسل من صحراء ترجان الى امير البحر بياله بك

افتخار الامراء الكرام مختار الكبراء الفخام ذي القدر والاحترام المختص

بعناية الملك العلام بك لواء كليبولى قبطانى پياله دام عزه

فليكن معلوماً بوصول توقيعى الرفيع الهمايوني انه قبل هذا صدر امرنا الهمايوني باخراج الاسطول والان قد عيناك سرداراً لمراكب الاسطول الذي امرنا باخراجه هذه المرة بعناية الحق تعالى فعليك ان تهيء اللوازم والمهمات وتحضر السفن وقد صدر الامر بذلك ايضاً الى طورغور دام عزه لتكونا معاً بالاتحاد وحسن الاتفاق وان تبذلا الجهد في الامور المتعلقة بسعادة دولتى الهمايونية فامري الشريف هذا تقرر تاخيره وحيث عينت انت باش بوغاً على الستين قطعة من السفن التى صدر الامر باخراجها لسطح البحر وصدر امرنا الشريف الى الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم وزيري ابراهيم باشا ادام الله اقباله والى الدفتردار بتعجيل اتمام السفن وجمع النوتية الذين يستخدمون للمجاذيف والنظر عاجلا بامر اللوازم والمهمات وصدر الامر الى اغا الانكشارية باعطاء ما تعين من عبيدي الانكشارية وصدرت الاوامر الشريفة الى بكوات قوجه ايللى ومدللو الذين عينوا معك للخروج للبحر وبناء على ذلك فقد صدر الان امري انه بوصول محمود احد جاويشية ركابي العالي اليكم تبادر انت ليلا ونهاراً بلا تاخير ولا تراخى لمناظرة الستين قطعة من السفن التى تخرج معك للبحر وتعجل باتمامها وتكمل النوتية الذين يستخدمون للمجاذيف وتاخذ الذين عينوا من عبيدي الانكشارية وتاخذ ايضاً للسفن بكوات الالويــة مع عساكرهم وتخرج للبحر في وقت الموسم وتجتمع في محل مناسب مع اسطول ملك فرانسا ومع حسن الاتحاد تباشر في المصالح المتعلقة بدولتى الهمايونية وحيث هذا امر يستلزم الاهتمام فلا تهملوه وعجلوا باتمام السفن ولا تفوتك دقيقة من استكمال الاسباب اللازمة لاخراج الاسطول عن عجل وعبدي طورغور المشار اليه دام عزه له الوقوف على كافة احوال البحر واموره فلا تكن خالياً من مشاورته وحسن المعاشرة والاتحاد معه بحيث ان تكونا يداً واحدة وقلباً واحداً اذ هكذا تقتضى الغيرة واصرفوا انواع المساعى الجميلة حتى لا يقع شيء ينافي حسن التدبير ويكون مغايراً لعرض وناموس السلطنة وقد امرنا ان سفن عساكر اللوند المتطوعة تذهب ايضاً وعبدي المشار اليه زيد قدره له الوقوف على احوالها وبمعرفته ياخذ روساء

العساكر المتطوعة ويستميل كلاً منهم بحسب معرفته والذي يلزم له بقسماط يعطيه وبمعرفته ومشاورته تستخدمونهم في مصالح دولتي الهمايونية على منهج الدين وتسعون باعانة الحق تعالى سعياً مشكوراً لتحصلوا على حسن الحال وتوضعوا في كل سفينة عشرين نفراً للاستخدام في الادوات البحرية حسب العادة وعدا عن هولاء فلا بد ان تعينوا في كل سفينة ثلاثين نفراً من العساكر المدربة الذين في غلطه وتلحقوهم بالسفن واللوازم وتستخدموهم وان تتركوا عدداً منهم بقدر الكفاية لاجل المحافظة على الترسخانه والعشرة سفن الباقية فيها فهكذا اعلموا وعلى علامتي الشريفة اعتمدوا تحريراً في اواخر شهر ربيع الاخر سنة اثنين وستين وتسعمائة

ترجمة صورة البيور لدى الذى كتب من طرف محمد باشا البالطه جى اثر وقعة البروت .

الباعث لتحرير الكتاب الصحيح النصاب هو انه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب عساكرنا المنصورة مع قيصر الموسقوف وعساكره في طرف نهر بروت وبعد التضييق عليه فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم اجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الاتي بيانه وهو ان قلعة ازاق مع اراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالاول للدولة العلية . والقلعة الجديدة الكائنة في اعالي طيفان وقمانكه وصمار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قمانكه يجرى تسليمها بتمامها للدولة العليه وفيما ياتي من الزمن لايبنى في المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الان من طرف القيصر المرقوم مع اللهويين والتابعين لهم وهم رايا ش والبورتقال ولا الى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراي خان خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الان . وبعد اليوم لا يحق للقيصر ان يقيم سفيراً في استامبول من طرفه واما التجار الروسيون الذين ياتون براً للممالك المحروسة لاجل التجارة فانهم ماذونون في الاقامة فيها والاسرى من المسلمين الذين اسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر ان يسلمهم

للدولة العلية مهما كان عددهم وملك اسوج حيث انه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الان يتوجه الى ممالكته بالامن والسلامة ولا يحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعياً واذا وجد بينهم عدم توفيق ورضاء اتحاد فعليهم ان يجريا المصالحة . وانا أرجو من كمال افضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمه الملوكانية غض النظر من طرف الدولة العلية عن الحركات الخارجة عن الادب التى سبق وقوعها في جانب رعايا الدولة وسائر المنسوبين الى الممالك المحروسة وأن لا يصير عليهم فيما ياتي من الزمان تعدي كما تقرر ذلك في الشروط والعهود . وبحسب الوكالة المطلقة حرر هذا الصك واعطى لطرف القيصر الى ان يعقد العهد والميثاق ان شاء الله تعالى في دار السعادة بالوجه المشروح وتعطى صورته له . وبعد ان ياخذ القيصر صك العهد فلا تكن حينئذ ممانعة ومداخلة في امر ذهاب عساكره الى بلاده في الطرقات المستقيمة لا من طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من افراد طوائف التاتار وجماعتهم . واما امين اسرار القيصر قدوة اعيان الملة المسيحية قبارون قانجلير بترو شافروف والجنرال ميخائيل اولدبورس حفيد شرمث ختمت عواقبهما بالخير حيث انهما كانا حضرا من طرف القيصر للمعسكر المنصور ليكونا رهناً فمن بعد تسليم المواد المذكورة واعطاء صك العهد من طرف القيصر واتمام خدمتهما يعطى لهما الاذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهما الى بلادهما بلا تاخير ولبيان ذلك حرر هذا في اليوم السادس من جمادي الاخيرة سنة ثلاث وعشرين ومائة والف

بيورلدى صحراء
خوش كجدى

(٧)

ترجمة التحرير الذى كتبته مدام (مونته كون) الى انكلترة بخصوص تلقيح الجدرى

ها انا اكتب لكم شيئاً في بحث العلل والامراض يجعلكم تتمنون وترغبون ان تكونوا موجودين هنا . ان مرض الجدري الذي وجد عندنا وهو مرض

عمومى وخيم العاقبة للغاية بعد ان كان مضراً قد اصبح الان عديم الضرر بالكلية
بسبب التلقيح الذي اخترع هنا . وفي هذا الطرف نساء اتخذن ذلك
صنعة يتعاطينها في شهر ايلول في فصل الخريف بعد انقضاء شدة حر الصيف
بالوجه الاتي . وذلك ان كثيراً من الناس يرسلون اخباراً لاصدقائهم مستفسرين وقائلين
هل تريدون ان تستعملوا التلقيح . فيجتمعون ويذهبون للتفرج وحينما يجتمع
خمسة عشر او ستة عشر شخصاً في محل واحد تاتي عجوز حاملة قشرة جوزة
داخلها صديد مستخرج من جدري شخص ظهر فيه الجدري . وتسأل
كلاً من الحاضرين قائلة له من اي عرق تريد ان تستعمل التلقيح فيه وعلى
حسب جوابه تفتح العجوز عرقاً من عروقه يحس منه بألم كألم خدش حصل له ثم
تضع فيه صديداً بقدر ما تحمل الابرة وتغطى الجرح بنصف قشره جوزة
فتفتح على هذه الصورة اربعة او خمسة عروق . واما الروم فلكون اكثرهم
متعصبين فانهم يفتحون جرحا في المعصم وآخر في الذراع او في الصدر
واعتادوا ان يتلقحوا بشكل صليب و اذا بقى اثر لهذا التلقيح فان عاقبته ردية
جداً . وبهذا الخصوص غير المتعصبين يتلقحون في الركبة او في الذراع يعني
في محل غير منظور والمتلقحون سواء كانوا صغاراً او كباراً فسائرهم بعد
تلقيحهم لا يحصل لهم شيء لحد المسا وبعد ذلك تعتريهم حمى فيضطرون
حينئذ الى ان يبقوا يومين وفي النادر ثلاثة ايام طريحى الفراش وفي النادر
ايضاً يخرج في وجوههم قدر عشرين او ثلاثين حبة من حبوب الجدري ولا
يبقى لهذه الحبوب علامة اصلا بل في مدة ثمانية ايام يحصل لهم الشفاء التام .
وعندما تكتمل الحبوب تخرج مادة مائية من المحل الذي جرى تلقيحه ولا ريب
عندي في كون هذه المادة لها تاثير عظيم في تخفيف المرض والوف كثيرة
من الناس يجرون هذه العملية في كل سنة . قال سفير فرنسا كما ان الناس
عندنا اتخذوا الذهاب الى الحمامات وسيلة للتنزه كذلك هنا كل انسان يتخذ
اخراج حبوب الجدري في جسمه وسيلة للفرجة . وما اتفق لاحد قط انه
تلقح وتلف ومما اقوله لكم اني صممت على استعمال التلقيح لولدي المحبوب
ومن هذا تعلمون قدر الامنية التى لي بهذه العملية

(٨)

وصية بطرس قيصر الروسيا

البند الاول من اللازم ان تقاد العساكر دائماً الى الحرب وينبغى للامة الروسية ان تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون اليفة الوغا. وترك وقت لراحة العساكر او لاجل اصلاح المالية وتوفيرها وان كان ضروريا يلزم ان يكون تنظيم المعسكرات متعاقباً وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آناً بآن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيا ان تتخذ زمن الصلح والامان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لاجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها

البند الثاني. فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والاقوام الذين هم اكثر معلومات في اروبا وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب ارباب العلم والمعارف منهم ايضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الامة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث انها لا تضيع سعياً اصلا في تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها .

البند الثالث. عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة في جميع الامور والمصالح الجارية في اروبا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك المانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

البند الرابع . ينبغى استعمال اصول الرشوة لاجل القاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً في داخلية ممالك (له) وتفريق كلمتهم واستمالة اعيان الامة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى نتمكن من المداخلة في انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيا من تلك الامة ينبغى حينئذ دخول عساكر روسيا الى داخل البلاد لاجل حمايتهم والتعصب لهم باقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك الى ان تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الاقامة وعند ما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدول المجاورة فلاجل اخماد نار الفتنة موقتاً ينبغى ان نقاسم المخالفين في ممالك (له) ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون قد اعطيت لهم .

البند الخامس . ينبغى الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك اسوج بقدر

الامكان ثم نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقى منها ولا نتوصل الى ذلك الا بوجه تضطر فيه تلك الدولة الى ان تعلن الحرب على دولة الروسية وتهاجمها . والذي يلزم اولا هو ان نصرف المساعى والهمة لالقاء الفساد والنفرة دائماً بين اسوج والدانمرقه بحيث ان يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين .

البند السادس . يجب على الاسرة الامبراطورية الروسية ان يتزوجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الالمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم في المنافع اذ بهذه الصورة يمكن اجراء نفوذهم في داخل المانيا ويربطون ايضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصلحتنا .

البند السابع . ان دولة انكلترة هى الدولة الاكثر احتياجا الينا في امورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جداً ايضاً في امر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في امر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالاخشاب وسائر الاشياء الى انكلترة وجلب الذهب من عندهم الى ممالكنا واستكمال اسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة امر التجارة وسير السفن فى ممالكنا .

البند الثامن . على الروسيين ان ينتشروا يوماً فيوماً شمالا في سواحل بحر البلطيق وجنوبا في سواحل البحر الاسود .

البند التاسع . ينبغى التقرب بقدر الامكان من استانبول والهند وحيث انه من القضايا المسلمة ان من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة ان يحكم على الدنيا باسرها فلذلك من اللازم احداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانية وينبغى ضبط البحر الاسود شيئاً فشيئاً وذلك لاجل انشاء دار صناعات بحرية فيه والاستيلاء على بحر البلطيق ايضاً لانه الزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من اعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب انكلترة .

البند العاشر . ينبغى الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة

اوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج افكار الدولة المشار اليها من جهة ما تبتغى اجراؤه من النفوذ في المستقبل في بلاد المانيا واما باطناً فينبغى لنا ان نسعى في تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام المانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستمداد من دولة روسيا ومن اللازم اجراء نوع حماية للدول المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول في المستقبل

البند الحادي عشر . ينبغى تحريض العائلة المالكة في اوستريا على طرد الاتراك وتبعيدهم من قطعة الروملى وحينما نستولي علي استانبول علينا ان نسلط دول اوروبا القديمة على دولة اوستريا حرباً او نسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصة صغيرة من الاماكن التى نكون قد اخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها

البند الثاني عشر . ينبغى ان نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد المجر والممالك العثمانية وفي جنوبي ممالك (له) ونجعلهم ان يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم ومن اللازم قبل كل شيء احداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من اجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب اصدقاء كثيرين ذوي غيرة نستعين بهم في ولاية كل من اعدائنا .

البند الثالث عشر . حينما يصبح الاسوجيون متشتتين والايرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة ايضاً حينئذ نجمع معسكراتنا في محل واحد مع المحافظة على البحر الاسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر اولا لدولة فرانسا كيفية مقاسمة حكومات الدنيا باسرها بيننا ثم لدولة اوستريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك وحيث انه لابد من ان احداها تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلا بما عرضناه عليهما واسطة لتنكيل الاخرى واذ تكون دولة روسيا حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك اعظم قطع اوروبا حديثة الدخول في يد تصرفها فعنده يسهل عليها ان تقهر وتنكل

فيما بعد اية دولة بقيت في الميدان من الدولتين المذكورتين

البند الرابع عشر . على فرض المحال ان كلا من الدولتين المشار اليهما لم تقبل بما عرضته عليهما روسيا فينبغي حينئذ لروسيا ان تصرف الافكار لمراقبة ما يحدث من النزاع والخلاف بينهما فاذا وقع ذلك فلا بد ان يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا مع الاخر وفي ذلك الوقت يجب على روسيا ان تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالا معسكراتها المجتمعة اولاً باول على المانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن احدهما من بحر ازاق المملو بالعساكر الوافرة المجتمعة من اقوام الاناضول المتنوعة والثاني من ليمان ارخانكل الكائنة في البحر المتجمد الشمالي فتسير هذه السفن وتمر في البحر الابيض والبحر المحيط الشمالي مع الاسطول المرتب في البحر الاسود وبحر البلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرانسا . واما المانيا فانها تكون اذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرناه تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التي تبقى من اوروبا تدخل بالطبع تحت الانقياد بسهولة وبدون محاربة وتصير جميع قطعة اوروبا قابلة للفتح والتسخير

عهدة قينارجه

المادة الاولى . كل ما سبق وقوعه بين الدولة العلية ودولة روسيا من عداوة ومخاصمة قد مُحي وأُزيل من الان الى الابد . وكل الاضرار والتعديات التي صار الشروع في استعمالها واجرائها من الطرفين بالآلات الحربية وبغيرها صارت نسياً منسياً الى الابد ولا يجرى بعد الان ولا في وقت مّا انتقام بل صار الصلح براً وبحراً عوضاً عن العدوان بوجه لا يعتريه التغير بل يُراعى ويُصان من طرفي الهمايوني ومن طرف خلفائي الاماجد وكذلك يُحفظ ويُصان ما جرى تمهيده مع مملكة روسيا المشار اليها وخلفائها من الاتفاق والموالات الصافية المؤبدة والسالمة من التغير وتستمر هذه المواد جارية ومعتبرة بكمال الدقة والاهتمام وتكون قضية الموالاة مرعية بهذه الصورة بين الدولتين وفي املاكهما وبين رعايا الطرفين بحيث لا تقع فيما بعد ضدية بين الفريقين لا سراً ولا جهراً ولا نوع من افعال البغضاء والاضرار .

وبحسب الموالات والمصافات المتجددتين تكون جرائم جميع الرعايا المتهمين لدى الدولتين وكيفما كانت تهمتهم بلا استثناء نسياً منسياً ويعرض عنها بالكلية من الجهتين والذين اخذوا منهم ووُضعوا في السجون يُطلق سبيلهم وتعطى الرخصة برجوع الاشخاص الذين نفوا الى الجهات وبعد امضاء المصالحة يُرد اليهم ما كانوا احرزوه من الرتب والاموال والذين استحقوا منهم عقابا من اي نوع كان لايتعرض لهم بسبب مّا او بوسيلة مّا اصلا ولا بضرر وتاديب واذا تصدى احد لضررهم والتعرض لهم يصير تاديبه وكل من المذكورين يكون تحت حماية ومحافظة القوانين ومن الواجب معاشرتهم بحسب عادات الولايات قياساً على الولايات المتاخمة .

المادة الثانية . بعد تنقيح هذه العهدة المباركة ومبادلة صكوك التصديق اذا ظهر من بعض رعايا الدولتين عدم الطاعة او خيانة او اتهموا بتهمة اخرى ووجدوا في بلاد احدى الدولتين لقصد الاختفاء او الالتجاء فهولاء ما عدا الذين دخلوا منهم في الدين الاسلامى في دولتى العلية والذين تنصروا في دولة روسيا لا يقبلون اصلا ولا تجرى لهم الحماية بل بالحال يردون الى بلادهم او يطردون من بلاد الدولة التى التجأوا اليها وذلك حتى لا يحصل بين الدولتين بسبب هكذا اشخاص لا نفع فيهم امر يفضى الى البرودة بين الطرفين او يكون باعثاً لبحث لا طائل تحته. كذلك اذا حصل من احد رعايا الطرفين سواء كان من الاسلام او من زمرة المسيحيين ذنب او تقصير وعلى اي ملاحظة كانت التجأ لاحدى الدولتين فانه ينبغى رده عند طلبه بلا تاخير.

المادة الثالثة . جميع قبائل القريم وطوائف بوجاق وقوبان ويديسان وجانبويلق ويدیجكول التاتارية يصير قبولها والاعتراف بحريتها بلا استثناء من طرف الدولتين بشرط ان لا تكون تلك القبائل تابعة لدولة اجنبية بوجه مّا والخانات المنتخبون من نسل آل جنكيز المستقلون في حكوماتهم باتفاق جميع طوائف التاتار يبقون على ما هم عليه يحكمون في الطوائف المرقومة بحسب قانونهم وعاداتهم القديمة بشرط ان لا يؤدوا ضريبة عن مادة مّا لدولة من الدول الاخرى. ودولتنا العلية ودولة الروسيا لا يتداخلان في امر انتخاب الخانات الموما اليهم ونصبهم ولا فيما يحدث من امورهم المخصوصة ولا فى امور

حكومتهم بوجه مَّا بل يكون حكمهم نافذاً في حكومتهم وفي الامور الخارجية كدولة مستقلة مثل سائر الدول المستقلة . وطائفة التاتار المرقومة تكون مقبولة ومعترفاً بكونها غير تابعة لاحد سوى للحق سبحانه وتعالى . وحيث ان الطائفة المذكورة هى من اهل الاسلام وكون ذاتى السلطانية الموسومة بالعدالة هى امام المسلمين وخليفة الموحدين فانها توجب على الطائفة المرقومة ان لا تلقى خللا فى الحرية الممنوحة لدولتهم وبلادهم بل يجب ان تنظم امورها المذهبية من طرفي الهمايوني بمقتضى الشريعة الاسلامية . واراضى كرش واراضى القلعة المسماة بالقلعة الجديدة التى خصصت لدولة الروسيا والقصبة الواقعة بجانب قريم وقوبان ما عدا ثغورها والقلاع والاماكن والاراضى التى وقع الاستيلاء عليها وجميع الاراضى الواقعة بين مياه نهري برادونسكى ودى دادزي ومياه نهري آق صو وطورله حتى حدود مملكة ﴿ له ﴾ فهذه جميعها ترد للطوائف المرقومة وقلعة اوزى مع قطعتها القديمة تبقى تحت تصرف دولتى العلية كالسابق . وبعد تكميل عهدة المصالحة تتعهد دولة روسيا باخراج جميع عساكرها من الممالك التاتارية وتتعهد دولتى العلية ايضاً بكف يدها عنما هو لها كلياً كان او جزئياً من جميع انواع القلاع والقصبات والمساكن وسائر الاشياء الواقعة في جزيرة القريم وجزيرة قوبان وطمان وان لا ترسل فيما ياتي محافظاً عسكريا للمحل المرقوم او عساكر بل ترد الممالك المذكورة لطوائف التاتار المرقومة بالوجه المحرر وكما ان دولة الروسيا جعلت الطوائف المرقومة غير تابعة لاحد ومستقلة حقيقه في حكومتها على وجه ان تكون الحرية المطلقة معمولا بها فيها كذلك دولتنا العلية تتعهد بان لا ترسل فيما ياتي للقصبات والقلاع والاراضى والمساكن المذكورة محافظاً عسكريا ولا غيره من زمرة عساكر السكبان او غيرها كيفما كان اسمهم ونوعهم والحرية الممنوحة للطوائف المرقومة من طرف دولة الروسيا تمنحها لها ايضاً دولتنا العلية مع الاستقلال بحيث لا تكون الطوائف المذكورة تابعة لاحد

المادة الرابعة . لما كان بمقتضى القواعد الاصلية المخصوصة بجميع الدول يجوز لكل دولة ان تجري في ممالكها ما تراه مناسباً من النظام فللدولتين المتعاقدتين الرخصة الكاملة المطلقة بدون تقييد ان تبنيا ما تستنسبه من القلاع

والمدن والقصبات والابنية وان يُصلح كل منهما ويجدد ما يكون قديماً من قلاعهما وقصباتهما وسائر املاكهما

المادة الخامسة. وحيث انه قد تيسر تجديد ما للجوار من حقوق الموالاة والمصافاة بانعقاد هذه المصالحة المباركة فلدولة روسيا ان تعين من طرفها فى الاستانة (انوبياتو) يعنى سفيراً متوسطاً او مرخصاً من الدرجة الثانية فيقيم دائماً لدى دولتنا العلية وعلى الدولة العلية ان تجري للسفير الموما اليه بالنظر لرتبته مراسم الاعتبار والرعاية الجارية منها لسفراء الدول الاوفر اعتباراً . واذا وقع احتفال رسمى عمومى وكان سفير امبراطور الالمان في رتبة رفيعة اوصغيرة فانه يكون بعد سفير ندرلانك (اي هولاندا او الفلمنك) الكبير واذا لم يكن لدولة ندرلانك سفير كبير فانه يكون بعد سفير ونديك الكبير (اي البندقية)

المادة السادسة . اذا وقعت سرقة او تهمة عظيمة او امر غير لايق يستوجب التعزير من الذين هم بالفعل في خدمة سفير دولة روسيا فبعد التقرير يجب استرداد تلك الاشياء المسروقة بالتمام على الوجه الذي يبينه السفير . والذين يتصورون قبول الدين المحمدي وهم في حالة السكر فلا يُقبلون في الدين المحمدي بل بعد زوال السكر ورجوعهم الى حالتهم الاصلية بعود عقولهم لرؤوسهم يطلب منهم بيان اقرارهم واعترافهم في مواجهة من يرسله السفير ايضاً وامام بعض المسلمين ممن ليس لهم غرض ثم يصير قبولهم على هذا الوجه

المادة السابعة . تتعهد دولتنا العلية ان تصون حق الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية وتمنح سفراء دولة الروسية الرخصة بابراز التفهيمات المتنوعة عند كل احتياج سواء كان متعلقاً في الكنيسة المذكورة في المادة الرابعة عشرة الكائنة في المحروسة القسطنطينية او في صيانة خادميها واذا عرض السفير الموما اليه شيئاً ما بواسطة معتمد له يتعلق بدولة مصافية ومجاورة لدولتى العلية فتتعهد دولتنا العلية قبول المعروض والمعتمد

المادة الثامنة. تعطى الرخصة التامة لرهبان دولة الروسيا ولسائر رعاياها بزيارة القدس الشريف وسائر الاماكن التى تستحق الزيارة ولا يتكلف المسافرون

ولا السائحين لدفع نوع من انواع الجزية والخراج والويركو اصلا ولا يطلب ذلك منهم باثناء الطريق لا في القدس الشريف ولا في سائر الاماكن وتعطى لهم الفرمانات بالوجه اللائق مع اوامر الطريق التى تعطى الى رعايا سائر الدول والذين يقيمون منهم فى اراضى دولتى العلية لا يمكن ان يحصل لهم تعرض ومداخلة بوجه من الوجوه بل تصير حمايتهم وصيانتهم تماماً بمقتضى قوة احكام الشريعة

المادة التاسعة. المترجمون الموجودون في خدمة سفراء روسيا المقيمين في محروسة القسطنطينية من اي ملة كانوا حيث خدموا امور الدولة وخدمتهم هذه راجعة للدولتين فانهم يعاملون بكمال المرؤة والاعتبار ولا تجوز مواخذتهم في الامور المكلفين بها من طرف من هم بخدمته

المادة العاشرة. لحين امضاء هذه المصالحة المباركة وايصال التنبيهات اللازمة من طرف سردارية عساكر الطرفين للمحلات المقتضية اذا حدثت خلال ذلك مخاصمة في اي محل كان لا يعد ذلك تعرضاً وما يحصل بسبب ذلك من الفتوحات والاستيلاء لا يعتبر ويكون كأنه لم يكن ولا احد من الدولتين يستفيد من مثل هذا شيئاً.

المادة الحادية عشرة. قد تقرر لاجل منفعة الدولتين سير سفنهما وسفن تجارها بلا مانع في جميع بحارها وتعطى الرخصة من جانب دولتى العلية الى سفن روسيا وسفن تجارها بان تتمتع بالتجارة في كل الاساكل وكل محل بالوجه الذي اجازته دولتى العلية فيها لسائر الدول وان يمكثوا في المعابر والثغور المتصلة بالبحار المذكورة وفي عموم المرافى والشطوط الساحلية من البحر الابيض الى البحر الاسود ومن البحر الاسود الى البحر الابيض. وكما صار البيان اعلاه بحق هذه المادة قد اعطيت الرخصة من جانب دولتى العلية الى رعايا دولة الروسيا بان يتحدوا براً مع اهالي ممالك دولتنا العلية ويكون لهم ما حصلت به المساعدة والمسالمة والمعافيات في التجارة البحرية الى احب اصدقائنا فرنسا وانكلترة ويسيرون على هذا المنوال في نهر الطونه وعند ظهور اي نوع كان من الاحتياج سواء كان في امر التجارة او فيما يتعلق بنفس التجار أو بالجميع تراعى شروط الملتين المذكورتين وتعتبر على

الوجه المحرر لفظاً بلفظ في هذه المادة ولتجار الروسية ان ينقلوا ويخرجوا كل نوع من الامتعة بعد ان يؤدوا الرسومات التى يعطيها غيرهم من الملل المذكورة ويجوز لهم ان يصلوا الى سواحل ومرافى البحر الاسود وسائر البحار والى محروسة القسطنطينية وقد رخص لرعايا الطرفين بالتجارة وتسيير السفن في عموم مياه المواضع المذكورة بلا استثناء واعطيت لهم الرخصة من جانب الدولتين بالاقامة في بلادها المدة اللازمة لادارة مصالحهم وتجارتهم وحصل التعهد بذلك من الطرفين بهذا الباب بان يكون لتجار روسيا ايضا ما لرعايا سائر الدول المتحابة من الحرية والمسالمة ولكون المحافظة على النظام فى كل المواد هى من الزم الامور اعطيت الرخصة من جانب دولتنا العلية بتعيين قناصل ووكلاء قناصل من طرف دولة روسيا في عموم المواقع التى ترى انها لازمة لذلك ويعتبرون في سائر الامور مثل قناصل سائر الدول المتحابة وقد رُخص لهولاء القناصل ووكلاء القناصل بان يستخدموا في معيتهم تراجمين من المسلمين الحائزين برآتي الشاهانية المعبر عنهم ببرأتلي ويكون لهولاء التراجمين ما لامثالهم الموجودين في خدمة انكلترة وفرانسا وسائر الملل من المعافيات وأُعطيت الرخصة من جانب دولة الروسيا الى رعايا دولتي العلية بان يتاجروا براً وبحراً في ممالك روسيا ويكون لهم ما لسائر الملل المتحابة مع روسيا من الامتيازات والمعافيات وذلك بعد اداء الرسوم المعتادة وتجرى المساعدة بكل وجه لسفن الدولتين التى تطرأ عليها الطوارىء في اثناء سيرها فى البحر يعنى عند وقوع حوادث تلزم لها الاعانة بما يلزم لجانب سائر الدول الاوفر صداقة ويوخذ لهذه السفن ما يلزمها من الاشياء بالاسعار الجارية .

المادة الثانية عشرة . اذا رغبت دولة الروسيا ان تعقد معاهدة تجارية مع الافريقيين اي حكومات طرابلس الغرب وتونس والجزاير فدولتنا العلية تتعهد ببذل اعتبارها وجهدها لحصول دولة روسيا على مرغوبها وتكفل حكومات الايالات المذكورة بانها تحافظ على العهود المرسومة .

المادة الثالثة عشرة . يلزم استعمال هذه العبارة في اللسان التركى « تماماً روسيه لولرك پادشاهى » يعنى من طرف دولتنا العلية فى جميع السندات وعامة المكاتيب

وفي كل خصوص اقتضى وضع هذا اللقب المعتبر اعنى (تماماً روسيه لولرك امبراطور بجه سى)

المادة الرابعة عشرة . يجوز لدولة روسيا ان تبتنى كنيسة على الطريق العام في محلة بك اوغلى في جهة الغلطه غير الكنيسة المخصوصة قياساً على سائر الدول وهذه الكنيسة هى كنيسة العوام وتسمى باسم كنيسة دوسوغرنه وتكون تحت صيانة سفير دولة روسيه الى الابد وتكون امينة من كل تعرض ومداخلة وتصير حراستها

المادة الخامسة عشرة . انه بمقتضى النظام الذي به تعينت وتحددت حدود الدولتين يبعد عن الملاحظة وجود امر يستوجب نزاع جسيم يوجب المباحثة لرعايا الطرفين . لكن لاجل دفع اسباب المضار والخسائر المحتمل ظهورها من عوارض غير مامولة قد وقع القرار بالاتفاق بين الدولتين انه عند حدوث امر كهذا يجب على الحاكم الموجود على طرف الحدود ان يفتش على المادة التى حدثت او انه يجري فحصها بمعرفة مامورين يتعينون لذلك وبعد تفتيش المادة كما ينبغى يجرون احقاق الحق لصاحبه بلا تاخير . وحصل التعهد الصافى بان مادة حسن النظام والموالاة التى تمهدت حديثاً وانعقدت بهذه العهدة المباركة لا تتغير اصلا بحدوث قضايا كهذه

المادة السادسة عشرة . ترد دولة روسيا لدولتى العلية مملكة البوجاق مع قلاع اقكرمان وكلى واسماعيل وسائر القصبات والقرى بما فيها من جميع الاشياء وترد لدولتى العلية قلعة بندر ايضاً وكذلك ترد لدولتى العلية ايالتى الافلاق والبغدان مع كافة قلاعها ومدنها وقصباتها وقراياها وما هو داخلها من جميع الاشياء وقد قبلت دولتى العلية الممالك المرقومة على الشروط الاتي بيانها وتعهدت بحفظ الشروط المذكورة تماماً ووعدت بذلك وعداً معمولا به (اولا) يجرى العفو عن اهالي هاته الحكومات الجديدة جميعاً من اي قسم كانوا من المراتب والكيفيات والحال والاسم والوجاهة بلا استثناء وان تغضي عما ظن فيهم من الاعمال المغايرة وكل تهمة تتعلق بهم من الحركات التى كانت مخالفة لامور دولتى العلية وتكون نسياً منسياً الى الابد وعلى موجب مضمون المادة الاولى يصير اعادتهم الى مناصبهم ورتبهم وترد املاكهم السابقة ويعودون الى ما كانوا يملكونه من الاملاك قبل

الحرب وتجدد امورهم. (ثانياً) الديانة المسيحية تكون من كل الوجوه حرة كالاول ولا يحصل ممانعة لاجرائها قط ولا يمنع احداث كنائس جديدة ولا ترميم الكنائس القديمة (ثالثاً) الاراضى والاملاك الموجودة ضمن دائرة ابرائل وخوتين وفي سائر المواضع الماخوذة بغير حق المتعلقة من القديم بالاديرة وبسائر الاشخاص فهذه جميعها ترد للمرسومين المعبر عنهم الان بالرعايا (رابعاً) يكون لجماعة الرهبان الاعتبار بما يناسبهم من الامتياز (خامساً) يرخص للاعيان الذين يرغبون التوجه الى محل آخر بترك الوطن ان ينقلوا اشياءهم بالحرية وان يمهلوا مدة سنة للانتقال من وطنهم وذلك ليكون لهم وقت كافي لتنظيم مصالحهم وتعتبر هذه المهلة من تاريخ التصديق على الصك (سادساً) لا يصير تحصيل شيء لا نقود ولا خلاف ذلك من المحاسبات القديمة مهما كانت (سابعاً) لا يصير تكليفهم ولا مطالبتهم بشيء عن مدة الحرب بتمامها بل نظراً لما صادفوه باثناء امتداد الحرب من المضرات والتخريب قد اعطى بعد ذلك للمذكورين ايضاً مهلة سنتين تعتبر من تاريخ مبادلة صك التصديق الهمايوني. (ثامناً) بعد انقضاء هذه المهلة تتعهد دولتنا العلية بمعاملتهم بالمرؤة الكلية في امر تعيين الجزية وتحافظ على سخائها الجليل على قدر الامكان ويصير تادية جزيتهم بواسطة مبعوثيهم مرة في كل سنتين وبعد اداء هذه الجزية بتمامها فلا يتعرض لهم احد اصلا كائناً من كان من باشا او حاكم ولا يطالبون بشيء ما من اقتراح الضرائب باي اسم كانت بل يكونون متمتعين بالامتيازات التى تمتعوا بها في الزمن السعيد ايام سلطنة جدي الامجد السلطان محمد خان الرابع (تاسعاً) يرخص لامراء هذه الحكومات ان يقيم كل منهم من طرفه وكيلا لدى دولتى العلية باسم مصلحتكدار ويكون هولاء الوكلاء نصارى من ملة الروم بدلا عن القبوكتخدايات الذين كانوا يتعاطون رؤية امور الملك وتجرى بحقهم من جانب دولتى العلية المعاملة بكمال المرؤة وينالون ما يستحقونه بحسب قواعد الملل اي انهم يكونون معتبرين ومن كل تعرض آمنين ومصانين (عاشراً) تعطى الرخصة وتحصل الموافقة من جانب الدولة العلية الى سفراء امبراطورية الروسيا بان يتذاكروا عند الاقتضاء فيما يتعلق بصيانة ومساعدة الحكومتين المذكورتين وتتعهد الدولة العلية برعاية ما يعرضه سفراء الروسية من المواد بحسب اعتبار الصداقة اللائقة بالدولتين

المادة السابعة عشرة. يلزم دولة الروسيا ان ترد الى دولتى العلية جزائر البحر الابيض التى هى الان تحت حكمها وتتعهد دولتى العلية بان تجري في حق اهل الجزائر المذكورة كمال الرعاية والعدل وتعاملهم بالعفو عن جميع انواع القباحات المصرح بها في المادة السالفة وعموم الافعال التى جرت بمظنة المخالفة لامور دولتى العلية فهذه جميعها تكون نسياً منسياً ومعفى عنها بالكلية. (ثانياً) لا يصير ادنى تعرض وتضييق على ديانة المسيحيين ولا يحصل ممانعة بوجه مّا في امر تعمير وتجديد الكنائس ولا يصير التعرض والمداخلة اصلا في حق الاشخاص الذين يخدمون الكنائس المذكورة. ثالثاً بسبب التكديرات والتخريبات التى اورثتها لهم هذه المحاربة من تاريخ وجودهم تحت حكومة دولة الروسية وبعد مرور سنتين من تاريخ استرداد الجزائر المذكورة لدولتى العلية لا يُستحصل من اهالي الجزائر المذكورين رسمٌ سنويٌ من اي نوع كان اصلا (رابعاً) الذين يرغبون في ترك الوطن ويريدون التوجه الى بلاد اخرى تعطى لهم الرخصة من جانب دولتى العلية بنقل اموالهم واشيائهم ولكى يكون لهم وقت كافي لتنظيم مصالحهم يمهلون مدة سنة كاملة اعتباراً من تاريخ مبادلة التصديق على صك المعاهدة. (خامساً) يلزم رجوع اسطول روسيا من مياه الدولة العلية في مدة ثلاثة اشهر من بعد مبادلة التصديق على هذا الصك واذا احتاج الاسطول لشيء فعلى دولتى العلية ان تعينه على قدر الامكان.

المادة الثامنة عشرة. قلعة قلبرون الواقعة في بوغاز اوزى صوى مع مقدار كافي من الاراضى الكائنة في ساحل الطرف الشمالي من النهر المذكور مع الصحراء الخالية الواقعة بين آق صو واوزى صو تبقى مستقلة على الدوام تحت تصرف روسيا بلا معارضة.

المادة التاسعة عشرة. ينى قلعة الواقعة في جزيرة القريم وجميع ما هو موجود داخل كرش وثغورها مع اراضيها من البحر الاسود حتى حدود كرش القديمة طولا لحد المحل المسمى بوخاجه وسن بوخاجه على خط مستقيم من الاعلى الى بحر ازاق يبقى تحت تصرف روسيا على الدوام بلا معارضة.

المادة العشرون. بحسب مفهوم السندات التى عُقدت بين الحاكم تولستوي وبين حسن باشا محافظ آجو بتاريخ ١٧٠٠ ميلادية و ١٣٠٠ هجرية خُصصت

قلعة ازاق بحدودها الاولى الى دولة الروسيا للابد .

المادة الحادية والعشرون . وحيث ان القبارطيين اي القبارطة الكبيرة والقبارطة الصغيرة لهما تعلق مع خانات القريم بسبب وقوعهما في جوار طائفة التاتار قد احيلت مادة تخصيصهما لدولة الروسيا الى خانات القريم ومشورتهم والى راي روساء التاتار .

المادة الثانية والعشرون . قد تقرر بالاتفاق بين الدولتين محو وازالة جميع الشروط والعهود السابقة والعهدة الواقعة في قلعة بلغراد المنعقدة بينهما وما حدث بعدها من كافة الشروط محواً ابديا وهو ان كلا من الدولتين المتعاقدتين لا يقوم بداعية مّا من حيث العهود المذكورة ويستثنى من تلك الشروط الواقعة في سنة ١٧٠٠ ميلادية بين الحاكم تولستو وبين حسن باشا محافظ قلعة آجو فيما يتعلق بتعيين وتحديد حدود القلعة المذكورة وحدود قوبان فان الشروط المذكورة تبقى كالاول بلا تغيير .

المادة الثالثة والعشرون . ان قلاع بغدادجق وكوتانسى وشهربان الكائنة في حوالي كورجى ومكريل المستولية عليها عساكر الروسيا تقبلها دولة الروسية على ان تكون هذه القلاع لاصحابها الاصليين وذلك انه بعد التحقيق اذا تبين ان دولتى العلية كانت مالكة لها منذ القديم او منذ مدة مديدة حينئذ تكون عائدة لدولتى العلية وبعد مبادلة التصديق على هذا الصك المبارك تخلي عساكر الروسيا القلاع المذكورة في الوقت المعين ودولتى العليه تتعهد ايضاً بحسب مضمون المادة السابقة بان تشمل بالعفو جميع الذين صدرت منهم حركات ضد دولتى العلية في اثناء امتداد المحاربة وان تكف يدها الى الابد عن اخذ الويركو عن الصبيان والبنات وعن طلب اى نوع كان من الجزية وانه ما عدا الذين لهم تعلق بها من القديم لا تدعى على فرد واحد من الطوائف المذكورة بكونه من رعاياها وانها تترك مرة اخرى جميع الاراضى وسائر الاستحكامات التى ضبطها الكرجيون والمكريون لحكومتهم ولمحافظتهم المطلقة وانها لا تتعرض ولا تجرى تضييقاً على اديرة وكنائس الديانة بوجه ما ولا تمنع ترميم القديم ولا بناء الجديد منها وبان تمنع باشة چلدر وجميع روساء الجيوش والضباط من التعرض باي داع كان لاموال الاديرة

والكنائس المذكورة واضاعتها ولا تتعرض دولة الروسيا للطوائف المذكورة ولا تتداخل في امورهم لانهم من رعايا دولتي العلية .

المادة الرابعة والعشرون. بعد امضاء المواد والتصديق عليها تتهيأ بالحال جميع عساكر الروسيا الموجودة في الجهة اليمنى من نهر الطونه للعودة والرجوع بحيث في ظرف شهر واحد تقطع الضفة اليسرى من نهر الطونه المذكور وبعد مرور العساكر المذكورة تماماً الى الضفة اليسرى المرقومة يصير اخلاء قلعة حرسوه وتسلم لعساكر الاسلام وبعده تحصل المبادرة دفعة وفي آن واحد لتخلية مملكتى الافلاق والبوجاق وقد تعين لهذا الاخلا مهلة شهرين وبعد انسحاب كافة عسكر روسيا من المملكتين المذكورتين تترك عساكر روسيا من الجهة الواحدة قلعة يركوك وبعده قلعة ابرائل ومن الجهة الاخرى قصبة اسماعيل وقلاع كلى واقكرمان وتسير متوجهة لتلتحق بسائر عساكرها تاركة القلاع المذكورة للعساكر الاسلامية وقد خصص لتخلية المملكتين المذكورتين مهلة ثلاثة اشهر وبعد ذلك تترك عساكر روسيا مملكة بغدان وتمر في الجهة اليسرى من نهر طوره وعلى هذه الصوره تحصل تخلية المواضع والممالك السابق ذكرها يعنى في مدة خمسة اشهر بعد امضاء المعاهدة والمصالحة المؤبدة بين الدولتين وعند مرور كافة عساكر روسيا للضفة اليسرى من نهر طوره حينئذ يصير تسليم قلاع خوتين وبندر للعساكر الاسلامية واما اراضى قلبرون التى سبق التصريح عنها وزاوية الصحراء الواقعة بين آق‌صو واوزى‌صو يصير تسليمها على الوجه الموضح في المادة الثامنة عشر بهذه الشروط وفي الوقت المذكور لدولة الروسيا وتكون الى الابد مصانة من التعرض . وعلى عساكر روسيا الموجودة في جهات جزائر البحر الابيض ان تجري بالسرعة الممكنة ما يتعلق باسطول الجزاير المذكورة من المصالح والتنظيمات الداخلية وترد الجزائر المذكورة كالاول لتضبطها دولتى العلية مصانة من التعرض لانه نظراً لبعد المسافة لا يمكن تعيين وقت لذلك . ونظراً لاستعجال عزيمة اسطول روسيا ولكونها دولة مصافية فدولتى العلية تتعهد باعانة الاسطول المذكور في ايفاء لوازمه وباعطائه كل شيء في الوسع والامكان وما دامت عساكر روسيا موجودة في الممالك المستردة لدولتى العلية على الصورة المذكورة

فحكومتها وما يتعلق بها من النظامات تستمر جارية فيها كما كانت في الوقت الذي كانت فيه بيدها . والى حين خروج جميع عساكر روسيا من الممالك المذكورة لاتقع مداخلة من جانب دولتى العليـة في امورها ويبقى العمل في كيفية تناول ما يلزم من الماكولات ومداركة سائر لوازم عساكر روسيـا في الممالك الموجودة فيها على ما هو الان الى حين خروجها منهـا تماماً ولا تضع دولتى العلية قدماً في القلاع المستردة المذكورة ما لم يرسل سر عسكر روسيا الاول الخبر الى ماموري دولتى العلية الذين عُينوا لهذا الامر بتخلية وفراغ كل محل من الممالك المذكورة وبعدم اجراء حكومتها فيها. والذخائر والمهمات التى للروسيا في هذه القلاع والقصبات يصير اخراجها من طرف عساكر روسيا بالوجه الذي تريده وتترك مدافع دولتى العلية التى وجدت في القلاع المستردة لدولتى العلية . والذين استعملوا في خدمـة دولة روسيا من اهالي الولايات المستردة لدولتى العلية من اي جنس وفي اي حال وكيفية كانوا اذا رغبوا في الانسحاب والانتقـال باهلهم وعيالهم واموالهم مع عساكر روسيا في المدة السنوية المنعقدة لا يمنعون وتتعهد دولتى العلية بعدم ممانعتهم باي وجه كان بموجب الشروط المذكورة سواء خرجوا فى ذلك الزمن او في مدة سنة كاملة .

المادة الخامسة والعشرون . جميع اسرى الحرب من ذكور واناث من اي درجة ورتبة كانوا يسرحون ويردون الى اوطانهم ما عدا المسيحيين الذين دخلوا في الدين المحمدي بارادتهم في دولتى العلية والمسلمين الذين تنصروا بارادتهم في اثناء وجودهم في اراضى روسيـا وهذا كله بعـد مبادلة التصديق على صكوك هذه العهدة المباركة حالا بلا عذر اصلا وبلا عوض وبغير فدية وكذلك جميع المسيحيين الذين وقعوا في الاسترقاق من لهيين وبغدانيين وافلاقيين ومن اهالي المورة والجزائر والكرجيين كافة بلا استثناء يعتقون بلا ثمن وبغير عوض وكذلك الذين استرقوا من رعايا روسيا ووجدوا في ممالكى المحروسة يصير تسليحهم وردهم الى موطنهم وذلك بعد انعقاد هذه المصالحة المباركة وكذلك تجرى هذه الامور ايضاً بهذه الصورة عينها في حق رعايا دولتى العلية.

المادة السادسة والعشرون . لاول وصول الخبر عن امضاء هذه الموادالى القرم واوزى يخابر سر عسكر روسيا الموجود في القرم بالواقع محافظ اوزى وفى مدة شهرين يرسلان مامورين معتمدين لاجل تسليم وتسلم قلعة قلبرون مع الصحارى المصرحة في المادة الثامنة عشرة التى مر ذكرها والمعتمدون المذكورون يجرون تمام المادة المذكورة فى مدة شهرين من تاريخ مقابلتهم واجتماعهم يعنى ان المادة المذكورة تجرى بتمامها في مدة اربعة اشهر من تاريخ يوم امضاء هذه المعاهدة وان امكن ففى اقل من ذلك بدون تاخير يخبرون الصدر الاعظم والفلدمارشال عن اكمال ماموريتهم .

المادة السابعة والعشرون . لاجل زيادة تاكيد وتمهيد وتقوية لهذه المصالحة المباركة والموالاة والمصافات بين الدولتين يصير بعث وتسيير سفيرين كبيرين فوق العادة حاملين صكوك التصديق لهذه المصالحة الخيرية ويكون ذلك في الوقت الذي يتعين برضاء الطرفين فيتقابل السفيران في رأس الحدد بمعاملة متماثلة ويراعى بحق السفيرين المومـا اليهما الرسم المعتاد المرعى بحق سفراء دول اروپا الاوفر اعتباراً لدى دولتى العلية وترسل هدايا بواسطة السفيرين الموما اليهما لائقة بشان دولتيهما ليكون ذلك دليلا على صفاء الجهتين .

المادة الثامنة والعشرون . بعد امضاء مواد هذه المصالحة المؤبدة من معتمدي دولتى العلية وهما الموقع الرسمى احمد ورئيس الكتاب ابراهيم منيب دام مجدهما ومن مرخص دولة الروسيا البرنس رينين جنرال لفونتا ختمت عواقبه بالخير تصدر التنبيهات من جانب الصدر الاعظم والجنرال فلدمارشال الى جميع عساكر الدولتين الموجودة براً وبحراً في كل جهة لمنع كل نوع من معاملة خصامية بينهم ويرسل ايضاً في الحال من جانب الصدر الاعظم والجنرال فلدمارشال معاونين الى اساطيلهم الموجودة في البحر الابيض والبحر الاسود وتجاه بلاد القرم والى جميع المواقع الحربية لمنع العدوان واسباب القتال في كل محل بعد انعقاد المصالحة . والمعينان المرسلان من طرف الصدر الاعظم والجنرال فلدمارشال لابد ان يكونا بحسب التنبيهات مصانين ومامونين من كل وجه . واذا سبق وصول معاون روسيا الى سر عسكرها فالمؤما اليه يبعث الى سر عسكر دولتى العلية امر الصدر الاعظم الحاوي على التنبيه وان سبق

وصول معاون الصدر الاعظم يبعث سر عسكر الدولة العلية الى سر عسكر الروسيا امر الفلدمارشال الحاوي كذلك على التنبيه وبما ان الصدر الاعظم وفلدمارشال دولة روسيا بترو قونت رومانجوف قد فوض اليهما من طرفي الهمايوني ومن طرف امبراطورية روسيا المشار اليها امر تمهيد عقود وعهود عهدة الصلح المباركة المنعقدة فجميع مواد الصلح المؤبد المسطورة في العهدة المذكورة يصير امضاؤها من طرف الصدر الاعظم والفلدمارشال وختمها باختامهما للتصديق كما لو كانت جرت بحضورهما . والمواد المنعقدة التى تمهدت وصار الوعد بها تراعى مراعاة قوية بدون تغيير ولا تبديل وتجرى بالدقة بحسب منطوقها ولا يفعل شيء مخالف لها قطعاً . ويحرر في المواد المذكورة التى تقررت وجرى التصديق عليها من طرف الصدر الاعظم والفلدمارشال الموما اليهما سندان ممضيان بامضائهما ومختومان بختميهما احدهما وهو سند الصدر الاعظم يحرر بالتركية والايطاليانية وسند الفلدمارشال يكتب بالروسية والايطاليانية ايضاً وبمقتضى الرخصة المعطاة الى المرخصين من طرف الدولتين ينبغي ان يوصلوا الى الفلدمارشال السند الواحد باعتبار كونه صادراً من جانب دولتى العلية وبعد امضاء المواد بخمسة ايام وان امكن في مدة اقل من ذلك تجرى مبادلة السندات وحالما يسلم المرخصون سندات الصدر الاعظم ياخذون سندات الفلدمارشال القونت رومانجوف .

﴿ الخاتمة ﴾

ان ما جرى تجديده وتمهيده بحسب المواد المذكورة من الصلح والصلاح المبطل للحرب والكفاح يكون مقرراً ومعتبراً من بعد الان وبحسب ما اعتادت عليه سلطنتى من شيم الصداقة الكريمة ومن الوفاء بالعهود فاننا نجري العهد والميثاق والتصديق تماماً ونراعى حق الرعاية جميع ما وقع من قيود وشروط في الثماني والعشرين مادة المذكورة ونجري جميع عهود ومواثيق الصلح والصلاح وكذلك شرط المادتين المحررتين في نيشاني الهمايونيين اللذين صار اعطاؤهما ويكون ذلك مدة دوام واستمرار المواد التى صار تاييدها والتصديق عليها من مرخص دولة روسيا ومرخصنا بحيث انه لا يحصل فيها خلل ولا مخالفة من طرفها ولا من طرفنا السلطاني

الهمايوني ولا من طرف اخلافنا ووكلائنا ذوي المقام المتصفين بالانصاف والميرميرانيين اصحاب الاحتشام والامراء ذوي الاحترام وعموم عساكرنا المنصورة وكافة المتشرفين بشرف العبودية من صنوف الخدمة ٠

تمت

ذكرنا مادتين في خاتمة العهدة احداها تضمين المصاريف الحربية وذلك لان الدولة العلية كانت تعهدت بتادية خمسة عشر الف كيس للروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط وهو خمسة الاف كيس والمادة الثانية سرعة تخلية جزائر البحر الابيض تاييداً لما هو مذكور في المادة السابعة عشرة من العهدة المذكورة ٠ واسطولُ روسيا الموجود في البحر الابيض وان كان مشترطاً في المادة المذكورة انه يخرج في مدة ثلاثة اشهر فدولة روسيا قد تعهدت باخراجه قبل المدة المذكورة اذا امكن .

﴿ دفتر مصاريف ايالة البغدان في زمن بكوات الفنار ﴾

غروش	
٤٠٠٠٠٠	جزية
٦٠٠٠٠	هدية العيد
٢٥٠٠٠٠	هدايا خفية لدار السعادة
١٤٠٠٠	تقدمة لمقام الصدارة
٩٢٠٠	الى المامور المقيم من طرف خان القريم
١٦٠٠٠	تعيينات محافظ قلعة خوتين
٤٥٠٠٠	الى خان القريم
١٢٠٠٠٠	الى الباشاوات الذين ياتون بالمامورية الى جوار الايالة
٦٥٠٠٠	الى جماعة البك الذين ياتون لدار السعادة ويذهبون منها
٤٥٠٠	الى عيدية عساكر الاسلام الموجودة في ياش
٢٠٠٠	الى مستشفياتهم
١٢٠٠٠	آمدية للبك
٧٠٠٠٠	الى التاتاريين الذين يشتغلون في دار السعادة وفي سائر المحلات

١٠٠٠	مصارف قرطاسية كتاب البك في التركية والروسية
٢٦٠٠٠	لتعميرات ومفروشات القصر
٤٠٠٠	لاجل ملابس خدام القصر
٤٠٠٠٠	مصاريف المطبخ وغيرها
٣٠٠٠٠	بخشيش عيد الفصح لجماعة القصر
٣٠٠٠٠	للخوارنة ومصارف الكنيسة
٣٢٠٠٠	مصاريف عسكر السكبان الموجودين في خدمة البك
٢٠٠٠٠	مصاريف التفكجية الارناووط
١٥٠٠٠	مترخانه (محل الموسيقى)
٣٨٠٠٠	ثمن يشحق (نقاب) لزوجة البك وسائر مصارفها
١٤١٣٧٠٠	

الغرش في ذلك التاريخ يبلغ الان بحساب الصاغ احد عشر غرشاً فلذلك يكون المبلغ المذكور في زماننا هذا عبارة عن ثلاثين الف كيس وكسور هو كما لا يخفى ثقيل جداً وبالقياس على هذا يعلم حال الافلاق

تم بتيسيره تعالى طبع ترجمة الجزء الاول
من تاريخ جودة ويليه
الجزء الثاني
م





Tārīkh



